عالم الفكر

المجلد العاشر - العدد الثالث - اكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٩

عدد خاص

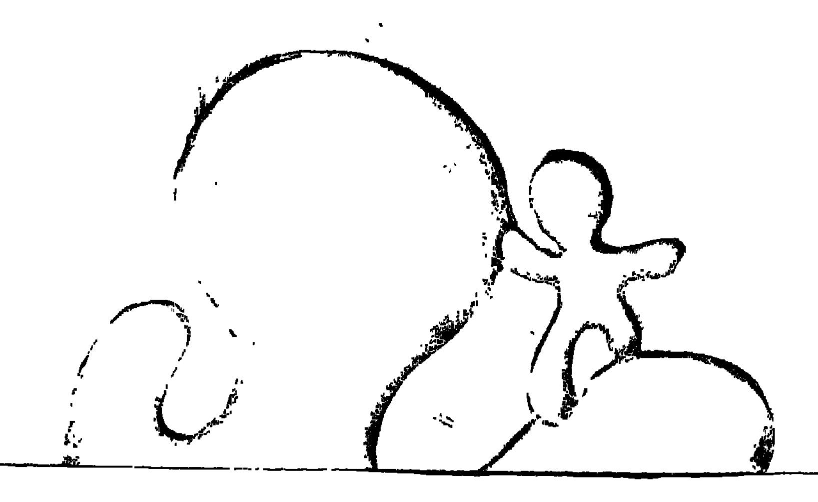
ثقافة الطفل

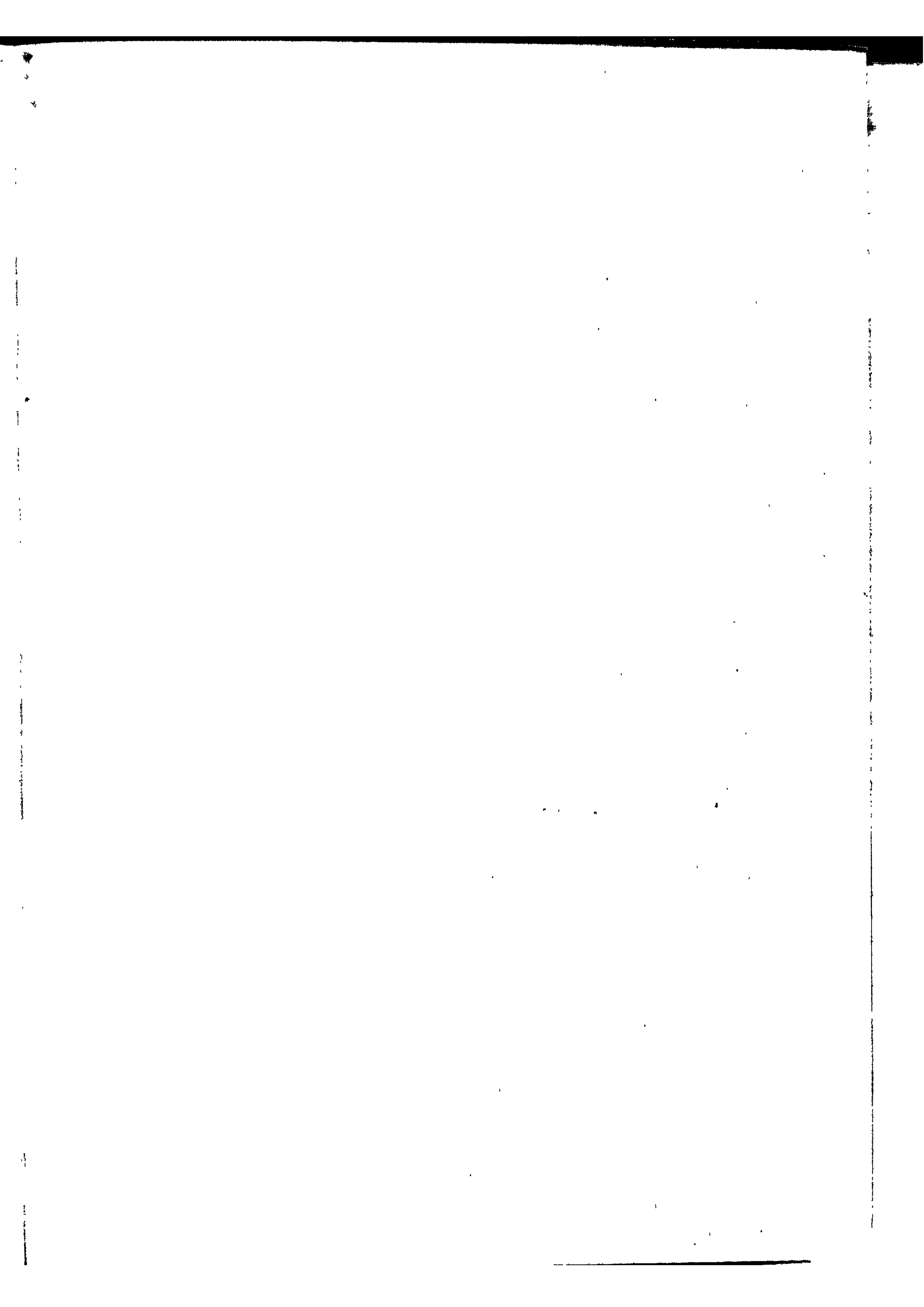
الأطفال واللعب

صحة الجنين والوليد

تنشيط نمو الأطفال

الطفل فى التراث الشعبى





٦٢٥ 45

عالم الفكر

رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة اشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * اكتوبر – نوفمبر – ديسمبر – ١٩٧٩
المراسلات باسم: الوكيل المساعد للشئون الفنية – وزارة الاعلام – الكويت: ص . ب ١٩٣

المحتويات

الطفولة

• • •

شخصيات وآراء

• • •

مطالعات

• • •

من الشرق والغرب

• • •

صدر حديثا





الطفولة



«اسمى كويكوه وعمرى تسع سنين اناس كثيرون ينادوننى (ياولد) ولكنني اعيش وحدى ، انا ابيع (اللبان) فى ميدان أوردور فى ساعات السينما ، كثير من الاولاد والبنات يشترون منى قبل الدهاب للسينما .. لا اذهب للمدرسة لان ليس معى نقود .. امى ماتت اثناء ولادتى ولا احد يعرف من هو ابى ... احدى النساء ارضعتني اللبن حين كنت طفلا صغيرا ولكنني كبرت الان واشتغل .. انام بعد ان يتقدم الليل .. الساعة الثانيه صباحا واحيانا الساعه الثالثة .. ليس عندى بيت انام فيه .. انام فى محطة البنزين ، واشترى الاشياء التى يبيعونها على الطريق . الدنيا مليئة بالناس المرضى .. اتمنى ان تكون سنة ١٩٧٩ بدون حرب وبدون اطفال يولدون مثلى ... انا أقاسى كثيرا .. ليس عندى صابون ولا سكر ولا أشياء أخرى كثيرة جدا .. أتمنى من سنة ١٩٧٩ أن تجلب لى بيتا وتجلب للناس فى القرية الماء حتى يشربوا .. لاتاخذ صورتى اذ لا احب ان يرى الرجل الابيض قذارتى » .

(كويكو ــ طفل من اكرا ــ غانا)

فى اوائل هذا القرن ، وبالذات في عام ١٩١٢ كتبت ماريا منتسورى Maria Montessori التى كانت تعتبر من اكبر علماء التربية ليس فى ايطاليا وحدها بل وفى العالم اجمع تقول أن حرية الطفل يجب أن يسمح بها فى حدود مصلحة الجماعة لان هذا الشكل للحرية هو الذى يعتبر بحق مثال التربية الطيبة ، ومن هنا كان ينبغى علينا ان نوقف فى الطفل كل ما من شأنه ان يتسبب فى ايــذاء الاخرين أو ازعاجهم ، وكذلك كل ما قد عساه أن يدفعه الى العنف او السلوك غير المهـذب .. » وتتضمن هذه العبارة القصيره مبدأ عاما وهما يجدله صدى قويا لدى الجميع لانه يكفل للطفل التمتع بحريته وان كان فى الوقت ذاته يحدد هذه الحريه ويقيدها بمصلحة الجماعة التى ينتمــى الطفل اليها كما انه يعترف للطفل بحق (العمل) والانطلاق لكى يحقق ذاته ويهيىء له الفرصة كاملة للخلق والابداع ، وهى كلها عناصر هامة في تكوين الشخصية المتكاملة التي تستطيع التكيف والتلاؤم مع المجتمع .

فالهدف الاساسى للتربية الصحيحه اذن ــ فى راى ماريا منتسورى ــ كان هو تحقيق ذلك التوازن الحيوى بين الحرية والمسئولية ، بــين الابداع والانطلاق والابتكار مــن ناحية ، والنظام والالتزام من الناحية الاخرى حسب ماتقول بل موني Bel Moo ey فى كتابها الــذى صــدر منذ اسابيع قليلة فقط (اوائل يوليو ١٩٧٩) والذى تقدم فيه ، بمناسبة العام الدولى للطفل ، دراسة طريفة لاثنتى عشرة حالة لاطفال مختارين مــن انحاء مختلفة من بريطانيا ، وتكشف لنا فى هــذه الدراســة عن العناصــر السلوكيــة والتربويــة والاجتماعية التي تتدخل فى تكوينهم وتنشئتهم ، والى اى حد افلحت هــذه العناصر فى تحقيــق التوازن المنشود (انظر :

Bel Mooney: The year of the Child: Portraits of Brritish Children; Hutchinson, London 1979)

الا ان ماريا منتسورى تذهب فى حقيقه الامر الى ابعد من هذا بكثير اذ تقول : « اننا لا تدرك تماما ما قد ينجم من آثار ونتائج وخيمه اذا نحن خنقنا منذ البداية كل عمل تلقائي يمكن ان يصدر عن الطفل بمجرد ان يبدى الطفل رغبة او ميلا فى اداء ذلك العمل ، لاننا قد نخنق فيه بذلك الحياة ذاتها .. فالانسانية تكشف عن نفسها وعن كل مافيها من روعة ومن سمو عقلى فى تلك الســن المبكرة ، تماما مثلما تكشف الشمس عن نفسها وقت الفجر ، ومثلما الزهرة عن وجودها حين تظهر (بتلاتها Petals) المبكره .. ومن هنــا الحرية ويقيدها بمصلحة الجماعة التى ينتمــى والاجلال هذه العلاقات الاولى للكيان الفردى » .

كانت هذه الاراء تتردد اذن منــذ سبعــة وستين عاما وكانت تعتبر فى ذلك الحين اراء ثورية متمردة ، ولكننا اصبحنا نتقبلها الان ونسلم بهــا رغم ماقد يكون هناك من خلاف فى الرأى حــول افضل الطرق والاساليب التى يمكن بها التوفيق بين حرية الفرد ومصلحة الجماعة او بين الحريــة والمسئولية . وعلى الرغم من ان التسليم بان التربية الصحيحة ــ ان كان هناك مثل هذه التربية ــ تتمثل فى التوفيق والملاءمة بين هذين العنصرين الاساسيين فثمــة تفاوت كبير بــين المجتمعات المختلفــة و

توكيدها على احد الجانبين دون الاخر، بحيث نجد المجتمعات الحديثة فى الغرب مثلا تتيح قدرا اكبر من الحريـة الشخصيـة بحيث اصبحت تعرف عموما باسم مجتمعات الاباحة والتحرر Permissive Societies بينما تؤكد مجتمعات اخرى ضرورة اعلاء سلطة المجتمع واشرافـه وسيطرته على الفرد ، وتركز على ابراز مسئوليات الفرد نحو المجتمع ، وقد تبالغ فى ذلك بحيث يكاد المجتمع يخنق فرديـة الانسان وكيانه المستقل وشخصيته الذاتية . فكـان التوفيق بـين هاتين الناحيتين كما ارادت ماريا منتسورى ـ مسألة صعبة للغاية وتكشف عن مدى صعوبة عمليـة التربية ، فليست تربية الطفل فى آخر الامر سوى عملية تنشئة اجتماعيـة ، او تطبيع اجتماعى هدفها هو تحقيق ذلك التوازن بين الطفل وحاجات ورغبات ومصالح المجتمع الذى يعترف فى الوقت ذاته بفردية الطفل واستقلال شخصيته وكيانـا ووجوده .

والمعروف ان الكائن البشرى عاجز الى ابعد حدود العجز ، وانه يقطع خلال حياته طريقا طويلا شاقا ومليئا بالمواقف الجديدة والتغيرات المفاجئة التى يتعين عليه ان يكيف نفسه معهـا ويتعلم منها ويسخرها لصالحة الخاص . وليست التنشئه الاجتماعية او التطبيع الاجتماعى Social. Zalion فى جوهرها الا عملية تكيف مستمر مع هذه الظروف والاوضاع والمواقف، ومن هنا فانها لا ترتبط فى حقيقة الامر بسن معينة بالذات، ولاتقتصر على مرحلـة عمرية معينة ، وانمـا تستمر طيلة حياة الانسان ، وان كانت تختلف عناصرها ومكوناتها باختلاف المراحل والتجارب التى يمر بها الفرد والمواقف التى يجد نفسه فيها والتى يتبقى عليه ان يعدل من سلوكه ليتلاءم معها او يستجيب لها او يستغلها لصالحه . ومن هنا تعتبر التنشئة الاجتماعية او التطبيع الاجتماعى شيئـا اكبر واوسع واعمـق واشمل من مجرد التعليم الرسمى او التربية الرسمية المنهجيـة المنظمه ، التى يتلقاها الطفل فى المدرسة ، ثم بعد ذلك فى معاهد التعليم المختلفة . انها عملية تبدأ منذ اليوم الاول لولادة الطفل الذى يجد نفسـه منذ البداية فى مجتمع معين تميزه ثقافة معينة تتألف من عادات وتقاليد ونظم وعلاقات معينة ايضا ، فيخضع لتلك العادات والتقاليد ويدخل طرفا فى كثير من هذه النظم والعلاقات ، وتتعقد علاقاته وتتشابك وتتشعب بمرور الزمن . وهذه نقطة هامة فى عمليات التنشئة او التطبيع الاجتماعى انتبه اليها كل الذين درسوا الموضوع فى مجالات علم النفس والاجتماع والانثربولوجيا والتربية ، وبخاصة حين كانوا يعرضون لدراسـة الطابع القومى او الشخصية القومية ، كما ابرزها ـ وان يكن بدرجات مختلفة ـ كل الاساتذة الذين اسهموا بدراساتهم فى هذا العدد من المجلة ، والتى تناولوا فيها الطفولة ومقوماتها ومشكلاتها وتنشيط نموها .

ولكن هـذا لايعنى بالضرورة ان الاطفال الذين يولدون فى مجتمع معين وثقافـة معينة يصبون جميعـا فى قالب واحد بحيث يصبحون نسخا متشابهـة من نفس الاصل . فالتجارب والخبرات والظروف الاجتماعية والاقتصاديـة والعائلية تختلف من فرد لآخر مما يسمح بقيام الفوارق الفرديـة داخل المجتمع الواحد ، على الرغم من وجود خلفية واحدة واساس واحد

يشترك فيه جميع اطفال ذلك المجتمع . وهـذاالاساس هو الثقافة السائدة في المجتمع ، بـكل ماتعنيه كلمة (ثقافة) في الاستخدام الانثربولوجي. من الطبيعي ان يقوم الوالدان بالدور الاول في عملية التنشئة الاجتماعية ، مادامت هذه العمليةتبدأ بولاده الطفل ، ومادام الطفل يولد في اسرة معينة تكون بمثابــة المجتمع الاول ، او المجتمعالنواة ، الذي يتعين عليه ان يتكيف معه ويكتسب منه اولى المؤثرات التى تتدخل فى تشكيل حياتهوتطويع سلوكه الاجتماعى . فالوالدان يدفعان طفلهما ـ قصـدا او عن غير قصد ـ فى طريقمرسوم ، ويخضعانه لاساليب تربوية محددة ، تتضمن اتجاهات وافكارا وآراء ومعتقدات وقيماوانماطا سلوكية متعارف عليها ، اى انهما يوجهان عـن وعى او عن غير وعى منهما عملية التنشئـــةوجهات معينة منذ البداية، وان كان الفرد بطبيعة الحال يخضع فيما بعد لكثير من المؤثرات الاخرىالتى تأتى من الاشخاص الذين يحتك بهم (زملاء المدرسة وزملاء اللعب مثلا والمدرسين وزمـلاءالعمل وما الى ذلك)، او من البيئة الفيزيقية التى تحيط به سواء اكانت بيئة صحراوية او ريفية اوحضريـــة او صناعية ، او من وسائل الاعـلام كالتليفزيون والسينما والراديو وما اليها . وكلهذه المؤثرات لتشترك معا فى تشكيل شخصيته وتكوين عقليتــه ، وفى تحقيق ذلك التواؤم مـــعالجماعة وقيمها واهدافها وتراثها ، اى تطويـــع الفرد داخل انماط صاغتها ثقافة ذلك المجتمع علىمر العصور ، حسب مايقول تشايلد J. L, child فى كتابه الطريف (ايطالى او امريكى (Italian or American الذى نشره عـــام ١٩٣٤ والذى حاول أن يبين لنا فيه الى اى حد يعكسسلوك اطفال المهاجرين الايطاليين انماط الحياة الايطالية التقليدية ، والى اى حد يتلائم هـــذاالسلوك مع الحياة الامريكية ، وهل يعتبر هؤلاء الاطفال على هذا الاساس ايطاليين او امريكيين .وبقول آخر فان هذا الكتاب كان يحاول الوصول الى اجابــة عن التساؤل عن اين توجد ايطاليـــاكثقافة داخل كل طفل منهم ، واين توجد امريكا؟

وهذا كله يدل دلالة قاطعة على ان التنشئةالاجتماعية لاتسير فى اتجاه واحــد فقط ، وان الطفل يخضع لمؤثرات كثيرة ومعقدة ومتشعبة ،ولكنها تتضافر كلها فى اخر الامر فى اعـــداده لان يكون عضوا متكاملا مع غيره من اعضاء المجتمع ،وتحقيق ذلك التـــوازن الـــذى قالـــت به ماريـــا منتسوري بين حرية الفرد وانطلاقه وبـــين صالحالجماعة ، وانه مهما يكن من تأثير الوالدين المباشر على أولادهم فانه لايمكن الزعم بأن الطفل يمكنان يكون نسخة مطابقة تماما لاحد الوالديـــن . فكان التنشئة الاجتماعية تتألففى حقيقة الامـــرمن عمليتين مختلفتين ولكنهمامتكاملتان : الاولى هى عملية نقل الثقافة التى تسود فى المجتمع الىالطفل ، والثانية هى عملية التكيف الذى يقوم به الطفل ليتلاءم مع البيئة والمجتمع والثقافة التييعيش فيها.والعمليتان كلتاهماتستمران طيلةحياة الفرد ، وان كانت مكوناتها وعناصرها تختلفكماذكرنا بحسب الظروف وتبعا لتقدم الفرد فىالسن ومايكتسبه من خبرات . فليس من شـــك فى انالطفل يكون فى بداية الامر (سلبيا) ان صح هذا القول ، بحيث يستقبل كل التأثيرات الخارجيةالتى تعمل باستمرار وبغير انقطاع فى تشكيـــل شخصيته ، ثم لايلبث بمرور الزمن ان (يكـــونفكرة عن نفسه) أو يكتشف ذاته وبذلك يصبح

اقدر على المقارنة وعلى الاختيار بـين مختلف المواقف والامكانات .... وهذا عنصر اخر هـام فى تكوين الشخصيه وفى ابراز الاختلافات والفوارق بين اعضاء المجتمع الواحد . فقد تتضارب المعايير التى يتعرض لها الطفل كما هو الحال مثلا حـين تختلف معايير البيت والمدرسة والقيم التى تسود فى كل منهما ، وبذلك يواجه الطفل كثـيرا مـن المشكلات الصعبة حول اى النمطين مـن انماط القيم والمعايير يقبل وايهمـا يرفض ... وهـذا التضارب هو الذى يزيد تجارب الفرد منذ طفولته ويثريها ، وان كان يعطل فى كثير من الاحيان سير عملية التنشئة الاجتماعية ذاتها .

وربما كان هذا هو الموقف الذى يواجهه الطفل فى المجتمعات التي تتعرض للكثير من عوامل التغير السريع المفاجىء كما هو الحـال مثـلا فى المجتمعات العربية التي تمر فى الوقت الحالـى بمرحلة مـن اخطر مراحل تاريخها، حيث تغزوها كثير من الافكار والفلسفات والاتجاهات الحضاريه والثقافية الوافدة من الخارج ، فى الوقت الذى لايزال تأثير الثقافة التقليدية المتوارثة قويا للغاية، وبذلك يواجه الطفل منـذ سن مبكرة أوضاعا اجتماعية متضاربة بل ومتناقضة. وكثيرا ماتكون هذه الاوضاع جديدة حتى على الوالدين نفسهما اللذين يتوليان تنشئه الطفل وتوجيـه حياتـه وسلوكه ، بحيث يجد الوالدان نفسيهما عاجزين عن التعرف على افضل الاساليب والطرق للتوفيق بين هذه الثقافة التقليدية الراسخة والثقافات والتيارات الفكرية والاتجاهات السلوكية الجديدة الطارئة التى لايفهمها الاباء والامهات تماما ولايقرونها لانها على اقل تقدير ـ لم تكن جزءا مـن تكوينهما النفسى والعقلى والاجتماعى ، كما لـم تكن عنصرا من عناصر تنشئتهم وتربيتهم واعدادهم للحيـاة ... وربما كان هـذا هو السبب فى آن الكثيرين من علماء النفس والاجتماع والانتربولوجيا ممن يهتمون بدراسات الطفولة وعمليات التنشئه الاجتماعيـة يقفون فى صف اساليب التعليـم التقليدية فى المدارس الابتدائية ، ويدافعون عنها علـى اساس ان تلك كانت هى الاساليب التـى خضع لهـا الآباء والامهات حين كانوا اطفالا ، وبـذلك فلن يكون ثمة تعارض بين تأثير البيت وتأثير المدرسة على الاطفال ، وهو الامر الذى لن يتحقق بسهولة فى حالة اتباع المدرسة لأساليب التعليم الحديثة او غير التقليدية التى لم يالفها الآباء بعد ، او التى ليس لهم بها علم او دراية ... ويجب الا يؤخذ هذا الكلام على انه هجوم على اساليب التعليم الحديثة او محاولة للتهوين من شأنها وفاعليتها .

وهذه على اية حال مسالة خارجة عن نطاق هذا الحديث ، وكل مايهمنا هنا هو ان نؤكد ان افضل اساليب التنشئة الاجتماعية داخل نطاق الاسرة هى تلك التى لاتؤدى ـ ماامكن ذلك ـ الى شعور الطفل باية ضغوط حين يواجه المواقف الاجتماعية المختلفة ، وهى الضغوط والتوترات التى كثيرا ماتدفع الى الانحراف والى الجنوح .

والشائع هو ان الام تلعب الدور الرئيسى فى تنشئة الطفل وفى عملية التطبيع الاجتماعى كنتيجة طبيعية لارتباط الطفل بها فى السنوات المبكرة من حياته ، اكثر من ارتباطه بالاب وتأثره به . ويتمثل

هذا بوجه خاص فى المجتمعات التقليديـة التـى تقف فيها المراة حياتها وجهودها علـى شئـون البيت والاسرة ورعاية الاطفـال دون ان تمارس عملا فى الخارج . ولكن يبدو ان هذا الموقف اخـذ فى التغير بسرعة نتيجة خروج الام للعمل خارج البيت وانتشار حركات « التحرر النسائي » فى الغرب على الخصوص ، حيث ترتفع الاصـوات بضرورة اشراك الاب فى تربية الطفل ورعايته منذ الولادة ، على اعتبار ان التربية هـي مسئولية الوالدين معا وليست عملا متخصصا وقاصرا على الام . والواقع انه حتى بدون هذه الدعوة وبدون قيام هذه (الحركات التحررية) فان الاب يلعب وفى كل المجتمعات فى تنشئة الطفل منذ الصغر دورا اكبر مما يظن في العـادة ، وان كانـت الام تمضى بحكم طبيعة الاشياء وواقع الامور فترات من الوقت مع الطفل اطول من تلك التى يمضيها الاب ، ولذا كان تاثيرها اوضح واعمق فى السنوات المبكرة ، كما انه يترك بعض البصمات على شخصية الطفل خلال بقية حياته . . . ومن هنا كان انفصال الطفل عن الام او ابعـاده عنها ـ وبخاصـة فى السنوات الخمس الاولى مـن حياته ، يعتبر فى نظر الكثير من اقسى الاجراءات التى يمكـن ان يتعرض لها الفرد فى حياته . وربما كانت هـذه هى الحكمة من وراء منح حق الحضانـة للام فى السنوات الاولى للطفولة ، وحتى سن معينة ، لما لهذه العلاقة بين الام والطفل من اثر على التوازن النفسى والاجتماعى لدى الطفل . . . وصحيح ان هناك مجتمعات تفصل الاطفال عن امهاتهم وهم لايزالون فى سن صغيرة نسبيا ويوكل امرهـم الى اشخاص آخرين من اعضاء المجتمع الذكور لكى يتولوا تربيتهم والاشراف عليهم وتاهيلهم للحياة الاجتماعية ، كمـا هو الحـال فى بعض المجتمعات القبلية في افريقيا وبخاصة تلك التى تعرف نظام طبقات العمر الـذى يهيىء الافراد للقيام بادوار معينة يحددها لهم المجتمع . ولكن هذا يحدث عادة بعد ان يتخطى الطفل المراحـل المبكرة من طفولته ، ويكون أقرب الى مرحلـة البلوغ ، كما ان النظام كله يهدف فى آخر الامر الى ادماج الفرد فى المجتمع الكبير ككل ، وتحديـد مركز اجتماعى له . اى ان للنظام وظيفة مكملة لوظيفة الاسرة والبيت فى التنشئة الاجتماعية ، وهى اشبه بوظيفة المدرسة اوحتى مراكز التدريب والتاهيل فى المجتمعات الاكثر تقدما . وزيادة على ذلك فان هذا النظام يؤدى الى خلق علاقات اجتماعية واسعة بين الاطفال الذين يمرون معا بهذه الشعائر بحيث تقوم بينهم مايمكن تسمينه بالقرابة الاجتماعية التى تفرض عليهم التزامات وواجبات تماثل تلـك التى تقوم بـين الاقـارب الحقيقيين . وهذا نمط من التنشئة يتلاءم تماما مع الظروف البيئية والاجتماعيـة والاقتصادية التـى تعيش فيها تلك الجماعـات والقبائـل فى الغابات ، والتى تحتاج الى درجة عالية من التكافل الاجتماعى . وهذا النظام يشبه ، الى حد ما على الاقل ، مايحدث فى كثير من المجتمعات التقليدية التى تسود فيها العائلات الكبيرة الحجم ، فهناك يخرج الطفل ليجد نفسه محاطا باعداد كبيرة من الاشخاص البالغين والذين يكبرونه سنا من كـلا الجنسين ، والذين يسهمون جميعا بشكل اوباخر فى تنشئته وتوجيهه واعداده للحياة ، وبذلك لاتكون التنشئة عملا قاصرا على الوالدين وحدهما . وهذا يساعد من ناحية على تحرر شخصية الطفل واستقلالها عن شخصية الابوين ، ولكن من الناحية الاخرى كثيرا ما ينشأ عن هـذا الاسلـوب مـن التنشئة بعض المشكلات اذا تعرض الطفل لتاثيرات

وتوجيهات عديدة متضاربة من اشخاص لهم قيم وانماط سلوكية وافكار واتجاهات متعارضة .. وهذا يذكرنا بمـا سبق ان قلناه عن تصارع القيم والانماط السلوكية بين البيت والمدرسة واثره في حياة الطفل .

وايا ما تكون العوامل التى تتدخل فى عملية تنشئة الطفل والصعوبات التى تتعرض لها هذه العملية وعدم اتفاق العلماء على خـير الوسائل والاساليب التي يمكن اتباعها فى ذلك واختلاف المجتمعات بعضها عن بعض فى نظرتها الى الطفل واسلوب تربيته وتنشئته والتوقعات التى تنتظرها هذه المجتمعات مـن اطفالهـا حـين يكبرون ، فالظاهر ان العملية اصبحت الان اكثـر تعقيـدا

ان التلفزيون قلما يعمل بمعزل عن غيره من وسائل والاجهزة الرسمية وغير الرسمية التى تضطلـع الان بجانب هام ومؤثر فى تنشئة الاطفال كانـت تقوم به الاسرة والمدرسة قبل ذلك . وتقوم وسائل الاتصال والاعلام المختلفة بدور هام فى ذلك . ولم يعد التليفزيون بالذات مجرد وسيلة للتسلية ، وانما أصبح اداة هامة من ادوات التعليم والتربية والتوجية ، وبالتالى اداة فعالـة فى التنشئة ـ الاجتماعية والتطبيع الاجتماعى ، خاصـه وان الاطفال فى كل المجتمعات يميلون الـى الجلـوس لاوقات طويلة امام اجهزة التليفزيون ، وبذلك فانهم يقلدون فى سلوكهم اليومى مايشاهدونـه فى البرامج المختلفة . وكثير من الكتاب والمفكرين يعزون انتشار الجريمة والعنف والتحرر فى السلوك الجنسى الذى يسود فى المجتمعات الغربية وبخاصة أمريكا الى البرامج التليفزيونية التى تميل الى ابراز هذه الجوانب وتدور حولها . انما الذى يهم هنا فى الدرجة الاولى هو ان وسائل الاعلام الجماهيرى تحقق ذيوع وانتشار ورسـوخ انماط سلوكيـة موحدة ، وتعمل على تقريب الاتجاهات والمواقف والقيم فى المجتمع ، وهذه مسألة لها اهميتها بغير شك لانها تقلل من التناقض والتضارب داخل المجتمع الواحد . وهنا ايضا يكون مـن الخطـأ الاعتقاد ان دور الاطفال امام وسائل الاعلام بمـا فيها التليفزيون دور سلبى بحت ، وانهم يتقبلون كل مايشاهدونه امامهم بطريقة واحدة ، فالواقع ان استجابات الاطفال تتفاوت ، ولذا فان عملية تكيف الاطفال مع البرامج التى تقدم لهم تجد فى الوقت الحالى كثيرا من عنايه واهتمام علماء النفس والتربيه . وكما يقول جيمس هالوران مدير مركز بحوث الاتصالات الجماهيرية بجامعة ليستر بانجلترا : «ان التلفزيون قلما يعمل بمعزل عن غيره من وسائل الاتصال ... ثم ان الاطفال بالاضافه الى الفروق الاسياسية فى تكوينهم ينشأون فى ظروف مختلفة ، ويرون أشخاصا مختلفين ، ويكتسبون تجارب مختلفة ، تتاح لهم فرص متعددة ، ولذلك فانهم عندما يتشاهدون التليفزيون يحكمون عليه بالمعايير التى اكتسبوها من مجموعة التجارب الماضيـة والعلاقات الحاضرة والامال المستقبلة . ومـن هنا لم تكن القضية هى مايفعله التليفزيون بالاطفال ولكن هى ماذا يفعل الاطفال بالمـادة التي يعرضها التليفزيون عليهم . (انظر مقال هالوران عـن . آثار التليفزيون على الاطفال ، الذى نشر فى مجلة **رسالة اليونسكو**

●●●

ولقد اعلنت الامم المتحدة عام ١٩٧٩ عاما دوليا للطفل ، وذلك بقصد تحسين ظروف الحياة لاطفال العالم . وكما جاء فى أحد النداءات التى وجهتها الامم المتحدة حول هذا الموضوع فان هذا العام

سوف يشمل جميع الاطفال ولكن مع التوكيدبوجه خاص ــ وهو توكيد له ما يبرره ــ على الاطفال المحرومين من الحب ومن الطعام ومن الصحه والمأوى ، ومن التعليم نتيجه لظروف خاصة حرمتهم من اشباع هذه الاحتياجات ، او الاصح التمتع بهذه الحقوق الطبيعية للطفل . ولم يكن من مخططات هذا العام عقد اى مؤتمرات دولية او انشاء اية منظمات جديدة ، وانما هو عام يقوم ويرتكز فى المقام الاول على الجهود الذاتية التى تبذلها الحكومات والمؤسسات والافراد والهيئات العلمية فى مختلف الدول ، لدراسة مشكلات الاطفال بها ووضع خطط لمشروعات تتصل بتحقيق تلك المطالب وتمكين الطفل من التمتع بتلك الحقوق . ولقد حرصت الامم المتحدة فى الوقت ذاته على ان يؤخذ فى الاعتبار راى الاطفال انفسهم فى المجتمعات التى يعيشون فيها وتصوراتهم ومطالبهم وحقوقهم . وهذا اتجاه جديد فى معالجة مشكلات الطفل والطفولة. فلقد درج الباحثون من قبل على الاكتفاء باستطلاع آراء الوالدين والكبار والبالغين بوجه عام باعتبارهم المسئولين عن تربية الاطفال وتعليمهم وتنشئتهم وتطبيعهم اجتماعيا ، دون ان يعطوا للطفل ذاته اية اهمية ، على الرغم من ان هذه الدراسات تدور حوله وسوف تؤثر نتائجها فى حياته ، وعلى الرغم من ان معرفة راى الطفل قد تكون مفتاحا لفهم كثير من المشكلات التى قد تدق على افهام الكبار .

ازاء ذلك ، وضعت منظمة اليونسكو قائمة قصيرة من الاسئلة الطريفة (عشرة اسئلة) اقترحت توجيهها الى اطفال العالم عسى ان تؤدى المعلومات التى تجمع عن طريقها الى الوصول الى فهم اعمق لمشكلات الطفل والطفولة . وسوف نرى كيف ان هذه الاسئلة تتعمد استثارة تفكير الطفل فى نفسه ووالديه والاوضاع الاجتماعية السائدة فى مجتمعه وتتيح له فرصة لتقويم هذا : ــ

١ ــ هل تعتقد أنه ينبغى على الوالدين مناقشة المشكلات العائلية مع اطفالهما ؟

٢ ــ ماهى السن التى يجب ان يكون عليها الاطفال حتى يمكن للوالدين مناقشة المشكلات الجنسيه معهم ؟

٣ ــ هل يتحمل الاطفال مسئوليات كافية ؟

٤ ــ هل ستعامل اطفالك بطريقة تختلف عن الطريقة التى عوملت انت بها ؟

٥ ــ هل تعتقد انه يجب معاملة البنات بالطريقة نفسها التى يعامل بها الاولاد ؟

٦ ــ هل تريد ان تحيا حياة تختلف عن حياة والديك ؟

٧ ــ هل يعامل البالغون الاطفال دائما معاملة طيبة وعادلة ؟

٨ هل يخيفك الكبار ؟

٩ ــ هل تعتقد انه يجب اعطاء الاطفال فرصة اكبر لاتخاذ القرارات ؟

١٠ ــ هل تعقد ان الكبار يعرفون كيف يتصرفون مع الاطفال وكيف يعاملونهم ؟

ولقد حصلت اليونسكـو علـى كثير مـن المعلومات الطريفة التى لايخلو بعضها من كثير من العمق والفهم والسخرية حين وجهت هذه الاسئلة الى (عينة) مختاره من اطفال العالم . مثـال ذلك ان طفلا كنديا يبلغ من العمر احـدى عشرة سنة يجيب على السؤال التاسع : هل تعتقـد انه يجب اعطاء الاطفال فرصة اكبر لاتخاذ القرارات بقوله : نعم ، ان الكبار يعتقدون انهم الوحيدون الذين يستطيعون اتخاذ قرارات تتعلق بالاطفال ، حتى فى الحالات التى يجب أن يكون القرار هو قرار الطفل نفسه . فقد يقولون مثلا : انني اشعـر بالبرد ولذا فمن الافضل ان ترتدى سترتـك ، دون ان يهتموا بسؤال الطفل اذا كان يشعر بالبرد ام لا، وانما هم يفترضون ان الطفل لا بد وأن يشعر بالبرد لانهم هم انفسهم يشعرون به « . وقد اجاب على السؤال العاشر » هل تعتقد ان الكبار يعرفون كيف يتصرفون مع الاطفال وكيف يعاملونهم ؟ بقوله: ــ « اننى لا احب ان ارى شخصا كبيرا ينحنى فوقى ويقرص خدى ويقول لى كيف سارت الامور فى المدرسة اليوم ؟ هل تصرفت كولد طيب ؟ . . . وكثير من الكبار لايحبون أن يجلسوا مع الصغار لانهم يعتقدون ان الصغار يثيرون كثيرا من الضجة والصخب ، ولكنهم كثيرا ما ينسون انهم هـم انفسهم كانون يفعلون الشيء نفسه حـين كانـوا صغارا . فالكبار يعتقدون ان ما يفعلونه هو اهم شيء فى الوجود . وقد يكون ذلك صحيحا بالنسبة لهم . ولكن حين يثير الصغار الضجة وحين يلعبون فان هذا يعتبر ايضا امرا مهما بالنسبة لهم (اى للصغار ولا يقل اهمية عما يفعله الكبار . وكثير من الكبار لا يعرفون كيف يتكلمون مـع الصغـار ، ويعتقدون ان الصغار متشابهون سواء كان عمرهم احدى عشرة سنة او خمس سنوات . ان ذلك يشبه ان يتفرس الناس فى (الاقزام الصغيرة) ويتعجبون منها لالشيء الا لانهم اعتادوا علـى رؤية الاجسام الطبيعية التى لها ذراعان وساقان ولها حجم طبيعى . فالصغار اشبه بهذه الاقزام الصغيرة فى نظر الكبار . انهم اقزام مضحكة لانهم صغار الجسم . والكبار لايعرفون كيف يتصلون بهم لانهم غرباء عنهم تماما . الطفل فى نظرهم شيء مختلف وغير مألوف .. شيء اشبه بالزنوج أو الناس الفقراء جدا ــ .

وتجيب فتاة سويدية فى العاشرة من عمرها عن السؤال السابع ــ هل يعامل البالغون الاطفال دائما معاملة طيبة وعادلة ــ بقولهـا : « فى بعض الاحيان تثور امى عليّ حين تعود الى البيت مـن العمل ، واشعر انها ثائرة بسبب شيء ما فى العمل نفسه، ولكنها تغضب عليّ انا بدلا من ان تثور على العمل ــ ومن ناحية اخرى تجيب فتاة بريطانية فى العاشرة من عمرها ايضا على السؤال الخامس ــ هل تعتقد انه يجب معامله البنات بالطريقه نفسها التى يعامل بها الاولاد ؟ » بقولها : نعم ، فانـا مثلا لا احب اللعب بالرمى وحين أحصل مثلا على جهاز لتجفيف شعر الدمية فان ما احب ان افعله هو ان انزع الغطاء عنه وأنزع البطاريات وكل ماشابه ذلك . اننى اعتقد ان الاختلاف الحقيقى الوحيد بين البنات والصبيان هو ان الصبيان اقل اتزانا »

وتكفى هذه الامثله التى اخترناهـا مـن مجموعة كبيرة من الاجابات على الاسئله العشرة السابقة لتبيين كيف يفكر الاطفال وكيف ينظرون الى مشاكلهم والى مكانتهم بالنسبة للكبار ، وكيف

يحكمون على سلوك هــؤلاء الكبار وتصرفاتهــم ويقومونها . والمفارقة الطريفة هنا هى ان التعرف على آراء الصغار قد يساعد الكبار الراشدين على فهم انفسهم ، على ان ينظروا الى انفسهم بعيون هؤلاء الصغار ، وقد يوحى اليهم ذلك بمراجعة تصرفاتهم وسلوكهم ازاء اطفالهم ، وان يوجهوا عملية التنشئة بالتالى وجهة تتفق مع الاحتياجات الحقيقية للاطفال كما يعبر عنها هــؤلاء الاطفال انفسهم . لقد عبر كويكو ــ وهو الطفل الغانى الصغير ابن التاسعة ــ عن هذه الامال والاحتياجات وعن رايه فى المجتمع الذى يعيش فيه ، وعن نظرته الى نفسه ، وبخاصة ازاء الرجــل الابيض في تلــك العبارات العميقة المؤثرة التى استشهدنا بها فى مطلع هذا الحديث . . . وهذه الامال والتطلعــات والاحتياجات ذاتها يعبر عنها ــ ولكن باسلوب اخر وطريقة اخرى وان كانت تؤدى الى الهدف ذاته ، ابن اخر من أبناء افريقيا وهو **احمد مختار امبو** ، المدير العام لليونسكو ، حيث يقول بمناسبة العام الدولى للطفل (١٩٧٩) : ــ

«من الحقائق التى تتردد على السنة الناس كثيرا ان الاطفال هم امل العالم ، فلنتاكد خلال العام الدولى للطفل ، وفى كل عام يليه ان اطفال العالــم يعلمون اننــا ، معشر الراشدين ، نهتم بسعادتهم ونعمــل مــن اجلها . ولتكن جهود هــذا العام عونا لنــا على ان نفهم الاطفال بطريقة افضل ، وان نذكر حين نعاملهم اننا كنا اطفالا مثلهم ، وبهذا يمكننا ان نتجنب الآلام التى يعانيها العديد من الاطفال فى العديد من الدول . واود لو استطعنا ــ عندما ينتهــى العــام الدولى للطفل ــ ان نعتقد ان روح الاخــاء والوحدة فى العالم قد اصبحت اشد قوة بفضل ما احرزناه من فهم للاطفال ، وبفضل روح التسامح التى غرسناها فى نفوسهم» .

احمد ابو زيد

اعلان حقوق الطفل

١ ـ يتمتع الطفل بكل الحقوق المذكورةفى هذا الاعلان . ويمنح هذه الحقوق كـل الأطفال دون اى استثناء ، أو تفرقة أو تمييزبسبب الجنس او اللون او النوع او اللغة او الدين او الرأى السياسي او غيره ، أو الاصل القومي او الاجتماعى او الملكيـة او المولد او أية حالة اخرى له أو لأسرته .

٢ ـ يتمتع الطفل بحماية خاصة ، ويمنحعن طريق القانون وغيره من الوسائل الفرص والتسهيلات التى تتيح له أن ينمو جسمياوعقليا وخلقيا وروحيا واجتماعيانموا صحيحا وسويا ، وفى ظل الحرية والكرامة . ويراعىعند سن القوانين اللازمة لهذا الغرض ان يكون لافضل مصالح الطفل اكبر اعتبار .

٣ ـ للطفل عند مولده الحق فى اسم وجنسيـة .

٤ ـ يتمتع الطفل بمزايا الأمن الاجتماعى، وله الحق فى أن ينمو ويشب فى صحة جيدة ، ويجب من اجل هذا ان يحاط هو وأمـهبرعاية وحماية خاصتين ، بما فى ذلك الرعاية المناسبـة قبل الولادة وبعدهـا . وللطفلالحق فيما يناسبه من غذاء ومسكن وتسلية وخدمات طبية .

٥ ـ يعطى الطفل المعوق جسميـا اوعقليا او اجتماعيا المعالجة والتربية والرعاية اللازمة تبعا لحالته الخاصة .

٦ ـ يحتاج الطفل مـن اجـل نمـوشخصيته ، نموا كاملا متناسقا ، الى التفهم ويجب ، كلما أمكن ، ان ينمو فى رعاية وتحتمسئولية ابويه ، وعلى أية حال ، فى جو من العطف والأمن المعنوى والمادى . ولا يجوز ،فيما عدا الحالات الاستثنائية ان يفصل طفل صغير السن عن أمه . ومن واجب المجتمعوالسلطات العامة ان تشمل بالرعاية الخاصة الأطفال الذين لا أسرة لهم ، والاطفال الذينلايملكون موارد كافية للمعيشة . ومن المرغوب فيه ان تنفق الدولة وتبذل المعونات اللازمةلاعالة الاطفال فى الأسر العديدة الافراد .

٧ ـ من حق الطفل ان يتلقى تعليمـامجانيا واجباريا ، على الاقل فى المراحل الاولى . ويجب ان يعطى تعليما يرقى بثقافته العامة، ويساعده على اساس من الفرص المتكافئة ان ينمىقدراته ومداركه واحساسه بالمسئوليةالادبية والاجتماعية ، ويصبح عضوا نافعا فى المجتمع .

ويجب ان يستهدف المسئولون عن تعليم الطفل وارشاده تحقيق افضل مصالح الطفل وتقع هذه المسئولية اولا وقبل كل شيء على كاهل ابويه .

ويجب أن يتاح للطفل الفرصة الكاملة للعب والتسلية اللذين يجب ان يوجها الى نفس الأغراض التى يتبناها التعليم ، وعلى المجتمع والسلطات العامة ان تعمل جاهدة على تعزيز تمتع الطفل بهذا الحق .

٨ ــ يجب ان يكون الطفل فى جميع الظروف أول من يتلقى الحماية والمعونة .

٩ ــ يجب حماية الطفل من كل أشكال الاهمال والقسوة والاستغلال ، ولايجوز ان يكون موضوعا للمتاجرة بأى شكل من اشكالها ، ولايجوز السماح بتشغيله قبل ان يبلغ حدا أدنى من العمر ، ولايجوز بأية حال حمله او السماح له بأن يتولى عملا او وظيفة تضر بصحته او تعليمه ، او تعيق نموه الجسمى اوالعقلى او الخلقى .

١٠ ــ يجب حماية الطفل من ممارسة الاعمال التى من شأنها ان تعزز التمييز العنصرى او الدينى او سائر انواع التمييز ، ويجب ان يربى بروح التفاهم والتسامح والصداقة بين الناس ، والسلام ، والاخوة الشاملة والادراك التام بأن يكرس طاقته ومواهبه لخدمة اقرانه .

اقر الاعلان الجمعية العامة للامم المتحدة فى ٢٠ من نوفمبر ١٩٥٩ ، واستنسخه لرسالة اليونسكو دافيد برابين ، الذى يبلغ من العمر سبع سنوات .

★★★

محمد الجوهرى

الطفل فى التراث الشعبى

يحتفل التراث الشعبى في كل مجتمعـات العالم بالطفل احتفالا خاصا ، ولاعجب فى هذا . فالطفل هو « بداية » الحياة ، وهو ـ فى ميلاده وفطامه ونموه ـ رمز حى متجدد لتجدد هذه الحياة. وينسج التراث الشعبى حول حمله وميـلاده وحمايته آلاف الممارسات والمعتقدات . وينعكس بعضها فى كثير من العناصر الفنية الشعبية مادية وغير مادية ، مما سنلمس بعضه بوضوح أكثر فيما بعد . والطفل والالعاب الشعبية يمثلان رابطـة بديهية قريبة لكل ذهن ، كذلك الطفل والغناء .. الخ . ولذلك لانبالغ اذا قلنا ان دراسة الطفل فى التراث الشعبى لأى مجتمع انما تمثل عرضا لقطاع مستعرض فى ثقافة هذا المجتمع ، وسنطوف اثناء ذلك بكافة اقسام هذا التراث من حيث أن الطفل فى كل قسم منها يشكل حجر زاوية ومصدر الهام وبؤرة اهتمام .

وقد سبق لنا أن طورنا تصنيفـا رباعـيا لعناصر التراث الشعبى ، راينا وقتها انه يفـى بالغرض من شمول الرؤية وتعميق النظرة الـى التراث الشعبي .

وقد قسمنا التراث الشعبى الى اربعة اقسـام رئيسية هى :ـ

١ ـ المعتقدات والمعارف الشعبية

٢ ـ العادات والتقاليد الشعبية

٣ ـ الادب الشعبى

٤ ـ الثقافة المادية والفنون الشعبية (١)

ولما كانت دراسة الطفل في التراث الشعبى هى تطويف عبر التراث كله ، فقنا سنتخذ من هذا التصنيف مرشدا وموجها لنا فى جولتنا آخذين فى الاعتبار ان هذه التقسيمات انما هى حدود نظرية وهمية نفرضها على المادة الحيــة ، بغرض تيسير الدراسة وتجزيء المعالجة، وهو امر تحتمه طبيعة التناول العلمى . أما المادة الحية المحفوظة فى صدور الناس وفى سلوكهم وفى أشيائهم المصنوعة فتتداخل فيها هذه الاقسام تداخلا طبيعيا .

وسيلاحظ القارىء ، فضلا عن هذا ، أن هناك بعض المراحل فى حياة الطفل لا نستطيع ان نتناوله فيها بعيدا عن أمه . فهو يظل مرتبطا بأمه في مرحلة الحمل ، وفى الولادة والرضاع ... الخ . فالكلام عن كل تلك الموضوعات هو كلام عن الام والطفل معا او هو كلام عن الطفل من خلال الام . واقصد بذلك أن أجسد مدى تلاحم العلاقة وقوتها فى تلك المرحلة (٢)

وتدخل تلك العلاقة الوثيقــة فى مرحلــة حاسمه ، كما انها تتعرض لاول تجربة قويــة فى عملية الفطام . فالفطام هو أولى خطوات الطفل على طريق الاستقلال بكيانه ووجوده الفيزيقى . كما انه فى نفس الوقت بداية الاستقلال النفسي . فهو اذن مرحلة حاسمة وهامة فى حياة الام والطفل معا ، ولكن اذا أردنا الدقة فهي أكثر اهمية وابعد دلالة بالنسبة للطفل عنها بالنسبة للام . فهذه ليست فى العادة اول تجربة للام فى الانفصال الجسدى عن طفلها . ربما تكون قد مرت مرارا بتلك التجربة ، وان لم تكن قد فعلت ، فالارجح انها ستمر بهــا مرارا بعد ذلك ، اما الطفل فهى تجربة يتيمة فى حياته . ومن هنا قلنا ان تجربة الفطام بالنسبة له ابعد دلالة وأخطر وزنا .

وتظل الام على أى حال مرتبطة بعلاقة خاصة مع أولادها ، ربما اكثر من أى مصدر اجتماعى اخر (وان كانت قوة هذه الرابطة تشتد بالنسبة للبنات عنها بالنسبــة للاولاد) . فــالام فى مجتمعاتنا التقليدية كانت حتى عهد قريب لاتعمل ، ومــازالت أغلب الامهات بعيدات عن ســوق العمــل خارج البيت . ولم تكن أمام تلــك الام وســائــل اتصال او تسلية عامه ، ولم يكن التعليم منتشرا بقدر يذكر . ونتيجة كل هذا بقاء الام مع أولادها الفترة الاكبر من طفولتهم المبكرة ، وقبل خروج

---

(١) ـ ناقشنا كافة التقسيمات السابقة ـ العالمية والمحلية ـ وعرضنا لعناصر القوة والضعف في كل منها ، وانتهينا الى هذا التقسيم الذى يأخذ فى اعتباره تطــور البحث الفولكلورى على المستوى العالمى ومراعاة الواقع المحلى لبلادنا ، انظر محمد الجوهرى ، علم الفولكلور . الجــزء الاول ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٨ ، الفصل الثالث ، ص ص ٥٣ ـ ٥٨ .

(٢) بلغ من عمق التصور الشعبي لقوة هذه العلاقة ان الام الحامل ـ كما ترى بعض المجتمعات ـ تربطها علاقة خاصة مع الجنين الذي فى بطنها : تعرف ان تضايق وتعرف ان فرح ، وتحس به فى كل حالاته . (مع خلاف هذا التصور اختلافا اساسيا بديهيا مع المعطيات العلمية الحديثة) . ومن هنا حرص المحيطون بالام الحامل على رعاية مزاجها وملاطفتها ومسايرتها طوال فترة الحمل . وللموضوع جوانب اخــرى ستتضح فى سياق الدراسة .

الذكور الى العمل أوالى مجالس الرجال ، وبالنسبة للبنات حتى زواجهن . (٣) فالام هى التى تنقل لهم تراث المجتمع الذى يعيشون فيه ، هى التى تطعمهم ، وتربيهم فى شئون الحياة اليومية ، وتحكى لهم القصص ، وتغنى لهم ، وتلاعبهم ... الخ .

ثم تمر علاقة الطفل بأمه (وبمجتمعه الكبير المحيط به) ، كما يمر نموه الجسمى والاجتماعى ببعض المراحل الحاسمة ، التى تمثل (محطات على رحلة حياته . ويحتفل المعتقد الشعبى ، كما تهتم العادات الشعبية ، بتلك المراحل احتفالا كبيرا : فتنسج حولها الافكار وترسم فيها أساليب السلوك ، وتتحوط بكافة السبل ضد مايتهدد الطفل فيها من أخطار .

ومن أهم تلك المراحل انقضاء الاسبوع الاول من عمر الطفل . (وفى بعض المجتمعات الاربعون يوما الاولى) ، حيث يؤدى حفل السبوع دورا مناظرا لعملية « التعميد » ، ولكن بالمفهوم الاجتماعى وليس الدينى . فالسبوع هو قبول او « ادخال » الطفل للمجتمع المحيط به من خلال عملية « التسمية » من ناحية ، وتأكيد الوجود الاجتماعى للطفل من ناحية أخرى . وهذا الوجود الاجتماعى هو الامر الحاسم والهام ، وليس مجرد الوجود الفيزيقي الذى تحقق فعلا من خلال عملية الولادة .

ومن المراحل الهامة فى حياة الطفل ايضا انقضاء السنة الاولى من عمره ، حيث يكون الاحتفال بعيد الميلاد الاول ، ثم بأعياد بعد ذلك ، وبمشى الطفل لاول مرة ، وكلامه لاول مرة ... الخ . تلك كلها « بدايات حاسمة وهامة لمراحل اساسية فى حياة الطفل ، يتصرف المعتقد الشعبى والعادات الشعبية حولها بكل دقة ، وترسم استجابات المحيطين ، وتفسر كل الظواهر المصاحبة لهـا .

بعد ان تتطور عمليات نمو الطفل نسبيا ، تظهر ألعاب الاطفال واغانى الاطفال بشكل اولى بسيط ، وعلى لسان الام اولا . فهى اول من يردد لوليدها الاغانى ، ومعها تبدأ اولى محاولات اللعب وبتطوره تتطور قدراته على الغناء واللعب ، ويكتسب من خلالهما سبيله الى اطفال الاسرة الاخرين ، ثم اطفال البيت ، والشارع والمدرسة بعد ذلك . فالالعاب هى أول مدرسة اجتماعية يدخل اليها الطفل ، ومن خلالها يجتاز اولى تجارب حياته .

وتمر حياة الطفل بعد ذلك بمراحل اخرى ذات أهمية ودلالة ايضا ، حين يبدأ اول « خروج » منتظم للطفل من البيت ، سواء للعمل (كما في المجتمع البدوى للرعى مثلا ، أو من المجتمع

---

(٣) ولذلك ليس من الغريب ان يشير العالم الفرنسي دي شايرول ، فى دراسته عن سكان مصر المحدثين ، الى هذه الحقيقة قائلا : ـ « .. اذا كانت المرأة لا تحدث عند الشعوب الشرقية الا تأثيرا بالغ الضآلة على الرجل بالمقارنة بما يحدث في أوروبا ، فان الاطفال فى سني عمرهم الاولى يخضعون لتأثيرها هي اساسا » . انظر :

دي شابرول ، دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين ، ترجمة زهير الشايب ، ١٩٧٦ ، ص ٤٧ ، (حلقة من كتاب وصف مصر ، الذي يخرج له زهير الشايب ترجمة كاملة ، ظهر منها للان اربع مجلدات ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .)

الزراعى للمساعدة فى أعمال الحقل البسيطة) اوحديثا للمدرسة . ولكن لا جدال فى ان أهم تلك المراحل على الاطلاق مرحلة الختان ثم مرحلة البلوغ . وهى تعد ايذانا بدخول هذا « الطفل » الى مجتمع الرجال (ان كان ذكرا) ، او الى مجتمع الاناث (ان كان انثى) .

واشرنا الى ان كل تلك المراحل يحيطها المعتقد الشعبى ، كما تحيطها العادات الشعبية ، بالكثير من الاجراءات والممارسات الرمزية والسحرية التى تهدف الى حماية الطفل وتأمين انتقاله الى المراحل التالية ، او الحفاظ عليه من اخطار هذا لانتقال . كما يمثل الطفل خلال كل مرحلة حاسمة منها بؤرة احتفال اجتماعى يقوم به الكبار من حوله ، ويعبرون خلاله عادة بمختلف اساليب التعبير عن فرحهم وسعادتهم بوصول الطفل الى هذه المرحلة ، ونجاحة فى اجتيازها بسلام .

حول مفهوم الطفولة :

لم نتعرض فى هذه الدراسة بشكل مباشر لتحديد مفهوم الطفولة من وجهة نظر المعتقد الشعبى . فتلك النقطة على بساطتها الظاهرة من اعقد موضوعات الدراسة واكثرها اتساعا . اذ تختلف الشعوب فيما بينها اشد الاختلاف فى تعيين البدايات والنهايات (الزمنية) لتلك المرحلة فبعضها يرى أن الحياة تبدأ منذ بداية الحمل (انقطاع الدورة عند المراة) ، وبعضها يبدؤها بتحرك الجنين فى بطن امه ، وطائفة اخرى تبدؤها بالميلاد ، ورابعة بالسبوع ، واخرى بالتسمية ، وسادسة بالختان ، وغيرها باجتياز طقوس العبور الشاقة ... الخ . هذه فكرة سريعة متعجلة عن الاختلاف حول بداية مرحلة الطفولة ، ويمكننا مما سبق أن نتصور مدى الخلافات حول تحديد نهايات هذه المرحلة .

فخروج الطفل الى مجتمع الكبار للمشاركة فى اداء وظيفة اقتصادية ــ مهما كانت متواضعة ــ يمكن أن يبدأ فى الرابعة أو حول تلك السن . وقد يتأخر الى السابعة أو العاشرة (٤) . على أن المشاركة فى النشاط الاقتصادى للجماعة لا تعنى اوتوماتيكيا اعترافا بانتهاء مرحلة الطفولة وبدء مرحلة الشباب فقد يتاخر الاعتراف بهذا « العبور » الى سن أبعد من ذلك ، الى حين تمام البلوغ (بلوغ الكفاءة الجنسية الكاملة للذكور والاناث) ، او الى حين اجتياز بعض اختيارات العبور الشاقة ، وربما الى ما بعد تكوين الفرد أسرة نووية جديدة ، واحيانا يمكن أن يؤجل هذا الاعتراف الى مابعد انجاب اول طفل فالمسالة كما نرى معقدة ومتشابكة مع انساق اجتماعية ثقافية أخرى ، ولا يمكن ان نلقى فيها حكما عاما ببساطة .

● ● ●

---

(٤) نذكر هنا الحديث النبوي الشريف الذي ينصحنا بان نامر الطفل بالصلاة في السابعة ونضربه على تركها في العاشرة . فالسنة العاشرة بداية تحمله نوع من المسئولية التي يجب ان يحاسب عليها .

أولا : المعتقدات الشعبية المتعلقة بالطفل

هناك بعض التحفظات والملاحظات التى يجب أن نبدأ بها حديثنا عن المعتقدات الشعبية . فصفة « الشعبية » تدل هنا على ماتدل عليه فى عبارة « الاغانى الشعبية » أو « العادات الشعبية » .. الخ . أى اننا نقصد المعتقدات التى يؤمن بهــا الشعب فيما يتعلق بالعالم الخارجي والعالم فوق الطبيعي . وليس من الامور ذات الاهمية الرئيسية ـ مع اننا نوليها عنايتنا عند الدراسة وفى التحليل ـ ما اذا كانت هذه المعتقدات قد نبعت من نفوس أبناء الشعب عن طريق الكشف او الرؤية او الالهام ، أو أنها كانت اصــلا معتقدات دينيــة (اسلامية أو مسيحية أو غير ذلك) ثم تحولت في صدور الناس الى أشكال أخرى جديــدة بفعل التراث القديم الكامن على مدى الأجيال ، فلم تعد بذلك معتقدات دينية رسمية بالمعنى الصحيح ،أى أنهــا لاتحظى بقول واقــرار رجال الديــن الرسميين . وقد كان الشائع أن يطلق عليهــا فى الماضى اسم ينطوى على حكم قيمى واضح ، اذا كانت تسمى خرافات أو خزعبلات . ومــن الواضح أن هذه التسمية كانت صادرة عن رجال الدين الرسميين ، سواء فى الخارج أو عندنا . لأن المعتقدات التى تدور حول هذه الموضوعات الغيبية ، ولا تتفق وتعاليم الديــن الرسمى ، لاتستحق من وجهة نظر أصحاب هذا الدين اسم « معتقدات » . فكانت تسمى بهذا الاسم الخاطىء الذى تخلينا عنه اليوم كلية . (٥)

الملاحظة الاخرى أن أغلب تلك المعتقدات ـ التي يدور عنها الحديث هنا ـ تفصح عن نفسها غالبا فى شكل عادات وممارسات شعبية . ومن هنا نؤكد من جديد أن الفصل بين المعتقد والعادة هو فصل نظرى بحت لاغراض الدراسة العلمية ، ولاوجود له فى الواقع الحى . فالمعتقد والعادة هما وجهان لعملة واحدة .

كما نلاحظ أن الغالبية العظمى من العادات التى تمارس ازاء الجنين والطفل الوليد ، ثم بعد ذلك قبل قبوله فى المجتمع ، انما يمكن تفسيرها فى ضوء معتقــد شعبى أساسى . فهى جميعــا تستهدف حماية هذا الجنين ثم الوليد من الاخطار التى تتهدده سواء مــن جانب قوى منظورة أو خفية . وأغلب تلك الممارسات (التى سنعرض لطرف منها فى سياق حديثنا التالى) كانت فى الاصل ممارسات سحرية وطقوسا دينية تخدم نفس الغرض ، ثــم « سقطت » الى مستــوى العادات ، وتحولت الى الصورة التى نجدهــا عليها اليوم . فعادات وتقاليد رعاية الجنين والمراة الحامل ثم المراة الواضعة ووليدها انما هى بهذا المعنى «رواسب » لممارسات قديمة كانت تمثل درجة أعلى من التقديس ، ولكنهــا تخدم نفس الوظيفة الثقافية .

الوظيفة الثانية لبعض العادات التى تمارسها الحامل ، أو تمارس عند الولادة أو بعد ذلك هى الاعتقاد بأن كل مايحدث للجنين أو الوليد فى تلك الفترة سيؤثر على مستقبله ومصيره . فالقاء « الخلاص » فى مياه جارية يطيل عمر الوليد ،و « الوطواطة » للبنت هامة لجمالها لأنها تمنع

(٥) انظر ، محمد الجوهري ، علم الفولكلور ، الجزء الاول ، مرجع سابق ، ص ٦٢ .

نمو الشعر فى الاماكن الموطوطة . بل ان التسمية نفسها ليست عملية فردية عشوائية ، ولكن الاسم الذى سيطلق على هذا الوليد سيؤثر على خصائصة، وعلى مستقبله . (٦)

أما الوظيفة الثالثة فجمالية بحتة ، حيث تستهدف هذه الممارسة او تلك : اطالة الشعر والتأثير على خصائصه ، او توسيع العينين ، أو تقوية الذاكرة عند الطفل ، او التأثير على لون البشرة ... الخ مما سيتضح بعضه فى سياق حديثنا .

وتبدأ جولتنا مع المعتقدات الشعبية المتعلقة بالطفل بالاشارة الى تفسير أصل الطفل لـه ، أو بيان الكبار المحيطين به المصدر الذى حصلوا منه عليه . فهناك طائر او حيوان أو انسـان او كائن ما « أحضر » هذا الطفل الى البيت . قد يكون الضفدعـة ، او الغراب ، او الثعلب ، أو « الداية » (أو بابـا نويـل فى بعض المجتمعات الاوربية) . (٧) ويعتقد أحيانا أن كل الاطفال موجودون فى مكان معين (في بئر معين ، او تحت شجرة معينة ، أو فى أحد المناجم ، او فى بحيرة معينة ، أو فوق جبل بالذات أو امام أحد المساجد .. الخ) وان هناك شخصا معينـا هـو الـذى يحضرهم للاسرة .

والطفل الذكر فى كل المجتمعات العربية اكثر تفضيلا من الطفل الانثى . وقد عرضت الدراسات الفولكلورية القليلة المنشورة عن المجتمعات العربية لهذه الملاحظة بكـل جـلاء ودون اى لبس (٨) . ويعرف المعتقد الشعبى كثيرا من التفاصيل التى تجب مراعاتها والممارسات التى يجـب اتباعهـا لانجاب طفل ذكر (٩) .

فأهم خبر يترقبه أفراد الاسرة بمجرد أن تضع الوالدة طفلها هو جنس المولود من حيث كونه ذكرا أو انثى . ويصل هذا التفضيل الى درجة أن « بعضهم يملؤه الحزن اذا ولدت له انثى . امـا

---

(٦) انظر مزيدا من التفاصيل والامثلة ، عند ريتشاردفايس ، الفولكلور السويسري (بالالمانية) :
R. Weiss, Volksunde der Schweis, Zurich, 1946, P. 175.

(٧) انظر مزيدا من التفاصيل عند ريتشارد باتيل ، قاموس الفولكلور ، (بالالمانية) : ـ
R. Beitl, Worterbuch der Volkskunde, berausgegeben von O.A. Erich und R. Beitl, Z. Auflage, Alfred Kroner, Verlag, Stuttgart, 1955, P. 409.

(٨) انظر بيانات اثنوجرافية دقيقة ومفصلة أوردتها علياء شكري فى دراستها لبعض المجتمعات المحلية فى المملكة العربية السعودية ، علياء شكري ، بعض ملامح التغيير الاجتماعي الثقافي فى الوطن العربي . دراسات ميدانية لبعض المجتمعات المحلية فى المملكة العربية السعودية ، القاهرة ، دار الكتاب للتوزيع ، ١٩٧٩ .

وانظر كذلك مؤلفي احمد امين وفوزية دياب وغيرهما مما سيرد ذكره فى حواشي هذه الفقرة فيما بعد .

(٩) وقد أورد احمد امين في « قاموسه » ان : الرجل اذا اراد ان تلد امرأته الذكور فليضع يده اليمنى على سرتها وهي نائمة ، ويمسح على السرة وهي في ابتداء حملها ويقول ثلاث مرات ، وهو يديم المسح بيديه : اللهم ان كنت خلقت خلقا في بطن زوجتي هذه فكونه ذكرا وانا اسميه محمدا . رب لا تذرني فردا وانت خير الوارثين . فبشرناه باسحق ومن وراء اسحق يعقوب ، وبشروه بغلام عليم »

انظر احمد امين ، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، القاهرة مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٣ ، ص ٤١٥ .

الصبى فالكل يفرح ويتهلل لمقدمه بدليل القول السائر لدى الفلاحين المصريين : « لما قالوا ده ولد انشد ضهرى وانسند ، ولما قالوا دى بنيه انطبقت الدار على » او القول : « لما قالوا ده غلام انشد ضهرى واستقام، ولما قالوا دى بنية شمتت العدا فيه » . (١٠)

ومع ذلك فان دراسة أشمل لتراث الامثال والعبارات الشعبية المتداولة فى مجتمع كالمجتمع المصرى (يحبذ كما رأينا انجذاب الذكور) توضح لنا أن هناك عديدا من الامثال التى تمتدح انجاب الاناث . (١١) والرأى عندنا ان مثل هذه الامثال التى تحبب فى انجاب البنات انما هى دليل يؤكد القاعدة الاولى ولا ينفيها . فهى تؤكد تعاسة المراة التى تلد بنتا ، وتنبهنا الى أن المجتمع انما ابتكر تلك العناصر الشعبية لكى يخفف عن هذه المراة ويواسيها .

ويعد ميلاد التوائم مثارا لاهتمام المعتقد الشعبى . ومع انه من المعروف أن التوائم ليست من الظواهر الشائعة احصائيا على مستوى العالم ، الا أننا نجد المعتقد الشعبى لدى كل الشعوب وعلى مدى كل العصور يحفل بكثير من الافكار والعناصر الدائرة حول التوائم .

وتتراوح المواقف من التوائم فى المعتقد الشعبى بين التشاؤم الشديد منها (وما يتبع ذلك من ممارسات) ، والتفاؤل او التقدير الكبير . وان شئنا المفاضلة بين الاتجاهين اووزنهما من حيث سعة الانتشار وجدنا اتجاه النفور منهما والتشاؤم هو الاوسع انتشارا والاكثر تواترا بين الناس

وقد عرفنا عن بعض المجتمعات ان أحد التوأمين ينسب عادة الى الالهة ، أما الآخر فينسب الى اب من البشر (قارن فى هذا حكاية هرقل فى الاسطورة الاغريقية) . بينما تعتقد شعوب اخرى أن التوامين يكونان دائما لرجلين شاركا فى اخصاب الام ، كل منهما أب لواحد من التوأمين .

وكثيرا ما يعتقد ان انجاب التوائم هو ثمرة علاقة زنى ودليل عليه .

---

(١٠) انظر مزيدا من التفاصيل عند فوزية دياب ، القيم والعادات الاجتماعية . مع بحث ميداني لبعض العادات الاجتماعية ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٦ ، ص ص ٣١٤ وما بعدها .

(١١) من الامثال والعبارات التي تحبب في انجاب الاناث : ـ

ـ « الخير الناس اللي تبكر بالبنت »

ـ « اللي يسعدها زمانها تجيب بناتها قبل صبيانها » .

ـ « اللي مالهاش بنية تصبغ اياديها ، تعيط بحرقة والناس تعزيها » .

« اكبري يابنتي والنصيب كتير » .

ـ « ام واحدة ربنا محيرها ، وام عشرة ربنا مدبرها ».

ـ « أبو البنات مرزوق »

ـ « اللي ما عندوش بنات ما يعرفوش الناس امتى مات»

انظر مزيدا من التفاصيل عند ، ابراهيم احمد شعلان، الشعب المصري فى امثاله العامية » ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٢ ، ص ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ، وص ١٣٥ .

اما المجتمعات الاحدث والاقرب الينا والاكثر تقدما فتعتقد أن انجاب التوائم هو دليل على زيادة في رجولة الأب . بينما تعتقد كثير من الشعوب البدائية أن التوائم يجب التخلص منها ، وأن على المراة أن تتطهر لفترة من الوقت بعد أن تضعهما .

ولهذا السبب تحرص تلك المجتمعات على تجنب أكل المراة للثمار المزدوجة كلوزتين ملتصقتين ببعضهما ، او موزتين ملتصقتين .. الخ حيث يعتقد أن اكل تلك الأشياء يؤدي الى انجاب التوائم . ويورد قاموس فونك للفولكلور تفصيلا لبعض الممارسات ــ مشفوعة بالنصوص المستخدمة ــ التي يتحتم اللجوء اليها في حالة اذا ما اضطرت الفتاة او المراة الى اكل مثل هذه الثمار المزدوجة . والهدف من كل تلك الممارسات والصيغ تجنب انجاب التوائم . (١٢)

ثم هناك على الطرف الآخر الموقف الذي يحبذ انجاب التوائم ويسعد بها ويعتبرها فألا حسنا . فيعتقد أبناء تلك الثقافات أن التوائم تتمتع ببصيرة نافذة ، اوهم يتمتعون بقوة خارقة ناتجة عن جمعهم بين شخصيتين في نفس الوقت . كما ترى احدى قبائل الهنود الحمر ان التوائم تستطيع رؤية الأرواح وغيرها من الكائنات فوق الطبيعية . وهو الأمر الذي لا يستطيعه الناس العاديون كما نعرف . ولكن التوائم يمكن أن تفتقد هذه القدرة اذا ما تناولت طعاما من اعداد امراة حائض .

ونستطيع ان نجد نفس هذين الموقفين العامين من التوائم في الثقافة الافريقية جنوب الصحراء ايضا ، خاصة غرب افريقيا ، ومنها انتقلت تلك المعتقدات الى زنوج العالم الجديد . ويفسر البعض هذه المواقف المتطرفة من التوائم في ضوء انهم يمثلون نوعا من الولادة الشاذة او التي تلابسها ظروف غير طبيعية . ويرسم هيرسكوفيتش في مقاله عن التوائم في غرب افريقيا معالم الخط الفاصل بين منطقتي تقديس التوائم والنفور منهم بأنه يمتد عبر وسط نيجيريا . حيث نجد أن اليوروبا وقبائل الساحل الفينى غربا من الفريق الذي يحب التوائم . أما الايبو وزنوج منطقة الدلتا والكاميرون فيتخذون الموقف المعاكس .

ويشير فضلا عن هذا الى أن هناك طائفة من المعتقدات الدائرة حول الطفل التالي في الولادة على التوائم . اذ ترى تلك الثقافات الزنجية أن هذا الطفل يتميز بقوة جسمانية فائقة ، وانه يجب أن يلقى معاملة خاصة .. الخ . ويفسر انتشار الممارسات والعبارات المتعلقة بالطفل التالي على التوائم (والمعروف باسم "the dosu" في مجتمعات البرازيل ، وكوبا ، وجيانا ، وهايتي وغيرها من شعوب البحر الكاريبي بأنه يكاد يكون احتفاظا طبق الاصل لنظائرها الاصلية ، والتي انتشرت الى تلك المنطقة ، وتركت بصماتها واضحة عليها دون اعادة تفسير .

---

(١٢) Funk & Wagnalls Standard Dictionary of Folklore, Mythology and Legend, ed. by Maria Leach, Funk and Wagnalls Publishing House, N. Y., 3rd ed. 1972. Art., „Twins'', PP. 1134-6.

وانظر ، كذلك محمد الجوهري ، علم الفولكلور ، الجزء الثاني : (دراسة المعتقدات الشعبية) ، دار المعارف ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٩ . الفصل الخاص بالمعتقدات الدائرة حول الانسان .

الاخطار المحيطة بالطفل جنينا ورضيعا وطفــلا :

يرى المعتقد الشعبــى ان الام وجنينهــايتعرضان طوال فترة الحمل وعند الولادة وبعدها الى عدد من الاخطار المتنوعة التى تأتي من مصادرمختلفة ولاعتبارات شتى . وسوف نحاول الالمام بتلك العناصر بشكل موجز ، ثم نركز كلامنا علىنقطة واحدة على سبيل التوضيح .

تتعرض الام وهى حامل لخطر المشاهــرة(او الكبس) : ومعنى ذلك الوقوع تحت تأثــير الحسد وتأثير ارواح شريرة . وهناك عــــدةاساليب وسبل تؤدى الى مشاهرة الحامــل ، فدخول رجل أجرودى عليها ، او امرأة عاقر ، اوامرأة حائض . . . الخ كل ذلك من عوامل مشاهرة تلك الحامل .

ومن المستحب فوق ذلك ان تتغنى الحامل ويغنى لها الاخرون اغان معينة تتفق والمناسبــة السعيدة المقبلة عليها . ويجب على المحيطين بهاعلى وجه العموم الحرص علىعدم ذكر اىحكايات مخيفة او اخبار سيئة او حكايات ولادات عسرةامامها . ولابد من الحرص على اعتدال مزاجهــا وسرورها بقص الحكايات ورواية الاخبار الطريفةالمبهجة الباعثة على التفاؤل . (١٣) ولا يصح لها ان تشارك فى مناسباتالعزاء ، ولا ان تقوم بزيارةالمقابر طوال فترة الحمل . ويستحب لها ارتداء الالوان المبهجة الجميلة وترك الملابس ذات الالوانالقاتمة ، فلا يصحان ترتدى ملابسالحداد اطلاقا واذا حدث فلمدة قصيرة جدا وبشكل رمزى .

وعلاوة على هذه الرعاية النفسية فهناكرعاية جسمانية للحامل ، حيث يخشى عليها من حمــل الاحمال الثقيلة او اداء الاعمال الشاقــة(تجنبا لحدوث اجهاض) .

ومن الممكنالقول بصفة عامة بأن الاســرةتحرص ، خاصة بالنسبة للام « البكرية » على الاستجابة لكل طلباتها والتسرية عنها ، وتخفيفالام الحمل التى تشعر بها . واهم احداث تلــك الفترة « الوحم » . والوحم ظاهرة تحــدث فيالشهر الثالث والرابع فى اشهر الحمل . وكثيرا ما تتوحم الحبلى فتشعر برغبة ملحة فى نوع اوانواع خاصة من المأكولات . وفى بعض الاحيانتكون هذه المأكولات نادرة ، او غير موجودة فى فتــرةوحم الزوجة ، لان لها اوانا واوقاتا او مواسم معينة. وهناك اعتقاد شائع ان الحامل التى تتوحماذا اشتهت شيئا من المأكولات ولم يحضر لها ، فان هذا النوع من الطعام سيظهر على بشــرةالوليد على هيئة بقعة تسمى « وحمة » كبيرة او

---

(١٣) واتساقا مع هذا حرص الحامل طوال ايام الحملوالوحم على الابتعاد عن كل المناظر القبيحة ، كمنظر الحمير او القرود مثلا ، او منظر الاشخاص المشوهين . لان الاعتقادالشائع انه اذا وقع نظر السيدة الحامل على منظر شخص او حيوان قبيح ، فان وليدها سيكون قريب الشبه منه ،لان العين « لقاطة » كما يقولون . ولذلك تتعمد الحامل ان تنظر الى الاطفال والاشخاص ذوي الخلقة الجميلة والوجدالحسن ، لكي تلقط عيناها مناظرهم فياتي الجنين على هذه الصورة الجميلة .

كذلك تحذر الحامل كل التحذير من « المخايلة » علىاي شخص ، أي السخرية والتهكم على مــن كان اســمر مثلا او قزما او معتوها او به اي صفة معينة بشكل عام .فان سخريتها من مثل هؤلاء ، وتهكمها عليهم ، يجعل وليدها ياتي متصفا بصفاتهم . انظر فوزية دياب ، القيم والعاداتالاجتماعية ، مرجع سابق ، صص ٣٠٩ — ٣١٠ .

صغيرة. وقد تظهر في وجه الوليد فتشوه منظره. ولذا يحرص الزوج واهله على السعي لاحضار ما تشتهي الزوجة الحامل ، مهما كلفهم ذلك من ثمن ومشقة . (١٤)

وتتعرض الام الحامل ، ثم هي ووليدها بعد ذلك لاخطار الحسد . وكتب الدراسات الشعبية تزخر بعشرات ، بل مئات ، الشواهد والنماذج على ذلك . (١٥) فالطفل الجميل اكثر تعرضا للحسد من العادي والقبيح، والوحيد اكثر تعرضا ممن له اخوة ، والذكر اكثر تعرضا للحسد من الانثى ، وهكذا . وتلجأ الامهات الى اساليب شتى لدرء خطر الحسد، فالبعض يلبسن اولادهن الذكور ثياب الاناث في الايام الاولى عقب الميلاد ،بل بعضهن يطلق على الذكر اسم انثى . وكانت الامهات المصريات الموسرات على ما يحكي وليم لين يتركن اطفالهن في ثياب قذرة ومظهر رث خوفا من الحسد وقد تعلق بعض الاسر على اطفالها الاحجبة المختلفة لحمايتهم من الحسد .. الخ .

وتتخذ اعظم الاحتياطات واكثرها جدية ساعة مولد الطفل ، بهدف حماية الام وحمايته هو . فتتلو الحاضرات الادعية والايات والصيغ والعبارات التي تستهدف تخفيف آلام الولادة والتعجيل بها ونهايتها نهاية حسنة سليمة . ويمثل انفتاح رحم الام في تلك اللحظة مصدر خطر ـ حسبما يرى المعتقد الشعبي في كثير من الثقافات ـ يجب التحرز من اخطاره وتجنب دخول ارواح شريرة من حيث يتدفق الدم . ثم ان هذا الدم نفسه موضع احساس مزدوج : فهو رمز للخير والنماء والتجدد والحياة الجديدة ،وهو في نفس الوقت عنصر نجس ينطوي على خطورة غير معلومة وعلى تهديد للام والطفل وللمحيطين. (١٦) ويحتم كل ذلك التصرف بحذر في الخلاص وبقايا الحبل السري ، ومعالجة الوليد بحكمة ودراية .. الخ على اساس ان كل سلوك في تلك اللحظة ستكون له آثار بعيدة المدى على حياة الام والطفل ، وعلى الطفل بوجه خاص . وترتفع درجة الاستعداد وتتخذ ابعادا مختلفة في حالات الولادات العسرة ، حيث انه من المنطقي أن تزداد احتمالات الخطر التي يتعرض لها الام والطفل معا.

وبعد نزول الجنين من بطن أمه وليدا ،تجرى له بعض الاستعدادات وتقدم له بعض الوان الرعاية ، كقطع الحبل السري ، ودهان جسمه ببعض المواد ، وتكحيله .. الخ ومن هذا أيضا عصر ثدييه (ساعة الميلاد ويوميا لمدة سبعة أيام ، اعتقادا بأن هذه الممارسة تقي الطفل رائحة

---

(١٤) فوزية دياب ، المرجع السابق ، الموضع ، وتبدي الدكتورة فوزية دياب بهذه المناسبة ملاحظة طريفة ، حيث تقول : « والواقع ان رغبات الحامل في فترة الوحم تعد فرصة امامها وامام أهلها لاختبار شعور زوجها وأهل زوجها نحوها ، وما يحملونه لها من محبة وعطف واهتمام وتسامح . ولذلك فكثيرا ما تنتهز الزوجة هذه الفترة وتتدلل على زوجها وأهله بطلب المأكولات والملبوسات المختلفة التي كانت تشتهيها قبل الحمل » .

(١٥) أنظر على سبيل المثال وليم لين ، المصريون المحدثون . شمائلهم وعاداتهم ، ترجمة عدلي طاهر نور الطبعة الثانية ، الناشر غير مبين ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، وكذلك احمد أمين ، مرجع سابق وغيرهما كثير .

(١٦) أنظر مادة « ميلاد الطفل child birth في قاموس فرنك للفولكلور ، التي سبقت الاشارة اليه ، ص ص ٢١٧ ـ ٢١٨ .

العرق الكريهة عندما يكبر) . و « الوطوطة »(بالنسبة للبنات، بدهن ابطاها وعانتهابدم خفاش أو وطواط كما يسميه الفلاحون المصريون ، لكىلا ينمو الشعر فى هذه الاجزاء عندما تكبر) . وفى تلك اللحظة ايضا تقدم لـلام بعض صـــورالرعاية ، كتدليك جسدها ، وتغذيتها . . الخ .

ولكن من أهم ملامح تلك الفترة واكثرهاخطورة وابعدها تأثيرا على حياة الطفل فيما بعد كيفية التصرف فى الخلاص وبقايا الحبل السرى .وسوف نركز دراستنا الباقية فى تلك الفقرة على هذا العنصر كنموذج للاهتمام الذى يمكن توجيههالى سائر الموضوعات والعناصر التى أشرنا اليها على سبيل الايجاز (١٧) .

الخلاص فى المعتقد الشعبى :

من الملاحظ أن الخلاص يرتبط عند كافةشعوب الارض تقريبا ــ المتخلف والمتحضر على السواء ــ ارتباطا وثيقا بروح وحياة ، وموت ،وصحة ، وطباع ، ونجاح أو فشل الشخص الذى يولد فيه . ولذلك نجده يرتبطبالاعتقاد الانسانىالراسخ الجذور فى الروح الخارجية او الروح التى لا تنفصل عن الجسد . ومن هنا أصبحما يحدث للخلاص (وكذلك الحبل السرى وبرقع الجنين ــ وهو غشاء رقيق يغطى رأس المولودأحيانا) يؤثر فى حياة الطفل كلهــا ، بل يحــدد مصيره حيث يعتقد أنه يحوى روح الطفل الوليدأو يضم روحه الحارس ، او هو أخوه أو توأمه او نظيره الحقيقى ، أو أنه مرتبط به ارتباطاغامضا ووثيقا . فالتصرف فيه أو مصيره سوف يحددان مهارات الطفل وحظه ومصيره فى الحياة.

وتنتشر تلك المعتقدات لدى كافة شعوبالارض وشتى الثقافات من كولومبيا البريطانية . الى تيراديل فويجو ، ومنأيسلنده حتى سيبيريا،ومن أوربا حتى جنوب افريقيا ، وعند شعوب الصين واندونيسيا وجنوب المحيط الهادى . بلوحتى عند شعوب الهنود الحمر الامريكيين . فكل تلك الشعوب تنظر الى الخلاص بتقديـــروحرص شديدين ، وتعمل على المحافظة عليه أو التصرف فيه طبقا للمعتقدات الشائعة عنه لدىالجماعة .

وهناك شواهد لا حصر لها على هذا الاعتقادعند الشعوب المختلفة (١٨) . من هذا مثلا مــا يقوم به هنود كواكيوتــل الحمــر فى كولومبيـــاالبريطانية حيث يقدمون خلاص الوليد الذكر الى الغربان السوداء ، معتقدين ان ذلك سوف يمنحهذا الطفل القدرة على التنبؤ بالمستقبل . أما خلاص البنت فيدفن فى أحد الاماكن المرتفعة التىتغطيها مياه الجزر لتكون امرأة ولودا .

---

(١٧) انظر حصرا شاملا بالعناصر والموضوعات التيىيجب دراستها حول هذا الموضوع فى الدليل الذي قمنا باعداده مع بعض الزملاء لدراسة عادات دورة الحياة ،انظر محمد الجوهري وعلياء شكري وعبد الحميد حواس ، الدراسة العلمية للعادات والتقاليد الشعبية ، القاهرة ،مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٧٠ ، خاصة الاسئلة من ١١ حتى ٩٢ . وانظر كذلك وليم لين ، المرجع السابق ، واحمدأمين ، المرجع السابق ، وفوزية دياب ، المرجع السابق ، وغيرها من المراجــع .

(١٨) النماذج التي سنستعرضها فيما يلي نقلا عــنمثال عن « الخلاص » بقاموس فونك للفولكلور ، مرجـــع سابق ، صص ٢٤ ــ ٢٥ حيث يقدم مادة انثوجرافية وفيرةعن الموضوع .

ونجد نفس هذا النوع من السحر التعاطفي عند شعب اليوقاغير "Yukaghir" في شمال شرقي سيبيريا . اذ كانوا يلفون خلاص الوليد في جلد الرنة ويلفون معه نموذجا مصغرا لقوس وسهم ، وسكينا خشبيا صغيرا وقطعا صغيرة من الفراء . وذلك بهدف أن يصبح هذا الوليد صائدا ماهرا . أما خلاص البنات فتوضع معه سكين صغيرة مما يستعمله النساء ، وكستبان (مما تضعه النساء في اصبعها عند الخياطة) وابرة . ويلف كل هذا مع الخلاص في لفة . والهدف من ذلك ان تصبح المراة ماهرة في بيتها .

وهناك شعب بعيد عن هاتين المجموعتين بمسافة كبيرة هو شعب الايمارا "Aymara" ، في بوليفيا بأمريكا الجنوبية نجده يهتم بالخلاص اهتماما كبيرا . فيغطون هناك الخلاص بالزهور ثم يدفن بالنسبة للولد ومعه نماذج مصغرة جدا من ادوات العمل الزراعي أما بالنسبة للبنت فيدفن ومعه وعاء طهي صغير .

كذلك نجد في جميع أنحاء اوربا أن المعتقد الشعبي السائد يرى أن مصير الشخص متوقف على خلاصه ومرتبط به . ولذلك يحرصون أكبر الحرص على الا يعثر عليه حيوان ويأكله ، او يتعرض للارواح الشريرة . لأنه لو حدث وعثر عليه أحد الحيوانات وأكله ، فان الطفل عندما يكبر سوف يكتسب كل الخصائص الذميمة (الجسمية او النفسية) لذلك الحيوان .

أما الاعتقاد بأن خلاص الوليد يحوي جزءا من روح ذلك الطفل فشائع في أطراف الارض جميعا من أيسلنده حتى زنجبار ، ومن استراليا حتى سومطرة . من هذا ما يعتقده شعب الباجندا في وسط افريقيا ، اذ يرى هذا الشعب ان الخلاص هو التوأم الحقيقي أو هو « قرين » الطفل المولود ، ولذلك فانهم يعمدون الى وضعه في وعاء ويدفنونه تحت شجرة موز الجنة أو لسان الحمل . بعدها يتحول الخلاص الى شبح يحل في الشجرة المدفون تحتها . وتقوم القبيلة بحراسة تلك الشجرة بحرص خوفا من أن يقوم شخص من غير أقارب الطفل بالاكل من الشجرة أو الشرب منها . لانه اذا حدث ذلك فان التوأم الشبح سوف يذهب بعيدا ويختفي . وبعدها سوف يلحق به الطفل الموجود في البيت ثم يموت .

أما توأم (أي خلاص) الملك عند الباجندا فيحفظ في معبد صغير ويعين له حارس خاص للسهر عليه . ويقوم هذا الحارس باخراج الخلاص من لفافته مرة كل شهر ، ويضعه من ضوء القمر ليسطع عليه بنوره ، ثم يمسحه بالزبد ، ويعرضه على الملك ليؤكد له سلامة قرينه . ثم يعيده في النهاية الى مكانه الامين داخل المعبد .

كذلك تعتقد قبائل جنوب اوغندا ان الخلاص عبارة عن كائن بشري . ويحكي أيضا بعض قبائل الهنود الحمر في أمريكا الشمالية قصصا تكشف بوضوح عن الاعتقاد في الخلاص كتوأم للطفل . ومن هذه القصص تلك التي تحكي ان طفلا طلب من أبيه قوسين ورمحين صغيرين ليلعب بهما (وحده) في الغابة . فقرر الاب أن يختبيء ليشاهد رفيق ابنه الغامض الذي يلعب معه . وقد رأى الاب من مخبئه ولدا آخر قادما من مكان دفن خلاص ذلك الطفل في الاحراش ليلعب مع ابنه فأدرك انه هو توأم ابنه .

وهناك حكايات عديدة جمعت من مناطق متعددة تكشف بوضوح عن ظهور التوأم من خلاص الطفل . وان كانت هناك بعض الحكايات التي تروى ظهور ذلك التوأم من الحبل السرى الذى قد يلقيه الاهل باهمال ولا يعتنون بدفنه .

والملاحظ أن الاعتقاد بذلك الشبح الصغير الذى يحل فى الشجرة المدفون تحتها الخلاص يربط المعتقدات الدائرة حول هذا الموضوع بتلك المتعلقة بشجرة الحياة ، والايمان بوحدة الهوية بينها وبين الطفل الذى تزرع من أجله . ففـي« كالابار » فى غرب افريقيا تزرع شجرة نخيل صغيرة عند ميلاد طفل جديد ، ثم يدفن تحتها خلاص ذلك الطفل . ويعتقد أن الخلاص يضمن نمو تلك الشجرة ، كما أن نمو الشجرة يضمن هو الآخر نمو الطفل . واللافت للنظر حقا هـو أن ذلك المعتقد وتلك الممارسة تنتشر فى نيوزيلندا وجزر ملقا ، كما كان معروفا فى منطقة « بومرن » بشمالى ألمانيا وفى بعض المناطق الاوربية الاخرى .

وقد حفل التراث العبرى القديم بعديد من الممارسات الطبية والمواد السحرية التي كانت اصنع من الرماد المتخلف عن طريق الخلاص . فكانوا اذا خلطوه باللبن يعتقدون انه يفيد فى علاج أمراض هزال الاطفال الصغار . أما اذا خلط مع نبات أنف العجل (١٩) ووضع فى وعاء صغير علق حول رقبة الطفل ، فانه يكون بمثابة حجاب قوى يقيه شر الحسد المؤذى . أما فى الصين القديمة فكثيرا ما كانت تصنع من الخلاص أقراص طبية . كذلك يستخدم هنود الايمارا (فى بوليفيا بأمريكا الجنوبية) الرماد المتخلف عن حـــرق الخلاص كعلاج لبعض الامراض .

أما العادات الشائعة فى جاوة حول هذا الموضوع فتختلف عن كل ما ذكرناه . اذ تعمد نساء جاوة الى وضع خلاص الوليد فى وعاء صغير ، ثم تغطيه بالفواكه والزهور والشـــموع المضيئـــة وتترك ذلك الوعاء يطفو على سطح النهر ليـــلا لارضاء التماسيح . وربما كانت تلك الممارسة وما وراءها من معتقد راجـــع الى أن جميـــع الخلاص ليست سوى تماسيح (بمثابة اخوة أو أخوات لاقرانها البشر) ، أو لأن التماسيح هي مثوى أرواح أسلاف أولئك الناس . وأن تلك الممارسة تتم لكى تكون بمثابة عودة دينية لذلك التوأم اليهم .

أما بالنسبة للتصرف فى الخلاص فى المجتمع الريفى المصرى المعاصر فيراعى قبل التخلص منه استبقاؤه فى حجرة الوالدة حتى تمر عليه ثلاثة « اذانات » . حيث تعتقد النساء أن ذلك يحفظ الطفل من الشر والحسد . فاذا فرض أن الولادة تمت فى الفجـر أو فى الصباح مثلا ، فـلا بد أن يبقى الخلاص حتى يمر أذان الظهر واذان العصر واذان المغرب .

ثم تحكى فوزية دياب بعد ذلك عن كيفية التخلص من الخلاص . « ومن العادات المتبعة فى التخلص من الخلاص ، أن يرمى فى الصافة اعتقادا بأن هذا يجعل الطفل ثريا فى المستقبل ، أو يرمى فى ماء البحر أو النهر أو الترع اعتقادا ان هذا يجعل جروح الطفل فى المستقبل سريعة الالتئام

---

(١٩) أنف العجل او السمكة snap dragons نبات ذو زهر أبيض او قرمزي او اصفر .

بغسلها بالماء (٢٠) . ويفضل البعض رميه للكلاب لتأكله أملا فى أن تكون الزوجة ولودا مثل أنثى الكلب المعروفة بكثرة خلفها . وكثيرا ما تلجأ السيدات اللائي يموت اطفالهن فى سن معينة الى وضع الخلاص فى قدر صغير ، ومعه كمية من الملح ورغيف من الخبز الساخن . ويقفل القدر قفلا محكما ، ويحفظ فى مكان أمين . والمعتقد أن هذا الاجراء يحفظ الطفل من الموت .

هذا ويراعى فيمن يرعى الخلاص أن يكون ضاحكا فى اثناء رميه حتى ينشأ الطفل ضاحكا باستمرار ... ومن المحرمات الواجب مراعاتها بهذا الصدد أن الخلاص اذا خرج من الحجرة التى بها السيدة الوالدة ، فلا يدخل عليها مرة اخرى لاى سبب من الاسباب خوفا من مشاهرتها ، أى انقطاع حملها بعد ذلك » (٢١) .

الطفل والطب الشعبي :

أوضحنا فى دراسة سابقة لنا عن الطب الشعبي أن فلسفة العلاج فى الطب الشعبي تقوم على الاعتقاد بأن لكل داء دواء ، ومن ثم فان كل مرض من الممكن شفاؤه ، ما لم تكن نهاية المريض مقدرة فى تلك اللحظة . وهنا يستحيل على اى طب أن يغير مشيئة الله . ولكننا نجد داخل هذا المفهوم أن المعتقد الشعبى يفسح مكانا كبير العوامل المرض الراجعة الى عوامل « نفسية » أو قل سحرية ، أو بمعنى آخر تلك التي لا ترجع الى أسباب مادية معروفة ملموسة . فكثير من الامراض (يستوى فى ذلك الحمى – ارتفاع درجة حرارة الجسم – أو الصرع او حتى العمى) . يمكن أن تعلل بالعين او الحسد (٢٢) .

ويندرج تحت هذا البند أيضا تأثير الكائنات فوق الطبيعية وأبرزها القرينة (أو أم الصبيان) والجن بصفة عامة ، فهى قد تعمل على الحاق الضرر بالطفل . وأبرز خطر تمثله القرينة هو الاعتداء على حياة الطفل نفسه ، أو اخذ الطفل الانسى واعطاء الام احد أولاد الجن ، فيسمى هذا الجديد « مبدولا » (أى أن الجن ابدلوه) ، ويطلق ذلك بالذات على الطفل الدائم الصراخ ، والذى يتألم دائما لاسباب غير مفهومة (٢٣) .

ولما كان المرض يمكن أن يرجع الى عوامل نفسية أو روحية وأخرى مادية عادية ، فان العلاج يمكن – أو يتحتم أحيانا – أن يتم بوسائل سحرية من نفس الطبيعة : كالرقى والتمائم وما الى ذلك . كما قد يتم بالاساليب الطبية التقليدية اوباستخدام مشرط الجراح أيضا . ولكن الملاحظ

(٢٠) هناك تفسيرات اخرى اقرب الى حقائق التاريخ الثقافي ، انظر مزيدا من التفاصيل عند محمد الجوهري وزملائه ، الدراسة العلمية للعادات والتقاليد الشعبية ، مرجع سابق ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

(٢١) انظر فوزية دياب ، المرجع السابق ، ص ص ٣١٦ – ٣١٧ .

(٢٢) انظر احمد امين ، المرجع السابق ، ص ٤١٥ ، وكذلك ص ٣٢٤ .

(٢٣) بالنسبة للقرينة ، انظر محمد الجوهري ، الجن في المعتقد الشعبي المصري ، مقال في المجلة الاجتماعية القومية ، ١٩٧٢ ، ص ص ٩٥ – ١٣١ ، حيث نجد معالجة لموضوع القرينة وتاثيرها على البشر وصور تدخلها في حياتهم بالضرر ، خاصة الامهات الواضعات حديثا والاطفال الحديثي الولادة .

على أى حال أن الفئة الاولى من الوصفات تحتل المكانة الابرز والاسبق . حتى بعض الوصفات الطبية العادية تفرض عليها بعض الشروط والتحفظات والقواعد ذات الطبيعة السحرية الخالصة (٢٤) .

اذا انتقلنا الى التساؤل عن مضمون الوصفات العلاجية بنوعيها ، فسوف نجد ان الفئة الاولى ـ ذات الطبيعة السحرية ـ تضم كل العناصر المستخدمة فى « الاعمال » السحرية العادية : كالاسماء ، والآيات القرآنية (مجافاة للــروح الاسلامية الصحيحة) ، (أو طاسة الرجفة) ، والاحجبة ... الخ .

أما عن المواد والعناصر المستخدمة فى النوع الثانى من الوصفات العلاجية ، وهى الوصفات الطبية بمفهومها التقليدى ، فهي كل العناصر التي تتيحها البيئة الطبيعية من نباتات وحيوانات . وكلها أشياء عادية قد تستخدم كماهى ، وقد تعالج على نحو معين ، قد يكون شديد التعقيد أحيانا . وليس من الضرورى ان يستخدم العنصر النباتي أو الحيوانى كله ، بل ان الأمر قد يقتصر ، كما هو الحال عند استخدام عنصر حيوانى ، على عضو منه ، أو على افرازات ذلك الحيوان . ولكن القاعدة العامة أن تكون موادا عادية مألوفة كالعسل أو الزيت ... الخ (٢٥) .

الا أن هذه العناصر النباتية أو الحيوانية لا تستخدم فى الغالب كما هى بحالتها الطبيعية . وانما يتطلب الامر تقييدها بعدد من الظروف والقواعد والاجراءات « الفنية » . أول هــذه القيود وابسطها قصر استخدام العنصر على وقت معين (٢٦) . ومن القيود الاخرى تعقيد الوصفة الطبية بكثير من التفاصيل . ومن ألوان هــذا التعقيد أن تضم الوصفة عددا من العناصر ، وأن ينص على كميات متفاوتة من هذه المواد ...الـخ .

تلك فكرة سريعة عن طبيعة الوصفات الطبية التي تستخدم فى ميدان الطب الشــعبي لعلاج الطفل . ولكن ما هى أبرز الامراض ، التى تتصدى لعلاجها تلك الوصفات ؟ هناك قائمة طويلة تتصل فى أول الامر بكون الطفل طفــلا . فتأخر نمو الطفل عن أقرانه فى أى مجــال مــن المجالات ، خاصة التأخر فى المشى أو التأخر فى الكلام يجعله هدفا ضروريا لممارسة الوصفات الطبية الشعبية (٢٧) . وأمراض الاطفال هي الاخرى : كالسعال ، والحصبــة ، والقــراع ،

(٢٤) انظر بعض الملاحظات حول ذلك عند الكسندركراب ، علم الفولكلور ، ترجمة رشدي صالح ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٣٠٧ .

(٢٥) انظر شواهد على ذلك فى مصر الفرعونية عندرانكه ، مصر والحياة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٣٩٤. اما بالنسبة للمجتمع المصري المعاصر فتؤكد ذلك الخبرة العامة ، بصرف النظر عن التفصيلات والتحفظات التي ترد عند ذكر كل وصفة . وانظر كذلــك وليم لين المصريــون المحدثون ، مرجع سابق ، ص ١٨٨ .

(٢٦) لعل هذا القيد يمكن أن يفهم بشكل افضل فى ضوء معرفتنا بالخصائص المميزة للاوقات كما يستخدمها المشتغل بالسحر . فلكل ساعة من ساعات اليوم ملك خاص موكول بها .. الخ . وهي تفاصيل يمكن استيعابها بشكل افضل بالرجوع الى محمد الجوهري ، علم الفولكلور ، الجزء الثاني عن المعتقدات الشعبية ، مرجع سابق ، الفصل الخاص بالسحر .

(٢٧) انظر عند وليم لين المرجع السابق ، وصفة لعلاج الطفل الذي تاخر فى المشي ، ص ٢٢٨ .

والبكاء المستمر .. الخ . وهناك قائمة اخرى من الامراض التي يعانى منها الطفل لأنه يعيش فى هذا المجتمع ، وليس لمجرد كونه طفلا ، اذكر منها على سبيل المثال امراض العيون ، والصرع ، والحمى ، والهزال (الضعف الشديد) ، والجرب الخ (٢٨) .

الطفل والممارسات السحرية الاحترافية :

قد يبدو هذا العنوان غريبا بسبب صعوبة تصور اشتراك الطفل فى عملية سحرية احترافية ، فهو لا يمكن أن يكون ساحرا محترفا ، ولا يمكن أن يكون عميلا يلتمس وصفة سحرية عند احد من السحرة . انما الذى يحدث أن هناك بعض العمليات السحرية ــ التي تتم على يد سحرة محترفين ــ يدخل فيها الطفل كأداة او عامل مساعد فى اتمام العملية .

والسبب فى ذلك أن الطفل كائن نقى لم تعرف الشرور طريقها اليه ، وطبيعته خيرة مطلقة ، ولا يعرف الكذب ولا المداراة ، كما أنه أمين على ما يرى وما يسمع . فلن يحدث احدا بحقيقة ما رأى ، ربما لانه لن يفهم تماما دقائق ما يدور أمامه .

ولا بد أن تتوفر فى الطفل الذى يستخدم فى مثل هذه الاعمال عدة شروط ، أولها وأهمها أن يكون دون سن البلوغ ، ويفضل السنة السابعة أو الثامنة ، لكى يستطيع أن يتحدث بوضوح ويصف ما يراه بدقة (٢٩) . والشرط الثانى أن يكون ذكرا ، فاستخدام البنات فى مثل هذه الاعمال خطأ فادح . ثم قد يضاف الى هذين الشرطين شروط أخرى ، منها أن تكون علامات كفه ذات شكل معين ، او يكون ذا ملامح فيزيقية معينة ، أو من أسرة معينة... الخ(٣٠) .

ومع ذلك فقد تصادف من السحرة من لا يتطلب فى الطفل الذى يستخدم فى « ضرب المندل » أو « فتح المندل » أى صفة خاصة ، سوى أن يكون دون البلوغ ، فهذا الشرط لا استثناء فيه . وقد لجأ الى هذا الاسلوب الساحر الذى حكى عنه وليم لين فى كتابه الذى سبقت الاشارة اليه (صفحة ٢٣٥) . ولكنه فى تجربة اخرى أجرى التجربة على ثلاثة صبيان على

---

(٢٨) انظر دراسة مفصلة عن الطب الشعبي ، محمد الجوهري ، مقدمة فى دراسة الطب الشعبي ، مقال بمجلة الحكمة ، طرابلس ، عدد خريف ١٩٧٩ ، وهي تضم عديدا من الشواهد الموثقة لكل غرض من اغراض العلاج الطبي الشعبي .

(٢٩) انظر تحديد السن عند وليم لين ، المرجع السابق ، صفحة ٢٣٥ وما بعدها ، ونموذج مفصل عند احمد امين ، المرجع السابق ، ص ص ٣٨١ وما بعدها .

(٣٠) من هذا مثلا ان يكون رسم كفه يقرأ ٧١ ، و ١٧ ، لكي يضمن ذلك نجاح المندل . أحمد أمين ، المرجع السابق ، نفس الصفحة . ومع ذلك فليس من المحتم ان كل طفل يصلح لذلك . فمن الممكن ان يحدث كما يحكي لين ، وكما تدل خبرتنا الشخصية في دراستنا لبعض السحرة المحترفين في مصر ، ان الساحر قد يجرب مع طفل او اكثر ، ولكن ايا منهم لا يستطيع مع ذلك ان يرى شيئا في كفه . فاما ان يؤجل العملية ، او يبحث عن طفل اخر . ولما سالت احد السحرة المحترفين عن تفسير عدم صلاحية هذا الطفل او ذاك ، اجاب بان هناك عدة اسباب محتملة لذلك . اقربها ان يكون الطفل قد بلغ الحلم مبكرا ، ومن الاسباب الاخرى ان يكون واقعا تحت تاثير بعض الارواح او « الاسياد » الذين يعارضون في اتمام ذلك العمل . انظر مزيدا من التفاصيل عند محمد الجوهري ، استخدام اسماء الله في السحر ، (بالالمانية) ، رسالة دكتوراة منشورة ، بون ، ١٩٦٦ . انظر عرضا مفصلا لهذا العمل عند : علياء شكري ، التراث الشعبي المصري في المكتبة الاوروبية ، الفصل الثامن ، القاهرة ، دار الكتاب للتوزيع ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٩ .

التوالى ، « ولكنها لم تنجح تماما مع أولهم ،وفشلت مع الآخرين » . وبناء على ذلك أجل الساحر التجربة الى يوم آخر (صفحة ٢٣٦) .

فالطفل بهذا المعنى وسيط روحى غير متخصص ، سبق وما زال (فى ثقافتنا) الوسطاء الروحيين المعروفين الذين تستخدمهم اليوم جمعيات وهيئات تحضير الارواح للاتصال بهذا العالم فوق الطبيعى .

• • •

ثانيا : العادات والتقاليد الشعبية المتعلقة بالطفل :

لن نحتاج الى أن نكرر هنا بعض ما قلناه فى موضع سابق من هذا المقال ، من أن حديثنا الذى سبق عن المعتقدات قد تضمن بالضرورة اشارة الى طائفة من العادات والتقاليد . وبالمثل لن تقدم فى هذه الفقرة عن العادات اشارات الى المعتقدات الكامنة وراءها والدافعة اليها .

ونلاحظ بعد هذا أن العادات والتقاليد المتعلقة بالطفل تصاحبه فى مرحلة حياته منذ لحظة مولده ، وحتى اكتمال التربية ودخول الحياة العملية او البلوغ ، أو حتى الزواج . وسنقتصر فى عرضنا على التوقف عند بعض « المحطات » الهامة على طريق هذه الرحلة الطويلة .

١ ـ السبوع :

السبوع هو اليوم السابع لولادة الطفل ؛ ويقام له احتفال خاص ، يكون أكثر بهاء وكلفة فى حالة المولود الذكر . وتحت أيدينا عدة أوصاف مكتملة لهذا الحفل ، نذكر على رأسها وصف شابرول ، ووليم لين ، وأحمد أمين ، ورشدى صالح ، وفوزية دياب .

ونقدم فيما يلى وصفا مختصرا لهذا الحفل، نعلق بعده على التفسيرات المطروحة لبعض الممارسات التي تتم أثناءه ، وسوف أستعين بالوصف الوارد عند فوزية دياب مع اسقاط التفسيرات التى قدمتها . ذلك أنها خلطت فيها بين تفسيرات الاخباريين لما يمارسونه من سلوك، والتفسيرات العلمية التي يجب ابرازها فى مثل هذا العرض . ولذلك لا نعرف بالتحديد هل التفسيرات الواردة تمثل خلاصة بحثها ودراستها أم أنها مستقاة من الاخباريين لما فيها من اخطاء تجانب حقائق التاريخ الثقافى المعروفة (٣١) .

« يبدأ الاستعداد للاحتفال منذ الليلة السابقة على السبوع ، بما يسمى « تبييتة السبوع » التى تشمل استحمام المولود والباسه ملابس نظيفة . ثم يؤتى بصينية كبيرة يوضع فيها ماء استحمام الطفل الذى يسمى « ماء الملوك » ،ويوضع فيه مقدار من حب الفول . ثم يوضع وسط الصينية قلة مملوءة بالماء اذا كان المولود انثى . أما اذا كان المولود ذكرا فيوضع ابريق بدلا من القلة . ويزين الابريق أو القلة بشمعة كبيرة تظل مضيئة الى أن تنطفىء من تلقاء

(٣١) انظر فوزية دياب ، المرجع السابق ، ص ص ٣٢٠ ـ ٣٢٣ .

نفسها ... ويوضع تحت رأس المولود بعض الخضروات ... كما يوضع بجواره أيضا اناء به سبعة أصناف من الحب مثل القمح والشعير والذرة والفول والارز والحلبة والبرسيم .

وفى صباح اليوم السابع تأتى المدعوات من النساء ومعهن اطفالهن للاحتفال بالمولود . وتأتى القابلة فتكحل عينى الطفل بالكحل الازرق . ثم تضعه فى غربال ، وتضع معه الحبوب السبع المذكورة آنفا . وبعد أن تطلق البخور المضاف اليه الملح ، تغربل الطفل قليلا ، وهى تغنى أغنية خاصة بالسبوع (تختلف من منطقة لأخرى) ... (٣٢) وبانتهاء الاغنية يوضع الغربال على الارض لتخطو الام فوقه سبع مرات ... وعلى مقربة من الغربال تدق احدى السيدات « الهون » أو ما يشبهه لاحداث صوت عال .. ومع هذا الدق تقول القابلة « اسمع كلام أمك ، اسمع كلام أبوك ، شرق شرق ، غرب غرب » ...

وبانتهاء هذا الاجراء يؤخذ الطفل والحبوب من الغربال الذى يتدحرج على الارض أطول مسافة ممكنة .. ثم تحمل القابلة الطفل وتدور به فى أرجاء المنزل لتزفه ... ويمشى وراءها الاطفال الصغار ممسكين بالشموع المضاءة وهم يرددون وراءها أغنية برجالاتك .

وهنا تزغرد النساء ويتهلل الجميع وتنثر القابلة الملح ... بينما تردد بعض الادعية والدعوات ... ثم يوزع على الموجودين الحلوى والحمص والفول السودانى مع شراب المغات . اما الفول المستنبت فى ماء الملوك (وهو ماء استحمام الطفل) فتنظمه السيدات الموجودات فى شكل عقود صغيرة (وذلك بعد ثقب كل حبة بالابرة) ، وتوزع على الاطفال . وفى أثناء ذلك تعمل القابلة حجابا للوليد يحتوى على الحبات السبع المذكورة سابقا ، مع قليل من الملح وبعض قطع النقود الصغيرة . وتعلق هذا الحجاب فى خيط حول عنق الطفل وهى تردد أثناء ذلك بعض الدعوات والصيغ الوقائية المسجوعة ... اما ماء الابريق أو القلة ، فيسكب بجوار شجرة مخضرة مترعرعة ... » (٣٣) . وعلاوة على هذا يعد السبوع مناسبة هامة لتقديم النقوط سواء بمبادرة من المدعوات أو ردا لنقوط سبق أن قدمته أسرة المولود فى مناسبة سابقة .

ونتناول فيما يلى بالمناقشة السريعة أهم التحليلات والتفسيرات التى صاحبت هذا الوصف، والتى لم تحدد المؤلفة كما قلنا مصدرها بوضوح ، هل هى بيانات الاخباريين أم تفسيرات علمية مستمدة من دراسة تاريخ الثقافة .

أ ـ فبالنسبة لتسمية هذا الاحتفال بالسبوع ، فمن غير المعروف فى أى من كتب الفولكلور او التفسيرات العلمية أنه فى هذا اليوم « تفارق الملائكة السبعة الطفل ، بعد أن كانت تحرسه طيلة

---

(٣٢) انظر عند فوزية دياب نص الاغنية ، وانظر نصوصا اخرى عند رشدي صالح ، الادب الشعبي ، مرجع سابق ، وكذلك عند وليم لين ، المرجع السابق ، وتحت أيدينا بضع مئات من النصوص المسجلة من مختلف انحاء مصر بنصوص وعبارات مختلفة .

(٣٣) نقلا عن فوزية دياب ، المرجع السابق ، ص ص ٣٢٠ ــ ٣٢٣ . يلاحظ القارىء أن النقط الفاصلة بين بعض الجمل قد وضعناها لتحل محل تفسيرات المؤلفة التى اسقطناها .

هذه المدة من الجن والعفاريت » (كما تشـــيرالمؤلفة على صفحة ٣٢٠) . وانما السر فى تحديد اليوم هو دلالة الرقم ٧ ، الذى يمثل عددا مكتملافى نظر المعتقد الشعبى ، شأنه فى ذلك شأن العدد اربعين والعدد مائة . ولذلك نجد بعض المجتمعاتتحتفل بهذه المناسبة فى اليوم الاربعين لمولـده وليس فى اليوم السابع . ومن هنا فان البحث عندلالة اختيار اليوم يجب التماسها فى المعتقدات الشعبية المتعلقة بالارقام والاعداد ، وليس فىمجال آخر (٣٤) .

ب ــ بالنسبة للشمعة التى تضاء ليلة الاحتفال فى القلة أو الابريق ، فهي لا تضاء » ، اكراما للملائكة واعترافا بفضلهم فى حراسة الطفلمن الجان والعفاريت والاشرار » ، (كما قالت المؤلفة فى الموضع السابق) ، وانما لأن النار ــأيا كان مصدرها ــ هى قوة حامية وحافظة من الارواح الشريرة ، والمقصود هنا « أم الصبيان »(أو القرينة) بالذات . كما أن النور فى ذاته عامل وقاية من تلك الارواح الشريرة ، حيث أنها ترتاحوتعيث فسادا فى الظلام . فقوة النار وتأثير النور هما التفسيران المحتملان لاضاءة الشموع فى تلكالليلة .

جـ ــ أما وضع بعض الخضرواتتحت رأسالطفل ليلة الاحتفالبالسبوع ، فهي منالممارسات التى تهدف الى الانماء والخير والبركة بصفـةعامة ، كما ذكرت المؤلفة ، رغم انها وضعت هذا التفسير بين قوسين مما يرجح معه انه تفســيرالاخباريين ، على خلاف التفسيرات السابقـــة التى اطلقتها بين الكلام دون تمييز خـــاص ممـــايؤكد أنه تفسير من وضعها هى .

د ــ أما بالنسبة لوضع سبعة حبوب فىالاناء الموضوع بجوار المولود ليلة الســـبوع ، فليس الهدف منه كما جاء فى الموضع السابق :« ويرمز هذا الاجراء الى أمل أهل الطفل فى أن يكون فلاحا يزرع هذه الانواع كلها » . انما تفسيرذلك يجب أن يلتمس فى عنصرين :

الاول : هو الرقم سبعة الذى يدل علىالكثرة أو الاكتمال ، **والثانى :** هو الحبوب التى ترمز الى النماء والخصوبة .

هـ ــ وبالنسبة لخطو الام سبع مرات فوقوليدها الموضوع فى غربال على الارض ، فهي لا تفعل ذلك « اعتقادا بأن هـــذا الاجراء يقـــىالطفل الاصابة بداء القراع اذا خطا فوقه أحد فى المستقبل » . ذلك ان الخطو أو التخطية فوقشيء أو كائن لما هو توحيد بين كيانى القائـــم بالتخطية والمخطو عليه ، أو هو اكتساب كـلمنهما لقوى وعناصر الكائن الآخر ، كما تفعل المراة العاقر فى تخطية احجار مقدسة أو بخوراو عمل سحرى معين ، وتخطيـــة الشـــيخ الساحر للمريض ... الخ . فالتخطية فى المعتقدالشعبى لها مدلول عام موسع ينطبق فى هـــذا الموقف متخذا مدلولا متميـــزا معينا ، ولكنهمشتق من ذلك المدلول العام . فالام ــ بما يسكن جسدها من قوى روحية ــ تحمى وليدها ، وهىتحقق نوعا من الالتحام والتكامل بين كيانهـــا وكيانه .

---

(٣٤) انظر محمد الجوهرى ، علم الفولكلور ، الجزء الثانى ، مرجع سابق ، الفصل الخاص بالأعداد .

و ــ اما الاصوات التي يحدثها المحتفلون بالسبوع بالدق فى الهون (الهون وعاء نحاسى له يد من نفس معدنه يستخدم أصلا لطحن الحبوب الدقيقة بكميات قليلة) أو ما يشابهه . فنجد أن التفسير الشائع والذى صادفناه لدى عشرات الاخباريين فيما قمنا به من تسجيلات ميدانية هو الرغبة فى تعويد الطفل على ضوضاء الحياة وعلى الاصوات ، لكى لا يفزع كلما سمع صوتا . أما المؤلفة فلم تثبت هذا التفسير ــ الحديث فى نظرنا ــ ولكنها قالت ان ذلك يتم لجذب سمع الطفل . والواقع ان احداث الاصوات العالية له هدف معلوم من دراسة تاريخ الثقافة هو طرد القوى الشريرة وابعادها . فالصوت يؤدى هنا نفس الدور الذى تؤديه النار ، أو يؤديه الملح فى دفع الارواح الشريرة واتقاء خطرها . وهو معروف فى ثقافات عديدة .

ز ــ ويصدق تفسير المؤلفة عن مغزى الزفة او الجولة التى تقام للمولود المحتفى به داخل أرجاء المنزل وفى كل غرفة من غرفه ، فهى تستهدف « تقديمه » الى ساكنيه غير الظاهرين »»، واسمهم فى المعتقد السحرى الرسمى (الاحترافى) « القمار » (٣٥) .

ح ــ كما يصدق تفسير استخدام الملح لدرء الحسد ، وهو يستخدم على العموم كالشبه لمقاومة الارواح والقوى الشريرة ودرئها عن الانسان . ويدخل فى عدد من العمليات السحرية لاداء نفس الوظيفة .

٢ ــ التسمية :

تعنى اللغة الشعبية بصفة عامة واسماء الاعلام بالذات محاولة لفهم العالم المحيط وترتيبه وفق نظام خاص . وتخلق الاسماء بين الذوات الفردية التى تهم الشخص نوعا من العلاقة الخاصة التى تحقق التفاعل وتيسير التكامل . ويدلنا تاريخ الثقافة العام أن معرفة اسم الشخص أو الشيء تعطيك سطوة على هذا الشخص أو الشيء . وهذا معتقد شعبى قديم جديد فى نفس الوقت . فالاسم قوة ، والاسم والمسمى كيان واحد أو شيء له وحدة واحدة ، من عرف الاسم استطاع من خلاله أن يؤثر على صاحبه . فالاسم على هذا النحو ليس مجرد وسيلة للتعريف والتحديد وتصنيف الاشياء والاشخاص ، ولكنه جزء من وجود المسمى به .

وفى بعض الثقافات كان يعتقد أن الطفل الوليد لا تدب فيه الروح الا بعد أن يتسمى باسم معين ، فالاسم والوجود الروحى شيء واحد . ومن هنا يمكن ان نفهم سر الرابطة التى يقيمها المعتقد الشعبى بين الاسم والمسمى ، فالاسم ينبىء عن مستقبل صاحبه ومصيره . ولذلك يحرص الاهل فى العادة على اختيار اسم لوليدهم كشخص عرف عنه التقوى أو الصلاح أو النجاح او العمر المديد ... الخ تلك الصفات المرغوبة .

---

(٣٥) بالنسبة لهذا المفهوم ارجع الى مؤلفنا ، استخدام اسماء الله فى السحر ، مرجع سابق ، الملحق رقم (١) .

ولهذا يطلق على الاطفال الذكور المسلمين أسماء الرسول وأهل بيته وصحابته وخلفائه الراشدين ... وغيرهم من الصالحين . وفى مناطق اخرى يسمى الولد الاول على اسم جديه لابيه ، ثم يسمى الثانى على اسم جده لامه ، ثم على اسم أبيه وأعمامه وهكذا . اما البنات فتطلق عليهن اسماء بنات النبى وزوجاته وغيرهن من الصالحات . كما تطلق عليهن أسماء الزهور.. الخ (٣٦) .

ولكن مع ذلك فان اسماء الاشخاص تختلف من اقليم لآخر داخل المجتمع الواحد ، تماما كما تختلف من مجتمع لآخر . ومن عوامل ذلك اختلاف نسبة التركيب الدينى من مجتمع لآخر ، واختلاف أسماء الاولياء المحليين من منطقة لأخرى (على اعتبار أن نسبة كبيرة من الاطفال يسمون بأسماء الاولياء المحليين) ، وتباين المناطق فى قربها لتيارات « الموضة » فى الاسماء ... الخ ذلك من العوامل التي يمكن الكشف عنها وتحديدها فى كل حالة .

وقد لفت نظر كثير من المستشرقين الذين كتبوا عن أسماء المصريين طائفة من الاسماء الغريبة والمضحكة (مثل : الاعور ـ الحيوان ـ بلاص ـ حلوف ـ أبو طبيخ ـ خيشة ـ جحس ـ غراب ـ عجل ـ فار ـ قط ـ وزة ـ الاعمش ـ الاخبش .. الخ) . ولكن العجيب أن تلفت تلك الاسماء نظر باحث مصرى الى أن يقف منها موقف السخرية (مثلا : الدكتور احمد أمين فى قاموسه ، ص ٤٤) . والحقيقة فى تلك الاسماء أنها أطلقت على أصحابها انطلاقا من معتقدات شعبية ، وليست مجرد صدى أو تعبير عن « ذوق » اصحابها . فالام التي يموت لها ولد أو اكثر تطلق عليه اسما قبيحا غير مألوف لكى يعيش . (٣٧) والام التي يتعثر حملها فترة من الزمن ، تطلق على وليدها الجديد اسما قبيحا أيضا لكى يعيش . كذلك الحال بالنسبة للام التى تنجب ولدا ذكرا بعد عدد من الاناث ، فانها تخشى على حياته أشد الخشية . ومن وسائل الحفاظ عليه أن تطلق عليه اسما قبيحا ...وهكذا .

لهذه الاسباب جميعا كان حرص الناس كبيرا على اختيار اسم لوليدهم . ونعرف أنه كانت تتم فى الماضى عمليات استطلاع للنجوم والكواكب لمعرفة طالع المولود والكوكب الذى يناسبه ، فيختار له المنجم الاسم المناسب . ومع ثبوت الشواهد التاريخية التى تحدثنا عن ذلك اننا لا يمكن أن نتصور أن هذا الاسلوب كان يتبع فى تسمية أبناء الشعب العاديين .

---

(٣٦) انظر احمد امين ، المرجع السابق ، ص ص ٤٤ ـ ٤٥ ، وليم لين ، المرجع السابق ، ص ص ٤٩ ـ ٥٠ ، وكذلك ريشارد فايس ، مرجع سابق ، ص ص ٢٦١ وما بعدها .

(٣٧) ذلك أن الارواح الشريرة تتربص لكل ما هو جميل ، فتصيب الوجه الجميل ، والحيوان الجميل ، وكذلك بالطبع لاسم الجميل ، فتقبيح الاسم وسيلة لرد تلك القوى والارواح الشريرة عن هذا الطفل ، بهدف انقاذه من الامراض أو الموت . هذا وقد تعرضنا لموضوع الاسماء بتفصيل كبير فى دراستنا عن استخدام أسماء الله فى السحر (بالالمانية) ، انظر عرضا وافيا لها عند علياء شكرى ، التراث الشعبى المصرى فى المكتبة الاوروبية ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

وتحدثنا كتب التراث (وكذلك بعض الاخباريين المتقدمين فى السن) عن طريقة أخرى أكثر يسرا ويمكن أن تكون فى متناول عامة الناس .حيث يقع اختيار الاسرة على عدد من الاسماء ، ولكنهم لا يستطيعون ــ أولا يريدون ــ اختيارأحدها بالذات . فيحضرون عددا من الشموع يماثل عدد الاسماء التى وقع عليها الاختيار المبدئي . ويطلقون على كل شمعة اسما منها ، ثم يشعلونها ويتركونها مشتعلة الى ان تنتهي .ولا بد أن احداها ستظل مشتعلة ولو لفترة بعد نفاذ كل الشموع ، عندئذ يطلق على الوليد الاسم الذى سميت به تلك الشمعة (لانها أطولهم عمرا ولاعتبارات أخرى) .

ومع أن استخدام هذا الاسلوب فى التسمية قد انحسر ، الا أنه يدلنا بشكل واضح على اهمية اختيار الاسم الذى ما زالت الاسر توليه اهتمامها ، وفقا لطرق الاختيار التي ألمحنا اليها آنفا .

٣ ــ الختان :

الشائع أن يتم الختان للذكور (خاصة فى المجتمعات العربية الاسلامية) أما ختان البنات ، فهو أقل انتشارا . والنظرة الدينية لكليهما تختلف ، ذلك أن ختان الولد أوجب ، والاتفاق عليه أكبر بين الفقهاء . وسأقتصر فيما يلي على الكلام عن ختان الولد .

وليس للختان سن معينة يتم فيها ، وتحت أيدينا شواهد عن اتمامه فى سن مبكرة نسبيا ، وشواهد عن اتمامه فى سن السادسة أو السابعة، وأخرى عن اتمامه قبل البلوغ على أى حال ، وأخرى عن ضرورة اتمامه قبل الزواج (٣٨) .وهذا الاختلاف الشائع فى تحديد مواعيد الختان، يدلنا على أنه قد وعى ممارسوه كثيرا من دلالته الطقسية التقليدية باعتباره أحد « المحطات » الرئيسية فى رحلة الانسان عبر الحياة ، والتي تدل على تجاوزه مرحلة الاولاد ودخوله مرحلة الرجولة ، او الشباب (٣٩) .حيث تدلنا المواعيد السابقة أحيانا على ربط الناس بينه وبين قدرة الولد على أداء الفروض الدينية (لان وجود الغلفة يمنع الطهارة ، والطهارة شرط لاداء الصلاة) . وأحيانا بينه وبين القدرة على ممارسة الجنس مع الزوجة ... الخ . بل اننا نجد هذه المرونة تبلغ مداها عندما تنتهز أسرة الولد مناسبة أحد أفراح الاقارب أو الجيران لاجراء عملية الختان لأولادها. فهنا يكتفى بتحديد مجال زمنى معين يعد الولد فيه صالحا لاجراء هذه العملية ، ولكنه لا يتحدد لذلك سن معينة تحديدا دقيقا .

---

(٣٨) أنظر حول هذا الموضوع : علياء شكرى ، بعض ملامح التغير الاجتماعى الثقافى فى الوطن العربى ، مرجع سابق ، وكذلك وليم لين ، مرجع سابق ، ص ٥٢ ومابعدها ، وشابرول ، مرجع سابق ، ص ص ٥٧ ــ ٥٩ ، واحمد أمين ، مرجع سابق ، ص ١٨٧ ــ ١٨٨ .

(٣٩) أنظر مثلا تعبير شابرول عن شيء قريب من هذا : « ... ويعتبر الختان عند المسلمين (حديثه عن مصر أوائل القرن التاسع عشر) بمثابة الخطوة الاولى فى الحياة . اذ يمكن القول بان الطفل كان يحيا حتى ذلك الوقت بجسمه فقط ، ولكنه بعد هذه السن سوف يبدأ حياته الاخلاقية والروحية . اذ يؤمر عندئذ باداء الصلاة ويلقن العلوم والفنون بعد أن يكون قد سبق له التردد على المدرسة ، لكن المدرسين لم يكونوا قد فرضوا شيئا بعد على عقله الصغير . فالختان اذن هو بمثابة نهاية لمرحلة الطفولة بالنسبة للمصرى بتلزنقها وطيشها . ويمكن القول انه بهذه العملية يولد مرة اخرى ، لكنه فى هذه المرة يولد رجلا » ، شابرول . المرجع السابق ، ص ٥٩ .

وتقدم لنا المراجع المذكورة آنفا عدة أوصاف لمركب ختان ولد ، كلها مستمدة من المجتمع المصرى فى فترات تاريخية مختلفة . واللافت للنظر فى هذه الاوصاف جميعا أنها تبرز هيبة الزفة ، فموكب الختان كموكب العرس ، ولكن بشكل مصغر ، والطفل المختون « عريس » ، كما يسميه أهله والمحتفلون به . والزفة تعنى ـ علاوة على اظهار الفرحة ـ الاشهار ، فهذا الطفل قد بلغ اليوم مبلغ الرجال . وتتفاوت عناصر الاحتفال من زينة الطفل ، وهيئة ركوبه ، والمأكولات والمشروبات التى توزع ، وعدد المشتركين ، والعناصر الموسيقية أو الغنائية ... الخ تتفاوت كل تلك العناصر الاحتفالية حسب مكانة الطفل المحتفى به داخل أسرته حسب مكانة تلك الاسرة داخل المجتمع المحلى .

ولكننا نلمس لحفل ختان الطفل ملمحا آخر اشد تمايزا وأكثر اثارة وادعى الى الاهتمام من كل ما سبق ، وحيث تعد تلك المناسبة ، « امتحانا » لرجولة الولد المختون ، بكل معنى الامتحان . فعملية ازالة الغلفة تتم على مرأى من أفراد المجتمع المحلى جميعا ، ذكورا واناثا ، ولا تستخدم فيها بالطبع اى مخدرات او مهدئات طبية لتخفيف الالم ، وعار على الولد المختون أن يصدر أى تعبير عن الالم ، والا فقد ماء وجهه فى المجتمع الى الابد ، واثر ذلك على سمعة رجولته بين ذويه . وهذا البعد هو الذى يحملنا على ان نقدم فيما يلي وصفا لاحد حفلات الختان من المجتمع العربى السعودى ، كما سجلته علياء شكرى عن بعض الاخباريين . وهى صورة لم تكن معروفة من قبل فى أى من كتب التراث الشعبى عربية أو اجنبية عن هذا المجتمع .

« ... تجرى عملية الختان للذكور فقط . وكان الصبى يترك حتى يبلغ السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره وربما اكثر . ثم يجمع الاقران من صبيان القرية (٤٠) فى احدى ساحاتها فى مظهر يتم عن بوادر الرجولة كحمل السلاح من بنادق أو سيوف وغيرها ، وعدم الاكتراث او الخوف من هذه العملية التي يفوق تعذيبها وألمها كل تصور . ويبدأ القائم بعملية الطهارة باستقبال الصبيان واحدا تلو الآخر لاتمامها ، وهم يرددون بعض اشعار الحماسة وعبارات فخر الصبى بأسرته واسرة اخواله وأجداده ، كأن يقول انا فلان من فلان وأخوالى فلان وفلان من اسرة كذا .. وهكذا .

وبعد أن ينتهى الجميع من عملية الطهارة يقوم كل واحد بربط القضيب بخيط يسمى « حتيلة » وربطه بحزام فى أسفل البطن يسمى « حتيله » ليمنع القضيب من الالتصاق فى الارجل بواسطة الدم الذى ينزف من القضيب بكميات كبيرة حيث يلطخ أرجل الصبى المختون ، والذى لا يرتدى سوى ثوب يحرص على سلامته من الدم برفع يديه .

---

(٤٠) القرية هي « سبت العلاية » احدى قرى قبيلة بلقرن التى تقطن جبال السروات جهة الجنوب ، والتي يبلغ عدد قراها حوالى ١٤٥ قرية . وتقع سبت العلاية على الطريق بين الطائف وابها ، حيث تبعد عن الطائف بمسافة ٢٠٠ كيلو متر وعن ابها بمسافة ٢٢٠ كم . أنظر علياء شكرى ، بعض ملامح التغير الاجتماعى الثقافى فى الوطن العربى ، مرجع سابق ، ص ص ٣٥ وما بعدها ، حيث تجد معلومات مفصلة عن القرية .

بعد هذا يجوب الصبية المختونون شوارعالقرية فى شكل عرضه شعبية (رقصة شعبية ذات شكل خاص) وكل واحد منهم يمسك بثوبه،حيث يرددون قصائد البطولة والشجاعـة ثـم يغادرونها الى القرى الاخرى بنفس المظهر .

وبعد أن يشعروا أهل القرية التي وصلوهابأنهم أجروا عملية الختان يقومون بأداء العرضة الشعبية ، ثم يقوم أهل القريـة باستقبالهـمواستضافتهم حسب امكانياتهم وظروفهم. فتارة يتناولون فى احدى القرى وجبة وفى أخرى ربمايقضون نهارا كاملا . وهكذا تستمر زيارة القرى من قرية الى اخرى حيث يستقبلون ويضيفونفى كل قرية يزورونها . وليس هناك عدد محدد لأيام الزيارة التى كانت تتم مشيا على الاقدام .

وفى اليوم الثانى لعملية الختان يحفر فىالارض حفرة ضيقة يبلغ عمقها حوالى ٣٠ سم يوضع بداخلها كمية بسيطة من الجمر حيثيستلقى الصبى المختون على بطنه فى وضع يسهل تعرض القضيب لحرارة النار . وعندما يحاولالهرب من شدة الالم يكون هناك احد اقرانه يعمل على ارغامه على الصبر وتحمل حرارة النار ،وذلك بأن يدوس على ظهره باحد قدميه . وبعد هذه العملية التي تستمر لوقت يسير ينظف منالصديد الذى قد تكون عليه ويوضع عليه كمية من قشرة الجبر بعد سحقه سحقا جيدا .

وتستمر هذه الطريقة وهى التسخين علىالنار ثم تنظيف الصديد ووضـع طبقة مـن مسحوق قشرة نبات الجبر لعدة أيام ريثما يندملالجرح . ولا يخفى ما لهذه العملية من الـم وتعذيب (٤١) .

٤ ـ أعياد الميلاد :

ربما يبدو للبعض أن موضوع الاحتفال بأعياد الميلاد من « الموضوعات » الجديدة التى لا يصح أن يلتفت اليها دارس التراث الشعبى ، لانهـالا تدخلفى اختصاصه ، فاذا كان يهتمبالممارسات والمعتقدات التقليدية المتوارثة ، اى القديمـةالمستمرة ، فلا يصح أن يهتم بهذه الموضـة . والحقيقة أن دارسى التراث الشعبى لا يغفلونولا يستطيعون ان يتجاهلوا التجديدات التي تطرأ على السلوك التقليدى للشعب . فهذا الموضوعفوق انه يرصد عناصر جديدة من التراث ، فان الدراسة المتعمقة قد تكشف أن هذا الذى نظنهشيئا جديدا ، ليس فى الحقيقة سـوى احياء لممارسات قديمة ، ربما بنفس شكلها القديـمالمندثر،وربما فى ثوب جديد يلائم ظروف العصر. كما أن هذا التجديد قد يحدث نتيجـة اتصـالثقافى بمجتمعات جديدة ، نقلت الينا أو نقلنا عنها بعض العناصر السلوكية والاعتقادية الشائعـةعندها . ولكن يجب أن ندرك بوضوح أن سلوكا

(٤١) انظر علياء شكري ، المرجع السابق ، صص١٣٥ ـ ١٣٧ .

وبعد أن فرغت من وصف عملية الختان كما كانت تحدثفى الماضى القريب ، وهو ما أوردناه بنصه ، بدات تستعرض الوضع الراهن لهذه المناسبة وكيفية اجرائهـا والاحتفـالبها ، انظر ص ١٣٧ وما بعدها . وقد درست المؤلفة فى هذا الكتاب ثلاثة مجتمعات محلية فى المنطقة الغربية من المملكةالعربية السعودية ، وقد تناولت الموضوع فى كل قرية من القرى الثلاث .

جديدا مثل الاحتفال بأعياد لا يمكن أن يلقى قبولاوينتشر الا اذا كان يستجيب لشروط وأوضاع جديدة طرأت على المجتمع المستقبل الذى نقل هذا السلوك الجديد واذاعه بين ابنائه . ولعلنا نلمس ان هذا الانتشار الواسع المدى ــ فى المناطق الحضرية من بلادنا أساســا ــ لعادة الاحتفال بأعياد الميلاد انما هو تعبير عن المكانة التي أصبح يحتلها الطفل فى الاسرة فى عالم اليوم (٤٢) .

لكل هذه الاسباب لا نعجب عندما تتصدى دراسة كهذه لموضوع الاحتفال بأعياد ميــلاد الاطفال فى الاسرة العربية المعاصرة .

واشارتنا المحددة الى « أعيــاد ميــلاد الاطفال » تعنى ان أغلب الكبار ما زالوا يستنكفون او ينفرون من الاحتفال بمناسبة ذكرى مولدهم، هذا اذا طرحت الفكرة أصلا . فالشائع فى المناطق الحضرية ، وفى الطبقات الاجتماعية الوســطى والعليا أن يتم الاحتفال بأعياد ميلاد الاطفال فقط .

واذا اردنا أن نعود الى الوراء لنتبين أصل عادة الاحتفال بعيد الميلاد ، فسوف نجد أن الفرس والاغريق كانوا يحتفلون بعيــد ميــلاد الشخص كمناسبة لاحياء ذكرى الاجداد ودعم صلة المرء بأسلافه . كما أن الاحتفال بعيد الميلاد لم يكن احتفالا بالشخص المحتفى به نفسه بقدر ما كان احتفالا بالقدس او الاله (المحلى) الذى يحمى ذلك الشخص .

ولذلك حدث فى فجر المسيحية أن رفضت الكنيسة بشدة عادة الاحتفال بعيد الميلاد لكونها « ممارسة وثنية » . ولم يبدأ الاحتفال بعيد المسيح نفسه الا فى القرن الرابع الميلادى (وقد كان ذلك يوم الخامس والعشريــن من شــهر ديسمبر من كل عام) .

والملاحظ بصفة عامة أن الاحتفال بعيد الميلاد فى المجتمعات الغربية ليس على تلك الدرجة من العمومية والانتشار التي نظنها ، او حتى يظنها ابناء الاوروبيين (٤٣) . فالاحتفال بعيــد ميلاد الشخص هو أصلا أكثر شيوعا فى الطبقات والقطاعات الميسورة من المجتمع . ويكثر الالتزام به فى بعض البلاد اذا صادفــ فتــرة الشــتاء (باعتبارها وقت راحة من العمل الزراعى ، أو من العمل بصفة عامة) ، وهو أكثر انتشارا فى الاجواء المناسبة منه فى اليوم الغابر الســيء الطقس ، وهو كذلك يقام بمعدل اكبر فى أيــام الاحاد اكثر منه فى أيام الاسبوع العادية .

وهناك بعض المناطق الاوربية التى تقتصر على الاحتفال بعيد الميلاد الاول ، أو أعياد الميلاد عند بلوغ رقم مكتمل . (الخمسين ، والستين ، والسبعين ، او الخامسة والسبعين) .

ولكن الملاحظ أن الاحتفال بأعياد الميلاد بات موضة عامة شديدة الانتشار فى كل انحاء أوربا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، بحيث سقطت كثير من التحفظــات والتحديدات التــي كانت تراعى من قبل ، والتي ذكرناها آنفا . كما يلاحظ ايضا أن الاجيال الشابة والصغار اكثر

---

(٤٢) انظر مزيدا من التفاصيل عند علياء شكرى ، الاتجاهات المعاصرة فى دراسة الأسرة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٩ .

(٤٣) انظر ريشــارد بايل ، قامــوس الفولكلور (بالالمانية) مرجع سابق ، مادة « عيد الميلاد » ، ص ص ٢٤٣ ــ ٢٤٤ .

ارتباطا اليوم بالاحتفال بهذه المناسبة واكثر حرصا على استمرارها والالتزام بها . وعن ذلك الوضع نقلت كثير من الطبقات الميسورة والوسطى في مجتمعاتنا العربية عادة الاحتفال بعيد ميلاد الطفل .

٥ ـ الاحتفال بالبدايات الاولى لما يفعله الطفل

القاعدة العامة أن الاشياء التي يأتيها الطفل لاول مرة ، أو تؤدى له لأول مرة ، تكون موضع اهتمام المحيطين به ويسجلونها بعناية ويتندرون بها ، وربما يحتفلون بها على نحو أو آخر ، كما سيتضح فيما بعد . ونفس الاهتمام يوجه بالطبع للاقوال أو العبارات ، بل والاصوات ، التي تصفر عنه لأول مرة . واذا تجاوزنا هذا المستوى الاولى ، نجد اهتمام الاسرة ، وخاصة الام ، بكل شيء يفعله الطفل لاول مرة ، كخروجه من البيت لاول مرة ، وذهابه الى « الكتاب » أو المدرسة لأول مرة ، وقص شعره لاول مرة (قص شعر البطن) ، واستحمامه لاول مرة ، وفطامه عن لبن أمه .... الخ .

والملاحظ بصفة عامة أن ذلك الاهتمام قد يكون من جانب الاسرة كلها ، وقد يكون مقتصرا على الام وحدها . وانه قد يتخذ حجما خاصا بالنسبة للطفل الاول « البكرى » وقد ينعدم تماما بالنسبة للاولاد غير الاول . وهذا شيء منطقي ، ولكنه قاصر على الامور التي تثير الدهشة والفرحة . ولكن هناك بعض تلك البدايات التى تكون لها اهمية طقسية او اعتقادية خاصة ، فتلقى قدرا أكبر من الاهتمام وتلتزم الاسرة أو الام بمراعاتها بالنسبة لكل الاولاد دون تمييز بين الاول ومن عداه .

ومن ابرز تلك البدايات ذات الاهمية الطقسية : قص « شعر البطن » ، وقص الاظافر لاول مرة ، وفى احيان أخرى مياه اول حمام للطفل . فشعر البطن يجب العناية بالتصرف فيه اذ لا يصح اطلاقا القاؤه هكذا . لان له صلة وثيقة بشخصية صاحبته ، وقد يتخذ « أثرا » له تمارس عليه بعض العمليات السحرية « الاعمال » التي تنعكس على الطفل مباشرة . ونفس الشيء بالنسبة لبقايا أول اظافره فهي أيضا جزء من كيان الطفل يجب التصرف فيها بحذر ، وعلى نحو لا يؤدي الى وقوعها فى ايدي اغراب او اعداء يمكن أن يستغلوها على النحو المذكور لايقاع الضرر الجسيم بالطفل . وبالنسبة لماء أول حمام للطفل رأينا في حديثنا عن السبوع ، كيف تستنبت فيه بعض الحبوب التي تلعب دورا فى حفل السبوع ، وتؤدي وظيفة انمائية حافظة بالنسبة لحياة الوليد الجديد .

ولكن تتركز حول شعر البطن أكبر عدد من الممارسات والمعتقدات . فالاساس فى بعض مناطق الريف المصري ـ الا يقص هذا الشعر عند قبر احد الاولياء فى مناسبة الاحتفال بمولده . ولذلك ينتشر فى احتفالات الموالد (خاصة المشاهير منهم) عدد كبير من الحلاقين الذين يقومون بقص شعر البطن للاطفال الصغار . حيث يوهب ذلك الشعر للولي . وبعضهم يتصدق بوزنه مالا (فضة أو ذهبا حسب الاحوال) . واذا اضطرت الاسرة الى قص شعر الطفل ولم

يتيسر لها لسبب او لاخر زيارة ضريح الولي الذي وهب له الشعر (٤٤) ، فاننا نجد الاسرة تقص شعر الطفل كالمعتاد ، ولكنها تترك وسط الراس خصلة . وتظل تلك الخصلة ذات شكل متميز (غير حليقة) وسط راس الصبي الى ان يتيسر للاسرة زيارة الولي ، حيث تقص هناك .

٦ ـ الاطفال فى الاعياد والمواسم :

المقصود هنا الاعياد والمناسبات الدورية التي تتتابع على مدى العام ، وترتبط بتعاقب الشهور (العربية اساسا) وتتابع المواسم . من أهم الاعياد والمواسم : الاعياد الدينية ، والمواسم الدينية الشعبية : كبداية رجب ، ونصف شعبان ، وبداية رمضان ، وموالد الاولياء (المحليين أو الاقليميين ،) .. الخ .

وفى كثير من تلك المناسبات يكون الاطفال هم اصحاب الاحتفال الرئيسيين ، أو هم الذين من اجلهم وبهم تتم أغلب الممارسات الاحتفالية . فالمصري ـ على سبيل المثال ـ يحتفل بالعيدين بالتوسعة فى الطعام ، ليس على نفسه وزوجته ، وانما على أطفال الاسرة اساسا . ويحتفل كذلك بلبس الجديد ، وان ضاقت امكانياته ، عن تدبير ملبس جديد له ، ولكن لابد من تدبير ملابس جديدة للاطفال . ويوسع الاب فى المصروف على اطفاله فى الاعياد .

ففي ليلة النصف من شعبان يحرص كل اب ريفي على اصطحاب اولاده معه الى المسجد ، والاشتراك فى الدعاء ، ثم يسلكون سبيلهم بعد ذلك الى البيت للاشتراك فى وليمة « ليلة النصف » . فركنا الاطفال فى هذه المناسبة هي الدعاء فى المسجد ، والوليمة . والاطفال فى كليهما محور اساسي .

وطوال ليالي رمضان يصحب كل طفل فانوسه ويتجولون فى مجموعات على بيوت الحي يغنون لاصحابه و « يشحتون » منهم الهدايا ، ولا يمكن ردهم بسهولة دون هدية . واغنية « وحوي ياوحوي » مشهورة بهذه المناسبة . (٤٥)

ومواكب الاطفال الذين يقومون بالاستجداء معروفة فى اغلب ثقافات العالم ، خاصة عند الشعوب ذات التاريخ الحضاري . واغلب المجتمعات كالاوروبية تعرف تلك المواكب فى مناسبات مختلفة . ولكل مناسبة أناشيد واغان وعبارات محفوظة يتم ترديدها لهذا الغرض . (٤٦)

---

(٤٤) من اهم اسباب اضطرار الأسرة الى قص شعر الطفل مقاومة ما قد يكون تجمع فيه من حشرات ، أى لغرض النظافة .

(٤٥) « وحوى يا وحوى » اغنية منتشرة فى رمضان بين الصبيان حيث يجتمع الاطفال بعد الفطور وبأيديهم فوانيس صغيرة مضاءة بالشمع ، زجاجها ملون بالوان مختلفة ، من احمر ، واخضر وازرق وأصفر . وينشد منشدهم : وحوى يا وحوى . فيجيب الاخرون : ايساحة . ثم يستمر المنشد : « بنت السلطان لابسة قفطان بالاحمر ، بالاخضر ، بالأصفر » . وينشد الاطفال وراء كل كلمة : « اياحة » . ويظل الاطفال يمتدحون صاحب البيت وأسرته ، ولا ينصرفون الا بعد أن يقدم لهم شيئا من الحلوى أو المكسرات او النقود . راجع كذلك احمد امين ، المرجع السابق ، ص‌ص ٤١٤ ـ ٤١٥ وكذلك رشدى صالح ، الادب الشعبي ، ١٩٥٦ ، مواضع متفرقة .

(٤٦) انظر دراسة قيمة فى التاريخ الثقافى المقارن لهذه الممارسة عند ريشارد فايس ، الفولكلور السويسري . مرجع سابق ، ص‌ص ١٦٥ وما بعدها .

كما يشارك الاطفال بدور حيوي فى مجالس السمر التي كانت تشهدها ليالي رمضان حتى عهد قريب . وبعد انقضاء رمضان وحلول العيد تحرص الاسرة على التفنن فى عمل كعك للاطفال على هيئة عرائس آدمية لادخال السرور الى نفوسهم . وهي ظاهرة ما زالت معروفة فى بعض انحاء الريف المصري وقليل من احياء المدن المصرية حتى اليوم . (٤٧)

٧ ـ تربية الاطفال :

من الطبيعي ان حديثنا عن التربية لا يمكن أن يكون شاملا ولا وافيا ، فنحن أولا لا نعد بحثا عن التربية ، ثم أننا لا نستطيع ان نستغرق فى هذا الحيز المحدود كافة الوسائل والاساليب التقليدية فى التربية . وانما سنقتصر على عرض بعض الخطوط الرئيسية .

الملاحظ اولا ان الاسرة هي اهم عامل فى نقل التراث الشعبي الى الطفل ، وهي تتفوق فى ذلك على كافة وسائل ومؤسسات التنشئة الاجتماعية الاخرى ، خاصة فى المجتمعات التقليدية . ومن بين أفراد الاسرة تعد الام الشخصية الاولى صاحبة الدور الجوهري فى توصيل التراث الى الطفل .

وقد أشرنا فى صدر هذه الدراسة الى قوة العلاقة بين الطفل وامه . ولكننا نؤكد هنا أن الطفل هو كل شيء فى حياة والديه . وقد عبر شابرول عن ذلك بصورة بليغة فى دراسته المتضمنة فى كتاب وصف مصر (٤٨) ، حيث يقول : « وهكذا يبدو أن العناية الالهية تقيم نوعا من التعويض بين المزايا التى توزعها على الشعوب ، فهذا هو المصرى الذى ليست له نفس مباهجنا وملذاتنا او نفس ميزاتنا الجسدية او الروحية التي تبعده عن اسرته يعرف اكثر منا معنى العواطف الطبيعية . فاطفاله هم كل شيء فى حياته. وهم مصدر كل سروره وفخره وآماله. ولربما كانت احاسيسه اكثر واقل تنوعا لكنها اكثر نفاذا وأكثر حقيقة . وهو يدين بذلك الى براءة عاداته وكذا الى بساطة تقاليده . لقد وجدها كامنة فى نفسه وفى ثنايا أسرته ، فليس ثمة من المرارة والندم العائلي ما يسمم مباهجه . »

الملاحظة الثانية ان عملية التربية وأعني بها توصيل التراث الثقافى الى الطفل لاتتحدد بحدود زمنية معينة ، وانما هى تتم بشكل مكثف فى سنوات العمر الاولى . ولكنها تظل مع ذلك مستمرة طوال العمر ، بحيث يتم امتصاص (أو استدماج) القيم والمعايير ونماذج السلوك الاجتماعية امتصاصا كاملا .

والتربية لا تتم على نحو واحد او بوسيلة واحدة او وسائل بعينها ، ولكن الأسرة والمجتمع المحلى بوجه عام يسخر كل ما لديه من ذخيرة لتحقيق هذا الهدف العزيز . فتتوسل الأسرة

---

(٤٧) يروى وليم نظير فى : العادات المصرية بين الامس واليوم ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ١٨ ، يروى انه عثر فى دير المدينة بطيبة من عصر الدولة الحديثة على انواع من الخبز على هيئة اشكال آدمية كانت تقدم للاطفال فى الاعياد . وهى محفوظة بقسم الزراعة المصرية القديمة بالمتحف الزراعي بالقاهرة (قطعة رقم ١٤٤٧ ، أ ب ، جـ) .

(٤٨) دى شابرول ، سكان مصر المحدثون ، مرجع سابق ، صفحة ٥٤ .

الى ذلك بالقدوة أولا ، وبالتعويد والتدريب المتكرر ، وبالأوامر والنواهى المباشرة والمتفاوتة القوة ، بقص وانشاد الاغانى ، والقاء الأمثال والحكم ، والاشتراك فى المناسبات والطقوس الاجتماعية (عامة وخاصة على السواء) .

والقيمة الأسياسية التى تحرص الأسرة على غرسها فى نفس الطفل هى قيمة احترام الوالدين ، والكبار بصفة عامة . وبديهى أن استقرار هذه القيمة فى نفوس الاطفال تسهل مايلى ذلك من وصول تأثير سبل التنشئة السالف ذكرها الى أعماقهم . ولشابرول عبارة جامعة عن قيمة الاحترام فى نفس الطفل المصرى، يقول فيها : « ان احترام الابناء لآبائهم وامهاتهم يذهب الى حد بعيد ، فهم لايخرجون من كنف الحريم قبل سن البلوغ . ويخضع الذكور منهم لهذه القاعدة . ومع ذلك فهم لايسكنون نفس الحجرة التى تقيم فيها الأم ـ ويأتون كل صباح لتقبيل يدها ويظلون للحظات واقفين أمامها وأذرعهم معقودة على صدورهم . ثم ينزلون بعد ذلك الى والدهم ويقدمون له نفس امارات الاحترام . ومع ذلك فالأب لا يقبل وجودهم على مائدته الا اذا كان ذلك فى يوم يعد من أعياد الأسرة . (٤٩) وهو ـ كذلك ـ لايسرف فى تدليلهم ويحتفظ معهم باستمرار باللياقة الواجبة . وهذه عادة عامة عند كل الطبقات . وتستطيع الطبقة الدنيا وحدها أن تخرق هذه القاعدة . » (٥٠)

على أن هذا الحرص الكبير على تربية الطفل يمكن أن يتعرض ـ كما هو متوقع ـ لبعض الصور غير السوية ، أو مظاهر التطرف من تدليل أو قسوة . وتحت أيدينا شواهد عن مظاهر هذا التدليل كما سجلها بعض المؤلفين . اما اذا أردنا شواهد عن القسوة فيكفى أن نرجع الى اى وصف للكتاب فى القرية المصرية ، لنرى الى اى مدى يسىء العريف استغلال السلطة التربوية الممنوحة له (٥١) .

أما عن التربية الرسمية فكانت تتم اساسا فى الكتاتيب ، ثم تراجعت جميعا ، أو كادت متخلية عن وظيفتها للمدارس بمراحلها المختلفة والتى عمت مختلف انحاء البلاد .

ومن الموضوعات التربوية ذات الاهمية الفولكلورية الواضحة الشخوص التى تستخدم لتخويف الاطفال . اذ تعرف كل الثقافات الشعبية عددا من الشخوص والهيئات التي تخيف بها الأطفال فترتعد فرائصهم لمجرد ذكرها، او تمثيل هيئتها ، او مجرد التهديد بجلبها .

---

(٤٩) لفتت هذه الظاهرة نظر وليم لين الذى دعى مرة على مائدة افطار ، وظل أولاد المضيف الذكور (وبعضهم فوق الاربعين) يخدم على المائدة دون آن يشاركوهم فى الطعام.

(٥٠) يشير شابرول بوجه خاص الى الاسراف فى تغذية الطفل الى حد اصابته بالتخمة وأمراض اضطراب التغذية ، وكثرة الاغطية التي لاحظها على اطفال بعض الطبقات والتي لا تتفق وطبيعة جو مصر ، كما لا تتفق ومتطلبات الحركة الصحية للطفل ، انظر شابرول ، مرجع سابق ، ص ٥٤ .

(٥١) بالنسبة للكتاب انظر الاوصاف التي وردت له عند أمين أمين ، مرجع سابق ، ص ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥ . ووليم لين ، مرجع سابق ، ص ص ٥٤ ـ ٥٥ . وقبل هذا وبعد هذا الوصف الرائع الذى قدمه لنا الدكتور طه حسين فى كتابه الأيام .

وهى تستعمل للاغراض التربوية عامة : لابعادالطفل عن أماكن معينة ، او تخويفه من ممارسة فعل أو سلوك معين أو اصدار قول معين ...الـخ .

واذا اردنا القاء نظرة شاملـة على تـلك الشخوص التى تستخدم للتخويف من الثقافة الشعبية المصرية وجدنا انها تنقسم الى : ـ

أ ـ كائنات خرافيـة ، كالعفريت ، وأبورجل مسلوخـة (٥٢) ، والسلعوة ، والبعبع (٥٣) ، و « الأخت اللى تحت الأرض » ...الخ

ب ـ حيوانات : اغلبها مألوف فى البيئة ، ولكن تتردد بين الحين والآخر حكايات عن أذاه لبعض الأفـراد ، ومنهـا : الكلب ، والذئب والثعلب ...الخ .

جـ ـ أشخاص ووظائف معينة فى المجتمع: وهى تستدعى للتخويف اما لأنها رمز للسلطة والبطش كالعسكرى (الشرطى طبعا) ، أو لماتحدثه من الم شديد يفزع منه الطفل كالدكتور (الطبيب) واعطائه الحقنة ...الـخ . (مـع مراعاة ما لذلك العنصر الاخير من آثار تربوية سليمة) .

ثانيـا : الادب الشعبي والطفل

أ ـ اغاني الطفـل :

الاغانى الشعبية عموما هى اكثر عناصر التراث الشعبى التى اثبتت بشكل واضح العلاقة بين الثقافة الراقية (أو الرسمية) والثقافـة الشعبية . وتحتل أغانى الاطفال مكانا متميزا داخل تراث الاغانى الشعبية . فهى أقدم أنواع الاغاني الشعبية على الاطلاق واوسعها انتشارا . . كما نجدها تتشابه فيما بينها الى حد بعيد من حيث النغم ومن حيث المضمون بين الثقافات على امتداد العالم . وهى من أغنى المصادر التى تحفظ لنا بقايا معتقدات وممارسات ومناسبات درست ولم يعد لهـا وجود فى عالمنا المعاصر .(٥٤) .

---

(٥٢) « ابو رجل مسلوخة » اسم للعفريت يخوف به الأطفال ويصفونه بأنه مخلوق نصفه الأعلى كالانسان ونصفه الأسفل كالحمار ، وله ذنب وبفخديه سلوخ فى الجلد يظهر منها لحمه الاحمر . وهذا الوصف نقـلا عن احمد امين ، القاموس ١٧ . مع مراعاة أن تلك الاوصاف تختلف اختلافا شاسعا من صالة لاخرى ، لانها تصف كائنا خرافيا لا وجود له ، ويحتفظ كل انسان لنفسه بصورة خاصة عنه تشترك فى الملامح العامة ولكنها تختلف فى بعض التفاصيل .

(٥٣) « البعبع » ـ حسب وصف احمد امين أيضا ـ المرجع السابق ، ص ٩١ مخلوق غريب مخيف ، يخوف به الأطفال ... » وهو من الأشياء التي تخلع قلوب الاطفال من الصغر ، وتنشئهم جبناء » . لمزيد من المعلومات حول هذه الشخصيات الخرافية ارجع الى مقالنا عن الجن ، المعتقد الشعبى المصرى ، الذى سبقت الاشارة اليه .

(٥٤) سوف نقتصر فى هذا القسم من الدراسة على تناول موضوعى اغانى الاطفال والالغاز ، مع علمنا بأن هناك بعض الانواع الادبية الشـعبية الاخـرى الوثيقة الاتصـال بالطفل ، ولكنها تحتاج الى دراسات مستقلة ، وعلى رأسها الحكايات الخرافية . كما ان معالجتنا للموضوعات الشعبية ستأتى بالضرورة موجزة اشد الايجاز لانها قد درست بتفصيل اكبر فى المؤلفات الخاصة بالادب الشـــعبى . انظر حـول موضوعنا مزيدا من التفاصيل عند ، رشدى صالح ، الادب الشعبى ، مواضع متفرقة ، نبيلة ابراهيم ، الدراسـات الشعبية بين النظرية والتطبيق ، مرجع سابق ، واشكال التعبير فى الادب الشعبى ، « الحكاية الخرافية ، وانظر نماذج عند احمد امين ، مرجع سابق ، وكذلك قاموس فونك للفولكلور . ص ٢١٩ ، وقامـوس باتيل للفولكلور ص.ص ٤٠٩ ـ ٤١٠ .

ومن أوجه الأهمية الكبيرة التى تحفزنا الىضرورة الاهتمام بتسجيل اغاني الاطفال ودراستها وتحليلها :

أ ـ تتميز اغانى الاطفال الشعبية بوضوحارتباطها الاجتماعي ، فهي تعبير حي واضح عن المجتمع ، وهى ما يمكن أن نسميه تراثا شعبيـــابالمعنى الصحيح .

ب ـ كشفت الدراسات السابقة لاغانىالطفل (العربية والاوربية على السواء) بوضوح شديد عن صفة الاستمرار عبر الزمن ، على نحويمكن ان يمتد عبر مئات او آلاف السنين احيانا ، . وهى تشبــه فى ذلك أغلب عناصر التراثالشعبى المتصلة بالطفل .

وتتميز اغانى الاطفال من الناحية الشكلية(أو الفورم) بأن الايقاع هو الذى يلعب الدور الحاسم فيها . وهذا يفسر لنا طبيعة العلاقةالوثيقة بين أغانى الاطفال والالعاب الشعبية ، وكذلك بين اغانى الاطفال والرقص الشعبى .كما تتميز اغانى الاطفال بالقافية الواضحة التى يستبدل بها احيانا السجع والجناس الاستهلالى. أما النغم فموقع توقيعا شديـدا ، ويتميـز بنفس الشكل الأساسي الذى يطوع عضويا معكل النصوص . بل يمكن القول بأن لحن اغنية الاطفال واحد متكرر ، طالما لم يتعرض بالطبعلمؤثرات من المدرسة أوأى مصدر آخر من مصادر الثقافة الرسمية .

ويمكن تقسيم اغانى الاطفال مـن حيثالمضمون الى أربع مجموعات أوفئات كبيرة هي :

أ ـ المجموعة الاولى هى تلك الاغانى التىتتردد فى أثناء التعامـل بين الطفل والكبـار المحيطين به ، خاصة الأمر . وتنتمى الى تـلكالمجموعة اغانى المهد ، واغانى ملاعبة وهدهدة الطفل ، والاغانى ذات المضمون التربوى بصفةعامة . (٥٥)

ب ـ المجموعة الثانية هى تلك التى تترددمن خلال تعامل الطفل مع البيئة، وخاصة البيئة الطبيعية المحيطـة . فالطفل يغنى لكثير مـنالظواهر والتغيرات الطبيعية التى تلفت نظره او تخيفه أو تعجبه او تفاجئه ...الخ فهو يفرحللمطر ، ويمضي تحت وابله منتشيا ، فيتمنـى ان يشتد ليزكو الزرع ويفيض الانتاج فيمتلـىءبطنـه . (٥٦) ومرة ثانيـة يتمنـى ان تصيب السماء ماءها فيملأ « القلة » (٥٧) . واغنيـةاخرى يرجو فيها ان يفيض المطر فتفيض بـه

---

(٥٥) انظر بعض نصوص لاغانى هدهدة الطفل عندرشدى صالح ، الأدب الشعبى مرجع سابق ، الجزء الثانى ، ص‌ص ١.٥ وما بعدها .

(٥٦) انظر نصا لاغنية بهذه المناسبة عند رشـدىصالح ، الادب الشعبي ، مرجع سابق ، ص ٢٣٩ .

(٥٧) نص الاغنية فى المرجع السابق ، ص ٢٤٠ .

دروب القرية ويعوم الاوز . (٥٨) والطفل يغنى للقمر عندما يختنق ، ويغنى للشمس وهو يرمى اليها بسنته التي سقطت (٥٩) ويغني للرعدوالبرق ... الخ . كما يغني للحيوانات والطيور المعروفة فى بيئتها . وقد أورد رشدى صالح أغنية تحكى قصة طائر « أبو قردان » الذى طالما عرضه فى الحقول وبهرهم بخفته وسمعوا من آبائهم أن صيده « حرام » ، والذى تثير مثل هذه الاغنية حبهم له لأنه « مسكين » بلا ولد . (٦٠)

جـ ــ المجموعة الثالثة هى تلك الاغانى التى تنشأ نتيجة العلاقة الوثيقة بين الايقاع واللعب ، فتنشأ اغانى اللعب ، واغانى الرقص ، والاغانى التنافسية .. الخ . (٦١)

د ــ اما المجموعة الأخيرة فتنشأ نتيجة التفاعل بين الطفل والمجتمع المحيط به فى مناسبات العادات الشعبية المختلفة فى مراحل دورة الحياة(كأغانى السبوع ، والختان ، والزواج ...الخ) ، والمناسبات التى ترتبط بمرور العام وتتابعه(كأغانى الاعياد الدورية ورمضان ..الخ) . ويبدو هذا بشكل جلى سمة هامة من سمات الاغنية الشعبية (بالمعنى العام الشامل) التى نقدتها بمرور الوقت ، وظلت باقية فى اغانى الاطفال فقط ، وأعنى الترابط العضوى الوثيق بين الاغانى الشعبيه ومناسبات العادات الشعبية المختلفة .ولا نغالي اذ نقول ان استخدام تلك الاغاني فى مناسبات العادات الشعبية اصبح هو المبرر الاول لبقاء واستمرار اغاني الاطفال .

ولكن ماذا عن مستقبل اغانى الاطفال ؟ من الملاحظ بالنسبة لمجتمع كالمجتمع المصرى ــ على سبيل المثال ــ أن الثقافة الرسمية (الراقية) لم تكن تحفل بأغانى الاطفال ، وأن كل اغانى الاطفال كانت مستمدة ــ حتى عهد قريب ــ من التراث .ولم يكن هناك اختلاف بين الطبقات الاجتماعية أو المناطق الجغرافية فى هذا الأمر . اذ كان الجميع يهدهدن أطفالهن باغان تعلمنها من أمهاتهن وجداتهن . كذلك كان الاطفال فى سن المدرسة يلهون بأغان مما لم يتم انتاجه فى «معامل» الثقافة الرسمية . ولكن ما أن بدأت الثقافة الرسمية تنتج اغانيا للطفل ، حتى تلقفها اغلب الطبقات العليا والوسطى ، خاصة تلك الفئات التى ترغب فى أن تنفض عن نفسها العناصر الشعبية وتبعد عن نفسها اى شبهة انتماء شعبى (لأنه أصبح يعنى انتماء للطبقات الدنيا) . ثم لاننسى بعد هذا دور المؤسسات التربوية الحديثة(المدارس اساسا)ووسائل الاعلام فى ترويج كثير من اغانى

---

(٥٨) النص فى المرجع السابق ، نفس الموضع .

(٥٩) أنظر هانز فينكلر ، الفولكلور المصرى(بالالمانية) ، شتوتجارت ، ١٩٣٦ .

(٦٠) نص الاغنية عند رشدى صالح ، المرجع السابق ، ص ٢٣٩ .

(٦١) انظر بعض النصوص فى المرجع السابق ، ص ص ٢٤٠ ــ ٢٤١ .

المناسبات الوطنية للأطفال . معنى هذا أن ثروةأغانى الاطفال فى مجتمعاتنا المستمدة من التراث الشعبى معرضة للزوال فى المستقبل القريب ، مالم نلتفت الى تطويرها والترويج لها (من خلال وسائل الثقافة الرسمية ايضا) .

٢ ـ الالغـاز :

يرى بعض العلماء أن الالغاز فى نشأتها الاولىتعد نوعا من الشعر الشعبى من مستوى رفيع ، شانه فى ذلك شان التعاويذ والأدعية السحرية ،وصيغ الاستنجاد بالقوى العلوية . ويرى هـذا الفريق من العلماء أن الطرق الصوفية والفرقالدينيـة كانت تستخدم هـذا الاسلوب (مـن التسـاؤلات الحكمية ذات المغزى الدينى أو الصوفى) فى تربية أفرادها والحكم عليهم وترقيتهم فى مدارج الطريق . كمـا كان بعض المطاردين مـناصحاب الدعوات الدينية والصوفية وأصحاب الدعوات السرية يتخذون الالغاز اسلوبا لتبادلالرأي واذاعته . (٦٢)

ولكن هناك الى جانب ذلك عامل آخر فىتكوين اللغز والاحتفاء به لدى الاطفال والكبار على السواء . هذا العامل هو الرغبة الكامنة لـدىالانسان والميل الى لعبة الاخفاء . ويبدو هـذا الميل فى أوضح صوره لدى الطفل ، ولكنه موجودلدى كل منا على أى حال .

ومحور هذا الأسلوب حفز المشتركين الىالبحث عن الأشياء العادية المألوفـة وراء هـذا الوصف الشعرى المعمى . وهذه الرغبة فى الاخفاءوالالغاز تتعارض بطبيعـة الحال مع أسلوبنـا العصري (الرسمي) الذي يتوســل بالمنطـقويسعى الى الوضوح . ولكنه يتفق مع ذلك مع التصور البدائى عن وجود صلة قرابة بين كلالأشياء الموجودة فى هذا العالم . وهو تصور على الاعتقاد البدائى بوجود نوع من التناغم فى الوجودكله . ومعناه أنـه توجد بين كافـة الأشياء والعمليات التى تبدو متقاربـة أو متباعدة فىالظاهر علاقة داخلية عميقة .

فعلى حين يبدو لنـا أسلوب اللغز امرامجافيا لتفكيرنا المنطقى ، فقد كان يؤدى فى الاصل وظيفة عميقة الدلالة هى رؤية صلة القرابةوالرابطة المشتركة بين البشر ، والحيوانات ، والنباتات ، وكافة الأشياء ، وادراكها ككائناتعلى مستوى واحد .

ويمكننا ان نلتمس اليوم القواعد الراسخةلكل من الالغاز والحكايات الخرافية من نفس القطاعات الشعبية ، حيث تتجلى بأوضح صورهالدى الاطفال . فهم اليوم الجمهور الاول لكل من اللغز والحكاية الخرافية . فالصبى أو الفتاةيحفظون منها قدرا يسوقه الواحد منهم عندما

(٦٢) وذلك على أساس أن الالغاز رموز لمعان مخبوءة ، قد يستطيع الفرد حلها بذكائه ، ولكن الكثير منها لا بد أن يعرف المرء « شفرته » كما يقال . انظر رشدى صالح ، فنونالأدب الشعبي ، الجزء الثاني ، صص ١٤ ـ ١٥ ، حيث تجد معالجة اوسع لموضوع الالغاز من وجهة نظر دارسى الأدبالشعبي .

ينازل احد أقرانه ، ويتلهى الاب والأم بايرادهاعلى مسامع ابنائهما . وذلك بأن حل اللغز من اكثر الموضوعات رواجا وقبولا لدى العامة ، ومنأكثر الموضوعات نجاحا فى الادب الشعبى .

وتعكس الالغاز علاوة على هذا سمة منالسمات المميزة للغة الشعبية بصفة عامة ، وهى الميل الى التشخيص (أو التجسيد) ، مما لامجال للخوض فيه تفصيلا هنا ، ويجد القارىء دراسات وافية فى بعض مراجع الادب الشعبىالحديثة . (٦٣)

ويترتب على تلك السمات السابقة للغزأننا لايصح ان نفاجأ عندما يحاول البعض اقامة الدليل على وجود نفس اللغز (وكذلك بعضالحكايات الخرافية) ربما بنفس النص ونفس الاستخدام ـ فى أماكن متباعدة على خريطـةالعالم ، بل ربما فى كافة ارجاء العالم . ذلك لأنه يستجيب بهذا الوضع لسمات انسانية عامةلصيقة بالانسان حيثما كان ، لانها انبثقت عنه بوصفه انسانا .

ومع ذلك فلا بد ان نسلم فى نهاية الأمر ـورغم كل ما قلناه ـ بأن الحضارة العقلية الحديثة التى تتسم بالرشد قد أدت الى تراجع اللغز حتىبين الاطفال أنفسهم . حيث أصبح الناس اكثر انطباعا بالاسلوب المنطقي فى التفكير ، علاوة علىأن سرعة ايقاع الحياة الصناعية الحديثة لم تعد نـوع مكان للتفكـير العابث ان يأخـذ مـــداهويستغرق فى حل ما يطرح عليه من الغاز .

والملاحظ كذلك ـ على الاقل فى كثير مندراسات الفولكلور الاوروبى ـ أن الميـل الى الالغاز (تأليفها وحلها) لدى الكبار قد انحسربحيث اصبح يقتصر أساسا على ميدان الجنس . وفى هذا المجال تداخل اللغز الجنسى مـعالنكتة الجنسية المعتمدة على التورية والجناس والتلاعب اللفظي .

● ● ●

رابعـا :

العاب الاطفال الشعبية :

الالعاب الشـعبية ضرورة اساسيـة مـنضرورات الطفولة تصاحب الطفل منذ بداية تكون القدرات الحركية عنده ، وتتطور معه تبعـالتطور قدراته الجسمية والنفسية والاجتماعية . فهى بذلك حاجة طبيعية لديه ، لاتحتاج الىتربية معينة لتعويده عليها أو جذبه اليها ، وربما فقط لتنظيم ممارسته لها . ويتم هذا التنظيمبشكل تلقائى عادة من خلال التفاعل مع امه فى البداية ، ثم مع رفاقه بعد ذلك .

---

(٦٣) انظر على سبيل المثال ، ريشارد فايس ، المرجعالسابق ، صص ٢٥٢ ـ ٢٧٦ . وكذلك المراجع والدراسات الواردة هناك .

والالعاب الشعبية بصفة خاصة متنوعــةتنوعا كبيرا فمنها الالعاب الصغيرة والكبيرة ، ومنها الفردية والجماعية ، والهادئــة والكثيرةالحركة ، ومنها الداخلية (التى تتم داخل مكان مغلق) والخارجية . كما انها متدرجة ففيها مايصلح لكل الاعمار والقدرات . وهــذا التنوع الكبير يلبى شرط العمومية والانتشار ، ففيهاالمناسب لكل اتجاه ولكل قدرة ولكل مرحلــة عمريــة . والالعاب الشعبيـــة لاتحتاج لمعداتخاصة أو أدوات رياضية معقدة ، ولا تحتاج بالطبع للاعب خاصة ، وانما يمكن تدبيرها بأبسـطالامكانيات وبما هو متاح فى البيئة المحلية ، وعلى أى أرض اوفى أى مكان متوفر امام الطفل .والسمة الهامة الاخرى فى الالعاب الشعبية أنها لاتتطلب مسبقا أيه استعداد خاص أو مهاراتمعينة فيمن يود ممارستها ، بل هى التى تربى المهارات وتهذب الاستعدادات وتنميتها . وهىلذلك تتسم بالبساطــة اذ بوسع أى فرد أن يفهمها وان يؤديها ، لأن القوانين التى تحكمهاسهلة ميسورة وبسيطة . وهذه الخاصية تجعلها فى متناول الجميع فلا يشعر أحد بعجزه ازاءها. وتلك من العوامل التى تؤكد ذيوعها وانتشارها بين كل الدوائر الشعبية . ومن أهــم سماتالالعاب الشعبية انهــا طابــع محبب يستهوى اللاعبين . فهى تهدف ــ من بين ما تهدف اليهـ الى اظهار المهارة وسرعة البديهة (وأحيانا القوة) ، فتشد الاطفال الى ممارستها وتحقق لهم بذلك قدرامن الاشباع هم فى حاجة طبيعية اليه . وهى كذلك تساهم فى نهاية الأمر من خلالالمران المستمر عليها ــ الى تنمية سرعة الخاطر وحضور البديهة لدى ممارسيهــا .

لذلك يمكــن أن نقــول بحق ان الالعــابالشعبية تعمل على تكوين الشخصية الناضجة ، وتتيح الفرصةللطفل لتنمية استعدادتهوقدراته،ومتابعة احتياجاته الاساسية بدنيــة ونفســية واجتماعية(٦٤) .

وتتميز العاب الاطفال شأنها شأن كافــةالعناصر الشعبية المتعلقة بالطفل (كأغاني الاطفال مثــلا) بأنها تحتل فى المجتمع مكانة أكبر مــنالعاب الكبار . كما انها تعكس مثل بقية عناصر التراث الشعبي الخاصة باطفال تراث الاجدادبشكل أوضح من تراث الكبار(٦٥) .

---

(٦٤) انظر حول هذا الموضوع ، محمد عادل خطاب ، الالعاب الريفية الشعبية ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٤ ، ص ص ٣٢ وما بعدها .

(٦٥) استعرض وليم نظير ، المرجع السابق ، ص‌ص٥٨ وما بعدها عددا من الالعــاب التي وردت شــواهد من وجودها عند قدماء المصريين ، وما زالت تمارس حتى اليوم فى مدن مصر وقراها . من هذا مثلا التحطيب ، ولعبة الكرة (تقاذف الكرة باليد بين الفتيات) ، والنط (التي تعرفباسم نطة الانجليز) ، والسيجة ، والداما (الداما كانت على هيئة مائدة من الطين غير المحروق فوق اربع قطع من الطينتقوم مقام الأرجل ، وسطحها مقسم الى ثمانية عشر مربعا ومعها نحو اثنتى عشرة قطعة للعب مصنوعة من الطين ومغطاةبالشمع . وهي لعبة مسلية) . هــذا علاوة على رياضــة الصيد ، بانواع واساليب مختلفة . وقد أورد نصوص وصورعدد من الشواهد التي استند اليها .

فعلى حين نجد ان العاب الكبار لا تعدو ان تكون فى اغلب الاحيان مجرد تمارين بدنية أو عمليات تحريك للجسم ، نجد أن العاب الاطفال تتميز بأنها مزيج رائع بين حركة الجسم والمضمون الذى تعبر عنه .

ومن هنا ندرك سبب اهتمام علم الفولكلور فى كل بلاد العالم بدراسة العاب الاطفال بدرجة تفوق الاهتمام بدراسة العاب الكبار . فقد لاحظنا أن العاب الاطفال قد حفظت لنا كثيرا من عناصر التراث القديم ، التى كان يمكن ان تختفي دون أثر لولا ارتباطها بألعاب الاطفال . ولكن هذا الاستمرار الثقافى يفرض علينا التزام الحذر الشديد عند التعرض لتفسير مدلول هذه الالعاب ومعانى ما تتضمنه من رموز أو اشارات . ذلك أننا هنا بصدد صور باهتة ــ غالبا ما تكون مشوهة أو معدلة ــ لالعاب قديمة درست من عالم الثقافة التقليدية على امتداد آلاف السنين .

ولكن هذا الحذر وهذا التحفظ لم يمنع كثيرا من الباحثين من أن يؤكدوا بكل قوة :ــ ان دلالة التراث والمجتمع بالنسبة لعالم الطفل والعابه دلالة واضحة وقوية . ويرى هذا الفريق من الباحثين أن دراسة العاب الاطفال تعد اسهاما هاما بعيد الاثر فى تأسيس فهم انثروبولوجى شامل ومتكامل للانسان(٦٦) .

ويدلنا التأمل السريع لالعاب الاطفال التى عرفتها المجتمعات فى العصور الغابرة وتلك التى ما زالت معروفة فى أيامنا أن بعض تلك الالعاب مجرد تقليد لبعض العمليات أو اساليب السلوك وبعضها الاخر مجرد تدريب أو استعداد (ربما من الوجهة البيولوجية) لحياة الطفل فى مرحلة البلوغ عندما يصل اليها . أما الجانب الاكبر من تلك الالعاب فيعكس لنا بوضوح خيال الانسان وقدراته الخلاقة ، وفن التجسيد الحى للافكار والعمليات والمعانى ، والقدرة على الفهم الحقيقي لكثير من جوانب الحياة .

ويبدو ان اللعبة (اعني الدمية او الشىء الذى يلعب به الطفل) هي التى تضفى على العاب الاطفال طابعها الرئيسى ومعناها الخاص . ولكننا نلاحظ مع ذلك ان تطور اللعبة واندماج الطفل فيها يأخذ فى الابتعاد التدريجى عن اللعبة كشىء مادى ، وتحتل فيها اللعبة (الدمية) مرتبة ثانوية فى عملية اللعب نفسها . ولكن لنا أن نتساءل اذا كانت اللعبة (الدمية او الشىء) تتقلص أهميتها ويتراجع دورها بهذا الشكل ، ففيم اذن ذلك الاهتمام الكبير من جانب دارسي

---

(٦٦) انظر مزيدا من التفاصيل عند ريشارد باتيل ، قاموس الفولكلور ، مرجع سابق مادة العاب الاطفال ، ص ص ٤١١ ــ ٤١٢ .

التراث الشعبي بالعاب الاطفال ؟ ربما يرجع ذلك الى اننا نرى فى تلك الالعاب تعبيرا عن قدرة فنية بدائية على التشكيل ، تتفق وشخصية الطفل وتكوينه النفسى والفكرى والعاطفى (٦٧).

والملاحظ بصفة عامة أيضا أن العاب الاطفال الراقصة والغنائية ترتبط بالمرحلة العمرية للطفل ، فكل عمر له العابه وله أغانيه التي تتفق ومزاجه وتتفق كذلك و « العرف » السائد بين الاطفال . فطفل العام والعامين يسعد أكبر السعادة حين الاعبه لعبة البيضة » ، ويستنكف طفل السادسة ان الاعبه اياها .

ولكن فى كل تلك المراحل تتحدد حركات اللعب بايقاع الاغاني او الكلمات المسجوعة المصاحبة، فهي التي تضبط هذه الحركة وتنظمها، وتدخل فى تكوينها مكونة معها نسيجا عضويا متماسكا . ولكن مع اضطراد نمو الطفل ، ثم نلحظ بدايات حدوث اختلاف بين تطورها عند الاولاد وعند البنات . حيث تظل الايقاعات الغنائية والكلمات المسجوعة تنظم حركة اللعب عند البنات . أما عند الاولاد فتتجه الالعاب الى اتخاذ الطابع الحركى والطابع الصراعي الواضح (الذى لا يخلو من العنف أو استخدام القوة البدنية) .

وهذا التطور هو نفسه الذى يجعل من الصعب علينا فى بعض الاحيان أن نفصل فصلا قاطعا حاسما بين العاب الاطفال والعاب الكبار . اذ تمثل تلك الحلقة بدايات الدخول فى العاب الكبار أحيانا .

وأقصى ما يمكن أن نجريه فى هذا الصدد هو التمييز بين العاب الشباب أو كبار الاطفال والعاب الكبار العاملين (الذى بدأوا يمارسون عملا منتجا) . ولكن لا شك أن مثل هذا التمييز شىء قليل الفائدة وضعيف الدلالة بالنسبة لتاريخ الالعاب من وجهة نظر دارسى الفولكلور . واقصى ما يستطيع دارسو التراث الشعبى عمله اليوم هو تحديد الخطوط العريضة لتطور العاب الاطفال فى ضوء التاريخ العام للالعاب عموما .

● ● ●

---

(٦٧) يثير بعض المشتغلين بالفلولكلور مسالة تحول انواع معينه من ادوات السحر والادوات المستخدمة فى الطقوس والمناسبات الاعتقادية الى مدار اللعب او الى حيث تكون مادة للسخرية . ومن الامثلة التي يقدمونها شاهدا على ذلك عرائس الاطفال . فالمعروف انها شائعة فى شتى الوان السحر فى كل العصور ، تتخذ انموذجا للكائن البشرى ، فتلقى عليها العزيمة او الرقية . وما تزال النساء فى قرانا حين يردن رد العين يصنعن عروسا يثقبنها بدبوس ، ويلقينها فى النار بين البخور ، وكانها تمثال للحاسد او الحاسدة . ثم تجد البنات يشغفن شغفا جما بالعرائس . ونقطة الجدل هنا خاصة بالصلة بين السحر واللعب . ويرى رشدى صالح فى كتابه الأدب الشعبى (ص ٢٤١) أن الفراغ ووسائل تمضيته توأم العمل ذاته ، ومثله فى العراقة والقدم . ويرجح ان الانسان بدأ فى فجر تاريخه يلهو اثناء قعوده عن طلب الطعام وقبلما يخطو الى حيث يريد السيطرة على مصادر الخير والشر . وبالتالى فاللعب ووسائله اعرق من السحر .

خــاتمــة

لمسنا على امتداد الدراسة كيف أن الطفل هو محور لكثير من العادات والمعتقدات الشعبية، ومستهلك رئيسي لعديد من الانواع الادبية الشعبية ولطائفة كبيرة من الالعاب الشعبية . وهو البطل الاول لعملية التنشئة الاجتماعية ؛ وكل عملية نقل التراث ، من جيل الى جيل انما هي بيان عملى حى متجدد لاهمية الطفل من حيث علاقته بالتراث الشعبي .

ولكن الملاحظ ان طريقة الاهتمام بالطفل قد اختلفت فى المجتمع المعاصر عن المجتمعات التقليدية ، واتخذت مسارا مغايرا . فقد اصبح الطفل فى مجتمع اليوم تعبيرا عن مستوى الاسرة، واصبح مظهره مقياسا لحالة الاسرة . ولذلك اصبحت عملية تنشئة الطفل متأثرة بسيطرة النزعة الفردية على مجتمعنا المعاصر . ذلك المجتمع الذى يركز بكل الشدة والاصرار على تدعيم القدرات الفردية لكى يحقق الطفل نجاحا كبيرا فى مستقبله . والتعليم هو فى رأى أبناء كافة الطبقات الاجتماعية خير ضمان لتهيئة مستقبل مناسب للطفل . ولم يكن هذا التوتر قائما فى الماضى ، لان الطفل كان يرث مكانة أسرته كما يرث مهنة والده .

وهذا التركيز على الاعداد الفردى للطفل حرمه من اللعب ، ومن الغناء ، وصرف نظر الوالدين عن كثير من أركان عملية التربية الحقة . لان المهم هو تحصيل مزيد من التعليم ، وتحقيق النجاح الفردى فى المستقبل .

وترتبط هذه النقطة كذلك بانفتاح الطبقات الاجتماعية ، وشدة وكثافة الحراك الاجتماعى فى المجتمع المعاصر . فهذا الانفتاح الطبقى وبروز المكانة المكتسبة كعنصر غالب فى تحديد مكانة الشخص ، جعل الطموح الفردى أو طموح الوالدين لابنهما لا يقف عند حد . ومن هنا تفسير هذا الاهتمام الهستيرى بنجاح الابن فى المستقبل . ذلك ان هذه المرونة فى سلم التدرج الاجتماعى هي نفسها التي تجعل من السهل ان يسقط او ينحدر هذا الابن فى سلم التدرج الاجتماعى اذا لم يزود بامكانيات النجاح .

ان الطفل فى مجتمع كثير من البلاد النامية اليوم دخل طرفا فى سباق الصعود الطبقى ، فأرهقت ملكاته الرقيقة ، واستنفذت فى أغلب الاحيان لغير ما خلقت له . فأصبح هذا الطفل ــ مالم ندركه بالعلاج المناسب ــ أقل سعادة وأقل « طفولة » .

★ ★ ★

ألفت حقى

ثقافة الطفل

فى أواخر القرن الثامن عشر ، أثناء ظهورالبوادر العلميه الأولى لفهم التطور العقلى والانفعالى للانسان ، عثر بعض القناصه علىطفل فى الثانية عشرة من العمر (١) ، يجوب غابات افيرون Aveyron خارج مدينة باريس بفرنسا . وكان الطفل لايتحرك الا على يديه وقدميه ، يطلق أصواتا غير مفهومه تصدر عادةمن حيوانات المنطقة ، ويهاجم بأسنانه واظافره كل من يقترب منه . عندما عرض على فيليب بينيل Philippe Pinel (١٧٤٥ — ١٨٢٦) وهو من مشاهير الاطباء النفسيين الفرنسيين ، شخص الطفل على أنه حالة تخلف عقلى عميق غير قابلة للتحسن . ولكن تلميذه أيتار J.M.C. Itard . . . رأى ان شدة التخلف العقلى عند الطفل لم يكن سببها الانعزاله عن المجتمع الحضارى ، وحرمانه ، بالتالى ، من تكوين استجابات اجتماعيه يتعلمها الاطفال الآخرون لتعرضهم المستمر للمثيرات التى تولدها . ومع ان ايتار نشر ورقتين في سنة ١٨٠١ وسنة ١٨٠٧ تعبران عن خيبة أمله الشديدة لاخفاقه فى تعليم الطفل الاعتماد الكامل على نفسه ، الا ان الاكاديمية الفرنسيه للعلوم

(*) مدرسة علم النفس بكلية الادارة جامعة الاسكندرية .

(١) Humphrey, G. and Humphrey, Muriel. (1932). **The Wild Boy of Aveyron.** Appleton- Century Crofte. New York. (Translation of Reports of Itard IBOI-1807).

اجمعت على ان الطفل اظهر تقدما ملحوظا عــن الحالة التى وجد عليها . فقد تعلم المشى منتصبا ، واصبح ينطق كلمات بسيطه ، ويتعامل مــع الافراد المحيطين به بأسلوب اكثر تحضرا ، حصل هذا كله ، مع أنه كان متخلفا عقليــا .

كيف يصل الطفل الى ما يكون عليه غدا من معارف ، كالقدرة على القراءة والكتابة والتعامل بالارقام ، أو التهيؤ لفهم الآخرين والتفاعل معهم بما يناسب الموقف ، او التوتر لعمل الاشياء او

توليد الافكار او مواجهة المشاكل ؟

يساعده فى الوصول الى هذا كله قدرته على المادة واسلوبــه فى اختيار المنهج ، علاوه على اسلوب محيطه فى تقديم المادة التى ستوصله الى اهدافه ، . وتنتهى هذه العمليات المتصله بتكوينه النفسي والعقلــى الى تكامل وظيفى بينــه وبين بيئتــه يسمى ثقافته .

الثقافه هى مجموع المورثات الاجتماعيــه التى تمثل انجازات جماعة ما (٢) . وعليه فان ماتتوصل اليه مجموعة من الافراد ، من افكــار وعادات وقيم او مناهج وانشطة عمليه أو انتاج فكرى او يدوى او اساليب لنقل هذه المعلومات والخبرات من جيل لجيل ، كل هذه فى مجموعها تمثل ما نسميه بالثقافه ، وهذا يعنى ان التنظيم الاجتماعى لأي مجموعة مــن السكان لايمكن ان يدرس ويفهم الا عن طريق ثقافتها . فالجــزء الفيزيقى من البيئة الذى يصنعه الانسان حوله (ماواه ــ أوانيه ــ كساؤه ــ أدواته العملية اواساليبه التكنولوجيه) ، ثم الجزء الميتافيزيقى الذى يخلقه لنفسه فى نفسه (الرموز ــ المثل ــ قواعد المعامله ــ الخيال والاساطير ــ التنظيمات العلميه أوالترفيهية أوالضابطه) يشكلان مخلفات جماعة سابقة تعالجها الجماعــة الحاضرة لكــى تعيد صياغتها للجماعة المستقبلة أو تناولها لها كما تناولتها .

أين يقف الطفل من كل هذا ؟

الاجابة على السؤال هنا ترتكز على قاعدة عريضة أساسها ان الطفل يولد مفلس المعلومات الخاصة ببيئته الخارجية ، خصب الاستعداد للاستقبال وخزن المعلومات الخاصه بكل خبرة يتعرض لها ويتكيف اى انه منظمة حيوية خام ، لها صفاتها الخاصة فعلا ، ولكنها شديدة التفاعل مع كل مــا تحتك بــه . هو اذن اجتماعى من صنع بيئته ،ولكنه تكوينى من خلال وراثته . فتكوين الطفل phenotype يتبع خصائص وراثية genotype تخزنها مورثاته genes وتنقلها من جيل لآخر مستمرة الى مالا نهاية احيانا . وقديتبادر الى الاذهان ان الثوابت الوراثية لاشأن لها بثقافة الطفل ، ولكنها فى الحقيقه تلعب دوراهاما فى تثقيفه . فمما يرثه قد يكون تخلفا عقليا

(٢) Hinsie, L.E. and Campbell, R.J. (1970). **Psychiatric Dictionary.** Oxford University Press. New York.

او اعاقة حسية او اضطرابا غدديا . (٣) ونجده بذلك معرقلا من أول مرحلة التثقيف ، ولن يعنى هذا احباطا فى كل الحالات ، لاننا عرفنا فى طه حسين وهيلين كيلر وبيتهوفن وميلتون امثلـه لاعاقة حسية نجحت فى دفع أصحابها الى الابداع . ولم يكتف العلم بالبحث فى تأثير هذه المحددات البيولوجيه فقط ، لانـه اتجـه الـى دراســة طوبولوجية التذكر مثلا. (٤) وتتبع عمل الحمض النووى ribonucleic acid وتصنيعه للبروتينات المسئوله عن عملية التعلم والتذكر .
بل واتجه الى أعمق من هذا فى نظرية الانجرام (أى قصاص الذاكره memory trace) .
لان التجارب العملية على ديدان planaria لفتت النظر الى ان استجاباتها الشرطية للضوء بعد ازدواجه مع صدمات كهربائية لم تتوقف عند أول جيل لهذه الديدان (٥) . فلم ينطفىء تعلمها الشرطى فى جيل آخر من انصاف هذه الديدان (٦) ، بعد أن فصلت رؤوسها عن اذنابهـا ، وتركت الى ان استكمل كل جزء ما فصل عنـه ، ليصبـح النصفان دودتين كاملتين ، اى جيـلا آخر ، او امتدادا للجيل الأصلى . هل تدعم هذه النتائج نظريات كارل يونج Carl Jung حـول اللاشعـور الجماعـى اي النفـس الموضوعية objective psyche ؟ (٧)
وهل يكون للمخلفات النفسية المتراكمة نتيجـة لخبرات الاجيال السابقة أثر على اجيالها التالية فعـلا ؟ وكيف تكونت مفاهيم الطوطم والتابو والمندالا ؟ ومع أن هذا اللاشعور الجماعى ليس الا جزءا صغيرا من ثقافة الطفل ، الا انه قـد يلعب دورا ذا وزن فى نوع المخاوف او اساليب الادراك التى ستلاحقـه .

• • •

يدرك الطفل الاشياء والتغيرات الحادثه حوله لان له حواسا تعده لذلك ، ودوافعا تنشط ادراكه ، وقسطا مما نسميه بالذكاء يتعامل به ليصل الى المعرفه ويخزنها . وهذه هى الخصائص الذاتيه التى سيساهم بها من ناحيته فى عمليـة تثقيفه . لان لتثقيفه قطبا آخـر مقابـلا هـو

---

(٣) Kleinmuntz, B. (1974). **Essentials of Abnormal Psychology.** Harper and Row. New York.

(٤) Lashley, K. (1960) In search of the engramn, In **The Neuropsychology of Lashley.** F.A. Beach, D. D. Hebb, C.T. Morgan, and H. W. Nissen, editors. McGraw-Hill. New York.

(٥) John, E.R. (1967) „Neurophysiological correlates of learning and memory," In **Comprehensive Textbook of Psychiatry.** A. M. Freedman and H. I. Kaplan, editors. The Williams and Wilkins Co. Baltimore.

(٦) John, E.R. (1964) „Studies on learning and retention in plannaria" In **Brain Function.** M.A.B. Brazier, ed. University of California Press. Los Angeles.

(٧) Jung. C.G. (1963) **Memories, Dreams, Reflections.** Collins and Routledge and Kegan Paul. London.

خصائص مادة ثقافته . وهى صفات لاحصر لهاتناقش فيما بعد . وبين القطبين المتفاعلين عامل آخر يحكمهما ، هو مسطرة معيارها السرعه ،وتعرف بالزمن . لان الطفل ولو أنه تكوين حيوى مستعد للبقاء منذ ولادته ، الا انه شديد الاعتمادعلى بيئته وعلى هذه المسطره الزمنية منذ البدايه . فقد يظل خاوى المعلومات الحضارية مثلابينما هو يتقدم فى النمو مع الزمن . ويقترب بذلك من النضج الفيزيقى ، ولكنه يبتعد عن الخزن المعرفى لافتقاره الى المثيرات . وهذا هو ما حدث لصبى أفيرون . **معارف الطفل اذن رهن بمتغيرات تحيط به وتتولد حوله وبعوامل بيولوجيه تحرك استجاباته للاثارة ، ثم نموه ونضجه ثم عجزه** . وحيث ان الزمن ثابت التقدم ولكن النمو يختلف فى السرعه من فرد لآخر ، فان المقياس الزمنى هو المرجع الوحيد لتحديد كفاءة الطفل فى الاستقبال والاستيعاب من ناحية ، ثم نوع وكمية التنمية المعرفية الممكن تشبيع الطفل بها من ناحية اخرى . فكم من طفل نابغة وصف بالجنون **(توماس اديسون) او بالفشل (تشارلز داروين ثم اينشتاين) لأن عمره العقلى كان اكثر تقدمـا من عمره الزمنى . فاضطر الى التقدم بتفكيره وانتاجه حتى وان تمهل الآخرون ، اوفقد الدفعية حتى الى مشاركة العاديين الاخرين في مستوى تفكيرهم لاحساسه بالاحباط** . ولا يتوقف المقياس الزمنى عند رصد العبقرية او التخلف فقط ، ولكن هدف الثقافة ازاءه هوالتغذية الموقوتة للنفس النامية ، بحيث تنتهى تغذيتها هذه الى ثراء نفس اقتصادى يفيدها ويفيد المجتمع الذى تتعامل معه . فلن يتعلم الطفل الجبر قبل معرفه الاعداد ، ولن يدرك مفهوم الامانه قبل تطور عملياته السيمانتيكيه .

الثقافه التى يعرضها المجتمع على الطفل يأخذها الناشىء على علاتها . لذلك تكون مهمة العطاء حرجة . فالمجتمع ، سواء كان عائلة الطفل او مجتمعه الكبير ، له هو الآخر صفاته . وحيث أنه اقدم واكثر خصوبة واقوى فاعلية من الناشىء الفج ، فانه يفرض عليه أساليبة الفكرية والعملية بلا منازع . فبصمات العائلة العاملة الأمينة أو المفككة اللااخلاقية تظهر واضحه على جيلها الثانى الناشىء . ولا تتغير آثارها ، ان تغيرت ، الا بعد ان ينتقل الطفل الى مرحلة الرشد ،او تغير ثقافته بيئة أخرى موازية لبيئته المباشرة . لاننا نعجب احيانا مثلا من صغير ينحرف مع أنه من عائلة مستقيمة . او من آخر يتحلى بصفات مثالية مع انه من أسرة لامثل لها . ويكون السبب ان كلاهما قد حول انتماءه الى جماعة بديلة تشكل الآن اليد العليا فى تكوينه النفسي .

وانتقال الثقافة من الاباء ظاهرة غير معقدة قوامها تقمص الطفل لشخصية الكبار . وهى عملية واضحة ومنطقيه فى معظم الاحيان . ولكن العمليه الاكثر تعقيدا هى انتقال الثقافة جماعيا من اجيال بأكملها الى الاجيال التى تليها ، مع وجود فروق فردية بين ابنائها تساعد على عدم

ثبات الميراث او على الاقل على عدم ترابطه . هذابالاضافه الى حتمية تغير التشكيل الاجتماعى (٨) واساليبه ومنجزاته . فللحضارة المصريهالقديمة مثلا خصائص ثقافية لم تتغير كثيرا عبر عشرين قرنا تقريبا ، منها فن المعمار والنحتوالتصوير ثم عقائد الالوهية وعودة الروح ثم الهيراكية الاجتماعية والسياسية . كما كانتللحضارة الرومانية من ناحية أخرى طباع ثقافية بدات سبع قرون قبل الميلاد واستمرت خمسابعده ، ولم يؤثر فيها كثيرا اختلاطها بالحضارات الاخرى بعد الفتوح الحربية ولا التغير الثقافىالذى فرضه ظهور المسيحية (٩) . وكان لهذا التطبع الصارم يد فى تقوضها . ومن الطريفمثلاان كثيرا من الطقوس والعادات التى يمارسها الكثيرون فى مصر اليوم يرجع اصلها الى الثقافةالفرعونية ، كاستمرار الحداد على الموتى اربعين يوما . بل ونجد ان اللون الاسود يتبناه العالم فىالحداد بعد المصريين القدامى ايضا . ولا دخل للدين فى العادة على الاطلاق ، لأن كثيرا منالمجتمعات الاسلامية لاتمارس هذه العادة بل وتستكبرها ، بالاضافه الى انها عادة عالمية لايحددها الدين او المواقع الجغرافية .

اهم عناصر الثقافة التى يقابلها الطفل ،سابقة التجهيز فى مجتمعه ، هى اسلوب السلوك المنتظر منه ونوع التفكير الدينى الذى سيتنباه . فاذا ولد فى الشرق الاقصى او الاوسط فى الغرب ، فان الدين الذى ولد فيه وتعلم ان يميلاليه هو الذى سيمتسك به فى معظم الاحيان . لان حالات الانتقال من دين لآخر طواعية (بعدنزول كل الاديان واستتبابها على الارض) تعد ضئيلة جدا اذا ما قورنت بالحالات التى استمرتبدون تغير ، حتى وان تعرضت لمغريات الانتقال أولعوامل التفكير الذاتى . ومع ان دين الطفلهو ميراث جماعته الدينية ، الا ان الطرف المباشر فى التوريث يكون عائلته . لذلك نجد انعمليه التطبيع الدينى رهن بفهم وتطبيق اسرة الطفل قبل كل شىء ، حتى وان تعرضت العمليهللتطور فيما بعد ، لأنه اخفق فى التذكر . ومع ان القسط الاكبر من اعباء العملية يقع على عاتقالمربى الدينى فى حياة الطفل ، الا ان جذور التربية تنتهى الى جماعة الدين الكبرى . لذلكيعتبر هذا المدخل الثقافى اجتماعيا اكثر منه فرديا . ويهمنا من الناحية التربويةاثر هذا النوع من الثقافه على سلوك الطفل فى طفولته ثم بعد نضجه ، لان الطفل لن يقابل فىحياته بعد هذا شيئا بمثل قوته ، مع غموضه وغرابه جذبه ورهبته . فهو حتى وان عوقب لانهكسر قانونا اجتماعيا ، او جوزى لانه قام بعمل استفاد منه مجتمعه ، الا ان خبرته الميتافيزيقيهالمتصله بالثواب والعقاب الدينى (المؤجل ، غير المحسوس) هى التى ستؤسس قواعد الضميروالاخلاق لديه .

---

(٨) Sherif, Muzafer and Sherif, C.W. (1969), **Social Psychology.** Harper and Row. New York.

(٩) Van Loon, Hendrik. (1938 **The Story of Mankind.** Garden City Publishing Co. New York.

ولن يكون الميراث الدينى القاعدة الاجتماعيه الوحيدة بالنسبه للطفل • لانه سيولد ايضا فى مجتمع له عادات خاصة يقبلها واخرى يحرمها . فقد يكون مجتمعه من التطرف بحيث يحرم عليه اكل الابقار مثلا ، اويفرض عليـه اكل اللحوم البشريه ، اويحتم عليه ارتداء انواع خاصه من الكساء والطلاء ، اويبيح له التعرى . وقد يولد فى مجتمـع يمارس طقوس التكريس او ختـان الاناث او تفضيل الذكور او انهاء حياة الكهول في المجتمع . ويكون موقع حادثه ميلاده هو المقرر لما سيتعرض له فى حياته من خبرات . وتكون هذه الخبرات نتاج الفكر والتطبيق الاجتماعى لموقع ميلاده او للجماعات المستقله فى الموقع الواحد . ولن تكون كل العادات متطرفة او غير مقبوله فى معظـم المجتمعات الآخرى . لأن مـن اساليب السلوك التى تفرضها معظـم المجتمعات مثـلا تنظيم كل من علاقات الزواج والملكية والحريات الفردية ثم المعاملات الاقتصادية والضابطة واخيرا اساليب التعليم والانتاج . هذا علاوة على صفات السلوك الاخرى كاحترام السـن او الوقت او المحافظة على العهد . وهى صفات تختلف نسبيا من مجتمع لآخر ، فيكون للاخلال بها عقوبات فى بعضها او مرورا غير ملحوظ في اخرى .

وفى النهايـة تتولد مـن هذين الأصلين الثقافيين سابقى التجهيز ، آفاق ثقافية اخرى يشق فيها الطفل طريقه الخاص . لانه سيطبق او يخالف قواعد الاخلاق والانضباط والمشاركة الاجتماعية . وسيختار ماذا ياكل وكيف ياكله ،متى ياخذ واين يتوقف ، الى من يلجـأ ليتعلم او يستكشـف . ولن تكون كل جهوده ذاتيـة . لانه سيحاط فى كل مراحلها بافراد اكثر خبرة منه يرشدونه او يضبطونه . والمهم من الناحيـة الانسانية هنا هو الفروق الواسعة بـين المتـاح لبعض الاطفال والذى يحرم منه آخرون . لأن كثيرا من المجتمعات تعوزها التكنولوجيا الحديثة أوحتى المعلم الكفء . وتكون النتيجة الا يتعدى ما يتعرض له الطفل من ثقافة حدود ضروريات البقاء على الحياة . وقد لاتتوافر هذه ايضا . فمن المؤلم مثلا ان يتوقف الانسان اولا في بلـد يتمتع فيه الطفل بالدفء والشبع والصحـة ،ويدير قرصا فيتصل باى مكان فى كوكبـه ، او يضغط زرا كهربائيا فيرى ويسمع اوينال ما أرادمن خدمات آليا ، او يستفهم فيجيب على اسئلته عقل الكترونى يوفر الطاقة البشرية . ثم ينتقل الانسان بعد ذلك الى بلد مقفر يئن فيه الطفل من المرض والجوع وعوامل الجو ، ولا يجد في بيئته ما يوصله الى آى معرفه ذات قيمة ، فيظل جاهلا متخلفا مريضا يعيش ليومه لا غير ، لأن اى عمل يقوم به سينتمى الى عيش اليد الى الفم .

• • •

مادة الثقافة التى ستملأ حياة الطفـل ،لتثير انتباهه فيعيرها تفكيره وتخيله وذاكرته ، مادة مركبـة بعضهـا نشط العناصر والبعض الآخر ثابتهـا ، فاذا اتجهنا مثلا الى ادواته التى سيستعملها لكى يصل الى اهدافه لوجدناهـا اسرع مواد ثقافته تطورا وتغيرا ، بينما تظل

المادة المجردة بطيئة التغير قليلة التعديل .ولناخذ على سبيل المثال ادوات طهى طعامه من ناحية ، واكله لما يميل اليه من ناحية اخرى ،او مسكنه وولائه لعائلته ، او معدات قتاله وحاجته الى الامن . فسعيه الى الشبع ثابت ولكن الانتقال من موقد الفحم القديم الى افران الاشعة القصيرة microwa ve ovens لم يتوقف فى مسيرته بعد . وكذلك مواد مبانيه من طوب نيء الى زجاج الالياف fiber glass مازل يتطور ، بينما احاسيسه نحو الافراد الذين يضمهم البناء لم تتغير . ولا تتفاوت عناصر الثقافة حيث التغير والثبات فقط ، لانها تختلف ايضا من حيث الابتكار والاستكشاف. فبينما المبتكر يخلق شيئا جديدا لم يكن موجودا، نجد ان المستكشف يعثر على شيء جديد كان .ولناخذ على سبيل المثال وسائل مواصلات هذا الطفل من ناحية ، والطبيعه حوله من ناحية اخرى . فالطفل البدائى لم يعرف سوى كتف امه اولا وقدميه ثانيا . واضاف اليهما بعد زمن ظهر الجواد ، فسيارة فغواصة ، ثم طائرة فمركبة فضاء . ومع ذلك فالطبيعة هى كما كانت عندئذ . يابس وماء وفضاء . بل وستظل هكذا . ولكن طفل اليوم فى معظم دول العالم تعرف على عطارد وعلى الثقوب السوداء black holes فى فضائه ، وسمع عن اتلانتيس ومثلث برمودا فى مائه ، ودرس مواد الطاقة التى يخزنها يابسه من بترول الى يورانيوم الى غازات طبيعية جوفية . ولم تكن كل هذه الاشياء غائبة عندما كان الطفل الاول يمتطى جوادا فقط. ولكنها ، وغيرها كثير ، كانت وما يزال بعضها الآخر ، فى ظلمات المجهول ، تنتظر ثاليس وفيثاغورس ثم نيوتون وماكس بلانك واينشتاين .

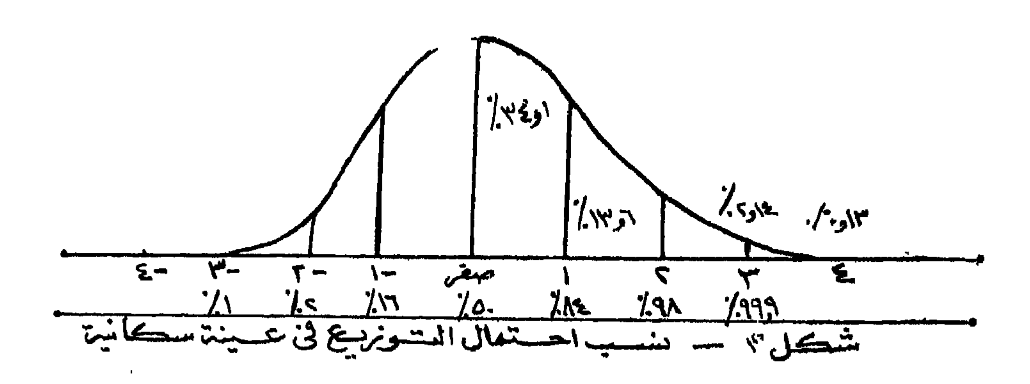
نخطىء الظن اذن لو اعتقدنا ان ثقافة كل الاطفال محكومة بما تعرضه عليهم بيئتهم فقط .لان لبعض الاطفال خصائص ذاتية لايتمتع بها الاقليل منهم . كالطفل الذى اجاد اللعب على الهارب والكمان والارغن ولم يتعد الخامسة من العمر . والف الموسيقى بينما اطفال سالزبورج الآخرون يطاردون الفراش فى حدائقهم . وعند انطفاء حياته فى الثلاثين من عمره كان موتسارت قد ملأ آلاف الصفحات الموسيقية ليتمتع العالم بالعديد من السيمفونيات والكونشيرتو واعمال الاوبرا مثل دون جيوفانى ، وزواج فيجارو ،والفلوت السحرى .الامثله الصارخة للموهوبين من الاطفال قليلة جدا ، ولكن كل العباقرة الراشدين كانوا اطفالا . ومما يحير العلم مثلا ان البرت اينشتاين لم يتكلم قبل الثالثه ، وانه كان يتعثر فى لغته حتى التاسعة ، وان ابويه خشيا ان يكون متخلفا عقليا (١٠) . وترك اينشتاين مدرسة الجيمازيام بلا وجعة ، ثائرا على طريقة التدريس المارينشتالية بها . واخيرا التحق بمعهد بوليتكنيك زيوريخ وهو فى السابعة عشرة من العمر ، بعد ان فشل مرة فى اختبار الالتحاق . هذا الطفل ، ضعيف التحصيل ، اذهل علماء الفيزيقا وهو فى السادسة والعشرين بأربع أوراق علمية فى مجلد واحد ، فجرت

---

(١٠) Newsweek. March 12, 1979. Modern Prometheus'' Newsweek. New York.

نظرية نسبية الفراغ والزمن ونظرية الكوانتام ونظريـة الذرة . وكان حينئذ موظفا مغمورا فى مكتب تسجيل بمدينة برن سنه ١٩٠٥ .

مـاهو العدد المنتظر من هـذه النماذج العقلية فى الطفوله المبكرة اوفيما بعد ؟ لأن امثلة هذا النوع الـذي لن تتوقف . بل من المؤكـدان المسيرة ستضيف الى ميادين العلم آخرين يسـلطـون الضـوء علـى مجهـول ويخلقـون اويبدعون . ومـن الواضح ان الرهط يزداد كثافـة ، وان المسافـة الزمنية بين العبقري والآخـر اصبحت اقصر ، فما الـذى يحـدث للعقل البشرى ؟ الحقيقه الاولى هى أن عددالعباقرة بالنسبة للتوزيع السكانى لن تتغير . فاذا اتبعنا قاعدة نسبه الاحتمال probability لوجدنا ان ١٣ر٠٪ فقط مـن البشر سيتفوقون في الذكـاء اوفى الانتاج العقلـى اوالعملى او الفنى . فاذا كان تعداد عالم القرن الرابع قبل الميلاد مقدرا بمائتى مليون نسـمـة(١١) ، فان اغلب الظن ان من بين مواليده عاش ٢٦٠ الف طفل مفرط الذكاء . ولم يقدرلهم جميعا الوضوح ، ولكنهم وجدوا ، وعلى الارجح ، فان من بين هؤلاء ، لم ينشط سوى قرابة ٣٣٨ عبقريا فى كل الميادين . واليوم نحن نقارب اربعة آلاف وخمسمائة مليون علـى ظهـر الارض . ومع ان التعداد السكانى يتزايد الاان نسبه الاحتمال فى حدوث اى ظاهرة تظل ثابته. وبتطبيقها على سكان اليوم سنجد خمسة ملايين طفل مفرط الذكاء . ولكن من بين هذه المجموعة المختارة ايضا سيحس العالم بوجود واحد فى الالف منهـا . لان احتمال النشاط بينهم سيتوقف عند الانحراف المعيارى الموجب الرابع من التوزيع ايضـا . اى اننا سنسمع عن ٦٥٠٠ تقريبـا من مثل ابن سينا او اينشتاين او شيكسبير او ما يكل انجلو جديد فى هذا الجيل .



شكل ٣ ـ نسب احتمال التوزيع فى عينة سكانية

ما الذى يلهب مثل هـذه الشعل سواء فى الطفوله المبكرة او عند الرشد ؟ فاذا ورث الطفل الذكى حدة النشاط العقلى ، ولم ير او يسمع منه احد شيئا ذا قيمة ، فانه يختلف كثيرا عن آخر يقتنى نفس الصفة الوراثية ولكنه يسخرها ويمتطى طاقاتها ليحلق فى أجواء معيشيه عليا .

---

(١١) United Nations Statistical Yearbook. 1977. Geneva.

عنصر الاختلاف بينهما خليط آخر من امكانيات ثرية ومعلومات نشطة فى بيئته ، وهو خارجى . كيف نوصل الطفل الى اقصى حدوده من اول الطريق ؟ ولانعنى توصله الى العبقرية او الابداع ، ولكن الى استثمار كل طاقاته . الطفل مستكشف منذ البدايه ، فهو لذلك يفتح الاشاء ليعرف ما بداخلها ، ويسأل فيما بعد اين نذهب عندما نموت اوما هو شكل الله ، ثم عندما يشب سيتعلم انه سيعيش اسعد واطول اذا الم اكثر بما يحدث داخله وخارجه . وهذه هى الفرصة المثلى لأول دفعة فى ثقافته . ان يترك ليبحث وان يعطى عندما يريد . وهذا يتطلب وقتا وصبرا ممن يباشره ، علاوة على دراية علمية بما قد يسأل عنه ، ودراية بكيفية الاجابة عليه . ولايسىء الى الطفل اكثر من سقوط بطله الذى اعطاه معلومات يظهر خطؤها فيما بعد . وهذا عيب يقع فيه عدد غير قليل من الآباء . فأهون على الطفل ان يسمع من أبيه اقتراحا بأن يفتشا معا عن الاجابة ، عن ان يتضاءل العملاق فى اعين الطفل لأنه كذب . بل وتخلق الأمانه فى هذه الحالة دافعا جديدا هو المشاركة والزمالة فى البحث ، او الاتجاه الى خوض المعرفة المتصلة به من كل جانب وبكل السبل .

دوافع الاستكشاف والتحسس والانتماء والاتصال والمشاركة الاجتماعية معروف انها مكتسبه ، اعنى ان الطفل يتعلمها ممن يعيش معهم . وليس كل اكتسابها معتمدا على هذه البيئة ، لان الطفل نفسه يقتنى بعضا من هذه الدافعية بالفطرة . لانه ، وهو مازال فى اشهر الجهل الاولى من عمره ، يتلفت تلقائيا الى المثيرات الضوئية او الصوتيه كلما نشطت وهو يخبط بيده على ماتقع عليه ليحدد نوعه وصلته به . فاذا صح تنظيم مورفى Murphy لبناء الشخصية الآخذ بتبادل العلاقات بين عوامل اربعة هى : (١) الاستعدادت التكوينيه ، (٢) التوجيه أو التقنيه canalyzation ، (٣) الاستجابات الشرطية ، ثم (٤) العادات المعرفية والادراكية (١٢) ، فان ميلاد الطفل يضعه فى المحتوى الثانى بمجرد اتصاله بالعالم الخارجى ، ليواجه بالنمو ضرورة تأسيس محتويات البناء الاخرى . وفى النهاية ، تتجمع كلها لتستقر على هيئة دور role هو الطريقة الثابتة نوعا للسلوك والاتجاهات ، وهذا الدور تفرضه الثقافه على الطفل .

اى ان تكوين الطفل ، وبالتالى وظائف هذا التكوين تعد نقطة انطلاقه النفس ونموه . وقد فسر كارلا يونج (١٣) الديناميات النفسية بمبدأين : مبدأ التعادل ومبدأ الانتقال entropy . ومبدأ التعادل يوازى مبدأ هلمولتن Helmholtz الاول للديناميكا الحرارية فى الفيزيقا ، الآخذ بثبات الطاقة . فانخفاض قيمتها فى مجال ما يعنى رفعها فى أخرى . فاذا

---

(١٢) Murphy, G. (1951) **Introduction to Psychology.** Harper. New York.

(١٣) Jung, G.G. (1916) **Analytical Psychology.** Moffat and Yard. New York.

انخفض تقدير الطفل لعائلته مثلا فسوف يزيداهتمامــه باشياء او افراد اخرين . امــا مبدأ الانتقال ، وهو ايضا يوازى المبدأ الثانى للديناميكاالحرارية ، كما يصف به يونج ديناميات النفس فيعنى توازن القوى يتبادل الطاقة . هذا مع انالطاقة والحركة فى النفس لاتتبعان نفس الاسلوب الجامد النمطى الذى تتبعانهفىالطبيعة. فالطاقةالنفسية كيانفرضى كماكديونج،يستخدمالفرد كل ما يلزمه منها لاشباعاحتياجات بقائه اولا،وایفائض بعد ذلك يخدمانشطة الفــرد الثقافيــة والروحية وهنايتجه الى اهداف ارقى منمجــردالبقاء واذا انطلقنا من هذه النقطة لاستنتجنا ان توليد دافع حب المعرفة اوالبحث عن الحقيقة فىالطفل الناشىء لايمكن ان ينجحاذاكانمحروما من حاجاته الاساسيه . فكيف يدرس سبب انجذابالاشياء الى الارض اذا كانجائعا اومحروما من الرعاية ؟ ولايعنى هذا تعميم القانون . لان الفريدآدلر (١٤) رأى ان الفرد يكافح فى سبيلالتفوق. والتفوقعندهلايعنى التميز الاجتماعى ،ولكنــهيقترب كثيرا من فكرة تكون الذاتعنديونج ،وهى الانتقالمن الاناالىمركز اقل بدائيةواكثر جديةيقعبين الشعور واللاشعور ، ومن مبدأ تحقيق الذات عند كيرت جولد ستين (١٥) وهو خاصيــةفردية تختلف من شخص لآخر اختلافا كبيرا . لانه وجد ان بعض ضحايا آفات المخ يخضعونلمرضهم ، بينما البعض الاخر يتخطى الاصابة بمحاولات للتكيف وتحدى الشلل الناتج عــنالمرض . بل ويمكننا الخوض اكثر من هذا (١٦) لان الحرمان او الاحباط يتسببان احيانا فى توليددافع خاص (المقاومة) يكون هدفه تحقيق الذات . وهو دافع لايتساوى فى القوه عند كل الافراد ،ولا يزول توتره عند بلوغ نهايه السلوك الهادف الناتج عنــه ــ لأن حالات الفقد او الاحباط اوالحرمان تظل مستمره ، ويظل الدافع الجديد مستمرا معها . ولعل ابرز الصور لهذا النوعمن الدافعية هو المقاومة التى يبديها بعض الافراد فى الكوارث او الشدائد حتى بعد نقطة اللارجوع.

• • •

البيئة الاجتماعية وثقافة الطفل : ــ

واضح مما سبق ان الثقافة تتولد فى كائنحى لأنه تعرض لكائنات اخرى واشياء تخصهم . وواضح ايضــا ان لهذا الكائن الصغير صفاتــايجىء مزودا بــها قبل ان يلتقى بالبيئة التــى سيتفاعل معها . وان هذه الخصائص قد تساعدهعلى تلقى الثقافة اولا تساعده .

---

(١٤) Ansbacher, H.I. and Ansbacher, R.R. (1959) **The Individual Psychology of Alfred Adler.** Basic Books. N.Y.

(١٥) Bischof, L.J. (1970) **Interpreting Personality Theories.** 2nd edition. Harper & Row. New York.

(١٦) Hakky, U.M. (1976) **Basic Psychology.** Manar El Elm. Alexandria.

ويهمنا الآن التعرض لما تساهم به بيئـــةالصغير الجديدة من مثيرات ومؤثرات ستكـون فى مجموعها ثقافته على حده ، وثقافة الاجيالالتالية بعد ان يتعامل معها هو وجيله معا . لان اسلوب الحياة الذى سيلقنه ايـاه مجتمعه لـنيظل كمـا هو الى مالا نهاية ، بـل سيتعرض للتغير والتعديل ، شأنه تماما شان كل شيء حينشط .

اذا شرحت البيئة الاجتماعية الكل لوجدتمجزاة الى اربعـة مكونات : أفراد ، اشيـاء ، أنظمه ، وحاجات (١٧) . ومن الممكن الاشارةالى الافراد ككتلة عامة لاتميزية مـن الآدميـين homosapiens ، أو كمجموعة مختلطة منالبشر فى موقـع جغرافى محدد (دولـة) ، او كمجموعـة أصغر مـن الافراد متجانسة الميول والاتجاهات (فريق سباحة كلية الهندسة ، أو جمعية الرفق بالحيوان مثلا) .اما الاشياء فيمكنان تكون اجزاء مـن الطبيعـة (زرع ، جبـال ، انهار ، موارد ، انشطة طبيعية كالمطر والضوءوالحرارة الخ ..) اواشياء من صنع الافراد (مساكنهـم ، ملابسهم ، أوانيهم ، وسائـلمواصلاتهم وترفيهم وتخاطبهم الخ .) . والانظمة هى الحدود المجردة التى يرسمها المجتمع ليتبعهاافراده ، كلهم او من ينطبق عليهم نظام بالذات . ومن هذهالانظمة : الدين ، الشرع ، الضبط ،السياسة ، التعليم ، الزواج ، الملكيه ، الحريات الخ .. اما الحاجات ، وان كانت اصلا فردية ، الاانها تنتظم فى النهاية لتصبح حاجات اجتماعيه . ومنها مثـلا الاتصال ، التكامل ، المشـاركة ،الاستقرار ، الامن والمنفعـة الخ ..

اقترح ايريك فروم Erick Fromm (١٨) مجتمعا مثاليا يرتبط الانسـان بالانسان برباط المحبة ، ويتيح له امكان التعامـل مـعالطبيعة بالخلق بدلا من التدمير ، ويشعر فيه الفرد بذاته . ولم يكن فروم رائدا فى فكرته ، لانجان جاك روسو سبقه اليها باسلوبه الخاص فى تشخيص امراض المجتمع وعلاجها . بل وسبقكلاهمـا افلاطـون بمدينته الخالـدة يوتوبيا ، بمثلها ونظمها . وحيث ان تمنى الشيء يعنىالحرمان منه (١٩) ، فان تهيؤ هؤلاء المفكرين لاشكال المجتمعات التى خلقها خيالهم يعتبر فىحد ذاته مؤشرا للمرض الاجتماعى الذى عانت منه مجتمعات كل منهم . هل تغيرت المجتمعاتعما كانت عليه آنئذ ؟ وما هى الهيئه التى يكون عليها المجتمع اليوم عندما تطؤه قدم الطفل ؟ هليعطيه هذا المجتمع العزة والرعاية والطمأنينـة والدراية ؟ وهل يوفرها له طول الوقت منـذالبداية حتى تشكل دعائم ثقافته ، وتهييءالميدان لديناميات سلوكه وتفاعله السليم المجدى معهذاالمجتمع ؟

---

(١٧) حقى ، الفت . (١٩٧٩) علم النفس الحديث . منارالعلم ـ الاسكندرية

(١٨) Fromm, Erick. (1955) The sane Society. Rinehart. New York.

(١٩) Guetzkow, H.S. and Bowman, R.H. (1964), Men and Hunger, Brethren Publishing House, Elgin, Illinois.

المجتمع ، أو الكل من أفراد واشياء ونظم وحاجات ، يخضع هو الاخر ، تماما كالطفل الفرد ، لمتتالية زمنية تترتب عبرها احداثه . وهذا التتابع ، التطورى فى المظهر والوظيفة ، يحدد ثقافه الطفل التاريخية . من أين نزحت عائلته الاولى ، ولاى احداث تعرضت ، ثم أين استقرت وكيف تأثرت بالطبيعة وانتفعت بها ، ولمن خضعت أو على من سيطرت ، كلها اثار تاريخية تشكل طابع هذا المجتمع . فلا شك فى وجود اختلاف ثقافي مثلا بين طفل نشأ فى صحراء غرب إفريقيا ، واخر فى ادغال البرازيل ، وثالث فى جبال سويسرا . لان لكل منهم مناخ وطبيعة خاصة ، علاوة على تاريخ قديم يتابعه الصغير فى عادات قومه وفى فولكلورهم وفيما يفرض عليه من أساليب المعاملة والمأكل والملبس .

ولا ترضخ كل المجتمعات لقيودها التاريخية، أو لاساليب ماضيها التقليدية . وهنا يواجه الطفل صراع الثقافتين الحديثة والقديمة ، ولا يحدث الانتقال فجأة الا فى حالات قليلة ، كقيام الحروب او تغيير أسلوب الحياة (تعديل تكنولوجى مثلا) أو الهجره . وعادة ما يشارك الاهل الطفل فى مواجهة الصراع في مثل هذه الحالات . ويكون عبء التكيف ، الواقع على عاتقه أقل ثقلا . واذا ما قارنا موقفه السابق بموقفه من محاولة التوفيق بين ثقافة جيل باويه والتغير الحادث فى ثقافة جيله لوجدنا للتوافق مظهرا اخر . لانه سيواجه ، وحيدا ، تيارا داخل عائلته . ولنأخذ على سبيل المثال دخول الفتاة المدرسة أو الجامعة فى مجتمعات كانت تحرمها منه. **هل اذا ارادت الفتاة سيستجيب الاب ؟** وحتى ان رضى الاب فهل سيرضى العم او الجد أو رئيس القبيلة ؟

تغير اسلوب الحياة فى المجتمع الواحد لا يحدث كثيرا فى المجتمعات المغلقة ، وهذه تتضاءل فى العدد بشكل واضح كلما ازدادت طرق الاتصال وتقدمت اساليبه . ولكن التغير ظاهرة مستمرة في المجتمعات المفتوحة . وهذا هو اكثر العوامل الثقافية تفاوتا بينها . فقد يولد الطفل مثلا فى مجتمع زراعى يعتمد على أسلوب محدود لانه محكوم بظروف اقتصادية ومناخية وجيوفيزيقية معينة . أو يولد فى مجتمع آخر يجمع بين الزراعة والصناعة والتعدين ، ويضيف الى موارده الطبيعية المعرفة التكنولوجية . **وهنا تظهر الفروق بين ثقافة الطفلين . لان الميراث الثقافى للطفل الاول يظهر كما جاء فى معظم الاحيان** ولكن الطفل الثانى يتعلم منذ طفولته الاستعداد لتقبل التغير بل والتهيؤ لاستقبال التطور المنتظر فى كل الاوقات . ويتولد عامل جديد ، يحكم ثقافته ، هو خليط من سعة الافق والتطلع المتواصل ، واذا تواجد فانه نادرا ما يشبع .

ثراء الثقافة المطروحة امام الطفل مسئولية مجتمعة اولا واخرا . فاذا لم يصعد رصيدها دائما ، فان اقتصاديات هذه الثقافه يصيبها الكساد **لا بالنسبة لنفسها فحسب** ، ولكن بالمقارنة بالثقافة الموازية . لان معيار التقدم فى اى مجال ليس الازدياد في القوة والسرعة

فحسب ،ولكنه الفرق فيالتطور بينه وبين آخر .ولنأخذ على سبيل المثال اسلوب تلقين اللغة للطفل . فاذا افترضنا بأن وسيلة الاتصال بين الافرادفي المجتمع الواحد هي رموزهم الخاصة لمعاني عامة عالمية ، وان هذه الرموز اللفظية تختلف في المنطق والمسمع من مجتمع لاخر ، ولكنها في النهاية تتفق في اشارتها الى نفس الشيء ، فان هذا النوع من الاتصال الاجتماعي يعتبر أولى حاجات الطفل غير الحيوية التي يقاوم بها العزلة ، والتي يعتمد في اقتنائها على مجتمعه . وحيث ان حجم وغزارة هذه الرموز يشير الى كمية وعمق المفاهيم والمعاني التي ترمز اليها ، فان اللغة خير معبر عن ضيق او سعة الثقافة .وغني عن الذكر ان افتقار لغة ما الى المصطلحات التي تزخر بها أخرى لخير مؤشر على تخلف مجتمع الاولى . كيف تولد اذن هذه الرموز ؟ اذا رجعنا **الى الوراء السحيق في تاريخ البشرية لاستنتجنا، وهذا محض تخمين ، أن الانسان الاول لا بد وانه** لجأ الى نوع من الاصوات ، يخلقها في حلقه ،**ليعبر بها عن خوفه او المه او لينبه بها افراد مجموعته الى خطر او اي شيء حادث** . لانالاصوات الحلقية هي استجابة فطرية تصدر من معظم الكائنات الحية عند انفعالها . بل وتظهر هذه الحاجه للتعبير عن الانفعال بشكل اوضح عند دراسة سيكولوجية الصم . فمع ان الاصم ابكم ،الا انه عند الانفعال يصدر من حلقه اصواتا ، لا معنى لها بالنسبة لباقي المجتمع ، الا انها موحدة نمطية عند الحيوانات العليا . وترجع معظم الدراسات الفيلوجينية للسلالات احتمال اعتماد الانسان بالذات على حنجرته وعلى تعبيرات وجهه الفطرية في نقل افكاره على الآخرين . وان استعماله لحنجرته لم يتعد اصدار ما نسميه اليوم الحروف المتحركه ، تماما كما يلاحظ على الاطفال في دراسات نموهم الارتقائي (٢٠) . وهذا يعني ان ضحالة الرموز اللفظية في المجتمعات البدائية يرجع افتقارها الى المثيرات التي تولدها . لان الانسان الاول لم يلجأ الى تكوين **هذه الرموز الا عندما اضطره ازدحام بيئته الى** خلق أصوات موحدة لكل تعبير ، حتى يتم التفاهم مع الآخرين عن طريقها .

ضحالة أو عمق اللغة ، وتهذب السلوك اللفظي او عدمه ، لا يشيران الى ثراء الثقافة فحسب (٢١) ، ولكنهما يحددان الطبقة العقلية والاجتماعية التي ينتمي اليها المتكلم . فالتخلف العقلي والمتخلف الاجتماعي يستعملان رموزا لفظية محدودة ، سهلة التمفصل syntax بينما يتعامل مرتفع الذكاء او ثري الثقافة بكودات لغوية اكثر تعقيدا واشد تركيبا من حيث التفصيل والتحديد والاتساع .وعليه فان دور المجتمع واضح في هذه الناحية . فتطوير اللغة باستمرار لتساير تطور حاجات المعيشة والعلوم ، وتلقين النشيء لها في سنين حياتهم

---

(٢٠) Bernstein, B.A. (1955) ,,A Socio-linguistic approach to social learning, In **Social Science Survey**, J. Gould, ed. Pelican Books, London.

(٢١) Deutsch, M. (1965) The role of social class in language development and cognition, **American Journal of Orthopsychiatry.** 35:78, 1965.

الاولى ، خير دعامة للكسب المعرفى . ولا تتوقف المعرفة هنا عند لغة جماعة الطفل المباشرة ، لانه فى حاجة الى أخريات تخص مجتمعات موازية ، حتى تتحسن مهارته فى الاتصال الاجتماعي والقدرة على حل المشاكل . وحيث ان اللغات تعبير عن الافكار ، والافكار تعبير عن المعارف ، وأن المعارف معيار للتطور الاجتماعى (٢٢) ، فان لغة الطفل فى النهاية هى معيار رصيده من المعرفة الخاصة بالمعاني والعلوم القائمة فى مجتمعه .

القيم ونظم السلوك واساليب الانفعال ركن آخر من أركان ثقافة الطفل التى تنتقل اليه من مجتمعه . والدليل على ذلك هو اختلافها الشديد من مجتمع لآخر . ومن الصعب تصور هذا التباين الى ان يلمسه الانسان بالانتقال من ثقافة الى اخرى (٢٣) . وهذا ما فعلته مثلا مارجريت ميد (٢٤) ، عندما عاشت فعلا فى جزيرة بالى (جنوب شرق اندونيسيا) ، وسجلت ، على مدى عامين ، كل ما يتصل بشخصية اهل هذه الجزيرة النائية عن العمران . وقارنت بين السلوك الخاص بالدوافع البيولوجية بالذات ، العالمية في خصائصها ، فى مجتمع بالى والمجتمعات الغربية . فسكان بالى يتفادون الاكل امام الآخرين . واذا اضطروا الى ذلك ، فانهم يعطون ظهورهم لبعض ، ويأكلون بسرعة ، **كما لو كانت العملية مخجلة أو معيبة** . وقد ربط بعض الملاحظين اتجاه اهل بالى نحو التغذية باتجاه الحضارات الاخرى نحو الاخراج . ويزيد من تنفير الطفل لعملية الاكل ، طريقة تغذيته الاولى ، بدس الطعام فى فمه عنوة وهو مطروح على ظهره ارضا ، سواء رغب ام لم يرغب . ومن العادات الاخرى التى شاهدتها ميد هناك ، طريقة المعاملة التى يلقاها الطفل من أمه . فدافع الامومة معروف انه يهدف الى حنو الام على اطفالها لاعتمادهم عليها عاطفيا وجسميا . ولكن مجتمع بالى يخرج تماما عن هذه الاستجابات المكتسبة ، لانه يفرض على الام تبنى اطفال اخر ، **لتعود اطفالها على الاستغناء عن الحاجة العاطفية للغير** ، بما فيهم الام . ويشب الفرد بعد ذلك محافظا على « بعد اجتماعى » يقيه من عواقب الاحتكاك الانفعالى مع الاخرين ، ويعطيه فرصة أكبر للتأمل الذاتي . واذا قارنا هذه القيم بتلك التى تفرضها المجتمعات الاخرى ، لوجدناها فى كثير منها تشخص على أنها انطواء اجتماعى .

انتقال الطفل بعد ذلك من نظام اجتماعى الى آخر ، لا يعنى بالضرورة تمسكه التام بالنظام الاول الذى شب عليه ، لان من خصائص الكائن الحى القدرة على التكيف لبيئته . وهذا يعنى

---

(٢٢) Piaget, J. (1926) **The language and Thought of the Child,** Harcourt Brace, New York.

(٢٣) Mead, Margaret (1934), **Mind, Self and Society From the Standpoint of a Social Behaviorist.** University of Chicago Press, Chicago. **Feral Man,** Harper

(٢٤) Mead, Margaret, Ed. (1937) **Cooperation and Competition Among Primitive Peoples.** McGraw-Hill. New York.

ان التعديل وظيفة يمكن حدوثها طالما توفـرتالقدرة والامكانيات من داخلالطفل ومنخارجه . فاذا كان طفل افيرون قد عانى منالتخلفالعقلى ،وهو لذلك لم يتقدم كثيرا عندما غير بيئته ، فان الطفلة كمالا الهندية نجحت فى الارتقاء من سلوكحيواني عدواني بحت الى سلوك اجتماعى ذكى (٢٥) . فبعدما عاشت كمالا تسع سنوات فىجحر ذئب ، عثر عليها لتنتقل من مجتمع الذئاب الى الانسان . وتعلمت كيف تمشي منتصبة: .علـى قدميها ، وكفت عن التجوال ليلا والعـواء. وتعلمت مخالطة الناس بحرارة والتحدث بلغتهمبطلاقة وبدون تعثر ، الى ان توفيت وهـى فى السابعة عشرة من العمر . وتضيف هذه الامثلةبراهين اخرى علىان اسلوب الحياةرهن بالاحتكاك الاجتماعى الذى يتعرض له الطفل .

ومع ان التغيير فى الحالات السابقة يعتبرفرديا ، الا انه يساعد فى الاشارة الى ما يمكن ان يحدث عند عبور الثقافات او عند هجرةالجماعاتالى مجتمعات ثقافية أخرى . وحيث ان الحدود الجغرافية لم تعد وعاء ثقافيا كما كانت الى مدخلالقرن العشرين ، فان تداخل الثقافات اليـوم يجعل من العسير التعرف على أسلوب حياة مميزلكل مجتمع معاصر على حده ، الا فى عدد صغير من المجتمعات المعزوله جغرافيا . لان معظم دولالعالـم مثـلا تتبنـى نفس النظـم الاجتماعيـة والترفيهية والسياسيةوالقانونية تقريبا ،كالزواجوالملكية وقواعد المرور والحريات الخ .. واذا استثنينا الديانات ، لوجدنا ان الحدود المميزةتتلاشى بين العديد من الثقافات المتجاورة ، بحيث اقترب كثير منها من كونه عالميا مع فارق بـينالشرق والغرب مثلا ، او الزراعى والصناعى ، او المجتمعاتالمتحضرة والنامية .

بقي شيء اخير ، هو معنوى من ناحية ، وفيزيقى من ناحية اخرى . فالبشرية باعدادهـا المتفجرة لم تعد تهيىء نفس الظروف التي كانتتهيؤها للاجيال السابقة . ويشكل هذا النوع من التغير فى الكثافة السكانيـة ضغطـا علـى بعضالمجتمعات يختلف من ضوضاء الى ملوثات بيئة ، الى تضاؤل العناية والقوت والوقت والدخـلوالفرص.والصارخ فى هذه الحقيقة ان المجتمعات المسئولة عن الازدحام والتلوث والتخلف تعانىأصلا من ثقافة محدودة . بينما المجتمعات الاكثر تطورا ، والتي تتحكم تكنولوجيا فى تلك العوامل،تقاسى من القلق الناتج عن اللا مبالاة والاخطار التى يتسبب فيها غيرها .

الى الآن ، ومناقشة ثقافة الطفـل التـييكتسبها منمجتمعه ، معتمدة علىمداخل انسانية فقط ، تدور حول اساليب اتصاله بالآخرين منحيث سلوكه اللفظى والعملى والانفعالي فقط .

---

(٢٥) Singh, J.A.I. and Zingg, R.M. (1942), **Wolf Children and Feral Nad,** Harper and Bros, New York.

ولكن مساهمة المجتمع فى ثقافة الطفل لا تتوقف عند هذه العوامل المعنوية فقط ، لانها تشمل ايضا عناصرا مادية محسوسة هى ادوات المعيشة التي يستعملها الفرد فى مجتمعه ، ونوع الغذاء والعقاقير التي يتناولها ، والكساء والمأوى الذى يحميه ، علاوة على ادوات الترفيه والتعبير الفنى التى يلجأ اليها لتسليته .

• • •

يعتمد الم الطفل بالطبيعة حوله على الوسائل التعليمية التي يقدمها له مجتمعه ، بل وتعتمد على ذلك كثير من العادات التي سيتبناها فى مستقبله ، الخاصة بحياته ومأكله وفهمه للامراض والعدوى والعلاج والوقاية . وحيث ان هذا المجتمع يوفر له ايضا نوع وقوانين مسكنه، ثم نظام محاصيله الكبرى والصغرى وقوانين تصنيع منتجاته ، وطرق حمايته من الطبيعة ومن المجتمعات الاخرى ، فان الطفل يولد وثقافته هذه رهن بعطاء هذا المجتمع . ولا متسع هنا لعد المسئوليات ، وهل هى اليق ما بوسع هذا المجتمع ان يقدم ؟ وهل هى آخر ما وصل اليه العلم فى باقى المجتمعات ؟ وهل هى تضمن فعلا لهذا الفرد الصغير ، الذى لم يكن له شأن بميلاده، حياة السعة والطمانينة والعافية ؟

الاسرة و ثقافة الطفل :

يتكون المجتمع الكبير من وحدات من مجتمعات اصغر هى الاسر . ومع ان هذه الاسر لا تخضع لنفس التنظيم الذى يخضع له المجتمع الكبير ، الا ان لمعظم الاسر قواعدا وطرقا للمعيشة تقوم مقام النظم والقوانين الاجتماعية العامة . ويعتقد معظم السيكولوجيون ان سنين الطفولة الاولى تشكل مرحلة التكوين النفسى للطفل ، وانها اكثر مراحل نموه حرجا . وحيث ان سنواته الخمس الاولى « الحرجة » تجده فى كنف اسرته طول الوقت تقريبا ، فانه لعجزه ، يصبح صورة الظل لهذه الاسرة . فكيف ينفعل ، ماذا يأكل ، ماذا يقول ، لماذا يخاف او يفرح وكيف يعبر عن نفسه ، كلها رهن بما يدور داخل هذه الاسرة وما يبدر عن افرادها .

تكوين الذات ، اى الشخصية الفردية ، يتم على مراحل متعددة منذ ولادة الطفل الى ان ينضج . وهذه الذات ، أو « الانا » ، لا تظهر بوادرها فى الاسابيع الاولى . لان الطفل حديث الولادة لا يميز بين جسمه وبين بقية الحقائق التى تحيط به . يعنى ان جسمه ونفسه يظلان وحدة متصلة الى ان يصل الوليد الى مرحلة التمييز بين هذا الجسم وبين محتويات العالم خارجه . ثم بعد ذلك ينتقل الى تنظيم الاشياء الى ذاتية وموضوعية عن طريق ادراكه وذاكرته . ويكون بهذا الاسلوب قد توصل الى التعرف على ذاته ، وتعرف عليها المحيطون به ايضا .

الذات تنظيم يتطور .٤ لان الطفل يتعرض لمثيرات حوله تخص حواسه اولا ، واخرى تخص عملياته العقلية والحشوية بعد فترة قصيرة .وكما قال وليام جيمس فانه « بمجرد الولادة الطبيعية ، تهاجم البيئة الصاخبة حواس الطفل» . فتتطور الوظائف الدماغية بين الاسبوعين الرابع والسادس (٢٦) بحيث تبدأ فى الاستقلال عن وظائف التوازن الحيوى . **لان الطفل يولد مستعدا** للقيام بعمليات التفاعل العضوى التي تؤمن له الاستمرار على الحياة ، كالتنفس والمص والبلع . ولكن عملياته العقلية التي ستعتمد على حواسه ، لا تكون مؤهلة للعمل الا بعد عدة اسابيع ، بل ولا تعمل اذا لم تتصل بما يثيرها من الخارج . فقد ثبت تجريبيا مثلا (٢٧) ان قردة الشمبانزى التي حرمت من الضوء منذ ولادتها تفقد ٩٠٪ من خلايا الابصار بشبكيتها . وان القطط التى منع الضوء عن احدى عيونها فقط (٢٨) ، لكى تبقى العين الثانية بمثابة عامل الضبط بالتجارب ، اصبحت تستعمل العين المتعرضة للضوء فقط فى الاستجابات التلقائية (المتماثلة أصلا فى الاثنتين) المتصلة بمتابعة الضوء او المثيرات المتحركة . اى كما راى بياجيه Piaget ، يلزم الكائن الحى النامي غذاء من المثيرات ، تماما كما يحدث فى جهازه الهضمي ، لكى ينمو ويتطور . وتكفينا الحقائق الطبية الانثروبولوجية الخاصة بتطور الجمجمة كدليل على أن النمو رهن بالوظيفة بالاضافة الى الوراثة ، لان حجم مخ الانسان الاول Australopithecus (٥٠٠,٠٠٠ قبل الميلاد) لم يكن اكثر من ٧٠٠ سنتيمتر مكعب ، بينما اصبح حجم مخ الرجل المتوسط اليوم حوالى ١٤٠٠ سنتيمتر مكعب . ولم يحدث ذلك الا لان ازدياد الوظائف الموكولة الى هذا المخ اضطرته الى توسيع مسطحه ، فزادت تلافيفه ، وبالتالى عدد نوروناتها .

ما سبق يعنى أن ثراء بيئة الطفل الاولى يثرى ثقافته سواء من الناحية التكوينية او من الناحية الوظيفية . ولا يتوقف تقدم النمو على الخلايا الدماغية فقط ، لان انظمة الطفل الحيوية ، وعظامه وعضلاته تتاثر بعوامل البيئة ايضا . فعلاوة على انه قد ثبت ان اطفال الملاجيء اللقطاء (٢٩) يعطون متوسطات اقل للذكاء ، ترتفع عندما ينقل الطفل الى عائلة ترعاه ، فان نسب الوفاة

---

(٢٦) Erikson, E.H. (1959) **Identity And The Life Cycle. Psychological Issues,** Monograph No. 1 International Universities Press, New York.

(٢٧) Riesen, A.H. (1960) ,,Effects of stimulus deprivation on the development and atrophy of the visual sensory system,'' **Amer. J. Orthopsychiatry.** 30:23, 1960.

(٢٨) Wiesel, T.N. and Hubel, D.H. (1963). Effects of visual deprivation on morphology, and physiology of cells in the cat's lateral geniculate body,'' **J. Neurophisiology** 29:978 1963.

(٢٩) Bowly, J. (1952) **Maternal Care and Mental Health,** 2nd ed. Monograph Series. No. 2, World Health Organization, Geneva.

تختلف ايضا بين اطفال الملاجىء والاطفال المتبنين (٣٠) ، بل ويتباين طوال عظامهم ونضج عضلاتهم نتيجة للمجاعة النفسية . ولا يخفى مدى ما تسببه هذه المجاعة من حرمان من حرمان من الدافعية لتبنى النظم الصحية للسلوك السليم (٣١) .

الرعاية التى تحيط بها الاسرة طفلها هى السند الاكبر لنمو واكتمال كل وظائفه النفسية والجسمية . وتساعده هذه الوظائف على تكوين مكانته الخاصة فى المجال الاجتماعى ، لا بالنسبة للآخرين فقط ، ولكن بالنسبة لتقديره السوسيوميترى لنفسه ايضا (٣٢) . ويلاحظ ان بياجيه قسم التطور المعرفى للطفل الى ثلاث مراحل : ١ ــ الحس ــ حركية (العام الاول والثانى) ، ٢ ــ العمليات المحسوسة (٢ ــ ١٢ سنة) ، وأخيرا ، ٣ ــ العمليات المدروسة (١٢ سنة فصاعدا) ، وانه وجد فروقا فى التطور بين الثقافات من ناحية وبين الطبقات الاجتماعية من ناحية اخرى . يعنى ان انتماء الاسرة الى واحدة او الى اخرى يؤثر على نمو الطفل المعرفى . بل اثبت الباحثون (٣٣) تميز الانفعالات الطفلية من اول الشهر الثالث ، وان الفروق تبعث خصائص الانفعالات لدى الابوين او من يقوم برعاية الوليد . فالطفل البشوش ، هادىء الطبع يتبع الراعى الحنون . اما الطفل القلق ، حاد المزاج ، غير المنتظم فى استجاباته فانه ناتج الرعاية المقتضبة غير المستقرة او الفظة .

ثم ينتقل الطفل من مرحلة المهد الى مرحلة المشى toddler stage ، يجنى اثناءها مهارات كثيرة ، كالكلام والاعتماد على ساقية والتفريق بين ما يريده وما لا يقبله . ويتبنى للمرة الاولى اما سياسة الرفض او الاتجاه السلبى نحو ما يفرض عليه . بل يتعلم ان يقول « لا » قبل « نعم » . ويتعرف على ما يمقته قبل التعرف على ما يريد . وفى هذه المرحلة تستكشف الاسرة كيفية التعامل مع هذه الذات الجديدة . لان اسلوب الجذب والشد لن يؤدى الى حل مشاكلها ، ولكن سياسة التعاطف والحزم هي التي ستنجح فى اقامة الحدود الاولى للسلوك المقبول (٣٤) .

---

(٣٠) Spitz, R.A. (1946) Anaclictic depression, **Psychoannal. Stud. Child.** vol 2, pp. 313-42.

(٣١) Sherif, M, (1967) Group processes and collective interaction in delinquent activities **J. Res. in Crime and Delinquency,** January, 43-62.

(٣٢) Petri, H. L., Mills, R.G., and Barry, L.S. (1974). Variables influencing the shape of personal space, **Proc. Amer. Psych. Assoc.** New Orleans, Aug. 1974.

(٣٢) Thomas, A., Brich, H.G., Chess DS., Hertzig., M.E., and Korn, S. (1965) **Behavioral Individuality in Early Childhood.** New York University Press. New York.

(٣٤) Kessen, W. (1965), **The Child.** Wiley. New York.

وفى السنتين الثالثة والرابعة يجد الطفل متعة فى الانطلاق والاعتماد على نفسه والتحسس المعرفى . ويزيح اسرته الى اقصى محيط انشطته. لان الطفل يأبى الآن ان يظهر ضعيفا ويصر على الاستقلال . ويكون المطلوب من اسرته فى هذه المرحلة (٣٥) التقليل من ممارسة السلطة ، واطلاق حرية الطفل فى النشاط الهادف الى تحقيق ذاته . ومع ذلك فان مستوى طموحه فى هذه المرحلة يفوق دائما مستوى امكانياته . فهو لذلك يأخذ على عاتقه اعمالا لا يستطيع اتمامها ، أو يدخل فى مشاكل لا قدرة له على الخروج منها. ويكون دور الاسرة اما مساعدته على بلوغ هدفه بعدما يستنفذ كل طاقته فى المحاولة ، أو ارشاده فى المراحل النهائية الى انجح السبل لحل مشكلته. واهم من هذا وذاك هو دور الاسرة فى اعداده لتقبل الفشل او القصود ، وانتظارهما كواحد من وجهي اللعبة .

ويتقدم الطفل نحو التطبيع الاجتماعى فى هذه الفترة ايضا . لانه سيستقبل اطفالا جدد فى العائلة ، او يقابل اطفالا غرباء خارج العائلة . ويتعلم للمرة الاولى ضرورة التعامل مع الغير ، والم فراق بعض اشيائه دائما او احبائه بعض الوقت ، لان الآخرين سيشاركونه فيهم . وتخدم هذه المعاناة منفعة جديدة ، لان الطفل سيتجه فى نفس الطريق الى البحث عن ذاته ، وسيتأثر بهؤلاء الغرباء ، وسيعين ايهم يميل اليه وايهم ينفر منه . وهنا ايضا تؤثر اسرته على اختياره ، لانها تتحكم فيمن يخالط ، أو لانها تحدد له القيم التي ينتظر منه ان يزن بها الافراد والاشياء والافعال .

وتنحصر الثقافة النفسية السليمة التي تتيحها الاسرة للطفل بعد هذا فى قيم تعتبر فى الحقيقة معايير عامة للصحة النفسية . فعليه ان يتعلم تقبل الحقائق المتعلقة بقدراته ، واستعداداته، وحالته الجسمية والعقلية . وعليه ان يتفاعل مع من يحيطون به تماما كما يود ان يعاملوه ، فيتعاطف معهم ويتقبلهم كما يقبل نفسه، وعليه ان يتعلم الاقبال على الحياة وتحمل نصيبه فى اى عمل ، وان يكون طموحا شجاعا مستعدا للكفاح والمقاومة اذا تعرقل هدفه او فشل أول الامر . واخيرا ان يتعلم الموازنة بين حاجاته وبين متطلبات المجتمع حوله ، فيتوقف عند الحدود التي رسمها هذا المجتمع ، حتى وان ادى ذلك الى حرمانه من اشباع حاجة جسمية او نفسية . وحيث ان الرياح لن تجىء بما تشتهى السفن دائما ، فان عليه ايضا ان يتعلم التكيف لمواقف الاحباط بتغيير الاشياء او بتغيير اوضاعه النفسية . ومهمة اسرته فى هذه الثقافة النفسية

---

(٣٥) Eisenberg, L. (1967) Normal child development In: **Comprehensive Textbook of Psy- chiatry.** Freedman & Kaplan, eds. The Williams and Wilkins Co. Baltimore.

طويلة شاقة ، لانها لا تخضع للوقت او لقانون اولطريقة . فهي تبدأ من اول يوم يتبادل فيه الطفل الكلمات مع من يقوم برعايته . ولا تنتهى الا عندمايصبح الطفل راشدا آخر مسئولا عن طفل آخر ، يرعاه ويحثه بنفس الاسلوب تقريبا ، ويختار عندأرشاده بعض الاساليب التي طبقت عليه (٣٦) :

« واذا استطعت ان تملأ كل دقيقة قاسية بستين ثانية من سعى ومثابرة ، لك الارض بكل ما عليها ، واكثر من ذلك ، تكون قد صرت رجلا يا بنى » .

لتنتقل الثقافات من الجيل الى الجيل عن طريق فرد ، ميراثا ومتعة ودين .

★ ★ ★

(٣٦) Kipling, Rudyard (1959). „If", In : Anthology of Modern Verse., Pelican Books. London.

محمد احمد غالى

غذاء الحامل وصحة الجنين والوليد

مقدمــة : ـ

حقق علم الاجنة ، وعلم نفس الطفل توسعا كبيرا فى دراسة مرحلة مـا قبـل الميـلاد ، باعتبارها أهم مرحلة تضع البذور الاولى لحياةالانسان بعد الولادة فترسم له عن طريق الوراثة ، وعن طريق مـا يصله من الام من خـدمات‌التغذية ، ووظائف التنقية ، ترسـم له اطـار مستقبل حياته اما حياة سليمـة سويـة ، اوحياة متعثرة فاشلة جسميا أو عقليا أو انفعاليا ، أو هى جميعا .

ولقد عشنا عصورا طويلة ننكر ، أو نجهل أثر هذه المرحلة على نمو الفرد بعد الميلاد ، ولا زالت الكثير من الامهات الى اليوم لا يعين هذه‌الاهمية ، ولذلك فانهن بالتالى لا يسمعن الى صـوت الجنين الصامت يشـكو النقص ، ولافرحته المدوية دون ضوضاء حين ينعم بالكمال ، كل الكمال ، فيما يأتيه من امدادات غذائية ، اويخطى به من اعفاء من عمليات الاخراج أو التنفس للتخلص من الفضلات او العناصر الضارة بجسمه‌الواهى ، الى ان ظهرت على بعض المواليد امراض

وعلل ، او تطورت لديهم أنواع مــن النقص الجسمى او العقلى ، اضر بهم وبمستقبلهم وارق مضاجع آبائهم ، فانتبه الناس الى هذه المرحلةمرحلة ما قبل الميلاد « prenatal period » يتلمسون فيها ما قد يحدث أثناءها من نقص فيغذاء الجنين أو دوائه ، أو عجز فى مقــــومات حصانته من كل سوء ، أو عوامل قد تؤخر نماءه .

لقد عاش الفكر النفسى فترة طويلة يقصرتاثير هذه المرحلة علىالمواليد فيحدود تاثير العوامل الوراثية دون غيرها ، منكرا أحيانا ومتجاهلاأحيانا أن ذلك الكائن الذى يعيش فى ظلمــــات ثلاث ، هى ظلمات الرحم ، يتأثر كثيرا وكثـــيراجدا بما وراء هذه البيئة الرحمية ، أو ماهية البيئة الخارجية التى تعيشها الام الحامل .

ولقد توصل العلم الحديث الى الكثير عنالتاثر المباشر الذى يظهر على الجنين فى بطن امه ، اذا تغيرت المؤثرات البيئية التى تحيط بالام ،او تغيرت الام نفسها بما يغير البيئة الرحمية . ولا غرو فالجنين كائن متطفل على الام يعيش بهاومعها ، وعلى ما تقدمه له من احتياجاته الغذائية والهوائية والوقائية جميعا .

ان الجنين فى بطن امه كائن عاجز ، ولكنهمع عجزه لديه استعدادات تبدأ من لحظة تلقيح البيضة تعطيه طاقات حيوية واضحة جدا ،فبمجرد تلقيح البيضة التي يفرزها مبيض الام بواسطة الحيوان المنوى تصبح لها القدرة علــىالحركة ، ثم تخرج من الشعيرات « الحوالق » ما يصلها ويزرعها فى جدار الرحم . ثم لديها منالطاقة ــ طاقة الحياة ــ ما يجعل خليتها الواحدة تنقسم ثم تنقسم وتتضــاعف عــددا ، ثـــمتتمايز وظيفة ، ثـــم تصبح علقة ثم مضغة ، ثم تتكسى أو يكسوها الله ــ بعــد تكوين العظــاملحما ــ الخ من التطورات المعروفة .

قابلية الجنين للتاثر بظروف البيئة الخارجية .

المعروف ان تطور الجنين فى مرحلة ما قبل الميلاد يمر بمراحل نمائية هامة هي : ــ

١ ــ مرحلةالبذرةأو البيضةالملقحةبالحيوانالمنوى . وتستمر لمدة أسبوعين بعد الاخصاب . .

٢ ــ مرحلة المضغة وتستمر من الاسبوعالثالث حتى السابع .

٣ ــ ثم مرحلة العلقة والجنين وتبدأ منالاسبوع الثامن يوم الولادة .

وفى كل مرحلة من هذه المراحل تحدث تغيرات نمائية ، وتظهر اعضاء وتتضح وظائف لهذا المخلوق ، وهو يبدأ اول حياة فى تاريخه الطويل.

وقد يفيدنا هنا ان نستعرض فى عجالة سريعة أهم التغيراتالتكوينية والحيوية والبيولوجية التي تظهر فى كل مرحلة من هذه المراحل . ذلكأن اهتمام هذا البحث بموضوع التغذية يجعل من الضرورى تحديد المراحل النمائيـــة ــ قبــلالميلاد ــ التي قد تتأثر باضطراب مورد الغذاء او عناصر تكوين الغذاء الواصل مـــن الام :« شكل ٢ »

مراحل التغير قبل الولادة : prenatal development

١ ـ **مرحلة البذرة :** وهى مرحلة البيضةالتى تم اخصابها بواسطة الحيوان المنوى . بعدها يتكون حول البيضة غشاء قوى يمنع دخول اكثرمن حيوان منوى واحد من مئات الملايين التي تصب فى الرحم بعد عملية الوصالالجنسى . بعد ذلك تبدأ المرحلة الثانية فى التطور وهى انقسام الخلية الى العديد من الخلايا ، وهىما تسمى مرحلة الانقسام « metosis » (١) وفى اليومين التاليين تستمر عملية الانقســامالخلوى . وخلال هذه العملية تتحرك البيضة المخصبة خلال قناة فالوب لتصل الى تجويفالرحم (انظر شكل ١ وشكل ٢) .

وبين اليوم الثالث واليوم الخامس بعدالاخصاب تبدأ الخلايا فى اعادة تنظيم نفسها لتتجمع حول السطح الخارجى تاركة فراغا خاويا وسطها يمتلىء بسائل ما .

وفى اليوم الخامس او السادس تتجمع خلايا معينة داخل هذا الفراغ ثم تبدأ فى التخصص ، فالخلايا التي تتجمع على أحد جوانب هذاالتجويف ستصبح فيما بعد العلقة ، أما الخلايا الباقية فانها تكون منطقة الاتصال بالرحم وهيالبشيمة « placenta » والسائل الداخلى الذى سوف يسبح فيه الجنين .

وبعد اليوم السابع الى التاسع من الاخصاب ، تحتك هذه التركيبة بجدار الرحم ، وتبدأ عملية التصاق بالجدار بواسطة « حوالق » تظهرفيما بعد وتكون بعد ذلك المضغة . ان افراز الام الحامل لهرمونات الاستروجين والبروجسترين تهىء الرحم لاستقبال هذا الضيف الجديد المقدس (٢) . هنا ترقد كتلة العلقة فى احضانجدار الرحم ويبدأ تموينها بالغذاء من دم الام عن طريق حويصلات تتكون فى جدار الرحمتتبادل دم الأم مع دم الجنين . والأم هنا معطاءة كريمة ، حانية على التكوين تطهر دمه لحظة بعدلحظة فى عملية تبادل غريبة كلها السخاء والعطاء. (انظر شكل ١) .

هنا يحدث نماء سريع جدا لهذه العلقة يومابعد يوم ، ويتضاعف حجمها كل ٢٤ ساعة (انظر شكل ٢) وبعد حوالى أسبوع يكون طول العلقةتقريبا ١ : ١٠٠٠ من البوصة . ان احتضان جدار الرحم لهذه العلقة يعطى الحياة لهذاالتكوين حين يتسلم الغذاء والاوكسجين من دم الام ويطرد منه الفضلات . ولا يزال الكائن هناجسما غريبا على الام ، ولولا ما تقدمه له من هرمونات ، ولولا قوة هذه المنطقة لحدث للجنينطرد سريع ولم يتمكن الرحم من الامساك بالتكوين .

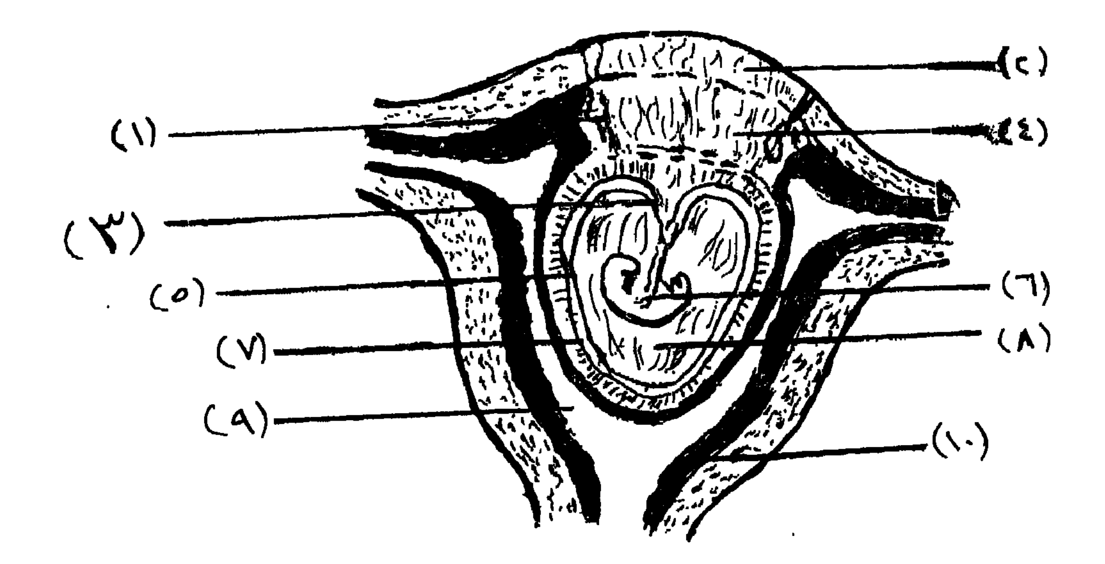
مرحلة المضغة : « The embryonic period »

هذه مرحلة هامة جدا فى تطور الجنينوهنا يتغير مظهر العقلة بصورة جذرية من كتلة من الخلايا الى كائن بشرى واضح المعالم .

---

(١) تسمى احيانا حالة تكاثر الخلق بالانقسامالمتتابع (cleavage).

(٢) غالي وآخرون



شكل (١)

رسم توضيحي يبين العلاقة بين الرحم والغشاء الرحمي والجنين أيام الحمل

الأسبوع ١
١ الإخصاب
٢ البذرة تنقسم
٣ المضغة
٥ قطاع فى العلقة
٦ بدء الزرع بالرحم

الأسبوع ٢
١٠ يتم زرع البذرة فى جدار الرحم
١١ دورة دموية بدائية تتكون فى منطقة المشيمة

الأسبوع ٣
١٥ أول انقطاع للدورة الشهرية للأم
١٨ صفائح عصبية
طول ٢ - ٣.٣ مم
٢٠ المخ
حزمة عصبية
بدء نمو الورقة
عصبان
تحزم
قناة القلب على بدء الظهور

الأسبوع ٤
٢٢ بدء دقات القلب
توزيع الأعصاب
٢٣ براعم تكوين العين والأذن
٢٤ تجويف القلب
٢٦ براعم الأذرع
يتحدد الجسم الأمامى
٢٧ تتضح براعم الأذرع والأرجل
الطول من قمة الرأس إلى آخر العمود الفقرى

الأسبوع ٥
٢٩ طول ٦ - ٧ مم
٣١ تطور العين
فتحة الأنف
فم بدائى
٣٢ كف اليد
يتشكل القدم
٣٣ طول ٨ - ١١ مم
٣٤ الرأس أكبر كثيراً بالنسبة للجذع
يرى بدء الأصابع
٣٥ طول ١١ - ١٤ مم

الأسبوع ٦
٣٦ تجويف الفم والأنف
٣٧ طول ١٤ - ١٦ مم
٣٩ طول ١٧ - ٢٠ مم
٤٠ تتضح الأصابع ولكنها مرتبطة - أصابع القدم تبرز - يتكون سقف الحلق
٤٢ طول ٢١ - ٢٣ مم

الأسبوع ٧
٤٣ طول ٢٢ - ٢٤ مم
٤٤
٤٥ طول ٢٥ - ٢٧ مم
٤٧ تتكون مبادئ الأعضاء التناسلية
٤٨ بداية جميع التكوينات الجوهرية الداخلية والخارجية
٤٩

شكل (٢)

أضواء على نمو الجنين فى الأسابيع الثمانية الأولى من الحياة عن " Moore " 1977

وهنا نشهد بديع خلق الله فيما جاء فى قول الله تعالى : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم انكم بعد ذلك لميتون » سورة المؤمنون آية ١٢ ـ ١٥ .

وبنهاية المرحلة تكون جميع الاعضاء الكبرى والاجهزة الرئيسية قد تكونت كما يتضح ذلك من « شكل ٢ » . وهذه المرحلة التي تنتهي بنهاية الاسبوع السابع أو آخر الشهر الثانى من الحمل تتسم بالنمو السريع ، وهي لذلك مرحلة يكون فيها التكوين اكثر عرضة للتأثر بالعوامل البيئية الخارجية التي قد تمتاز بنقص او قصورما . ولهذا فانها بالنسبة للكائنات البشرية تعتبر اكثر المراحل حساسية لأى مؤثر رحمي أو خارج رحمى . وهنا نلاحظ أنه ـ بين اليوم ١٨ ـ ٢٨ يبدأ الجهاز العصبى فى الظهور والتطور . وهو الجهاز الذى يقوم بعملية توجيه النماء والتطور لاغلب الاجهزة الحيوية الاولى ، ويبدأ تطوره من تجميعة عصبية ثم تتطور لتكون المخ والمخيخ والحبل الشوكى .

ـ فى نفس الوقت تقريبا تتطور أجهزة دقيقة اخرى فى نفس فترة تطور الجهاز العصبي المركزى . ففى الاسبوع الثالث من الاخصاب يبدأ تشكيل الاوعية الدموية والمعدة . وهنا تظهر انبوبة صغيرة تتطور لتكوين القلب ، ولذلك يظهر عليها نوع من النبض البدائي فى الاسبوع الرابع . وبعد ذلك يسير تكوين الجهاز الدورى بانتظام .

وفى اليوم الثامن والعشرين تظهر فى جسم المضغة ٤٨ زوجا من قطاعات الانسجة هى التى تتكون منها العضلات فيما بعد .

ـ ثم يبدأ تكوين الاربطة والعظام فى صورة خلايا غضروفية .

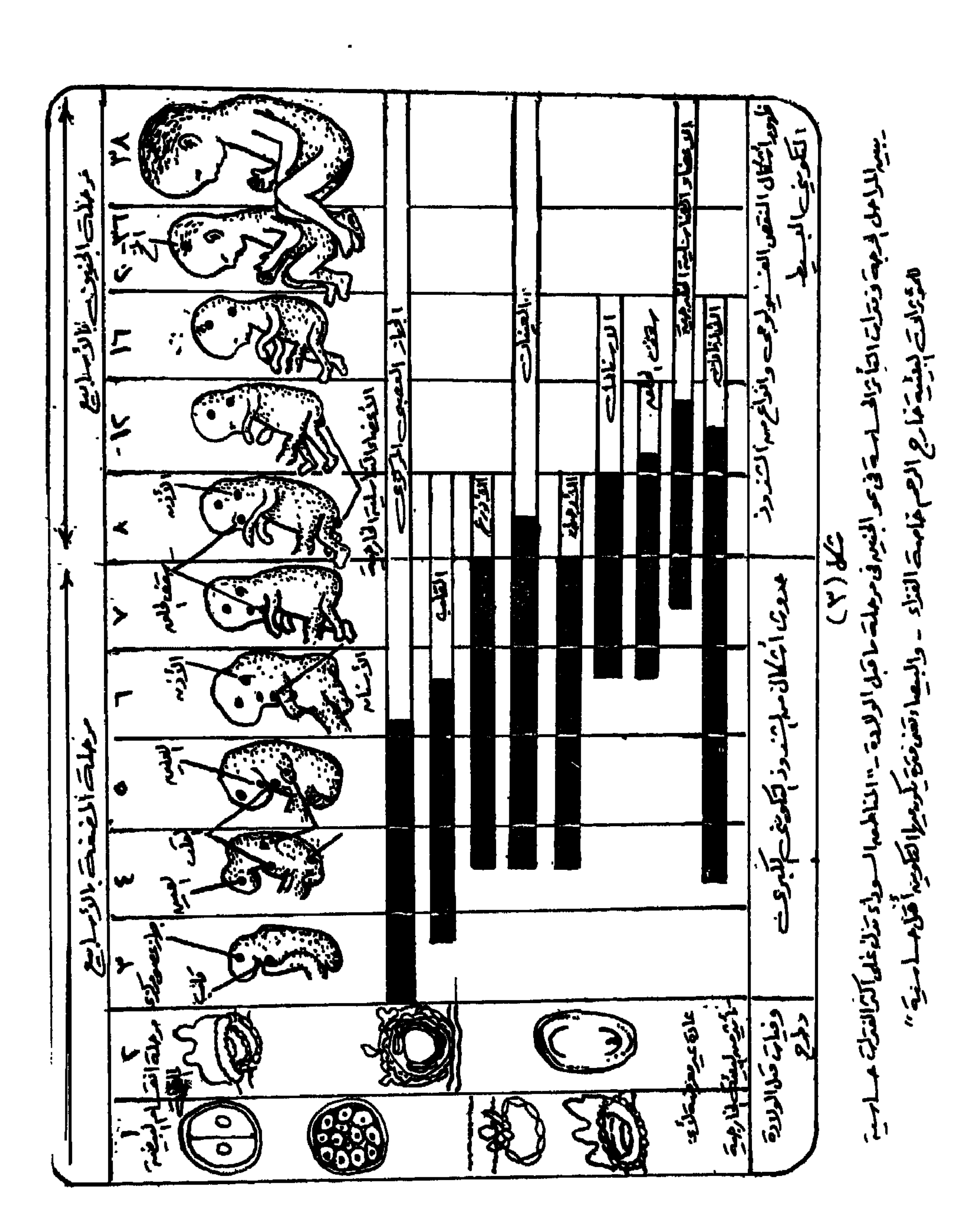
ـ وفى نهاية الاسبوع الرابع تحدث تغيرات غاية فى العجب فى المضغة ، فهنا يزيد حجمها ليصبح قدر ما كانت عليه ٧٠٠٠ مرة ، ومع ذلك لا يمكن تمييز كائن بشرى أبدا من مظهرها فحسب . فهنا لا تختلف عن مضغة أى كائن حي آخر . « الله يعلم ما تحمل كل أنثى ، وما تغيض الارحام وما تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » سورة الرعد آية ٨ ، ٩

ـ وابتداء من الاسبوع الخامس الى السابع تتطور المضغة تطورا واضحا حين تصبح وظيفة المخ والقلب ضرورية تماما لعملية تطورها ، وهي اكثر حاجة لهما من حاجتها الى وظيفة الهضم مثلا . (شكل ٣)

ـ ففى الاسبوع الخامس يكبر حجم المخ نسبيا اذا قورن بكبر حجم كتلة المضغة ، وتبدأ قشرة المخ الدماغية فى الظهور لأول مرة ، وهي الجزء من المخ الذى يحكم النشاط الحركى والذهنى العقلى ، ويؤثر فى أسلوب الفرد الانفعالى بعد الولادة (٣) .

---

(٣) غالي وآخرون .



شكل (٣)

يبين المراحل الحرجة وفترات التأثر الحساسة في نمو الجنين في مرحلة ما قبل الولادة - "المناطق السوداء تدل على أكثر الفترات حساسية للمؤثرات البيئية خارج الرحم خاصة الغذاء - والبيضاء تعني فترة يكون فيها التكوين أقل حساسية"

ــ وفى الاسبوع الخامس يتم تكوين التجويف الصدرى والبطن . ولذلك هنا تصبح العيون واضحة من خلال الجفون المغلقة ، ثم تظهر براعم الرئتين وصفائح اليد والقدمين غير متميزة بأى أصابع » .

ــ وفى الاسبوع الخامس يبدأ تكوين النصالشمى من المخ .

ــ وفى الاسبوع الخامس والسادس يتعرض القلب لتغيرات جذرية فى التكوين والوظيفة ، اذ تتحول صورته الانبوبية الى القلب الرباعىالتقسيم .

ــ ولا يزال التكوين خفيف الوزن صغير الحجم حتى اليوم ٣٦ حين تظهر جميع الكتل العضلية وتتكون براعم الاذرع والساقين .

ــ فى اليوم ٤٧ يبدأ تشكيل الاجهزة الجنسية وفتحة الشرج ولو انه يكون من الصعب تحديد جنس التكوين ــ ذكرا كان أم أنثى .

ــ وفى نهاية المرحلة أى فى اليوم ٤٩ تكونجميع أعضاء التكوين قد ظهرت ، ويسمى الكائن النامى هنا بالجنين .

اليس فى ذلك ابراز لعظمة الخالق الذى حدد كل هذه المعالم المتغيرة فى الجنين فى الكتاب الكريم فى آيات بينات « هو الذى يصوركم فىالارحام كيف يشاء لا اله الا هو العزيز الحكيم ». آية ٦ سورة آل عمران . وقوله تعالى « واللهاخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون »آية ٧٨ سورة النحل .

مرحلة الجنين : Fetus

ان التغيرات النمائية التي تتم فى هذهالمرحلة تكون أقل غرابة من تلك التي تمت فى المرحلة السابقة ، ولو أن التغير يظل مستمرا .

ــ ففى خلال الشهر الثالث تتضح الاجهزةالتناسلية ويتمايز الجنسان .

ــ ثم هنا تبدأ التكوينات العظمية تحلمحل الانسجة الغضروفية الطرية فى الهيكل العظمى ، اى تتكلس الغضاريف نوعا ما .

ــ ونظرا لاتصال العضلات بالجهاز العصبىالمركزى تبدأ حركة الساقين والذراعين ، وهو امر يحتمل حدوثه دون أن تشعر الحامل بحركةالجنين .

ــ ان الاستجابات الانكاسية الاولى للجنينتكون بصورةكلية يقوم بها بكل جسمه قبل بدء تخصصه العضوى ، لكل مثير . ثم تبدأ مناطقمعينة من الجسم فى التخصص . وبنهاية الشهر الثالث تنضح للجنين : ــ

* جفون العين
* اظافر الاصابع

* ثم براعم أسنان الطفل .

وخلال الشهر الرابع : ـ

* يظهر الشعر على الراس

* ويبدأ ظهور الرمش والحاجب

وفى الشهر الخامس : ـ

* يزيد شعر الراس

* ويأخذ الجلد شكلا واضحا فى المثانى .

* وخلال الشهر الخامس يسمع نبض القلب بالسماعة المعروفة ، وهذا دليل هام على أن الجنين يتمتع بالحياة .

اما الفصل الثالث والاخير فهو الشهور الثلاثة الاخيرة ، السابع والثامن والتاسع وهي شهور يكون فيها الجنين قد نضج بدرجة تكفيه للحيــاة خارج الرحم فى حالات الولادة المبتسرة "Premature birth"

ففى الشهر السادس يكون الجنين قــد تعلم التنفس بنفسه عن طريق رئتيه ، ويمكنه ان يعيش لو ولد ، ولو أن الافضل أن يتم الشهر السابع لكى يتم له فى هذه الفترة الكمية اللازمة لاكتمال حجم المخ والجهاز العصبى المركزى .

هذا وتحدث هنا أيضا تغيرات ذات مغزى ، فقد يطول شعر الراس الى بوصــة ، وتمتــد الاظافر الى أبعد من أصابعه فى اليدين والقدمين .ولعل من أهم ما يحدث فى الشهر التاسع هــو وصول الاجسام المضادة « Anti bodies » والتى تقاوم الامراض العديدة تنساب مع دم الام الى الاوعية الدموية للجنين ، وبذلك تعطيه المناعة الضرورية ضد الكثير من الامراض ، الامر الذى لا يتحقق له بدون ذلك لمدة شهرين او ثلاثة بعد الولادة (٤) .

وخلال هذه المرحلة يزيد حجم الجنين باستمرار وصول امدادات من عناصــر الغــذاء الضرورية لعملية التسمين فى هذه الفترة ، ولوانه على العموم يأخذ معدل النماء فى الانخفاض تدريجيا فى الشهر التاسع . وينمى الجنين كذلك طبقة اضافية من الجلد السميك المتدهن الناعم الاملس تخلو غالبا من الشعر الذى يكسو اغلب الجسم .

وبعد الولادة يفقد المواليد بعض الــوزن بسبب عملية التأقلم للبيئة خــارج الرحميــة ، والمعروف ان فرص الحياة تكون افضل بعــد الولادة كلما قضى الجنين فترة أطول فى المرحلــة الاخيرة تصل الى ٤٠ اسبوعا مــن آخــر دورة شهرية .

---

(٤) يراجع فى موضوع التغيرات النمائية فى مرحلتها قبل الميلاد . اغلب المراجع المدونة باخر البحث وخاصة Fein, G. Greta, 1978, (5)

النماء والغذاء من البيئة الخارجية :

لقد أردنا بعرض هذه الصورة أن نبرزالمراحل الهامة والحيوية من حياة الحمل والتى قد تتأثر بنقص الغذاء او نقص العناصر الغذائية ،وذلك لتكون الأم الحامل على وعي بالعناصر الضرورية لكل مرحلة نمائية من مراحل عمرحملها ، وما يحتاجه لكل منها من عناصر غذائية، فمثلا فى فترة تكون الجهاز العصبى المركزى تكونحاجة الجنين ماسة للبروتين والفسفور والبوتاسيوم ، وفى حالة تكون او نمو الهيكلالعظمى تكون الحاجة ماسة للكلسيوم وغيره من العناصر مثل فيتامين (د) مثلا .

هذا ونحن هنا ــ وبصدد دراسة أثر نقصالغذاء على تطور الجنين ــ نحب ان نشير الى ان علوم الاجنة وعلم نفس الطفل قد تلمسا هذهالنتائج من تتبع تطور الاجنة فى بطون امهاتها وكذلك لما قد يبدو على المواليد من نواحي النقصالنمائي نتيجة ذلك .

كذلك نحب أن نوضح هنا أن هذه الدراسة، وهى تبرز الجوانب السلبية للامدادات الغذائية من الام ، انما نفترض ان هذا يوضح ضرورةالاهتمام بعكس هذه المظاهر ، اى توفير ايجابيات غذائية الحمل فى كل مرحلة من مراحل التطور .

كذلك نحب أن نشير هنا الى أثر البيئةالخارجية على نمو الجهاز العصبى المركزى وتطوره فى عجالة نبدأ بها جذب انتباه كل مهتمبالطفولة بأثر ذلك على هذا الجزء الحيوى ، والحيوى جدا من التكوين .

فالمعروف ان مراحل نضوج المخ الاساسيةثلاث ، ولو تعرض نماء المخ لاى تاثير من البنية الخارجية وخاصة نقص الغذاء فان لذلك آثاراسيئة جدا كما يتبين من الجدول التالى :

جدول رقم ١

يبين الاوجه الثلاثة لنماء المخ وتاثير سوء التغذيةفيها (٥) .

الوجه أو المرحلة النمائية	المظهر النمائي	أثر سوء التغذية
(١) من التلقيح الى الولادة وتسمى Hyperplasia	استمرار زيادة عدد الخلايا العصبية	يؤثر فى انقسام الخلايا ويسبب عطبا دائما .
(٢) من الولادة حتي آخر السنة الاولى خليط من Hyperplasia و hypertrophy	زيادة فى عدد الخلايا وفى حجمها ووزنها .	يسبب عطبا واصابة دائمة قد يكون من الممكن اصلاحه جزئيا ولكنهذا أمر غير مؤكد.
(٣) ما بعد السنة الاولى Hypertophy	استمرار زيادة وزن الخلايا العصبية	يكون حجم الخلايا اقل من العادى ويمكن اصلاح النقص بالاهتمام بزيادة الغذاء الملائم .

(٥) Fein, G. Greta, 1978

الحمل والغذاء وحجم المشكلة :

يتبين لنا من العرض السابق لمراحل تطورالحمل ان تأثير الظروف البيئية الخارجية يختلف باختلاف المرحلة التى يحدث فيها : فمثلاان بعض الظروف البيئية قد تسبب هلاك التكوين فى ٣٠٪ من الحالات اذا حدثت فى مرحلةالمضغةلشدة ضعفها ، وافتقارها لعناصرالمقاومة، وفى هذه المرحلة كذلك تكون مظاهر النقص الخلقى والتشوه الاستعدادى او الولادى اكثر احتمالا « Congenital » . هذا ونحب انتشير هنا الى أن المؤثرات البيئية الخارجية لا تؤثر فى الكرموزموات ولذلك فانها قد لا تنتقل الى الاجيال التالية ، ما لم تتعرض لمثل هذه الظروف .

ولعل من فضل الله على البشر ، أن المؤثرات البيئية الخارج رحمية قد لا يظهر لها اى اثر اذا حدثت بعد الاسبوع العاشر من الاخصاب ،فلا تسبب هنا اى تشويه للجنين أو نقص خلقى ، الا ما قد يحدث للمخ والجهاز العصبى المركزى او العيون والاجهزة التناسلية، كما يحدث فى حالات الولادة من امهات أصبن بالامراض السرية التناسية .

كذلك مما يجب أن نشير اليه ان النقص والشذوذ الخلقى بالولادة لا يصيب أكثر من ٥ر٢٪ من المواليد واغلبها يكون من انواع الخلل والنقص البسيط . ففى كل ٢٠٠ مولود يولدون اصحاء تماما يولد واحد فيه علة أو نقص ما ظهر عليه قبل الولادة ولم تدركه الام او المسئول عنها .

ان مرحلة المضغة تعتبر مرحلة حساسة تماما ، حيث ان الكثير من التكوينات والاجهزة الاساسية يبدأ تطورها ، بل يتم بعضها فى هذه المرحلة ، وهى عملية تسير بسرعة مذهلة . والمعروف ان التطور السريع يجعل الكثير من الصفات أو السمات الموروثة قد تنحرف عن جادة تطورها السوى . ولذلك فان الكائن فى هذه المراحل الدقيقة يكون اكثر عرضة واستعدادا للتأثر بالمؤثرات خارج الرحمية من البيئة الخارجية ، التى قد لا يكون لها نفس التأثير فى المراحل اللاحقة ، أى انه كما يرى «Waddington» أن هذه المراحل مراحل المضغة هى مراحل الازمات التكوينية الخلقية » . اكثر المراحل حساسية للمؤثرات الخارجية Epigenetic crises .

ففى الايام التى يتطور فيها عضو بذاته ،كالقلب مثلا ، يكون لكل مؤثر من البيئة الخارجية يصل الى هذا العضو اثره الخطير فى حسن تطوره وتشكله وتوصله الى الاداء الوظيفي الامثل (٦) .

كذلك نجد ان هناك أياما وفترات مبنية(شكل ٣) تبدأ فيها وبسرعة اعضاء ما فى الظهور والتطور ، ويتوقف تأثير اى نقص او عجز أو ضغوط بيئية على نوع العضو النامى فى هذه الفترة .

فمثلا قد وجد ان تأثير عقار الثاليدوميد« Thalidomide » وهو واحد من العديد من العقاقير المهدئة التي شاع استعمالها فى الستينات- تأثيره على الجنين كان واضحا تماما فى اكثر

---

(٦) Waddington, 1957 (18)

من حالة . وقد ظهر من دراسات عديـدة علـىمواليد أمهات كن يتعاطين هذا العقار أيام الحمل ما يمكن أن يكون للبيئة الخارجية من تأثير علىتطور الجنين . بل ان هذه الدراسات كانت أشبه بالدراسة العملية لاثر البيئة الخارجية على تطورالجنين . ذلك انه ثبت أن تأثير هذا العقار على تطور التكوين أيام الحمل يتوقف على تاريخ تعاطيه . فمثلا أكدت البحوث انه : ـ

ـ اذا تعاطته الحامل بين الايام ٣٤ ـ ٣٨ من تاريخ الاخصاب فان الوليد يولد بدون الاذن الخارجية .

ـ واذا تعاطته الحامل بين اليوم ٣٨ ـ ٤٦ فانه يسبب عدم ظهور الاذرع أو تشوه نموها . وقد يكون له تأثير كذلك على الساقين .

ـ واذا كان تناول العقار بين اليوم ٤٦ ـ ٥٠ من تاريخ الاخصاب فانه يسبب ظهور عظام زائدة فى اصبع الابهام .

وينطبق ما أمكن الكشف عنه من الدراسة التتبعية لآثار تناول هذا العقار على تأثير سوء التغذية على حياة الحمل . ذلك أن التغذية تؤثرمن اتجاهين :

ـ الاول كمية الغذاء ودرجة كفايته للحامل وحملها معا .

ـ والثانى توفر كيفية وعناصر معينة ضرورية فى الغذاء .

ومن هذين الاتجاهين يختلف التأثير باختلاف فترة تطور الجنين وطبيعة التغيرات النمائية التي تحدث له . فكل فترة تحتاج لعناصر غذائيةتختلف عن الفترة الاخرى ، سواء فى كمية الغذاء أو كيفيته وتوفر عناصر معينة فيه .

تحديد أثر سوء تغذية الحامل على تطور الجنين :

ثبت من دراسات عديدة أن ٦٦٪ الى ٧٥٪ من المواليد فى الدول النامية يولدون من أمهات يعوزهن الكفاية الغذائية قبل وأثناء وبعد الحمل . وليست حالة سوء التغذية قبل وبعـد الـولادة ظاهرة تضر بالكائن الجديد أثناء الحمل وبعـدالولادة فى الدول النامية وحدها ، بل ان هناك نفس هذه الظاهرة فى أمريكا نفسها .

فقد أثبتت الدراسات الاحصائية ان الكثيرات من الامهات الحوامل القادرات لا يختلفن كثيرا عن صاحبات الدخل المنخفض فى هذا الامر من حيث أنهن يعانين نقصا وحرمانا كبيرا من البروتين الكافى ، وذلك لان هؤلاء يكتفين فقط بالتهـــام أكلات خفيفة أثناء العمل ، وهى وجبات يعوزها السعرات الحرارية الضرورية اللازم توفرها للأم الحامل ، أو لأنهن يعتمدن كثيرا على المشروبات الخفيفة أو أنواع « البسكويت » الملح أو يحصلن على حاجتهن من السعرات الحرارية من تناول الكحول أو بعض الدهنيات أو الكربوايدرات ، دون الاهتمام بالاغذية التي توفر لهن البروتين اللازم من اللحوم والبيض وغيرها ، كالاسماك مثلا ، كذلك دون رعاية لاهمية الخضر والفواكه فى تزويد أجسامهن ، وبالتالى أحمالهن من الاجنة بالحاجة الضرورية من الفيتامينـات المختلفـة .

كذلك لوحظ بين أبناء الطبقات الغنية فى اغلب بلاد العالم تمسكهن « بالحصنة » أيام الحمل « الرجيم » حفاظا على القوام المشوق ، وقدتصل (٧) بهن هذه النزعة الى درجة من فقدان الشهية الهستيري Anarexio nervosa . وهذه كلها أمور تحرم الحمل المتعطش للغذاء كل الغذاء ، النهم المحتاج لتنوع العناصر الغذائية ، تحرمه من توفر البيئة الغذائية وهو حبيس الظلمات الثلاث ، داخل التجويف الرحمى لاحول له ولا قوة الا من أمه .

ولقد ركزت البحوث الاخيرة على تأثير سوء التغذية بين الحوامل فى مرحلة ما قبل الولادة والشهور الست الأولى بعد الولادة ، على اعتبار انها امتداد لمرحلة الرحم ، على آثار هذه الحالة على جوانب نمو هامة اهمها : ـ

ا ـ سوء تغذية الحامل واثره على النمو العقلى للجنين :

ان الاطفال الذين يولدون بعد جو من سوء التغذية فى المرحلة الرحمية قد لا يحققون أقصى درجات النماء الجسمى ، وقد لا يتوفر لديهم التكوين اللازم لتحقيق أقصى درجات النمو العقلى . فقد اثبتت دراسات أجراها دايتن Daytin فى عام ١٩٦٩ أن سوء التغذية يؤثر تأثيرا مباشرا على نضوج المخ ونمائه عند الجنين ، ما دام يعتمد فى غذائه على الام الحامل ، وهى لا تمده بالعناصر او الكميات الضرورية الغذائية اللازمة لنماء هذا العضو الهام فى التكوين . (جدول رقم ١)

ان دراسات ذلك العالم وغيره من العلماء اثبتت أن الجنين اذا لم يحصل على القدر الكافى من الغذاء أيام الحمل فان معدل انقسام خلايا المخ وتكاثرها الانقسامى يقل بنسبة ٢٠٪ عن المعتاد . وانه اذا كان يعانى من سوء التغذية فى الشهور الست الاولى بعد الولادة فان الانقسام الخلوى فى المخ يقل مرة ثانية بمعدل ٢٠٪ اخرى عن المعتاد . وهكذا يمكننا ان نتصور كيف يمكن ان تكون صورة الكارثة اذا اجتمع للجنين سوء التغذية قبل الميلاد وبعد الولادة ، ولو علمنا أنه فى هذه الحالة الاخيرة يقل حجم المخ بمعدل ٦٠٪ عن الحجم الطبيعى) ! (٨) .

ولعل مما يزيد هذه الكارثة فظاعة ما نعلمه من ان هذا الجهاز هو من أول الاجهزة التى تتكون فى تطور الحمل كما بينا ، (شكل ٣)، وذلك لأن الحاجة اليه ملحة فى تشغيل وتنظيم عمل وتناسق وظائف ما يأتى أو يتطور بعد ذلك من الاجهزة .

ولو علمنا ان فى وسط هذا الجزء من الجسم تتكون اهم الغدد الصماء ، التى تلعب دورا قياديا بين الغدد ، ونعنى بها الغدة النخامية « Piruatry » وهى الغدة التى تنظم عمل جميع الغدد ، كما أنها هى نفسها تفرز ، وفى وقت مبكر من الحياة ، هرمون النمو او المنشط للنمو الجسمى . Soma to trophic hormane وانها تتأثر بلا شك بأى اصابة او نقص او انخفاض فى جسم المخ ، لو تصورنا ذلك كله لامكن ان ندرك اى جناية تجنيها الحامل على

---

(٧) غالي : محمد وآخرون : (٢)

(٨) Wyden 1971

وليدها اذا حرمته وهو فى احشائها من حاجته الضرورية للغذاء ؟ ! ! الغذاء المكتمل كما المتكامل كيفا ؟ !

ان العمليات العقلية المختلفة العليا ، والوظائف الذهنية تتأثر الى حد كبير بحجم المخ ، ولعلنا جميعا نعرف الارتباط الكبير بين حجم المخ وظاهرة النقص العقلى عند من يسمون اصحاب الرؤوس الصغيرة « Microcephals » .

ولقد أجريت دراسات عديدة أجراها العلماء من أمثال وايدن « Wyden » ودرايتون « Dryton » على أطفال من مواليد شيلي وجواتيمالا وجنوب افريقيا تبين منها ان الاطفال الذين عانوا من سوء تغذية الام ايام حملهم ، أو سوء تغذيتهم فى الشهور الست الاولى لا يمكنهم أن يعوضوا آثار ذلك من نقص الكفاية الذهنية ، ولايمكنهم أن يلاحقوا أندادهم من العاديين فى الاداء الذهنى ، حتى ولو أمكن امدادهم بالتعويض الغذائي فيما بعد (٩) .

ولقد تأكدت هذه الكشوف بنتائج دراسات جديدة على الاطفال الامريكيين من الذين كانت امهاتهم تعانين نقصا واضحا فى كمية البروتين فى الغذاء فى النصف الثانى من فترة الحمل ، وهى الفترة التي تزداد فيها حاجة الجنين الى البروتين للتسمين ، وتأكيد وظائف الاعضاء المختلفة ، وتقوية الخلايا العصبية ، خاص فى الجهاز المركزى .

ولقد قورنت حالة المواليد من هؤلاء الأمهات بمواليد أمهات أخريات كن أيام الحمل يحظين بقدر كاف ووافر من البروتين أثناء فترة الحمل الاخيرة خاصة ، ووجد أن أطفال المجموعة الثانية كانوا يولدون ووزنهم أكبر كثيرا من أطفال المجموعة الاولى .

وعند اجراء اختبارات عقلية ، ومقاييس النمو الحركى ، ويقاس نسبة الذكاء على هؤلاء فى دراسات تتبعية استمرت حتى الرابعة من العمر ، وجد ان الاطفال الذين حرموا من البروتين ايام الحمل كانت حالتهم العامة اسوا بكثير من حالة المجموعة الاخرى . فقد كانت نسبة ذكاء المجموعة التي حظيت أمهاتها باللازم من البروتين تزيد عن ١٠٠ فى المتوسط ، بينما كان متوسط ذكاء مواليد الامهات المحرومات ٨٤ .

وفى هذا المقام يكتب Mussen وKonge وKagan (١٠) الكثير عن أهمية التغذية للام الحامل ، فيري هؤلاء جميعا ان الأم التـي تتوقع مولـودا يجب ان تحتفظ لنفسها بنسبة معقولة من التغذية الجيدة اذا كانت حريصة على ولادة طفل يتمتع بدرجة معقولة من الصحة . وهذا يبدو أمرا معقولا اذا علمنا أن امداد الجنين النامى من الغذاء يأتى كلية من مجارى الدم للأم (شكل ١) عبر غشاء شبه كامل يقع فى منطقة التبادل الدموي البشيمة Placen ta والحبل السري . ولقد قدم لنا هؤلاء العلماء تجربة اجريت لدراسة وبحث تأثير الغذاء على الجنين ، غذاء الام أيام

---

(٩) Wyden 1971 (19) Dayton 1969 (3)

(١٠) Mussen et al 1963 p 81 (I S)

الحمل . ولقد تحدد المتغير المراد دراسته بسوءتغذية الام اثناء الحمل ، واجريت التجربة على ٢١٠ من الحوامل اللاتي كن يحضرن عيادة رعايــةالحوامل فى جامعة تورنتو . كن جميعا يتناولن غذاء غير ملائم من الناحية الصحية ومن ناحيةاحتوائه على عناصر الغذاء الضرورية ، وكان ذلك فى الاربع والخمس شهور الاولى من الحمل. وفى المراحل التالية اختيرت منهن تسعون امراة من الحوامل أعطي لهن غذاء اضافي ، وكانتتغذيتهن اكثر ملاءمة لوضعهن ، اما المجموعــة الباقية وعددها مائة وعشرون من الحوامل فقداستمرت حالة التغذية لديهن طوال الحمل . ولقد استطاع البحاثة فى هذه الدراسة مقارنةالمجموعتين لدراسة تأثير الغذاء الجيد والسىء للام الحامل على مجريات عملية الحمل وعلــىحالة الوليد فى الشهور القليلة الاولى بعد الميلاد.

اما عن النساء اللائي أحسنت تغذيتهــنفكن ينعمن بصحة جيدة طوال فترة الحمل ، ولم يتعرضن لما تعرضت له مجموعة الحواملاللائي لم يحظين بتغذية جيدة ، وهن اللائــي كن اكثر عرضة لعلل فقر الــدم ، والتســـمالجنيني ، وكن يتهددهن الاجهاض او الحمــل الخاطىء (خارج الرحم) . والولادة المتيسرة ،او ولادة الاجنة الميتة ، وحتى التي شاعت فى حالات السيدات من المجموعة الثانية بفروق ذاتدلالة واضحة عن مجموعة الحوامــل جيــدات التغذية . وقد استطاعت السيدات اللائي تمتعنبالغذاء الجيد ان ينتهين من الوضع فى وقت اقل. من المجموعة الاخرى بمتوسط خمس ساعات .ناهيك عن تكرار تعرض الامهات سيئات التغذية للالام الشديدة فى الظهر والبطن أيام الحمل .

اما عن المواليد فقد تبــين مــن الدراسةوالمتابعة وجود فروق هامة فقد كان مواليــد الامهات اللائي تمتعن بالغذاء الجيد ينعمن بصحةافضل خلال الاسبوعين الاوليين بعد الولادة . كذلك كانت معدلات الاصابة بالامراض الخطيرةبينهن اقل ومنها،(الالتهاب الرئوى ، والتيتانوس، وفقر الدم ولين العظام) ، كذلك كانوا اقــلعرضة للامراض الخفيفة خلال الاشهــر الستة الاولى من الميلاد (ومنها نزلات البرد والالتهاباتالشعبية) .

وفى دراسة اخرى على الف جانح مــنأمهات لم ينعمن بالغذاء الملائم (١١) وجد فى نسبة كبيرة منهن حالات الولادة الميتــة ، والمتيســـرةووفيات الاطفال بين هؤلاء المواليد الذين كانت امهاتهم لا تنعم بالغذاء الملائم . كذلك وجد انحسن تغذية الام التي ترضع ابنها فى الشهــور الاولى كان يساعد تماما على نقص حالات وفياتالاطفال فى الاسبوعين الاولين . كما ان الدراسة بينت ان نقص البروتين فى غذاء الام كان يرتبطكثيرا بحالات الولادة المتيسرة ، ويسبب أيضا اشكالا من النقص العصبي للمواليد .

---

(١١) قام بهذه الدراسة العالمان Glueck & Glueck عام ١٩٧٥ ونشرت فى مجلة Clinical Research Advances in human growth and Development.

ان نتائج الدراسات جميعا تؤكد ان الجنين يستمد حاجاته الغذائية من الام قبل ان تحصل هي على حاجتها من هذه العناصر الغذائية ، ولذلك فهو يستهلك قدرا كبيرا من مخزون الغذاء لدى الام . فاذا كان هذا المخزون يتناقص الى درجة القصور الكبير لدى الام الحامل ، فان الجنين لن يتحقق له الحصول على العناصر الغذائية الضرورية .

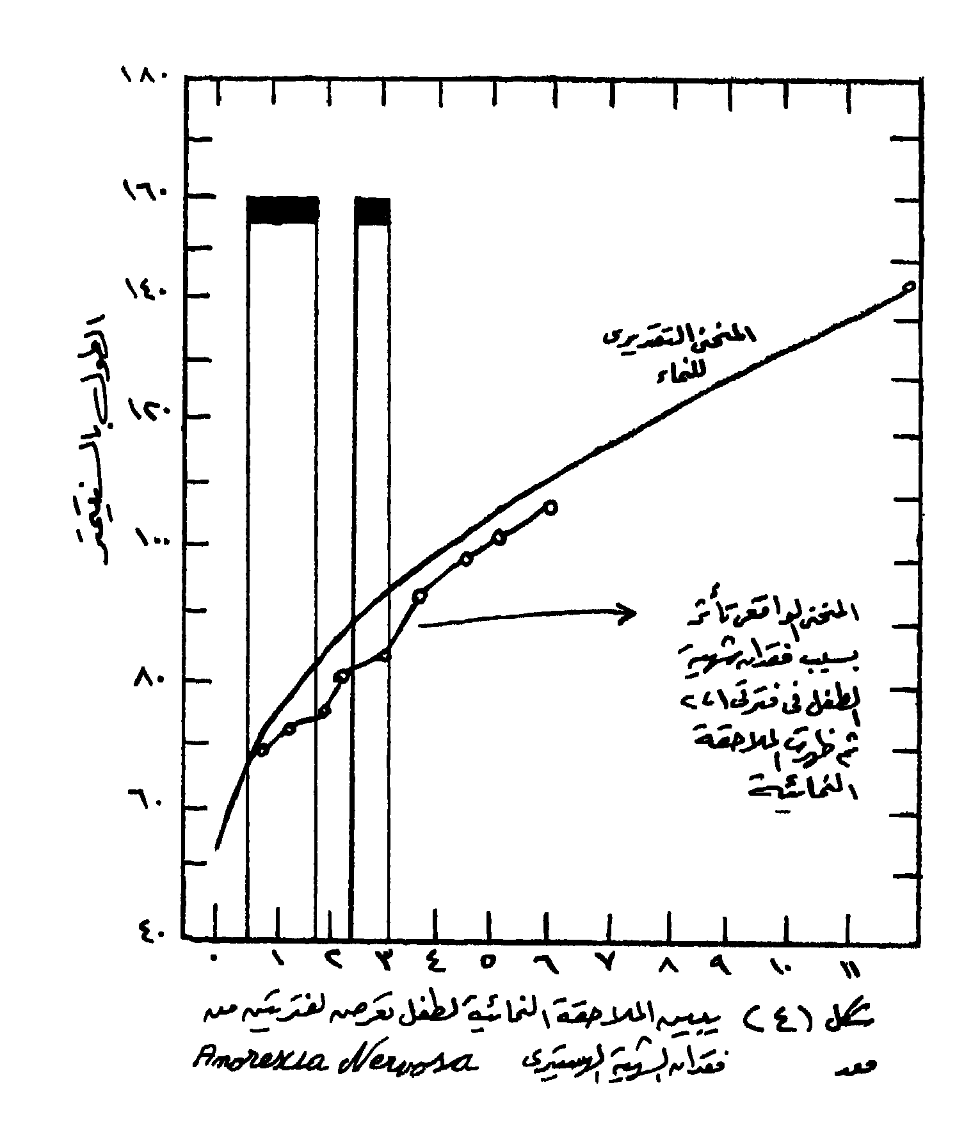
ويؤكد Mussen (١٢) ان الادلة عديدة على صحة الفرض القائل بأن النقص الحاد فى غذاء الام الحامل قد يسبب التأخر العقلي للطفل ذلك انه فى جميع الكائنات الحيوانية يوجد غطاء من الدهن يكسو الألياف العصبية Myelin وهذا الغشاء لا يتكون ، بل انه يتهتك اذا تعرض الجنين لسوء التغذية فى فترة تكون هذا الغشاء الدهني . والجنين البشري يبدأ تكوين هذا الغشاء فى الشهر السابع من الحمل ، ولهذا فانه من الممكن فى مرحلة الجنين ، اذا لم يتوفر له الغذاء الكافي بسبب سوء تغذية الام ، ان يتعطل لديه تكوين هذا الغشاء . هذا النقص قد يؤدي الى تعطل تطور وظيفة المخ وبالتالي قد يؤدي الى تأخر النمو العقلي ، ناهيك عن تعريض كثير من الالياف العصبية للالتهابات .

واذا كنا نشهد ظاهرات نقص التغذية بين الامهات الحوامل فى كل دول آسيا تقريبا ، وافريقيا وأمريكا اللاتينية ، فان ذلك قد يهدد هذه المجتمعات بزيادة المواليد الذين يتعرضون لتلف المخ فى فترة الحمل وهم أجنة فى بطون أمهاتهم ، ولذلك فعلى المؤسسات الصحية المحلية بل والعالمية استدراك هذا النقص ورعاية غذاء الامهات حتى لا تصاب البشرية جميعا ، بزيادة نسبة من يعانون من التأخر العقلي ، خاصة وان هذا العامل يمكن التحكم فيه ، وهذا يكلف الدول والمجتمعات أقل كثيرا مما تتكلفه هذه المؤسسات لعلاج وتحمل مسئوليات هذه الولادات المشوهة عقليا .

كيف يؤثر سوء التغذية على المخ ؟ :

هذا سؤال يتبادر الى ذهن كل باحث ، بل لقد اثار هذا السؤال بحوثا عديدة فى تطور نمو المخ عند الكائنات وخاصة الانسان . ولقد اصبح من الممكن الان ـ وبعد تطور علوم النيورولوجيا فى دراسة الخلايا العصبية ـ الاجابة على هذا السؤال بشكل افضل . لقد أنكر العلماء قديما أثر الغذاء على مخ الانسان واكتفى الفكر النفسي وعلوم الاحياء بالاهتمام بتأثير الغذاء على طول القامة ووزن الجسم ، وربما محيط الجمجمة . ولقد كانت هذه وحدها المقاييس التي اهتم بها العلماء كأدلة على سوء التغذية ، وكانت مع ذلك مقاييس تقريبية عرضة لكثير من الخطأ الى حد ما ، بل أحيانا لم تكن لها دلالة كبيرة نظرا لتعدد العوامل التي قد تؤثر فيها ، ومنها الوراثة والامراض وغيرها . فهناك بعض المواليد يكونون على العموم صغار الحجم بالوراثة ، او بسبب الاصابة بمرض معين ، او بسبب الاضطراب فى الكرموزومات ، أو اضطراب افراز الغدة الدرقية مثلا ، دون أن يكون للتغذية دور يذكر فى حجم الجسم .

(١٢) Mussen et al : Idid 1963



شكل (٤) يبين الملاحقة النمائية لطفل تعرض لفترتين من
فقدان الشهية الهستيري Anorexia Nervosa

اما اليوم فان التقنية الحديثة قد مكنتالعلماء من دراسة وقياس معدلات النماء لا عن طريق مجرد حجم الجسم ولكن بتحـديد عددوحجم الخلايا العصبية المختلفـة ، او الخلايا الاخرىالمكونة للعضو موضوع القياس والدراسة.ولقد ساعد هذا الانجاز العلمي الكبير على دراسة وفحص وقياس حجم خلايا المخ عند الانسان .

ولكي نجيب على سؤالنا هذا ، السابقالتقديم به لهذا الجزء الخاص بآثار سوء التغذية على نمو المخ ، لا بد من ان نتتبع الصور المختلفةالتي تاخذها عملية النماء لهـذه الخلايا . ان الخلايا فى المخ تزداد عددا عن طريق الانقســامالخلوي ، أي ان الخلية تتكاثر وذلك بانقسامها المستمر الى خلايا عصبية تتضاعف يوما بعـديوم أيام نمو الجهاز العصبي المركزي فى الحمل ابتداء من الاسبوع الثالث تقريبا . كذلك يزيدحجم الخلية المخية يوما بعد يوم . اذا هنـاك نماء عددي ونماء حجمي او كمي معين . ولقداستطاع العلماء ان يميزوا ثلاث مراحل او اوجه لتطور المخ ونمائه : (راجع جدول رقم ١) .

١ ــ ففي المرحلة الاولى ، قبل الولادة تزيدخلايا المخ فى عددها عن طريق الانقسام الخلوي.

٢ ــ وفى المرحلة الثانية بعد الولادة مباشرةوخلال السنة الاولى من عمر الوليد تستمر عملية الزيادة بالانقسام الخلوي ، كما تبدأ الزيادة عنطريق كبر حجم الخلية الواحدة وتسمى هـذه العملية Hyertrephy hyperplasia

٣ ــ وتبدأ المرحلة الثالثة بعد السنة الاولىحيث يزداد حجم المخ عن طريق استمرار زيادة حجم ووزن الخلايا العصبية فقط ، وتستمـرهذه العملية الى ان يصل حجم المخ الى ما يقرب من حجمه عند الراشدين بنهاية السنة الثانية منعمر الوليد تقريبا Hypertrophy

ويضيف بعض العلماء فى هذا المقام مرحلةرابعة وهي مرحلة تكون ارتباطات عصبية بـين الخلايا المختلفة فى المخ ، وهي العملية او المرحلةالهامة والضرورية لاحداث عملية التعلم والارتباط الشرطى ، وهي مرحلة قد تستمر الى نهاية مرحلة النماء العضوى او الى اقصى درجاته . (١٣)

هنا نعود مرة ثانية للاجابة عن سؤالنا الذييفرض نفسه دائما وهو ما تاثير سوء التغذية على نمو المخ ؟!

ان الاجابة على هذا السؤال لا بد ان تاخذفى الاعتبار الزمن او الوقت الذي تحدث فيـه حالة سوء التغذية . ففي المرحلتين الاوليتين ــقبل الميلاد والسنة الاولى من عمر الوليد ــ تؤثر حالة سوء التغذية ونقص العناصر الضرورية لنماءالجهاز العصبي المركزي فى سرعة انقسام الخلايا، بحيث يولد الطفل الجنين وفى جمجمته عدد اقلمن المعتاد من الخلايا العصبية التي تكون المـخ لدى من تحظى امهاتهم أيام الحمـل بالغـذاءالانسب .

---

(١٣) Wyden 1971 Ibid. (19)

هنا يقول العالمان الشهيران مايرون ...... Myron ووتش "Witch" وهما من الرواد الاوائل فى دراسة نماء المخ وتطوره « ان المخ لا يمكن ان تتوفر له فرصة اخرى اذا فاتته فرصة التكاثر عن طريق الانقسام الخلوي فى مرحلة الجنين ، ذلك ان عملية التكاثر فى الخلايا تتوقف فى وقت واحد عند كل من الفئتين من الاجنة ، فئة من يحظون بنعمة الغذاء الجيد للام الحامل وفئة من يقاسون نقص التغذية لدى الامهات الحوامل . (١٤)

وكذلك يلاحظ ان السنة الاولى من حياة الوليد ، وهي تكاد تعتبر امتدادا للمرحلة الرحمية ، تتأثر بالغذاء ، لان نقص الغذاء يعطل عملية النماء فى صورة زيادة حجم الخلايا العصبية ، وهو امر يصعب تداركه كذلك .

الا انه بعد السنة الاولى من الميلاد ، اي من عمر الوليد فان سوء التغذية قد يؤدي الى نقص حجم ووزن الخلايا بالمخ ، وهذا نقص يمكن تصحيحه بالتغذية الملائمة بعد ذلك . ذلك ان الدراسات المتعددة فى موضوع النمو النفسي قد اثبتت ان الاطفال يمكنهم ان يلاحقوا فى نمائهم وبسرعة مذهلة بعد فترة من سوء التغذية ، ذلك ان النماء ، بعد ان يحظى الطفل بظروف تغذية افضل يزيد معدله بصورة ظاهرة وبسرعة تجعلهم يصلون الى المستوى المعياري للطول والوزن فى حدود العوامل الوراثية لديهم ، وهذا ما يعرف بظاهرة الملاحقة النمائية ، كما سنشرح ذلك فيما بعد .

هذا امر يصدق بعد الميلاد ولكن ذلك يصعب تماما اذا حدثت نتائج سوء تغذية الام الحامل ايام الحمل فان الجنين يلاحق حتى لو تحسنت ظروف التغذية بعد الولادة ، وخاصة فيما يتعلق بالنماء الخلوي العصبي فى خلايا المخ بالذات وهي التي لا تستطيع ان تحقق ظاهرة الملاحقة النمائية بعد الولادة .

الملاحقة النمائية : "Developmental catch up"

الملاحقة النمائية ظاهرة تعتبر من أهم واوضح امثلة الاتجاه النمائي فى الاجهزة المختلفة لدى الكائن البشري ، ويقصد بها انها عملية تنظيم ذاتي فى سير الفقرات النمائية ، بمعنى ان الكائن البشري يستطيع بسرعة ان يعوض ما فاته من نماء فى حياته اذا تحسنت الظروف وزالت العوامل المعطلة للنمو ، والا تعرض لما يعرف بالهوة النمائية او التخلف النمائي او ما يعرف باسم .... Developmental Lag

وهنا يهمنا كيف يمكن ان تظهر هذه الظاهرة مع متغير نقص او سوء التغذية . فالاطفال الذين يعانون نقصا فى الغذاء يتعثر نموهم بصورة عامة ، ولكنهم اذا استعادوا حاجاتهم المناسبة من الغذاء ، فان معدلات النمو تكون اسرع من متوسط معدلات نمو العاديين من اندادهم فى السن ، وذلك يحدث للجهاز او الوظيفة او العملية الحيوية التي تأثرت بسوء

---

(١٤) Wyden 1971 P. 93 Ibid

التغذية . هذا الاسراع الواضح فى معدل النمووالتطور والنماء يستمر حتى يقترب الكائن من وضعه الطبيعي فى المنحنى الاعتدالي للنمو عندالانداد من نفس السن ، وهو المنحنى الذي يتأثر وضع الفرد فيه بعوامل الوراثة وغيرها ، مـن يحدد ما نسميه مستوى اكتمال النضج وحدوده Maturity والذي يختلف من سن لآخر ، ويختلف كذلك بسبب عوامل ترجـــع لفروق فردية .

وللدلالة على ان ظاهرة الملاحقة النمائيـــةتعتبر ظاهرة ذات فعالية كبرى فى مواقف معينة نسوق هذا المثال : ــ

فقد تعرض طفل لمجاعة غذائية فى فترتينبسبب اصابته بمرض عصابي هو فقدان الشهية الهستيري Anorexia nervosa وهو اضطراب يجعل الفرد يرفض الطعام كلـه احيانا او اطعمة معينة احيانا اخرى . ولقد تبينمن دراسة حالة هذا الطفل « راجع شكل ٤ » ان منحنى نمو هذا الطفل كان يلاحق فى آخر كلمرحلة حتى يصل الى مستوى المنحنى العادي لامثاله ، بعد ان تزول حالـة نقص السـكر فىالجسـم .

ولقد لاحظ العلماء ان عملية النماء ومـايظهر فيه من الملاحقة تشيع لدى الاطفال الذين يعانون اضطرابا فى الهرمونات . وكذلك فى الاطفالالذين يعانون من آثار سوء التغذية بعد الولادة ، وحتى فى الاطفال الذين يولدون ولديهم حاملاتالوراثة التي تؤهلهم لطول القامة ، مـع اخرى تورثهم نزوعا لقصر القامة ، فهؤلاء يغالبون ما قديرثونه من ميل لقصر القامـة الموروث عـن الام القصيرة عن طريق ظاهرة الملاحقة النمائية ،هؤلاء جميعا يكون نماؤهم ظاهرا واضحا،ويسير بمعدل اكبر خاصة فى السنة الاولى ، بل اكثرواكثر من المتوسطين فى الشهور الستة الاولـى بعد الولادة . (١٥)

هذا وعملية الملاحقة كظاهرة نمائية لا تكونكاملة تماما . فقد دلت التجارب على الفئران على انه اذا تعرضت للتجويع بعد الولادة اعطيتلها بعد ذلك حرية كاملة فى تنـاول الغـذاء او أعطيت كميات أكبر من الغذاء .

ان ظاهرة الملاحقة النمائية فى موضوعنـاهذا تثير الكثير من التساؤلات ولعل أهمها ؟!

١ ــ لماذا تحدث هذه الظاهرة على العموم؟!

٢ ــ ما الذي يجعل النماء يبطىء عندمايصل الانسان الى مستوى المعدل العادي كما يظهر فى منحنى النمو ؟

٣ ــ لماذا تكون عملية الملاحقة غير كاملـةعندما تحدث آثار سوء التغذية فى فترات حرجة من عمر الكائن البشري وأهمها مرحلة ما قبـلالميلاد والشهور الستة الاولى مـن العمر بعـد الولادة ؟!

(١٥) Tanner, 1973. (17)

لا تبدو الاجابة على هذه التساؤلات واضحةتماما لدى كثيرين من العلماء . ثم انه يزيد المسألة تعقيدا ما يلاحظ من ان ظاهرة اللاحقةالنمائية تؤثر فى الجهاز أو العضو الذي تخلف عن النماء كله ، بل ربما يمتد اثرها لغير الجهازاو الوظيفة او العضو الذي حدث فيه الخلل ، ثم أعقبه ظاهرة اللاحقة النمائية . هذا ولقدحاول بعض العلماء ان يجيبوا على هذه التساؤلات بما جاء فى بعض دراساتهم مما يؤكدان للقدرة التعويضية لبعض الغدد الصماء دورها فى ابراز هذه الظاهرة ـ ظاهرة اللاحقة النمائية ـ ذلك ان القصور او التعطل فى بعض جوانب النمو قد يثير مزيدا من افراز غدة من الغدد الصم تساعد على اتمام اللاحقة النمائية ، حين تزيد سرعة المعدلات النمائية . (١٦)

اختلاف التوافق الزمني واثر ذلك على نمو المخ :

هناك نظرية جديدة توصل اليها العالم تانر Tanner (١٧) الذى استمر فى دراساته للموضوع من عام ١٩٧٠ ـ ١٩٧٣ ، وهى نظرية تساعد على تفسير ظاهرة اللاحقة النمائية . فهو يرى انه ماأن يصل المخ والجهاز العصبى المركزى كله فى نموه وتطوره الى نقطة معينة ، وربما بنهاية الشهر الثالث بعد الاخصاب حتى تتراكم مادة معينة ذات طبيعة دهنية على جدران خلايا هذا الجهاز التى تسير فى نمائها بدرجة وحسب منحنى معين ، وهذه المادة الفرضية تعطى الجهاز العصبى الوقت أو التوقيت الأنسب للنماء العصبى الكلى ، وهى تختلف فى كميتها وتركيبها من فرد الى فرد . وهو يرى أن الحجم الحقيقى لجسم الكائن فى مرحلة ما من مراحل نموه قد يدل عليه ويمثله مادة أخرى تنتجها خلايا هذا الجسم . وبمعنى آخر فانه كلما توفر للكائن من الغذاء ما يزيد وزن جسمه كلما توفر له قدرة أكبر على افراز هذه المادة الثانية فى جسمه .

وبمعنى آخر فانه اذا تعرض الجنين اوالطفل فى مراحل معينة حرجة من نموه لأى نوع من انواع المجاعة نتيجة نقص التغذية او الجوع ، أو غير ذلك من أشكال الحرمان البيئية ، فان حجم جسمه الواقعى يكون أقل كثيرا مما يجب أن يكون عليه حسب منحنى النمو الطبيعى لأمثاله . وبذلك يقل حجم المواد اللازمة للمساعدة على نموه والمحافظة على خلايا الجهاز العصبى المركزى .

ونظرا لأنه حتى ولو زالت أسباب هذه الحالة من المجاعة ، فان النماء لايسير بنفس السرعة المطلوبة التى تصل بالكائن الى المستوى العادى للاطفال بعد نفس سنه ممن يعيشون فى ظروف بيئية غذائية أفضل . فقد تبين انه اذاأحدثت حالة مجاعة ما تأثيرا على الجنين فى مرحلة النماء السريع للمخ والجهاز العصبى المركزى ، حين تكون هذه الاجهزة نفسها واقعة تحت تأثير مظهر نمائى سريع جدا عن طريق الانقسام الخلوى ، فان اللاحقة النمائية الزمنية التى يمكن ان تولدها طاقات المخ ليستعيد قوته تتأثر بشكل ظاهر ولا تكون لها فعالية كاملة تماما .

(١٦) راجع فى فالي وآخرون الوظيفة التعويضية للغدد وخاصة الغدد الجنسية وبالاخص المبيضيين .

(١٧) Tanner 1973 - Ibid (17)

أن فشل اللاحقة النمائية هنا تعني أنهناك نقصا ما فى التقدم الطبيعى للطاقة النمائية الموروثة فى المخ . فاذا كان النقص فى الغذاء اوكانت حالة المجاعة غير حادة أو طويلة الأمد او الأثر ، فانه عندما يزول سببها ، فان مخططالنمو يعود الى مجراه الطبيعى عن طريق آلية اللاحقة النمائية . اما اذا كان النقص حادا ، اوطويل المدى والأثر ، فان هذا يؤدى الى تعطيل اللاحقة النمائية الزمنية ، ويأخذ النمو طريقاآخر ينجو به نحو النقص او عدم الكمال غالبا . وهذه الحالة تشيع كثيرا فى فترات النماء الخلوىللمخ التى سبق أن اشرنا اليها .

نقص الوزن وأثره فى نمو الطفل :

بناء على هذا فاننا نجد من النتائج الشائعةبسوء تغذية الأم الحامل نقص وزن المولود عند الولادة . ولقد كان العلماء قديما ـ والى عهدقريب ـ يسلمون بان المواليد الذين يزنون أقل من ٥ر٥ رطلا عند الولادة (٥ر٢ كيلو جراما)كانوا يعتبرون مواليد من ولادة مبتسرة Premature birth أو انهم ولدوا ناقصى اكتمالالنضج أيام الحمل . اى بمعنى آخر أنهم ولدوا قبل مرور ٣٧ اسبوعا من الحمل . الا ان ابحاثاكثيرة قام بها العلماء فى الستينات اثبتت ان الكثير من الاطفال الذين ولدوا فى تلك الايامناقصى الوزن ، كان مالا يقل عن ثلث عددهم قد اكملوا أيام الحمل الى آخر اسبوع ، ولكنهمعانوا اثناء الحمل من آثار نقص تغذية الأم الحامل وتأثروا لذلك من سوء تغذيتهم داخل الرحم .

ان نقص الوزن الناجم عن سوء التغذيةيختلف تماما عن نقص الوزن الناجم عن الولادة المبتسرة ، او قصر مدة الحمل ، فهما ظاهرتانمتشابهتان فى مظهرهما مختلفتان فى أسبابهما . ولهذا يطلق على الاطفال الذين يولدون ناقصىالوزن مع اكتمال مدة الحمل Low birth weight infants . أما الذين يولدون قبلالاسبوع السابع والثلاثين من الحمل فانهم يطلق عليهم اسم Short gestation period infants S.G.P.I. .

ولقد حدد العلماء الاوزان المعيارية لكلمولود فى اى لحظة يولد فيها بعد عملية الاخصاب . وهنا تتضارب الآراء بين آراء اطباء النساءوالولادة وبين اطباء الاطفال عن الوزن الامثل للجنين فى مراحل تطوره داخل الرحم ، ولكنهمعلى العموم يحددون سن الجنين ومن الحمل عند الولادة بعلامات عديدة منها لون الجلدوصبغته ، وشكل الاذن وتكوينها كذلك بعض الخطوط التى تظهر على كعب الوليد فى شكلتجاعيد ، وغير ذلك من المقاييس العصبية ومنها وضع الوليد عند الولادة وطريقته فى النوم وكذلك سرعة انثناء الرسغين والكعبين والعودة الى وضعهما . ولهذا فان اى وليد يولد فى أىلحظة من أوقات الحمل يمكن تحديد مركزه بالنسبة لعمره الجنينى ، وهل هو عادى الوزنأم اقل . أو اكثر من المعتاد .

لقد تأكد ان هناك اهمية عملية للتفرقة بيننقص الوزن لسبب الولادة المبتسرة ونقص الوزن عند الميلاد لسبب سوء التغذية ، ذلك لانلكل منها اجراءات معينة وطرق رعاية تبدا بعد الولادة مباشرة لتحقيق اللاحقة النمائية .

فقد يحتاج المواليد نتيجة ولادة مبتسرة الى التغذية بالحقن الوريدى ، والى المعينات الضرورية لضمان التنفس السليم ، اما اولئك الذين يولدون فى حالة نقص الوزن بسبب سوء التغذية فانهم يعانون من نقص سكر الدم Hypoglycemia ، وهذه الظاهرة تؤثر كثيرا فى الخلايا العصبية ، ذلك لأن الخلية العصبية تعتمد فى حياتها على القدر الكافى من البروتين وكذلك المواد السكرية والكربوايدراتية التى تمنع احتراق الخلية نفسها . لذلك فان هذه الحالة تجعل هؤلاء المواليد يتعرضون لتلف فى خلايا المخ اذا لم يتم حقنهم فورا وبمجرد الولادة بكميات من الجلوكوز . لهذا يعتقد العلماء أن الاهتمام بمن يولدون ناقصى الوزن بسبب سوء التغذية ، ورعايتهم الغذائية بعد الولادة مباشرة ، قد يقلل وفيات مثل هؤلاء المواليد بنسبة ٥٠٪ وربما كان لهذا كله اثره الطيب فى استبعاد حوادث تلف المخ وما يترتب عليه من نقص الكفاية أو الكفاءة العقلية اذا تمت الملاحقة النمائية .

وعلى أية حال ، فانه بالرغم من كل ماتقدم من الرعاية التى يمكن ان تقدم للمواليد ناقصى الوزن بسبب سوء التغذية ، فان هؤلاء الاطفال يعانون كثيرا من الاضرار فى نمو وتطور قواهم العقلية لدرجة قد تعرضهم للضعف العقلى . فقد دلت الابحاث على أنه لاتوجد علاقة تذكر بين الولادة المبتسرة وبين النمو العقلى فى أيام الطفل المقبلة ، الا أن الدرسات التى قام بها علماء من امثال وليامز وديفز (١٨) عام ١٩٧٤ على مواليد عام ١٩٦٠ قد أظهرت أن الاطفال الذين ولدوا فى تلك السنة (١٩٦٠) وكان وزنهم عند الولادة أقل من المتوسط كان متوسط نسبة ذكائهم ٩٢ ، بينما كان متوسط نسبة ذكاء من ولدوا فى نفس السنة وكان وزنهم عند الميلاد فى حدود المتوسط ٩٩ر٢ . كما أنه كذلك اثبتت دراسات أخرى أن متوسط وزن المخ لدى الاطفال الذين يولدون قبل الموعد المنتظر العادى أو الذين يولدون ناقصى الوزن كان أقل من المعتاد بصورة ذات دلالة واضحة ، مما يدل على أن عملية النماء الضرورية بالمخ لم تحقق القدر الكافى من الانقسام الخلوى أو زيادة وزن المخ . (١٩)

دراسات احصائية لتدعيم الآراء النظرية فى تاثير سوء التغذية : ــ

ان حجم مشكلة المواليد ناقصى الوزن تختلف من دولة الى دولة وذلك لأسباب ثقافية حضارية ترتبط الى حد كبير بالوضع الاقتصادى لهذه الثقافة وتؤثر بالتالى فى حالة الأم الصحية ، كما تؤثر فى مدى تحقيق انسب الغذاء لها ايام الحمل . وفى دراسة عبر الثقافات ظهرت الحقائق التاليــة : ــ

ــ فى الولايات المتحدة كانت نسبة المواليد ناقصى الوزن ٧ر٤٪ من المواليد الاحياء (وزن ٥ر٥ رطل ٥ر٢ كيلو) احصائية ١٩٧٥ .

---

(١٨) Francis Williams & Davies 1974 (6)

(١٩) Hill 1975

ـ فى المناطق الفقيرة من الهند وقرى جواتيمالا كانت النسبة ٤٠٪ او اكثر من المواليد الاحياء .

وفى جميع بلاد العالم تتأثر نسبة المواليدناقصى الوزن بعوامل اجتماعية اقتصادية « Socioeconomic »

ـ فمثلا فى أمريكا نجد ان نسبة المواليدناقصي الوزن بين غير البيض ١ر١٣٪ من المواليد الاحياء .

وهؤلاء بالطبيعة يعيشون ضغوطا اقتصادية من نوع أو آخر .

ـ بينما نجد ان نسبة المواليد ناقصي الوزن بين البيض ٥ر٦٪ .

ـ وفى الشعوب والسكان الذين يعانون قسوة الفقر المدقع نجد أن المواليد ناقصي الوزن تزيد نسبتهم بين مواليد الامهات القصيرات القامة .

• • •

ـ ان الوزن المنخفض عند الولادة يرتبط كثيرا بنسبة الوفيات بين الاجنة ، وحديثي الولادة ، ففي الشعوب التي يرتفع فيها نسبة أى من هذه الانواع ، ترتفع النسب الاخرى .

ان زيادة وزن الجنين تعطيه فرصة أكبر للعيش والحياة ، سواء فى لحظات الولادة أو بعد الولادة . والوزن الامثل طبعا هو ٨ ارطال (٦٣ر٣كجم) .

فقد وجد أن نسبة الوفيات بين المواليد الناقصى الوزن (أقل من ٥ أرطال أو ٥ر٢ كيلو) هي ٥٨ فى كل الف من المواليد من هذه الفئة . وهذه النسبة تصبح ٢٠٧ اذا نقص وزن المولود عن ر٢ كيلو ، وهذا ما أبرزته تقارير مكتب الاحصاء فى أمريكا عام ١٩٧٥ . كذلك دلت الدراسات التي اجريت في بلاد غرب أوروبا على نسبة الوفيات قبل الولادة وبعد الولادة مباشرة على انها كانت ترتبط الى حد كبير بتوافر اعداد المواليد ناقصى الوزن . ولعل من الغريب أن اغلب الوفيات من هذا النوع كان يرجع الى الضعف العصبي الشديد أو تلف المخ الشديد ، او الالتهاب العصبي بسبب تأخر تطور الغشاء المبطن لحماية الالياف العصبية .

وفي السويد مثلا ، وبلغاريا ، حيث وجد أن ٥٪ من المواليد كان وزنهم أقل من ٥ر٥ رطلا عند الولادة كانت هناك حوالي ٢٠ حالة مولود ميت فى كل ألف من المواليد الاحياء . وفى المجر حيث كانت نسبة المواليد ناقصي الوزن تصل الى ١٠٪ كانت نسبة المواليد الموتى ٣٥ فى كل الف من المواليد الاحياء .

وهذا ما ابرزته تقارير منظمة الصحة العالمية عام ١٩٧٢ .

هكذا نجـد أن وزن المولود أمر هـام لعدةأسباب :ــ

ــ فبالاضافة الى أنه يرتبط بتحسين فرص البقاء ومقاومة العلل والادواء بعد الولادة .

ــ فانه كذلك يعتبر دليلا جيدا للتنبؤ بالنموالسليم عامة ، جسميا وذهنيا .

ــ وهو كذلك يرتبط بالكثير من أدلة النموالسليم كالطول ومحيط الجمجمة وحجم المخ ، والنمو العقلي والمعرفي بالتالي .

ــ وهـو يعني فيما يعني ان الجنين قـدتحققت له فرص تغذية أفضل أيام الحمـل بما يرجح ان يكفل نماء الجهاز العصبي المركزى بصورةأفضـل .

نقص الوزن عند الولادة وأثره على النمو العقلي :

لقد دلت الدراسات التي أجريت فى البلادالتي يعاني سكانها النقص الحاد فى الغذاء على أن نقص وزن الوليد من الامهات اللائي يعانين سوءالتغذية ــ يعتبر من العوامل الهامة فى تواتر ظاهرة التأخر العقلي .

ففي احدى المدن المكسيكية دلت الابحاثعلى أنه كلما صغر حجم الطفل بالنسبة لسنة كلما نقصت درجـاته فى اختبارات القدرة على التعلمواختبارات السلوك الاخرى .

وفي بحث أجرى فى قرية مايان Mayan الهندية ، حيث وجـد أن اغلب الاطفال فى سـن ماقبل المدرسة (قبل السادسـة) يبدو عليهمالتأخر الواضح فى النماء الجسمي ، تأكدت هذه الحقيقة بصورة واضحة . فقد كان يطلب الـىالاطفال تأدية ثلاثة من الاختبارات لقياس قدرتهم على اكتساب المعرفة المتكاملة من حواس عديدة ،وفى هذه الاختبارات كان أداء الاطفال ذوىالاجسام الصغيرة الحجم أسوا من غيرهم دائما وبصورةواضحة .

وهنا يجب أن نشير الى حقيقة هامة ، وهيان نتائج مثل هذه الاختبارات كانت تعتبر صادقة فقط عندما كان صغر حجم الطفل يرجع الـىسوء التغذية L. b. w. I

وفى مدينة جواتيمالا ، وبين أطفال الطبقةالعليا والوسطى حيث صغر حجم الاطفال يرجع لاسباب وراثية أو بسـبب جينات معينة مـنالمورثات اكثر منه الى سوء التغذية ، وجـد أنه لايوجد ارتباط يذكر بين صغر حجم الطفل وطولقامته من جهة ، وبين انخفاض مستوى قدراته العقلية أو نموه العقلي المضطرب .

ان النتائج التي تترتب على سوء تغذية الامالحامل اثناء الحمل تزداد عمقا : فى أثرها فى نمو الطفل العقلي بسبب الظروف البيئية التي قـدتعمق هـذا الاثر . ومنها ظروف حياة الطفـل وتغذيته بعد الولادة مثلا .

كذلك نلاحظ أن الاوضاع الاجتماعية هيعوامل لايمكن فصلها فصلا تاما عـن العـوامل البيولوجيـة في التاثير واحـداث ما يعرف بتأخرالنمـو العقلى . ذلـك ان الأسـر التي يتوافـر

فيها سوء تغذية الام والاطفال تميل لان تكون من تلك الاسر التي لاتحظى بالقدر الكافي من الرعاية الصحية أو النظافة ، وهي غالبا أسر كبيرة الحجم ، وغالبا ما يكون الآباء ممن يعوزهم القدر الكافي من العلم والثقافة . وبالرغم من أنه يصعب أن نميز أو نفرق بين أثر سوء التغذية وبين تأثير غير ذلك من العوامل او من الظروف البيئية المختلفة المتعددة المتنوعة ، الا أن هناك حقيقة تبرز واضحة فى كل الدراسات : وهي ان النتائج السيئة المتعددة التي تترتب على سوء التغذية بأيام الحمل تزداد سوءا بسبب البيئة الفقيرة التي يعيشها الطفل فيما بعد ولادته . فالاطفال الذين يقاسون من العاملين معا ــ سوء تغذية الام أيام الحمل ، وسوء الظروف البيئية ــ انما يتعرضون لخطر يتضاعف قدره واثره باستمرار ، وهو خطر مزعج فاحش مدمر للقوى البشرية ، وذلك لانهم لا تتوفر لهم غالبا عوامل تحقيق اللاحقة النمائية ، ولو أنها تكاد تكون فرصا غير مؤكدة .

هذا وبالنظر الى تعدد أسباب تأخر النمو عامة لدى الاطفال ، والنمو العقلي خاصة ، تعدد هذه العوامل وتداخلها وتراكبها ، فاننا ننصح بما يأتي كوسيلة لوقاية الاطفال من أسباب تأخر نموهم العقلي بصورة خاصة وهي : ــ

ــ تحسين الظروف المدرسية الصحية والغذائية والتعليمية خاصة فى المراحل الاولى .

ــ نشر الثقافة الصحية والغذائية بين الآباء وخاصة الامهات الحوامل .

ــ توفير التموين الغذائي المناسب لكل من الام الحامل والمواليد فى أول أيامهم .

ــ تحسين القيمة والنظام الغذائي للام الحامل فى الاسرة والعمل وذلك للتقليل من حالات المواليد الموتى ونقص وزن المولود .

ــ توفير الظروف الصحية للأم الحامل فى المنزل وخارجه .

هذا وفى هذا المجال ، مجال أثر تغذية الام الحامل لدينا دليل ملموس مما حدث فى بريطانيا خلال الحرب العظمى الثانية عندما بدأ فيها نظام الحصص الغذائية بالبطاقة وهي « تجربة طبيعية ميدانية حية » توضح تماما تأثير الاهتمام بالتموين الغذائى الاضافي للحوامل . فقد جاء في التقرير الذى أصدره مجلس البحوث القومي البريطاني سنة ١٩٧٠ ص ١٢٢ ــ ١٢٤ ما يأتي : ــ

« فى اطار نظام الحصص الغذائية أعطيت أيام الحروب أولوية خاصة للنساء الحوامل فى الحصول على حاجتهن من الغذاء ، وخاصة من حيث مستوى الغذاء اللازم فى كميته وجودته ، وخاصة أولئك اللائي كن من أسر ذات دخل مادى منخفض ، وكان هذا الامر موضع اهتمام المسئولين بصفة خاصة تماما . لهذا كله انخفض معدل الوفيات بين الاطفال او المواليد الموتى الذى ظل ثابتا فترة طويلة على مستوى ٣٨ فى كل ١٠٠٠ من المواليد الاحياء انخفض الى ٢٨ فى كل ١٠٠٠ فى الفترة التي كانت بريطانيا تعاني فيها من التدهور الشديد فى كثير من نواحي الحياة المادية ، وهذا الانخفاض الذى بلغ ما يقرب من ٢٥٪ يعتبر تحسنا جيدا يدل علي أثر الاهتمام بتغذية الام الحامل في تحسين مستوى المواليد صحيا » .

ولقد أكدت دراسات العالم شوفيه"Chavez وآخرين ، وهى دراسات أجريت عام ١٩٧٤ على بعض مدن كولومبيا والمكسيك أن الامدادات الغذائية الاضافية للحوامل والاطفال الحدثى الولادة قد أدت الى تحسن ملحوظ فى نمو الاطفال العقلي ، وكذلك فى اتجاهات الآباء نحو تقبل الابناء ، والابناء نحو الآباء ، وبالتالي فى نموهم الاجتماعي عامة . (١٩)

وهكذا تؤكد نتائج الدراسات المتعددة والمتداخلة بقوة أن تحسين التغذية الاموية له أثر ايجابي على المواليد . وعلى أى حال فان صحة الحامل والجنين لاتتاثر وتأخذ صورتها المزهرة بتحسين الغذاء أثناء الحمل فقط بل أيضا بالحالة الصحية التي تكون عليها الام قبل الحمل . وهنا يؤكد العالم مريل ريند "Merrill's Rend وهو الذى عمل مديرا لمشروع « النماء والتطور » الذى تبناه « المعهد القومي لصحة الطفل والنمو الانساني » ان رصيد الام من الغذاء الذى يجب أن يتوفر لها ليكفي لامداد حملها من الجنين ، لا يمكن ان يجمع أو يجتمع أثناء فترة الحمل وحدها ، بل ان هذه النتيجة الطبية ، وهي حسن تغذية الجنين هي محصلة تراكم الغذاء خلال سنوات عمرها السابقة .

وهنا يضيف هذا العالم كذلك أن أكثر النساء حظا « لا يجب ان يثقن ثقة مطلقة فى ان أجسامهن سيكون لديها المخزون المطلوب من رصيد الغذاء اللازم للجنين حين يحملن حملهن بأية حال » .

هنا يجدر بنا أن نتقدم ببعض النصائح الضرورية التي يمكن ان تطبق على اغلب النساء الحوامل أيام الحمل . فالبحث الى هذا الحد كان يهتم باسماع صوت الجنين للامهات الحوامل ، وذلك عن طريق دق نواقيس الخطر بابراز سلبيات نقص تغذية الام الحامل . ويجب هنا وفى نهاية هذا العرض الطويل ان نوجه الاذهان الى طريقة التغلب على هذه النتائج او الوقاية منها بمعنى أصح .

الوقاية والعلاج من مشكلة سوء تغذية الحوامل وأثرها السيء على الجنين

من الافضل ان تحصل الام الحامل على حاجتها من السعرات الحرارية من العناصر الغذائية الاربعة ولا تقتصر على مجموعة دون أخرى ، وهي : ــ

أ ــ مجموعة الاسماك واللحوم والالبان ومنتجاتها وهي توفر البروتين اللازم لبناء الخلايا عامة والخلايا العصبية خاصة .

ب ــ مجموعة الخضر والفواكه وهي التي تمد الجنين بحاجته من الفيتامينات العديدة التي تؤهله بمقومات الوقاية من كثير من الامراض .

---

(١٩) مكرر Gseta, G Fein, 1978 Ibid

كذلك يراجع chavec, a. et al : The importance of nutrition and stimulion child mental & social development. in J. Cravioro et al, Early maturation and mental development, Almquist and Wiksell 1974

جـ ـ مجموعة الخبز والكربوايدرات بأنواعها ، وهي التي تفيد فى عملية امداد الجنين بما يلزمه في وقت التسمين بعد الشهر الرابع والخامس من الحمل .

كما انها تفيد فى توليد الطاقة اللازمة لحركة الجنين بعد الشهر الرابع .

د ـ مجموعة البقول وهي تحتوى على مزيد من البروتين وبعض العناصر الضرورية لبناء الخلايا .

وهكذا يضر الحامل ويضر الجنين معا أن تعتمد الحامل فى غذائها على الحلوى فقط ، او المشروبات الخفيفة « المياه الغازية » أو شرائح البطاطس وحدها دون غيرها .

نظام الغذاء الامثل أيام الحمل (٢٠)

لقد توصل العلماء اخيرا الى ما يجب أن يكون عليه التركيب الجيد لغذاء الحامل بحيث يضمن لها ولحملها ما يحتاجه كلاهما من العناصر الغذائية ولذلك تحدد الغذاء على النحو التالي : ـ

١ ـ اربع مرات يقدم لها فيه وحدة من اللبن الطازج ومجموعة من منتجات الالبان أى ما يعادل ١/٤ لتر من اللبن

٢ ـ فى مرتين يقدم للحامل قطعة من اللحم أو الدجاج أو الاسماك او البيض بكمية تزن بين ٣ ـ ٥ أوقيات حسب وزن جسم الحامل .

٣ ـ فى أربع مرات أو أكثر يقدم لها عناصر من الخضر والفواكه بحيث يكون منها الخضر الطازجة الخضراء ، ذات الورق الاخضر او الاصفر أحيانا ، مع اضافة وجبة يكون فيها من الفواكه ما يكفي لتموين الحامل بكمية كافية من فيتامين ج ((Vit. C) .

٤ ـ في اربع وجبات او أكثر يقدم للحامل غذاء يحوى حبة كاملة من الخبز الغني بالفيتامينات مع الدهن أو الزبد وكذلك البقول .

ولقد أوصى المكتب الدولي للصحة والتربية والرعاية الاجتماعية بأمريكا فى تقرير له صدر عام ١٩٧٣ بهذا التنوع الغذائى للأم الحامل ، كما أنه حدد فى جدول دقيق المزيد من العناصر الغذائية التى يجب أن تحصل عليها الحامل أيام الحمل بما يزيد عما تحصل عليه غير الحامل ، وذلك رعاية لصحة الجنين فى أكثر مراحل تطوره حساسية للتأثر بنقص عناصر غذائية معينة ، ضمانا لصحته ، وكفالة لحسن سير خط نمائه .

هذا الجدول نعرضه فيما يلى ، ويتضح منه كيف ان المزيد من العناصر الغذائية الاضافية تحتاج اليها الحامل بدرجة قد تصل الى نسبة ١٠٠ ٪ مما تحتاجه المراة غير الحامل ، وذلك فى بعض العناصر الغذائية .

(٢٠) Greta G., Fein 1978 Ibid

(جدول ٢) (٢١)

العناصر الغذائية	غير الحامل يوميا سن ١٨ – ٢٢	اضافة فى أيام الحمل يوميا	نسبة الزيادة أيام الحمل	فعالية هذه العناصر واثرها فى تطور الكائن أيام الحمل
١ – سعرات حرارية	٢٠٠٠ يوميا	٢٠٠ يوميا	١٠٪	لتزويد الكائن بالطاقة – يتوفر فى الكربوايدرات
٢ – بروتين بالجرام	٥٥ يوميا	١٠ يوميا	١٨٪	هام لنمو الخلايا خاصة الخلايا العصبية والعضلات
٣ – فيتامين أ (وحدةدولية)	٥٠٠٠ يوميا	١٠٠٠ يوميا	٢٠٪	لتقوية الشبكية ونمو العصب البصرى
٤ – فيتامين د (وحدةدولية)	٤٠٠ يوميا	–	–	يقوى العظام ويمنع لين العظام والكساح
٥ – فيتامين هـ (وحدةدولية)	٢٥ يوميا	٥ يوميا	٢٠٪	يمنع اكسدة المواد الدهنية على جميع الخلايا والخلايا العصبية وغشائها
٦ – حامض الاسكوربيك « ملجم »	٥٥ يوميا	١٠ يوميا	١٨٪	يقوى جدران الاوعية الدموية الشعرية والاغشية المبطنة
٧ – الفولاسين B « ملجم »	٤ر يوميا	٤ر يوميا	١٠٠٪	يساعد على سرعة توليد الكريات الحمراء ويمنع الانيميا
٨ – النياسين « ملجم »	١٣ يوميا	[illegible] يوميا	١٥٪	يسهل التمثيل الغذائى للجيكلوز
٩ – ريبو فلافين « ملجم »	٥ر ١ يوميا	[illegible] يوميا	٢٠٪	نفس مفعول فيتامين ب
١٠ – ثيامين « ملجم »	١ر٠٠ يوميا	١ر يوميا	١٠٪	ب ١٢ لسلامة الاعصاب وتقويتها ويدخل فى تركيب أنزيمات التمثيل الغذائى
١١ – فيتامين ب ٦ « ملجم »	٢ر٠٠ يوميا	٥ر يوميا	٢٥٪	يساعد على منع قيء الحمل المستعصى
١٢ – فيتامين ب ١٢ مجلرام	٥ر٠٠ يوميا	٣ر٠٠ يوميا	٦٠٪	لسلامة تركيب الدم وتقوية فعاليته
١٣ – كالسيوم (جرام)	٨ر٠ يوميا	٤ر٠ يوميا	٥٠٪	لسرعة نمو الهيكل العظمى وتوازن التطور من الغضاريف
١٤ – فسفور (جرام)	٨ر يوميا	٤ر يوميا	٥٠٪	لسلامة عمل الجهاز العصبى وتطوره وحسن أدائه .
١٥ – يود « ميكروجرام »	١٠٠ يوميا	٢٥ يوميا	٢٥٪	يساعد على النماء الكلي وفعالية الدرقية
١٦ – حديد « ملجم »	١٨ يوميا	٣٠–٦٠ يوميا	١٦٦ – ٣٣٢٪	تقوية عامة وزيادة الهموجلبين – والكريات الدموية الحمراء
١٧ – مغنسيوم « ملجم »	٣٠٠ يوميا	١٥٠ يوميا	٥٠٪	يلزم لسلامة وقوة فعالية الجهاز العصبى المركزى

(٢١) منقول بتصرف واضافة Yneta Y fein 1978. Ibid (5)

هذا الجدول يبرز أمورا هامة لعل من أهمها حاجة الحامل لمزيد من العناصر الغذائية وكذلك اختلاف هذا المزيد من الامدادات من العناصر الغذائية من عنصر لآخر . ولذلك تتحقق الفائدة من هذا الجدول لو أمكن الربط بينه وبين توقيت ظهور أعضاء معينة أو وظائف بذاتها فى تطور الجنين . (راجع شكل ٣)

• • •

لقد أصبح الشغل الشاغل لجميع دول العالم هو موضوع غذاء الحامل ، بل ان الكثير من الدول النامية قد أصبحت تقدم للحامل التى تعيش فى ظروف اقتصادية صعبة الكثير من العناصر الغذائية بالمجان ، وتجد فى ذلك استثمارا اقتصادية ووفرا كبيرا . ذلك أن النفقات التى تنفقها الدول على الاطفال المرضى ، والامهات الضعيفات والمواليد الموتى وغير ذلك تفوق كثيرا ما ينفق فى اعطاء الحامل كفايتها من الغذاء بما يكفل وقاية الجنين من العلل ، ويوفر على الحامل جهدا يضيع هباء بموت حملها ، ناهيك عما يصيب الأم الحامل من احباط واضطراب نفسى كلما ضاع جهدها هباء ، وكان شقاء حملها جهدا لا ثمرة منه ، ولا نتيجة له ، حين تعود من عملية الولادة خاوية الوفاض مهيضة الجناح محرومة من متعة الامومة بعد شقاء دام شهورا تسعة .

عوامل قد يكون لها أثر سلبى على تغذية الحامل الجيدة : (٢٢)

قد تكون الشعوب التى تعيش فى غرب أوروبا والدول الصناعية أسعد حظا واقل عرضة لاضرار سوء تغذية الحامل ، من كثير من الشعوب القديمة والحديثة ، ومع ذلك فان الكثير من الأمم الراقية المتقدمة والحديثة تعانى أخطارا جديدة تتعرض لها الأم الحامل هى وما تحمله من جنين .

وبالرغم من أن موضوعنا هنا ينصب على أضرار سوء التغذية ومحاسن التغذية الجيدة للحامل ، الا أن مجتمع القرن العشرين فى أغلبه ، وخاصة فى الثقافات المتحضرة تتعرض لظروف وأخطار قد تجعل فعالية الغذاء الجيد فى حسن تطور الجنين فى بطن أمه تتهددها الاخطار ، وتكون بذلك أقل جودة ، بل تقل استفادة الجنين بشكل واضح من العناية الغذائية بالحامل .

فهناك على سبيل المثال :

(١) ـ **تلوث البيئة :** خاصة فى البلاد الصناعية والمدن المزدحمة . وسواء كان هذا التلوث كيماويا أو ذريا او صحيا ، فانه يتلف فعلا الكثير من العناصر الغذائية قبل وصولها الى الجنين ، بل يتلف الكثير من الخلايا الدموية فى دم الأم مما ينعكس على صحة الجنين .

---

(٢٢) Mussen et al. 1963 Ibid (14)

(ب) ــ **والمخدرات** التى قد تتعاطاها الأم أيام الحمل بارادتها قد تسبب خطرا كبيرا على الجنين . فانها بالاضافة الى أنها تسبب فقدان الشهية لدى الحامل ، فانها تحرمها وتحرمه بالتالى من كثير من احتياجاته من الفيتامينات خاصة فيتامين ب المركب و ب ١ و ب ٦ .

والمخدرات لها ضرر بليغ على صحة الجنين ــ ابتداء من الكحول وانتهاء بأنواع المخدرات الاخرى ، حيث انها تمر فى الدم مباشرة الى دورة الجنين وتخترق الغشاء المصفى الذى يفرز بحجب كل الفيروسات ، وهو الموجود فى منطقة التبادل الدموى البشيمة Placenta السابق الاشارة اليها ، وتؤثر تأثيرا مباشرا على صحة الجنين فتحول بذلك بينه وبين الاستفادة الكاملة من الغذاء الواصل مع دم الحامل .

(جـ) ــ **العقاقير** : وهناك كثير من العقاقير التى تتناولها الحوامل دون وصفة الطبيب عادة، وهى العقاقير الاكثر خطورة على صحة الجنين ،ولذلك يؤكد العلماء من أمثال روغ وشملز Rugh and Shemles انه لا يجب على الحامل ان تتعاطى اى عقار ــ ولا حتى الاسبرين ــ دون استشارة الطبيب ، وهؤلاء يعددن العقاقير التى يجب أن تمتنع عنها الحامل امتناعا باتا واهمها :

ــ هرمون الاندروجين وغيرها من الهرمونات الجنسية الذكرية ، وهى رغم انها قد تفيد فى تقوية الرحم ومساعدته على الحفاظ على الحمل ، الا انها قد تسبب اضطراب تطور الاجهزة التناسلية للجنين .

ــ التابولامين Tabulamine وهو عقار يوصف أحيانا لمرضى السكر ويسبب نقص حاجة الجنين من المواد الكربوايدراتية .

ــ الادوية المضادة للتجلط والتى توصف فى حالات ارتفاع ضغط الدم وهذه قد تسبب نزيفا داخليا للجنين وتعطل استفادته من الغذاء.

ــ الكورتيزون بجميع فصائله ، وهذه قد تسبب للجنين بعض التشوهات الخلقية خاصة ثقوب سقف الحلق ، وتشوه الاذن الخارجية ،لو تعاطتها الحامل فى الشهور الاولى من الحمل .

ــ العلاج بالتيروكسين او مضادات التيروكسين، وقد يسبب ذلك تلف الغدة الدرقية، وما يترتب على ذلك من مرض الجويتر ... Goiter وقد يؤثر ذلك فى حجم الجنين ووزنه، وقد يترتب عليه ولادة جنين قمىء ...cretine

ــ انواع العلاج بالاشعة العميقة او غيرها فى حالات مرض السرطان وهى تسبب تلف الخلايا المختلفة فى الجنين فتهدم ما بناه من خلايا نتيجة امداده من غذاء الأم .

هكذا نجد اننا ــ ونحن بصدد أهمية الغذاء للحامل ودوره فى نمو الجنين ــ نجد أن هــذه العقاقير قد تعطل القيمة النمائية للغذاء الجيد .

(د) **التدخين** : وقد وجد مثلا ان افراط الحامل فى التدخين ايام الحمل يؤثر كثيرا فى مضاعفة حركة الجنين فى بطن امه ، وهى حركة تزيد أحيانا بنسبة ٢٠٠ ٪ عن الحركة الطبيعية بسبب ما يصله من النيكوتين مع دم الأم . وبذلك تبدد هذه الحركة نسبة كبيرة من أثر الغذاء فى الطــاقة التى يبــذلها فى الحــركة الزائــدة ...Huprtmobility وهو الغذاء الذى كان يمكن أن يستفيد به الجنين فى تسمينه أو زيادة وزنه ، أو مضاعفة عملية النماء الخلوى فى الجهاز العصبى المركزى .

ولقد وجد من دراسات عديدة أن أغلب مواليد المفرطات فى التدخين يكونون أقل وزنا من المعتاد ، وكذلك اقصر فى طول القامة وتكــون نسبة الوفيات بينهم كبيرة نسبيا . ثم هم يولدون شديدى الحركة Hyperactive

ولقد اكدت دراسات أجريت فى بريطانيا عام ١٩٧٣ أن أكبر العوامل ارتباطا بنقص الوزن عند الولادة هو عامل افراط الأم فى التدخين ، ويرجح ان التدخين يفقد الدم الواصل للجنين نسبة كبيرة من الاكسجين الضرورى لاكســدة الاغذية حتى تتم عملية الايض لدى الجنين على الوجه الاكمل ، وذلك لانه يحمل كمية كبــيرة من ثانى اكسيد الكربون والنيكوتين .

(هـ) ــ **الخمور وتعاطى الكحــول** : ان تعاطى الخمور باعتدال أيام الحمل قــد لايضر الجنين ولو أن الكحول يصــل الى دم الجنــين مباشرة ، ولذلك فان الافراط فى تعاطى الخمــر قد يسبب ولادة أطفال يعانون من الارتعاد الذى يشبه الارتعاد الهترى (٢٣) لدى المدمنين ، أى انهم يولدون وعندهم رعشة عصبية غريبة تعطل بلا شك فعالية ومفعول الغذاء الجيد . ناهيك عن أن المراة المدمنة على الكحول تفقد الشــهية للطعام المكتمل العناصر أو الاهتمام بالطعام وهذا مما لا يجعلها تراعى القواعد الغذائية على الوجه الامثل . كذلك وجد أن هذه الحالة تصــيب الأم المدمنة بنقص فيتامين ب ، وفيتامين ب ١، وهى فيتامينات ضرورية لتقوية وتحسين ظروف نمو الجهاز العصبى المركزى عند الجنين وتطوره.

(و) ــ وجد أيضا أن **ادمان الهيروين** أو **الأفيون** أو غيرها يرتبط كثيرا وكثيرا جدا بظاهرة نقص الوزن عند الميلاد ، هذا الى أن الوليــد يكون شبه مدمن ، فهو يولد فى حالة دوخان وتخدير ، ويتعــرض من أول أيامه للســلبية والانسحابية وعدم الاقبال على الطعام فترة تمتد

---

(٢٣) Delerius tramen وهو نوع من الاضطراب العصبي يصيب كثيرين من المدمنين على الخمر اذا عادوا اليها بعد الاقلاع عنها .

من ٢٤ ــ ١٢٠ ساعة بعد الولادة . هذا يجعل الوليد عزوفا عن الرضاعة ، ويزداد ضعفا على ضعفه الطبيعى الذى يحدث نتيجة تكسر الكريات الدموية الحمراء فى أول عهده بالحياة وهو يحاول التأقلم والتكيف مع البيئة الجديدة خارج الرحم . هذا وأطفال المدمنات يكونون بعد فترة التخدر هذه شديدى الحركة ، يتعرضون لحالات توتر عنيف وتقلصات وقد يتعرضون لنوبات من الاغماء متكررة ، وقد يفضى بهم ذلك للموت . (٢٤)

وفى هذا المقام لا بد من الاشارة الى بعض الامور البديهية والظروف البيئية التى قد تعطل اثر التغذية الجيدة ونذكر منها على سبيل المثال:

ــ مرض الأم وخاصة فى الشهور الاولى مما قد يعطل نمو الجهاز العصبى المركزى على الوجه الأمثل وخاصة عندما تصاب بالحميات أو الحصبة الالمانية أو النكاف أو الحمى القرمزية والانفلونزا الحادة والامراض السرية وغيرها من الامراض التى تستطيع فيروساتها أن تخترق العشاء المصفى فى منطقة التبادل الدموى وتصل الى الجنين ، فتعطل بالتالى التأثير الجيد للغذاء المتكامل فى نمو الجنين .

ان ما يهمنا من هذه الامراض هو تأثيرها على فعالية الغذاء فى تطور الجنين ونمائه ، ذلك الغذاء الذى نهدف من وراء تأمين وصوله للجنين الى أن يحقق الغاية من سرعة نماء الكائن خاصة فى مراحل التطور الحرجة أيام تكوين الهيكل العظمى أو الجهاز العصبى أو ظهور الحواس الدقيقة الهامة كالسمع والابصار .

فمثلا قد تسبب الحصبة العادية اضطرابا فى تكوين القلب وقد تحدث فيه ثقبا اذا أصيبت بها الأم فى الشهور الاولى ، وقد تسبب صغر حجم الجمجمة ويترتب على ذلك عدم كفايتها لتكاثر خلايا المخ وتطور حجم هذه الخلايا بما يكفل نمو هذا الجزء الهام جدا من أجهزة الجسم ومن هنا قد تتطور ظاهرة التأخر العقلى . كذلك قد يسبب بطء النماء الخلوى فى العضلات أو تغير التكروموزمات حاملات الوراثة اضطرابا كبيرا فى نمو الطفل الجسمى ووزنه ، ويترتب عليه ما أشرنا اليه من اضطراب النمو العقلى .

اما عن الحصبة الالمانية ، فان لها آثارا سيئة تماما على نحو الجنين ، خاصة لما تحدثه من خلل فى الجهاز العصبى المركزى الذى يصاب بكثير من التلف اذا أصيبت بها الأم قبل الشهر

---

(٢٤) Mussen et al. 1963 Ibid.

الرابع من الحمل ، وهكذا تعطل هذه الاصابةما نرجوه من التغذية الانسب فى ان تحدثه فى هذا الجهاز الهام .

لذلك يترتب على اصابة الام بهذا المرض قبل الشهر الرابع من الحمل ضعف العقل كالولادة المشوهة وأحيانا الميتة ، ناهيك عن أنها تسبب ولادة (٢٥) الجنين بثقب فى القلب او نقط فيه او اضطراب فى تكوين الاوعية الاساسية وغيرذلك مما يعتبر عاملا معطلا معوقا لاثر الغذاء الجيد .

كذلك الامراض السفلسية السرية التي انوصلت الى الجنين توقف تماما اثر التغذية الجيدة فى تطور الجنين . فهي التي تسبب ٢٥٪ منحالات الولادة المبتسرة ، و ٢٥ ــ ٣٠٪ من المواليد الموتى ، كما يكون لهذه الامراض دائمااثر سيء فى وزن الجنين وصحته العامة ، فهي تعطل النماء الخلوي السابق الاشارة اليه وبذلكتحرم الجنين من الصحة والحيوية اللازمة لعملية الولادة وما تعنيها من جهد شديد قد يقع امامهاالجنين الضعيف المصاب صريعا ، ولو ولد بعد جهد شديد فهو مولود معوق لما يصاب به منعاهات العمى او الصم او لين العظام او غيرها. وهنا تكون قد فاتت عليه فرصة الاستفادة منالغذاء فى تقويته وتقوية حواسه . ناهيك عن ان المواليد بالامراض السرية بالوراثة هم ضعافالعقول غالبا .

أما عن الام المصابة بالسكر أيام الحمل فانمرض السكر يعطل تماما النماء الطبيعي للجنين، وذلكاما لان الام تتبع نظاما خاصا فى الحصنة ،اولان الانسولين الذي تتعاطاه لكي يساعد على تخلصها من سكر الدم بتعويض نقص السكرالحيواني الذي تفرزه غدد الام يصل مع دم الام الى الجنين فيسبب اضطرابا ما فى عملية الابضوالبناء الطبيعي فى خلايا الجنين . كذلك فان حرمان الام من بعض العناصر الغذائية لتقليلنسبة السكر فى دمها ينعكس على الجنين فى فترة شدة احتياجه الى هذه العناصر .

ولقد وجد ــ ان نسبة كبيرة من الاجنةتموت فى الاسبوع الاخير من الحمل بسبب مرض الحامل بالسكر ولذلك ينصح الاطباء عادةمريضات السكر بأن يتممن عملية الولادة بالقيصرية بحيث تتم عملية الولادة قبل موعدهاباسبوعين حفاظا على الجنين وتلافيا لما يعانيه الجنين من نقص عناصر غذائية معينة .

ان الجنين فى عملية الولادة يحتاج لبذلجهد كبير حتى يساعد فى تمديد عضلات جدران

---

(٢٥) Mussen, et al 1963 Ibid

الرحم وعنق الرحم ، وحتى يوفر لنفسه فرص الخروج الى الحياة . فاذا كان يعوزه الغذاء فى فترة أمس الحاجة اليه أيام الحمل بسبب ما تسير عليه الام من حصنة ونظام التغذية المحدد ، فان ذلك يؤثر فى تموين الجنين بحاجته من الغذاء وبالتالي يجعله ضعيفا فى عملية الولادة بدرجة قد تعرضه للاختناق .

هذا وكثيرا ما تصاب الام بظاهرة نقص السكر بالجهاز العصبي والدم ، وهي ما تعرف بظاهرة « هيبوجلايسيما » Hypoglycemia وهي حالة من الدوار والاغماء احيانا بسبب ضعف قدرة الجهاز العصبي على الحفاظ على مخزون من المواد الكربوايدراتية لفترة طويلة . هذه الحالة فى ذاتها قد يتعرض لها الجنين وهو فى بطن أمه فيعاني ظاهرة نقص الغذاء فى خلايا جهازه العصبي ، وربما تعرض لشبه دوار الهيبوجلاسيميا عندما تتعرض له الام .

والمعروف ان تكرار تعرض أي كائن لهذه الحالة ـ صغيرا كان أو كبيرا ـ يؤدي الى ضعف الخلايا العصبية ويترتب على ذلك ـ فى حالة حدوثه للجنين ، تأخير عملية النماء العصبي سواء عن طريق الانقسام الخلوي قبل الولادة او كبر حجم الخلايا العصبية قبل وبعد الولادة ولذلك فقد دلت بحوث عديدة على ضعف الاجنة الذين يولدون من امهات مرضى السكر وخاصة السكر الذي يورث الاستعداد له ويولدون بجهاز عصبي أضعف بكثير من المعتاد عند الولادة .

هذا وتعتبر الوراثة عاملا هاما فى وراثة الجنين للاستعداد للاصابة بالمرض نفسه ـ مرض سكر الدم ـ حيث يرث الجنين الاجهزة الضرورية للموازنة فى كمية السكر فى الدم فى حالة استعداد تكويني يهيىء الفرد للاصابة بمرض السكر . ولذلك قد تضعف قدرة الجنين وهو فى بطن أمه على أيض المواد الكربوايدراتية واكسدتها بما يعين على دخولها فى بناء خلايا جسمه .

اختلاف وجود عامل : R.H. وهو عامل وجد انه قد يثير فى الام نشاطا زائدا فى تكوين الاجسام المضادة اذا كان الاب +RH والام —R.H ، وهذه الاجسام تقوم بدور اتلاف خلايا الكريات الدموية الحمراء فى الجنين ، فتعطل بذلك آثار الغذاء الجيد من الام . ثم أن ان هذه الظاهرة ، ظاهرة تكسير الكريات الحمراء بواسطة الاجسام المضادة من الام تعتبر الخطوة الاولى نحو ذلك الجسم الغريب ـ جسم الجنين الذي دمه به عامل +R.H. ، ولذلك قد يترتب عليها ، بعد مدة الاجهاض او ولادة الطفل بدون حركة still birth ضعفه ، وزيادة الصفراء فى جسمه . والصفراء تنجم عن زيادة البليروبين ...Bilirubin او غشاء الكريات الحمراء المتكسرة التالفة ، وهو بذاته قد يؤثر فى الجهاز العصبي ويكون مسئولا بالتالي

عن المواليد ضعاف العقول او المصابين بالكساح او العاهات المختلفة وهذا كله تعطيل للتاثير المرغوب من الغذاء الجيد يصل الى الجنين .

اخيرا : نحن نرجو ان يؤتى هذا البحث ثماره فى استثارة اهتمام كل أم يهبها الله نعمة الحمل ، اهتماما بغذائها كما وكيفا .

كما نرجو ان يكون لهذه الدراسة اثرها فى استثارة انتباه الحكومات والهيئات المسئولة عن الحوامل فى أي مجتمع الى ضرورة توفير الغذاء الامثل بأي ثمن ، او بغير ثمن للامهات الحوامل، وهذا ما تنبهت اليه هيئات وحكومات عديدة تتأثر تشريعاتها فى هذا المجال بظروفها الاقتصادية، بل العكس من ذلك لقد اصبحت مثل هذه المجتمعات تجد ان من أهم مشروعات الاستثمار الاقتصادي ان العناصر الغذائية الضرورية للحوامل والمرضعات اذا حالت ظروفهن المعيشية الاقتصادية ، دون التمكن من توفيرها ، بالحصول على الغذاء الامثل والاكثر تكاملا .

★ ★ ★

مصادر البحث :

لمزيد من الاطلاع فى موضوع البحث يمكن الرجوع الى المصادر الآتية :

(أ) ـ المراجع العربية :

١ ـ الفقى ، حامد عبد العزيز : دراسات فى سيكولوجية النمو . قرطاسية العتيقى ، الكويت ١٩٧٧ . الفصل الثالث .

٢ ـ غالى ، محمد أحمد وآخرون : القلق وأمراض الجسم . مكتبة الفلاح بالكويت . الطبعة الثانية ١٩٧٨ الفصل الخامس والسادس (الجهاز العصبى ـ والغدد الصم .)

(ب) ـ المراجع الأجنبية :

(3) Dayton. D.H.
Early maturation and human development. Wiley 1969.

(4) English, H.B.
Dynamics of child development. Holt Rinehart and Winston INC. 1967. chs 8 & 11.

(5) Fein, G. Greta, Child development.
Prentice Hall Inc Englewood Cliffs, New Jersey. 1978

(6) Francis Williams, J. Davies, P.A., Very Low birth-weight and later intelligence. In : Developmental medicine and Child Neurology. 1974, 16.pp. 709-728.

(7) Hill, D.E., Placental insufficiency and brain growth of the fetns. In: D.B. Cheek, Fetal and postnatal Cellular growth. edited. New York. Wiley. 1976.

(8) Hurlock, E.B., Developmental Psychology. Tata McGraw-Hill Publishing Company Ltd., Bombay, New Delhi 1959-Ch. 2

(9) Hurlock, E.B., Child development. McGraw-Hill Book Company INC 1972 Chs. 4 and 5.

(10) Johnson, R.C., and Medinnus, Gene, R., Child Psychology, behavior and development. John Wiley & Son Inc. N. Y. London. Second Edition 1969.

(11) Liebert, R.M., Poulos, R.W., and Strauss, G. D., Developmental Psychology. Prentice-Hall, INC. New Jersey 1974 Ch. 3. pp 47-77.

(12) Marcus, A. Krupp and Milton, J. Shatton, and associate authors. Current medical diagnosis and treatment. edited. Langne Medical Publications (L.M.P.) Los altos California. 1975.

Ch. 20 on Nutrition : Nutritional and Metabolic Disorders : By Milton, J. Shalton, and Phyllis, M. Ullman.

(13) Moore, K.L. The developing human : Clinically oriented embryology. (2nd ed) Philadelphia. Saunders 1977.

(14) Mussen, P.H., Conger, J.J. and Kagan, J. Child development and personality. Humper and Row Publishers N.Y. 1963 Chs. 3 and 4.

(15) Pribram, K.H., Brain and behaviour 1. Mood, States and Mind. edited. Penguin Modern Psychology 1969.

Ch. 2 : Research on the nervous system in general and on that of the brain in particular : By : F.G. Gall and G. Superzheim.

Ch. 6. pp. 61 - 69.

(16) Smith, A.M. Sheridan, The retarded child and the mother. Trans. Tavistock Publications. London 1973. 1 - 2 pp. 3-45.

(17) Tanner, J.M. The regulation of human growth. In : F. Robelsky and L. Dorman (Eds) Child development and behavior. New York. Knopf. 1973.

(18) Waddington, C.H. The strategy of genes. London. Allen and Unwin 1957.

(19) Wyden, B. Growth : 45 crucial months. Life. December 17 1971 - pp. 93 - 95.

★ ★ ★

ڤيولا الببلاوى *

الأطفال واللعب

مقدمــة :

الطفل لاينمو من تلقاء نفسه : فهو يتشكل ويتغير ويرتقي كشخصية سوية ، بقدر مانوفر له ، فى الوسط الانساني الاجتماعي الذى يعيش فيه ، من عوامل التربية ومقوماتها ، بل اننــا لنستطيع بتربية رشيدة أن نشكل هذا الكائن الحـي بمواصفات تجســد الجوهــر الحقيقي للانسان .

وقد جرت عادتنا أن نهتم فقط ، بتربية الطفل فى المدرسة ، استنادا الى التعليم المدرسي خاصة ، كأساس حقيقي لبناء شخصية الطفل . هذه النظرة تنطوى على معنيين مختلفين : **فمن ناحية** تعنى أن اهتمامنا بالتربيــة المنظمة كمالوأنها تبدأ مع التعليم الشكلي ، أى مع التحاق الطفل بالمدرسة . وتعنى من **ناحية أخرى** أن التعليم المدرسي وكأنه غير متصل بنشاط الطفل وخبراته خارج المواد الدراسية التقليدية ، وبتعلم الطفل فى سنوات ماقبل المدرسة .

ان من ابرز المقومات التربوية ، في سنوات الطفولة خاصة ، اللعب كنشــاط مميز لحياة الاطفال . وهي مقومات لانكاد ندركها بوعي ، اوأننا لانعطيها قدرها الذي تستحقه فى تربيــة

(*) مدرسة علم النفس بكلية التربية ببنها – جامعة الزقازيق ، وحاليا بقسم التربية بكلية الآداب والتربية – جامعة الكويت .

الطفل . فالدراسات والبحوث الكثيرة والمتنوعةتؤكد على ان اللعب هو مدخل وظيفي لعالم الطفولة،ووسيط تربوى فعال لتشكيل شخصيةالفرد فى سنوات طفولته .. وهي تلك الفترة التكوينية التى تجمع نظريات علم النفس علىاهميتها الحاسمة كركيزة اساسية للبناء النفسى للفرد فى مراحل نموه المتعاقبة .

و « اللعب » كلمة كثيرا ما نستخدمها فى حياتنا اليومية ، الى درجة يكاد معها هذا المفهوم يفقد معناه الحقيقى . فاللعب قد نربطه بأى نشاط يمارسه الفرد لكي يبعث فى نفسه البهجة والارتياح ، ووفقا لذلك فقد نفهم اللعب على انه نشاط هدفه اللهو واستهلاك الوقت والجهد ، بدون أن تكون هناك قوى أو دوافع خارجية تحركه وتوجهه . واللعب بذلك قد نفهمه على أنه يختلف عن العمل الحقيقي الذى هو نشاط موجه نحو غاية محددة يقوم به الفرد .

بل ان أطفالنا كثيرا ما يفرقون بين العمل واللعب على أساس الشروط الخارجية التى يفرضها المجتمع ، فالعمل بالنسبة للطفل هو العمل المدرسي أساسا ، أو قد يعني لديه فى بعض الاحيان ماقد يكلف به من مهام منزلية يساعد فيها أسرته ، بينما يعنى اللعب اى شيء آخر يبعث على اللهو . وغالبا مايهتم الاطفال،ونشجعهم نحن الكبار ، بأن العمل نشاط جاد مفيد ، بينما اللعب لهو لافائدة منه .

والحقيقة ، أن اهمية اللعب فى حياة الاطفال وتحقيقه لدوره التربوى فى بناء شخصية الطفل ، تتحدد أساسا بوعي الكبار عامة والآباء والمعلمين خاصة ، وبمدى اتاحتهم الفرصة أمام الطفل لتحقيق الذات فى انشطة اللعب ، ومواقفه المتنوعة ..

● ● ●

الخصائص المميزة للعب الاطفال

يختلف لعب الاطفال عن لعب الكبار فى أوجه كثيرة . ويتميز بجانب ذلك بخصائص معينة نجدها فى أى مجموعة من الاطفال نقوم بدراسة نشاطها .

١ ــ اللعب عملية نمو :

فاللعب يأخذ النموذج الذى يتطور به نمو الطفل نسقا نمائيا محددا . تتضح هذه الحقيقة اذا تتبعنا الخط النمائى للطفل منذ ميلاده ،وموقع اللعب فيه .

فمنذ المهد والطفولة المبكرة ، تبرز انشطة معينة للعب ، وتشيع فى سن عن آخر ، بصرف النظر عما ينتمى اليه الطفل من بيئة او قومية او سلالة او خلفية اجتماعية اقتصادية . ومع ذلك ، وبالرغم من أن شكل النشاط يتغير كلما ازداد الطفل نضجا ، الا انه لاتوجد بداية او نهاية محددة لنشاط لعب معين . بيد أن المرحلة العمرية ، التى يشيع فيها لعب معين ، تكون متالية بدرجة كبيرة لدى جماعة اخرى من الاطفال .

فاللعب ، فى البداية ، يكون بسيطا للغاية ، يتألف أساسا من حركات عشوائية ، ومن استثارة لاعضاء الحس . وهى تلك الفترة العمرية التى تستغرق العامين الأولين تقريبا من حياة الاطفال (مرحلة المهد) ، حيث تكون الحياةالنفسية ــ وفقا لنظرية جان بياجيه (*) ــ عبارة عن نشاط حسى ــ حركى sensori-motor ،يتمثلفى ممارسات الأفعال المنعكسة reflexes والارجاع الدورية circular reactions ،وتكون فاعليه استثارة أعضاء الحس والحركة فى هذه المرحلة « منبئا » الى حد كبير عن فاعلية الحياةالنفسية فى مراحل النمو التالية .

ومع تطور نمو ذكاء الطفل ، يصير لعبهمعقدا بشكل متزايد . فاللعب بالدمى يجتذب الطفل منذ الطفولة المبكرة ويصل الى ذروته فىالعام السابع او الثامن من العمر ، لذا تعرف هذه الفترة بـ « سن اللعب بالدمى » toy age . وبعد التحاق الطفل بالمدرسة،تبدأ اهتماماته باللعب فى التغير . فخلال العام الاول أو العامينالأولين من الحياة المدرسية ، يجرى تداخل بين انشطة اللعب المميزة لمرحلة الطفولة المبكرة(سن ٣ ــ ٦ سنوات) وتلك المميزة لمرحلة الطفولة الوسطى (سن ٦ ــ ١٠ سنوات) . فبينما تظل أنشطة اللعب المحببة الى الصغار فى الطفولة المبكرة قائمة لسنوات قليلة ، تنمو فىنفس الوقت اهتمامات جديدة للعب،وفى البداية يكون الطفل شغوفا بألعاب الجرى ، ثم تصبحالالعاب الرياضية القائمة على قواعد ونظم محددة هي تسليته المفضلة بعد ذلك . وعلاوة علىهذا ، تأخذ اهتمامات الاطفال باللعب فى الاتجاه الى آفاق اخرى ــ كالقراءة مثلا ، أو جمعالأشياء كالطوابع والعملة والفراشات والنبات ، والافلام والصور ، والاذاعة والتلفزيون ، والاناشيد والغناء ، والتركيب . . الخ وتتبلور هذه الاهتمامات بصورة واضحة فى مرحلة الطفولةالمتأخرة .

وبجانب ذلك ، تتصف الطفولة المتأخرة(سن ١١ ــ ١٢ سنة) بالاتزان الحسى الحركى الذى يتميز بمعالم معينة من النضوج ــ كالرشاقة ، والقوة والحيوية، وهادفية الحركة والقدرة على التحكم فيها ، والانسيابية وسهولة انتقالالحركة وتنوعها من الجذع الى الذراعين والقدمين ، وسرعة تعلم المهارات الحركية . ولذلك فكثيرا مايجرى تشبيه اتساقالاستجابات الحسية الحركية فى هذه المرحلة العمرية« برشاقة القط » . وتنطوى حقائق النمو هذه على مغزى تربوى عظيم : فنظرا لأن هذه المرحلةهي فترة « كمون نسبى » من الناحية الفسيولوجية ، اى تكون عمليات الهدم والبناءفى الجسم اكثر هدوءا ، وتجرى بمعدل أقل اذا قورنت بمعدل النمو فى المرحلة التالية (المراهقة)، فانها تعتبر المرحلة الحساسة من النمو للتعلم الحركة المنظم ، والفترة المثلى للتمكن من الألعابالرياضية الحركية .

ويتضح الخط النمائي للعب الاطفال اذاأخذنا بعض انواع من لعبهم ونرى كيف تنمو فى حياة الطفولة . فبناء المكعبات ، مثلا ، يسير فىاربع مراحل محددة من النمو (جونسون ، ١٩٣٣) : **فالمرحلة الأولى** عبارة عن مجرد تناولللمكعبات وحملها وتكويمها فى مجموعات غير منظمة . **وفى المرحلة الثانية** يبدأ الطفل فى تكوين صفوف واعمدة من هذه المكعبات ، **وفى المرحلة**

(*) (ارجع الى الفصل الثاني من كتاب : د . بيرد :جان بياجية وسيكولوجية نمو الاطفال .
(ترجمة : فيولا الببلاوى) . القاهرة مكتبة الانجلو المصرية١٩٧٦) .

الثالثة تنمو قدرة الطفل على عمل نماذج مــن هذه المكعبات وتتضح بعض الطرق التى يتبعها فى بنائه للمكعبات . أما **فى المرحلة الرابعة** فيقوم ببناء تكوينات حقيقية تعبر عن معان متكاملــة ويستطيع اعادة البناء وتجويده . اما الرسم والنشــاط التعبيرى فيختط كذلك نموذجا للنمو (بل ، ١٩٥٢) : فهــو يبدأ بـ « الشخبطة » أو « الخربشة » فى حوالى العامين الأولين من عمره، وينمو كصورة معبرة على أرضية ملائمة فى حوالى سن الثامنة او التاسعة . وهكذا يمكن أن نميز فى كل اشكال اللعب نسقا نمائيا developmental course لتطور نمو نشاط الطفل من مرحلة لأخرى .

٢ ــ تتناقص أنشطة اللعب « كما » مع تطور نمو الطفل :

يقضى الاطفــال الصغار معظم أوقــات يقظتهم فى اللعب ، لدرجة أنهم يلعبون وهــم ياكلون أو يستحمون ، أو حتى فى لحظات ماقبل النوم وفى الفراش . ويتفق هذا مع طبيعة النمو فى هذه المرحلة ، حيث أنها مرحلة نشاط حركى، وتتم عمليات الهدم والبناء فيها بمعدل أسرع ، ناهيك عن أن هذه الفترة تمثل بدايات تعرف الطفل على العالم المحيط به واكتشافه لذاتــه داخله .

فى سنوات ماقبل المدرســة (الحضانة ورياض الاطفال) تتضمن أنشطة اللعب الالعاب التمثيلية ، واللعب بالمكعبــات والماء والرمــل والطين ، واســتخدام مــواد الرســم والتلوين بالأصابع ، والموسيقى والرقص الايقاعى (هارتلى وآخرون ، ١٩٥٢) . وفى هذا السن يكون لعب الاطفال ابداعيا ، تمثيليا ، تكراريا ، تخيليا ، وتخليقيا (ريسى ، ١٩٥٤ ، تورانس ، ١٩٦٢ ، ليتون ، ١٩٧١) .

أما فى مرحلة المدرسة الابتدائيــة فيهم الاطفال باللعب الذى يتضمن نشاطا جسميا ، فيمارسون شيئا أو يذهبون الى أماكن خارج المنزل والمدرسة أكثر من اهتمامهم بالالعاب ذات النمط العقلى أو الجمالى . وفى هذه الفترة يركز بعض الاطفال على القراءة او الموسيقى فى لعبهم (جيرسيلد وتاش ، ١٩٤٩) . تبــين بعــض الدراسات (ليهمان ووينى ، ١٩٢٧) أن الاطفال فى سن الثامنة يلعبون بأنشطة مختلفة بمتوسط ٤٠ر١١ فى الاسبوع ، فى حين يبلغ هذا المعدل ٧١ر١٧ لدى الشباب فى حوالي الاثنين وعشرين عاما من العمر .

ويتناقص مقدار أنشطة اللعب الاجتماعى، بما فيه اللعب مع الاطفال الآخرين ، مع العمر . ففى حوالى سن السابعة والنصف يبلغ متوسط هذه الالعاب ٢٧ ، بينما يصل هذا المعدل الــى ٢١ فى سن الحادية عشرة والنصف ، والــى ١٣ فى سن السادسة عشرة والنصف (وتى ، ١٩٣١).

ويمكن أن نعزو التناقص الكمي فى أنشطة اللعب عند الاطفال الى عوامل عدة : فى مقدمتها تضاؤل مقــدار الوقت المتاح للعب ، بســبب الواجبات الجديدة المفروضة عليه ، وبســبب الوقت الذى يقضيه فى المدرسة وما يتبعه مــن التزامات خارج المدرسة . والنتيجة ان الطفل عليه أن ينتقى من بين الانشطة المختلفة للعب تلك التى تستثير اهتماماته أكثر وتبعث فى نفسه البهجة . ويتضح ذلك أكثر حينما يصل الطفل الى مرحلة المراهقة ويصير وقت فراغه محدودا

بشكل متزايد . فالطفل كلما كبر يجد انه مطالب بالاقلال من الوقت الكثير الذى يقضيه فى اللعب وفاء لمسئولياته المختلفة ، ومسايرة للضغوط الاسرية والمدرسية والاجتماعية ، كما يدرك أن عليه أن يحسن التنسيق بين عمله ولعبه . وهذا جانب ايجابي ينبغي تنميته فى طفلنا ، حتى يستطيع أن يستمتع بلعبه حينما يلعب، ويرضى عن عمله حينما يعمل . ومن عوامل التناقص الكمى لنشاط اللعب أيضا ، تزايد وعي الاطفال بميولهم وقدراتهم ، وتزايد مدى الانتباه وتركيز الطاقة العقلية لديهم ، مما يمكنهم بالتالى من التركيز على نمط واحد من نشاط اللعب لفترة طويلة والاستمتاع به ، وينقلنا هذا الى خاصية « الكيف » فى لعب الاطفال .

٣ ـ تتزايد انشطة اللعب « كيفا » مع تطور نمو الطفل :

يتنقل الاطفال فى نشاطهم ، بسبب نقص قدرتهم على تركيز الانتباه ، من لعبة لأخرى أو من نشاط معين الى نشاط آخر . لذلك يجب أن يكون فى متناولهم عدد كبير من مواد اللعب حتى يظل اهتمامهم قويا . وفى مقدور الطفل فى سن العامين ، على سبيل المثال ، أن يركز انتباهه فى نشاط لعب معين لمدة سبع دقائق فى المتوسط تقريبا ، فى حين يزداد معدل الانتباه الى حوالى ١٢٫٦ دقيقة لدى الطفل فى الخامسة من العمر (فان اليستون ، ١٩٣٢) . كذلك ، كلما كبر الطفل ، ازداد مقدار الوقت الذى يقضيه فى نشاط واحد (بريد جس ، ١٩٢٩) . ولكن اذا كان اللعب ومواده مثيرا لاهتمام الاطفال ، فان الاطفال فى سن ماقبل المدرسة سوف يثابرون على هذا النوع من اللعب حتى ولو كان ذلك صعبا عليهم (ويلسون ، ١٩٥٥) .

فاذا كان الطفل فى المراحل الاولى للنمو ينشغل بألعاب كثيرة تستغرق معظم وقته ، فانه مع تطور نمو قدراته واهتماماته ومعارفه وخبراته يأخذ فى « انتقاء » العاب معينة من بين هذا الحشد الهائل من الالعاب ، وقد تصل عملية الانتقاء من الناحية الكمية الى لعبة واحدة أو نشاط واحد ، لكنه اذا صار يجيد هذا النمط الواحد من نشاط اللعب وتمكن من مهاراته وتوحد معه انفعاليا ونظم له وقتا أكبر بدلا من تشتيت طاقاته واهتماماته على كل مايقع فى مجاله الحسى المباشر . اى أن هذا التحول من « الكم » الى « الكيف » فى نشاط اللعب عند الطفل دليل على تغيرات كيفية فى بنية الشخصية على طريق « التمكن » من نفسه بيئته . فاذا أخذنا اللعب الاجتماعي مثلا ، نجد الطفل فى المراحل الاولى يلعب مع أطفال كثيرين ، حتى ولو كان لايعرفهم من قبل ، وهو يلعب معهم حينا ، و « يتعارك » معهم أحيانا أخرى ، ليتصالح واياهم فى غضون فترة قليلة من ناحية ثالثة . ولكن من مظاهر النضج الاجتماعى أن « يصطفى » الطفل ، كلما كبر ، مجموعة معينة من أصدقائه ، يتوحد معها ويعيش نشاطها ، ويسعى لأن يحظى بمكانه داخلها ، ويرتبط بها برباط المعية والانتماء . ويتضح هذا بصفة خاصة فى ظاهرة « جماعة الشلة » فى مرحلة المراهقة .

ومن مظاهر « التحول الكيفي » فى نشاط اللعب عند الاطفال، أن النشاط الجسمي المبذول فى اللعب يأخذ فى التناقص كلما كبر الطفل ، بينما يزداد الميل الى أنشطة اللعب ذات الطابع العقلى المعرفى . فالمراهق ، مثلا ، يبذل طاقة أقل من الناحية الجسيمة فى لعبه ، بينما نجد الطفل ، وخاصة فى مرحلة ماقبل المدرسة ، دائب الحركة والنشاط الجسميين . وبينما نجد الاطفال فى

الاربع سنوات الاولى من المدرسة الابتدائيةيفضلون الالعاب الرياضية النشطة ولايهتمون كثيرا بالالعاب التي يقضى فيها الفرد معظم وقتهجالسا كما هو فى سنوات المراهقة (جيرسيلد وتاش ، ١٩٤٩) ، فانه بدءا من الطفولة المتأخرةوالمراهقة المبكرة يسيطر على لعب الاطفال أشكال معينة ، مثل مشاهدة التلفزيون والافلامالسينمائية والاستماع للموسيقى والقراءة واجادة ألعاب رياضية معينة (سوللينجروآخرون ، ١٩٥٣) .

هذا التحول الكيفى يسير بدوره هكذا معالتغييرات الكيفية فى عملية النمو العقلي المعرفى ، الذى يبدأ بالمظاهر الحسية الحركية فى مرحلةالمهد حتى يصل فى مرحلة المراهقة غالبا الى المستويات التجريدية للذكاء الانساني .

٤ ــ اللعب فى الطفولة نشاط تلقائى :

يتسم لعب الاطفال ، عند الصغار خاصة ،بالتلقائية واللاشكلية . فالطفل يكون على سجيته حينما يلعب ، ويبدو بذاته وبأصالة ، بدون مااصطناع، وبدون ما مسايرة لضغوط اجتماعية.

الطفل الصغير يلعب حينما يرغب ،بالكيفية التى يريدها غالبا ، وبأى مواد اللعب ووسائله ، بصرف النظر عن اعتبارات الزمانوالمكان ، وبصرف النظر عما لديه من لعب ثمينة أو كثيرة . ففى أحيان كثيرة نجد الطفل سعيداوهو يلعب بأشياء تخص والديه او اخوته أو ببعض ادوات المنزل ، اكثر مما يسعد بألعابهالخاصة . والطفل الصغير لايكترث لأن يلعب بملابس خاصة ، فالموقف يستوى عنده اذا ارادأن يلعب ، سواء باحسن ملابسه أو بملابس اللعب ، وهو أيضا لا يبدي اهتماما كثيرا بما قدتخصصه له الأسرة من مكان أو حجرة للعب ، ولا يراعى مواعيد معينة للعبه .

ولكن اللعب يأخذ فى أن يصير بالتدريجاكثر شكلية ، وفى أن يختفى الكثير من تلقائية اللعب فى مرحلة المراهقة . ففي هذه المرحلة يزهوالمراهق بارتدائه للزى المميز لبعض الالعاب ، ويشعر بحاجته الضرورية الى أجهزة وأدواتخاصة للعب كمضارب التنس مثلا ، والى أماكن معينة يلعب فيها كالملاعب والنوادى والساحاتالتى يشترك فيها . وهو لايلعب بغير هدف ، بل يخضع نشاطه لنظام معين ــ فهو يتفق علىمواعيد محددة ليلتقى برفاقه ، وليلعب فى وقت محدد ، وهو يلتزم بدوره فى اللعب ويسعى الىتحقيق اعلى مستويات الأداء فيه .

هذا الاتجاه نحو الشكلية فى اللعب يزدادكل عام مع تطور نمو الطفل ، وتكون النتيجة ان يصير اللعب فى المراهقة شيئا جدا ، وليس بذلكالنمط اللاشكلى العرضى من النشاط الذى يبتهج به الطفل الصغير .

اهمية اللعب فى حياة الاطفال :

الطفل فى لعبه لايكون طفلا فحسب ، ولكنهيلعب أيضا دور طفولته ، فيعيشها من خلال اللعب الذى ينضوى فيه ، ويتوحد مع عناصرهوأدواته ، ويستجيب لرموزه ومعانيه . ومع ان

الكبار يتقبلون اللعب كجانب أساسي من حياةالاطفال ، الا أن هذا التقبل ربما لاينطوى على ادراك واع لأهمية اللعب فى حياة الاطفال ولقيمةالدور الذى يحققهفىنمو الطفل وبناء شخصيته.

فاللعب بالنسبة للطفـل حقيقة يعيشهابواقعه وبخياله . وهو نشـاط تلقائى أكثر اثارة لاهتمامه مما يحيط به . فى اللعب يعيش الطفل، فتظل آثار خبراته فيه حية متأصلة أكثر من آثار الحياة الواقعية التى لم يسـتطع بعد أنيدخل فيها ويسـتوعبها لصعوبـة ظاهراتهـا وعلاقاتها . **فى اللعب يعيش الطفل خبرة نموه،ومن اللعب يحمل معه ركائز نموه للمراحل التالية وانطلاقه فى تطور عملية النمو .**

وفى الواقع أن ابراز قيمة اللعب فى حياةالاطفالكان موضع اهتمام الكثير من علماء النفس والتربية ، فى أمريكا والغرب والشرق . فعلىسبيل المثال ، اذا كان عالم النفس الالمانى الاصل « كارل بيولر » (١٩٣٠) يؤكد على اهمية اللعبفى النمو العقلى للطفل، فان عالم التربية الروسى « ماكارينكو » (أعمال مختارة ، ١٩٥١ ص٣٧٣) يؤكد على التأثير البالغ للعب فى تشكيل شخصية الطفل : « فاللعب فى حياة الاطفال يحمل نفسالأهمية التى ينطوى عليها العمل فى حياة الكبار. فكيفما يكون الطفل فى اللعب ، فانه سوف يكونكذلك الى حد كبير فى عمله عندما يكبر . لذلك تنشأ تربية الشخصية قبل كل شيء فى اللعب .بل ان كل تاريخ الفرد كشخصية وكانسانيعمل، ربما نتصوره فى نمو اللعب وفى الانتقال التدريجيمن هذا الشكل الطفلى للنشاط الى العمل . ومن ثم فان تربية الطفل كشخصية للمستقبل ينبغيان تقوم لا على استبعاد اللعب من حياة الاطفال ، وانما على حسن تنظيمه ، بحيث يؤدى الـىتكوين الخصائص البنائية للطفل فى نموه » .

.. واذا كان اللعب بهذه القيمة البالغة فىحياة الاطفال ، فما هى أبعاد هذه الاهمية ؟ وما هى الجوانب من شخصية الطفل التى يباشر فيهااللعب تأثيره بالدرجة الاولى ؟ تلك تساؤلات عامة نتبين اجابتها فيما يلـى ، استنادا الى تحليلنتائجبحوث ودراسات شتى شهدها هذا الميدان.

(١) للعب قيمة بنائية

(اللعب نمو)

يتضمن اللعب بالنسبة للطفل ، وخاصةفى سنوات ماقبل المدرسة ، بدرجة كبيرة تلك المثيرات الباعثة على تكوين قدراته وخصائصشـخصيته ، بحيث ان المثيرات التربوية التى توفرها المدرسة فى المرحلة التالية هـى امتدادلمثيرات ماقبل المدرسة وتطوير لها تلبية لمطالب وحاجات نمو الطفل المتغيرة من مرحلة لأخرى.

من الطبيعى اذن ان تنسحب نواتج مثيراتالنمو ، المرتبطة بنشاط اللعب الذى « ينضوى فيه الطفل » ، على بنية الشخصية برمتها ..وأن تنعكس « تغذياتها الراجعة » على مكوناتها الجسمية الفسيولوجية ، والاجتماعية والانفعالية ، والعقليـة المعرفيـة .. وعلـى التمايز التدريجى لهويته ولأسلوبهفى الحياة الذى يعكس« ذاته » التى بدأت « تتمايز » وسط المثيرات المتباينة للحياة والوجود بابعادهما المادية والانسانيـة .

* فمن الناحية الجسمية الفسيولوجية في بنية الشخصية ، يؤدى اللعب دورا ضروريا اذا كان للطفل أن ينمي عضلاته على نحو سليم ، ويدرب كل أعضاء جسمه بشكل فعال . ويستخدم نشاط اللعب أيضا كمتنفس للطاقة الزائدة surplus energy outlet التي اذا احتبست تجعل الطفل متوترا ، عصبيا ، غير مستقر ، (ميلليتشامب ، ١٩٥٣) . وفى دراسة عن تأثير اللعب على نمو النشاط الحركى للأطفال فى سن ماقبل المدرسة ، وتوصل «زاباروجيتس» (١٩٤٨) الى أن اللعب حينما يخضع للتنظيم الملائم ، فانه يخلق شروطا مواتية لنمو وتحسين الأشكال المختلفة للنشاط الحركى عند الطفل . وفى تحليله لأسباب وطبيعة تأثير اللعب على نمو النشاط الحركى عند الطفل ، يبين انه حتى وان كان الطفل يستوعب المهارات الحركية المعقدة ، ليس فى اللعب وانما عن طريق التعلم المباشرة ، فان اللعب ، بصفة خاصة يوفر تلك الشروط اللائمة التى تهيىء الطفل لتحسين هذه المهارات فيما بعد . والسبب فى ذلك أنه فى اللعب تتحول الحركة من كونها وسيطا لتحقيق نتائج معينة الى كونها أيضا غاية فى حد ذاتها لفاعلية الطفل ، وتصير لذلك موضوعا لوعيه . وباتخاذ الطفل لنفسه دورا محددا ، فانه ينزع بوعي الى أن يأتى بحركات مميزة لشخصيات معينة تصدر عنها مثل هذه الحركات . لكل هذا يعتبر نمو النشاط الحركى فى اللعب مقدمة للممارسات الجسمية الواعية لدى الاطفال فى سنوات المدرسة .

واذا كانت قيمة اللعب من الناحية الجسمية الفسيولوجية تتجلى فى « فاعلية البدن » وفى « حكمة توظيفه » ، فان الطفل فى سياق اللعب يبدأ فى أن تتكون لديه اتجاهات معينة نحو كيانه الجسمى النامى ، وكيفية استخدامه لامكانياته الجسمية ، وسعيه الى تعلم مهارات حركية معينة ، وغير ذلك مما يعرف بمفهوم الذات الجسمية physical-self concept وبالاضافة الى ذلك ، فان المدخل الجسمى حركى لتربية الاطفال فى سنوات ما قبل المدرسة ، خاصة وانه لايعود بالفائدة على المكونات الجسمية من بنية بالشخصية فحسب ، ولكن أيضا على « الفاعلية النفسية » psychic activeness بصفة عامة : فاعلية الانتباه والادراك والتخيل والتفكير والذاكرة والارادة والضبط الذاتي وغير ذلك من مظاهر تطور نمو عمليات النشاط النفسى فى الطفل .

* وفيما يتعلق بالنواحى العقلية المعرفية فى بنية الشخصية : يباشر اللعب دورا كبيرا فى نمو النشاط العقلي المعرفى ، وفى نمو الوظائف العقلية العليا ـ كالادراك والتفكير والذاكرة والكلام ... الخ عند الطفل ، بدءا من ابسط الوظائف الى اكثرها تعقيدا .

فاللعب يساعد الطفل على أن « يدرك » العالم الذى يعيش فيه ، وعلى أن « يتحكم فيه ويتمكن منه » ميلليتشامب ، (١٩٥٣) . فالطفل الصغير من خلال انشطة اللعب المختلفة يتعرف على الأشكال والألوان والاحجام ، ويقف على مايميز الاشياء المحيطة به من خصائص وما يجمع

---

(١) د . بيرد : مرجع سابق ، ص ٨٣ .

(٢) هذه البحوث قد تضمنتها بعض أعداد من مجلة « تربية الطفل » (Child education) في عام ١٩٥٨ خاصة .

بينها من علاقات ، وما تحققه من وظائف وتحمله من اهمية . وهو بذلك تنمو لديه محكات التمييز بين موضوعات العالم المحيط به (التعلم التمييزى) . وكلما تقدم الطفل فى السن ، فانه ينمى الكثير من المهارات فى سياق ممارسته لألعاب ولانشطة معينة . ولاشك أن الألعاب التى يقوم فيها الطفل بالاستكشاف والتجميع وغيرها من أشكال اللعب الذى يميز مرحلة الطفولة المتأخرة تثرى حياتهم العقلية بمعارف جمة عن العالم الذى يحيط بهم ، وبمهارات معرفية تمكنهم من هذا العالم ، لايستطيع الحصول عليها من الكتب المدرسية وحدها . ومن شأن القراءة والرحلات والموسيقى والبرامج التلفزيونية والافلام السينمائية أن توسع من الافاق المعرفية للطفل، بالاضافة الى ما تجلبه الى نفسه من بهجة وسرور . وفى اللعب يتعلم الطفل الكثير عن نفسه وقدراته ، بما من بناء مفهوم أوضح عن ذاته (أكسلين، ١٩٥١).

ويبرز من وحي نظرية « جان بياجية » فى نمو الاطفال وما استثارته من دراسات وبحوث وفيرة ، ان مدى القدرات بين الاطفال فى سن الخامسة وقبل التحاقهم بالمدرسة يكون هائلا بالفعل ، أما الاطفال الذين يأتون من بيوت فقيرة لم تمكنهم ظروفهم من الالتحاق بدار للحضانة او بمركز للعب الاطفال فانهم يبدون بمستوى منخفض فى هذه القدرات (١) .

وقد تكرست سلسلة من البحوث العلمية فى بريطانيا على استخدام انشطة اللعب فى « تقريب مبادىء العلم الى الاطفال » (٢) ، وتوظيف هذه الانشطة لابراز اهمية هذا المدخل اللعبى فى توسيع آفاقهم المعرفية وفى التمكن من مهارات اكتسابها وتعلمها . فى احدى هذه الدراسات التى اجريت على عدد من رياض الاطفال والمدارس الابتدائية فى بريطانيا ، يقرر « م . بيرى » (١٩٥٨) أنه قد جرى الاهتمام فقط بالميول التقليدية للأطفال الصغار نحو الحيوانات المنزلية والبرية والطيور والنبات والاشخاص البارزين فى البيئة ، الا أنه ينبغى ان نطرح الآن مشكلة نمو اهتمام الاطفال المتزايد بالعلم : فهم يستثيرهم الكثير من مظاهر العلم والتكنولوجيا فى عالمنا المعاصر — من وسائل مواصلات ، كالطائرات وسفن الفضاء وارتياده والسفن البحرية ، ومن تركيبات فى الاجهزة ، ومن سير للعلماء وقصص عن الاختراعات ، الخ. وقد اتضح من دراسته انه من خلال اهتمام الاطفال من سن ٤ — ٧ سنوات باللعب بالسفن وبنائها ونظام العمل فيها ، فقد صارت حصيلتهم اللغوية أكثر غنى ، وكلامهم أكثر امتلاء بالمضمون وفى مثابرة قاموا بعمل سجل للسفينة دونوا فيه ملاحظاتهم على حالة الجو والبحر . وفى نشاط لعب آخر قاموا ببناء منزل ، انتقلوا فيه أيضا الى الاهتمام بالالات الحديثة — فلبناء المنزل عملوا أوناشا بسيطة ووضعوا لها رافعات من البكر والخيط . ، وعن طريق جريان الخيط نقلوا مواد البناء من قطع طوب ومونة . وفى تجارب بعض المدارس فى هذا الدراسات أكدوا على قيمة استخدام الماء وما يرتبط به من أشياء ووظائف (عوامات وأطواق ، آنية ، ومراكب مصنوعة من المطاط ، وسفن مصنوعة من الخشب ذات الات محركة) . وبمساعدة هذه الالعاب استطاع الاطفال ادراك الكثير عن صناعة السفن : لماذا تظل السفينة طافية على الماء ؟ ولماذا لا تغرق ؟ كيف نرفع السفينة الغارقة ؟ ماعلاقة سير المركب باتجاه ؟ .. الخ . وقد كانت النتائج التى خرجت بها هذه الدراسات واضحة فى هدفها ومضمونها التربوى — فالالعاب التى تستثير الاهتمام بالعلم

لدى الاطفال تستحق عناية بالغة فى عالمنا اليوم ،حيث يحرك الاطفال شغفا متأججا بما يحيط بهم من منجزات العلم والتكنولوجيا .

ويؤكد الكثير من الدراسات والبحوث المعاصرة على اهمية تنظيم انشطة اللعب على أساس مبادىء التعلم القائم على حل المشكلات فى تنمية الابتكار عند الاطفال (تورانس ، ١٩٧٠) كما تؤكد هذه الدراسات والبحوث أيضا على ان ذلك المعين الخصب الهائل من خيال الاطفال ، الذى يتجلى فى الكثير من أشكال لعبهم ، وخاصة فيما يعرف باللعب الايهامى ، يمكن توظيفة فى تدريب الاطفال على تعلم السلوك الابتكارى (دافيز وهوتمان ، ١٩٦٨) .

* **وفيما يتعلق بالنواحى الاجتماعية والانفعالية فى بنية الشخصية** ، يؤدى اللعب دورا بناء فى نضج الطفل اجتماعيا واتزانه انفعاليا . فبدون اللعب ، وخاصة اللعب مع الاطفال الآخرين وليس مع الكبار ، يصبح الطفل انانيا ، مسيطرا ، ضيق الأفق ، غير محبوب . ولكن الطفل يتعلم من لعبه مع الآخرين أن يشاركهم ويقاسمهم خبرات اللعب وادواره والتزاماته ، وأن يتعاون معهم ، وان يتدرب على مهارات الأخذ والعطاء ، وان يكتسب مكانة مقبولة وسط جماعة رفاقه . فاذا كان الطفل فى بداية حياته متمركزا حول ذاته ، فان انخراطه فى انشطة اللعب الجماعى خاصة يجعله يتخفف بالتدريج من نزعة التمركز حول الذات ، فيرتبط أكثر بالجماعة ويتبادل فيها الادوار الملائمة .

والحقيقة أنه اذا كان على الطفل ان يتعلم السلوك الاجتماعى المقبول من خلال اتصالاته وروابطه بالاطفال الآخرين فى المدرسة ، فان الفصل المدرسى بنظامه التقليدى ، أو اللعب الخاضع لأشراف المدرسة لايتيح الا فرصة ضئيله للتعلم الاجتماعى ، اذا قورن باللعب الحر خارج المدرسة . فهذا اللعب الحر يعطى الطفل متنفسا للرغبة فى عقد اتصالات اجتماعية نادرا ما تلقى اشباعا فى المنزل ، الا اذا كان هناك أطفال آخرون كثيرون من نفس عمر الطفل تقريبا ، وكذلك فى المدرسة حيث القيود الكثيرة المفروضة على التفاعل الاجتماعى الحر .

وفى داخل الاسرة ، من ناحية أخرى ، يساعد اللعب الخيالى أو الايهامي على تخفيف العداوات بين الاخوة الاكبر والأصغر . ومن خلال اللعب مع الاطفال الآخرين ، يتعلم الطفل كيف يعقد علاقات اجتماعية مع الغرباء ويوسع من دائرة اتصالاته بالآخرين ، وكيف يواجه ويحل المشكلات التى تجلبها مثل تلك العلاقات (اكسلين ، ١٩٥١) . ومن خلال الالعاب التعاونية ، يتعلم الطفل مهارات اجتماعية مرغوبة كالاخذ والعطاء المتبادلين ، والعطاء اكثر من الاخذ فى بعض الاحيان ، وان يتعاون مع الآخرين ، وكيف يتبادل معهم المسئوليات والالتزامات (كورنيليوس ، ١٩٤٩) . وهو يتعلم أيضا أن بالخسارة او الهزيمة فى بعض الاحيان مثلما يغتبط بالكسب والفوز (دى بوا ، ١٩٥٢) . وفى اللعب يمارس الطفل ادوارا مختلفة كثيرة ، يتعلم منها الادوار التى تعطيه رضا أكثر ، وفى نفس الوقت تمكنه هذه الادوار من اقامة علاقات مشبعة مع الآخرين (جيرسيلد ، ١٩٥٤) .

والواقع أن الكثير من تكوين **النظام الاخلاقي المعنوى للشخصية** يستمد اصوله من الانشطة والممارسات السلوكية التى يعيشها الطفل فى سنواته الأولى . فمنذ فترة مبكرة من حياة الاطفال ، يقوم الكبار بتوجيههم الى معايير السلوك ، ويطلبون منهم الالتزام بها . ويتعلم

ما تعتبره الجماعة صوابا أو خطأ فى المنزل أوالمدرسة ، ولكن تدعيم تقبل المعايير الاخلاقية لايكون جامدا فى جماعة اللعب . فالطفل يعرفانه ينبغي أن يكون نزيها ، أمينا ، موضع ثقة ، لاعبا حسنا وخاسرا حسنا ، وقادرا على ضبطالنفس ، اذا كان عضوا مقبولا من جماعة اللعب.

ويستوعب الطفل معايير السلوك الاجتماعى من خلال الاختلاط المباشر مع غيره من الاطفال والكبار ، ويكتسب بالتدريج المقدرة علىالتنظيم الواعى لسلوكه وفقا للمعايير المرغوبة لهذا السلوك . فمعايير السلوك الاجتماعيتتجسد بدرجة كبيرة فىالدور الذى يقوم به الطفل فى اللعب ويتوحد معه ، وبالتالى تنتقلالمعايير من مؤثرات خارجية الى معايير لذاته هو . فالدور يمثل فى هذه الحالة حلقة وسيطةبين الطفل وقواعد السلوك .

ويستند مضمون القواعد الاخلاقية المعنوية للسلوك فى اللعب ليس فقط على علاقاتالطفل نفسه بالاشخاص المحيطين به ، بقدر مايستندايضا على العلاقات المتبادلة بينهؤلاء الاشخاص، وخاصة فى نظامهم العملي والاجتماعي ، فوراءهذه العلاقات تكمن معايير معينة يبدأ الطفل فى أن يدركها خلال لعبه ، وأن يعيشها ويمارسهالتصبح جزءا من ذاته . وفى ذلك يؤكد « كارل روجرز » . فى الفصل الحادى عشر من كتابهعام (١٩٥١) انه فى بعض الظروف يشعر الفرد بموضوعات أو أحداث توجد خارجه لتكون جزءامن ذاته ، وخاصة اذا كان الفرد يدركها على أنها تحمل اهمية ومعنى بالنسبة له ، أو اذا كانيحدث لديه « انضواء للأنا » ego-involvement فى هذه المواقف .

ولنا أن نعتبر فى اللعب أيضا ، مجالا هامالنمو عملية « الادراك الاجتماعى » social perception ، حيث أن « القدرة علىالاحساس بشعور الآخرين empathic ability تنمو وتتطور من خلال العلاقات الاجتماعية التىيتعرض لها الطفل فى السنوات الاولى من حياته» (سعد عبد الرحمن ، ١٩٧١ — ١٩٧٧ ،ص٣٨١)وفى انشطة اللعب التى يعيشها الطفل يقف بدرجة كبيرة على « التشابة الحقيقى » actual similarily حيث تؤثر صورة الذات عند الفرد على تكوين مفهومه عن ذات الفردالاخر ، وعلى « التشابه المدرك » perceived similarity الذى يدركهالفرد بين صورة ذاته وبين مفهومه عن ذات الآخرين (سعد عبد الرحمن ، ٧١ — ١٩٧٧ ،ص ٣٩٠ — ٣٩١) .

فاذا كان الطفل فى اللعب يجرب ويختبر قدراته بدون ما التزام بمسئولية كاملة حيال أفعاله (جيرسيلد ، ١٩٥٤) ، واذا كان يتعلمفى اللعب أن يميز بين الواقع والخيال ، فانه فى اللعب ، وفى سنوات الطفولة الاولى خاصة ،**يظهر الشكل الأولى للاحساس بالذات** لدى الطفل وفى علاقتها بموضوعات العالم المحيطة به ، فيبدأ فى أن يكون صورة عن ذاته وادراكها على نحو متميز عن ذوات الآخرين أو الموضوعاتالموجودة فى الوسط المحيط به . وهذا المفهوم الاولى عن الذات self-concept يأخذ فىالنمو والتطور بتزايد خبرات الطفل فى الانشطة التى يعيشها .

(٢) للعب قيمة تربوية

(اللعب تعلم)

اللعب ـ شكل رئيسي لنشاط الطفل ؛ فيه يجرى بدرجة كبيرة نمو الذاكرة والتفكير والادراك والتخيل والكلام والانفعالات والارادة والخصال الخلقية . ولكن لاينبغي أن نفهم من ذلك أن نمو هذه العمليات النفسية وخصائص الشخصية يحدث تلقائيا لدى الطفل لمجرد انه يلعب فحسب . فلقد سار فى هذا الشأن وجهة نظر تذهب الى أن الطفل الصغير يتعلم بوحى من خبرته الخاصة ، وانـه بنفسه يتكشف هـذا العالم . ولاشك أن الطفل يستوعب الكثير عن طريق المحاكاة المباشرة للأشخاص المحيطين به : فبهذه الطريقة أساسا يستوعب اللغة والكثير من خبرات الحياة . وهذه الخبرة التى يكتسبها الطفل بطريقة تلقائية واستقلالية ذات قيمـة تربوية عظيمة : فهى تنمى فيه حب الاستطلاع والشغف ، والفاعلية ، والتزود بانطباعات عديدة عن العالم المحيط به ، والثراء الحسي ، الخ .

ولكن مبالغتنا ، من ناحية أخـرى ، فى تقدير قيمة هذه الخبرات القائمة فى معظمها على مبادىء التعلم بالمحاولة والخطأ ، انما ينطوى على خطأ كبير . فهذه الخبرات ليسـت دائما مربية ، وليست فى كل الاحوال بنائية ، بل كثيرا ماتجلب فى ثناياها انطباعـات وتصورات خاطئة يؤدى ترسيبها وتراكمها الى الانحراف بالخط النمائى للطفل ، فتسير عملية النمو فى اتجاه سلبى ، قد يؤدى الى اختلال فى التكوين النفسى للطفل .

فاللعب فى حد ذاته لاينطوى بدرجة كبيرة على قيمة تربوية ، ولكنه يكتسب هذه القيمة اذا ما أمكن تنظيمه وتوجيهه تربويا . فلا يمكن أن نترك عملية نمو الاطفال للصدفة أو للخبرة العرضية، فالتربية العفوية أو الفلسفة الترسلية Laissez-faire التى ذهب اليها « روسو » لاتضمن تحقيق القيمة البنائية للعب التى تكلمنا عنها ، وانما يتحقق النمو السليم للطفل بتأثير تربية واعية ، تضع فى الاعتبار خصائص نمو الطفل ومقومات تشكيل شخصيته فى سياق نشاط تربوى منظم هادف .

يتضح ذلك من نتائج سلسلة من الدراسات التجريبية أجريت على أطفال من سن ٥ ــ ٨ سنوات فى عدد كبير من رياض الاطفال والمدارس الابتدائية فى انجلترا (جاردنر ، ١٩٤٢ ــ ١٩٤٨ ، ١٩٥٦) ، بلغت ١٨ مدرسة ابتدائية وروضـة أطفال : منها ٦ مدارس تجريبية تقوم على استخدام نشاط اللعب كأساس وكطريقة للتعليم ، وكـان يتراوح وقت هذا النشاط ما بين ساعة الى ساعة ونصف يوميا ، و ١٢ مدرسة تؤلف المجموعـة الضابطة التى لم يكن فيها تقريبا توظيف للعب كنشاط للتعلم .

ولقد كشفت نتائـج مجموعـة المدارس التجريبية عن مستويات متقدمة للنمو فى كافة جوانب بنية شخصية الطفل ، مقارنة بالمستويات الاقل التى ظهرت لدى المجموعة الضابطة ، يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ ــ نمو مهارة جمع المواد بحرص وداب ، لكى يجعل منها شيئا تعبيريا يثير اهتمامه وشغفه ،

(٢) الرسم الحر بالاقلام والتعبير الحر عما يراوده من أفكار فى رسومه ، (٣) نمو مهارة الاجابة على الاسئلة المنظمة الموجهة اليهم ، وتكوين الجمل المفيدة ، والتعبير الحر المباشر عن أفكارهم (٤) نمو القدرة على عقد علاقات قائمة على الصداقة والود مع غيرهم من الاطفال او الكبار ، وحتى مع من لا يعرفونهم ، (٥) سلوك اجتماعى ناضج فى علاقاتهم مع الاطفال الاخرين ، (٦) التمكن من مهارات الكتابة بسرعة وبنظافة وباتقان ، (٧) القدرة على توجيه الانتباه الى مشكلات أو أنشطة يختارونها ، (٨) القدرة على تركيز الانتباه على العمل الذى يطلب الاطفال انفسهم أن يقوموا به ، والذى قد لا يستثير اهتمامهم بشكل مباشر فى اللحظة الراهنة ، (٩) القدرة على توزيع انتباههم من نشاط لاخر وفقا لمتطلبات الموقف ، (١٠) اكتساب مهارات جسمية حركية والافادة من تدريبات الالعاب الرياضية ، (١١) الانتظام فى انجاز الاعمال والواجبات المطلوبة منهم ، (١٢) زيادة الحصيلة اللغوية والقدرة على التعبير عن موضوعات معينة .

وقد قامت « جاردنر » يتتبع هؤلاء الاطفال فى بعض سنوات تعليمهم التالية ، ووجدت أن أطفال المجموعة التجريبية كانوا متقدمين فى النظام والاستقلالية والنضج الاجتماعي ، وفى التمكن من بعض المهارات ، كالتعبير بالكتابة أو بالفن مثل الرسم الموسيقى ، وكانت النتيجة أن حصيلتهم اللغوية والمعرفية عالية ، وتحصيليهم الدراسي مرتفع ، وميولهم المعرفية متعددة وعميقة ، وغير ذلك من مظاهر تقدم النمو .

وقد اهتمت دراسات اخرى فى انجلترا (مانسيل وايلفر ، ١٩٥٨) بالاعاب التمثيلية المسرحية للاطفال من سن ٥ ــ ١٠ سنوات ، وهى متنوعة من حيث المضمون او الشكل . فبعض الالعاب تستخدم العرائس لعرض مسرحيات فكاهية يشترك فيها الاطفال بأدوار مختلفة ، وبعضها يقوم على ألعاب « الاسرة » و « المنزل » يعيش فيها الاطفال بأدوارهم أحداثا معينة . وكان الاطفال يثابون على اشتراكهم فى الاعداد والتنظيم الجيدين للعرض . وتوضح ملاحظات هذين الباحثين « أن تشجيع هذه الالعاب ، مثل » علاء الدين والمصباح السحرى ، على أساس من اشتراك الاطفال فى الاعداد والتنظيم الجيدين يستثير اهتمامهم بطريقة بناءة . أما بدون الاعداد والتنظيم للعبهم فكان من المستحيل أن يأتى الاطفال بأفكار اصيلة لحكاياتهم ومسرحياتهم ، ولا أن يعيشوا جو المسرحية أو القصة .... » .

وتولى الدراسات التربوية والنفسية فى روسيا للعب الاطفال ، واستخدامه كمدخل تربوى لتعلمهم ، اهتماما كبيرا . ونسوق مثالا من بعض هذه الدراسات : قامت « جوكوفسكايا » (١٩٥٦ ، ١٩٦٠) بسلسلة من التجارب كانت تهدف منها الى أن الاطفال يعكسون الظاهرات والاحداث والشخصيات فى لعبهم وبصورة خلاقة . قدمت الباحثة للاطفال قصة عن طفل نشط محب للاستطلاع وطائر طيب نشط فى عمله ايضا . وكان الهدف أن يتبني الطفل فى لعبه دور الطفل البطل فى القصة ، وأن يعكس مضمون القصة فى لعبه . وقد اتضح ان الاطفال من سن ٥ ــ ٦ سنوات (ويبلغ عددهم ٩٠ طفلا) استطاع ٤٦ منهم أن ينقلوا مضمون القصة الى لعبهم ، ويثرونه بخبرتهم الشخصية ، وأن ١٥ من الاطفال استطاعو أن ينقلوا الى حد ما مضمون القصة فى لعبهم ، فى حين أن ٢٩ من الاطفال لم يستخدموا اطلاقا مضمون القصة فى لعبهم .

وفى المرحلة الثانية من هذه التجارب كانت تهدف الى اختبار أثر الاستشارة التربوية على تغيير العملية التى يعكس بها الاطفال مضمون القصة . ومن أساليب الاستشارة التربوية هذه : اعادة قراءة فقرات من نصوص القصة تكون ذات جاذبية أكثر بالنسبة للعب ، عمل محادثات مع الاطفال للوقوف على دوافع سلوك أبطال القصة . وقد أوضحت النتائج أنه اذا كان ٥٠٪ من الاطفال فى المرحله الاولى من هذه التجارب لم يعكسوا مضمون القصة فى لعبهم ، فانه بتأثير التنظيم والتوجيه التربويين لهذا النشاط من اللعب استطاع غالبية الاطفال أن يعكسوا ، بطرق مختلفة ، مضمون القصة ، ويلعبوا أدوارها فى لعبهم ، ويعبروا عنها فى انتاجهم . وتبين نتائج هذه الدراسات أيضا أن الذاكرة تثرى وتزداد سعتها وتكون فعالة اذا ما تجسد لعب الطفل فى أنشطة حية تستثير اهتمامامه . وبالاضافة الى ذلك ، فان تقمص الطفل لشخصيات مرغوبة فى القصة من ناحية ، وممارسته لادوارها وسلوكها من ناحية أخرى ، قد أديا الى تغيرات بنائية فى شخصية الطفل اجتماعيا وعاطفيا ، فقد صاروا أكثر صداقة وتعاونا وضبطا للذات ، الخ .

وهكذا ، اذا كانت نزعة الطفل الى اللعب تعبر عن حاجة أصيلة ، الا أن اللعب يصير وسيطا تربويا وخبرة مربية اذا ما خضع لاهداف تربوية محددة ، وتحقق فى اطار خبرات تربوية منظمة. فى هذه الحالة يصير اللعب مدخلا وظيفيا لتعلم فعال للاطفال .

٣ ــ للعب قيمة كلينيكية

(اللعب علاج)

ليس النمو فى كل الحالات خبرة باعثة على الارتياح فى نفوس الاطفال ، فالنمو ينطوى على تغيرات دينامية عديدة ، فى داخل الطفل وخارجه ، فى علاقته بنفسه ومع الوسط المحيط به . وقد تتضمن هذه التغيرات وبتأثير الضغوط والتوقعات الاجتماعية خبرات سلبية ، وهى ليست بقليلة ، قد يعانى منها الطفل ، ويتوتر بشأنها ، ويصطرع حيالها .

وتلعب اتجاهات الكبار ، وخاصة الوالدين والمعلمين ، وأساليبهما فى تربية الناشئة ، دورا كبيرا فى تكوين المخاوف فى حياة الاطفال ، وفى دفعهم الى مواقف باعثة على التوتر والصراع . فقد يفرط الاباء فى القسوة او التدليل اوالتذبذب فى تعاملهم مع الابناء ، وقد لا يكونون عادلين بين الابناء بسبب ترتيب ميلاد الطفل (كأن يفرقوا الابن الاكبر أو الاصغر بالعطف) او بسبب جنس الطفل (كمحاباة الطفل الولد) . وقد تؤدى أحداث معينة فى الاسرة الى تكدر انفعالى فى حياة الطفل ، مثل ميلاد طفل جديد ، او حدوث تصدع فى الكيان الاسرى ونظام حياته بالوفاة أو الطلاق ، او بسبب عدم الوفاق بين الزوجين . وقد يمر الطفل بخبرات غير سارة خارج نطاق أسرته ، فى المدرسة او مع رفاقه . وقد يلقى احباطا فى بعض المواقف حينما ترتطم أهدافه ببعض الصعوبات التي تعوقه عن تحقيقها .

تلك بعض عوامل النمو من المنظور السلبى . ولعلنا لانجانب الصواب اذا قررنا أن مايترتب عليها من خبرات سلبية كثيرا مايقع بشكل أو بآخر فى سياق عملية تطور نمو الاطفال. لذا ينبغي علينا كآباء ومربين أن نكون على وعي بالمصاحبات السلبية لهذه العملية ، وبكيفية تشخيصها وتدبر

علاجها ، وبأن ننمي فى الطفل من ناحية أخرى قدرة عالية على « تحمل الصعاب » و « مواجهة المشكلات » ، لأن الحياة الانسانية زاخرة بالصعاب والمشكلات .

الطفل بحاجة اذن الى « التخفف » من المخاوف والتوترات التى تخلقها الضغوط المفروضة عليه من بيئته، والاساليب غير الرشيدة فى تربية الأبناء . ومن الطرق الفعالة للعلاج النفسي فى هذا المجال ومع الاطفال خاصة مايعرف بطريقة « العلاج باللعب » أو « اللعب العلاجى » . play therapy . هذه القيمة العلاجية للعب قد تبينت من دراسات وبحوث عديدة :

فاللعب يساعد الطفل على التعبير عن انفعالاته (ميلليتشامب ، ١٩٥٣) . ويستخدم اللعب الخيالى كمخرج للقلق وللتوتر (سايموندس ، ١٩٤٦ ، آمين ورينيسون ، ١٩٥٤) . والكثير من الحاجات والرغبات التي لايتحقق لها الاشباع فى حياة الطفل اليومية يمكن أن تلقى اشباعا فى اللعب ، وبالتالى تقل الاحباطات التى يخبرها الطفل فى المواقف المختلفة . وفى خلال اللعب ، يتمكن الطفل غالبا من تكوين وتنفيذ خطط تساعده على حل مشكلاته التى تحمل أهمية كبيرة بالنسبة له فى حياته الخاصة (روجرسون ، ١٩٣٩ ، آكسلين، ١٩٤٧، ل.ب. ميرفى ، ١٩٤٧ ، ميتشيل وماسون ، ١٩٤٨ ، فرانك وهارتلى ، ١٩٥١ ، هارتلى ، ١٩٥٢ ؛ هارتلى وآخرون ، ١٩٥٢ ، جيرسيلد ، ١٩٥٤ ، وغيرهم كثير) .

ان الطفل فى انضوائه فى نشاط اللعب وتوحده مع أدواره يقوم بتحقيق عملية علاجية هامة وهى « تفريغ » رغباته المكبوتة ونزعاته العدوانية ومخاوفه وتوتراته واتجاهاته السلبية، و « نقلها » من داخله ، أى اخراجها من دفينة تكوينه النفسي ، الى الخارج ، اى الى اللعبة او ادوار اللعب .. فنراه أحيانا ينهر دميته بعنف، او يعاتبها بلهجة درامية مؤثرة ، وربما يحطمها بلا هوادة .

فى هذه العملية العلاجية يحدث هكذا « تصريف » ventilation للتراكمات السلبية فى حياة الطفل النفسية ، و « ازاحتها » عنه ، فلا تتدعم فيه أو تتاصل بداخله .

وتعتبر اساليب اللعب بالأدوار والتمثيليات الاجتماعية (السوسيودراما) ذات فعالية فى ترشيد العلاقات بين جماعات الاطفال والتلاميذ، وفى افصاحهم عن مخاوفهم واحباطاتهم حينما يدعون أنها تنتسب لغيرهم ، وفى الوعي بأنفسهم (شيسلو وفوكس ، ١٩٦٦) . ويؤدى اشتراك الاطفال فى المسرحيات النفسية الى تحسين تكيفهم مع انفسهم ومع الآخرين (روسينتال ، ١٩٥٢) .

ولا تعنى القيمة الكلينيكية للعب انها مجرد طريقة للعلاج ، ولكنها أيضا مدخل للتشخيص وطريقة لدراسة شخصية الطفل ومعرفة عالم الطفولة (ل.ب. ميرفي ، ١٩٥٦) والعلاج الناجح : ففي اللعب يكون الطفل على سجيته ، وتتكشف تلقائيا رغباته واتجاهاته ، ويتبين سلوكه على طبيعته : فها هو طفل يعنف دميته لأنها « لاتسمع كلام ماما » ويردد الكثير من الاوامر والنواهى التى تمطرها به أمه ، يكشف عن أسلوب « ضاغط » للتربية . وهنا يمكن تبين

« مصدر العلة » فى بعض اضطرابات الطفل الانفعالية كالعدوان او الكذب مثلا . وفى اللعب وادواره يتضح للعيان خصائص مميزة لبعض الاطفال كالطفل العصبى او الطفل المنطوى او الطفل العدوانى أو الطفل المسيطر أو الطفل المدلل ، وغير ذلك من نماذج الاطفال الذين يعكسون بدرجة كبيرة أساليب خاطئة فى تنشئتهم .

(٤) للعب الصغار قيمة أيضا بالنسبة للكبار

واذا كان اللعب يحمل تلك الاهمية البالغة بالنسبة للصغار ، فانه أيضا ذو قيمة عظيمة بالنسبة للكبار .

« **تعرفونهم من لعبهم** » ، ذلك مبدأ اساسي يمكن ان يفيد منه الكبار فى فهم الاطفال والدخول الى عالمهم المتميز . فمن خلال لعب الطفل يكتشف الكبار الكثير من الاشياء عنه ، لايستطيعون التوصل اليها بأية طريقة أخرى لما يتصف به لعب الاطفال من خصائص مميزة كما ذكرنا من قبل . فاللعب بالدمى يزود الكبار بمعلومات عن بيئة الطفل والاتجاهات التى كان هو موضوعا لها ، والأساليب التى تربى بها ، وتأثير هذه الخبرات المبكرة عليه ، وخاصة المترتبة على اتجاهات والديه نحوه (وينستيت ، ١٩٥١) . ويتعلم الكبار كيف يعقد الطفل علاقاته مع الاطفال الآخرين ، ويقفون الى حد كبير عن مفهومه عن نفسه ، وذلك من ملاحظة لعبه مع غيره من الاطفال (اكسلين ، ١٩٤٧ ، ١٩٥١) . وقد ثبت أن الرسوم التلقائية او الرسوم المعبرة عن موضوعات انسانية تكشف بجلاء عن توافقات الطفل مع الناس ، وعن ادراكه لذاته فى علاقته بالآخرين (باش ، ١٩٤٥ ، ماكوفر ، ١٩٤٩ ، ميرى وميرى ، ١٩٥٠ ، جيرسيلد ، ١٩٥٤) .

ومن أنشطة اللعب يكتشف الكبار مواهب الاطفال وقدراتهم وابتكاريتهم منذ سن مبكرة ، وبالتالى يمكن رعاية هذه الامكانات وتعهدها بالتنمية منذ السنوات التكوينية الأولى ، فلا يحدث « فاقد فى الابتكار » مع تطور نمو الطفل (تورانس ، ١٩٦٢ ، ١٩٦٥) .

ويعرف الكبار انفسهم ايضا من خلال لعب الاطفال ــ فيمكننا أن نشبه لعب الاطفال باشكاله المختلفة كمرآة تعكس خصائص سلوك الطفل ومكونات شخصيته كمترتبات ناتجة عن أساليب الكبار ، وخاصة الوالدين ، فى تربية الابناء وعن الممارسات الوالدية فى الأسرة وما يخلقونه من جو اجتماعى نفسى فى نظام الحياة الأسرية . فالطفل السوي ، وفى مقابلة الطفل المشكل ، دالة بدرجة كبيرة لحياة الكبار مع الاطفال ، ولأسلوبهم فى تنشئتهم لهم وتوجيه نموهم . هنا قد يستطيع الآباء خاصة والكبار عامة أن يعيدوا النظر فى أنفسهم من خلال تبصرهم باتجاهاتهم نحو ابنائهم ، فيسعون الى ترشيد هذه الاتجاهات والممارسات الوالدية ، أو الى التخفيف من « وطأة » الضغط على الطفل . فقد يكتشف الوالدان ، مثلا ، وجود انفعالات سلبية لدى ابنائهم كالغيرة أو العدوان نحو أحد اخوتهم ، وذلك بسبب عدم العدالة فى المعاملة ، أو بسبب عدم وعي الوالدين بسلوكهما الذى قد يؤدى الى مثل هذه السلبيات فى حياة الاطفال النفسية بل ان ما قد يتكشف من دلائل تنذر بالعصف بالنمو السوى لطفلهم ، ربما تجعل الآباء يعيدون النظر وبشكل جذرى فى فلسفتهم فى الحياة وفى أسلوبهم فيها .

وكم يتعلم الآباء من الابناء !! وما اعظم هذا التعلم !! اليس فى حياة الطفولة وسلوك الأبناء توجيــه للوالدين وترشيد لأســلوب حياتهما ؟ اليس فى تربية الآباء للأبناء اعادة تربية للآباء ؟

فى لعب الابناء ، ان شئنا ، علاج للآباء ـ فكم هو محبب الى نفس الطفل أن يجد والديه فى بعض الاحيان يشــاركانه لعبه ولهــوه ؟ وفى مشاركة الآباء للأبناء لعبهم تقريب بين عالم الكبار وعالم الصغار ، وتقليل للهوة بين هذين العالمين ؛ وزيادة للفهم المتبادل بينهما . وفى مشاركتهم اطفالهم لعبهم ، يخبر الآباء « تجديدا للنفس » ؛ اذ يقتربون من الطفولة .. من البراءة والنقاء .. وفى هذا « علاج نفسى غير مباشر » للوالدين وللكبــار .. و « تصافـ » مــع النفس حينما تقترب من صفاء الطفولة حيث يدركون « اصالة » النفس الانسانية كما تتجلى فى طفولتها ، ويقفون على ماقد تكون قد انتهت اليه حياتهم فى الرشد من تحريف لهذه الأصالة بتأثير عوامل الضغط والصراع فى البيئة .

ولعل هذا يدعونا الى أن نتبصر وجهة نظر العالم الامريكى أ . ماسلو (١٩٥٤ ــ ١٩٧٠ ، ص ٢٢٣) التى تؤكد على أن الخاصية الأساسية المميزة للطبيعة الانسانية العامة هى « الابداع » بكل ماتحمله هذه الكلمة من معنى ، فهو الجوهر المتأصل فى الطفل منذ الميلاد بحكم كونه انسانا. لكنه قد يفقد هذا الجوهر بتأثير عوامل ثقافية غير مواتية قد يخضع لها فى تطور نموه من مرحلة لاخرى ، ومع ذلك ، فهو قابل ايضا لاستعادة هذا الجوهر اذا ماخضع لمنبهات ثقافية ملائمة.

● ● ●

انواع اللعب عند الاطفال

انشطة اللعب فى الطفولــة متنوعة ــ فى شكلها ، ومضمونها ، وطريقتها . ويتوقف هذا التنوع على مستويات وخصائص نمو الاطفال فى الاعمار المختلفــة ، اســتجابة لمطالــب النمو واحتياجات الطفولة فى كل مرحلة من مراحل النمــو . ويعكس هــذا التنــوع أيضا الظروف البيئية والثقافيــة والاجتماعيــة فى الوســط المحيط بالطفــل . ويمكننــا تصنيف أشكال أو نماذج اللعب عند الاطفال الى الفئات التالية :

(١) الالعاب التلقائية

وهى تتمثل فى الاشكال الاوليــة للعب ، حيث يبدو نشاط الطفل حرا تلقائيا . ويتصف هذا النموذج من نشاط اللعب بغياب القواعد والمبادى المنظمة للعب ، لذا يكون فى معظمه لعبا انفراديا وليس اجتماعيا . فى هذا النشـاط يلعب الطفل كلما رغب فى اللعب ، ويتوقف عنه حينما لايبقى مهتما به .

وهذا النوع من اللعب يكــون فى معظمه استقصائيا ، استكشافيا ، فيــه يخبر الطفل بهجة عارمة من استثارة أعضاء الحس لديه ، وبالتالى يخبر احساسات مختلفة فى البداية يكون معظم لعبه بأطرافه ، وفى حوالى سن الثلاثة شهور ينمو التحكم فى اليدين بدرجة كافية تمكنه من اللعب بالدمى أو بأيــة أشياء أخــرى تكون فى متناوله . وهــو يأخذ فى تكشف هــذه اللعب

والاشياء المختلفــة الموجودة فى مجاله الحسى المباشر بواسطة المص والجذب والتلويح بها . ويتضمن اللعب التلقائى الحر استخدام الدمى، وان كانت غير ضرورية فى هذه المرحلة .

وينزع الطفل فى هذه المرحلة الاستقصائية للعب الى التدمير ، بسبب نقص الاتزان الحسى الحركي لديــه . فهو يجذب الدمى أو الاشياء بعنف ، وقد يلقى بها بعيدا . وعند نهاية العام الثانى تقريبا من عمر الطفل ، يتحول اهتمامه الى اشكال اكثر تقدما وتعقيدا ، وان كان يعود من وقت لآخر الى هذا المستوى من اللعب . الاانه مع تطور نموه يصير هذا الشكل من اللعب اقل تلبية لحاجاته النامية ، وبالتالى يتخلى عنها بالتدريج لكي يفسح المجال أمام أشكال اخرى .

(٢) الالعاب التمثيلية (اللعب بالادوار)

يتمثل هذا النوع مــن نشــاط اللعب فى تقمص الطفل لشخصيات الكبار او الاشخاص الآخرين كما تتضح من انماط سلوكهم وأساليبهم المميزة فى الحيــاة ، التى يدركها الطفل عيانيا وينفعل بها وجدانيا . فى هذا اللعب يعكس الطفل نماذج الحياة الانسانية والمادية ، المحيطة به ، وينمى مضمونا للعب . أى أن هذا النموذج من اللعب ينشأ استجابة لانطباعات انفعالية قويــة يتأثر فيها بنماذج من الحياة فى الوسط المحيط بــه .

وتنطوى الالعاب التمثيلية فى أصلها علــى الكثير من الخيال عند الاطفال . وفى هذا يكمن المغزى الابداعى لهذه الالعاب ، التى يطلق عليها ((الالعاب الابداعية)) . ويتفق هذا مع مايطرحه « تورانس » (١٩٦١) مــن تصورات ونتائــج لدراساته فى ميدان الابتكار ، خاصة من المدخل التربوى الذى يتبناه لتنمية الابتكار عند الاطفال: فالكثير مما يتعلمه الاطفــال فى سن ماقبــل المدرسة يقوم على الخيال والتخمين والتساؤلات والاستفسارات والتنقيب والاستكشــاف ، وهو مايعكسه فى أدوار اللعب التى يعيشها بالخيال غالبا وبالواقع أحيانا .

من اللعب الايهامى الى التمثيل الواقعى :

« اللعب الايهامى » makebelieve play أو « لعب التوهم » game of illusion ــ شكل شائع للعب فى الطفولة المبكرة ، فيــه يتعامل الطفل ــ من خــلال اللغة أو الســلوك الصريح ــ مع المواد أو المواقف كما لو انها تحمل خصائص أكثر مما تصف به فى الواقع، فيه يعمل الطفل مع « اى خيط كما لو أنه يخصه ذاته » ويضفى الحياة (الاحيائية animism) على الاشياء المختلفة التى يلعب بها ، كأن تكون العصا حصانا مثلا . (ك . بوهلر ، ١٩٣٠) .

يبدأ تمثيل الشخصيات dramatic impresonation لدى الاطفال مبكرا فى حوالى سن العام تقريبا ، رغم ان الفترة العادية لظهور هذا الشكل من اللعب تقع بين سن العام والنصف الى العامين من عمر الطفل (جيرسيلد ، ١٩٥٤) . ويتعلم الاطفال كثيرا فى لعبهم الايهامى من الاطفال الاكبر سنا ، وخاصة الاخوة . كما يؤدى وجود الطفل وسط مجموعة من الاطفــال متباينة فى اعمارها الى تعلم سلوك خيالى أكثر مما لو كان الطفل يعيش وسط مجموعة متجانسة من حيث السن والجنس ، لأن الاطفــال الاصغر سنا يتعلمون بالمحاكاة مــن الاطفــال الاكبر سنا فى المجموعة (ماركى ، ١٩٣٥) .

هذا اللعب التمثيلي الخيالى يحقق وظائف كثيرة فى حياة الطفل : منها تنمية قدرة الطفل على تجاوز حدودة الواقعية ، وعلى أن يذهب الى ماوراء القيود التى يفرضها الواقع ، وتنمية القدرة على تحقيق رغباته بطريقة تعويضية ، والقدرة على تخليص نفسه من الضيق والسخط والغضب ، وعلى استبعاد أو مغالبة الظروف التى تزعجه أو تخذله فى حياته الواقعية (جيرسيلد ، ١٩٥٤) . وقد لوحظ أنه بقدرمايخبر الطفل احباطات قوية كثيرة ، يكون انضواؤه فى لعب ايهامى . لذا كثيرا ما يأتى الطفل السيء التكيف بألعاب ايهامية أكثر من الطفل المتكيف (سيموندس ، ١٩٤٦) . وفى هذا تبين ملاحظات بعض الباحثين (آمين ورينيسون ، ١٩٥٤) أن الاطفال الذين يبدون بمستويات عالية من القلق ، يقضون وقتا أكبر فى اللعب الايهامى . فالطفل فى اللعب ــ كما تبين دراسات « بيلر » (١٩٥٢) ــ يدعى أن يكون هناك شخص يحبه ويعجب به ويرغب فى أن يضاهيه ، ويختلق مواقف يحاول فيها ان يكون بصورة أفضل تلقى « استحسان » الكبار وخاصة الوالدين .

ويتبع اللعب الايهامى نسقا نمائيا محددا : فقد لاحظ « ماركى » (١٩٣٥) أن الاطفال قبل سن ثلاث سنوات قد اظهروا اهتماما مسيطرا بالاشكال التالية من اللعب الايهامى : (أ) **اضفاء صفات شخصية على الأشياء** personification كالتكلم مع الدمى أو الاشياء غير الحية ، او كالألعاب التى تتضمن مخلوقات يتخيلها الطفل مثل « العفريت » أو « البعبع » ، (ب) **الاستخدام الايهامى للمواد** make-believe use of materials ، كالتسمية التخيلية للأشياء مثل تسميته للعصا حصانا ، او كالسلوك التخيلى الصريح البسيط مثل تناوله كوبا فارغا لكى يشرب منه ، (جـ) **المواقف الايهامية** make-believe situations ، التى تتضمن استخداما معقدا للمواد كبنائهم لمنزل . وفى معظم الحالات يرتبط لعبهم بالمواد الموجودة امامهم فى مجالهم الحسى العيانى المباشر . وبعد سن الثلاث سنوات ، يصير الاستخدام الايهامى للمواد هو أكثر الانشطة التخيلية المميزة للعب فى هذه الفترة . وكلما تطور نمو الطفل ، يزداد استخدامه للمواد بطرق اكثر تعقيدا ، كأن يستخدم الرمل فى بناء نفق بدلا من مجرد حفره بجاروف . وبالاضافة الى ذلك ، يأخذ الطفل فى الاشتراك فى لعب يتضمن المواقف الايهامية ، والانشطة التركيبية من مواد خام ، والألعاب التمثيلية الأخرى .

ويأخذ اللعب الايهامى اشكالا مختلفة : فهذا النوع من اللعب مرآة للثقافة السائدة فى مجتمع الاطفال ، من حيث انه يعكس بالتمثيل الاحداث الجارية فى حياتهم اليومية . وكل شيء يسمعه الطفل أو يراه يكرره بالمحاكاة فى لعبه (ك . بوهلر ، ١٩٣٠) . ولا يعبر اللعب بالمحاكاة عن ثقافة المجتمع الذى يعيش فيه الطفل فحسب ، وانما يعكس أيضا روح العصر الذى ينمو فيه الطفل . فالاطفال فى ظروف الحرب العالمية الثانية ، مثلا ، كانوا يلعبون بأشياء تخيلية تتضمن الجنود والدبابات والمدافع والطائرات ، وغير ذلك من الأنشطة التى ترتبط بالحرب ومواده ومواقفه (جاريسون ، ١٩٥٢) . وفى عالمنا المعاصر ، كثيرا مايستخدم الاطفال فى لعبهم نماذج تعبر عن مركبات الفضاء وارتياده ، وعن الكثير من مظاهر التكنولوجيا المعاصرة

ويمكن أن نحدد المظاهر التالية كأشكال للعب التخيلى الايهامى (ميرفى ، ١٩٣٧) : (١) الموضوعات المنزلية ، كبناء منزل ، تأثيث منزل ، الطبخ ، تناول الطعام ، عمل حفلة شاى ، رعاية

الاطفال الصغار ، او أن يعملوا كآباء وأمهات ،أو كعريس وعروسة ، (٢) البيع والشراء . (٣) الانشطة المتصلة بالمواصلات ، مثل ركوب سيارة أو قطار ، او أن يكون الطفل مهندسا ، أو بحارا في سفينة ، أو طيارا يحلق بالطائرة (٤) توقيع العقاب ، كأن يلعب رجل شرطة يوقع العقاب على المخالفين ، (٥) اشعال الحرائق واللعب كرجال اطفاء ، (٦) القتل والموت ، (٧) لعب ادوار أشخاص خياليين مثل بابا نويل أو سندريلا ، أو غير ذلك مما هو شائع في بيئة الطفل من شخصيات خرافية . ويمثل « اللعب منزلا »نشاطا مرغوبا لدى الاطفال في سن ماقبل المدرسة ، يتضمن غالبا انشطة معقدة مثل الجلوس الى المائدة بنظام ، استدعاء الطبيب المريض ، او ايواء الدمية الى الفراش (بارتن ، ١٩٣٣) . ويميل الاطفال الاكبر سنا الى تمثيل القصص التى يسمعونها او يقرأون عنها ، أو يشاهدونها فى التلفزيون ، فبدلا من أن يلعبوا ادوار الشخصيات المعتادة فى الحياة اليومية ، فانهم يقومون بأدوار الجان او الهنود الحمر او طرزان أو « كاوبوى » ، ... الخ .

وينزع الطفل الى تمثيل هذه الادوار بدقة تبعث على الدهشة ، فحتى نبرة الصوت يستطيع أن يحاكيها بالضبط . ولكن الطفل ، من ناحية اخرى ، كثيرا مايضيف الى هذه الادوار خلقا وابداعا من عنده ، فتأتى الادوار بمناذج جديدة تعكس خبرات الطفل ورغباته . وكلما اخذ الطفل فى النمو ، يصير بالتدريج بجانب ذلك اكثر اهتماما بالتفاصيل التي يعكسها فى تمثيل الادوار ، واكثر ارتباطا بالواقع الذى يعبر عنه .

بذلك لاتقتصر الالعاب التمثيلية على نماذج الالعاب الخيالية الايهاميه فحسب ، ولكنها تشمل ايضا ، ومع تطور نمو الطفل ، العابا تمثيلية واقعية ، تتضح فى النشاط المنظم للتمثيل فى المدارس ، وفيما يقوم به الاطفال من روايات . ولعل الصحية التربوية التى تنادى بضرورة العمل على «مسرحية المناهج الدراسية» تنشد الافادة من المضمون النفسي للعب بالادوار وتوظيفه فى استيعاب أفضل للمواد الدراسية يرجى منه نمو للطفل ككل .

ورغم أن التطور الطبيعى للألعاب التمثيلية يبدو أنها تتجه باستمرار نحو الارتباط بالواقع والتعبير عنه ، الا اننا كمربين ينبغي الا نجعلها « واقعا محضا فحسب » فتصير جافة غير مشوقة ، بل علينا أن نشجع فيها ايضا ذاتية الطفل وما تأتى به مواهبه من خلق وابداع متفردين . بهذا يتلاقي الخيال مع الواقع فى نشاط خصب حي .

(٣) الالعاب التركيبية

يعتبر الاهتمام بالتركيب او البناء construction جانبا هاما من لعب الاطفال . هذا الشكل من اللعب كثيرا ما يكون حتى سن الخامسة او السادسة موضعا للصدفة . فالطفل يضع الاشياء بجوار بعضها justaposition بدون خطة مسبقة ، واذا حدث بالصدفة أن صارت هذه الاشياء تمثل نموذجا مألوفا فانه يبتهج لما حققه . ومن السادسة تقريبا يلجأ الاطفال الى استخدام المواد بطريقة محددة وملائمة فى البناء والتشييد . ولا يكون لعب الطفل ابداعيا اذا كان واقعيا للغاية أو خياليا مفرطا فى خياله . ومع تطور النمو ، تنمو قدرة الطفل على التمييز بين الواقع والخيال . ثم يصبح اللعب اقل ايهامية واكثر بنائية . وفى ذلك يختلف الاطفال بشكل واضح فى قدرتهم على البناء والتركيب (م . فرنون ، ١٩٤٨) .

ويأخذ اللعب التركيبى البنائي constructive play اشكالا مختلفة ، فالنماذج الاولى من هذا اللعب تتالف من عمل عجينة من الطين ، جبال او انفاق من الرمل ، واللعب بالمكعبات والخرز والمقصات والطين الصلصال والالوان والطباشير واقلام الشمع ومواد القص واللصق ، الخ ويستخدم الطفل هذه المواد والادوات لعمل اشياء لها معنى محدد ، ويمكن ان يتعرف عليها بهذا المعنى . فى بناء المكعبات ، مثلا ، يعطى الاطفال ، بعد العام الثاني تقريبا ، اسماء لما يكونونه من نماذج مثل منزل أو قارب ، الخ . ويكون بناء المكعبات بعد العام الثالث ، متسقا مع اللعب التمثيلى (جوانيللا ، ١٩٣٤) .

ويعتبر اللعب التركيبى من المظاهر المميزة لنشاط اللعب فى مرحلة الطفولة المتاخرة (١٠ ـ ١٢ سنة) ، ويتضح فى بناء الخيم والالعاب المنزلية والاكواخ ، وعمل نماذج من الطين الصلصال وتشييد السدود والخزانات . يأخذ هذا اللعب عند الاولاد بصفة عامة شكل العمل المتعدد الخشن ويتحقق ارتباطا بلعبهم خارج المنزل ، أما فى حالة البنات فيأخذ اللعب التركيبى شكلا رقيقا محددا يتضح فى عمل دمى من الورق أو عمل ملابس لها ، وفى الرسوم والتلوين ، وعمل نماذج من الصلصال . وبالنسبة لبناء المكعبات ، تميل البنات الى تشكيل مناظر اكثر هدوءا للحياة اليومية وخاصة تلك التى تدور حول المنزل أو المدرسة ، اما فى حالة الاولاد فيكون بناؤهم للمكعبات اكثر تنوعا فى طرقه ويركزون اكثر على المناظر خارج المنزل (اريكسون ، ١٩٥١) . اذن فى هذا السن ، فان هذه الالعاب ينبغى أن تعتبر وبسبب ميل الاطفال الى العاب التشييد والبناء احد أوجه النشاط فى المعسكرات التى يقوم بها الاطفال فى هذا السن .

ومن الالعاب التركيبية الانشائية **جمع الاشياء** ، وهو نشاط يتضح لدى الاطفال منذ سن الثالثة ، حينما يبدون رغبة فى ان يقوموا بجمع أشياء تستثير اهتمامهم فى موقف معين . هذه الاشياء غالبا ما تكون فى مرحلة الطفولة المبكرة بغير ذات قيمة . فحالما يجمعونها ، فانهم قد ينسونها او يعطونها اهتماما قليلا . وقد يضعونها فى جيوبهم أو فى مكان معين بحجرة اللعب ثم يطويها النسيان . ولكن منذ سن السادسة حتى المراهقة يتملك الاطفال ميل قوى الى القيام بنشاط جمع الاشياء والواقع أن هذا النشاط محبب للغاية لدى الاولاد فى هذه السنوات ، رغم أن البنات يجمعن اشياء أكثر من البنين (دروست ، ١٩٣٢) . وينزع الاطفال الاكبر سنا الى حفظ الاشياء المتجمعة فى أماكن خاصة حتى لا تتلف او تضيع ، كالبدروم او القبو او الصناديق او السلال او المكاتب وغير ذلك . ويصير الاطفال مع العمر اكثر انتقائية فى اختيارهم للاشياء ، فيجمعون اشياء قليلة ذات جاذبية اكبر . ويميل الاولاد فى كل الاعمار الى جمع اشياء متعددة مختلفة اكثر من البنات (هوايتلى ، ١٩٢٩) .

والواقع او الاباء والمعلمين ينبغى ان يعملوا على توجيه نشاط جمع الاشياء كنموذج من الالعاب التركيبية البنائية ، كنشاط تربوى ينتقل فيه الطفل من مجرد نزعة الى الجمع والاقتناء ، الى معالجة الاشياء على اساس من التعرف على خصائصها وادارة مناقشات وتساؤلات عن طبيعة ما يجمعونه من مواد ، واستكمال جمع اشياء تنتمى الى نفس فئتها . وفى هذا النشاط المنظم الهادف يقوم الطفل بعمليات عقلية ، كالفرز والتصنيف وعمل

المعارض او حتى المتاحف لما قاموا بجمعه ، وعمل رسوم وقصص عنها ، وغير ذلك من تعدد الانشطة البنائية .

وقد وفرت التكنولوجيا المعاصرة تأسيسا على الاهتمام بلعب الاطفال ، الكثير من الالعاب التركيبية ، وتتبارى المصانع والمؤسسات في ذلك : مثل نماذج الاشياء التى تقوم على الفك والتركيب ، وبناء قطع وأشكال بنماذج وطرق مختلفة ، كبناء منزل أو مستشفى او مدرسة ، وتصميم اشكال معبرة من مواد متعددة فى الحجم واللون ، ونماذج السيارات والقطارات والسفن والآلات وتركيبها الداخلى وكيفية تشغيلها . وتجرى صناعة ادوات اللعب هذه من مواد مختلفة كالمعادن او البلاستيك او الخشب اوالجلد ، الخ .

فى كل هذه الاشكال المختلفة ، يتصف اللعب التركيبى بخاصية اساسية وهى أن عالم الظاهرات المحيطة بنا يعكسه الطفل فى نواتج مادية ، مثل تشكيل آلة من اجزاء مختلفة ، وعمل مبنى ، أو رسوم تعبيرية . وينطوى الكثير من الالعاب التركيبية على استثارة لقدرات الطفل العقلية والمعرفية ، وعلى تكوين مهارات حركية لدية ، كما يمكن ربط هذا النوع من اللعب بأشكال اللعب المختلفة .

(٤) الالعاب الفنية

رغم ان الانشطة التعبيرية كالرسم والزخرفة والنحت والتصوير والموسيقى والرقص والغناء والاشغال اليدوية تدخل غالبا فى نطاق الالعاب التركيبية ، الا اننا قد رأينا أن نجعلها فئة متميزة تعرف بالالعاب الفنية التى تختلف فى جوهرها عن الالعاب التركيبية . فهى نشاط تعبيرى فنى جمالي ينبع أكثر من الوجدان والتذوق الجمالى والاحساسات الفنية ، بينما يعتمد التركيب اكثر على شحذ الطاقات العقلية المعرفية لدى الطفل ، وسوف نقتصر فيما يلي على مثال من الالعاب الفنية .

رسوم الاطفال :

وهى احد الانشطة الاكثر تعبيرا عن التألق الابداعى عند الاطفال فالطفل الصغير ، وان كان لا يستطيع الرسم حقيقة بسبب نقص اتزانه العضلى ، الا أنه يحظى ببهجة عارمة من « الخربشة » أو «الشخبطة » scribling التى يعملها بقلم او باصبع من الطباشير ، ويعبر بها عن حركات فجة وبلا هدف غالبا . ويعنى الرسم بالنسبة للطفل ، وسيلة للتعبير اكثر منها وسيلة لتكوين صور وأشكال جمالية . ويعتبر الناتج النهائي أقل اهمية بكثير من تكوين هذا الناتج . وكلما صار ادراك الطفل اكثر قدرة على التمييز ، فان ثقته فى قدرته على الرسم تأخذ فى التناقص (جيزل وتومسون ، ١٩٣٤) .

والرسم تعبير عما يتجلى فى عقل الطفل لحظة هذا النشاط . وتكون رسومه الاولى « رمزية » ، وليست بنسخ مباشرة للاشياء . وهو يرسم الاشياء كما تجود بها ذاكرته ، ولكنه لا يهتم بالمنظور او النسب او العلاقات . وهو يحشد من التفاصيل ما يثير اهتماماته ، كان

يضع الازرار على السترة بينما يغفل مكونات ضرورية مثل جسم الرجل . وكلما صار الطفل اكثر نضجا ، يقوم من ناحية برسم « كروكى » للاشياء من ذاكرته ، ومن ملاحظاته المباشرة لها من ناحية اخرى . ويحاول الطفل ، منذ سن السادسة تقريبا ، أن يستنسخ ما يراه فى رسومه ويبدأ فى النظر اليها بدقة واضعا فى الاعتبار الحجم والمنظور وصحة التفاصيل . وحينما يصل الطفل الى سن الثماني سنوات تقريبا ، يكون الرسم المنظورى قد نما لديه جيدا (ليروى ، ١٩٥١) . وبعد هذا السن ، يتناقض ، بل ويندرق الغالب ما يعرف بشفافية الرسم transparency

، الذى يبدو فيه رسم الطفل لشىء أولشخص كما لو أننا نراه فى صورة بالاشعة (ليروى ، ١٩٥٠) . الا انه سرعان ما تختفى أصالة الطفل فى التعبير بالرسم ، عدا حالات الاطفال الموهوبين (كابى ، ١٩٤٧) . ويبدى الاطفال الصغار اهتماما باللون أكثر مما يفعل الاطفال الاكبر سنا الذين يهتمون بالشكل . ويستخدم الطفل الصغير اصابع الطباشير او الالوان الشمع اساسا فى رسمه ، بينما يميل الطفل الاكبر الى الرسم بالقلم .

وتذخر العاب الاطفال بالكثير من نماذج الانشطة الابداعية التى تتمثل فى استخدام أقلام الالوان والطباشير ، التى تسير بنفس الخط النمائي الذى يأخذه نمو رسوم الاطفال . فى سن العامين يبدأ الطفل فى تجربة أقلام التلوين ، وفى الثالثة يمكنه ان يتحكم فى استخدامها ، وفى الرابعة يدخل الخيال فى انشطته ، وفى الخامسة يبدأ فى ان يكون واعيا بذاته فى عمله (جيزل وآخرون ، ١٩٤٠) . ويأتى استخدام الطفل للالوان المائية بعد استخدامه لاقلام التلوين بفترة قصير . والرسم بالالوان المائية شكل شائع للتعبير عن الذات ، ويبتهج الطفل كثيرا من تغطيته لصفحات الورق بالوان زاهية ، يختارها ويؤلف بينها بدون اشراف او تدخل من الكبار . ويسعد الاطفال كثير بالرسم والتلوين بالاصابع .

واعتبارا من سن السادسة تقريبا ، يتمثل التعبير الاكبر فى الرسم فى العمل على اتقان رسم « الارضية » التى يجسد عليها موضوعات رسمه (بل ، ١٩٥٢) . يتضح هذا فى حالة استكمال الطفل لرسوم ناقصة او رسمه لموضوع كامل . فالرسم الناقص لرجل ، مثلا ، يمكن أن يعجل باضافة اجزاء الرسم ، ولكنه لا يفسد النظام الذى تبدو به الاجزاء . وفى الرسم الحر تبدو العينان فى الرأس اولا ، ويميلان الى الظهور فى استكمال الرسوم قبل اية تفاصيل أخرى ، حتى ولو كان المطلوب هو استكمال الذراعين او القدمين وليس العينين (آمز ، ١٩٤٥) .

وتأخذ رسوم الاطفال للاشكال البسيطة ، كالدوائر والمربعات والمثلثات ، خطا نمائيا مشابها ، كما يتبين من ملاحظات « جيزل وآمز » « ١٩٤٦ » . وحينما يكون تصميم الرسم صعبا على الطفل الصغير اذا أراد أن يستنسخه ، فانه يميل الى تبسيط الرسم وفقا لمبادىء معينة : كأن يستبدل تصميما له معنى بتصميم يختفى منه المعنى ، وأن يوحد و « يغلق » التصميم ، وأن يدخل الائتلاف او التماثل او النسب المألوفة حينما لا توجد فى التصميم . وهناك ميل الى تقصير المستطيل ، والى تربيع أى شىء له زوايا ، والى استبدال الدائرة بأى تصميم يقترب من الاستدارة ، والى توسيع الزوايا والى التبسيط ككل عن طريق الغاء التفاصيل . « فالميل هنا — كما تقرر » هيلدريث « (١٩٤٤) من ملاحظاتها — موجه نحو استجابة أكثر

اعتيادية وبدائية ، تتمخض عن اقتصاد عقلــى mental economy وعن جهد اقــل » ويمــيل الطفل الى التعبير عن رسومه فى « كليات » ،حتى حينما ينقصها الكثير من الاجزاء (هبلدرث ، ١٩٤٤) . وتأخذ رسوم الاطفال الصغار شكلا مبعثرا على الورقة بطريقة عشوائية ، ولكنــه يميل ، كلما اخذ فى النمو ، الى تجميع الرسوم المنفصلة فى وحدات كلية (بارنهارت ، ١٩٤٢) .

ولما كان الطفل يرسم اساسا من وحــى الانطباعات والآثار المخزونة فى الذاكرة ومما تجود به سعة ذاكرته وفاعليتها ، فان رســومه عادة ماتكون غير دقيقة وغير مكتملة . ويتضح هذا فى النقص الملحوظ فى النسب كما نراه فى رسمهم للاشخاص حيث يبدو الراس اكبر غالبا مــن الجذع ، كما يكون جامدا وغير معبر .

ويتبع الطفل نموذجا نمطيا فى رسمه لكل الانسان ولكن باجسام وبارجل اربع كالحيوانات. فغالبا مايرسم الحيوانات برؤوس كراس الانسان ولكن باجســام وبارجــل اربع كالحيوانات . ومن مميزات رسوم الاطفال الصغار الشفافية، فتبدو الحجرات مثلا من خلال الجدران . ولكن فى حوالى السادسة أو السابعة من عمر الطفل تصير رسوم الاطفال عبارة عن تراكيب تتضمن علاقة بين الأجزاء المختلفة (جود انف وهاريس، ١٩٥٠ ، ميرى وميرى ، ١٩٥٠) . وحينما يرسم الاطفال بطريقة تلقائية ، فمن غير المعتاد لديهم أن يرسموا أى شيء غريب او شاذ ، رغم ان الكثير من رسومهم قد تبــدو بالنسبة للكبار ، « كاريكاتورية » (جيزل ، ١٩٢٨) .

ويعبر الاطفال فى رسومهم عن موضوعات مختلفة ، تخضع للتغير من سن لآخر . فالاطفال الصغار يعبرون عادة عن أشياء واشخاص ومنازل وحيوانات مالوفة ، ويتضح الشكل الانساني اكثر فى الرسوم . وتذخر رسومهم أيضا بالمنازل والاشجار ، بينما تقل الحيوانات فى رسومهم . ويحــب الاطفــال الالوان فى رســومهم ، رغم استخدامهم لها بطريقــة غير ملائمة . ومعظم رسومهم نمطيــة ، والزخرفة غــير متســقة ، والنسب غير متوازنة .

ومع تطور نمو الاطفال ، يصيرون اكثر تركيزا على رســوم الالآت والتصميمات وتقل الرســوم ذات الشــكل الانســانى . ويتزايد الاهتمام برســوم الحيوانات والمنازل والازهــار والاشجار (هورلوك وتومسون ، ١٩٣٤ ، هيوز وستوكديل ، ١٩٤٠ ، الكيش ، ١٩٥٢) . وكثيرا ما يلجأ الاطفال الاكبر سنا الى رسم مناظر هزلية تعبر عن موضوعات ومواقف مختلفة (ويتى ، ١٩٤١ ، ١٩٤١ أ) .

وتتضح الفروق بين الجنسين فى رسوم الاطفال منــذ فترة مبكرة . فالاولاد يرسمون الاشكال الانسانية أقل مــن البنات ، ولكنهم افضل من البنات فى مراعاة النسب الجسمية. وتميل البنات اكثر الى زخرفة رسومهن المعبرة عن اشكال انسانية . ويميل الاطفال اكثر بين سن الخامســة والحادية عشرة ، الى رسم الاشخاص من نفس جنسهم . ولكن من الحادية او الثانية عشرة ، تبدأ البنات فى رسم اشكال تعبر أكثر عن الجنس الآخر . ومع ذلك ، فان الوعــى بالفروق الجنسية يتضح فى خصائص تعبيرية مثل الشعر والملابس وتعبيرات الوجه منذ حوالي السادسة من عمر الطفل . ويتضح فى رسوم البنات الميل الى رسم الاشخاص بوجوه مكتملة اكثر غالبا مما يفعل الاولاد الذين يرسمون صورا جانبية للوجه (بروفيل) . وتزخر رسوم

الاولاد بالطائرات والدبابات ومناظر المعارك ،بينما تندر هذه فى رسوم البنات . ويميل الاولاد الى رسم الآلات اكثر من البنات (جود انف ١٩٢٦، ويبدر ونوللر ، ١٩٥٠ ، جولز ، ١٩٥٢) .

ويعكس الاطفال ، الذين ينتمون الى أسرذات مستويات اجتماعية اقتصادية عالية ، فى رسومهم تفاصيل أكثر من الاطفال الذين من نفس عمرهم ولكن من مستويات أقل (ويبدو ونوللر ، ١٩٥٠) . كذلك يؤثر مستوى ذكاء الطفل على نوعية رسومه وعلى الموضوع الذى يعبر عنه (جود انف ، ١٩٢٦ ، آمز ، ١٩٤٥). لذا يستخدم الرسم كطريقة لقياس ذكاء الطفل. « اختبار رسم الرجل لجود انف » .

(٥) الالعاب الترويحية والرياضية

يعيش الاطفال انشطة اخرى من الالعاب الترويحية والبدنية ، يسعدون لها اكثرا . وتنعكس بايجابية تامة على كافة جوانب شخصيتهم . فمنذ النصف الثاني من العام الاول من حياة الطفل ، يبدأ فى الانجداب الى بعض الالعاب البسيطة التى يشار اليها غالبا على أنها « ألعاب الأم » mother games ،لأن الطفل يلعبها غالبا مع الأم .

وتخبر الطفولة انتقال نماذج من الالعاب من جيل لآخر كميراث ثقافي مثل « لعبة الاستغماية » و « السوق » و « التعلب فات »وغير ذلك من الالعاب التى تتواتر تقريبا عبر الاجيال . ونجد الطفل ، بعد ان يتعلم المشي ،يحظى بسعادة كبيرة حينما يختبىء عن انظار الآخرين لكى يرى ما اذا كانوا يعثرون عليه ،وكثيرا ماتصدر عنه صيحات الفرح وتتعالى ضحكاته .

وفى سنوات ماقبل المدرسة ، يصبح الطفل اكثر اهتماما باللعب مع الجيران فيما يعرف بألعاب الجيرة neighbourhood games وهى نمط من الالعاب تكون فيه جماعة اللعب غير محددة ، حيث يمكن أن يشترك فى اللعب اى عدد من الاطفال . وفى هذا اللعب قد يقوم طفل واحد بتنظيم اللعبة ويدعو الآخرين الى اللعب معه ، كما قد يجرى تنظيمها بواسطة طفل أكبر او شخص راشد . فى هذه الالعاب يقلد الاطفال بعضهم بعضا ويتبعون اوامر وتعليمات محددة من القائد الذى يتصدر اللعبة .

والالعاب فى هذا السن بسيطة ومختصرة وقليلة القواعد ، وكثيرا ما تنشأ توا لدى الطفل وفى الموقف نفسه . وغالبا ما تخضع هذه الالعاب للتعديل كلما مضى الاطفال فى اللعبة (ريسى ، ١٩٥٤) . ومن امثلة هذه الالعاب « الاستغماية» والاختباء والمطاردة ، وقد يستخدم الاطفال ادوات للعب ، مثل ادوات المطبخ او حجرة نوم او صالون او مواصلات ، فى تنظيم هذه الالعاب.

وفى حوالى سن الخامسة ، يقوم الطفل بألعاب لكى يختبر بها مهاراته ، كالسير على الحواجز الموجودة فى الشوارع وعلى رصيف مكسر والقفز من أماكن عالية ، او يحجل على قدم واحدة ، او الوثب ونط الحبل ، او التقاط الكرات برشاقة ، الخ . وهذه الالعاب تقوم على تنظيم اجتماعى أقل من العاب الجيرة ، لأنها فردية أكثر منها جماعية ، ولان عنصر التنافس

فيها ذو اهمية قليلة نسبيا . ويعتمد نمط الالعاب هذه بدرجة كبيرة على مستوى النمو الحركي والعقلي لدى الطفل (جيرسيلد، ١٩٥٤).

وفي سنوات ماقبل المراهقة ، تصير الالعاب غالبا تنافسية في مضمونها : فيتخلى الاطفال عن الالعاب الفردية ، وتتحول العاب الجيرة **الى العاب الفريق او الالعاب الثنائية** ، والان يصير اهتمام الطفل متمركزا حول المهارة والتفوق . والمعروف أن الطفل في البداية يكون فرديا ، قليل التعاون في لعبه ، لأنه يبتغي السيطرة على اللعب بدلا من تحديد جهوده في اطار دوره . الا أنه يتعلم بالتدريج التعاون مع الآخرين المشتركين في اللعب ويتبادل ادوار اللعب معهم ، ونتيجة لذلك فانه يحظى بغبطة أكبر ، لأنه عضو فعال في فريقه ويتعاون مع اعضائه ويخضع لقواعده .

وليست الالعاب الترويحية والرياضية باعثة على البهجة في نفس الطفل فحسب، ولكنها أيضا ذات قيمة بالغة كوسيط للتطبيع الاجتماعي له . فمن هذه الالعاب ، ومن غيرها أيضا ، يتعلم كيف يسلك وينسجم مع الاطفال الآخرين، وكيف يتعاون في الانشطة المختلفة ، وكيف يلعب دور القائد أحيانا والتابع في مواقف أخرى ، وكيف يقدر نفسه ويقيم قدراته بطريقة واقعية عن طريق مقارنة نفسه بزملائه المشتركين معه في اللعب . وفي ذلك يؤكد « دي بوا » (١٩٥٢ ، ص ٣٧٠ ــ ٣٧١) على قيمة هذه الأنشطة في تنشئة الطفل وفقا لمعايير الصحة النفسية السليمة :

« فهذه الأنشطة تتحدى الطفل لكي ينمي مهارة ، أو يكون عادة ؛ وفي سياقها يستثار بالنصر ويبذل جهدا اكبر . وحينما لايشترك الناس في صباهم في العاب رياضية ، فانهم يحصلون على تقديرات منخفضة وفقا لمقاييس التكيف الاجتماعي والانفعالي الناجحين . فمثل هؤلاء الاشخاص كثيرا مايتزعمون الشغب ويثيرون المتاعب ، لأنهم لم تكن لديهم الفرصة لأن يتعلموا كيف يكسبون بتواضع ، أو يخسرون بشرف وبروح طيبة ، أو يتحملون التعب الجسمي في سبيل تحقيق الهدف . وباختصار، فان أشخاصا كهؤلاء لايحظون بميزة تعلم نظام الروح الرياضية الطيبة ، وهي لازمة للغاية لحياة سعيدة عند الكبار » .

والواقع أن ما تحققه الالعاب الرياضية من فوائد ملموسة ومعروفة تتعلق بتعلم المهارات الحركية والاتزان الحركي والفاعلية الجسمية لايقتصر على مظاهر النمو الجسمي السليم فقط، وانما ينعكس كذلك على تنشيط الأداء العقلي كما يتضح من نتائج اختبارات الذكاء ، وعلى العمل الاكاديمي كما يتضح من نتائج اختبارات التحصيل المدرسية ، بل وعلى الشخصية ككل متكامل .

فقد بينت بعض الدراسات (ابزنيشي ١٩٣٦، بايلي ، ١٩٤٠) وجود علاقة ايجابية بين ارتفاع الذكاء والنمو الجسمي الافضل لدى الاطفال منذ الطفولة المبكرة وحتى نهاية المراهقة، بسبب عوامل رعايتهم كالتغذية وممارسة الالعاب الرياضية . ومن ناحية اخرى ، كشفت بعض الدراسات (جونز ، ١٩٥٤) عن علاقة عكسية بين نقص النمو الجسمي والتحصيل الدراسي، أي ارتباط قلة الفاعلية الجسمية بانخفاض مستوى تحصيل الطفل دراسيا . ومع ذلك ،

فان نتائج الدراسات فى هذا الميدان ، وان كانت لها دلالتها عملا بالقول المأثور « العقل السليم فى الجسم السليم » ، فانها لازالت غير قاطعة ، وقد تكون متضاربة أحيانا ، وغير دالة فى أحيان أخرى .

(٦) الالعاب الثقافية

للطفولة ثقافتها .. تعبر عن حاجة أصيلة فى الاطفال وهى « الحاجة الى الاستطلاع » (برلاين ، ١٩٦٥ ، كما تبدو فى النزعة الى التعرف على العالم المحيط بهم ، والى ادراك العلاقات فيه ، والى الرغبة فى المعرفة . وتعكس ثقافة الاطفال ، من ناحية أخرى ، أسلوب حياة الجماعة كما يتضح فى النواتج المادية والعملية والرمزية التى يهيئها الكبار لعالم الصغار ؛ وفى فلسفة وأساليب تنشئة الكبار للصغار .

ومن الاساليب الفعالة فى تثقيف الطفل مايعرف بالألعاب الثقافية ، حيث يكتسب الطفل أساسا معلومات ومعارف وخبرات من خلال نشاط مثير لاهتمامه يأخذ شكل اللعب بدرجة كبيرة . ورغم ان الطفل يكتسب زادا معرفيا من الاشكال والنماذج المختلفة للعب ، الا أنه يمكن أن نحدد أساليب معينة للالعاب الثقافية كالقراءة، وبرامج الاطفال بالاذاعة والتلفزيون ، وسينما ومسرح الاطفال . وسوف نقتصر الآن على القراءة كنموذج من الالعاب الثقافية .

القراءة عند الاطفال :

من الخطأ الاعتقاد بأن القراءة عند الاطفال تبدأ مع تعليمهم للقراءة والكتابة وتمكنهم النسبي منهما ، فللقراءة أصولها التطورية التى تنمو مع الطفل .

فمنذ العام الاول نجد أن الطفل الرضيع يحب أن يسمع غناء الكبار حيث يغتبط للاصوات الايقاعية المصاحبة لترديد الام لكلمات او اغان حانية تغريه بالنوم ، وحيث يبتهج لما فى دور الحضانة من ألوان الايقاع التى يجرى غناؤهـا او تسميعها بصوت غنائي . وفى حوالى العامين ، يحب الطفل أن ينظر الى الكتب المصورة التي تحوى صورا كبيرة مطبوعة بألوان زاهية للناس والحيوانات ولاشياء منزلية مألوفة ، الخ . وهم يستمتعون ، حينما ينظرون الى الصور ، بأن تحكى لهم قصصا بسيطة عن هذه الصور . وحتى اذا لم يستطع الطفل فهم الكلمات ، فانه يستمتع بانسياب الاصوات ، وبما يحدثه القارىء من تغيرات فى مقام الصوت ، وبتعبيرات وجهه . وبالاضافة الى ذلك ، تعتبر القراءة للطفل الصغير خبرة سارة ، وخاصة اذا كان جالسا على « حجر » أمه أو شخص عزيز عليه (جيرسيلد ، ١٩٥٤) . وتنطوى الخبرات القرائية المبكرة على تأثير واضح على نمو الميول القرائية لدى الطفل فيما بعد . فهى تؤثر ليس فقط على كمية ما يقرأ ولكن أيضا على نوعية ما يقرأه (جيتس ، ١٩٤٩ ، رسل ، ١٩٤٩ ، افرون ، ١٩٥٣) .

لذلك يمكن ، والى حد كبير ، تبين الميول القرائية عند الاطفال منذ مرحلة مبكرة . فالكتب المصورة والقصص التى يقرأها الكبار للطفل والتى يعرفها غالبا عن ظهر قلب ، غالبا ما تجذب الاطفال خلال سنوات الطفولة المبكرة . ويحب الطفل فى هذا السن أن تكون كتبه صغيرة حتى يستطيع أن يمسكها بسهولة وان تحوى صورا جذابة وقصصا قصيرة . ولما كان الطفل لا يفهم

دائما معنى الكلمات التي يسمعها من قراءة القصص له ، فانه يسعد بالانصات لهذه القصص في عبارات مقفاة او في ايقاع منغم (جاريسون ، ١٩٥٢ ، جيرسيلد ، ١٩٥٤) . وغالبا ما يميل الاطفال الصغار الى القصص الواقعية . ولكن بقدر ما تكثر حقائق الحياة أمام الطفل الصغير ، يزداد عدم ميله للخيال في القصص . ولاتجاه الام نحو الخيال تأثير هام على الطفل . فالام التي تشعر أن الخيال غير ضروري أو أنه يشجع على الهروب من الواقع ، تؤثر في تفضيل الطفل للواقعية في قصصه . ومع ذلك ، فان معظم الاطفال الصغار يستمتعون بالخيال في القصص ، ويميلون الى « التوحد » مع شخصيات القصص التي يسمعونها (ولفنشتاين ، ١٩٤٦) .

والطفل الصغير ليس حرا في انتقاء مايريد أن يقرأه له الكبار . فالكبار في حياته ، من آباء أو مدرسين في دور الحضانة ورياض الاطفال يزودونه بكتب عليه أن يختار منها القصص التي يجب سماعها . لذا يفضل معظم الصغار قصصا تدور حول أشخاص وحيوانات مألوفة في حياتهم اليومية . ويميلون ايضا الى القصص الكلاسيكية مثل (سندريلا) و « على بابا والاربعون حرامي » والقصص العصرية مثل القصص التي تدور حول الفضاء ورواده ، والقصص الفكاهية والدرامية . وتتألف الشخصيات المحببة اليهم في هذه القصص من الحيوانات والاولاد والبنات، مع الاهتمام الضئيل بالكبار والاطفال الرضع والجان . ويتحدد ميلهم الى تلك الشخصيات المحببة بما يتصفون به من خصائص مؤثرة أو من مرح وفكاهة . ويميلون ايضا في سنوات ما قبل المدرسة ، بسبب ما يتصفون به من « احيائية » animism (أي اضفاء الحياة على الاشياء) ، الى القصص التي تدور حول حيوانات تسلك كالكائنات الحية الانسانية (ويلسون ، ١٩٤٣ ، وتي وآخرون ، ١٩٤٦ فريدسون ، ١٩٥٣) .

والاطفال الاكبر سنا ، كالصغار ايضا ، محكومون الى حد ما فيما يستطيعون قراءته بما يسره لهم الوسط المحيط بهم : في البداية يتحدد نطاق قراءاتهم بالكتب التي يمدهم الوالدان بها . وبعد فترة ، قد يستعيرون الكتب من اصدقائهم أو من المدرسة اوالمكتبة العامة . ومع ذلك ، فان الطفل يخضع لضغوط ثقافية معينة تؤثر في تكوين اهتماماته بالقراءة. فهو يتعلم أن يقرأ ما يقترحه الكبار عليه ومايعتبر ملائما لجنسه (تشايلد وآخرون ، ١٩٤٦ ، سيوارد وهاريس ، ١٩٥١ ، جيرسيلد ، ١٩٥٤). ويتأثر الى حد كبير مقدار ما يقرأه ونوعية قراءاته بالقيم والاهتمامات السائدة في طبقته الاجتماعية . وبالمستوى الثقافي للاسرة (وارنر ولونت ، ١٩٤١ ، براون ، ١٩٥٤) .

ومع تطور النمو ، تخضع تذوقات الطفل في القراءة للتغير . فهو يطلق على مالا يحبه بانه « طفلي » ، وبسبب ذلك ، أن ما كان يستثير في الماضي لم يعد يشد انتباهه الان . وبتأثير نموه العقلي وازدياد خبراته المدرسية ، يصبح اكثر واقعية ، ويعتبر اي شيء يتعلق بالخيال على أنه « زيف » أو « دجل » (فريد سون ، ١٩٥٣) .

ولا يستطيع الكبار دائما التنبؤ بميول وتفضيلات الاطفال في القراءة وانتقاء الكتب ، فتفضيل الطفل للواقعية أو الخيالية يتوقف بدرجة كبيرة على ما اذا كان قد تعلم حب الخيال في الطفولة المبكرة ، وعلى اتجاهات والديه في هذا الشأن . وقد يجلب شكل الكتاب وما فيه

من صور ورسوم ايضاحية بعض الاطفال اكثر من غيرهم ، كما أن ما ينجذب اليه الاطفال يكون غالبا مختلفا عما ينجذب اليه الكبار . كما ان القدرة القرائية لدى الطفل سوف تحدد ما الذى سوف يحبه ويفضله . فالاطفال الذين يلاقون صعوبات فى القراءة يفضلون كتبا ذات مستوى اقل مما يميل اليه الاطفال المتفوقون فى قدرتهم القرائية . ويؤدى الاهتمام الزائد بالوصف وبحشد الكتاب بالكثير مما هو غريب على الطفل الى جعل الكتاب غير مألوف لديه ، رغم تقدير الكبار لمثل هذا الاتجاه فى اعداد كتب الاطفال (ويليامز ، ١٩٣٩ ، رانكن ، ١٩٤٤) .

وتكشف الدراسات الخاصة بالميول القرائية لدى الاطفال فى سنوات المدرسة عن تفضيلات معينة لانماط من الكتب فى اعمار مختلفة ، فما يحصل عليه الطفل الاكبر من متعة القراءة يرجع غالبا الى اشباع روح المغامرة التى تكون قوية لديه فى هذا السن . واذا أدخلنا الطفل فى عالم خيالى نخلقه له بواسطة الكتاب ، فانه يتخيل نفسه وكانه يقوم بعمل الاشياء التى يحب ان يعملها ولا يكون قادرا على الاتيان بها فى حياته اليومية . وفى حوالى السادسة او السابعة ، تتركز اهتمامات الطفل بالقراءة حول قصص عن الطبيعة والرياح والطيور والاشجار والزهور . وفى هذا السن يبدأ الاهتمام بحكايات تتعلق بالجان أو الشخصيات الخرافية ، ولكنها ينبغى ان تكون قصيرة وبسيطة وفى شكل حوار غالبا .

وتصبح الحكايات المتعلقة بالجان او الشخصيات الخرافية fairy tales اكثر الوان القراءة تفضيلا لدى الاطفال . فالعنصر الخيالى فى هذه القصص تكون له جاذبية أكبر فى نفس الطفل فى هذا السن . ويتزايد اهتمام الطفل فى هذه الفترة ايضا بالقصص التى تدور حول أجزاء اخرى من العالم ومن حياة الشعوب ، وخاصة اذا كانت تتمركز حول الاطفال .

وفى نهاية مرحلة الطفولة الوسطى ومع بداية الطفولة المتاخرة (اى فى حوالى التاسعة او العاشرة من عمر الطفل) يأخذ الاهتمام بمثل هذه الحكايات فى الانطفاء . ويعزى ذلك الى تلك الحقيقة بأن ما يتلقاه الطفل فى المدرسة من تعلم وتدرب يجعل من الصعب عليه أن يعتقد فى مثل هذه العناصر الخرافية التى تتضمنها هذه القصص . ويصدق هذا خاصة على الاولاد الذين تنتقل اهتماماتهم القرائية الى القصص التى تدور حول حياة الاولاد ، مثل الكشافة والجوالة . ويميلون ايضا الى قصص المغامرة والكوميديا والرعب وقصص الاشباح . وفى نهاية الطفولة تبرز الرغبة الملحة فى القراءة التى يصير لها الان مكانة عالية بين اكثر انشطة اللعب التى يميل اليها الطفل . وينطبق هذا على البنات بصورة خاصة . بل انه لمن المألوف تماما عند الاولاد والبنات فى هذا السن ان يقرأوا فى كل شهر كتابا او كتابين من أجل الاستمتاع .

اما فى مرحلة المراهقة ، فان الاهتمامات والميول القرائية لدى المراهقين تصبح اكثر صقلا وتبلورا واكثر امتاعا من الناحية العقلية . ويرجع هذا التغير الى نمو قدرتهم على التفكير التجريدى ، والى ازدياد خبراتهم ومعارفهم بالتعلم المدرسى . فى هذه المرحلة يكون الاطفال اكثر نضجا فى نظرتهم الى الامور ، وبالتالى فى ميولهم القرائية . فبينما يهتم الاولاد غالبا بموضوعات تتعلق بالعلم والاختراع ، تهتم البنات بالشئون المنزلية والحياة المدرسية . وفى المراهقة يصل الولع

بالقراءة الى ذروته . وترجع هذه الظاهرة الى نزعة المراهقين الى الانعزال بسبب ما تخبره هذه المرحلة من تغيرات جذرية فى داخل المراهق وخارجه ، وما قد يترتب على ذلك من مشكلات قد تجعله مهموما ومشغولا ، وبالتالى يلجأ الى الانهماك فى القراءة هروبا من مشكلاته أو صراعاته فى هذا السن . كذلك ترجع هذه الظاهرة الى الطفرة فى نموه العقلى والمعرفى ، والى تفرع نشاطه العقلى وتمايز قدراته الخاصة .

ولما كانت المراهقة مرحلة تسيطر فيها نزعة قوية الى التعلق بالابطال وعبادة البطولة ، فان الكتب التى تزخر بالابطال التاريخيين والخرافيين ، مثل سير العظماء ، تلقى هوى فى نفوس المراهقين . ويهتم الاولاد فى هذا السن بالاختراعات والمغامرة ، بينما تهتم البنات اكثر بالكتب المتعلقة بالمنزل والحياة فى المدرسة والجامعة والقصص المكتوبة عن الاولاد والكتب المتعلقة بالطبيعة والكتب الدينية . ومع تعاقب سنوات المراهقة ، تأخذ ميولهم القرائية فى التعلق والتأصل (تيرمان وليما ، ١٩٢٧ ، وتى وآخرون ، ١٩٤٦ ، لينيس ، ١٩٥١ ، جاريسون ، ١٩٥٢ ، فريدسن و ، ١٩٥٣) .

والواقع ان عادات الالفة بالكتاب والاستئناس للقراءة ، ومهارات البحث والتنقيب عن المعرفة . تمثل احد المقومات الاساسية التى تقوم عليها فاعلية النشاط العقلى المعرفى . لذلك ينبغي ان تتكون هذه العادات والمهارات منذ الطفولة ، وان تتأصل عند الاطفال مع انتقالهم من مرحلة لاخرى من مراحل تطور نموهم .

● ● ●

العوامل المؤثرة فى لعب الاطفال

لعب الاطفال ، كما يتضح من التحليل السابق ، يأخذ اشكالا ونماذج مختلفة ، فلا يلعب كل الاطفال بنمط واحد من النشاط ، ولا يلعب كل طفل فى كل وقت بشكل أو نموذج بعينه . واذا كانت اهتمامات الاطفال باللعب تأخذ خطا نمائيا معينا ، الا أن لعب الاطفال هكذا لا يعد نشاطا يجرى بصورة مطلقة ، ولكنه يخضع للكثير من التباين والمغايرة الذى يعزى الى واحد أو أكثر من العوامل التالية :

الحالة الجسيمة :

من المعروف أن الاطفال الاصحاء بدنيا يلعبون اكثر من الاطفال معتلى الصحة ، ويبذلون جهدا ونشاطا اكبر توظيفا لما لديهم من طاقة . ويتضح من ملاحظات المعلمين فى المدرسة الابتدائية والمشرفين على دور الحضانة ورياض الاطفال أن الاطفال ناقصى التغذية والرعاية الصحية اقل لعبا واقل اهتماما وعناية بالالعاب والدمى التى تعطى لهم .

ويلعب مستوى النمو الحسى ــ الحركي فى سن معينة دورا هاما فى تحديد مدى نشاط اللعب عند الطفل . فمثلا ، حينما لا يكون الطفل قادرا على قذف الكرة والتقاطها ، فلن يستطيع مشاركة اقرانه فى الكثير من العاب الكرة . ويؤدى نقص التناسق الحركى الى اعاقة الطفل

عن ممارسة الالعاب التى تقوم على التقطيع والتركيب والرسم والزخرفة والعزف على الآلات الموسيقية .

وقد تبين من بعض الدراسات التى قامت على استخدام مواد من اللعب ، كنماذج لعربات القطار والدراجات (جونز ، ١٩٣٩) ، أن لعب الطفل يتوقف بدرجة كبيرة على مستوى الاتساق العصبى العضلى الذى وصل اليه الطفل : ففى سن ٢١ شهرا ، على سبيل المثال ، يستطيع جذب ودفع الدمى ، وفى سن ٢٤ شهرا يستطيع جذبها ودفعها بتحكم وتوجيه ، وفى سن ٢٩ شهرا يستطيع تسييرها لحوالى سبعة ونصف قدم، وفى سن الثلاث سنوات يستطيع تسييرها بمهارة ولا يستطيع الطفل أن يمسك القلم باتساق ويستخدمه فى الكتابة باتقان قبل سن السادسة تقريبا ، لان عضلاته الدقيقة وتآزر الآليات العصبية العضلية اللازمة للكتابة لم تنضج بعد بدرجة كافية .

المستوى العقلى :

يتأثر لعب الطفل منذ المهد بمستوى ذكائه . فالاطفال النابهون أكثر لعبا وأكثر نشاطا فى لعبهم من الاطفال الاقل ذكاء ، كما يكشف لعبهم عن فراهة وابداع أكبر . ومنذ العام الثانى ، تبدو الفروق واضحة بين هؤلاء الاطفال فى نشاط لعبهم . فالطفل الاكثر ذكاء ينتقل بسرعة من اللعب الحسى الى اللعب القائم على المحاكاة ، ويبرز عنصر الخيال جليا فى لعبه . ولا يتضح هذا التطور فى لعب الاطفال الاقل ذكاء ، حيث يأخذ لعبهم مع انقضاء الشهور والسنوات شكلا « نمطيا » لا يتضح فيه مظهر أساسى للتغير ، فيتخلفون عن أقرانهم من نفس السن فى مدى نشاط لعبهم وأنواعه وأساليب ممارساتهم فى اللعب . ومع مرور الوقت ، تأخذ هذه الفجوة بين لعب الاطفال الاذكياء والاقل ذكاء فى الازدياد ، وفقا للمستويات العقلية المختلفة . ومن ناحية أخرى ، حينما يختلف لعب الطفل كثيرا عن لعب الاطفال الاخرين من نفس السن ، فان ذكاء الاطفال يأخذ فى الانخفاض كثيرا (هولينجوارث ، ١٩٢٦) .

وفيما يتعلق باختيار مواد اللعب ، يبدى الاطفال العاديون أو ذوو المستويات الاعلى فى الذكاء تفضيلا لمواد اللعب التى تعتمد كثيرا على النشاط التركيبى البنائى بدرجة أكبر من الاطفال ضعاف العقول . كما يبدى الاطفال العاديون والاذكياء ثباتا اكبر فى طول فترة اهتمامهم بمواد اللعب التى يختارونها (هورن وفيلليس ، ١٩٤٢) .

وتبين بعض الدراسات (ما يبورى ، ١٩٥٢) أن الاطفال الذين حصلوا على نسب ذكاء عالية فى سنوات ما قبل المدرسة قد أظهروا اهتماما واضحا بالاجهزة والمواد التى تستخدم فى الالعاب التمثيلية والانشطة الابتكارية ، مثل الصلصال والمقصات والرسم والزخرفة والالعاب التركيبية . وكان اهتمامهم بالكتب لاجل الحصول على المعرفة والاستمتاع والانسحاب من الجماعة .

وكلما تقدم الاطفال فى السن ، تصبح هذه الفروق فى اللعب بين الاطفال المرتفعى الذكاء والمنخفضى الذكاء أكثر وضوحا . فالاطفال النابهون يبدون اهتماما بمجموعة كبيرة من انشطة اللعب ، ويقضون فيه وقتا أكبر (ليهمان وونى ، ١٩٢٧ ، ١٩٢٨ ، بوينتون وفورد ،

١٩٣٣) . وهم أكثر ميلا الى الالعاب الفردية منها الى الالعاب الجماعية ، ويقضون وقتا اكبر فى القراءة ، ويكون اشتراكهم فى الالعاب التى تتضمن نشاطا جسميا قويا اقل من الاطفال ذوى الذكاء المتوسط . كما يميل الاطفال النابهون قليلا الى الالعاب الرياضية ، وكثيرا الى الالعاب العقلية (تيرمان ، ١٩٢٥ ، ليهمان وويتى ، ١٩٢٨ ، بوينتون وفورد ، ١٩٣٣) . ويستمتع الاطفال النابهون بجمع الاشياء ولديهم هوايات اكثر من الاطفال الآخرين (بوينتون ، ١٩٤١) .

ويمكن ملاحظة عامل الذكاء فى لعب الاطفال فى القراءة خاصة . فالاهتمام المبكر بالقراءة والقدرة على القراءة يتضحان عند الاطفال الذين يحصلون على نسب ذكاء عالية . ويقضى الاطفال مرتفعو الذكاء فى كل سن وقتا اكبر فى القراءة . ولديهم مدى أوسع من الاهتمامات القرائية . كذلك يختلف نوع القراءة التى يفضلونها . فالاطفال الموهوبون يستمتعون بقراءة القواميس والاطالس والموسوعات والعلم والتاريخ والسير والاسفار والشعر والادب . ولا يميلون الى الحكايات الخرافية ، لكن يفضلون الروايات البوليسية على قصص المغامرات العنيفة . والقصص الخيالية العاطفية اقل جاذبية للاطفال الموهوبين ، وان كان الاهتمام بالروايات العاطفية (الرومانتيكية) يتكون لديهم قبل سن العاشرة (تيرمان ، ١٩٢٥ ، هولينجوارث ، ١٩٢٦ ، تيرمان وليما ، ١٩٢٧ ، ما يورى ، ١٩٥٢) .

الجنس (بنين ــ بنات) :

يلعب جنس الطفل دورا كبيرا فى نشاط لعبه . الا أن الفروق بين الجنسين لا تتضح فى السنوات الاولى من حياة الاطفال . بل انه اذا توفرت بيئة واحدة والعاب واحدة ، فلن تتضح اية فروق دالة بين الجنسين قبل مرحلة المراهقة . ولكن ، لما كان الاطفال يعيشون فى بيئات واوساط ثقافية متباينة تختلف فيها الالعاب والدمى باختلاف الجنسين ، فان الفروق بين الجنسين فى اللعب تبدأ فى الظهور منذ سن مبكرة . ويصبح الاطفال واعين منذ سن مبكرة بأنه توجد أنواع معينة من اللعب ملائمة للاولاد وأخرى للبنات . وتلعب الاتجاهات الوالدية وانتقاء أدوات اللعب ووجود أمثلة من زملائهم فى اللعب ووجود اطفال اكبر سنا دورا حاسما فى تدعيم المؤثرات الثقافية بين الجنسين (كون ، ١٩٥١) .

وبصفة عامة ، تفضل البنات اللعب بالدمى والالعاب المتعلقة بالمواد المنزلية والخرز والمكعبات، بينما يفضل الاولاد القطارات والعربات والدبابات والطائرات والسفن والاحصنة والمسدسات ، الخ . ويلعب الاولاد بعنف أكثر من البنات ويفضلون العابا ككرة القدم والبلى ، بينما تحب البنات العابا مثل النط بالحبل والعاب الاختفاء وان يلعبن منزلا او مدرسة (بنجامين ، ١٩٣٢ ، كون ، ١٩٥١ ، هونزيك ، ١٩٥١ ، ما يورى ، ١٩٥٢) . وحتى حينما يلعب الاولاد والبنات بنفس مواد اللعب ، فان ما يتوصل اليه الاولاد من تكوينات وتشييدات يختلف عما تحققه البنات (هونزيك ، ١٩٥١) . وتبدو الفروق بين الجنسين واضحة فى تفضيلاتهم فيما يتعلق بالقراءة وبرامج الاذاعة والتلفزيون والافلام . ويبدى الاولاد فى كل الاعمار مدى من اهتمامات

اللعب اكبر من البنات (هونزيك ، ١٩٥١) . والواقع أن الكثير من هذه الفروق يعـزى الى المؤثرات الثقافية ، والى توقعات الادوار من كل من الجنسين .

العوامل البيئية :

يتأثر الاطفـال فى لعبهم بعامل المكـان . فمعظمهم يلعب ، خاصة فى السنوات الاولـى ، مع الاطفال الذين يجاوزونهم فى المسكن . وبعد فترة يلعبون فى الشوارع أو الساحات أو الاماكن الخالية القريبة من مسكنهم ، وقلة منهم تلعب فى النوادى والملاعب والحـدائق (سوللينجر وآخرون ، ١٩٥٣) . لذلك يكون للبيئة التـى يعيشون فيها تأثير واضح على الكيفية التـى سيلعبون بها وعلى نوعية الالعاب التى سيشتركون فيها . واذا لم يتسير أمامهم اماكن ملائمة للعب قريبة من منازلهم أو بعض مواد اللعب التى يستخدمونها فى لعبهم، فانهم سوف يقضون الكثير من وقتهم الحر فى « التسكع » hanging aro..nd ، وربما يقوممون بألعاب غير منظمة او بمجرد ملاحظة الاطفال الآخرين او الكبار، او يصبحون مصدرا للازعاج (ريفز ، ١٩٣١) .

وتوضح بعض الدراسات (مثل دراسات ليهمان ، ١٩٢٦ ، مير وميرى ١٩٥٠) أن أطفال البيئات الفقيرة يلعبون أقل من البيئات الأغنى . وقد يعزى هذا جزئيا الى الاختلاف فى الحالة الصحية ، ولكن يعزى بدرجة كبيرة الـى أن البيئات الفقيرة بها لعب أقل ووقت اقل ومكان اضيق للعـب مـن البيئـات ذات الامكانيـات الاقتصادية الاعلى . ورغم أن الاطفال فى البيئات الفقيرة يحظون بصحبة أكبر فى اللعب ، الا أن هذا العامل وحده لايكفى للتعويض عن العوامل الاخرى التـى ذكرناها . وفى المناطـق الريفية والصحراوية ، بسبب انعزالها الجغرافي ، تقل الالعاب لصعوبة تنظيم جماعات من الاطفال ، كما تقل ادوات ووقت اللعب لأن الاطفال كثيرا ما يساعدون الوالدين فى الحقل او الرعى اوالاعمال المنزلية .

وتؤثر الظرف البيئية فى نوعية اللعب . فالمناخ وتعاقبه بين فصول السنة يؤثر فى نشاط اللعب عند الاطفـال (سوللينجر وآخرون ،١٩٥٣) : ففى الشتاء فى المناطق المعتدلة يخرج الاطفال للعب فى الحدائق والمتنزهات ، بينمـا يستمتعون فى المناطق الباردة بالتزحلق علـى الجليد واللعب بالثلج . وفى المناطق شديدة الحرارة صيفا يتحدد نطاق لعب الاطفال بالأماكن المغلقة ، وفى المناطق المعتدلة الحرارة صيفا يهرع الاطفال الى شواطىء البحر وحمامات السباحة. وهناك ألعاب تتعلق بفصول معينة من السنة كأن تعتبر كرة القدم والهوكي العابا شـتوية اساسا ، والسباحة ألعابا صيفية بصفة عامة .

والاطفال فى المناطق الساحلية قد تنمو لديهم اهتمامات باللعب وبمواده تختلف عن الاطفال فى المناطق الداخلية او الصحراوية . والاطفال فى البيئات الصناعية قد يهتمون بألعاب معينة تختلف عن البيئات الريفية ، وهكذا من عوامل التعدد والتنوع البيئيين .

العوامل الاجتماعية والثقافية :

يتأثر لعب الاطفال بثقافة المجتمع .. أى بأسلوبه فى الحياة ، وبما يتواتر فيه من عادات وقيم وتقاليد . وتتوارث أجيال الاطفال عن الاجيال السابقة بعض الالعاب التى تشيع فى المجتمع،

كتوارث لعبة « التحطيب » فى صعيد مصر مثلا. ومعذلك فان ثمة العابا متشابهة تتوارثها الاجيال المختلفة فى معظم دول العالم ، مثل العاب الاختفاء و « الاستغماية » و « عسكر وحرامية » ونط الحبل والقفز وكرة القدم وغيرها. ويكشف(تقرير الأمم المتحدة ، ١٩٥٣) عن العاب تقليدية نجدها تتكرر بين الاطفال فى كثير من الشعوب . فقد لوحظ ، على سبيل المثال ، أن لعبة « عكاز الأعمى » توجد فى الكثير من الدول الاوروبية ؛ولعبة الاختفاء توجد لدى الاطفال فى كثير من البلدان الآسيوية والعربية والاوروبية . وربماتتضح الالعاب التقليدية المتوارثة لدى الاطفال الذين ينتمون الى مستويات اجتماعية اقتصاديةأقل ، فى حين ان الاطفال من المستويات الاعلى يستطيعون اقتناء الكثير من الالعاب العصريــةويلعبون فى اماكن مخصصة كالنوادى أو ساحات المنزل .

وتلعب الخلفية الاجتماعية الاقتصــاديــةدورا كبيرا فى لعب الاطفال. فالمستوى الاجتماعى الاقتصادى يؤثر فى انشطة اللعب من الناحيةالكمية والكيفية على حـد سواء (ماكدونالد وآخرون ، ١٩٤٩) . واذا كانت هذه الفروقلاتتضح خلال سنوات الطفولة الاولى ، الا انها تبرز كلما تقدم الاطفال فى السن (مير وميرى ، ١٩٥٠) . ويبدى الاطفال الذين ينتمون الـى مستويات اجتماعيــة اقتصادية أعلـى تفضيلالانشطة اللعب التى تتكلف بعض المال كالتنس مثلا ، بينما يشترك الاطفال من المستويات الاقلفى أنشطة ضئيلة التكاليف كالعاب كرة القدم ونط الحبل والاختفاء والاستغماية (بوينتونووانج ، ١٩٤٤) . بل ان الوقت المخصص للعب يتأثر بالطبقة الاجتماعية . فقد أوضح «فوكس»(١٩٣٤) ان الوقت المتاح أمام الاطفال مـن الأسر الفقيرة أقل من الاطفــال ذوى المستوىالاعلى ، وذلك بسبب ضرورة مشاركتهم الاسرة فى بعض واجباتها وأعبائها الاقتصادية . ومنناحية اخرى ، قد يقضى هؤلاء معظم وقتهم فى لعب غير موجه وغير مدعم من أسرهم .

وتؤثر الطبقة الاجتماعية التى ينتمى اليها الطفل فى نوع الكتب التى يقرأها ، وفى الأفلام التى يراها ، وفى أنواع النوادى التى قد ينتمىاليها (فولبردنج ١٩٤٨) . فالاطفــال الــذين ينتمون الى أسر ميسورة ماديا وثقافيا يشتركونفى العاب ذات صبغة حضارية اكبر ، كالموسيقى والفن والأنشطة المنطقة مثل الرحلات والمعسكرات (جرامر ، ١٩٥٠) . وهم يقضون فى هذه الأنشطة وقتا اكبر وبشكل أكثر نظاما ، بينماينفق الاطفال ذوو المستويات الاقل وقتا كبيرا فى مجرد مشاهدة برامج التلفزيون ، أو فى اللعبخارج المنزل ولمعظم اليوم (ماكدونالد وآخرون ، ١٩٤٩) .

بل ان فلسفة المجتمع وايديولوجيتهتؤثران الى حد كبير فى لعب الاطفال بنماذجه وأشكاله واساليبه المختلفة . فبرامج الاذاعة والتلفزيونوالافلام السينمائية وكتب الاطفال وانتاج مواد اللعب المختلفة ، تخضع بشكل أو بآخر للتوجيهالقومى لهذه الأنشطة وللغاية المنشودة منها .

نظرة الكبار للعب الاطفال :

ولعب الاطفال ، كأى جانب آخر من حياة الطفولة ، يتأثر بدرجة ادراك الكبار ، وخاصة الوالدين ، لهذا النشاط ولاهميته ولاساليبه . فلعب الاطفال يتحدد كثيرا بالاتجاهات الوالدية نحو أساليب تربية وتنشئة الاطفال . وهـذه الاتجاهات بدورها تتحدد بالمستوى الاجتماعى والاقتصادى والثقافى للوالدين من ناحية وبتكوينهما النفسى من ناحية أخرى .

توافر امكانيات اللعب :

وفى ضوء الكثير من العوامل السابقة ، تؤثر نوعية اللعب ومواده وامكانياته المتاحة الى حد كبير فى نشاط اللعب وفى مباشرته لدوره الهام فى بناء الاطفال . فاذا زودنا الطفل بألعاب معينة ، فانه سوف يستخدمها ، وبالتالى فان نشاط لعبه سوف يتأثر بها . فاذا كانت امكانيات اللعب المتاحة ذات نماذج تركيبية بنائية ، مثل المكعبات والرمال والاجهزة التي يقوم الطفل بفكها وتركيبها ، فان اللعب بطبيعة الحال سوف يأخذ هـذا الطابع التركيبى البنائى ، ويكون موجها اكثر للجانب العقلى من شخصية الطفل . أما اذا وفرنا العابا مثـل الاجهزة المنزليـة أو الدمى ، فان هذا يؤكد على نموذج اللعب الايهامى .

والحقيقة التى تؤكدها دراسات عدة (مثل دراسات مير وميرى ، ١٩٥٠ ، ريسى ، ١٩٥٤) ان الكبار ينبغي عليهم أن يزودوا الطفل بألعاب تتضمن نماذج واشكالا كثيرة ، لأن نشاط الطفل فى اللعب ينسحب الى كافة جوانب شخصيته ــ الجسمية والعقلية والانفعالية والاجتماعية ، ولأن لعب الطفل ابداعى ، خـلاق ، تمثيلى ، تقليدى ، تخيلى ، ولان الطفل سرعان ما ينتقل من لعبة الى غيرها .

ومن ناحية اخرى ، تؤدى المبالغة فى تزويد الطفل بمواد اللعب وامكانياته الى نتيجة عكسية اقرب الى ما قد يترتب على حرمان الطفل منها . فالاختيار الجيد لمقدار محدد من مواد اللعب يشجع على أن يكون لعب الطفل اكثر غنى بالمصادر resourcefulness واكثر اجتماعية مما لو ازدحـم بمواد كثيرة للغايـة (جونسون ، ١٩٣٥) . ومن المصادر التى ينبغي تزويد الطفل بها فى لعبه ، تلك المواد التى يقوم الطفل بعملها فى المنزل ومن أشياء بسيطة ، وأيضا استغلال مصادر البيئة وتوظيفها فى انواع ومواد حية للعب قد لا تتيسر بالمواد والوسائل الجاهزة للعب الاطفال (ليونارد ، ١٩٥٢) .

ولعل ما عرضنا له فى الصفحات السابقة ، يكشف عن جانب اساسى من النشاط الـذى يعيشه الاطفال ويعيشون فيه طفولتهم ، وفيه يدركون انفسهم والعالم المحيط بهم ، ومنـه يتعلمون معارف ومهارات وخبرات جمة ، وفيه تتفتح امكاناتهم ، وتنمو شخصياتهم . ولكـن اللعب ، لكي لا يكون مجرد لهو واستهلاك للطاقة ، ولكى يحقق الغاية البنائية المنشودة منه ، ينبغى ان يوجه ليصبح نشاطا تربويا منظما هادفا .

المراجع

(١) آمال احمد صادق : دراسة عاملية للابتكار الموسيقى . الكتاب السنوى فى التربية وعلم النفس ، المجلد الرابع. القاهرة : دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٦ .

(٢) د . بيرد : جان بياجية وسيكولوجية نمو الاطفال .(ترجمة : فيولا الببلاوى) . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٦ .

(٣) ف . سيفيرين : علم النفس الانسانى . (ترجمة :طلعت منصور ، عادل عز الدين ، فيولا الببلاوى).القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٧ .

(٤) سعد عبد الرحمن : السلوك الانسانى . الكويت :مكتبة الفلاح ، ٧١ ــ ١٩٧٧ .

(٥) سوزان ايزكس : الحضانة . (ترجمة : سمية فهمى). القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٨ ط ٣ .

(٦) سيد عثمان : علم النفس الاجتماعى التربوى ، جزآن. القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٠ .

(٧) رمزية الغريب : العلاقات الانسانية فى حياة الطفل الصغير ومشكلاته اليومية . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٠ .

(٨) فيولا الببلاوى : دراسة لبعض الخصائص العقلية ــ المعرفية والانفعالية كاستجابة لعوامل الاستثارة لدى الاطفال فى مرحلة المهد . الكتاب السنوى الثانى للجمعية المصرية للدراسات النفسية . القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٥ .

(٩) فيولا الببلاوى : دور الشغالات فى حياة الاطفال النفسية . ندوة العمل مع الاطفال بجامعة عين شمس ، القاهرة ، فبراير ١٩٧٨ .

10— Adernethy, E.M. Relationships detween mental and physical growth. **Monogr. Soc. Res. Child Develpm.**, 1, No. 7, 1936.

11— Amen, E.W. and N. Renison. A study of the relationship detween play patterns and anxiety in young children. **Genet. Psychol. Monogr.**, 50, 3-41

12— Ames, L.B. Free drawing and completion drawing : a comparative study of preschool children. **J. Genet. Psychol.**, 66, 161 - 165, 1945.

13— Ames, L.B. Development of interpersonal smiling responses in the preschool years. **J. Genet. Psychol.**, 74, 273 - 291, 1949.

14— Axline, V. M. **Play therapy**. Boston : Houghton Mifflin, 1947.

15— Axline, V.M. Observing children at play. Teach. Coll. Rec., 52, 358 - 363, 1951.

16— Bailey, S. Agreession in infancy and early childhood. Cath. educ. Rev., 44, 421 - 429.

17— Barnhart, E.N. Developmental stages in compositional construction on children's drawings. **J. exp. Educ.**, 11, 156-184, 1942.

18— Bach, G.R. Young Children's play fantasies. Psychol. Monogr., 59, No. 2, 1945.

19— Bell, J.E. Perceptual development and the drwaings of children. **Amer. J. Orthopsychiat.**, 22, 386-393, 1952.

20— Benjamin, H. Age and sex differences in the toy preferences of young children. **J. Genet. Psychol.**, 41, 417-429, 1932.

21— Berlyne, D.E. **Structure and direction in thinking.** New York Wiley, 1965.

22— Boynton, P.L. The relationship detween children's tesled intelligence and their hobby participation. **J. Genet. Psychol.**, 58, 353-362, 1941.

23— Boynton, P.L. and F.A. Ford. The relationship detween play and intelligence. **J. appl. Psychol.**, 17, 294-301, 1933.

24— Boynton, P.L. and J.D. Wang. Relation of the play interests of children to their economic status. **J. Genet. Psychol.**, 64, 129-138, 1964.

25— Bridges, K.M. The occupational interests and attention of four-year-old children. **J. Genet. Psychol.**, 36, 551-570, 1929.

26— Brown, F.J. **Educational sociology.** New York : Prentice-Hall, 1954.

27— Buhler, K. **The mental development of the child.** New York : Harcourt, Brace, 1930.

28— Cappe, J. Les manifestations artistiques chez l'enfant. **Nouv. Rev. Pedag.**, 3, 89-93, 1947.

29— Child, I.L., et al., Children's textdooks and personality development. **Psychol. Monogr.**, 60, No. 3, 1946.

30— Cramer, M.W. Leisure-time activities of economically privileged children. **Social. sec. Res.**, 34, 444-450, 1950.

31— Conn, J.H. Factors influencing development of sexual attitudes and awarencess in children. **Amer. J. Dis. Child.**, 58, 738-745, 1939.

32— Conn, J.H. Children's awareness of sex differences. II. Play attitudes and game preferences. **J. Child Psychoiat.**, 2, 82-99, 1951.

33— Cornelius, R. Games minus competition. **Child H. Educ.**, 26, 77-79, 1949.

34— Davis, G.A. and S.W. Houtman. **Thinking creatively : A guide to training imagination.** Madison, Wisc. : Wisconsin Research and development centre for Cognitive Learning, 1968.

35— Du Bois, F.S. The security of discipline. **Ment. Hyg.**, N.Y., 36, 353-372, 1952.

36— Ephron, B.K. **Emotional difficulties in reading.** New York : Julian Press, 1953.

37— Elkish, F. Significant relationships between the human figure and the machine in the drawings of doys. Amer. J. Orthopsychiat., 22, 79-85, 1952.

38— Frank,L. K. and R.E. Hartley. Play and personality formation in preschool groups. **Personality**, 1, 149-161, 1951.

39— Erikson, E.H. Sex differences in the play configurations of preadolescents. **Amer J. Orthopsychiat.**, 21, 667-692, 1951.

40— Gardner, D.E. **Testing results in the infant school.** London : Metheun, 1942-48.

41— Garden, D.E. **The education of young children.** London : Metheun, 1956.

42— Garrison, K.C. **Growth and development.** New Yori : Longmans, 1951.

43— Gesel, A. **Infancy and human growth.** New York : Macmillan, 1928.

44— Gesell, A. and L.B. Ames. The development of directionality in drawing. **J. Genet. Psychol.**, 68, 45-61, 1946.

45— Gesell, A. et al. **The first five years of life.** New York : Harper, 1940.

46— Gesell, A. and H. Thompson. **Infant behavior, its genesis and growth.** New York : McGraw-Hill, 1934.

47— Goodenough, F.L. **Measurement of intelligence by drawings.** Yonkers, N.Y., : World, 1926.

48— Goodenough, F.L. and D.B. Harris. **Studies** in the psychology of children's **drawings.** II. 1928-1949. **Psychol. Bull.**, 47, 369-433, 1950.

49— Guanella, F.M. Block building activities of young children. **Arch. Psychol.**, N.Y., No. 174, 1934.

50— Hartley, R.E.,**Growing through play : experiences of Teddy and Bud.** New York : Columdia Univ. Press, 1952.

51— Hartley, R.E., L.K. Frank, and R.M. Goldenson. **Understanding children's play.** New York : Columdia Nniv. Press, 1952.

52— Hildreth, G. The simplification tendency in reproducing designs. **J. Genet. Psychol.**, 64, 329-333, 1944.

53— Hollingworth, L.S. **Gifted children, their nature; and nurture.** New York : Macmillan, 1926.

54— Honzik, M. P. Sex differences in the occurence of materials in the play constructions of preadolescents. **Child Developm.**, 22, 15-35, 1951.

55— Horne, B. M. and C.C. Philles. A comparative study of the spontaneous play activities of normal and mentally defective children. **J. Genet. Psychol.**, 61, 33-46, 1942.

56— Hughes, M.A., and L. Stockdale. The young child and graphic expression. **Childhood Educ.**, 16, 307-314., 1940.

57— Hurlock, E.B. and J.L. Thomson. Children's drawings : an experimental study of perception. **Child Developm.**, 5, 127-138, 1934.

58— Jersild, A.T. Child Psychology. New York : Prentice-Hall, 1954.

59— Jersild, A.T. and R.J. Tasch. **Children's interests and what they suggest for education** New York : Teachers College Bureau of Pud., 1949.

60— Johnson, H.M. **The art of block building.** New York : Day, 1933.

61— Johnson, M.W. The effect on behavior of variation in the amount of play equipment. **Child Develpm.**, 6, 56-68, 1935.

62— Jolles, I. A Study of the validity of some hypotheses for the qualitative interpretation of the HTP for children of elementary school age. I. Sexual identification. **J. Chin. Psychol.**, 8, 113-118, 1952.

63— Joukovskaia, P.I. **Educating child in play.** (in Russia) Moscow : Academy Press, 1963.

64— Lehman, H.C. A comparison of the play activities of town and country children. **J. Genet. Psychol.**, 33, 455-476, 1926.

65— Lehman, H.C. and P.A. Witty. Periodicity and play behavior. **J. educ. Psychol.**, 18, 115-118, 1927.

66— Lehman, H.C. and P.A. Witty. **The Psychology of play activities.** New York : A.S. Barnes, 1827 a.

67— Lehman, H.C. and P.A. Witty. A study of play in relation to intelligence. **J. appl. Psychol.**, 12, 369-397, 1928.

68— Leonard, A Toys for toddlers. **Today's Health**, December, 42-43, 60, 1952.

69— Leroy, A. Representation of perspective in the drawings of children **Enfance, 4, 286-307,** 1951.

70— Lytton, Hugh. **Creativity and education.** London : Routledge & Kegan Paul, 1971.

71— Mac Donald, M.A. C.Mc Gurie, and R.J. Havighurst. Leisure activities and the socio-economic status of children. **Amer. J. Sociol., 54,Amer. J. Sociol., 54, 505-519,** 1949.

72— Machover, K. **Personality projection in the drawing of the human figure.** Springfield : Charles C. Thomas, 1949.

73— Markey, F.V. Imaginative behavior of preschool children. **Child Develpm., Monogr.,** No. 18, 1935.

74— Mansell, T.M. and T.H. Elfer. The growth of a play. **Child Educ.,** 35, No. 2, 1958.

75— Maslow, A.H. **Motivation and personality.** New York : Harper & Row, 1954 (2nd ed : 1970)

76— Maybury, M.W. Selection of materials by nursery school children of superior mental intelligance. J. educ. Res., 46, 17-31, 1952.

77— Merry, F.K. and R.V. Merry. **The first two decades of life.** New York : Harper, 1950/.

78— Millichamp, D.A. Another look at play. **Bull. Inst. Child Stud.,** Toronto, 15, No. 4, 1-13, 1953.

79— Mitchell, E.D., and B.S. Mason. **The theory of play.** New York : A.S. Barnes, 1948.

80— Murphy, L.B. **Social behavior and child personality.** New York : Columbia Univ. Press, 1937.

81— Murphy, L.B. Play therapy : **The inner dynamics of childhood.** New York : Houghton Mifflin, 1947.

82— Murphy, L.B. **Personality in young children.** New York : Basic Books, 1956.

83— Parten, M.B. Social play among preschool children. **J. abnorm, soc. Psychol.,** 28, 136-147, 1933.

84— Perry, M. young child's appreach to science. **Child Educ.,** No. 8 - 9, vol. 35, 1958.

85— Peller, L.E. Models of children's play. **Ment. Hyg.,** N. Y., 36, 66-83, 1952.

86— Rankin, M. **Children,s interests in library books of fiction.** New York : Teachers College Bureau of Pub., 1944.

87— Reece, L.H. The play çeeds of children aged 6 to 12. **Marriage Fam. Living,** 16, 131-134, 1954.

88— Reeves, W.R. Report of Committee on street play. **J. educ. Sociol.,** 4, 607-618, 1931.

89— Rogers, C.R. Client - centered therapy. Boston, 1951.

90— Rogerson, C.H. **Play therapy in childhood.** London : Oxford Univ. Press, 1939.

91— Rosenthal, S. A fifth grade classroom experiment in fostering mental health. **J. Child Psychiat.,** 2, 302-329, 1952.





92— Russel, D.H. **Children learn to read.** Boston : Ginn, 1949.

93— Seward, B., and D.B. Harris. The reading ease, human interest value, and thematic content of st. Micholas Magazine. **J. educ. Psychol.**, 42, 153-165, 1951.

94— Symonds, P.M. **The dynamics of human adjustment.** New York : Appleton-Century-Crofts, 1946.

95— Sullenger, T.E., et al. The leisure time activities of elementary school children. **J. educ. Res.**, 46, 551-554, 1953.

96— Terman. L.M. **Genetic studies of genius.** Stanford : Stanford Univ. Press, 3 Vols, 1925, 1930.

97— Terman, L.M., and M. Lima. **Children's reading.** New York : Appleton-Century-Crofts, 1927.

98— Torrance, E. P. **Are the gifted being challenged to think and learn creatively : :** An address presented to the Sacramento State College Association for Gifted children, Sacramento, California, 1961.

99— Torrance, E. P. **Guiding creative talent.** Englewood Cliffs, N.J. : Prentice-Hall, 1962.

100— Torrance, E.P., and R. Storm. **Mental health and achievement.** New York : Wiley, 1965.

101— Torrance, E.P. **Encouraging creativity in the classroom.** Dubuque, lowa : William C. I rown, 1970.

102— Tsaparojets. **Psychology and education of play at preschoolars.** (in Russian). Moscow : Prosfishania, 1966.

103— United Nations Report. Games of childhood same around world. **New York Times,** May 24, 1053.

104— Van Alystyne, D. **Play behavior and choice of play materials of preschool children.** Chicago : Univ. Chicago Press 1932.

105— Vernon, M.D. The development of imaginative construction in children. **Brit. J. Psychol.**, 39, 102-111, 1948.

106— Volberding, E. Out-of-school behavior of eleven-year-olds. **Elem. Sch. J.**, 48, 432-441, 1948.

107— Warner, W.L., and P.S. Lunt. **The social life of a modern community.** New Haven : Yale IUniv. Press, 1941.

108— Whitley, M.T. Children's interest is collecting. J. educ. Psychol., 20, 249-261, 1929.

109— Weider, A., and P.A. Noller. Objective studies of children's drawings of the human figure. I. Sex awareness and socioeconomic level. **J. clin. Psychol.**, 6, 319-325, 1950.

110— Williams, A.M. Children's choices in science books. **Child Develpm. Monogr.**, No. 27, 1939.

111— Wilson, F.T. Stories that are liked by young children. **J. Genet. Psychol.**, 63, 55-69, 1943.

112— Wilson, L.A. The influence of a child purpose upon the perseverance of young children. **J. exp. Educ.**, 23, 353-358, 1955.

113— Winstet, B. The use of a controlled play situation in determining certain effects of maternal attitudes on children. **Child Develpm.**, 22, 299-311, 1951.

114— Witty, P.A. A study of deviates in versatility and sociability of play interests. **Teach. Coll. Contr. Educ.**, No. 470, 1931.

115— Witty, P.A. Children's interest in reading the comics. **J. exp. Educ.**, 10, 100-104, 1941.

116— Witty, P.A. Reading the comics - a comparative study. J. exp. Educ., 10, 105-109, 1941 a.

117— Witty P.A., A. Coomer, and D. Mc Bean. Children's Choices of favorite books : a study conducted in ten elementary schools.
J. educ. 37, 266-278, 1946.

118— Wolfenstein, M. The impact of a child's story on mothers and children. **Monogr. Sec. Res. Child Develpm.**, 11, No. 1, 1946.

119— Yates, A.J. Behavior therapy. New York : Wiley, 1970.

* * *

طلعت منصور *

تنشيط نمو الأطفال

(تناول جديد لبعض قضايا النمو الانساني)

مقدمـــة :

النمو ، فى جوهره ، عملية تغير وتوجيه للتغير (هوايت ، ١٩٦٩) .

فالكائن الحي الانسانى ، منـذ لحظة الاخصاب حتى الموت ، يخضع لعمليات مـن التغير المستمر . وهو بـذلك ليس فى حالة استاتيكية ساكنة ابـدا ، بل ينمو في حركـة دينامية خلال المراحل المتعاقبة التى يمر بها ، نموا يتضمن كيانه ككل مركب : من النواحى الجسمية ـ التشريحية ، والعقلية ـ المعرفيه ، والانفعاليه والاجتماعية ، بما يحدد الخصائص

---

* دكتور طلعت منصور بقسم الصحة النفسية بكلية التربية جامعة عين شمس ، ومعار حاليا بقسم علم النفس بكلية الاداب والتربية جامعة الكويت . اسـهم ببحـوث منشورة في بعض المؤتمرات الدولية الاخيرة لعلم النفس (المؤتمر الدولى العشرين لعلم النفس بطوكيو ـ اغسطس ١٩٧٢ ، والمؤتمر الدولى الخامس للتوجيه التربوى والمهنى بكـويبك بكنـدا ـ اغسطس ١٩٧٣) ، وفى بعض المؤتمرات المحلية (المؤتمر الخامس والاربعين للثقافة العلمية بالقاهرة ـ ابريل ١٩٧٥) والمؤتمـرات العربيـة (الندوة الدولية العربية لخبراء التعلم الذاتي ، جامعة الدول العربية ـ ١٩٧٧ ، والمؤتمر الفكرى الثانى للتربويين العرب ببغداد ـ ١٩٧٨) . عضو الجمعية المصرية للدراسات النفسية ، والمجمع المصرى للثقافـة العلميـة والجمعيـة الامريكية لتقدم العلوم .

التـى تميـزه كشخصيــة متفردة . ولا تقف التغيرات عند حد معين ، ولكنها تستمر ، وان كانت بمعدل أقل سرعة حتى التدهور الـذي يخبره الكيان الانسانى فى حالات الشيخوخة وما مولد الطفل الاحدثا واحدا فى سلسلة متتابعة من التغيرات ، وليس بداية هذه التغيرات .

وربما لا يكون الفرد دائمـا واعيا بهـذ التغيرات التى تحدث باستمرار ، ففى السنوات المبكرة من الحياة ، حينمـا تـكون التغيرات سريعــة فى معدلها ، يكون الانتباه موجها الـى التغيرات بسبب التوافقات المستمرة التى على الطفل ان يقوم بها حيال هذه التغيرات . كما ان هذه التغيرات تكون مرغوبة من الفرد ، لانها تدل على انه «آخذ فى النمو» . وهذا يتناقض تماما مع اتجاه الفرد نحو التغيرات فى مرحلة الرشد ، حيث يمثل كل تغير اعلانا له وللعالم المحيط به انه «آخذ فى التقدم في السن» .

فالنمو عملية ارتقائية متتابعة موصولـة الحلقات من التغيرات التى تكشف عن أمكانات الطفل وتبرزها وتوسعها والنمو ، على هذا النحو ، عمليــة تفتح مركب للخصائص والامكــانات العديدة التى تؤلف معــا ، **وحدتها الوظيفيــة المتكاملة** ، مانسميه بالشخصية . ويتحقق هذا **التفتح الوجه** عن طريق العلاقة الديناميــة بين الطفل والبيئة ، بين المحددات الداخلية والمؤثرات الخارجية . ويقصد بالمحددات الداخلية كـل الشروط التى تجعل منـا اعضــاء فى الجنس البشرى من ناحية وشخصيات متفردة من ناحية أخرى ، فنحن نولد مزودين بتاريخ سابق مــن الوراثة ، مهيأيين لان تكون لنا بنية معينة ، ولانتمتع بمقدرات أو امكانات خاصة .

ولكن هذه الشروط الداخلية (الاستعدادات الطبيعية ، الخصائص التشريحية ــ المورفولوجية وخاصة الجهاز العصبي المركزي) لا تظهــر ولاتتحقق قدريا ولا تتفتح تلقائيا Automatic Unfolding ، وانما تظهر وتتحقق من خلال تحريك واستثارة المنبهات المتوفرة فى البيئة (الفيزيقية ، التاريخية ، الاجتماعية ، الثقافية ، النفسية) . فكل هـذه المقـدرات او الامكانات الكامنة قد تظهر اولاتظهر ، أو قد تتحقق بمستوى أو بآخر ، وفقا لعوامل استثارة النمو التي يوفرها الوسط الذي يعيشه الطفل . اي ان التفاعـل الوظيفي الموصول بين الطفل والبيئة وتوجيه هذا التفاعل هو وحده الذي يهيء التغيرات العديدة والمركبة التي تميز النمو وتحققه .

وفى ذلك يقرر « أندرسون » (١٩٥٧) :

« ما طبيعة الاشياء المتعلقة بالشخص الذي ندرسه من الميلاد حتى النضج ؟ تكشف الملاحظات المختلفة ، وحتى أكثرها اصطناعا ، عن نظام مركب Complex System للغاية يتحرك قدما مع الوقت عن طريق النمو فى التركيب والحجم ، هذا النظام يتلقى الكثير من الاستثارة من العالم الخارجي ويستجيب لها بطرق كثيرة ومختلفة .

وكلما ينمو يعقد اتصالات ذات مدى أوسع مــن الاشياء والاشخاص ، وتتزايد قدرته على حــل المشكلات ، ويبني الكثير من العادات والمهارات ، ويرتقي فى المعرفة وضبط الذات . انــه مركب متعدد الجوانب Complex manifold من خصائص وامكانات كثيرة تولف معا الشكل الكلي او الصورة الكلية لما نسميه بالكائن الحــي الانسـاني »

ولا يقتصر تطور نمو الطفل على الزيادة في الحجم والنسب ، ولكنه ينطوي على تغيرات كمية وكمية ، وعلى اختفاء معالم قديمة واكتساب معالم جديدة ، وعلى تعدل انماط اكثر بدائية لتصبح أكثر اتزانا وتعقيدا وحضارية . والنمو ، على هذا النحو ، يتالف من سلسلة من التغيرات التقدمية الارتقائية ذات نمط منظم ، مترابط ، تهدف الى تحقيق النضج . ويشير مصطلح « ارتقائي » أو « تقدمي » Progressive الى ان التغيرات تكون موجهة ، تودي الى الانطلاق بالنمو قدما الى الامام ولا تعود به الى الوراء » أما المصطلحان « منظم » Orderly « ومترابط » Coherent فيؤكدان على ان النموليس عملية عرضية ، وانما هناك علاقة محددة بين كل مرحلة من مراحل النمو والمرحلة التي تليها في التتابع النمائي .

يقول « ايريك اريكسون » (١٩٦٩) :

« اذا أردنا ان نفهم النمو علينا ان نتذكر مبدأ الخلق الجرثومي ، Epigenetic Principle الذي يشتق من نمو الكائنات الحية في الرحم . يقرر هذا المبدأ بان لاى شيء ينمو خطة للبناء Ground Plan وانه انطلاقا من هذه الخطة تظهر الاجزاء ، ويكون لكل جزء وقته الخاص الذى يبرز ويسيطر فيه ، حتى تظهر كل الاجزاء لتشكل كلا توظيفيا . وعند الميلاد يترك الطفل التبادل الكيميائي مع الرحم لينقل الى نظام التبادل الاجتماعي مع مجتمعه ، حيث تواجه مقدراته Capacities المتزايدة بالتدريج فرص وحدود ثقافته » . والنمو ، كما يقرر « جيزل » (١٩٥٢) أكثر من مفهوم . وهو يمكن ملاحظته وتقييمه ، وحتى قياسه الى حد ما ، في ثلاثة مظاهر اساسية : (أ) المظاهر التشريحية Anatomic (ب) المظاهر الفسيولوجية Physiologic (ج) المظاهر السلوكية Behavioral وتؤلف الجوانب السلوكية مع ذلك المؤشر الاساسى للوضع التطوري ــ النمائي Developmental Status وللامكانات النمائية للطفل Developmental potentials.

ويتمخض النمو عن خصائص جديدة وقدرات جديدة ووظائف جديدة تتوفر للطفل ، اعتمادا على ما تحقق من تطور نمائي لهذه الخصائص والقدرات والوظائف في مراحل سابقة ، لان كل تغير يستند الى ما سبقه من تغيرات ويؤثر بدوره على ما سيعقبه من تغيرات « **والنمو يمثل بذلك انتقالة من مراحل ادنى الى مراحل ارقى من النشاط والوظيفة ، استنادا الى « منجزات النمو »** Growth Achievements **في مسار العملية النمائية .**

موضوع علم النفس التطوري ــ النمائي اذن هو الدراسة العلمية لمظاهر التغير التي يخبرها الطفل النامي ، وعوامل هذا التغير ومحركاته ومثيراته ومعطلاته ، بهدف تفسيره والتنؤ به وضبطه وتوجيهه ، بما يحقق التطور الاحسن لنموه ، والتفتح الامثل لامكاناته التطورية النمائية . ويقوم تصورنا لدراسات النمو وقضاياه على فلسفة معينة ، وتتلخص في العبارة التالية : « النمو موضوع للدراسة ومنهج للبحث »(طلعت منصور ، ١٩٧٥) . ولقد عرضنا في عجالة لموضوع علم نفس النمو ، بقى ان نعرض لتصورنا للنمو كمنهج للبحث السيكولوجي .

ان العمليات والخصائص النفسية والقدرات العقلية لا تتوفر للطفل في شكل عطاء موروث Heriditary Endowment يعطي « مرة لا تتكرر » Once forall ، وانما تنمو في النشاط وارتباطا به ، أي وفقا لاستثارة امكانات النمو بالمنبهات الثقافية الملائمة . وبقدر ما يخضع

النشاط ذاته وبالتالي مقومات استثارة النمــوللتغير فى سياق التطور الثقافي للانسانية ، فان العمليات والخصائص النفسية والقدرات العقليةينبغي ان تتغير . واذا لم يكن الامر كذلك ، فكيف نفسر استيعاب الدماغ الانساني لكل المنجــزاتالثقافية المعاصرة (من انفجار معرفي ،وتكنولوجيا راقية ، الخ) ؟!

فالخصائص والعمليات النفسية (كالتفكيروالتذكر والادراك والانتباه وغير ذلك) والقدرات العقلية قابلة للتغير والارتقاء المتواصلين ، وخاصةفى المراحل التكوينية . ومن ثم ليس هناك مــن أساس لان نفترض ثباتها لدى الاطفال فى المراحل العمرية المختلفة ، وانما قابليتهــا المستمــرة للتغيرية والارتقائية .

هذا الاتجاه فى تناول قضايا النمو يفترضبقوة كذلك ان كل طفل يتمتع بالقدرة على اداء مناشط معينة ، وان مهمتنا كسيكولوجيين انتحدد أي الامكانات يمتلكها الطفل بالفعل ، واي القدرات ينبغى ان تنمى فيه ، وكيف تنمو .

وفى هذا الصدد يمكن أن نشير الى بعضالمنجزات العلمية فى تاريخ الفكر السيكولوجي ــ وتحمل دلالة بالغة الاهمية فى تغيير تصورنا للطفلالنامي ، ونقصد بها ما حققه « جان بياجيه » من منجزات ودفعات نظرية ومنهجية ، فتحت سبلاوآفاقا جديدة امام علم النفس عامة ودراسات النمو خاصة .

يبرز « أ. كلاباريد » ذلك ببراعة فى تقديمهللطبعة الفرنسية لكتاب بياجيه : « فى نفس الوقت الذى جعلوا فيه التفكير عند الاطفال مشكلة كمية،تناولها بياجيه **كمشكلة كيفية** » . ففى الوقت الذى تناول فيه علم النفس التقليدى التفكير عندالاطفال من منظور سلبى يسجل نواقص وعيوب هذا المستوى من نمو الحياة العقلية عند الاطفالعلى أساس مقارنتها بتفكير الكبار ، حاول بياجيه أن يكشف عن الخصائص الكيفية لتفكير الاطفالمن منظور ايجابى . فما كان يسترعى اهتمــام الباحثين من قبل هو : « **ما الذى لا يوجد عنــدالطفل** » .. ؟ ما الذى ينقصه بالمقارنة بالكبار ؟ وبالتالى حددوا خصائص التفكير عند الطفــلهكذا : الطفل تعوزه القدرة على التفكير المجرد ، وتكوين المفاهيم وربط الاحكام والاستنتاجالمنطقىوغير ذلك . ولكن بفضل بياجيه اتخذت البحوث مسارا آخر يدور حول « **ما الذى يوجد بالفعلعند الطفل** ؟ وبماذا يتصف تفكيره من خصائص وصفات مميزة ؟ »

وفى الحقيقة ان ما قام به بياجيه يعتبــرجادا وجديدا فى تاريخ الفكر السيكولوجى افاد فيه من آراء « روسو » بأن الطفل ليس اطــلاقابالشخص الراشد الصغير Miniature Adult وبأن عقلــه ليس بعقــل الراشـــد على نطــاقصغير . وتكمن وراء هذه الحقيقة التى أيــدها بياجيه بالاثبات التجريبى ، فكـــرة بسيطة فىجوهرها فكرة التطور التى أضاءت كل اعمـــال بياجيه الفذة (فيجوتسكى ، ١٩٧٥ ، ص ٨٥ ــ٨٦) .

وهكذا تكون مهمة علم النفس « العلمى »و « الانسانى » اعظم واسمى من مجرد التوصيف أو القياس الكمى لـ « الوضع الراهن » Status Quo الذى وصل اليه مستوى نمو الخصائص

والعمليات النفسية والقدرات العقلية لدى الطفل. وعلم نفس النمو مطالب بذلك بان يتبنى تصورا تفاؤليا فى تناول الظاهرات النمائية وامكانية نموها وانمائها ، وان يصطنع طرقا مناسبة للانماء وليصبح الاطفال فى تطورهم « مكتملى الانسانية » Fully Human

النمو ، اذن ، كمنهج للبحث السيكولوجي يفترض تتبع مسار نمو الظاهرة النفسية ، وصيرورتها ، وامكانات دفعها الى المستوى الامثل . وهو يتطلب منا الكشف عن الابعاد الكمية والكيفية للتغيرات التى تطرأ عليها ارتباطا بميكانزمات تكشف خصائص هذه الظاهرة وتكوينها وتوظيفها فى سياق النشاط الذى نوفره للطفل النامى وعوامل استثارة امكانات نموه ، **ووفقا لهذا المنهج لا نضع فى الاعتبار « الناتج** Product **فحسب ، ولكن ايضا العملية** Process **ذاتها ، لا نهتم بمنجزات النمو فحسب ، ولكن ايضا بالمسار والسياق النمائى للظاهرة النفسية.**

فى داخل هذا الاطار تبرز بعض القضايا الحاسمة :

.. الى اى حد تعتبر امكانات الطفل ثابتة أم متغيرة .. ؟

.. ما هى القوى الدافعة لمسار العملية النمائية..) ما الذى يحدد خصائص النشاط النفسى للطفل فى مرحلة معينة من مراحل النمو ؟

.. ما دور النشاط فى تفتح وتوظيف امكانات الطفل الكامنة .. ؟

.. ما العلاقة بين النمو والتعلم .. ؟

امكانات الطفل بين الثبات والتغير (صيرورة النماء) :

فى صيف عام ١٩٧٠ زار آرثر جنسن Arthur Jensen أستاذ علم النفس بجامعة كاليفورنيا بريطانيا ليعقد ندوتين فى كامبردج : احداهما نظمتها « هيئة أبحاث المخ » Brain Research Association والاخرى « جمعية كامبردج للمسئولية الاجتماعية فى العلم » . Cambridge Society for Social Responsibility in Science ولقد دعى جنسن خاصة لايضاح ومناقشة نظريته التى طفق يبشر بها عن طبيعة الذكاء الانسانى وتوزعه ، تلك النظرية التى أثارت موجة عارمة من السخط والغضب فى الولايات المتحدة ، امتدت بدورها الى بريطانيا .

تتلخص نظرية جنسن ، كما عرضها فى بعض أعماله (١٩٦٦ ، ١٩٦٧) ، فى أن الملونين بالولايات المتحدة ، بسبب ما جبلوا عليه من عطاء خِلقى ، أقل ذكاء من البيض ، وكذلك الفئات والطبقات الدنيا التي تنتمى الى الانسان الابيض أقل ذكاء من الانسان الابيض الذى ينتمى الى الطبقة الوسطى والارستقراطية ، فالانخفاض فى المستوى العقلى مرتبط بالتكوين الوراثي المنحط Inferior Genstic Make-up

ويقرر جنسن أن ما توصل اليه من بينة ، وهى مشتقة من نتائج اختبارات الذكاء والقياس النفسى ، يؤكد بشكل قاطع ان كلا من الفروق السلالية والطبقية تقوم على امكانات موروثة ، وبالتالى فهى « ثابتة » ، « مستقرة » تستعصى على التغير بواسطة السياسات الاجتماعية والتربوية .

واتجاه « چنسن » الجديد هو فى جوهره تكرار للاتجاهات القديمة والمعيبة المشتقة من اختبارات الذكاء الجماعية ، وخاصة الاتجاه الذى يذهب الى أن الوراثة تحدد مستوى الذكاء . ويقرر ، وهو يتفق مع « سيريل بيرت » ، أن ٨٠٪ على الاقل من التباين فى الذكاء يرجع الى الوراثة و ٢٠٪ الى العوامل البيئية .

وعلى ذلك يحدد چنسن نمطين او مستويين للذكاء : المستوى الاول يتفق مع القدرة على « التعلم الترابطي » Associative learning ، اى على التعلم الآلى البسيط ، قوة الاسترجاع ، وغير ذلك ، اما المستوى الثانى فيتفق مع القدرة على ادراك المفاهيم ، حل المشكلات ، اى باختصار على التفكير وتناول مواد التفكير بفاعلية . ويسلم بأن هذين المستويين ، كنتيجة للعوامل الخِلْقية ، يتوزعان بطريقة متمايزة بين الناس « كدالة للطبقة الاجتماعية » . ونتيجة لذلك ، واتفاقا مع هذا التصور ، ينبغى أن تتمايز التربية . فبالنسبة للمستويات الدنيا يكون التعليم الملائم قائما على التعلم الترابطى ، الآلى (حيث يكون : المدخل = المخرج . Input = Output) ، فى حين ينبغى تخطيط التعليم بالنسبة للطبقتين الوسطى والارستقراطية القادرتين وحدهما على التفكير التصورى Conceptual Thinking (التفكير بالمفاهيم) لكى يبنى وينمى هذه القدرة الراقية .

وليس هنا مجال لاستعراض نظرية « چنسن » بالتفصيل ، ولكن ما نود الاشارة اليه تلك الموجة من التعاطف عليها . من هذا ، على سبيل المثال ، ما نشره سنو C.P. Snow فى المجلة الاسبوعية المعروفة بـ « العالم الجديد »(New Scientist, May 1, 1969) منددا بـ « عاصفة الاحتجاج والتجريح » التى أثارتها نظرية چنسن . ويعتمد « سنو » فى بعض دفاعه عن هذه النظرية على « بعض » البيانات المتعلقة « بالانجاز العقلى والفنى لدى اليهود » الذى يعزيه الى معطيات وراثية .

واتجاهات عنصرية « فاشية » هذه شأنها ليست بغريبة على تاريخ الفكر السيكولوجى . فلا يغيب عن ذهننا « علم النفس النازى » الذى تكرس على تبرير نظرية « المانيا فوق الجميع » ، والنظريات والدراسات التي خرج بها بعض العلماء الانجليز (١) فى أوج الامبراطورية البريطانية لتبرير أوضاع عالمية امبريالية يقوم فيها الرجل الابيض بمهمة السيادة على الاجناس الاقل وتدبير أمورها لعجزها ، بما يعرف بعبء الرجل الابيض White man's burden

وهذا الاتجاه اللا علمى ، او الذى يأخذ بالعلمية الشكلية ، يشيع بصفة خاصة ويجد له تربة خصبة لدى السيكولوجيين الاسرائيليين ، نذكر منهم على سبيل المثال ، السيكولوجى « أمير » بجامعة « بارايلان » الذى حاول فى دراسة قدمها أمام « المؤتمر الدولى العشرين لعلم

---

(١) من هذه الدراسات على سبيل المثال :

— H. L. Gordon. The brain capacity of East Africans. **Eugen Rev.** 25:223, 1934.

— R.A. Oliver. Intelligence of European and African schoolboys in KENYA. **A. Afr. J.** 9:160, 1932.

النفس » (طوكيو ١٩٧٢) ان يبين، بمنطق فاشيكاذب ، ان الشباب الشرقى (العربى والايرانى) اقلفى وظائفه العقلية من الشباب الاسرائيلي (٢).

وما تخرج به مثل هذه الدراسات من بيانات لا يصمد امام الحقائق العلمية الرصينة ، بل تتهاوى وتتلاشى مع نور العلموالانسانية . ويكاد يستقر الفكر السيكولوجي المعاصر على ان العمليات والخصائص النفسيةوالقدراتالعقلية فى تشكلها لدىالطفلهي انعكاس للواقع الثقافى بدرجة كبيرة . وتمثل مقدرة الكائنالحى الانسانى على الانعكاس كخاصية لنظامه الراقى ، كما يتضح فيما يقوم به المخ من وظائفأوجدتها ظروف الحياة ذاتها ، وهيأتها الخبرة الاجتماعية . ويلعب الانعكاس دورا هاما للغايةفى العمليات الحياتية لانه يهىء الفرد للانتظام Orientation مع موضوعات البيئة وظاهراتها،وتمكينه من ضبط وتوجيه سلوكه ذاته .

فالانعكاس ، من وجهة النظر التطوريةالنمائية ، يكون فى البداية نشاطا خارج الطفل مرتبطا بموضوعات الوسط المحيط ويصير فيمابعد وبالتدريج نشاطا عقليا ، داخليا ، ذاتيا . الا ان المقدرة على الانعكاس لا تفقد ابدا علاقتهابالمصدر الاصلى ، بالاداءات العملية الخارجية التي يرتبط بها ارتباطا متبادلا ، وتؤلف وحدةمع هذا النشاط الثقافى بدرجة او باخرى . وفى نفس الوقت يتم بناء النشاط النفسى الداخلىبطريقة اشبه الى حد كبير بالنشاط الخارجى .

وتتطلب منا هذه القضايا وقفة لاعادة تناولالكثير من التصورات التقليدية عن نفس عملية النمو العقلى للطفل فى ضوء مبادىء ثلاثة للنمو :

١ ــ النمو العقلى للطفل كعملية استيعاب للخبرة الانسانية المعاشة

يتميز النمو العقلى للطفل ، كيفيا ، عنالنمو النوعى لسلوك الحيوان . تتحدد هذه الافضلية أولا وقبل كل شىء فى غياب عمليةاستيعاب او تمثل الخبرة لدى الحيوانات ، تلك العملية التي تتجمع بواسطة الانسانية على مدارالتاريخ الاجتماعى .

يمكن ان نميز لدى الحيوانات خبرة ذاتنمطين : خبرة متجمعة بالتطور النوعى ومتثبتة وراثيا ، وخبرة فردية مكتسبة حياتيا . ويتفقمع هذين النمطين من الخبرة ميكانزمات للسلوك ذات نمطين ايضا : الاولى ــ تلك الميكانزماتالوراثية التي تكون اما جاهزة للاداء تماما منذ لحظة الميلاد ، او تنضج بالتدريج فى عملية النموالنوعى . وتكوينهذه الميكانزماتيتم وفقا للقوانين العامة للتطور البيولوجى ويمثل عملية بطيئة كردفعل للتغيرات البطيئة فى الوسط البيئي . هذه الميكانزمات تحتلالمكانة الاكبر فى عمليات التكيف،اما النمط الثانى من ميكانزمات السلوك لدى الحيوانات ، فهى ميكانزمات اكتساب الخبرةالفردية . وتتحدد خاصيتها الاساسية بأنه فيها تتثبت وراثيا فحسب امكانية تكوين السلوك الذىمن شأنه ان يحقق التكيف الفردى ، وفى نفس الوقت يتثبت السلوك ذاته فى ميكانزمات الخبرةالوراثية .

---

(٢) Y. Amir. Inter - and intra - ethnic comparisons of intellectual functions in Israeli and MiddleEastern populations. **Abstract Guide of the XXth International Congress of Psychology**, Tokyo, 1972.

وهنا ينبغى ان نؤكد ان هذين النمطين من الخبرة وميكانزمات السلوك مرتبطان ببعضهما ارتباطا متبادلا ليس فطريا فحسب ، ولكن ايضاوظيفيا . فظهور السلوك الوراثي لدى الحيوانات لا ينعزل اطلاقا عن الخبرة الفردية ، ومن ناحيةاخرى يتكون دائما السلوك الفردى على أساس السلوك الوراثي ، النوعى .

اى أن الوظيفة الاساسية التى تحققها ميكانزمات تكوين الخبرة الفردية لدى الحيوانات تتمثل فى تكيف السلوك النوعى للعناصر المتغيرةبالوسط البيئي . ومن هنا يمكن تصور التطور النوعى للحيوانات على انه تجمع للخبرة الفرديةتستخدم فى تحقيق نشاطها الغريزى فى ظروف خارجية دينامية معقدة .

وبالنسبة للانسان ، يختلف الموقف تماما . فاختلافا عن الحيوان ، يتمتع الانسان بخبرة من نوع معين ـ الخبرة التاريخية، الاجتماعيةالمستوعبة. والسؤال : ماذا عن هذه الخبرة المميزة للانسان بشكل فريد .. ؟

فى مسار التاريخ الانسانى ، تجمعت منجزات هائلة وعظيمة ، هي أيضا منجزات النمو العقلى للانسان ، تناقلها من جيل الى جيل .وتجسدت هذه المنجزات بجلاء ، من الآلة اليدوية البدائية الى العقول الالكترونية ووسائط ارتيادالفضاء ، فى اللغة ، فى العلم ، فى الفن ، فى الانتاج، فى نظم العلاقات الاجتماعية ، وفى غير ذلك منمظاهر الوجود الانسانى . وفى هذه المنجزات ، من ناحية اخرى ، تتجسد الخبرة التاريخيةللانسانية ، وايضا القدرات العقلية للانسان التى تشكلت فى هذه الخبرة .

وهكذا ، خلافا للتطور النوعى للحيوان الذى تبدتمنجزاته فى شكل تغيرللتنظيم البيولوجى، تدعمت منجزات التطور التاريخى للانسان فى كلما ابدعته عقليته وعبقريته من انتاج ، وفى تلك الظاهرات المثالية (اللغة ، العلم) التي عاشهاالانسان .

وثمة عملية اخرى اكثر تعقيدا واهمية ـعملية استيعاب او تمثل تلك المنجزات المتجسدة فى عمله وانتاجه ورموزه . الطفل منذميلاده محاط بعالم من الموضوعات والعلاقات ـ فهذه مواد للمعيشة ، وأدوات بسيطة ، وهذهلغة وما ينعكس فيها منتصورات ومفاهيم وأفكار. وحتى مع الظاهرات الطبيعية يلتقى الانسانبظروف اوجدتها عقلية الانسان ـ فهذه ملابس تقيه البرد ، وتلك مواصلات تيسر انتقاله .ويمكن القول بأن الطفل يبدأ نموه النفسى فى عالم انساني .

ولكن .. ، الا يتم نمو الطفل كعملية تكيفلهذا العالم ؟

الاجابة بالنفى .. فخلافا لوجهةالنظر الشائعة ، لا يعبر مفهوم التكيف عن ركيزة جوهرية للنمو النفسى للطفل ، الطفل لا يتكيفمع عالم الموضوعات والظاهرات المحيطة به ، ولكن يجعله عالمه ذاته ، اى يستوعبه ويتمثله .

ونسوق لذلك أبسط مثال : يلتقى الطفل ،فى الوسط المحيط به ، بحقيقة وجود اللغة التي تعكس تراثا انسانيا حيا متجمعا على مر العصور التاريخية . ويحيل الطفل ، فى عملية نموه ، هذه اللغة الخارجية الى لغة لذاته . وهذا يعنىأنه تتكون لديه تلك الوظائف والقدرات الانسانية المتميزة ، كالقدرة على فهم الكلام والقدرة علىالتكلم، وتلك الوظائف كالسماعوالتلفظالكلاميان. وهنا تؤلف الخصائص البيولوجية الوراثية للطفلفحسب شروطا لازمة لامكان تكوين هذه القدرات والوظائف . فلكى يتكون لدى الطفل ، على سبيلالمثال ، السماع الكلامى ، ينبغى ان يتمتع بطبيعة الحال بأعضاء السمع والاعضاء التي تسهم فىالتلفظ . لكن وجود الاصوات الكلامية فى الوسط المحيط بالطفل يفسر لماذا يتكون لديه السماعالكلامى .

ان علاقة الطفل بالعالم المحيط تتوسطبعلاقته بالناس ، حيث ينخرط معهم فى عشرة كلامية وعملية . ولنأخذ لذلك مثالا من حياةالطفولة : كيف تعلم الطفل الامساك بالملعقة .. ؟ لم ير الطفل أبدا ذلك الشىء البسيط ، وعندمايعطيه الوالدان هذه الاداة فى يده ، ماذا سيفعل بها .. ؟ سوف يتناولها بيديه ويحركها ويلوح بهافى حركات عشوائية ، ويخبط بها ، ويحاول أن يأخذها فىفمه ، وغير ذلكمن حركات غير منتظمة. ويقول آخر ، الملعقة تتبدى بالنسبة له ليس من ناحية وسائل استخدامها التي تعارف عليهاالمجتمع ، ولكن من ناحية خصائصها المادية الطبيعية ، غير المتميزة . والآن فى مواقف متكررةتقوم الام باستخدام الملعقة كوسيلة لاطعام طفلها، وبعد ذلك تعطيه الملعقة فى يده ، ويحاول مستقلاان يأكل بها . فى البداية تخضع حركات الطفل للوسيلة الطبيعية « أخذ ما تتناوله يده فى فمه ».وفى هذه الحالة لا تحتفظ الملعقة فى يده بالوضع الافقى اللازم ، والنتيجة تساقط الطعام علىالمائدة . لكن الام لا تقف ساكنة : فهي تساعد الطفل ، وتتدخل فى أداءاته ، وتتكون لدى الطفل،فى هذا الاداء « المشترك » الناشىء على هذا « المشترك » الناشىء على هذا النحو ، خبرةاستخدام الملعقة والآن يجيد الطفل استخدام الملعقة كأداة انسانية أو كموضوع انسانى .

الخصائص والقدرات الانسانية تتكون ،اذن ، فى عملية استيعاب وتمثل الطفل لمنجزات الحضارة الانسانية فى مسارها من جيل لآخر .

٢ ـ نمو الوظائف والقدرات العقلية كعملية تكوين لمنظومات مخية وظيفية (٣)

الموقف العلمى الذى يقرر أن القدرات والوظائف العقلية لا تتكون فى شكل وراثة بيولوجية ،

- A.R. Luria. **Higher cortical functions in man.** New York ; Basic Books, 1966. (٣)
- A.R. Luria **Human brain and psychological processes.** New York ; Harper & Row, 1966.
- E.D. Homskaya. **Brain and activation.** Moscow Univ. Press, 1972.
- K.H. Bribram. Neocortical Functions in behavior. In H.F. Harlow & C.N. Woolsey (Eds.) **Biological beses of behavior.** Univ. Wisconsin Press, 1958.
- K.H. Bribrain A review of theory in Physiological Psychology. **Annual Review - of Psychology**, 11, 1960.
- D.O. Hebb. **The Organization of behavior.** New York : Wiley, 1949.
- D.O. Hebb Intelligence, brain functions and the theory of mind. „**Brain**", 82, 1959.
- I.P. Pavlov. Abrief outline of the higher nervous activity. In C. Murchison (Ed.) **Psychologies of 1930.** Workester, Mass. : Clark Univ. Press, pp. 207-220, 1930.

ولكن فى سياق مكتسبات حياتية وفى عملية استيعاب منجزات الحضارة الانسانية بانتاجها وادواتها ورموزها ، يضع أمامنا قضية بالغة التعقيد ، تبدو متناقضة ، عن الاساس الفسيولوجى ــ التشريحى لهذه الوظائف والقدرات .

يتلخص حل هذه المفارقة فى أنه فى نفس الوقت مع تكوين العمليات النفسية العليا لدى الطفل تتشكل الاعضاء الوظيفية للمخ التي تمثل أساسا جسميا ديناميا لنشاط هذه العمليات ، وهذه الاعضاء المخية عبارة عن تجمعات اومنظومات انعكاسية ثابتة ، تستخدم لانجاز أعمال محددة . وبالرغم من أننا نجد امكانية التكوين الحياتي لهذه المنظومات المخية الوظيفية لدى الحيوان ، الا أنها لدى الطفل تصير ركيزة لتحقيق تكوينات جديدة . Neoformations فى نموه النفسي ، كما ان تكوين هذه المنظومات يصير هو القانون الحاسم للعملية التطورية النمائية .

وتسمح نتائج الدراسات المختلفة فى علم النفس الفسيولوجي ، والعصبى ، والمقارن ، ان نحدد خصائص هذه الاعضاء المخية الوظيفية الناشئة حياتيا :

أولا : حينما تتكون تلك الاعضاء ، فانها تقوم بوظيفتها كعضو واحد . لذا يمكن ان تكتسب العمليات النفسية المرتبطة بها خاصية الاداءات المباشرة التي تعبر عن قدرة معينة ، مثل القدرة على الادراك المباشر للعلاقات المكانية او الكمية اوالمنطقية .

ثانيا : بالرغم من أن المنظومات الوظيفية تتشكل عن طريق تكوين روابط انعكاسية شرطية ، لكنها لا تنطفىء كما تنطفىء الافعال المنعكسة الشرطية . فمن المعروف ، على سبيل المثال ، ان القدرة على التصور البصرى للاشكال المدركة باللمس تتكون حياتيا . ولذا تختفى تماما لدى الاطفال المكفوفين منذ الميلاد ، بينما تظل هذه القدرة لعشرات السنين لدى الاطفال الذين فقدوا الابصار أن تكونت لديهم بالفعل هذه القدرة ، بالرغم من عدم امكان توفر اى تدعيم للروابط اللمسية البصرية لديهم .

ثالثا : المنظومات المخية الوظيفية قابلة لاعادة البناء ، فبعض مكوناتها يمكن أن تستبدل بغيرها ، وعند ذلك تبقى المنظومة الوظيفية ككل مركب . اى أن هذه المنظومات تكشف عن قدرة فائقة على التعويض .

والسؤال : كيف تتكون هذه الاعضاء المخية الوظيفية ؟

الطفل لا يولد بأعضاء مخية جاهزة للعمل على تحقيق الوظائف والعمليات النفسية الراقية (تفكير ، تذكر ، ادراك ، انتباه ، تخيل ، كلام ، انفعالات ، حركة ...) ، ولكن هذه الاعضاء وما يرتبط بها من وظائف وعمليات فى وحدة وظيفية حية تنمو « حياتيا » فى سياق عملية استيعاب وتمثل الخبرة الاجتماعية المتجمعة . وهذه المنظومات تتكون وفقا للميكانزم العام لتكوين العلاقات الشرطية ، ولكن على نحو يختلف عن تكوين السلاسل العادية للافعال المنعكسة الشرطية .

وفى هذا تكشف البينة السيكونيورولوجية ان الوراثة تزود الطفل الوليد بكافة الطاقات

والاجهزة والاعضاء اللازمة التى تهيئه للتفاعل مع البيئة والاستجابة للمثيرات المختلفة المتوفرة فى الوسط المحيط به . وليست عملية الولادة الا بداية لنشاط مرحلى معقد مستمر : تأثير واستجابة ، استعداد وتفتح ، حيث تقوم علاقة وظيفية متبادلة ، تفاعل موصول ، بين الاورجانزم ، والبيئة يكمن وراء تطور نمو الطفل .

٣ ـ النمو العقلى للطفل كعملية تكوين لأداءات عقلية

ينخرط الطفل منذ فترة مبكرة من حياته فى اختلاط كلامي مع المحيطين به ؛ يلتقى بكلمات ، ويبدأ فى فهم معناها واستخدامها بفاعلية فى كلامه . ويمثل تعلم الكلام واستيعاب اللغة الشرط الحاسم لنموه العقلي ، لان مضمون الخبرة الاجتماعية ـ التاريخية للناس يستقر ويتوطد ليس فحسب فى شكل الاشياء المادية ؛ فهذا المضمون يعمم وينعكس فى شكل كلامي ، لفظى . وفى هذا الشكل خاصة يتبدى أمام الطفل ثراء المعارف المتجمعة بواسطة الانسانية ، والمفاهيم المتعلقة بالعالم المحيط به (٤) .

أمام الطفل ، اذن ، مهمة استيعاب هذه المعارف والمفاهيم . ولكن لكي يتم ذلك ينبغى أن تتكون لديه تلك العمليات المعرفية الملائمة .

والسؤال : كيف تتكون العمليات العقلية ـ المعرفية ؟

هنا ، ينبغى ان نتصدى لرفض موقفين علميين :

اولا : وجهة النظر التى تذهب الى ان الطفل يتمتع بوظائف عقليـة او بعمليات معـرفية « وراثية » ، وان الظاهرات الخارجية المؤثرة عليها تستدعيها الى الحياة فحسب .

ثانيا : التسليم بأن العمليات العقلية تتكون لدى الطفل تحت تأثير خبرته الفردية الشخصية ، وبأن الطفل فى عملية التعلم يخضع لتأثـيرات يتمخض عن تكرارها وتدعيمها تشكل علاقات او ارتباطات شرطية جديدة ، وبأن نشاطه العقلى لايخرج عن كونه مجرد استرجاع بسيط لهـذه العلاقات او الارتباطات .

تصورات كهذه لا تستقيم مع الحقائق ، الا يتطلب هذا المسار تكوين عمليات عقلية لدى الطفل ، وفقا لهذين الموقفين ، سندا من خبرة هائلة ووقتا كبيرا للغاية . وفى الحقيقة أن تكوين العمليات العقلية لدى الطفل يعتمد على خبرة فردية ليست بضخمة نسبيا ، ويتم نسبيا على نحو سريع جدا .

تفسير ذلك ، **ان الطفل يستوعب الخبرة فى شكلها المعمم** Generalized **بالفعل** . ومع ذلك لا يمكن ان تقدم اية خبرة الى الطفل فى شكل جاهز الصنع . يمكننا ان نعلم الطفل ، مثلا ، تلك الارتباطات مثل ٥ + ٣ = ٨ أو ٦ ـ ٢ = ٤ وغير ذلك من امثلة مشابهة . ولكن هذا لا يؤدى بالطفل على الاطلاق الى ان يتقن العمليات الحسابية الملائمة او مفهوم العدد . لذا لا يبدأ تعلم الحساب

---

(٤) A.R. Luria. **The role of speach in regulation of normal and abnormal behaviour.** London : Pergamon Press, 1961.

بهذا ، وانما بالتكوين الفعال لعمليات ذات موضوعات أو أشياء خارجية ــ بما يتفق معها من تحويل وعد . ثم تتحول هذه العمليات الخارجية بالتدريج الى عمليات كلامية (العد بصوت مسموع) ، وتتبلور وتختزل ، وتكتسب فى النهاية خاصية العمليات الداخلية (العد فى العقل) التي تتوافر بطريقة آلية فى شكل افعال ارتباطية بسيطة . الا انه يكمن وراءها الآن تلك الاداءات المعممة مع مفهوم الكميات التي بنيناها لدى الطفل فى البداية . ولذلك يمكن دائما ان تتوسع هذه الاداءات وان يستخرجها (فى شكل استجابات خارجية) من جديد .

ومن ثم ، تتطلب اجادة الطفل للمفاهيم والتعليمات والمعارف أن تتكون لديه العمليات العقلية الملائمة . ولكى يتحقق ذلك ، فان هذه العمليات ينبغى أن تبنى لديه بطريقة فعالة : فى البداية تظهر فى شكل اداءات خارجية يشكلها الكبار فى الطفل ، ثم تتحول الى عمليات عقلية داخلية .

يتضح مما تقدم ان بناء الشخصية وتكوين الذكاء والقدرات العقلية وتشكل الوظائف المعرفية لدى الاطفال هو انعكاس للواقع الثقافى بدرجة كبيرة ، وان خصائص الشخصية والمستويات العقلية ــ المعرفية لا تتوفر للطفل منذ ميلاده فى شكل معطيات وراثية ، او فى شكل خصائص ومقدرات قدرية جاهزة الصنع ((تعطى مرة لا تتكرر)) Once for All و ((لا تتغير)) .

فبقدر ما يخضع الواقع الثقافى ذاته للتغير فى عملية التطور التاريخي للانسانية ، فان القدرات والخصائص التى يمتلكها الفرد ينبغى ان تتغير . ففى كل مرحلة من التغير التاريخي يواجه الانسان بمتطلبات جديدة تتغير بتاثيرها قدرات الفرد وخصائصه . ولكن هذا لا يستبعد اطلاقا دور الاستعدادات الطبيعية (الخصائص الفطرية ، والمكونات التشريحية ــ المورفولوجية للجهاز العصبى) التي يستند عليها ــ الى حد ما ــ نمو القدرات . ((فالقدرات لا تتمركز كميزة فى مخ الفرد . وانما يتضمن المخ فى ذاته كميزة ليس هذه او تلك من القدرات ، ولكن بحسب القدرة على تكوين هذه القدرات)) (٥) .

الا ان الاستعدادات الطبيعية ذاتها تمثل شروطا لازمة لنمو القدرات فحسب ، ولكنها لا تحتم ولا تحدد التحقيق الفعلى القدرى لهذه الاستعدادات . فالنشاط الذى يقوم به الطفل فى الوسط المحيط به يكمن وراء نمو استعداداته الطبيعية وامكاناته الكامنة .

يقول آخر ، النمو ليس عملية تفتح ذاتى Automatic Unfolding فليس بالضرورة ان تتحقق الاستعدادات الطبيعية فى واقع الطفل ، واذا تحققت فقد تتحقق بمستوى او بآخر .

الاستعدادات الطبيعية ، اذن ، تتفتح فى السياق الثقافى الذى يتفاعل معه الطفل ، تتكون وتاخذ خصائصها ومستوياتها وفقا له .

---

(٥) A.N. Leontiev. The significance of the concept of refilection for scientific psychology. **Proceedings of the XVIII International Congress of Psychology,** 1966.

القوى الدافعة لمسار العملية النمائية

فى سياق عملية النمو وبتاثير ظروف حياتية محددة يعيشها الطفل ، يتغير الموقع الذي يحتله الطفل فى نظام العلاقات الانسانية . يتضح ذلك من تبين هذه الحركة الارتقائية فى مسارها من مرحلة لاخرى .

طفولة ما قبل المدرسة ـ تلك الفترة المبكرة من الحياة التي يتفتح فيها امام الطفل عالم الواقع الانسانى المحيط به . والطفل فى نشاطه ، وخاصة فى نشاط لعبه الذي يتجاوز الآن الحدود الضيقة للتناول البسيط للاشياء المحيطة وللاختلاط بطريقة مباشرة مع الاشخاص المحيطين ، ينخرط فى عالم اكثر رحابة ، مستوعبا اياه فى شكل ادائي . فهو يستوعب العالم المادى كعالم للموضوعات الانسانية ، فيه تنطبع الاداءات الانسانية المرتبطة بهذا العالم ، وتتكون صور حسية ـ حركية وعقلية يسترجعها فى مواقف مختلفة . الطفل « يسوق السيارة » و « يصوب المدفع » ، بالرغم من انه لا يستطيع حقيقة ان ينطلق بالسيارة أو يطلق النار من المدفع . فحاجات الطفل الحياتية الاساسية تلقى الاشباع بواسطة الكبار بدون ما علاقة بانتاجية نشاطه .

ويخبر الطفل علاقته بالاشخاص المحيطين به بطريقة مباشرة ، فهو ينبغي ان يحتسب المطالب التي يفرضها الكبار المحيطين على سلوكه ، والتي تحدد بدورها علاقاته الوطيدة معهم . وبهذه العلاقات لا ترتبط نجاحاته واخفاقاته فحسب ، وانما يكمن فيها ايضا لذته وألمه ، وبالتالي فهي تتمتع بقوة الدافع .

في هذه المرحلة العمرية يتوزع عالم الاشخاص المحيطين بالطفل ، وبالنسبة له ، الى دائرتين : الاولى ـ وتتضمن الاشخاص القريبين (الاب ، الام أو من يحل محلهما) من الطفل ، وتؤدي علاقاته بهم الى تحديد علاقاته بكل ما يحيط به . وتتضمن الدائرة الاخرى ، وهي اكثر اتساعا ، كل الاشخاص الآخرين الذين تتوسط علاقاته بهم بتلك العلاقات التي تتشكل فى جماعة الدائرة الاولى ، جماعة الاسرة ذات العلاقات الوطيدة الدافئة .

ويمثل التحاق الطفل بالمدرسة حدثا سيكولوجيا بالغ الاهمية فى تاريخ حياة الطفل ، فكل نظام علاقاته الحياتية يخضع لاعادة البناء والتنظيم . وتبرز الآن مهمة المجتمع كفرض واجب ، وليس فقط مهمة الوالدين أو المعلم . ويؤدى تحقيق هذا المطلب الى تحديد موقع الطفل فى الحياة ، وظيفته ودوره الاجتماعيين ، وبالتالي ما تنطوي عليه حياته من مضمون فى المستقبل برمته .

هل يعي الطفل ذلك ؟ طبيعي ، ان يكون على وعي بأهمية هذا الحدث (الالتحاق بالمدرسة) ، هذا ايضا قبل التعلم الشكلي . فحينما يجلس الطفل على دروسه ، قد يشعر بنفسه انه مشغول بعمل عظيم حقيقة . ويمنع الكبار الاطفال الصغار فى الاسرة من احداث ازعاج لطفل المدرسة ، وحتى قد يضحي الكبار باعمالهم الخاصة لكي يتوفر الطفل على دروسه . ويختلف هذا تماما عما كان يقوم به من لعب ونشاط من قبل . **فموقع نشاط الطفل ذاته فى حياة الكبار المحيطين به قد صار موقعا آخر .**

ففى هـذه المرحلة يمكن ان نشترى اولاللطفل لعبة ، ولكن من المستحيل أن نشتري له كتابا وكراسة وقلما . لذا يطلب الطفل ان نشتري له كتابا او قصة او مجلة اكثر مما يطلب شراء لعبة . مثل هذه المطالب تحمل مغزى مختلفـاليس بالنسبة للوالدين فحسب ، ولكن ايضـا بالنسبة للطفل ذاته .

وفى هذه المرحلة الارتقائية تفقد عـلاقات الطفل الوثيقة دورها المسيطر السابق لتمتـد الى دائرة أكثر اتساعا لاختلاطه وعشرته ، فهذه العلاقات ذاتها تتحدد الآن ـ بالعلاقات الآخذة فى الاتساع . وكيفما كانت ، على سبيل المثال ، العلاقات الاسرية الوثيقة التي يشعر بها الطفـل طيبة ، فلا بد من ان يؤدي حصوله على درجة منخفضة فى أعماله المدرسية أو عدم استحسان المعلم له الى تعكير صفو هذه العلاقات . ويختلف هذا تماما عما كان من قبل ، فى سن ما قبـل المدرسة . وهنا **كما لو ان المدرسة تبلور فى ذاتها علاقات جديدة ، شكلا جديدا للاتصال والمعاشرة ينخرط فيه الطفل ، معنى جديدا لتحقيق ذاته.**

ويصبح فى مقدور الطفل الا يغضب المعلم بسلوكه : فلا يحدث صوتا فى الدرج ، ولا يتحدث مع زميله اثناء الدرس ، ولا يلقي بالقاذورات على الارض ، ولا يحدث شغبا مع الآخرين ، أو ضررا لهم وغير ذلك مما قد ينعكس فى الدرجات التـي يحصل عليها . والدرجة المنخفضة لا تنمحي من صفحة كراسته ، وانما تقف بجوارها الدرجـة العالية الجديدة ، وليس بدلا منها .

وبهذا يتحقق الانتقال الى المرحلة التالية من نمو الحياة والوعي لدى الطفل . يرتبط هذا الانتقال لدى المراهق بانضوائه فى أشكال ملائمة من الحياة الاجتماعية (المشاركة فى بعض المهمام الاجتماعية التي لا تحمل طابعا طفليا ، الاضطلاع بأدوار هامة فى التنظيمات الطلابية ، ومشروعات ومعسكرات الخدمة ، تبلور مضمونا جديدا للعمل الجماعي ، الى غير ذلك) . وبذلك يتغير الموقع الحقيقي الذي يحتله الطفل فى الحياة اليوميـة للكبار المحيطين به ، فى حياة اسرته . الآن تضعه قواه الجسمية ومعارفه ومهاراته فى بعض الحالات على قدم المساواة مع الكبار ، بل وحتى قـد يشعر بالتفوق والافضلية : فقد يعترفون بما له من همة وما يقوم به من رعاية ومساعدة للاسرة ، وقد يكون هو العضو الاقوى فيها والنـاطق بلسان حالها فيما تمر به الاسرة من احداث .

ومن ناحية الوعي يتصف هـذا الانتقـال بنمو الروح النقدية لدى المراهق بازاء المتطلبات والمسئوليات والتصرفات والخصال الشخصية للكبار ، وبانبثاق ميول نظرية أصيلة . وتظهـر عند المراهق الحاجة الى ان يعرف ليس الواقع المحيط به فحسب ولكن ايضا ما هو معرف عن هذا الواقع . وفى هذه الفترة يتهيأ المراهق للعمل المهني ، بل وقد يمارس نشاطا انتاجيا يحقق فيه ذاته . وهنا يحتل المراهق موقعـا جـديدا ، وتكتسب حياته مضمونا جديدا ، وهـذا يعني أنه صار يدرك كل العالم بمنظور جديد .

الا ان تغير الموقع الذي يحتله الطفل فى نظام العلاقات الاجتماعية خلال المسار النمائي لا يحدد فى ذاته ، بطبيعة الحال ، تطور نمـوالطفل ، وانما يعين **الطور النمائي القائم والمتاح بالفعل فحسب . لكن ما يحدد ، بطريقة مباشرة، نمو النشاط النفسي لدى الطفل ـ هو حياتـه**

ذاتها ، نمو العمليات الحقيقية لهـذه الحياة ،بمعنى آخر ، نمو نشاط الطفل ، الخارجـي والداخلي . وعلاوة على ذلك ، يرتبط نمـوه بدوره بالشروط الحياتية المتاحة وبمدى ما يتوفر من « مقومات استثارة النمو » .

ومن هنا ، ينبغي فى دراسة تطور نمـــو الحياة النفسية لدى الطفل ان ننطلق من تحليل نمو نشاطه كما يتشكـل فى شروط ومواقـف ملموسة من حياته . وبهذا المدخل وحده يمكن تفسير دور الشروط الخارجية لحياة الطفل ،وكذلك استعداداته الطبيعية التي يتمتع بها . وبهذا المدخل فحسب ، الذي ينطلق من تحليل مضمون نشاطه النامي ، يمكن ان نفهم بحق الدور الهائل للتربية التي تباشر تأثيرها علـى نشاط الطفل بصفة خاصة ، وعلى علاقته بالواقع ، ومن ثم على بناء حياته النفسية ووعيه .

ولا يتشكل النشاط بطريقة آلية انطلاقا من أشـكال منعزلـة من النشـاط . تمثل بعض اشكاله فى مرحلة معينة أشكالا مسيطرة وتحمل معنى كبيرا بالنسبة لاضطراد نمو الشخصية ، فى حين تحمل الاشكال الاخرى معنى أقـل .بعضها يلعب دورا رئيسيا فى النمو والاخرى ثانويا . ومن ثم ينبغي ان نقرر ارتباط تطور نمو الطفل ليس بالنشاط بصفة عامة ، ولكن بالنشاط المسيطر .

لذا يمكن القول بأن كل مرحلة من مراحل النمو النفسي تتميز بعلاقة محدودة ، مسيطرة فى مرحلة معينة ، للطفل مع الواقع ، بنمـــط محدد مسيطر لنشاطه . ومن أبرز دلائل ارتقائية الطفل من مرحلة لاخرى ، تغير النمط المسيطر للنشاط ، وتغير العلاقة المسيطرة لدى الطفــل مع الواقع .

والسؤال : ماذا نعني بالنمط المسيطر للنشاط ؟

لا يتمثل النشاط المسيطر أبدا فى دلائــل كميــة خالصة . النشاط المسيطـر — ليـس ببساطة نشاطا نقابله أكثر فى مرحلة بعينها من مراحل النمو ، يعطيه الطفل وقتا أكبر . لكـن ما نعنيه بالنشاط المسيطر ، ذلك النشاط الذي يتصف بالدلائل الثلاث التالية :

اولا : هو ذلك النشاط الذي تظهر على شاكلته وتتمايز فى داخله أشكال جديدة اخرى من النشاط . من هذا ، على سبيل المثال ، ان التعلم بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، يتضح قبلا فى طفولة ما قبل المدرسة ، يظهر اولا فى اللعب ، اى يظهر فى النشاط المسيطر فى هـذه المرحلة من مراحل النمو . فالطفل **يبدأ التعلم وهو يلعب .**

ثانيا : النشاط المسيطر ، هـو ذلـك النشاط ، الذى تتكون فيه عمليـات نفسيـة محددة ويعاد بناؤها . من هذا ، على سبيـل المثال ، فى اللعب تتكون عمليات التخيل النشط، وفى الدراسة عمليات التفكير التجريدى . لكن هذا لا يعني ان تكوين واعادة بناء كل العمليات النفسية يتم داخل النشاط المسيطر فحسب . فبعض العمليات النفسية تتكون ويعاد بناؤهـا ليس بطريقة مباشرة فى النشاط المسيطر ذاته ،ولكن أيضا فى أشكال اخرى من النشاط ترتبط

به من الناحية التطورية . فمثلا ، عمليات تجريدوتعميم اللون تتكون فى سن قبل المدرسة ، ليس فى اللعب ذاته ، ولكن فى الرسم واستخدام الالوان وغير ذلك ، اى فى تلك الاشكال من النشاط التي ترتبط فى أصلها بنشاط اللعب فحسب .

ثالثا : النشاط المسيطر ، هو ذلك النشاط الذي يرتبط به ما يلاحظ فى فترة معينة من النمو من تغيرات نفسية اساسية فى شخصية الطفل . فالطفل فى سن ما قبل المدرسة ، على سبيل المثال ، يستوعب فى اللعب خاصة الوظائف الاجتماعية والمعايير الملائمة للسلوك الانساني (« ماذا يفعل العامل فى المصنع ، والفلاح فى الحقل » ، « ماذا يفعل الجندي ، وغير ذلك) ، وهذا يمثل ركيزة هائلة لبناء شخصيته .

وهكذا ، يكون النشاط المسيطر ـ هو ذلك النشاط الذي يضمن نموه تحقيق تلك التغيرات الهائلة فى العمليات النفسية ، وفى خصائص شخصية الطفل فى مرحلة بعينها من مراحل النمو .

ولا تتميز مراحل النمو ، رغم ذلك ، بمضمون محدد للنشاط المسيطر لدى الطفل فحسب ، ولكن ايضا بتتابع زمني محدد ، أي بعلاقة محددة بعمر الاطفال . ومع ذلك ، لا يمثل مضمون المراحل ولا تتابعها فى الزمن شيئا يعطي لا يتكرر ولا يتغير .

فكل جيل جديد ، وكل فرد ينتمي الى هذا الجيل ، تتهيأ امامه شروط معينة للحياة، وبالتالي مضمون معين لنشاطه . لذا، فبالرغم من تحديدنا المراحل معلومة فى نمو الحياة النفسية لدى الطفل، الا أن مضمون المراحل لا ينفصل أبدا عن الشروط التاريخية والثقافية الحية ، التي ينساب فيها نمو الطفل . وينسحب تأثير هذه الشروط سواء على مضمون هذه المرحلة او تلك من مراحل النمو، او على كل مسار عملية النمو النفسي برمتها . **فبالرغم من ان مراحل النمو تتوزع بشكل محدد فى تتابع الزمن ، ولكن حدودها العمرية ترتبط بمضمونها الذي يتحدد بدوره بتلك الشروط التاريخية ـ الثقافية التي تتم فيها العملية النمائية ،** وهكذا لا يحدد عمر الطفل مضمون مرحلة النمو ، ولكن ترتبط الحدود العمرية ذاتها بمضمونها وتتغير مع تغير الشروط الاجتماعية ـ التاريخية . ويبدأ الطفل ، فى سياق النمو ، فى ان يعي بأن الموقع السابق الذي كان يحتله فى عالم العلاقات الانسانية المحيط به كما لو انه لا يتفق مع امكاناته ، ويسعى الى تغييره . **وبالتالي ينشأ تناقض صريح بين نموذج حياة الطفل وامكاناته الفعلية . ومن ثم يخضع نشاطه لاعادة البناء ، وبالتالي تتحقق الانتقالية الى مرحلة جديدة من نمو حياته النفسية .**

ونسوق مثالا لذلك عن تطور نمو الطفل فى سن ما قبل المدرسة . فى البداية يشترك الطفل عن طيب خاطر فى حياة الجماعة بدار الحضانة ، يشارك الاطفال الآخرين لعبهم ، ويعرض رسومه، ويقص الحكايات ويردد الاناشيد ، ويحكي عن الاحداث التي صادفته فى تجولاته . وكثيرا ما يستجيب له الكبار بابتسامة راضية وباستحسان يعضد ما يقوم به . وبعد فترة من النمو ، تتسع معارف الطفل ، وتزداد مهاراته ، وتنمو قواه ، وبالتالي يفقد النشاط فى دار الحضانة مغزاه السابق بالنسبة له . حقيقة يحاول ان يجد فى حياة دار الحضانة مضمونا جديدا ؛ فهو يبدأ فى

ان تكون له مجموعات من الاطفال تعيش حياتهـاوما قد يشبع فيها من خصوصيات واسرار ، وهي ليست ابدا بحياة ما قبل المدرسة ؛ لقد صـارالشارع والفناء وجماعة الاطفال الاكبر سنا اكثر اجتذابا له . وقد تؤدي هذه التغيرات الى احداثخلل فى انتظام عملية النمو . وهذا ما يسمى بأزمة العلم السادس من النمو .

وعادة ما ترتبط ازمات النمو ـ أزمة العلمالثالث ، أزمة العلم السادس ، أزمة المراهقة ، ازمة الشباب ـ بانتقالة الطفل من مرحلة لاخرى.وهي تكشف بشكل صارخ عـن وجـود ضرورة داخلية لهذه الانتقالات من مرحلة لاخرى ، ولكنهل هذه الازمات حتمية الوقوع فى نمو الطفل ؟

فى الحقيقة لا تمثل ازمات النمو ابدا احداثاحتمية فى مسار العملية النمائية . فالذي لا مفر منه ليس الازمات ، ولكن التحولات والنقـلاتالكيفية فى النمو . وعلى العكس، والازمة دليلعلى انتقالة لم تتحقق فى وقتها المواتي . الازمات قدلا تقع اطلاقا ، اذا ما تواتر النمو النفسي للطفل بطريقة غير عفوية ، وتحقق كعملية أحسن ادارتهاوتوجيهها ـ بالتربية رشيدة التوجيه .

ويجيبتحول النمط المسيطر لنشاط الطفلوانتقاله من مرحلة نمائية لاخرى ، فى الحالات السوية ، على الحاجة الداخلية الناشئة ، ويعنيهذا بدوره ان الطفل يضع التعليم امـام مهـام ومطالب جديدة تتفق مع امكاناته المتغيرة ووعيهالجديد .

نمو الطفل فى النشاط :

الشخصية تتشكل فى النشاط . فـكلالسمات والقدرات والاهداف والميول والمطامـح والانماط السلوكية تتكون فى الاشكال المختلفـةللنشاط التي ينخرط فيها الطفل ، تلك الاشكال التي تؤلف حياة الشخصية ووجودها الاجتماعي. ففي النشاط خاصة تتكشف أهدافه ودوافعه ، نزعاته ورغباته ، وخصائص شخصيته وأسلوبهافى مواجهة المواقف وحل المشكلات .

فارتباطا بما يفعله الطفل (مضمون نشاطه) ، وكيف يعمل (طرق النشـاط) ، وبتنظيم وشروطهذا النشـاط وبما يستدعيه هذا النشاطلدى الطفل من علاقات واتجاهات ، تتكون لديه ميول وقدرات وخصال معينة ، وتتدعم معارفهوخبراته .

خلال النشاط الذى يتحقق بالشخصيةوبالاشتراك معالاشخاص الآخرين ، يعرف الطفل ذاته ، يتكون وعيه فى النشاط الذى يشترك فيهمع الاطفال الآخرين ، يعرف ذاته فى الآخر ، يفهم الآخرين ونفسه ، ويوجه ذاته ويقيم تصرفاتهوأفعاله ، **ولعلنا لا نجانب الصواب حينما نقرر انه يمكن اماطة اللثام عن قوانين النمـو النفسـيوديناميأته بدراسة الاشكال المختلفة لنشـاط الاطفال فى كل الانتقالات النمائية** .

اللعب : نشاط ينطوى على أشكال مختلفة :الالعاب الحركية ، الالعاب التعليمية ، الالعاب التمثيلية ، الالعاب التركيبية . ويحتل اللعببالادوار ، او الالعاب الابداعية ، أن صح هـذا التعبير ، مكانة هامة فى نمو الاطفال من سن ٢ ـ ٧سنوات . ويمثل هذا النمط من اللعب النشاط المسيطر فى طفولة ما قبل المدرسة خاصة وفىالمرحلة الابتدائية عامة . واللعب بالادوار ينشأ

ويوجد فى ارتباط مع الانواع الاخرى من الممارسات الطفلية ، وخاصة مع ملاحظات الحياة المحيطة به والاستماع الى القصص والحكايات والاحاديث مع الكبار .

واللعب فى الطفولة وسيط تربوى يعمل بدرجة هائلة على تشكيل الطفل فى هذه المرحلة التكوينية الحاسمة من النمو الانسانى . ولا يرجع مصدر هذه الاهمية الى ان الطفل يقضى جل وقته فى اللعب الذى يستثير اهتمامه والى أنه قليلا ماينغمس فى النشاط العملى للكبار ، وانما الى **ان اللعب يتمخض عن تغيرات كيفية فى التكوين النفسي للطفل ، وفيه تكمن اسس النشاط الدراسى الذى سيكون نشاطا مسيطرا على حياته فى سنوات المدرسة .**

فلا يمكن أن يتم اشباع نزعة الطفل الى الحياة المشتركة مع الكبار على أساس من العمل المشترك ، ولكن يبدأ الطفل فى اشباع هذه الحاجة فى سياق اللعب ، حيث لا يمارس الحياة العملية فحسب ، وانما يتسرب ايضا اتجاهات معينة نحو الذات وفى علاقتها بالآخرين ، متخذا لنفسه أدوار الكبار . لذا يصير الموقع الخاص الذى يحتله الطفل فى المجتمع ركيزة لنشأة اللعب بالادوار كشكل متميز من نشاط الطفل يدخل به الى عالم الكبار . فى اللعب تتفتح أمام الطفل أبعاد العلاقات الاجتماعية القائمة بالفعل بين الناس ؛ ويبدأ فى أن يتفطن الى أن الاسهام فى اى نشاط يتطلب من الشخص الوفاء بالتزامات محددة والتمتع نظير ذلك بحقوق معينة ، وهو ما يعكسه أيضا فى نشاط لعبه . ويتعلم الطفل من اللعب الجمعى « الضبط الذاتى » ــ Self - Control و « التنظيم الذاتى » Self - regulation ، خضوعا للجماعة وتنسيقا لسلوكه مع الادوار المتبادلة فيها .

واللعب أيضا مدخل أساسى لنمو الطفل عقليا ومعرفيا ، وليس لنموه اجتماعيا وانفعاليا فقط . ففى اللعب يبدأ الطفل فى التعرف على الاشياء وفرزها وتصنيفها ، وبالتالى فى تعلم مفاهيمها والتعميم بينها على أساس لفظى لغوى . وهنا يلعب نشاط اللعب دورا كبيرا فى نمو الكلام لدى الطفل وفى التعبير الرمزى وفى تكوين مهارات الاتصال الكلامى .

واذا كان الطفل يتغير ارتقائيا فى اللعب ، فان مضمون اللعب ذاته يخضع لتغيرات كيفية مع تطور العملية النمائية . فالمضمون الاساسى للعب الطفل فى العامين الاولين حركات جسمية حسية غير منظمة ، فلا يدرك الطفل مثلا خطورة تناول بعض المواد او الادوات التي تستثير شغفه . وفى حوالى العام الثالث يمارس الطفل بمواد اللعب تلك الاداءات التى يأتيها الكبار مع المواد الحقيقية ، فالطفل مثلا يقوم بمسح المنضدة او تنظيف الارض او الاحذية او تقطيع الخبز او اطعام العروسة ، الخ . فهو يسترجع الاداءات الواقعية ، كما يلاحظها فى دنيا الكبار ، فى العابه وموادها وأدوارها ويمارسها فى نشاطه بصورة خيالية ورمزية . وفى الفترة من سن أربع الى سبع سنوات ، يأخذ لعب الطفل فى أن يخضع تدريجيا بدرجة كبيرة لاعتبارات الواقع الموضوعى ، فتصير مسايرة القواعد والاجراءات التنظيمية هى المضمون الاساسى لنشاط لعبه ، وبالتالي يبدأ لعب الطفل فى أن يصبح بشكل اكثر نظامية وهادفية ، ويأخذ فى التخفيف التدريجى من نزعته الى التمركز حول الذات وفى التوحد المتزايد مع الجماعة ، ومن ثم فى تكوين صورة اكثر واقعية عن الذات النامية .

العمل : يحتل العمل فى نمو الطفل مكانةبالغة الاهمية . لكن الدور الذى يلعبه هنا فى حياة الطفل يختلف عن الدور الذى لعبه فى تطورالمجتمع الانسانى . فالطفل يشب فى عالم جاهز الصنع ، عالم العمل وادواته ونواتجه . وهو يتعلمعلى ايدى الكبار ، العاملين أنفسهم . وتمثل اداءاتهم بالنسبة للطفل نموذجا للتقليد ، أما مايباشره الكبار من أوامر ونواهى وضبط وتوجيه وتفسير ومساعدة فانه يحرر الاطفال منالكثير منالمحاولات عديمة الجدوى ويجنبهم الاخطاء الفادحة التى وقعت فيها الاجيال السابقة .

يؤكد تحليل الاشكال المختلفة لنشاط العمللدى الاطفال ، خصائصه وتغيره فى المراحل العمرية المختلفة ، ان العمل ينطوى على امكاناتتربوية وتعليمية هائلة فى عملية النمو . فنظام الاداءات العملية يمثل مضمون نشاط العمل ،تلك الاداءات التي توجه نحو تحقيق هدف ينشده الطفل . ويحمل هذا الهدف دائما قيمةاجتماعية محددة .

والحاجة الى العمل ـ احد الحاجات الحياتية المتعاظمة لدى الانسان المعاصر. فنشاطالعمل يشبع فى الطفل حاجة أصلية الى الممارسات السديدة الفعالة . وبقدر ما يكون نتاج النشاط ملموسا وواقعيا ، يصير فى حد ذاته هدفا يسعىاليه الطفل . وتتقوى جاذبية العمل بما يعتمل فى الطفل من مشاعر السرور المرتبطة بالنشاطالمشترك مع الكبار والاطفال الآخرين .

الا أن الاتجاه الناضج نحو العمل والنزعةالى انجاز هدف مفيد اجتماعيا لا يصير على التو دافعا محركا لنشاط العمل لدى الاطفال . فالاطفال الصغار ، بقيامهم بمهام عملية منفردة توكل اليهم ، توجههم اليها فى البداية دوافعضيقة تتسم بالمركزية حول الذات . يعملون لكى يستجلبوا استحسان الوالدين والكبار .وبالتدريج تأخذ دوافع العمل فى التغير لدى الاطفال . بالنسبة لطفل الثالثة من العمر تكونعملية العمل ذاتها أكثر اجتذابا واستثارة . واذ يقوم الطفل بالاداءات المطلوبة بالاشتراك معالكبار وينجز ما هو مطلوب منه ، يشعر بنفسه كشخص « كبير » . فهو باهتمام يضع الملاعقعلى المائدة ، ويناول بعض الادوات مع الام . ولا يختلف هذا العمل كثيرا عن اللعب ، ولكندوافعه مختلفة . فكلما تطور نمو الطفل ،تكتسب نتائج العمل أهمية كبيرة ، أى الفائدة التي يمكنأن يجلبها ما يقوم به من مهام عملية واعية .

تأخذ دوافع العمل لدى أطفال السادسة والسابعة والثامنة من العمر فى ان تكتسب أكثر وأكثر مغزى اجتماعيا واضحا . الاطفاليشتركون معا فى العمل لكى تتهيأ المدرسة جيدا لاستقبال الآباء فى حفل مدرسى . وينغمس الاطفال بهمة ،فى تنظيف المدرسة او فى مباراة رياضية مثلا ، لكى تفوز مدرستهم بالمكانة الاولى .

ويستدعى الوصول الى نتيجة حقيقيةللعمل لدى الطفل شعورا بالترقى الانفعالى . وينشأ هذا الشعور لان الاطفال :

أ ـ يرون أن قواهم وطاقاتهم لا تذهبهباء .

ب ـ يبداون فى معرفة قواهم (« هذا مااستطيع عمله ») .

جـ ــ يبدأون فى الاحساس بلذة العمل الجماعى ، وتأخذ عملية العمل ذاتها فى اجتذابهم .

د ــ يتشجعون بتقدير واستحسان الكبار . ومن شأن الانفعالات الايجابية فى عملية العمل ان تؤدى الى نمو حب العمل لدى الاطفال والى الثقة فى قواهم .

يقول ابو علم النفس العربى الاستاذ الدكتور عبد العزيز القوصى :

« لقد شاهدت بنفسى الاشخاص الذين طالعوا واكتفوا بالمطالعة وهضموا ما طالعوه ، شاهدتهم انهم يظلون فى عقولهم كالاطفال الى ان يمارسوا الواقع ممارسة فعلية ، فرايتهم ينضجون ويكتمل نموهم ، لا فى عملهم فحسب ولكن فى شخصياتهم ، ولنا أسوة فيما قاله لنا الاستاذ الغزالى حيث نصحنا بأن نعمل بما نعلم لينكشف لنا ما لا نعلم » (٦) .

بالعمل تنمو الخصائص الجسمية والعقلية والخلقية المعنوية لدى الاطفال . العمل يؤدى الى نمو وتحسين العمليات النفسية ، وخاصة دقة الادراك والقدرة على الملاحظة وتنظيم الاداءات . ويمثل اتساق حركة العينين والذراعين فى العمل (الاتساق الحسى ــ حركى) وانتظام حركة الاصابع مؤشرا اساسيا على تهيؤ الطفل للعمل المدرسى ، للدراسة ، للكتابة والخط ، للرسم ، لاعمال الورش بالمدرسة وغير ذلك . والاطفال ، بتوجيههم لاداءاتهم نحو انجاز هدف واضح ، يتدربون على الانتباهية ، على التركيز الانتقائي للانتباه الذى يصير اكثر ثباتا وارادية ، اى يكتسب خاصية التوجيه والادارة الواعيين .

ويتطلب العمل من الطفل استخداما متعدد الجوانب لخبرته . فلكى يقوم الاطفال بالعمل عن طيب خاطر ، ينبغى ان يتهيأ لهم فهم مغزى العمل فى حياة الناس واهميته للمجتمع . ينبغى اثراء تصورات الاطفال عن : اين وكيف ولماذا يعمل الناس باختلاف تخصصاتهم ، وان نحكى لهم عن ادوات ووسائل وآلات ومواد العمل التى يعملون بها ، وان نبصرهم بالفائدة الاجتماعية للعمل كما تقوم به جماعات مهنية كاملة (عمال نسيج ، عمال نفط ، مزارعون ، خبازون ، صيادون وغير ذلك من جماعات العمل) ، وان نوقفهم على مدى السرور الذى قد يبعثه العمل وفيما تكمن صعوبة عمل الطبيب والعامل والمعلم والسائق والمهندس وغير ذلك . واذ نبرز للاطفال تلك العلاقات المتبادلة بين العاملين يحمل نشاط العمل مغزى تربويا تعليميا هائلا بالنسبة للاطفال . فعلى سبيل المثال :

« السائق يقود الاتوبيس ، عمله هام بالنسبة للجميع : وفى الاتوبيس حشد من الناس ، فهذا رجل ذاهب الى عمله وذاك الى الطبيب ، وثالث الى كليته ، هؤلاء ذاهبون لزيارة بعض الاصدقاء ، وآخرون الى المتحف او حديقة الحيوان ، او الى محل لبيع الملابس ، وغيرهم ذاهب الى محطة السكة الحديدية . لكن السائق نفسه يعتمد باستمرار على ما يقوم به الآخرون من اعمال . فهو يرتدى ملابس يعدها العمال فى مصنع النسيج والترزى يفصلها له . وهذه الملابس مصنوعة من القطن الذى يزرعه الفلاح فى الحقل او من الصوف الذى نحصل عليه من

---

(٦) دكتور عبد العزيز القوصى : مستقبل التعليم النظرى فى مصر . صحيفة التربية ، العدد الاول ، نوفمبر ١٩٥٧ .

تربية الاغنام . واذا مرض السائق يتوجه الى الطبيب للعلاج ، والى الصيدلى لشراء الادوية ، اولاده يذهبون الى المدرسة ، حيث يعمل المعلم . فكل انسان يستخدم عمل الآخرين ، ولا يمكن ان يعيش انسان وحده او يعمل لنفسه فحسب » .

وللعمل قيمة كبيرة فى نمو المهارات اليدوية والقدرات العقلية ، فالطفل بتقليده للكبار وبتنفيذه لتعليماتهم ، يستطيع ان يستخدم مايتوفر له من ادوات مثل أدوات المائدة وادوات المدرسة واستخدامها . الا ان الطفل ينبغى ان يتعلم ليس استخدام هذه الادوات استخداما آليا فحسب ، وانما ايضا اتقان بعض المهارات العقلية . فينبغى ان يتعلم كيف ينتقى الادوات والوسائل والمواد الملائمة لعمل وهدف معينين ، ان يتمكن من تحديد أى الاداءات يأتي بها وفى أى تتابع ينبغى تحقيقه .

ويتضمن نشاط العمل أربعة عناصر اساسية :

١ ــ استخدام المعلومات .

٢ ــ الوعى بالهدف .

٣ ــ تدبر اداءات العمل .

٤ ــ مراجعة وتقييم نتائج العمل .

٥ ــ الانجاز العملى للاداءات المطلوبة .

وهذه العناصر اللازمة لتحقيق نشاط العمل تتطلب من الطفل القيام بعمليات عقلية . لذا فان فاعلية الطفل فى العمل (ليس فقط الفاعلية الجسمية ، ولكن أيضا العقلية) تؤدى الى تفتح امكانات نمو التفكير والتخيل لدى الطفل . ولا ينفصل نمو التفكير عن تكوين الميول المعرفية لدى الاطفال .

والعمل ، بجانب ذلك ، مجال لتنمية الارادة لدى الاطفال ، فالطفل يتدبر مواقف العمل ، يخطط لتحقيق الاهداف ، يحاول التغلب على الصعوبات والمعوقات . وفيه تنمو اتجاهات الزمالة والصداقة وتبادل الادوار ، وغير ذلك من معالم النمو الاجتماعى والعاطفى للطفل .

وهكذا ، ينطوى العمل المنظم تربويا على امكانات هائلة للنمو المتعدد الجوانب للطفل ، حركاته واحساساته ، ذاكرته وتخيله ، الملاحظة والانتباه والتفكير ، وفى نشاط العمل تتهيأ امكانات كبيرة لنمو الغرضية فى السلوك والمثابرة والارادة والمشاعر الانسانية الراقية والخصال الخلقية السامية ، كالحب والوفاء والمودة والتضحية وغير ذلك . وتستلزم عملية البناء البشرى هذه من المعلم موالاة تجسيدها فى الممارسات التربوية اليومية . وفيما يلى نعرض للمتطلبات الاساسية اللازمة لتنظيم نشاط العمل لدى الاطفال .

١ ــ ينبغى ان يتفق العمل ، كأى نشاط ، مع القدرات العقلية والجسمية للاطفال . فعملية النشاط ذاتها تجتذب طفل الثانية والثالثة من العمر ، فلا يتيسر للاطفال الصغار انجاز عمل

وفقا لهدف مقترح ، وحتى هدف قريب . أمـا طفل الخامسة والسادسة ، فيستطيع ان يرنو الى المستقبل ، فتشده اليه أهداف ودوافع معينة، وان كانت غير كافية . ويستطيع الاطفال الاكبر سنا أن يذهبوا الى تحقيق أهداف بعيدة اكثر تعقيدا ، يتطلب تحقيقها اسهام مجموعة كاملة من الاطفال وتنظيم للادوار والاداءات المختلفة .

٢ ــ لكى يؤدى العمل المنظم تربويا الى اشباع الاطفال ، ينبغي ان يتضح امامهم ليس الهدف (أى النتاج النهائي للعمل) فحسب ، ولكـن أيضا القيمة الاجتماعية لهذا العمل .

٣ ــ لكى تتكون لدى الاطفال اتجاهات ايجابية نحو العمل من الضرورى ان نغرس فيهم قيمة تقدير كل عمل نافع ، من ذلك مثلا تقدير العمل اليدوى والاعمال الشاقة التي لا غنى عنها لحياة الناس .

٤ ــ لكى يخبر الطفل شعورا بالرضا من نشاطه فى العمل ، ينبغى ان يكون قادرا على العمل، اى يتقن نظاما من الخبرات والمهارات التـــي يستطيع استخدامها بنجاح فى مواقف متعددة يحقق فيها ذاته .

النشاط الدراسى : كلما تطور نمو الطفل أخذ نشـاط آخر ــ النشاط الدراسى ــ فى احتلال مكانة متزايدة فى حياته ويلعب دورا أكبر فى نموه.

وترتبط الدراسة ارتباطا وثيقا بالعمل ،لان اى عمل يستلزم دراسة ، فالدراسة تسبق العمل ، ولكن الدراسة ذاتها عمل فريد ونشاط سواء من جانب الطفل او المعلم .

يمثل استيعاب الاطفال لنظام محدد من المعرفة مضمون النشاط الدراسى . وتؤلف هذه المعارف الخبرة المتجمعة من أجيال عديدة عاشت فى بلاد العالم المختلفة وفى فترات تاريخية متعددة. ويتلقى كل جيل جديد من الاسلاف معلومات متجمعة فى شكل جاهز ، وهو مطالب باستيعاب واتقان هذه المعلومات وطرائق استخدامها ، ذلك هو هدف ودافع النشاط الدراسى .

ويمكن ان نحدد خصائص النشاط الدراسى على النحو التالى :

١ ــ تنظيم النشـاط الدراسي لدى الاطفال مهمة المعلم ، ارتباطا بمتطلبات المجتمع كما تحددها البرامج الدراسية . ويتعين فى البرامج أن تسعى بفاعلية الى توظيف ذلك المحتوى الذي ينبغـــي تحقيقه فى كل مرحلة من مراحل نموهم ، حيث يتحدد فى البرنامج مستوى وحجـم المعلـومات والخبرات والمهارات التي على الاطفال اكتسابها .

٢ ــ يمثل استيعاب الطفـــل للمعلومـــات مضمون النشاط الدراسي ، وباستيعاب الاطفال للمعلومات وتطبيقها فى أشكال مختلفة لنشاطهم ،يتقن الاطفال خبرات معينة ومهارات عقلية ، اي يتقنون طرائق مختلفة للاداء .

٣ ــ الفاعلية العقلية دالة لفاعلية الطفل فى النشاط الدراســي . وبالرغم مــن ان اداءات الاطفال تعتمد بدرجة كبيرة على اداءاتهم الجسمية(عد أشياء فى متناول يديه ، الكتابة) ، فان هذه

الاشكال من الاداءات تحمل طابعا مساعدا . وكلماتكونت أداءات عقلية ، يخضع معظمها لعملية استدخال ، (٧) ويتحول من مضمون النشاطالى طرائقه . فتعلم كتابة الحروف ، على سبيل المثال ، فى بداية العام الاول من الحياة التعليميةالنظامية يمثل المضمون الاساسي لدروس اللغة القومية ، فى حين يصير فى نهاية هذا العامالدراسي وسيطا لانجاز مجموعة من الانشطة والممارسات .

والمعلم يوجه فاعلية التلاميذ للاستماع الىالشرح ، وفهم النصوص المقروءة ، واتقان مواد الرياضيات والنحو . ويتطلب النشاط الدراسيالمنظم فاعلية فى التفكير ، التحليل ، والتعميم ، ومقارنة الجديد بالقديم ، والاستنتاج ، تجسيدالقواعد والعمليات المعروفة بطريقة حسية لكي تضمن فهم المادة الدراسية . وييسر هذا ايضاعمل الذاكرة .

ودور الذاكرة فى النشاط الدراسي بالغالقيمة . ففي دور الحضانة يعمد المعلم الى اثراء ذاكرة الاطفال بتصورات جديدة عن الحيواناتوالنباتات،عن المدينة وظاهراتالحياة الاجتماعية، اطفال الرابعة والخامسة من العمر يحفظونالاناشيد والاشعار ، يحكون عن أمهم ، يرسمون وفقا لتصوراتهم ، يسترجعون ما يرونه فىالحياة من اشياء وموضوعات : الناس ، التزام، البقرة ، الشجرة ، بل ويسترجعون احداثاكاملة فيما بعد : شجرة عيد الميلاد ، على شاطىء البحر وغير ذلك . وبالتحاق الاطفال بالمدرسةيستوعبون مجموعة من المفاهيم المتخصصة : النحوية (أصوات ، حروف المبتدأ ، الاسم)الحسابية (المجموع ، ناقص ، يساوي ، الجمع، الضرب) ، والمفاهيم المتعلقة بالطبيعة والحياةالاجتماعية . وهذه المفاهيم بدورها تؤدي الى مزيد من ترشيد وانماء الحياة العقلية للاطفال.

والنشاط الدراسي المنظم جيدا يثريخيال الاطفال ويصقله ، والمعلم اذ يقدم للاطفال صورا من حياة الناس فى الوطن العربي وبلادالعالم المختلفة ، ينمي الخيال الابتكاري لديهم بما يحكيه ويقرأه ويقدمه من مادة حية تؤديالى تكوين صور حية عن حركة التطور والتقدم وتصورها ومستلزماتها .

وفى النشاط الدراسي تأخذ كل العملياتالنفسية طابعا اراديا . وبالرغم من أنه يتشكل فى اللعب التفكير والخيال ، وتتكون الظروفلاثراء الذاكرة ، فان فى العمل الدراسي يتم كل النشاط النفسي (نشاط التفكير والذاكرةوالادراك والخيال والحركة وغير ذلك) فى اطار نشاط انضباطي ملتزم منظم . فالطفل فى مرحلةالمدرسة لا بد وان يوجه ذاته لكي يدرك المادة الدراسية سواء فى الفصل او فى المنزل ، وانيركز انتباهه ويشغل تفكيره ويستعيد ذكرياته عن قصد لاستيعاب نص او لحل مسالة أوللتعبير عن انطباعات وتخيلات فى لوحة فنية .

فالدراسة ذاتها تصير منذ البداية عملاجادا ، مسئولا ملتزما . لذا يستلزم النشاط الدراسي من الاطفال فاعلية ارادية ، وتماسكا ،وانضباطا ذاتيا ، الاطفال ينصتون باهتمام

---

(٧) « الاستدخال » Interiorization يطلق على عملية الانتقال من الاداء الواقعى الخارجى الى اداء مثالى داخلي ... عملية تحول ما هو خارجى موضوعىالى داخلي ذاتي .

وتركيز لكل ما يشرحه ويعرضه المعلم ، ولمـايكلفه بهم من واجبات ومهام عليهم ان يضطلعوا بها كما طلبها منهم . وهم مطالبون باستمراران يتحكموا فى نزواتهم : ان ينتظروا فى صفوف أمام المعلم فى الفناء ، ان يتوجهوا لفصولهم فىنظام ، الا يحدثوا ضوضاء فى فترات الفسحة ، ان تكون احاديثهم مهذبة وعلاقاتهم طيبة كلهذا يتم فى اطار من الضبط والتوجيه الذاتيين.

يقول آخر ، فى النشاط الدراسي تتكونالانتظاميـة والاستقلاليـة والالتزامية كأنمـاط سلوكية لدى الاطفال ، أي الخصال الارادية .

٤ ـ النشاط الدراسي ، كشـكل مـناشكال العمل الجماعي لدى الاطفال ، يفتـح امام المعلم امكانات هائلة لتكوين سمات الروحالجماعية ، والزمالة والصداقة والتعاون والتواد والمسئولية المتبادلة بين الاطفال فى المدرسة .

٥ ـ النشاط الدراسي ، كأي نشـاطيعيشه الاطفال ، يتغير مع تغير عمر الاطفال . بالتحاق الاطفـال بالمدرسة يتغيـر النشـاطالدراسي ليس من حيث المضمون وطرق التنظيم فحسب ، ولكن ايضا مـن حيث المعنى الذييحتله فى حياة الاطفال . فهـو يصيـر النشـاط المسيطر الذى يوجه ليس كل نظام حياة الطفلفحسـب ، ولكن ايضا سـلوكه ووضعـه فى الاسرة وموقعه الاجتماعي الحياتي .

بتغير مضمون واشكال النشـاط الدراسيتتغير أشكال المساعدة التي يقدمهـا المعلـم . الاطفال فى سن ما قبل المدرسة محتاجون الـىتبين كل ادوات وطرائق العمل : كيف يمسكون الملعقة والشوكة والسكين ، كيف يحكون قصةمن وحي صورة ، كيف يميزون بين الرقم ٢ ،٦ مثلا . اما الاطفال فى سن المدرسة ، فهم بحاجةالى مساعدة من نوع آخر : ينبغي استثـارة فاعليتهم العقلية ، تعليمهم كيف ينتقون القواعدوالعناصر اللازمة لحل المشكلة ، كيف يراجعون ويصححون وينقدون ما توصلوا اليه من حلول،كيف يستوعبون افضـل المعلومات الجديدة ، كيف يحصلون على المعرفة بأنفسهم ، وهكذا .

النشـاط الحياتي : ينخرط الاطفـال فىالمواقف الحياتية والمعيشية المختلفة فى علاقات وممارسات مع غيرهم من الاشخاص، يقلدونهم،ويتعلمون منهم ، ويتوحدون مع حالات انفعالية مختلفة ، ويأتون بأنماط سلوكية تحقق لهـمتوافقا معالجماعة وتجتذباستحسان أعضاءها. لذا ينبغي ان نضع فى الاعتبار دور النشـــاطالحياتي فى نمو الطفل ، الـذي تتكـون فيـه الظروف الملائمة لتكوين عادات ملائمة : عاداتصحية ، عادات الاستخدام الواعي للاشيـــاء الموجودة فى البيئة المحيطة ورعاية الصالح العاموالممتلكات العامة فى الشـــارع والحـــدائق والمواصلات ، المعاشرة الحضارية مـــع الكبـــاروالاقران والاصغر سنا ، وعادات الاتباع لنظام محدد .

الطفل فى مجالات النشاط الحياتية وغيرهامن أشكال النشاط يتعلم حسن توزيع وقتـه لما ينبغي ان ينجزه فى ممارساته اليومية (النوم،الدروس، التجول،اللعب، الطعام ،النظافة..). ومراعاة هذا النظام يضمن ليس توازنا محدداللحياة الفسيولوجيـة اللاورجانزم (فى وقت

محدد يقبل الطفل على تناول الطعام والنوم ،والعمل ، والراحة) فحسب ، ولكن أيضـــا تكوين عادات مفيدة (يعد دروسه فى وقتهـاالمناسب ، النزعة الى النظام والدقة ، ومراعاة الوقت وقيمته ، الوعي الصحي) . وهـــذهالعادات والممارسات تنطوي على معنى مباشر لتكوين السمات الراقية فى الخلف او الطابع :مثـــل التنظيميـــة والانضباطيـــة والالتزاميـــة والاستقلالية .

وغرس قواعد السلوك فى الاطفال يحملاهمية كبيرة فى توجيه فاعلية الطفل فى المواقف الحياتية والمعيشية المختلفة . وهـــذه القواعدالسلوكية يمكن ان تنضوي فى ثلاث مجموعات : « ينبغي » ، « ممنوع » ، « ممكن » ، وبقدرما تقدم هذه المتطلبات الـــى كـــل الاطفال فى المجموعة أو فى الفصل المدرسي أو فى الاسرة ،وبقدر ما تقدم بعطف وحزم وحكمة ، وبـــقدر موالاة تنفيذها ، تتـــكون عـــادات السلـــوكالحضاري .وتصير القواعد السلوكية المتجسدة فى هذه العادات ، بالنسبة للطفـــل ، محكـــااساسيا لتقييم سلوك الاخرين وسلوكه ذاته .

يلاحظ ان الاطفال كثيرا ما تصدر عنهمشكايات من بعضهم الآخر . وتعني الشكايات اللجوء الى احد الوالدين او الكبار او المعـــلمطلبا للمساعدة : « هشام اخذ كرتي » ، « زينب اوقعتني على الارض » ، « كريمة لم تجعلنـــيأشتري معها الخضار » ، وغير ذلك من الامثلة. وهناك صورة أخرى من الشكايات ، حينمـــاينقل الطفل الى المعلم أو الوالدين حدثا لم يمسه شخصيا : « سميرة كسرت الزهرية » ، « جمالالم يغسل يديه قبل الاكل » ، .. الخ . والطفل بهذه الشكايات ، التي هي من قبيل « الاعلان »،كما لو كان يعمد الى مراجعة فعالية واهميـــة تلك القواعد ، وينتظر من المعلم او الوالد تأييداوتأكيدا على ضرورتها والالتزام بها . ولا شـــك ان الشكايات تختفى بسرعة مع المعلم الواعـــيوالوالد الحكيم ، وبالتالي يتعلم الاطفال حسن العشرة والسلوك .

لذا ينبغي ان يعرف الاطفال بدقة تامة :ما الذي ينبغي ان يعملونه ، وبأي نظام ، وكيف يعدون دروسهم ، كيف يسلكون حينما يخرجونلرحلة أو نزهة أو حينما يتواجدون فى الشـــارع أو فى حديقة او فى محل . ومن الاهمية بمكانمواصلة توجيه وضبط سلوك الاطفال ، وايقافهم بوعي على ما يصدر منهم : « حسنا كنت منتظماالانك ... » (ويذكر للطفل ما قام بـــه مـــن تصرفات تستحق الاستحسان) ، أو العكس منذلك حينما يخرج الطفل عن قواعد النظـــام والسلوك السليم . ومـــن شأن هـــذه الموالاةلقواعد السلوك ان تضمن تحقيـــق نتائجـــ مرغوبة :

١ ــ تتكشف القواعد وتصير بالنسبـــةللاطفال « علامات واضحة » لسلوكهم .

٢ ــ يستخدمها المعلم كوسيط لتوجيـــهسلوك الاطفال .

٣ ــ تصير المتطلبات محكات لتقييم سلوكالطفل اولا بواسطة المعلم ، ثم تصير اساســـا لاتجاهات الطفل نحو تصرفات زملائـــه ، وفىالنهاية نحو أفعاله ذاتها .

فنظام حياة الطفل فى المدرسة ، العمـــلالدراسي فى الفصل ، متطلبات عمـــل الواجب

المنزلي ، ضرورة مراعاة قواعد النظافة والمظهرالحضاري للاطفال ، العناية بالادوات المدرسية، احضار ملابس التربية الرياضية فى أيام محددة،وكراسات للرسم او الموسيقى ، وهكذا ـ كل هذه قواعد تستلزم موالاة دقيقة ومستمرة فيالتوجيه والتنفيذ .

ويلعب التقليد والمحاكاة دورا هائلا فيالمعاشرة الحياتية المعيشية . الطفل يقلد الكبار « بنسخة طبق الاصل » تقريبا ، وخاصةالقريبين منه : الوالد ، الام ، المعلم . الطفل يسترجع فى البداية بطريقة لا ارادية ثم بعدذلك عن قصد ، نبرة صوت المعلم أو الاب ولهجته واسلوبه فى التكلم ، كلماته المحببة ،ايماءاته وحركاته المميزة ، مسلكه فى المعاملة والاقبال على الآخرين ، وغير ذلك كثير ، ومما يحمل أهمية الخصائص السلوكية المرغوبة ؛ رعاية الغير ، والتوادد ، واحترام المسنينوالمقعدين ، والحضارية فى التعامل والعمل .

ومما يكون له قيمة تهذيبية عظيمة :أسلوب الحياة (منظم ، هادىء أو عاصف ، مضطرب) الذي يعيشه الكبار ، مظهر الملبسالذي يبدون به ، مراعاة النظام فى المنزل او فى الفصل والمدرسة ، اسلوب التكلم والحديث ،والضحك والدعابة ، التشاؤمية أو التفاؤلية ، التصرف بازاء الافراح والاتراح ، وغير ذلك مندقائق الحياة والوجود . فتنظيم الحياة اليومية للطفل واثراء مضمونها واسلوبها يشكل فيالطفل نظاما كاملا من العادات والالتزامات نحو الوسط الذي يعيش فيه .

ومن المعروف ان الجهاز العصبي للطفلمرن للغاية ، فى حين ان الوسط المحيط به دائم التغير . لذا تتطلب العادات المتكونة ضبطاوممارسة مستمرتين ، والا تعرضت للانطفاء والتحلل . ومن الامور التربوية ذات الدلالةالبالغة فى هذا الصدد الاتساق بين اسلوبي المنزل والمدرسة،وهذا من شانه ان ييسر ويعمقتكوين نظام من العادات والقيم الراقية الراسخة .

• • •

وهكذا ، يكشف تحليل الاشكال الاساسيةللنشاط وظروف الحياة اليومية للاطفال ان اى نشاط منظم يتضمن امكانات هائلة للنموالمتوازن ، المتعدد الجوانب للاطفال . ووعي المربي بهذه الامكانات والاستخدام الامثل لهاعن طريق تنظيم حياة الطفل ونشاطه فى الاسرة وفى جماعات الاطفال والمرافق المدرسية يمثلشرطا حاسما لادارة وتوجيه نمو الطفل . وهنا ينبغي ان يكون المعلم ، كما يقرر عالم التربية« أ . ماكارينكو » ، قبل كل شيء منظما لحياة الاطفال .

بالتعلم ينشط النمو الانساني :

يذخر علم النفس بالعديد من الدراساتالتجريبية حول قضية العلاقة بين النمو والتعلم، والوزن النوعي لكل من النضج والتعلم فيالنمو ، تلك مشكلة ليست بالسهلة اليسيرة ، خاصة وانها قد درست من زوايا مختلفة ،واستنادا الى طرق عديدة ، كما انها تنطوي على مغزى هائل بالنسبة لقضية تنشيط نموالاطفال ، والاسراع به . ويمكن تصنيف أهم

الدراسات والطرق التي استخدمتها فى تفهم حقيقة العلاقة بين النمو والتعلم على النحو التالي :

١ ـ دراسات طريقة العزل Method of Isolation

طبقت هذه الطريقة خاصة على الحيوانات، ويستند المبدأ الاساسي لهذه الطريقة على عزل الفرد الصغير عن الاعضاء الاكبر من نفس النوع، لتحديد ما اذا كانت سمات معينة للسلوك مميزة لهذا النوع سوف تظهر بدون ما ان تخبر فرصة للتعلم من جانب الحيوان ، أما الدراسات على الانسان فقد كانت قليلة للغاية بسبب الصعوبات العملية والاعتبارات الانسانية (دينيس ، ١٩٣٧ ؛ ١٩٣٨) .

٢ ـ الدراسات التي استخدمت طريقة ضبط التوائم المتحدة :Method of Co-twin Control

يعتبر (جيزل توسون ، ١٩٣٩ ؛ أول من استخدم هذه الطريقة لدراسة الاهمية النسبية للنضج والتعلم فى نمو الطفل . فى هذه الطريقة تستخدم التوائم المتحدة كمفحوصين : يعطي احد التوائم تدريبا فى تعلم وظائف مختلفة ، بينما لا يلقى التوأم الآخر اي تدريب ، وبعد فترة تقارن نتائج التدريب لتحديد مدى فاعلية التدريب (هيلجارد ، ١٩٣٢ ، ماكجرو ، ١٩٣٩، توسون ، ١٩٤٣ . وبالرغم مما تتميز به هذه الطريقة من دقة وضبط علميين ، الا أنها مشوبة بصعوبات عملية من حيث تطبيقها وخاصة بعد السنوات الاولى من الطفولة .

٣ ـ الدراسات التي استخدمت طريقة المجموعات المتزاوجة : Matched-Group Method

وفيها يستخدم الباحثون مجموعتين متماثليتين على أساس المزاوجة بينهما فى السمات المتعلقة بما [illegible] رن دراسته من انماط سلوكية . وهذه الطريقة اشبه بالطريقة السابقة، حيث تدرس الاثر النسبى للنضج والتعلم عن طريق تدريب احدى المجموعتين ، فى حين تترك المجموعة الاخرى وشانها بدون أن تتلقى أى تدريب (چيتس وتيلور ، ١٩٢٩ ، جيرسيلد ، ١٩٣٢ ؛ ويلز وآرثر ، ١٩٣٩) .

٤ ـ الدراسة التطورية لمجموعات كبيرة ، The Genetic Study of Large Groups

تقوم هذه الطريقة على استخدام مجموعات عديدة من الاطفال كمفحوصين للوقوف على ما اذا كان نموذج النمو يظهر بصرف النظر عن الاختلافات فى البيئة . واذا ابدى الاطفال من بيئات مختلفة، والذى تعرضوا لغرص مختلفة من التعلم ، سلوكا يتشابه فى اساسياته (بالرغم من اختلافه فى تفاصيل ضيقة) ، فمن الواضح أن هذا السلوك ليس بمتعلم . وهنا اعتبروا أن السلوك ينبغى أن يعزى الى التفتح الطبيعى للسمات المتوفرة كامكانات كامنة أو الى النضج (تيرمان ، ١٩٢٥ ؛ ١٩٤٧ ؛ شيرلى ، ١٩٣١) .

تؤكد نتائج الدراسات التى عولت على هذه الطرق اهمية التفاعل بين النضج والتعلم فى عملية النمو . يعنى النضج Maturation نمو أو تفتح الخصائص الكامنة فى الفرد المرتبطة بمعطيات

وراثية .. بتنظيم يعتمد على مؤثرات موجـــودةفى البيئة الداخلية للخلايا ومستقلة عن تأثير البيئة الخارجية والظروف الحياتية . وبذلك « يمكن تعريف النضج ــ كما يقول جيزل (١٩٥٢) ــ بانه مجموع آثار الجينات (المورثات) التى تعمل فى دورة حياتية محدودة ذاتيا . وهنا يكمن مفتاح هام للفردية التكوينية للفرد Constitutional Individuality والنضج يزود الفرد بالاساسيات اللازمة للتعلم ، ولكن بدون ممارسة وتدريب لا يتم النمو من خلال النضج وحده . يشير « دينيس » (١٩٤١) : « النضج فى حد ذاته ولذاته نادرا ما ينتج مظاهر نمائية جديدة ، ولكن نضج البنى Structures حينما يصاحب بنشاط موجة ذاتية Self-Directed activity يؤدى الى استجابات طفلية جديد » .

وبالنسبة للوظائف النوعية Phylogentic Functions ، أو الوظائف العامة فى الجنس البشرى مثل الحبو والزحف والجلوس والوقوف ، يكون التدريب ذات فائدة ضئيلة . أما بالنسبة للوظائف المميزة للطفل الفرد Ontogenetic Functions ، مثل السباحة أو قيادة الدراجة أو السيارة ، والتزحلق على الجليد ، يكون التدريب ضروريا ؛ فبدونه لا يتم النمو (ماكجرو ، ١٩٣٥ ، ١٩٤٠) .

يقول (جيزل ، ١٩٥٢) :

« ليس ثمة ضرورة لان نقيم حدا فاصــلا جامدا بين عوامل النضج والبيئة . فالعطـــاء الجسمى والبيئة الثقافية فى تفاعل متبادل .. وهناك دلائل قوية عن وجود اساس متين للنمــو محكوم بالتكوين المورفولوجى الوراثى الدينامــى Inherent dynamic morphology الذى يفرضه خليط من الوراثة المرتبطـــة بالجنس البشرى وبالعائلة . ولهذا السبب يميل الطفل ذو الاصل المعين فى حضارة معينة الى أن يأتى مستويا فى مستويات متقدمة من بسمات للنضج تميـــــز الجماعة بدرجة اكبر أو أقل وتمثل ذاته الكونية constitutional self.

واذا كان النمو متوقفا على كــلا النضــج والتعليم ، فانه بالتالى يتصف بالتنوع والتغاير ولكن اذا اعتبر النمو متوقفا على النضج وحده ، كما هو الحال لدى الكثير من الانواع الحيوانية ، لن يكون هناك تفرد فى النمو . ومن ناحية اخرى ، بالرغم من أن هناك تجانسا وانتظاما للنمو بـــين **الكائنات الحية الانسانية** ، هناك أيضــا تغايــر « غير عادى فى النموذج النمائي » (ويشـــيك ، ١٩٥٠) . فلكل طفل ــ كما يقرر جيزل ١٩٥٢ ــ نموذج فريد للنمو يعبر عن نفسه ، من حيث التطور النمائي الفردى للطفــل ، فى خصائصــه السلوكية . فالمسار الكلى لهذا التطور مشدود بالمحددات الداخلية للنضج » .

وهكذا ، كما يقرر البعض ، يفرض النضج ، الذى يتوقف على المعطيات الوراثية للفرد ، حدودا لا يستطع النمو ان يتجاوزها . يقول « جيزل » (١٩٤٩) :

« تتوقف كل القابلية للتعلم educability على المقدرات الفطرية للنمو . هذا النمو الداخلى هو هبة الطبيعة ، وهو يمكن أن يوجه ، ولكن لا يمكن ان يخلق : ولا أن يتجاوز بالوسائط التربوية » .

ومن ناحية اخرى ، تتوقف فاعلية التعلم على النضج ، فلا يستطيع الطفل أن يتعلم الا اذا

كان مستعدا للتعلم ، فينبغى ان يتوفر النموالجسمى والعقلى اللازم قبل ان نسعى لبناء مهارات وقدرات جديدة على هذه الدعامات .

يطلق (بلوم ، ١٩٥٢) على ذلك مصطلح((**الاستعداد النمائي**))
Developmental Readiness ويحدده على النحو التالى :

((الاستعداد النمائي هو حالة التهيؤ لدىالفرد فيما يتعلق بمجال أو أكثر من التوظيف . ويبدو الاستعداد النمائي ، وهو مرادف للنضوج،متأثرا أساسا بقوانين أو مبادىء تميل الى أن تكون من جانب الطبيعة اكثر من ان تعتمد علىعوامل التربية والرعاية التى يتلقاها الطفل . لذا يمكن اعتبار حالة الاستعداد او التهيؤ على انهاتتحقق بدرجة كبيرة خلال استجابات الطفل للمثيرات الداخلية التي تدفعه نحو النمو ..والعامل الذى ينبغي أن يوضح بالضرورة فى الاعتبار ، مع ذلك ، هو التوقيت ، مع الاعتراف بأن التعلم سواء فى المجال الذهنى أو الاجتماعى او الحركى يتحقق على نحو افضل حينما يكون مانقدمه للطفل من الناحية التربوية موقوتا بحالة الاستعداد او النضج لدى الطفل)) .

اما (روبرت هافيجهرست ، ١٩٥٣)فيطلق على هذا مصطلح ((**اللحظة المواتية للتعليم**))
Teachable moment

((حينما ينضج الجسم ، ويتطلبه المجتمع، وتكون الذات مستعدة لانجاز عمل معين ، فان اللحظة المواتية للتعليم تكون قد أتت . لذا تضيع جهود التعليم سدى اذا جاءت فى فترة مبكرة قبل الاوان ، فى حين أنها تأتى بنتائج مجزية حينماتأتى فى اللحظة المواتية للتعليم ، حينما ينبغى ان يتم تعلم مهارة او اداء معين)) .

ووفقا لهذا ، اذا كان للتعليم والتعلم ان يتحققا بفاعلية ينبغى ان يرتبطا بمستويات النضج لدى الطفل . ومع ذلك ، غالبا ما لا يتم ذلك لسببين :

أولا – ان السن الذى يتم فيه نضج الوظائف العقلية والجسمية المختلفة غير محدد كلية. فبسبب التفايرات الفردية ، يكون من الصعب ان لم يكن من المستحيل حقيقة ، اقرار أى سن معين نوقن بأنه ينطبق على كل الافراد .

ثانيا : هناك تصورات خاطئة اقرت نموذجا لتربية الطفل وتعليمه . ففى حالة القراءة ، على سبيل المثال ، افترض للاجيال ان كل الاطفال مستعدون لتعلم القراءة حينما يدخلون المدرسة ، فى حين أن بعض الاطفال حقيقة مستعدون لذلك قبل دخولهم المدرسة وآخرين فى غير ما استعداد لذلك بدرجات متفاوتة من الوقت بعد دخولهم المدرسة . وغالبا ما يتجه المربون الى سوء التقدير والاقلال من قدرات الطفل ، ومن ثم يرجئون تعليم المواد ((الصعبة)) (وكسلر ، ١٩٥٠)

والسؤال : كيف يمكن ان نحدد متى يكون الطفل مستعدا للتعلم ؟

هناك ثلاث محكات تستخدم بصفة عامة لايضاح حالة الاستعداد عند الطفل :

(١) ميل الطفل الى التعلم .

(٢) كيف سيبقى ميله مستمرا الى فترة طويلة من الوقت .

(٣) أى تقدم يمكن ان يحرزه بالممارسة.

وحينما يأخذ ميل الطفل الى التلاشي بسرعة او حينما لا يبدى تحسنا ملحوظا ، بالرغم من الممارسة المستمرة ، لنا ان نتساءل ونتشكك في استعداده للتعلم .

• • •

تلك ما تواتر من دراسات ونتائج وبيانات تقليدية حول قضية التعلم والنمو ، والعلاقة بين النضج والتعلم في النمو . لكن ذلك لا يعنى ان الفكر السيكولوجي قد استقر على تلك التصورات النظرية وما وصلت اليه الدراسات في هذا الصدد من نتائج ، وانه صار ينهج على دربها بحكم القصور الذاتي .

وقضية كهذه ليست بالبساطة التى قد يتصورها البعض ، لان تناولها بالحل يعنى الى أى حد نتيح للناشئة الفرص الملائمة لكى يتحقق لها التفتح الامثل لامكاناتها الكامنة ارتباطا بمنجزات العصر الهائلة ، بالانفجار المعرفي ، بالثورة العلمية التكنولوجية الفريدة ؟ كيف يمكن تنشيط المسار النمائي للطفل ؟ كيف يمكن استثارة امكانات التطور النمائي لدى الناشئة بما يضمن عدم ضياع او الاقلال من طاقاتهم الكامنة الاصلية ويضمن تحقيق كامل انسانيتهم وفرديتهم ؟

ليس بمستغرب اذن ان تحتل هذه القضية مكانة كبيرة فى أعمال ومناقشات المؤتمرات الدولية لعلم النفس ليشترك فيها الثقات في الميدان فى العالم أملا فى الوصول الى حلول اكثر رصانة وقبولا .

خصص « المؤتمر الدولى الثامن عشر لعلم النفس » ، الذى نظمه « الاتحاد الدولى لعلم النفس العلمي International Union of Scientific psychology بموسكو فى اغسطس ١٩٦٦ ندوة Symposium بعنوان «التعلم كعامل في النمو العقلى» Learning as factor in mental development

تكرست لتناول هذه القضية الحاسمة ، تصدرهاوادار مناقشاتها ١٢ عالما من بلاد مختلفة (امريكا، روسيا ،رومانيا،بولندا ، المجر، تشيكوسوفاكيا،النرويج ، هولندا ، المانيا الغربية) برئاسة « جيروم برونر » (امريكا) و « مينشينسكايا »(روسيا) (*) ، وبالرغم من أن هناك ندوات اخرى تناولت هذه القضية أيضا ، مثل : ندوة« تكوين المفاهيم والاداء الداخلى Concept Formation and inner action برئاسة « برونر » (امريكا) وجالبيرن (روسيا) و « انهيلدر (سويسرا) وندوة الدراسات الطويلةفى نمو الاطفال » Longitudinal studies in child development برئاسة « ر. زازو » R. Zazzo (فرنسا) ، وندوة « الدراسات الحضارية المقارنة فى النموالعقلى » Cross-Cultural Studies in Mental Development. برئاسة « تاجفيل » H. Tajfel (بريطانيا) و « كلينبرج » O. Kleineberg (فرنسا) .

---

* J.S. Bruner (USA). Learning and development.

— G.S. Kostyuk & N.A. Menchinskaya USSR). Interoductory remarks : „Learning and mental development''

— N.F. Taylsina (USSR). The theory of stage by stage formation of mental actions and the problem of development of thinking.

— R. Ojeman (USA). Guided learning and the concept of experience.

— P. Lenard (Hungary). Developing of production thinking in school-lessons.

— E. Fleszner (Poland). An attempt to develop the ability of abstracting in the courses of teaching.

— A. Roshka (Roumania). Development of flexibility and creativity of thinking.

— G.A. Kohnstamm (Holland). Teaching thought operations and developmental psychology : two different attitudes (with special attention to the position of Jean Piaget).

— J. Smedslund (Norway). Children's experiences and the acquistion of logical structures.

— I. Linhart (Crechoslovakis). Learning and mental development.

— H. Aebli (FRG). Does „Egocentrism'' as described by Piaget reflecte a stage of cognitive development or is it „situationally determined''?

— B. Inhelder (Switzerland). Development and learning.

وبالرغم من ان الاعمال المقدمة والمناقشات المحتدمة ، باختلاف اتجاهاتها ومدارسها ، قد انطلقت من احساس عام بالمشكلة ، الا انها قد سارت في دروب ومسالك متعددة ، ووصلت بالتالي الى نتائج متباينة . لذا يمكن ان تتعدد محاولاتنا لتصنيف الاتجاهات الاساسية التي سادت هذه الندوات ارتباطا بالمحك الذي يمكن ان نأخذه كأساس للتصنيف .

يتحدد المحك الاساسي ، الذي يحمل أهمية أكبر ، بالسؤال التالي : « **كيف يمكن تقييم دور التعلم في النمو ؟ هل يعطي للتعلم الاهمية المسيطرة ام يفترض انه يستخدم بطريقة تلقائية فحسب (اي بدون ما ارتباط بمؤثرات خارجية، ولكن فقط بتأثير القوانين الداخلية) ما يظهر من بنى Structures النشاط العقلي** ؟ وفقا لهذا المحك ، انقسم علماء النفس الى معسكرين :

أولا : يمثل المعسكر الاول اتجاه مدرسة جنيف (بياجيه ، انهيلدر ، وآخرون) . يذهب هذا الاتجاه الى تقييد دور التعلم ، معتبرا ان التعلم « يخضع لقوانين النمو » . يعتبر بياجيه (٨) النمو على انه « تتابع للاشكال المختلفة من السلوك ، وخاصية للانتقال من أشكال معينة للنشاط النفسي الى اشكال اخرى » .

ومن المعروف ان مدرسة بياجيه تقر ثلاث مراحل أساسية للنمو العقلي : المرحلة الحسية الحركية Sensory-motor (التفكير الذي يعتمد على الادراك والاداء بتناول الاشياء) ، مرحلة العمليات العقلية الحسية Concrete operations ، ومرحلة التفكير التجريدي . ويتمثل الشرط الجوهري لافراد هذه المراحل في وجود تغيرات كيفية محددة في عملية النمو ، خلافا للتحسن التدريجي غير المنقطع .

وتتميز المراحل ذاتها ، وفقا لبياجيه ، بخصائص محددة :

١ ـ هذه المراحل ينبغي ان تظهر في مسار النمو في نسق دائم غير متغير .

٢ ـ متغير ، تدخل البنى Structures (أشكال النشاط المعرفي) المميزة للمراحل المبكرة ، في اشكال النشاط المميزة للمراحل التالية .

٣ ـ ينبغي ان تؤلف الخصائص الكيفية ، التي تحدد المرحلة الحالية من النمو ، نظاما ثابتا هادفا .

وفيما يتعلق بالعمر ، الذي تميزه هذه او تلك من مراحل النمو ، يتخذ بياجيه الحيطة ضد الربط المفرط للمرحلة النمائية بالعمر ، ويقرر أن ما توصل اليه من حقائق يقدم في أحسن

---

(٨) J. Piaget. The interiorization of schemes of action in reversible operations by intermediary feed-back regulatory mechanisms. **Proceedings of the XVIII International Congress of Psychology**, 1966.

الحالات تقييما تقريبيا لذلك العمر المتوسط Average age الذى يحقق فيه الطفل هذه او تلك من المراحل . وهكذا فان العمر ، الذىتظهر فيه كل مرحلة نمائية ، يمكن ان يتغاير بدرجة كبيرة .

وفيما يتعلق بالعلاقة المتبادلة بين التعلم والنمو العقلى ، يقول بياچيه بصدد دراسته السابقة عن تكوين المفاهيم الرياضية : « مـن الخطأ الفادح ان تعتقد ان الطفل يكتسب مفهوم العدد وغيره من المفاهيم الرياضية بطريقة مباشرةفى التعلم . وعلى العكس من ذلك ، ينمو لديه الى حد كبير بطريقة مستقلة ، تلقائية . واذاحاول الكبار فرض المفاهيم الرياضية على الطفل قبل الاوان ، فانه سوف يتعلمها فقط بطريقةقائمة على اللفظية ، فالفهم الحقيقى يتأتى مع نموه العقلى فحسب » .

وهكذا ، تعتبر المراحل الثلاث السابقة ،وفقا لبياچيه ، مراحل للنمو الفردى للنشاط العقلى ، تعكس الميكانزمات الداخلية للنمـو .وقد تكرست نظرية بياچيه لاثبات الدور المسيطر لهذه الميكانزمات الداخلية التلقائية غير المرتبطةبالتعلم (٩) . فالتعليم ، كتعلم من الخارج ، يعطى الطفل مضمون ما يستوعبه فقط ، أماطريقة الحل من الخارج – بواسطة المعلم ، او شخص كبير – فلا تنتقل اليه . فالطفل ذاتهينبغى ان يبنى الطريقة ويجدها على أساس تلك الاشكال من النشاط التي يتقنها بالفعل . لذا لا تقوم تجارب بياچيه على تعليم الطفل طرق الاداء ، ولا ينظمونها ، وانما يوفرون الشروطالمادية فحسب ، شكل توجيه التعليمات ، وتتابع تقديم المسائل او المشكلات . وهنا ينزعون الـىابعاد الاطفال المشتركين فى التجربة عن اى تعلم يتعلق بما يمثل موضوع البحث .

وقد انعكست وجهة النظر هذه على الدراسة التي قدمتها « انهيلدر » زميلة بياچيه أمام المؤتمر المذكور . وهى تؤكد ان « التعلم خاضعلقوانين النمو ، وليس العكس » . وتقرر اعتمادا على بحث اتقان العمليات Operations انـه« بالرغم من الايقاع الفردى للنمو لدى كل طفل ، يظل نسق تتابع المراحل والمراحل الفرعية ثابتاولا يخضع لمغايرات جوهرية » . وفى أكثر من موضع تؤكد هذا الموقف : ... « بأى درجةيرتبط التعلم بمستوى وميكانزمات النمو ؟ وهل توجد قوانين للتطور ، اشبه ببعض القوانين فىعلم الاجنة ، تفسر السرعة النسبية للتعليم ؟ » .

تقرر انهيلدر ، بتوصيفها لنتائج الاجابةعلى هذا السؤال انطلاقا من بحث طبقت فيه عناصر للتعلم ، ان هذه النتائج يمكن ان تتباينبدرجة هائلة ارتباطا بمستوى الاطفال الـذى انطلق منه البحث . لذا استندت الباحثة الـىاختبارات خاصة لاقرار هـذا « المسـتوى المنطلقى » Initial Level : فى اى مرحلة اومرحلة فرعية يوجد الطفل .

فى هذا البحث تصدت انهيلدر لدراسة :كيف يصل الاطفال الى فهم الحجم والى مفهوم بقاء الحجم ؟ استخدمت فى تجاربها جهازا يتألفمن ثلاثة آنية شفافة . فى بعض التجارب كانت

---

(٩) لمزيد من التفصيل فى نقد نظرية بياچيه فى هذاالصدد ، انظر : ل . فيجوتسكى : التفكير واللغة . (ترجمة : د . طلعت منصور) ، مكتبة الانجلو المصرية ،القاهرة ، ١٩٧٥ .

تستخدم أزواجا من الآنية متشابهة فى الشكل ،وفى تجارب اخرى كانت الآنية مختلفة ـ الاناء « ب » أوسع من الاناء « ب ١ » ، وفى تجاربغيرها العكس. وبمساعدة صنابير معينة يستطيع الاطفال تنظيم مقدار السائل المنساب من اناء الىآخر .

تنوه انهيلدر ، بصدد تناولها لنتائج التجارب ، الى انه لم يستطع اى طفل ، يقع بالفعل فى مستوى ما قبل العمليات Preoperations (اى ما قبل التفكير التجريدى) ، ان يتوصل الى فهم العمليات المنطقية الملائمة لمفهوم البقاءالاولى للكميات الفيزيائية (الوزن ، الحجم وغير ذلك) . لقد كان اطفال هذا المستوى يحكمونعلى تساوى وعدم تساوى كمية السائل فى الآنية على اساس فقط مستوى السائل فى الآنية،ولم يستطيعوا ان يفهموا انه فى حالة الاحجام المختلفة للآنية يمكن ان تكون هناك علاقة متبادلةعكسية بين حجم وارتفاع مستوى السائل ، اى لم يتقنوا بعد ما هو عكس العملية (التناولالعكسى للاشياء reversibility) .

« لقد كان الموقف مختلفا تماما مع الاطفال ، فيه تحدد وضع الانطلاق Initial position لديهم بمستوى وسيط يؤهل الى مستوى العمليات . لقد ظل ٢٣٪ من الاطفال فقط بدون ان يدعنوا الى التعلم ، فى حين استفاد٧٧٪ من الاطفال بدرجات مختلفة من تلك التدريبات (بهدف اكتساب مفاهيم بقاء الكميات) التى تلائم بالفعل مستوى العمليات .. »

« الا انه ـ كما تقرر انهيلدر بعد ذلك ـاذا قارنا بدقة التعليل ، الذى اكتسبه الاطفال اثناء التعلم ، بالاستدلالات التي جرت خلالالعملية التلقائية الطويلة ، نرى ان هذه الاستدلالات العقلية لا تتفق تماما » . فالاطفال ،الذين خضعوا للتعلم فى هذه التجارب ، لم يستطيعوا كلية اتقان العلاقة العكسية للعمليات،المميزة لمرحلة العمليات الشكلية (التجريدية) . وقد اتضح ذلك فى هذه التجارب من ان الاطفاليلقون بعد صعوبات فى فهم ما هو أساسى تماما (الاناء المرتفع والضيق قد يتساوى مع الاناءالواسع والمنخفض) .

وفى ختام دراستها تتناول انهيلدر الانتقالات من مرحلة الى مرحلة ، وتتكلم عن المبدا الاساسى فى نظرية النمو عند بياچيه ـ مبدأ تتابع المراحل . فالاطفال ، الذين بدوا بمستوى ما قبل العمليات لم يستطيعوا كلية تعلم العملياتالمنطقية او ان يحققوا مستوى وسيطا ، اما الاطفال الذين كانوا فى المستوى الوسيط ، فقداقتربوا من مستوى العمليات ، فى حين ان الاطفال الذين بدأوا بهذا المستوى ابدوا تقدما سريعا فىنمو العمليات الشكلية المنطقية .

ثانيا : خلافا لاتجاه مدرسة چنيف ، يقرأصحاب الاتجاه الثانى (وهم كثيرون) بالدور المسيطر للتعلم فى النمو ، ويعتبرون ان التعلميوسع من امكانات النمو ، وقد يسرع به ، ويباشر تأثيرا بالغا ليس فحسب على تتابعالمراحل فى تفكير الاطفال ، ولكن ايضا على نفس طبيعة هذه المراحل .

تقوم هذه البحوث على دراسة النمو فىظروف وشروط ومواقف متغيرة للتعلم . وهنا يعمد علماء النفس من اصحاب هذا الاتجاه الىتنويع هذه الشروط بهدف ايستيضاح كيف ان طبيعة النمو العقلي للطفل تتغير في هذه الحالات.

وينتمي اصحاب هذا الاتجاه الى بلادمختلفة (امريكا ، روسيا بولندا ، المجر ، تشيكوسلوفاكيا ، رومانيا ، النرويج ، هولنداالمانيا الغربية وغيرها) . وبالرغم من ان اصحاب هذا الاتجاه يعترفون بالدور المسيطر للتعلم فىالنمو ، ولكنهم ينقسمون بدورهم الى مجموعات فرعية ارتباطا يتباين فهم محكات النمو . ويتحددالتباين بين هذه المجموعات الفرعية أساسا بالاجابة على السؤال التالي : ما هو المنحى الذييختارونه لبحث مشكلة التعلم والنمو ؟

يقيم بعض العلماء بحوثهم فى هذا الصددعلى أساس اجراء التجارب مع التلاميذ والمادة الدراسية . ويعمدون الى تغيير محتوى التعلموطرقه ، بهدف تنشيط التدريس بأساليب مختلفة ، وتعليم الاطفال عادات التفكير وغيرذلك . ويعترفون بان التعلم بطرق مختلفة يساعد على النمو ويدفعه ، ويقوده ارتباطا بالكيفية التيبني بها التعلم . وحول هذا المنحى ، الذي ينشد رفع زيادة تأثير التعليم على النمو العقلي ،تكرست بحوث ومناقشات عديدة .

يعرض « ج . كوسنيول » لاتجاهاتونتائج بحوث (معهد علم النفس بكييف بأوكرانيا) ويقرر أن الاطفال فى سن ما قبل المدرسة يحققون،فى شروط التعلم المبينة بطريقة خاصة ، مستويات أعلى بكثير مما هو معروف فى تمييز دلائل الاشياءكاللون والشكل والحجم . وسرعان ما ينتقلون من تجميع الاشياء وفقا لاي دليل واحد الىتقسيمها لمجموعات وفقا لعدة دلائل ، من تشكيلها الادراكي Perceptual configuration الى تصنيف قائم على المفاهيم . وفى مواقف التعلم التي نتطلب تنظيما للاشياء وفقا لطولها(اي ترتيبها فى سلاسل) نجح الاطفال فى سن ما قبل المدرسة فى اتقان هذه العملية . واستطاعالاطفال فى سن ٥ ــ ٦ سنوات اكتساب مهارة الانتظام وفقا لكل الدلائل الاساسية لسلسلةمن الاشياء ، ومنها الانتظام فى نسبية حجم كل عنصر فى المجموعة او السلسلة (هذا عنصر اكبرمن العنصر السابق وفى نفس الوقت أصغر من العنصر التالي) . ومن الاهمية بمكان ، كمايشير كوسنيوك ، تعميم هذه المهارة ، وابرز دليل على ذلك انتقالها الى تنظيم العناصر فىنماذجمختلفة modalities أخرى (الضوء ، الصوت) ويستطيع الاطفال فى سن٦ ــ ٧ سنوات اتقان البنية المنطقية للعملية ، أي اتقان عملية ترتيب الاشياء وفقا لمبدأ التزايدوا التناقص . وفى شروط اخرى للتعلم يتكون لدى الاطفال فى سن ٥ ــ ٦ سنوات بنجاح مفهومالعدد ، حيث ينجرد الكم عن الدلائل الاخرى للاشياء ، وخاصة عن تشكيلها المكاني . وتأثيرتعلم من نوع خاص يتقدم الاطفال بدرجة أسرع فى نمو القدرة على تضمين فئات فرعية subclasses للاشياء فى فئاتها classes فى نمو القدرة على استخدامالتعميمات المتكونة لديهم فى استنتاجاتهم الاستدلالية عن خصائص الاشياء وعلاقاتها . . .فى نمو السعي الى اثبات حقيقة استنتاجاتهم .

اما التجارب التي اجريت على الاطفال فىالمدرسة الابتدائية ، فقد اثبتت امكانية تحقيق مستويات أعلى بكثير (مما هو معروف) لاستيعابالمعلومات والنمو العقلي (نمو الادراك ، والملاحظة، والذاكرة ، والتفكير ، والكلام ، والتخيل) . ففي شروط جديدة للتعلم خضع التفكير لدى الاطفال لتطور نمائي هائل : فالانتقالية منالتفكير الحسي الى التجريدي قد تمت بدرجة أسرع ؛ وهم فى ذلك قد تكونت لديهم الاداءاتالعقلية اللازمة لاستيعاب المفاهيم العلمية (المقارنة ، التجريد ، التعميم ، التصنيف وغيرذلك) . ويستطيع الاطفال اتقان المهارات المعممة

فى حل المسائل الحسابية (باستخدام رموز من الحروف) ، والامكانية الهائلة على نقلها الى انماط مختلفة من هذه المسائل .

يقول « كوستيوك » :

« يتحدد التاثير النامي للتعلم المدرسي بمضمونه وطرقه . فالبناء التركيبي للمضمون ، واستخلاص المفاهيم الاساسية فيه ونظمها ومايرتبط بها من عمليات ، يخلق امكانات ملائمة هائلة لاستيعابها الكامل لدى التلاميذ مع المادة الدراسية ، وبماهية خصائص وعلاقات الاشياء التي يعرفونها بواسطة هذه الاداءات (الادراكية، التذكرية ، التفكيرية ، العملية وغيرها) .. ففضل التعلم فى نمو التلاميذ يتعاظم ، اذا كان يعلمهم نفس عمليات الاستيعاب .

« فالتعلم – كما يقول كوستيوك – لا يسرع فحسب من انتقالات الاطفال من المستويات الادنى من بنية النشاط العقلي الى المستويات الارقى . فهو يمثل شرطا ضروريا لتكوين هذه البنى . وهنا لا تتأتي البنى الجديدة ببساطة من الخارج ، ولكنها تتشكل فى عملية التعلم من البنى المتكونة فى مراحل مبكرة . وتعمل الاستثشارة الخارجية فى هذه العملية دائما من خلال الفاعلية الداخلية للتلاميذ » .

وفى دراسة « فليزنر » (بولندا) عن « محاولة انماء القدرة على التجريد فى سياق التدريس » ، يبين كيف ان التنظيم الانمائي للعملية التعليمية يقوم بتاثير فعال على نمو التفكير التجريدى . فى هذه الدراسة استخدم احدى اشكال التجريد : التجريد فى عملية استخدام المعلومات ، حينما يتطلب من التلاميذ التعرف على مبدأ معروف لديهم (او قانون ، او تركيب) فى ظروف جديدة محددة للمسألة او المشكلة . اجريت هذه التجربة النفسية – التربوية مع تلاميذ صفين دراسيين متناظرين فى سن من ١٤ – ١٥١/٢ سنة . وقام بتعليم الهندسة معلم واحد فى كلا الفصلين ، ولكن فى الفصل التجريبى استخدم على نطاق واسع ما يسمى بحل المسائل ببيانات زائدة ، وهوما لا يستخدم عادة فى الممارسات المدرسية . وهنا يكون من الضرورى بالنسبة للتلاميذ ، لكي يتمكنوا من حل هذا النوع من المسائل بنجاح أن يتجردوا من العناصر الزائدة غير اللازمة فى حل المسألة . وقد ايدت الاربع سلاسل من التجارب (اجريت السلسلة الاولى فى بداية التعلم ، وسلسلتان فى سياقة ، والرابعة فى نهاية العام الدراسى) الفرض الذى تبناه الباحث عن تأثير شكل معين من التعلم على نمو التفكير التجريدى : فقد تفوق الفصل التجريبى وفقا لكل المحكات على الفصل الضابط . وبدت منجزات تلاميذ الفصل التجريبي ومستويات نموهم العقلى – المعرفى اقرب الى مستويات التلاميذ فى سن ١٦ – ١٧ سنة .كما اوضحت هذه البحوث انتقال القدرة المتكونة على التجريد (الى مواد قريبة من الهندسة كالحساب وغيره) . ومن ناحية اخرى تؤيد هذه البحوث الفرض الذى يذهب الى أن تحسين القدرة على التجريد تنعكس بايجابية على العمليات العقلية الاخرى وخاصة على عمليات التحليل والتركيب Analysis-Synthesis Operations

وقد توفرت بحوث « اوچيمان » (امريكا) و « كونستام » (هولندا) و « سميدسلوند » (النرويج) و « آيبلى » (المانيا الغربية) على تبين تاثير التعلم على النمو . وهى بحوث

معملية تناولت أساسا مفاهيم مدرسة جنيف في هذا الصدد . وتذهب هذه البحوث الى ان التمركز حول الذات Egocentrism ، وهو مفهوم اساسي في نظرية بياجيه ويعني تقييم الوسط المحيط بالطفل من وجهة نظره الذاتية فحسب ، ليس بمفهوم صحيح ، وينبغي استبداله بمفهوم آخر هو « اللاتمركزية » Decemberism ، ويعني القدرة على تبني وجهة نظر الآخرين ، ومن هذا الموقع يأخذ الطفل في تقييم الوسط المحيط به . وفي هذا الصدد تلعب « المؤثرات الاجتماعية دورا هائلا »(سميد سلوند) ويظهر التمركز حول الذات في مواقف معينة ، حيث لا يستطيع الطفل ان يستعلم عما يقدم له من مسائل — اي يحدد ما هو غريب عليه — وبالتالي يحدد بدلا من ذلك موقفه ذاتيا . أي حيث تنعدم مواقف المؤثرات الخارجية ، يظهر التمركز حول الذات ، وهنا « يتحدد التمركز حول الذات موقفيا » (آيبلي) .

ويتضح من هذا العرض ان أصحاب المعسكر الاول (معسكر جنيف : بياجيه أساسا) أقرب الى « التشاؤمية » في النظر الى امكانات التطور النمائي لدى الناشئة ، في حين ان ممثلي الاتجاه الآخر (وهو الاغلب في معظم دول العالم) يؤمن ، بالتجربة ، بأننا نستطيع ان ندفع هذه الامكانات الى آفاق لا يتوقعها أحد اذا أحسنا توفير الشروط الملائمة للتعليم والتعلم .

بقول آخر : تمثل **« قضية الاسراع بالنمو »** الفلسفة التي تدور حولها وتنطلق منها دراسات النمو ، أو ان شئنا **« دراسات الانماء »** . ومع ذلك ، فلا زالت جد قليلة قياسا الى اهميتها المتعاظمة في عالم اليوم .

• • •

الخلاصة :

يؤكد التصور العلمي الانساني في تناول قضايا علم نفس النمو على ان **الوظائف العقلية العليا والخصائص النفسية توجد وتعمل هكذا في حركة ، في نمو ، في صيرورة .** واذا كانت لا تتبدى بصفة عامة كقدر او كم غير متغير ، واذا كانت لا تتوفر بالتالي كمزايا تعطى « مرة لا تتكرر » وبالتالي « لا تتغير » — فليس ثمة اساس لان نفترض ثباتها ونمطيتها لدى الاطفال في المراحل التي يختطها مسارهم النمائي .

ومن هنا نرى ان علم نفس النمو ، خاصة في مجتمعاتنا العربية النامية ، مطالب بأن يتبنى تصورا ومفاهيم وممارسات جديدة تتناول ليس النمو بطبيعته ومبادئه وعوامله ومظاهره فقط ، ولكن بدرجة أكبر — وارتباطا بتطور الفكر السيكولوجي المعاصر ، خاصة في علم النفس العلمي والانساني — مقومات استثارة النمو ، تنشيط امكانات النمو ، تحقيق التفتح الامثل والتوظيف الامثل لهذه الامكانات ....

ومن ثم ، ينبغي ان تنطلق دراسات النمو من **« فلسفة انمائية » (*)** « انماء الذكاء والقدرات » ، « انماء الانضباط السلوكي » ، « انماء الخلق » ، « انماء الشخصية » ، وهكذا من منجزات العملية النمائية .

(*) يمكن الرجوع في ذلك الى دراسة للمؤلف يتضمنها المرجع التالي : د . طلعت منصور : التعلم الذاتي وارتقاء الشخصية (دراسات جديدة في علم النفس — ٢) . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٧ .

المراجــــع

أولا : باللغة العربية

١ ــ د . فان دالن : مناهج البحث فى التربية وعلم النفس . (ترجمة نبيل نوفل ، سليمان الخضرى ، طلعت منصور ــ تحت اشراف دكتور سيد عثمان) ، مكتبة الانجلوالمصرية ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

٢ ــ دكتور فؤاد ابو حطب : القدرات العقلية . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ط ٢ ، ١٩٧٨ .

٣ ــ ل.س. فيجوتسكى : التفكير واللغة . (ترجمة : دكتور طلعت منصور) مكتبة الانجلــو المصريــة ، القاهرة ، ١٩٧٥

٤ ــ دكتور طلعت منصور : دراسة ارتباطية لتطورنمو فاعلية التذكر لدى الاطفال والمراهقــين . الكتــاب السنوى الثانى للجمعية المصرية للدراسات النفسية ،القاهرة ، ١٩٧٥ .

٥ ــ دكتور طلعت منصور : الطفولة بين الحرمان والاشباع الثقافى . المؤتمر الاول لثقافة الطفل ، الاسكندرية ١٩٧٥ .

٦ ــ دكتور طلعت منصور : التربية وتنمية الابتكارية عند الاطفال . ندوة العمل مع الاطفال ــ جامعة عين شمس، القاهرة ، مارس ١٩٧٨ .

٧ ــ دكتور طلعت منصور : التعلم الذاتى وارتقاء الشخصية . القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٧ .

٨ ــ دكتور عبد العزيز القوصى : مستقبل التعليم النظرى فى مصر . صحيفة التربية ، العدد الاول ، نوفمبر ١٩٥٧ .

٩ ــ دكتور محمد الهادى عفيفى ، دكتور محمد احمد الغنام : الصحة الثقافية » صحيفة التربية ، العدد الرابع مايو ١٩٦١ .

١٠ ــ دكتور محمد عماد الدين اسماعيل ، دكتور نجيب اسكندر ابراهيم ، دكتور رشدى فام منصور : قيمنا الاجتماعية وآثارها فى تكوين الشخصية . مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

ثانيا ــ باللغة الافرنجية :

11— Anderson, J.R. Dynamics of development; System in process. In D.B. Harris (Ed.), **The concept of development.** Minneaplois, Univ. Minnestoa Press, 1957.

12— Berelson, B. & Steiner. **Human behavior : An inventory of scientific flindings.** New York, New York, Harcourt, Brace & World, Inc., 1964.

13— Blum L.H. Pediatric practice and the science of child development Nerv. **Child,** 1952, 9, 233-241.

14— Bossard, J.H. & Carter, W.T. **The sociology of child development.** New York, Harper & Bros., 1960.

15— Bribram, K.H. Neocortical functions in behavior. In H.F. Harlow & C. W. Woolsey (Eds.), **Biological bases of behavior.** Univ. Wisconsin Press, 1958.

16— Dennis, W. A biography of baby-biographies. **Child Developm.**, 1937, 7, 71-73.

17— Dennis, W. & Dennis, M.G. Infant development under conditions of restricted practice and a minimum of social stimulation : a preliminary report. **J. Genet. Psychol.**, 1938, 53, 49-157.

18— Dennis, W. Infant development under conditions of restricted practice and minimum social stimulation. **Genet. Psychol. Monogr.**, 1941, 23, 143-189.

19— Erikson, E.H. Growth and crises of the healthy personality. In Hung-Min Chiang & A. Maslow Eds), **The healthy personality**, New York, Van Nostrand Reinhold Co., 1969.

20— Gates, G.S.& Taylor, G.A. An experimental study of the nature of improvement resulting from practice in a motor function. **J. Educ. Psychol.**, 1962, 27, 226-236.

21— Gesell, A. & Thompson. Learning and growth in identical twins : an experimental study by the method of cotwin control. **Genet. Psychol. Monogr.**, 1929, 6, 1-123.

22— Gesell, A. Growth potentials of the human infant. **Sci. Mon.**, N.Y., 1949, 68, 252-256.

23— Gessel, A. Developmental pediatrics. **Nerv. Child.**, 1952, 9, 252-57.

24— Havinghurst, R.J. **Human development and education.** New York, Longmans, 1953.

25— Hebb, D.O. **The organization of behavior.** New York, Wiley, 1949.

26— Hilgard, J.R. Learning and maturation in preschool children. **J. Genet. Psychol.**, 1932, 41, 36-56.

27— Horney, K. The neurotic personality of our time. New York, 1939.

28— Jensen, A.R. Individual differences in concept learning, Ch. 9 in H.J. Klausmeier & C.W. Harris(Eds.), **Analyses of concept learning**New York and London: Academic Press, 1966.

29— Jensen, A.R. Varieties of individual differences in learning, Ch. G. in **Learning and individual differences (Ed. R.M. Gané).** Columbia, Ohio : Merrill, 1967.

30— Jersild, A.T. Training and growth in the development of children. **Child Developm. Monogr**, 1932, 10, 1-73.

31— Kluckhohn, C. **Mirror for man.** New York, Mc Graw-Hill, 1949.

32— Luria, A.R. **Higher cortical functions in man.** New York, Basic Books, 1966.

33— Luria, A.R. **Human brain and psychological processes.** New York, Harper & Row, 1966.

34— Mc Graw, M.S. **Growth : a study of Johny and Timmy.** New York : Appleton Cent. Grofts., 1935.

35— Mc Graw, M. B. Later development of children specially trained during infancy. **Child Deve- lopm.**, 1939, 10, 1-19.

36— Mc Graw, M.B. Neural maturation as exemplified in achievement of bladder control. **J. Pediat.** 1940, 16, 580-590.

37— Mead, M. **Sex and temperament in three primitive societies.** New York, Morrow, 1935.

38— Parker, S. & Kleiner, R. **Mental illness in the urban negro community.** New York, 1966.

39— Piaget, J. The interiorization of schemes of action in reversible operations by intermediary feedback regulatory mechanisms. **PProceedings of the XVIII International Congress of Psychology**, Moscow, 1966.

40— Shirely, M.M. **The first two years.** Mineapolis : Univ. Minnesota Press, 1931, vol. 1.

41— Szasz, T. **The myth of mental illness.** N.Y., Harper & Row Pub., 1961.

42— Terman, L.M. **Genetic studies of genius**, Stanford : Stanford Univ. Press, 1925, 1926, 1930, 3 vols.

43— Terman, L.M. & Oden, M.H. **The gifted child grows up.** Stanford, 1947.

44— Thompson, H. The modifiability of play behavior with special reference to attentional character- istics. **J. Genet. Psychol.**,1943, 62, 62, 165-188.

45— Wechsler, D. Intellectual development and Psychological maturity. **Child Developm.** 1950, 21, 45-50.

46— Wells, J. & Arthur, G. Effect of foster-home placement on the intelligence ratings of children of feeble-minded parents. **Ment. Hyg.** N.V., 1939, 23, 277-285.

47— Wishik, S.M. The importance of „timing" in child heatlh supervision. **Child Developm.**, 1950, 21, 51-60.

48— White, R.W. Adult growth and emotional maturity. In Hung-Min Chiang & A. Maslow (Eds.), **The Healthy Personality,** New York, Van Nostrand Reinhold Co., 1969.

شخصيات وآراء

جان جاك روسو والعقد الاجتماعي

محمود أبو زيد

مقدمــة :

قرنان من الزمان مرا حتى اليوم على وفاة جان جاك روسو J. - J. Rousseau ، وان شئت الدقة فقد مات الفيلسوف الفرنسي العظيم في الثامن من شهر يوليو عام ١٧٧٨ (*). وكان موته بعد أيام مــن الذكرى السادســة والستين لمولده ، وقبل سنوات قليلة فحسب من الثورة الفرنسية التي اعتبر ملهمها .

وبين اللحظات الاولى لمولده عام ١٧١٢ وتلك اللحظات الاخيرة التي جاد فيها بانفاسه ، امتدت حياة روسو ليضيف بفكره وبشعوره الثوري الفياض ما أثرى الفكر الاوروبي عامة ، وربمــا بشكل قل أن يكون له مثيل حتى من بــين الشوامخ الذين انجبهم القرن الثامن عشر من امثــال فولتير Voltaire ومونتســكيو Montesqiueu ودالمبير D'Alembert

(*) كتب هذا المقال في يوليو/١٩٧٨ ـ التحرير .

وجعلوا منه ـ حقا ـ مايعرف **بعصر العقل أو عصر التنوير** كما يقولون . ويكفى روسو أنه قدر له أن يكون ثالث أشهر ثلاثة مفكرين ارتبطت أسماؤهم بنظرية العقد الاجتماعي Social Contract ، **ونعنى بهؤلاء توماس هوبز** Hobbes وجون لوك Locke فى انجلترا ، ثم مفكرنا الفيلسوف فى فرنسا . فنتيجة لكفاياتهم سادت نظرية العقد الاجتماعى التفكير السياسى فى القرن الثامن عشر ، ونجحت فى أن تؤثر تأثيرا بالغا فى كل من انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الامريكية ، بل وفى أن يكون لها دور مباشر لا فى تطوير النظم الديمقراطية بهذه الدول فحسب ، ولكن أيضا فيما تفجر من ثورات غيرت كثيرا من وجه الاحداث .. بعدما انزلوا بفلسفاتهم السلطة من السماء الى الأرض ، واحلوا العلاقات المدنية محل العلاقات الطبيعية ، فأتاحوا بذلك للفرد مكانة ممتازة فى عملية تطور المجتمع ، باعتبار ان **الفرد هو الوحدة التى ينبنى عليها العقد** . **وفى ذلك كله كان روسو بصفة خاصة أبرز دعاة** هذه النظرية واوسعهم صيتا وابعدهم اثرا فى تاريخ الفكر السياسى (١) بما اثارته كتاباته من مظاهر المساندة والتأييد وكذلك موجات الانتقاد والتجريح .. والواقع أنه بين هذه المساندة القوية من ناحية ، والانتقاد العنيف من ناحية ثانية تبدو وعظمة روسو كمفكر تتميز أفكاره بجدة وطرافة أصيلتين .

وعموما فانه لكى نفهم فلسفة جان جاك **روسو فهما شاملا ، فيجب أن نلقى بالضوء أولا** على ظروف النشأة والتكوين وما كان لهذه الظروف من تأثيرات تدخلت فى تحديد أفكاره وآرائه ، ثم نحاول **ثانيا** أن نتعرف على أصول فلسفته السياسية والاجتماعية **وانعكاسات ذلك** فى مواقفه وتصوراته التى ضمنها نظريته فى العقد ، ثم نتلمس **ثالثا** بعض مظاهر الاتفاق أو الاختلاف بينه وبين صاحبيه هوبز ولوك ، وذلك تمهيدا لكى نتمكن **رابعا** من رؤية مدى أصالة فكر روسو بما قد يتيح لنا تقديم فكرة تقويما شاملا ، تتبين من خلالها جدارة هذا المفكر الفيلسوف بالشهرة الفائقة التى تمتع بها واستمرت قرنين من الزمان بعد وفاته .

• • •

هناك قاعدة أساسية يتفق عليها الجميع مؤداها أن أعمال المفكرين وليست حياتهم الشخصية هى مايوجه الانتباه اليهم ويجعلهم احياء فى عقول الناس حتى بعد مرور قرون عديدة على وفاتهم . ومع ذلك فان جان جاك روسو يعتبر فى رأى الكثيرين استثناء ملحوظا لهذه القاعدة ، حيث نجد مايشبه الاجماع على أن شخصيته تمثل منعطفا من اخطر المنعطفات التى ولجتها العقلية الغربية وارتبط بذلك طابع الحياة المثيرة التى عاشها هذا المفكر الفيلسوف ، وجعلت منه انسانا مضطرب الروح زائد الحساسية ، وهما صفتان انعكستا بوضوح فى كتاباته ، لدرجة اننا نجده أحيانا متحاملا قاسيا على المجتمع بكل مافيه من تقاليد على مايظهر فى « رسالة عن منشأ عدم المساواة بين الناس
Discourse on the Origin of Inequality
وأحيانا اخرى مجدا لشأن المجتمع ومعليا لمكانة الجماعة على مانجد فى كتابه « العقد الاجتماعي » على وجه التحديد .

ومع أنه يسهل ملاحظة ذلك فى اماكن كثيرة من كتاباته ، الا أن الطابع المميز لشخصية روسو يظهر كأوضح مايكون فيما سجله هو نفسه فى « الاعترافات » بالذات ، خاصة وهو يصف الكيفية التى جاء بها الى الوجود ، فيقول « كنت ثمرة عودة امي الى ابى بعد

(١) Robert K. Woetzel; The Philosophy of Freedom, Popular Library. N. Y. 1966.

انفصال فرق بينهما وقتا ... وبعد عشرة أشهر ولدت أنا ... ضعيفا ... مريضا ... وكلفت أمي حياتها . أما مولدى فقد كان أول خطوات حظي العاثر الشقى » .. (٢) . ثم بعد ذلك وهو يحاول تحديد الغرض من كتابته لهذه الاعترافات فيقول « وهدفي هنا هو أن أقدم الى الناس انسانا يعيش كل طبيعته بصدق وهذا الانسان هو أنا ... أنا وليس أحدا آخر غيرى . حقا اننى أعرف الكثيرين من الناس ، ولكنى لم أخلق مثل أى منهم لدرجة أننى أكاد اعتقد انه لايوجد انسان آخر يشبهني ... واذا لم أكن أفضلهم فأنا على الاقل أختلف عنهم » (٣) .

ولو شئنا ان نستخلص بعض الخصائص من تحليل هذه السطور لكان أبرزها فى رايي خاصيتين رئيسيتين هما اللتان تميزان حياة روسو الى حد بعيد . فمن الواضح ــ وهذا من ناحية ــ ان روسو كان رومانتيكيا مغرقا فى الرومانتيكية كما كان حساسا بالغ الحساسية . والواقع ان حياته الخاصة ذاتها كانت مرآة صادقة لهذه الروح بكل ما يعتلج فيها من غموض ومتناقضات واضطراب . ويؤكد ذلك ان يده امتدت الى السرقة ومع ذلك لم يتورع ان يلقى بالتهمة على فتاة بائسة ، وهجر صديقا له كان يعانى شدة المرض لا لشيء الا انه شعر بثقل عبء من رعايته وتمريضه ، كما عاش فترات من حياته على كدح من كن يقعن فى حبه من النساء ، وعمل فى أكثر من وظيفة فشل فيها جميعها . وحتى عندما تعرف فى عام ١٧٥٤ على الفتاة التى اقترن اسمه بها الى أن فرق بينهما الموت وهى **تيريز ليفاسير** ، وانجبت له عدة أبناء كان يودعهم الواحد بعد الآخر فى ملجأ اللقطاء متذرعا فى ذلك بمختلف الاسباب والمعاذير .

ومن الناحية الثانية كان لهذه الصورة وجهها الآخر مثل الرومانتيكية تماما . فما ان اخذ روسو يشرع قلمه، حتى بدأت كتاباته تلفت الانظار ، وأخذ يحتل موضع القمة بين عمالقة المفكرين والفلاسفة الذين ساندوا الاعتقاد فى الديمقراطية الحديثة ، وآمنوا بقدراتها اللامحدودة فى تنمية الافراد وتطويرهم . والواقع ان ذلك ايضا قد عكس احد المفارقات الغريبة التى تمتلىء بها حياته . فالى جانب ايمانه الراسخ بطيبة الطبيعة البشرية ونقائها فقد كان يؤمن كذلك بمساوىء المجتمع الانسانى وشروره ، ومن هنا فقد كان عليه ان يقدم انتقادا عنيفا للنظم السياسية والاجتماعية ، ذلك على اعتبار ان هذه النظم هي التي انجرفت بالبشرية ومنعت الناس من ان يعيشوا كما أرادت لهم الطبيعة . (٤) ومن ثم فلم يكن غريبا أن يتبلور كل هذا فيقدم لنا مؤلف « اميل Emile » و « هيلويز الجديدة La Nouvelle Heloise » كتابه الفذ « العقد الاجتماعى » الذى توج به دفاعه المجيد عن حقوق الانسان ونضاله المتصل ضد الديكتاتورية لا فى قلب فرنسا وحدها ولكن فى كل مكان فى العالم ... فانهم

(٢) Rousseau, J. J., ; **Œuvres Complète**, 13 Vols. Hachatte, 1911. Les Confessions, Vol. III. p.1.

(٣) Ibid, p. 5.

(٤) Lillie, W; **Introduction to Ethics**, Methuen & Co., Ltd.,London, 1948. pp. 57-58.

(٥) نشر « العقد الاجتماعى » فى عام ١٧٦٢ تحت عنوان طويل هو :
Du Contract Social ou Principes du Droit Politique
وهو يتضمن ٤ كتب اساسية عالج روسو فى اولها الميثاق الجماعى وفى الثاني حقوق السيادة وحدودها ، اما الكتاب الثالث فقد عرض فيه للحكومة واشكالها المختلفة بينما خصص الكتاب الرابع لمعالجة بعض الجوانب الهامة فى الحكومة . ويعد كتاب « العقد الاجتماعى » اضخم آثاره السياسية كما يتميز من دون آثاره كلها باسلوبه الفلسفى المجرد .

بسبب أفكاره ووجهت اليه أبشع التهم ، وبدأت حكومة فرنسان وحكومة جينيف تضطهدانه وتطاردانه من مدينة الى أخرى ، كما أحرقت كتبه ومؤلفاته ، فلجأ الى انجلترا في عام ١٧٦٦ حيث نزل لفترة ضيفا على صديقه **دافيدهيوم**ليتركه بعدنزاع نشب بينهما، ولم يسمح له بالعودة الى وطنه فرنسا الا في أخريات أيامه حيث مات عجوزا محطما في الثامن من شهر يوليو عام ١٧٧٨ كما قلنا .

ومن الطريف حقا ان تثير وفاة روسو الكثير من الروايات والاقاصيص التي تمتلىء بالظن وبالشكوك . فما ان ذاع خبر وفاته حتى قيل انه مات منتحرا برصاص مسدسه ، كما ردد البعض انه قتل بيد احدى عشيقاته . وعلى الرغم من ان الكشف على جثته بعد ذلك في عام ١٨٦٧ قد أثبت عدم صحة ذلك ورجح انه مات نتيجة تسمم في الدم نتج عن مرضه المزمن بالمرارة ، فقد شاء قدره أن ينسج في مفارقة أخرى لاتقل غرابة عن المفارقات التي اتسمت بها حياته، فقد أصدرت حكومة La Convention قرارها في عام ١٨٩٤ بنقل رفاته من جزيرة الحور التي كان قد دفن فيها الى البانثيون حيث رقدت هناك رقدتها الاخيرة ... الى جانب فولتير عدوه اللدود .

ولسنا نريد في الوقت الحالي أن نبحث في مدى الاتساق أو عدم الاتساق الذي تعكسه هذه الظروف في حياة روسو . ولكن من المهم على أي الاحوال أن نشير الى ان هناك من العوامل مايمكن ان يعتبر مسئولا عن طبيعة الحياة التي عاشها وبالتالي تشكيل فكره وآرائه . ولعل أول هذه العوامل أن جان جاك روسو لم يتلق في حياته تعليما نظاميا ، لأن طبيعة تكوينه الذهني والنفسي لم تمكنه من احتمال مايفرضه هذا النوع من التعليم من قيود. وتؤكد الكتابات الكثيرة التي ألفت عن حياة روسو أن ثقافته كانت مزيجا غريبا من القراءات والمطالعات التي كان أبوه يضعها في طريقة ويدفعه اليها . فقد قرأ روسو وهو لم يزل في السادسة بلوتارك والكثير من القصص وكتب الادب والروايات . وفي الفترة مابين عامي ١٧٣٨ ــ ١٧٤٠ نجده يلتهم بنهم زائد كل ما يقع تحت بديه من أعمال الأدباء والفلاسفة والمفكرين ، فقرأ لايروبير وموتا نس وبوسويه ولوك وفولتير ، وقد تأثر بصفة خاصة بهذين الأخيرين ، الامر الذي ظل لاصقا به في كل فترات حياته الفكرية . وعلى الرغم من أن معرفته بالقدماء كانت ضئيلة نسبيا ولا تتجاوز بعض كتابات تاسيت وسينكا وبعض آراء أفلاطون وأرسطو، فان المؤكد ان معرفته الوثيقة بعد ذلك لكوندياك وماريفو وديدرو قد ساعدته كثيرا في بلورة فكره وتكوينه كمفكر اجتماعي وسياسي ، وكفيلسوف طبقت شهرته الافاق . وان كان من المهم مع ذلك الاعتراف بأن شخصيته الذاتية كانت موجودة دائما وتفرض نفسها بشكل واضح أيا كانت ضخامة وقوة المصادر التي التقى بها وأثرت في تفكيره .

لم يكن من قبيل المصادفة ان يسمى روسو كتابه الضخم في السياسة «العقد الاجتماعي» ، فقد كان من الطبيعي ان يتحرك فكره في الاتجاه العام للتطورات التي سيطرت على الفكر السياسي آنذاك ، والتي اعتبرت العلاقة بين الافراد الاحرار هي الاساس الوحيد السليم للتنظيم السياسي .

وعلى الرغم من أن القول بالعقد كان قد عكس من قبل عبقرية هوبز ، وارتبط ايضا بنظرية لوك ، على اعتبار ان العقد كان محور فلسفتيهما ، الا انه من الصعب أن نتصور تماما كيف أمكن لعقل روسو أن ينتهي بفلسفته الى نتائج اختلفت تماما عما انتهى اليه هذان ، خاصة جون لوك الذي قلنا ان روسو قد تأثر بكتاباته الى حد ملحوظ ، مع ان نقطة البدء كانت متماثلة عند الفيلسوفين .. ومع أننا لسنا هنا في معرض المقارنة ــ تفصيلا بين

الاثنين ، فمن الجدير بالذكر أن فلسفة كل منهما كانت انعكاسا فى آخر الأمر لطبيعة كل منهما وتكوينه العقلى ، خاصة من حيث ان فلسفة روسو كانت تفتقر الى الوضوح الذى ميز كتابات لوك،بالاضافة الى أنها كانت مبهمة الى حد بعيد ومليئة بالغموض والمتناقضات . والواقع انه اذا كان لنا أن نقول بوجه عام ان « **المقالة الثانية فى الحكومة المدنية** » كانت **انعكاسا لبساطة حياة لوك وتقدميته** ، فانه بالقياس نفسه يمكن القول ان «**العقد الاجتماعى**» كان انعكاسا لاتجاهات روسو واهتماماته المعقدة . ويرجع هذا الى ان عقلية لوك كانت اكثر وضوحا ومنطقا من عقلية روسو ، بل وايضا لأن روسو حاول ان يقطع فى بضعة مسائل شائكة تضمنتها فلسفة لوك دون أن يدرك هو نفسه ذلك بوضوح كاف . وفى مقدمة هذه المسائل مسألة **القبول** على فيها من تشابك زائد وتعقيدات .

ان المسألة الاساسية التى شغلت اذهان الفلاسفة السياسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت تتمثل فى تأكيد سلطة الحاكم وسيادته ؛ وهى المسألة التى ظهرت بدرجة واحدة عند كل من هوبز وبودان . ومع أن هذه المسألة ــ أقصد السلطة السيادية أو ذات السيادة ــ كانت قد استقرت تماما الى **جانب دعمها وتقويتها واطلاقها بما يعنى القضاء على كل مظهر من مظاهر** الحرية الفردية ومراقبة المحكوم للحاكم وكل مظهر من مظاهر مسئولية الحاكم أمام المحكومين ، الا أن جون لوك وغيره من الفلاسفة كانوا قد بدأوا يدركون حقيقة ان الخطر لايزال ماثلا ، ولم يكن هذا بسبب أن السيادة لم تكن قوية بما فيه الكفاية ، وانما لأن الحكام كانوا ــ على العكس من ذلك ــ أقوياء بمالا يقاس ، وينظر اليهم على أنهم ذاتيه منفصلة مميزة تخضع لها كل ماعداها . وهو وضع كان خليقا على أى الاحوال بأن يدفع لوك الى الاصرار على ضرورة موافقة الرعايا وقبولهم .

وقبل أن تمضى قدما فى متابعة تحليل مسألة القبول هذه التى شغلت فكر لوك ، فمن المهم ان تتضح فى الذهن تماما النظرة العامة التي عالج لوك المسألة كلها من خلالها . فالقبول كان يمثل بالنسبة اليه أساس الدولة، بل وما يجعلها شرعية واخلاقية وعادلة .

وما من شك فى أن احدا لا يستطيع ان يختلف فى ذلك . ولكن المتمعن فى موقف لوك(٦) سوف يلحظ على الفور ان تحليله للمسألة لم يكن كافيا تماما . ونتيجة لذلك فهو لم يستطع ان يرى شيئين بذاتهما ، هما أولا عدم كفاية القبول طالما أن افعال السيادة لا تكتسب شرعيتها الا اذا كان هذا القبول تاما وشاملا ودائما . **وثانيا** أن نسبة كبيرة من الديمقراطيات فى مقدورها بالفعل أن تمارس شتى أنواع الضغوط ضد الاقليات تماما مثلما بقدر شخص واحد أن يمارس هذه الضغوط ضد شعب بأكمله . وبمعنى آخر فان ما نريد أن نقوله هو أن لوك قد فشل فى ادراك تلك الحقيقة البسيطة وهي أن الاتفاق أو القبول قد يمثل فى الدولة الديمقراطية مشكلة أساسية مثلما هو الحال فى أكبر الدول اتصافا بالديكتاتورية وأشدها ممارسة للقهر والطغيان .

والواقع ان روسو نجح فى ادراك هذه المشكلة بوضوح . ومن هنا فقد كانت محاولة حلها شغله الشاغل فى العقد الاجتماعى . ولكن اذا كان بمقدورنا ان نقول من الان أن هذه المحاولة لم تكن ناجحة تماما ، فانها لمفارقة عجيبة ان تنطوى كذلك على نظرة استطاع غيره من المفكرين الذين جاءوا بعده أن يذهبوا

---

(٦) انظر فى ذلك اساسا :

John Locke ; **Two Treatises of Government**, Cambridge University Press, 1960.

بها الى موقف يختلف كلية عن الاساس الذى التقينا به سواء عنده هو نفسه او عند لوك . ونعنى بذلك أن تكون فكرة القبول هذه وسيلة للانتقال الى تصور الدولة الشمولية كما سيتضح لنا فيما بعد . وهو تصور لم يكن روسو يعتقد بحال فى امكان الوصول اليه أو حتى تخريجه من موقفه .

على أن هذه النظرة حتى الى المدى الذى قطعه روسو تشير الى حدوث تحول راديكالي يبعد عن التصور الذى بدأ منه لوك . ولو أمعن المرء النظر فى هذا التحول لتمكن من تفسير الاختلاف الذى يلمسه قارىء روسو بين بعض كتاباته المبكرة مثل رسالته فى نشأة عدم المساواة ، وبين العقد الاجتماعى وهو الاختلاف الذى ركز عليه الكثيرون ممن كتبوا عن روسو لدرجة انهم أكدوا وجوده كذلك بين الطبعة الاولى « للعقد الاجتماعى » والطبعات المتأخرة ، حيث اتفقت تلك الطبعة ومعها مقالاته على وصف حالة الطبيعة بأنها ظرف خيالى ، فتجاوزت بذلك تفاؤلية لوك ، وخاصة عندما اكدت الصورة المثالية التى رسمها روسو للطبيعة البشرية وهو ينظر الى الانسان الاجتماعى على أنه ملاك هابط .

وأيا ماكانت وجهات النظر التى سبقت لتبرير هذا التحول ودوافعه ، فان من الواضح أن روسو فى تلك الفترة المتأخرة من حياته العقلية لم يكن مجرد المصلح الاجتماعى الذى يرفع صوته ضد مساوىء المجتمع الذى يعيش فيه وينادى بالتخلص من قيوده والعودة الى الطبيعة ، ولكنه ذلك المفكر الناضج الذى يكرس نفسه لمهمة تبرير الدولة ومنظماتها المختلفة . وان كان هذا لا يمنع من القول ان نجاحه لم يكن تاما أو كاملا لانه ظل مرتبطا بموقفه الاصلى الذى كان كثيرا ما يكتفى فيه بوصف أى موقف عملى بأنه سىء وشرير .

ومع هذا فمن الانصاف لروسو أن نعترف بأن ثمة تغيرا حقيقيا قد حدث على يديه فى مسألة القبول هذه ، ذلك أنه كان يشعر دائما بضرورة تقويم الحل الذى ساقه لوك للمسألة ، حتى وان كان الامر قد تأدى به الى تصور « الارادة العامة » الذى قاده بدوره الى تصور العلاقة بين الافراد بطريقة أوضحت مذهبا فى الحياة يناقض مباشرة تلك النزعة الفردية التى طالما ميزت كتاباته الاولى .

واذا كان من السهل على قارىء روسو ان يلمس فى كتبه ، باستثناء كتب العقد الاجتماعى ، تعلقه الشديد بالطبيعة ورغبته الجامحة فى التخلص من قيود المجتمع ، فانه سوف يلحظ على الفور أيضا ، أن العقد الاجتماعى ذاته ، يؤدى الى جماعة مطلقة يئن فيها الفرد تحت نيرسيادتها .لانه يحاول فى ذلك الكتاب أن يشيد مجتمعا متماسكا تسود الجماعة فيه وتعلو على الفرد . وبذلك نجد أن روسو الذى طالما أكد عدم شرعية الجماعة وكذب دعواها الدائمة فى مطالبة الفرد بالتضحية من أجلها ، هو نفسه الذى ينتهى فى « العقد » الى مجتمع حبكت أطرافه وتمكنت سيادته ، ويروج لمبدأ ان الافراد يدينون للجماعة ، وذلك الى حد أن يقول بأنه ما من حق للافراد الا حقها (٧) .

● ● ●

اذا اعتبرنا العبارة الشهيرة التى قدم بها جان جاك روسو كتابه « **العقد الاجتماعى** » لقد ولد الانسان حرا ولكنه مكبل بالاغلال فى كل مكان .. كيف حدث ذلك ؟ لست ادرى ! « وضح لنا مدى التغيير الذى طرأ على معنى هذه العبارة التى تضمنتها الطبعة الاولى من

---

(٧) يمكن الوقوف على تفاصيل اكثر لمنهج روسو فى كتابه « العقد الاجتماعى » فى العديد من الكتب والدراسات. ارجع بصفة خاصة الى :

Felix Ponteil ; La Pensee Politique Depuis Montésqui .u, Sirey, Paris. 1960.

العقد الاجتماعى ليصبح معناها متسقا مع موقفه العام الذى تبنـاه متأخرا .

ان أول ما يطرأ على الذهن هو ان كلمـات روســو فى الطبعة الاولى لم تكن تحمل مــن المعانى أكثر من أن الانسان يجب أن يكـون حرا فهذه أفضل صور المعيشة بالنسبة اليه. وذلك فى الواقع تعبير صريح عن الاتجاه العقلى الذى اطلق عليه **البدائية الرومانتيكية اوالحنين الى حياة الطبيعة** وبساطة العيش الاولى التى كانت ســائدة فى العصر الذهبي Golden Age والتى فصلتنا عنها الحياةالمعقدة التي أصبحنا نحياها فى العصر الحديث .

على أننا اذا أردنا أن نقرب بين هذا المعنى وبين وجهــة النظر التى قلنـا أن روســو قد اعتنقها فى الطبقات المتأخـرة من العقـد الاجتماعى ، فســوف يظهـر ان القـول بأن الانسان قد ولد حرا ولكنه مكبل بالاغلال فى كل مكان يبدو وكأنه بمثابة تأكيد لمعنيين ، أو بالاصح حقيقتين اثنتين هما :

أولا : ان الانســان يجب ان يكـون حـرا ومستقلا .

ثانيا : أن الانسان نادرا ما يكون هكذا فى الحياة الواقعية ،

واذا اعتبرنا ذذلك فينبغي ان ندرك أن الحرية التى يتحدث عنها روســو قد أصبحت شيئا أكثر من مجرد الفراغ أو السلوك الفردى المتحرر من كل قيد ، ذلك لان ما يبدو مــن قول روسو ، انه يهدف الى نوع من المشاركة فى حياة أكثر اتساعا يسهم فيها جميع الاعضاء بقيامهم بوظائفهم فى توافق وانسجام يحفـظ اســتمرارها ودوامها .

ومن الواضح ان ذلك يمثل خروجا على روحه الفردى يكاد يذهب الى حد التناقض .

وعلى الرغم من أن ذلك كله يبدو صحيحا فى جملته ، فانه يثير مع ذلك تسـاؤلا عــن الكيفية التى تم بها هذا التحول فى موقفه .

ان الشىء الغريب ان روســو ، على الرغم من انه قد تساءل فى جملته الافتتاحية عــن كيفية حدوث ذلك التحول من مرحلة الحرية الى الحالة التى وصفها بأن الانسان أصـبح فيها مكبلا بالانحلال ، الا انه تجاهل الاجابة على ذلك ، وحاول أن يجيب على تساؤل آخر بصــدد الاســباب التى دفعت الى حـدوث التحول وبالتالى مدى شرعيته . ونراه يقول فى ذلك « ان الاقوى لا تصل قوته ابدا الىالدرجة التى يصبح بهـا سـيدا على الدوام الا اذا تحولت هذه القوة الى حق Right تصـبح الطاعة معها واجبـا Duty . ولكن من الناحية الثانية ، حيث انه لم تعد لانسان ما سـلطة حقيقية على غيره ... ومادامت القوة لاترتب حقا ما .. فانه لا يتبقى غير الاتفاقات Conventions أساسا لكل سلطة مشروعة Legitimate Authority بين‌الناس...ومنذ البدءفقدسعى الناس الى شكل من اشكال التجمع يحمـى شخص ومتاع كل عضو فيه ويـدافع عنـه بقوته المشتركة ويتحد فيه كل واحد بالكـل فلا يطيع الا نفسـه ... ومن ثم يبقى حـرا مثلما كان من قبل ...(٨) .

هكذا يقرر روســو ان العقد قد حقق كل هذا . ولكنه لا يكتفى بذلك وانما يعود فيقــرر ثانية ان كل فرد فى هذا التجمع قد نزل عــن شخصيته وحقوقه للجماعة ، وكان ذلك هــو السبيل لايجاد تلك‌الهيئة المعنوية ــوالجماعية التى يعتبر الشعب أعضاءها مجتمعين ،ولكنهم مواطنون ومساهمون فى السلطة العامة اذا ما كانوا متفرقين .

---

(٨) Contract Social. I. I. (23-24)

والملاحظة التي ينبغي ان نلتفت اليها هنا قبل أن نستطرد في توضيح متضمنات موقف روسو ، هي أن تصوره لفرد حر يشارك في الارادة العامة على ما عكست جملته الافتتاحية يبدو أمرا متناقضا تناقضا صريحا والقول بالعقد على ما يظهر في كتاباته المتأخرة . ذلك أن العقد يقوم هنا ــ مثلما عند لوك ــ على أساس وجهة نظر في الطبيعة البشرية اعتبرت الانسان مستقلا وتلقائيا تماما . وقد يكون صحيحا أن العقد يمثل هدفا مطلوبا في ذاته باعتبار انه يجمع الناس معا بدلا من ان يعيشوا كوحدات مستقلة متفرقة ، ولكن الصعوبة هنا هي في مقارنة تصور الطبيعة البشرية الذى ارتبطت به فكرة روسو في الارادة العامة ، بالزعم القائل بأن الناس كانوا في الاصل مستقلين بعضهم عن بعض . وحتى اذا نحن رجعنا الى مفكر مثل ارسطو لوجدنا أن النظرة العضوية قد تضمنت اعترافا صريحا بأن الناس قد تعاونوا دائما ، وانهم قد اعتمدوا بعضهم على البعض ، لانهم كانوا ينشدون بالاجماع وسيلة تتكامل بها شخصياتهم .

لقد قلنا من قبل أن روسو كان متأثرا تأثرا ملحوظا بجون لوك . ولكن الذى يبدو لنا هنا هو أن اصطلاح الارادة العامة يظهر معارضا لعقد لوك . وصحيح أن هناك خصائص ذاتية مميزة لهذا التصور الجديد الذى يسوقه روسو وللتصور القديم للعقد عند لوك ، وان كلا من التصورين قد اكد على ضرورة التبرير الاخلاقى لوجود الدولة وشرعية ممارستها للقهر والالزام كما حاول كل منهما بالتالى ابراز هذا التبرير حتى انتهى الامر بلوك الى تقرير اهمية قبول الافراد وموافقتهم الحرة الكاملة . ولكن الصحيح أيضا هو أن كافة الصعوبات التى انطوت المسألة عليها ، قد دفعت بروسو الى أن يطور مفهوم الارادة العامة في خط مغاير مما يترتب عليه حدوث تحول في التصور القديم للانسان وعلاقاته بالاخرين ودون أن يغير ذلك شيئا من حقيقة ان المحاولة الجديدة قد تطلبت ، مثلها مثل الموقف السابق تماما ، تقديم التبرير الشرعى لممارسة القوة والسلطان . ان القوة في رأى روسو « هى القوة الطبيعية وما الاستسلام لها سوى نوع من الخضوع .. أو أمر من أمور الضرورة لا الارادة الذى يستحيل ان تكون نتائجه اخلاقية .. فبأى معنى من المعانى اذن يمكن ان يصير هذا واجبا أخلاقيا ؟ » (٩)

ولا شك في أن روسو هنا كان أمام واحدة من أكثر متناقضاته الفكرية غرابة . وليس لهذا التناقض الا تعليل واحد هو أن المشكلة لم تكن صيانة الحرية الفردية على ما كان يظهر في كتاباته الاولى ، بقدر ما أصبحت خيانة الحرية الاجتماعية . أضف الى ذلك ضرورة الاعتراف بالتنظيم الاجتماعى وبالسلطة القائمة . واذا كان تاريخ الفكر السياسى قد حفل بأسماء الكثيرين ممن عارضوا شرعية ممارسة السلطة دون سند من الاتفاق ، ونذكر هنا جروثيوس على سبيل المثال الذى أكد ان الناس يتنازلون برغبتهم عن حريتهم للسلطة القائمة عليهم وقصد بذلك واقعة العبودية Slavary بالذات ، فذلك بالضبط هو مالم يقبله روسو ورفضه رفضا قاطعا ، ذلك لان التنازل عن الحرية تنازل عن الانسانية ، وهذا أمر لا يتمشى مع طبيعة الانسان باعتبار ان كلمة حق وكلمة عبودية متناقضتان ، وكل منهما مانعة للاخرى .

وبصرف النظر عما تثيره هذه القضية من جدل ونقاش فان الذى يعنينا هو روح المنطق الذى قاد روسو في بحثه عن تفسير آخر للسلطة يتفق ووجهة نظره في الاتفاق العام .

ولو أمعنا النظر في الموقف لوجدنا أن هناك ناحيتين يربط روسو بينهما ربطا موضوعيا :

(٩) Ibid, I. 3. (26-27)

الاولى انه لا يعترف بالسلطة النابعة من القسر والارهاب . والثانية انه اعتبر القبول امرا ضروريا لتبرير السلطة وممارستها لوظائفها .

ومع ذلك فينبغى ان نذكر ان هذا القبول كان له معنى خاصا بالنسبة اليه ، فهو ليس امرا مطلقا يرجع الى القبول الاصلي ، ولكنه بالاحرى قبول تتضمنه الارادة العامة التى **تعبر عنه باستمرار . ولعل ذلك هو ما قصد اليه عندما اكد « انه مادام اى انسان ليس** له سلطة طبيعية على أى انسان آخر .. وما دامت القوة لاترتب حقا ما .. فانه لاينبغى غير القبول او الاتفاق العام أساسا لكل سلطة مشروعة تقوم بين الناس (١٠) .

وهكذا فاننا نجد انفسنا وجها لوجه امام النظام الاخلاقى الذى يقول به ، فما هي اذن خصائص هذا النظام وما هى مقوماته الاساسية ؟ الواقع ان روسو نفسه قد عبر عن ذلك تعبيرا صريحا فقال « اننا لو فهمنا عبارات العقد فهما سليما لوجدنا انها تشير الى شيء واحد هو التحالف الشامل للمجتمع بأسره .. ان هذا التحالف يستتبعه فى المحل الاول ان تصبح الظروف واحدة بالنسبة الى الكل حيث ان كل فرد قد وهب نفسه كلية ... ثم انه لما كانت الظروف متساوية ، فلن تكون هناك مصلحة لاى فرد فى أن يغيرها بالنسبة الى الآخرين ... بل ان هذا التحالف أو الاتحاد لما كان قد تم بدون اكراه أو ضغط ، فهو أقرب الى الكمال ، وبالتالى فلن يكون هناك مطالب او امتيازات خاصة لاية جماعة دون اخرى ، لانه اذا بقيت مثل هذه المطالب او الامتيازات كانت النتيجة أن كل فرد وقد اصبح فى هذه الحالة الحكم الوحيد فيما يتعلق بحالته ، سوف يطالب ايضا بأن يصبح حكما فى كل الحالات ، ومن ثم تستمر حالة الطبيعة ويصبح الاتحاد اما عديم الجدوى أو مؤديا الى الطغيان .. وعلى الفور فانه بدلا من الشخصية الخاصة المتفردة لكل طرف متعاقد .. ينتج من هذه العملية الاتحادية هيئة ، أو كيان معنوى وجماعي قوامه عدد من الاعضاء بقدر ما فى المجتمع من أصوات .. (١١)

العلاقة اذن ، التى رأى روسو وجوب قيامها بين الناس ، ليست مجرد تحالف لا يتغير حال انضمام المرء اليه أو تحالف دائم السلطة والنفوذ باعتبار انه لا يتغير ، ولكنها على الارجح علاقة مشاركة دائمة تتصف بالحرية وبالتلقائية والمبادرة ، كما انها تتطلع باستمرار تجاه شيء نموذجي يصبح بمثابة الخير الحقيقى للمجتمع كله . ويقدم روسو تأكيدا لهذا المعنى فى أكثر من مكان فهو يقول « ان التحول من مرحلة الطبيعة الى المرحلة المتمدينة يخلق تغيرا ملحوظا ومميزا فى الانسان ، انه يحل فى تصرفاته حكم العدالة (العقل) بدلا من حكم الفريزة .. كما يكسب افعاله شخصية اخلاقية كانت تفتقر اليها بمعنى أن الشهوات تفسح الطريق لاول مرة امام الحق ، كما يفسح الدافع الطبيعى البحت الطريق الى صوت الواجب ... اما الانسان الذى لم يكن يرى من قبل سوى مصلحته الشخصية ، فسوف يجد من الضرورى أن يستشير العقل وفق مبادىء جديدة ، وقد كان من قبل لا يستمع الا لصوت نزعاته ورغباته ... واذا نحن وضعنا هذه الكلمات فى صيغة أبسط نسبيا استطعنا ان نقول ان ما يفقده الانسان بالعقد الاجتماعى هي حريته الطبيعية وحقه المطلق فى الحصول على كل ما يستطيع الحصول عليه ... أما ما يكسبه من العقد الاجتماعى

---

(١٠) Ibid, I. I. (24)

(١١) Ibid, I. 6 (33-34)

(وانظر فى ذلك ايضا مقال الدكتور يحى الجمل « الحرية فى المذاهب السياسية المختلفة » ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الاول ، العدد الرابع ـ يناير فبراير ـ مارس ، ١٩٧١ ، ص١٤٥ ومابعدها .

فهى حريته المدنية وحقه فى ملكية كل مايملك وحريته المعنوية التى تجعل منه سيد نفسه بالمعنى الحقيقى ... » (١٢)

• • •

هذه النقطة الاخيرة تساعد الى حد كبير فى توضيح بعض الخصائص الاساسية التى تميز تفكير جان جاك روسو . **وأول هذه الخصائص** هى أن روسو يميز تمييزاً واضحا بين الحرية الطبيعية التى تتعين حدودها بواسطة الافراد انفسهم وبين الحرية المدنية التى تحددها الارادة العامة . فالحرية الطبيعية التى يفقدها الانسان ليست سوى حرية زائفة بل هى اسم آخر للعبودية ، ذلك ان خضوع الانسان لنوازعه وشهواته لا يعدو أن يكون ضربا من العبودية . بينما الحرية الحقيقية هي التى تقوم فى طاعة القانون الذى نصنعه بأنفسنا ونشارك فى تقريره .

اما الخاصية الثانية فتتمثل فى التميز بين الملكية باعتبارها نتيجة للسيطرة والقوة وباعتبارها نتيجة للحق ومترتبة عليه . ومع ان القضية هنا لا تزال تحمل طابع جون لوك بشكل ملموس حتى فى الاسلوب التي صيغت فيه(١٣) ، فليس من السهل ان ننكر أن روسو قد تبنى وجهة نظر مختلفة اختلافا عميقا عما نجده عند لوك .

فالواضح ان القضية تشوبها النغمة النفعية وفى ذلك يبدو روسو متأثرا بلوك من حيث ان كلا منهما قد مال الى ابراز المزايا والفوائد التى تنتج عن العقد ولكن الواضح أيضا – ان روسو قد عاد فحاول انكار ذلك كله ، او على الاقل التخفيف من وطأته . ويظهر ذلك عندما ركز على وصف العقد الاجتماعى بأنه مشاركة فى الارادة العامة التى وصفها بأنها تتجه دائما الى الخير الاجتماعى . وعلى هذا النحو فهو يجعل الانسان كائنا ذكيا يتصرف فى ضوء من الدراسة والتخطيط على العكس من الحيوان الذى يندفع اندفاعا أعمى ولا تقوده سوى شهواته ونزعاته . أو بتعبير آخر ، يمكن القول بأن العقد الاجتماعى عند روسو هو بالذات ما يجعل الانسان نوعا من المخلوقات التي تأخذ فى اعتبارها لانفعها الخاص فحسب ولكن نفع الاخرين كذلك . بل انه لا يجعل الانسان مخلوقا عاقلا فحسب ولكن مخلوقا أخلاقيا بالدرجة الاولى . وهذه نقطة يختلف فيها روسو عن لوك اختلافا واضحا من حيث أن الاخير قد اعتبر الانسان اخلاقيا بالعقل حتى قبل ان يوجد العقد كأساس للدولة . وربما كان ذلك هو السبب الذى جعله ينشىء العقد الذى لا يقدم له سوى الحماية والضمان لبعض الاشياء كالملكية الخاصة على سبيل المثال .

ولعل العامل الحاسم فى هذه الاختلافات جميعها هو تلك الفائدة التي يحققها العقد للانسان باعتبار انه يتيح الفرصة له لان يظهر شخصيته ويطورها .

ومع ان هذا الموقف يبدو أقرب الى هوبز منه الى لوك ، الا انه يتضمن بدوره اختلافا جوهريا : فعلى حين كانت نظرة روسو الى الطبيعة البشرية كما اتضحت فى العقد الاجتماعى تتصور انسان ما قبل العقد كحيوان يستخدم قوته لكى يحافظ على حياته ، فان العقد باعتباره مشاركة فى الارادة العامة هو ما أيقظ طبيعة الانسان بشكل عميق وحوله الى كائن اخلاقى يعرف قانونا آخر غير قانون الغاب . فكأن الانسان اذن ، اذ يمتثل للقانون

(١٢) Ibid, I, 8 (36-37) II,4 (46)

(١٣) راجع كتاب « الحكومة المدنية » لجون لوك ، الترجمة العربية . سلسلة «اخترنا لك» ، العدد ٨١ وبخاصة الفصل الخامس الذى يتناول قضية الملكية .

يظل مستقلا ومتمتعا بذاتيتـه وبحريتـه لان القانون هـو فى النهاية مـن صنع الافـراد المتعاقدين أنفسهم ، ومن ثم تكفل لهم نصيبهم فى السلطة والسيادة . زد على ذلك انه لما كانت الارادة العامة تتمتع بالقدرة الصائبـة دائما ، فيكون ذلك ضمانا لتحقيق المساواة الشرعية أمام القانون وبصرف النظر عن عدم التكافؤ الطبيعى بـين الناس فى القوة أوالمقدرة أو الذكاء ، وكله مما يمثل عند روسو خطـوة واسـعة الى الامام فى طريق التطور البشرى ارتقى بها الانسان من حالة الفطرة الى الحالة المدنيـة وكان العقد الاجتماعى هو وسـيلتها الوحيـدة .

اذا كان ذلك هو ما انتهي اليه روسو فيمـا يتعلق بتصور الارادة العامة ، فينبغى أن نرى الكيفية التى استخدم بها هذا التصور لكـى يتم بناء نظريته السياسية .

ولعل القضية الحاسـمة التى تساعد على ذلك هى ما انطوت عليه كلماته التى تقول بأن الارادة العامة هى الاسمى « فكل فعل تقوم به السيادة ... اى كل فعل للارادة العامة انما يرتبط بالتساوى بمصلحة المواطنين ويهـدف اليه . » (١٤) فما هـو اذن فعل السـيادة بالضبط ؟

لقد لخص روسـو فى « العقد الاجتماعى » تعريفه للسيادة فذكر انهـا ممارسـة الارادة العامة او افعال ارادة المجموع . ووصف هذه الافعال بانها ليستاتفاقا بين الاسمى والادنى، ولكنها بالاحرى ارتباط بين الجسم ككل وبين كل عضو من أعضائه . كما قرر أيضا أن هذا الارتباط هو ارتباط عادل لانه يقوم على العقد ومن ثم فلا يمكن تجنبه او التهرب منه ، لان الكل يعترف به ويرضى عنه بالاضافة الـى كونه مفيد اذ لا يستهدف شيئا سوى النفـع العـام .

والواقع اننا نلتقى هنا بكافة الخصـائص التى يقررها روسو للسـيادة . ولعـل فى مقدمة هذه الخصائص ان السيادة مطلقة وغير محدودة . ومع انهذا الوصف للسيادة يجعل روسو يقترب كثيرا من هوبز الا أن هناك فارقا جوهريا يقوم بينهما . فمن الواضح انالسلطة عند روسو لا تقوم على عقد سـيكولوجي أو تاريخى مثلما الحال بالنسبة الى هوبز ، ولكن على القبول العام بمعنى روح الاتفاق الحـر المرهون برضا الافراد عن ممارسة القوة من كل الجماعة التى يعتبر العضو جزءا فيهـا . اما فيما يتعلق بالمبرر الذى يسوقه لمنحالحاكم مثل هذه السلطة المطلقة فهو أن الشعب قد سـبق وعبر عن قبوله لها ورضائه عنها .

ولكن لمـا كانت السيادة مطلقة وبلا حدود، فيلزم ايضا ان تكون كليـة وشـاملة . وقد صاغ روسـو هذا المبدأ ، أو هذه الخاصية الثانية بوضوح اذ يقول « ولما كانت السيادة هي ممارسة لاارادة العامة فلا يمكن من ثـم الا أن تكون شاملة ... ومن الناحية الاخرى فانه لمـا كانت السيادة كائنا جمعيا كذلك ، فيتحتم الا تمثل الا بذاتها فحسب ... ان السـلطةيمكن تحويلها transfer او نقلهاولكنالارادة ليست كذلك ... ولاجل السبب نفسه الذى اعتبرت السيادة شاملة فانه يستحيلتجزئتها ايضا ... ان **الارادة اما ان تكون عامة أو ان تكون غير عامـة ، بمعنى اما ان تكون ارادة الشعب باكمله او ارادة جزء منه ... وفى** الحالة الاولى تصبح الارادة التى يعبر عنها من قبلالسيادةقانونا،امافى الحالة الثانيةفلا تعدو

(١٤) Ibid, II, 4 (45-48)

ان تكون ارادة متخصصة ، او فى عمل من اعمال الحكم او وسيلة من وسائل تطبيق الاوامر التى يصدرها الشعب صاحب الحق فى صنع القوانين » (١٥) .

ويقود ذلك بشكل طبيعى الى **الخاصية الثالثة** التي تتمتع بها السيادة . فعند روسو ان الحاكم هو أصل القانون ومصدره بمعنى أن القانون لايكون صحيحا الا اذا صدر عن الارادة العامة اى منبثقا من الشعب ومنصبا فى الوقت نفسه على الصالح العام .

وفى وسع المرء ان يلمح هنا تفرقة اساسية . فالقرارات التى تاتى عن غير هذا الطريق مثل تلك التى قد تصدرها هيئة ما او مصلحة أو ما الى ذلك من المؤسسات والتنظيمات لاتمثل قانونا او عملا من اعمال السيادة ، وانما هى عمل أو وسيلة فحسب من وسائل الحكم والادارة . كما أنها فى أعلى حالاتها لاتعدو ان تكون اعلانا او قرارا من القرارات . وهذه مسألة تعكس المدى الذى تقترب به أفكار روسو فيما يتعلق بالقانون من الافكار الحديثة الخاصة بالقانون الدستورى الذى ينظم طرائق اداء الادارة لوظائفها .

على أن هذه النظرة للسيادة باعتبارها مقدسة ولا تقبل التصرف يترتب عليها أمر خطير . فاتساقا مع هذه الخصائص التى عرضناها يبدو روسو منطقيا مع نفسه عندما اعتقد ان السيادة لابد وان تكون مثالية وواقعية فى آن واحد معا . فاذا اضفنا الى ذلك اعتقاده الراسخ ان « القانون لايصدر الا عن ارادة مجموع الشعب اى الارادة العامة ، وانه ميز فى ذلك بين هذه الارادة وارادة المجتمع من حيث انهما لاتتطابقان ابدا، فيكون من الطبيعى اذن ان ينتهى الى الموقف الذى انتهى اليه وهو **تفضيله للديمقراطية المباشرة التى اعتبرها افضل اشكال الحكم قاطبة(١٦).**

وتتضح لنا هنا فى تفكير روسو حقيقة اساسية . فهذا التمجيد للديمقراطية المباشرة يدل فى نظرنا على أمر له دلالته وهو أن روسو كان يضمر سوء ظن بالغا بالنظام النيابي . وصحيح انه كان يشك كثيرا فى وجود الديمقراطية المباشرة أو حتى فى امكان وجودها بالمرة ، ولكن الصحيح أيضا انه لم يحاول ابدا ان يخفى عدم رضائه على النظام النيابي الذى كان يعتبره دليلا على الفساد السياسي وابعد مايكون عن الكمال الديمقراطيي، وذلك لدرجة ان اعتبره سلبا تاما للديمقراطية . (١٧) ففي اعتقاده ان المجلس النيابي الذى يعين أعضاؤه بالانتخاب فينظر لهم على انهم ممثلين للأمة صاحبة السيادة لايمثل صاحب السيادة فى شيء . لانه نزولا على الخاصية القائلة بان السيادة لايجوز التصرف فيها ، فان نواب الشعب لايستطيعون أن يكونوا ممثلين يحق له ، لانهم ليسوا أكثر من نواب فحسب .

---

(١٥) Ibid, II, I. (49) and II, 2 (40-41)

(١٦) يصنف الكتاب عادة الديمقراطية فى نوعين :الاول الديمقراطية المباشرة او المحضة ، والثاني الديمقراطية النيابية او التمثيلية . ولكن الديمقراطية المباشرة نظاما للحكم يحكم فيه الشعب نفسه بنفسه عن طريق الاجتماع فى جمعيات عمومية او اجتماع عام مثلما كان الحال فى المدن الاغريقية . ولا يتحقق هذا النظام الا فى الجماعات السياسية الصغيرة باعتبار ان تحققه امر مستحيل فى الدولة الحديثة المترامية الاطراف . اما الديمقراطية النيابية او التمثيلية كما يطلق عليها عادة فهي النظام السياسي الذى تصاغ فيه ارادة الدولة ويعبر عنها بواسطة وكالة هيئة صغيرة نسبيا من الاشخاص المنتخبين ليكونوا ممثلين للشعب . (انظر فى ذلك

Ford, .H J; Representative Government, 1934. p. 3.

وانظر ايضا : محمد طه بدوى . فلسفتنا السياسية الثورية. منشاة المعارف . ١٩٦٤ . صفحة ١٢٤ ومابعدها .

(١٧) G, Peter ; The Dilemma of Democratic Socialism, E. Bernstein's Challange to Marx, Columbia University Press N. Y. 1954. P. 247.

وليس من شك فى انه يرجع لروسو جانب كبير من الفضل فى انتباه كثير من الفلاسفة والمفكرين الى هذه الناحية . فعلى الرغم من أن الحياة الدستورية قد أصبحت اليوم تقليدا عميق الجذور ، فلم يمنع ذلك ـ حقا ـ بعض المفكرين من أمثال لاسكى Laski وولاس Wallace وج.د.هـ.كول G. D. H. Cole وغيرهم من أن يظهروا عدم ثقتهم بالاساس التى تنبنى عليه الديمقراطية النيابية (١٨) باعتبار ان هذا الأساس يشوبه الكثير جدا من النقص الذى يجعل الديمقراطية ـ على الاقل فى مفهومها الغربي الحديث ـ عاجزة حقيقة وعملا عن حل قضية العلاقة بين الحاكم والمحكوم أو بمعنى أدق قضية التناقض بين السلطة والحرية (١٩) .

● ● ●

اذا كنا قد وصلنا الى هذا المدى فى اختبار آراء روسو فانه يبقى لكى نفهم طبيعة نظريته فى الاجتماع السياسي أن نرى عن كثب مفهومه للحكومة والصفات التى يخلعها عليها.

واول ما يلزم أن نؤكد عليه بهذا الصدد هو أن دولة روسو هى من غير شك دولة الشعب باعتبار انه وضع السيادة فى يد الكل . واذا أخذنا عنه ذلك فى الاعتبار فلا بد ان يستتبعه بالضرورة أن يكون صاحب السيادة شيئا والحكومة شيئا آخر .

ولقد كان هذا التمييز بمثابة الركيزة التى بنى عليها روسو تصوره للحكومة . واذا أردنا أن نوضح ذلك بطريقة أسهل لأمكن القول بأن الحكومة بالنسبة الى روسو ليست أكثر من كونها وكيلا بين الشعب باعتباره صاحب السيادة ، وبين الشعب باعتباره موضوعا أو رعية . أى أنها اداة اتصال أو هى العضو الذى يعبر به الشعب صاحب السيادة عن ارادته ويصنع بواسطته التغيرات التى يريدها فى العالم الخارجي أو بتعبير روسو نفسه هى جسم أو وكيل لتأمين الاتصالات الحيوية الدائمة .. انها المسئولة عن تنفيذ القوانين وتامين الحرية السياسية والمدنية .. وهكذا فان الحكومة أو الادارة العليا ، كما أود أن أعبر عنها ، هي الممارسة الشرعية للسلطة التنفيذية ، سواء تحمل مسئوليتها الحاكم نفسه أو نائبة ، فردا كان أو جماعة .. (٢٠) وهو تحديد ساعده على أى الاحوال فى تصنيف أشكال الحكومة كما رآها.

وفى رأية ان الحكومات أيا كان تنوع أشكالها فيمكن ادراجها تحت ثلاثة انواع : هي **أولا** حكومة يضطلع فيها الشعب أو الغالبية العظمي من الشعب بأعباء الحكم ، بمعنى ان يصبح المواطنون او غالبيتهم حكاما يتولون المناصب والوظائف العامة التي تقوم الحكومة بها وهي ما أطلق عليه الحكومة الديمقراطية. **وثانيا** الحكومة الارستقراطية حيث تكون شئون الحكم فى أيدى عدد قليل من المواطنين الذين يصلون الى السلطة عن طريق الانتخاب او طريق التمييز اما فى الثروة أو النفوذ أو المولد . **وثالثا** فقد تتركز الحكومة ـ أو عملية الحكم بمعنى أدق ـ فى يد حاكم واحد يعتبر الآمر الناهي والمرجع الوحيد فى توزيع كل السلطات والمسئوليات على الآخرين وهذه هى الحكومة الملكية .

ومع ذلك فينبغي أن نشير الى أن روسو لم يتردد فى توكيد أن الفيصل الاخير فى شرعية

---

(١٨) انظر مقالنا عن « جراهام ولاس » مجلة عالم الفكر ، المجلد الثامن ، العدد الثانى ، يوليو ـ اغسطس ـ سبتمبر ، ١٩٧٧ ص ٢٣٥ ـ ٢٥٥ .

(١٩) Laski, H; Liberty in the ModerJ State, New Edition, George Allen & Unwin, Ltd., London, 1948.

(٢٠) Contract Social, III. I. (64-65)

الحكومة او عدم شرعيتها انما يقوم فى الطريقة ذاتها التى تجىء بها كأن تكون منتخبة أو غير منتخبة . وغنى عن البيان ان اسوأ انواع الحكومة ماكان وراثيا لأن صفة الشرعية تنتفى تماما من مثل هذا النوع .

وهكذا ادان روسو كل انظمة الحكم التى كانت قائمة فى أيامه ودمغها بالخديعة والزيف وعدم الشرعية . وكان قوله بالعقد بمثابة الدعوة او الطريق للخلاص . والحقيقة ان مظاهر الجيرة التى تضمنتها فلسفته وأيضا الروح الفياض الذى عبر به عن افكاره كانت كلها عوامل ساعدت على أن تجد هذه الآراء صدى فى العقول وفى القلوب . وعلى الرغم من كل العنت الذى لقيه فى حياته فلم يمنع ذلك أبدا أن مثلت افكاره عالما جديدا يتطلع اليه الذى يسعون الى حياة افضل ، وان تظل نظريته فى العقد محتفظة بشبابها وبنفوذهـا وقتا طويلا بعد وفاته ، حتى ان كثيرا مـن الدول خاصة الولايات المتحدة استلهمت بعض جوانبها وبعض روحها وهى تخطط لسياساتها . كمـا اعتبرت النظرية كذلك الروح المحـرك للثورة الفرنسية التى تغنت بشعارات الحرية والاخاء والمساواة .

ولكنا نلاحظ ، من جهة أخرى ، ان نظرية روسو لم تسلم مع ذلك ـ مثل أى عمل آخر عملاق ـ فى أى وقت من الاوقات من النقـد والهجوم والتجريح .

ولعل أول ما يطرأ على الذهن ونحن نحاول الحديث فى هـذا هو ما وجـه الى الاساس السيكولوجى نفسه الذى بنى عليه روسـو نظريته . ومن المسلم به ان القـول بصـحة نظرية ما أو بعدم صحتها لا يعدو أن يكون فى آخر الامر مسألة نسبية محضة ويعتمد الى ابعد حد على ما اذا كانت نظـرة المفكر الى الطبيعة البشرية صائبة .

ولسنا نقصـد بذلك الى القول بأن كـل ما ذهب اليه روسو فى الطبيعة البشرية كان خاطئـا أو غير صحيح ، وانما نحن نعتقـد فحسب ان روسو لم يستطع بوضوح أن يضع الانسان فى مكانه الصحيح لا من حيث ما أثبته فى الطبيعة البشرية ، ولكن فيما انكره بالنسبة اليها وذلك عندما أكد تأكيدا زائدا على طهارة الانسان وطيبته ونقائه . فهنا لم يفعل روسو فى الحقيقة سوى ما فعله مفكر آخر مثل هوبز عندما اعطى صورة للطبيعة البشرية اقـل ما توصف به أنها صورة مقيتة ، وكان ذلك عندما رأى الانسان مخلوقا شريرا وفاسـدا . واذا كانت نظرة هوبز هذه قد جانبها الصواب الى حد بعيد لانهـا تجاهلت غرائز التعاطف والاجتماع وغيرها من الميول الفطرية التى تدفع الانسان الى المشاركة والحوار ، فانه يمكننا بالقياس نفسه أن نقول ان روسو قد وقع فى الخطأ ذاته وانما من الناحية المقابلة عندما عجز عن أن يرى فى الانسان الا أنـه مخلوق طيب متجاهلا ما يعمل فى أعماقه مـن غرائز حب الذات ومجموعة الميـول والدوافع المتعلقـة بنزعات الكفاح والعدوان وما اليها ..

غير أن روسو اضاف من غير شك عناصر جديدة لنظرية العقد . ولا جدال فى أن تصور الارادة العامة كان أهم هذه الاضافات جميعها ليس لكونه التصور المحورى فى نظريته فحسب ، ولكن أيضا لانه التصور الاكثر اصالة والاكثر اثارة فى كل ما أفاد به النظرية السياسية بوجه عـام .

ان ماهية العقد الاجتماعى تتمثل فى انه ما يحدد الواجبات المتقابلة وما يقوم بين الافراد من صلات ونظم وعلاقات تتضمن فى جوهرها فكرة العدالة . ولكن هل صحيح ان العقد قادر على انجاز ذلك وتحقيقه وبالتالي حفظ الكيان السياسي وحمايته ؟

ومن الواضح ان هناك صعوبة حقيقية أمام هذا التساؤل لأنه يمس مسا مباشرا كل جوانب

المشكلة الاجتماعية . ومع ذلك فهناك حقيقة اساسية يجب الالتفات اليها ، وهى أن مفهوم العقد وان كان قد قام كحجة لحماية الفرد والوجود الفردى ضد المجتمع، فمن الممكن استغلاله فى الوقت نفسه ، وربما بالقوة ذاتها لخدمة الغاية المضادة . واذا نحن ربطنا ذلك بفكرة العدالة تبدت لنا المشكلة فى كيفية التوفيق اذن بين آثار مبدأ الجماعة الذى يدعى العقد انه يعبر عنها ، وبين مبدأ الحكم الصالح الذى يتضمنه مصطلح العدالة بما ينتج اكبر قدر من الخير العام .

• • •

وباستعراض المواقف المختلفة لفلاسفة العقد من هذه القضية نجدها متمايزة بشكل ملحوظ. فعلى حين آمن البعض بالسلطة المطلقة بكل ما يترتب عليها من انتفاء كامل لحقوق الافراد، فقد عارض البعض الآخر ذلك بكل قوة ووقف ضد اى تسلط أو تدخل على أية صورة من الصور ، بينما اكتفى آخرون باتخاذ موقف وسط فسلموا بامكانية وجود ازدواجية فى الارادة دون أن يعرض ذلك الخير العام للخطر، بمعنى انهم تركوا فى المجتمع مجالا لكل من حرية الافراد وارادتهم الحرة من ناحية ولفاعلية الدولة وتدخلها من أجل تحقيق الخير من ناحية ثانية . وفى الوقت الذى نجد هوبز يدافع عن السلطة المطلقة بكل ما يتضمنه ذلك من اهدار للحرية، ولوك ينادى بالسلطة المقيدة تاركا بذلك مكانا للحرية فى المجتمع الانسانى ، نرى روسو يمضى فى نص الحرية الفطرية التى اضاعتها الملكية الخاصة وما يرتبط بها من نظم وعلاقات ، ويتصور انه بدعوته الى عقد يوجد بين الحكام والمحكومين واقامة نوع من الارادة العامة يودع لديها كل الحقوق انما يعيد الى الانسان هذه الحرية الضائعة . . فالى أى مدى يمكن لذلك ان يكون صحيحا وصادقا ؟

لا شك انه على الرغم من كل مايمكن ان يقال عن تقديس روسو الرائع للحرية ، فان وصفه للسيادة فى الشعب فى كل الظروف انما يتجه بالدولة لان تصبح دولة شمولية تطغى على الكيان الفردى وتخنقه (٢١) ، وقد يبدو هذا القول غريبا، ومع ذلك فالحقيقة هى أن روسو عندما قال بحق السيادة فى قوة السلطة كان يهرب من المشكلة كلها ، وذلك لسبب بسيط هو أن الاعلاء من شأن الارادة العامة لايعنى سوى القول بأنها القوة النهائية ، اى انه قد اظهر بذلك جانبا وايده على حساب الجانب الآخر . ومن المسلم به تماما انه حيثما كانت الارادة هى الارادة الحاكمة فان النتيجة المنطقية لذلك لابد وأن تكون القوة ، بمعنى أن اصطدام الارادات لايمكن حله فى الواقع الا بانتصار الارادة الاقوى مما يجعل اى مذهب فى الارادة ينتهى الى مذهب فى القوة .

ومن جهة أخرى ، فقد يكون من الصعب التسليم تماما بامكانية ربط هذه الارادة العامة بالدولة الكبرى والكيانات العظيمة . ويرجع ذلك الى انه كلما كانت الدولة اكبر كان دوام الارادة العامة واستمرارها واستقرارها اقل ، حتى ليصبح من المشكوك فيه القول بما اذا كانت مثل هذه الارادة موجودة بالفعل فى الدول الكبرى الحديثة . وذلك بالاضافة الى أنه كلما كبرت الدولة واتسع نطاقها ظهرت صعوبة اقامة علاقات عضوية تربط الاجزاء بعضها ببعض والاجزاء بالكل ، مما يشكك بالتالى فيما اذا كان يربط بينهم جميعا اى نفع أو خير عام .

وقد يمكن القول فى ذلك ان روسو قد بنى فكرته عن الديمقراطية متأثرا بفكرة **المدينة الدولة** عند ارسطو خاصة عندما اصر الأخير

(٢١) Vedel, G ; Manuel Elementaire de Droit Constitutionnel, Paris, 1949, PP. 191-193)

على أن الدولة الصغيرة هي الاقدر على الوفاء بمتطلبات أعضائها واحتياجاتهم ، (٢٢) بل قد نستطيع الذهاب أبعد من ذلك فنقول ان روسو كان لابد متأثرا بمدينته الاولى ومسقط رأسه جينيف مما انعكس فى تفكيره وجعله يرتبط سواء شعوريا أولا شعوريا بتصور الدولة الصغيرة التى لم تتسع حدودها بعد .

ولكن هل يكون معنى ذلك أن المشكلة سوف تحل فور ازالة هذا التحديد لحجم الدولة ؟

ان الارجح فى رأيي هو أن المشكلة ستظل قائمة ، لانه سيتعين علينا فى هذه الحالة أن نتساءل : وكيف يمكن اذن لهذا التصور ان يخدم كأساس للتنظيم السياسي الديمقراطي؟ او بتعبير آخر الا يصبح ضروريا من ثم العثور على شكل آخر من أشكال التمثيل الديمقراطي ينبنى علىتصور آخر غير تصور الارادةالعامة ؟

ان انصاف روسو يقتضينا ان نقرر انه لم يعتقد فى وجود أساس آخر للديمقراطية وانه لم يفكر فىامكانية مقارنة التمثيل بوجود الارادة العامة . ومن هنا فقد يبدو منطقيا ذلك الموقف الذى أصر فيه على استبعاد الدولة العظيمة من حسابه وان يجعل الدولة صغيرة الحجم لدرجة تكفى لاقامة ديمقراطيته المباشرة ، وان يمكن هذا التصور مما لايستطيع أحد أن يأخذ به الآن على أى الاحوال .

● ● ●

ومهما يكن من أمر فمن الضرورى ان ننتبه تماما الى هذه الصعوبات جميعها التى تحيط بفهمنا للارادةالعامة عند روسو لكى نكون أقدر على انصافه . وايا ما كانت درجة الاتفاق أو الاختلاف فى الرأى فمن الواجب كذلك ان نقترب من فكره دون أن نكون متأثرين بأى تداخل أو خلط ميتافيزيقى . او بتعبير آخر نريد ان نقول أن مدخلنا لدراسة فكر جان جاك روسو ينبغى أن يكون من خلال تلك النظرة التي شارك بها جون لوك والقائلة بان الدولة ايا كانت طبيعة تصورنا لأصلها ونشأتها انما توجد لأجل أن تجعل الحياة شيئا طيبا وممكنا لكل البشر الذين يعيشون فى ظلها .

★ ★ ★

(٢٢) ذهب ارسطو صراحة الى ان الدولة خلق طبيعى أسبق فى الظهور من الفرد والعائلة باعتبار ان الكل أسبق بالضرورة من الجزء ، ومن هنا دحض أرسطو المذهب السفسطائى القائل بان نظم المجتمع نتيجة للعرف والاتفاقات كما حاول ارسطو منذ البداية ان يوضح مفهوم الدولة على أساس ان هذا يساعد فى فهم العلاقة سواء بينها وبين افرادها او بين الدول وبعض ، وفى هذا فقد أكد ان الجماعةالتى يصل عدد افرادها الى مائة الف نسمة لا تمثل دولة ، مثلها فى ذلك الجماعة التي لايزيد عدد افرادها على عشرة آلاف ـ فاقليم الدولة عند ارسطو يجب ان يكون مرئيا ككل بعين واحدة . وقد استخدم ارسطو تاكيده ذلك على اساس من الحقائق التى يمكن قياسها من حواس الانسان والذاكرة البشرية . وواضح هنا على اية حال انه كان يؤمن بضرورة صغر حجم الدولة لتكون اقدر على الوفاء بغاياتها واهدافها .

فى ذكرى روسو *

بقلم : موريس كرانستون
ترجمة : بدرية محمد أحمد

خلال المائتي عام التى انقضت على وفاة روسو ، أو بالاحرى خلال الـ ٢٢٧ عاما التى مضت منذ نشر مقاله الاول ، خلال كل تلك الاعوام ثار كثير من الخلاف الحاد بين القراء حول ما كان يقصده روسو من كتاباته .

والواقع ان روسو نفسه اعترف بوجود كثير من التناقضات فى كتاباته ، ولكنه كان يشعر بانه لم يكن فى الاستطاعة التعبير عما كان يريد ان يقوله طبقا لقواعد العرض الواضح الصريح التى كان يتبعها فولتير Voltaire وغيره من فلاسفة عصر الاستناره .

* نشر هذا المقال فى الاصل فى عدد ديسمبر ١٩٧٨ من مجلة Encounter تحت عنوان Remembering Reusseau ; A Bicentennal Essay ومؤلف المقال هو الاستاذ موريس كرانستون مدير معهد الجامعة الاوربية European University Institute فى فلورنسا ، وكان يشغل منصب استاذ علم السياسه فى مدرسه لندن للاقتصاد London School of Economics فى الفترة بين عام ١٩٦٩ وعام ١٩٧٨ . ومن اهم مؤلفات الاستاذ كرانستون Rousseau's Social Contract (Penguin, 1976) ; Politics and Ethics (1972) and the Mask of Politics (Allen Lane, 1973
وقد راجع الترجمة الاستاذ الدكتور احمد ابو زيد

وقد كان لروسو اتجاهات ومواقف معقدة ازاء ما كان يعتبره قضايا معقدة ومتشابكة ، وربما كان اشد هذه القضايا والمشكلات تعقيدا ، حسب رأيه ، المشكلات السياسية.

ويعتبر موقف روسو من المشكلات السياسية في وطنه الأصلي « جمهورية جينيف » احد الالغاز المحيرة .

فعلى الرغم من انه هرب من المدينة وهو في سن السادسة عشرة وانه لم يعد اليها بعد ذلك لأكثر من ايام معدودة في كل مرة ، فانه كان يصف نفسه دائما بكثير من الفخر والاعتزاز بانه « مواطن من جينيف » دون ان ياخذ في الاعتبار انه اسقط حقه في هذه المواطنة حين اعتنق الكاثوليكية في تورينو . وقد كان نموذج الدولة المدينة المتمثلة في جينيف يهيمن على تفكيره في موضوع السياسة ، ومع ذلك فلم يكن لديه سوى القليل الذى يذكره عن سياسة جينيف ، سواء في كتاباته المنشورة او غير المنشورة .

وفي عام ١٧٣٧ تفجر الصراع الحزبي في جينيف حتى كاد يصل الى حد الحرب الاهلية ولقد كان روسو الذى كان يناهز الخامسة والعشرين من العمر حينذاك موجودا في جينيف وشاهد بنفسه تلك الاحداث ، ولكن الغريب في الأمر هو ان استجابته لذلك الصراع كان الحياد المطلق ، وكان سبب النزاع هو الصراع الطويل بين الحكومة (التى كانت تسيطر عليها العائلات النبيلة) وبين المعارضة الشعبية التى كانت تسعى لاثبات حقوق المواطنين في مواجهة الامتيازات التي كانت تتمتع بها العائلات الكبيرة ، وقد كان المتوقع من روسو (الذى طالما عبر بقوة وصراحة عن آرائه الجمهورية) ان يقف بصلابة الى جانب الشعب ولكن ذلك لم يحدث على الاطلاق .

ففي الرسائل التى كتبها في ذلك الوقت لم يعبر الا عن شعوره بعدم الرضا عن الفوضى المدنية التى ادت الى منعه من جمع ايراد ارث له . بل وحين عاد بذاكرته الى تلك الاحداث بعد ذلك باربعين سنة حين كان يكتب « الاعترافات Confessions » لم يتكلم الا عن رؤيته لصديقيه صاحب المكتبة جاك باريبو Jacques- Barillot وابنه جاك فرانسو باريبو ــ Jacques François Barillot وهما يخرجان من نفس المنزل ليحاربا في جبهتين متضادتين ، الاب يحارب للحكومة والابن مع الثوار . « وقد ترك هذا المنظر المفزع انطباعا سيئا للغاية في نفسي بحيث اقسمت الا اشترك ابدا في اية حرب اهلية » .

ثم عقد روسو بعد ذلك في الفصل الذى يتكلم فيه عن الانتخابات في كتابه «العقد الاجتماعي» مقارنة بين جينيف وفينسيا ليخرج منها بانه لم يكن ثمة اختلافات كثيرة بين الجمهوريتين .

ويقول في ذلك « من الخطأ ان نعتبر حكومة فينسيا ارستقراطية حقيقية ، فعلى الرغم من عدم اشتراك الشعب في الحكومة ، فان النبلاء الفينيسيين يؤلفون هم انفسهم شعبا ، ان اعداد اكبيرة من اتباع الكنيسة البرنابية الفقراء لم يكونوا يرقون ابدا الى مناصب الحكم ، بينما لم يكن « نبلهم » يتضمن شيئا اكثر من لقب « الفخامة » الاجوف الى جانب حق حضور اجتماعات المجلس الاعظم .

ولكن لما كان عدد اعضاء ذلك « المجلس الاعظم » يماثل عدد «المجلس العام» في جينيف فان اعضاءه الموقرين لم يكونوا يتمتعون باية امتيازات اكثر مما يتمتع به مواطنونا العاديون ، ولهذا فعلى الرغم من التفاوت الواضح بين حجم كل من الجمهوريتين فان نواب جينيف يماثلون تماما نبلاء فينسيا ، كما ان مواطنينا يقابلون السكان الحضريين هناك ، وفلاحونا هم يعينهم عمال الاراضي عندهم ، وباختصار فانه باستثناء فارق الحجم فان حكومة فينسيا

ليست اكثر ارستقراطية من حكومتنا من اية وجهة . والفرق الوحيد هو انه لايوجد عندنا رئيس للدولة يتولى منصبه مدى الحياة ، وبالتالي فاننا لا نحتاج لنفس طريقة الانتخاب الجماعي The Social Contract, Penguin 1968, هـذه الفقرة هـى التى اطلق عليهـا فولتير Voltaire عبـارة « الكذبـة المنفصة fausseté révoltante بل انه يمكن ان نتخيل مدى السخط الذى اثاره هذا الكلام فى نفوس اهالى جينيف ذوى الكبرياء . فاذا كان فولتير دهش لما قاله روسو من ان فينسيا لم تكن اكثر ارستقراطية من جينيف فلا شك انهم دهشوا لما قاله من ان جينيف لم تكن اقـل ارستقراطية من فينسيا .

وقـد يكون مـن الخير ان نتذكر هنـا ان ذكريات روسو عن النظام الاجتماعي فى جينيف لم تكن بالسعيدة .

● ● ●

ولقد ولـد روسو لعائلة لهـا جذورهـا البرجوازية العميقةوقد وصفها هوبان«اسلوب سلوكها كان يميزها عن سلوك العامة » ولكن والده الذى كان قد تزوج بمن تعلوه فى الطبقة الاجتماعية اخذ يتدهور بسرعة، وانتقل بالفعل من المنطقة العاليـة فى جينيف « حيث تقطن عائلات الطبقة الراقيـة » الى دائرة ابرشية سانت جرفية St. gervais المنخفضة والتى تسكنها الطبقات العاملة .

اما جده دانييل روسو Daniel Rousseau فكان سياسيا مشاغبا وكان يؤيد المعارضـة الشعبية ضد احتكار النبلاء للحكم ، والظاهر انه كان يشعر بالارتياح بين جماعات الحرفيين الراديكاليين، وذلك يعكس ابيه اسحاق روسو Isaac Rousseau الـذى كان يعتبر نفسه ارستقراطيا سلبت منه حقوقه . ولكنه بدلا من ان ينضم الى الراديكاليين فى تبرمهم من ظلم الحكومة عكف على تنشئة ابنه كاحد النبلاء حتى يستمتع بمبادىء ومثل الحكـم الجمهورى التي كان المفروض ان جمهـورية جينيف تشـارك روما القديمـة فيها وأن يصبح مواطنا بطلا وقد بلغ تعليم الصبى روسو مداه عندما درس على ايدى والده كتابات بلوتارك Plutarch عن حيـاة الابطال ، ويقول لنا عن ذلك فى اعترافاته «لقد اصبحت انتمى لروما قبل ان ابلغ الثانيـة عشرة » . والـواقـع ان قـراءاته فى آمـال بلوتارك كانت قد توقفت وهو فى سن العاشرة حين اضطرابوه لترك جينيف بعد ان تحدى شخصا اعلى منـه فى المرتبة الاجتماعيـة ، ودعاه الى المبارزة ، ولذلك فلم يكتف بالالتجاء الى السيف كما يفعل « السيد المهذب » بل انه استخدمه ببراعة ومهارة حين قيل له بانه لا ينتمى الى فئة « السادة المهذبين » . وترتب على نفى ايزاك روسو من جينيف وخروجه بالتالى من حياة ابنـه ان اصبح جان جاك روسـو مسـئولا مـع خاله الكولونيل برنار Bernard حيث تربى مع ابن خاله ابراهام Abraham تحترعاية راعي كنيسة كالڤانى فى قرية خارج اسوار المدنية .

ومضت الامور علـى ما يرام حتى حان موعد تحديد مستقبلهما ، وتقرر ان يكون ابراهام ضابطا بالجيش كوالدة ، بينما ارسل جان جاك روسو الـى حي سـان جرفيـه البرولتيارى ليتدرب على الحفر مـع عامل شرس الطباع « كان ابراهام يعيش فى الاحياء الراقية أما انا فلم اعد اكثر من ولد بائس يتمرن فى سان جرفيه ، وبذلك لم تعد هناك اى مساواة بيننا رغم مولدنا ، اصبح استمرار علاقتنا امرا يحط من قدره » .
(pléiad, vol 1, p. 42)

● ● ●

وكما حدث لوالده فقد غدرت به الدنيا ، وكما حدث لوالده ايضا لم يعد يحتمل الوضع، فهرب هو الآخر من جينيف ، وكان المخرج

الوحيد أمامه هو ان يغير مذهبه الدينى ، وقد فعل ذلك فى دوقية سافوى على حدود جينيف ، حيث كانت الحركة المضادة للاصلاح الدينى لا تزال نشطة على ايدى المبشرين الكاثوليك الذين كانوا يبحثون عن الشبان الهاربين من سويسرا الكالفانية ، ليعملوا على تحويلهم الى الكاثوليكية .

وكانت سافوى لا تزال مجتمعا اقطاعيا ، ولقد لجأ روسو الى الطبقة الارستقراطية هناك ، فذهب فى اول الامر الى اسقف كونفنيون Confignon (على ما يذكر هو نفسه لنا) لانه كان يعرف انه يحمل دماء نبيلة .

واثناء تنقلاته بين كونفيتون وانيس Annecy كان روسو يقترب من اسوار قصور الاقطاعيين وهو يحلم بامكان تكوين صداقات مع صاحب وصاحبة القصر والزواج من ابنتهما ، ويقول روسو انه لم يشعر بأى ميل جنسى نحو فتيات الطبقات الدنيا ، ولم يكن يعجبه الا اللائى يرتدين الملابس الانيقة ويصففن شعرهن بعناية ويمتلكن بشرات رقيقة ، ولقد اساء وصف جميع الفتيات العاملات بل اللائى تعرض لهن فى«الاعترافات» وحتى بنات الطبقة الوسطى ايضا لم يحركن فيه اى مشاعر او عواطف طيبة ، وانما كانت احلامه تدور دائما حول فتيات الطبقة العليا ولذا فقد كان من الغريب ان ينتهي به الامر الى ان يعيش مع عشيقة امية تعمل فى احدى المغاسل .

ومع ذلك فلم يضع بحثه عن المجتمع الارستقراطى فى سافوى وبيدمون هباء ، ففى تورينو استخدمه كونت جوفون Comte de gouvon فى قصره كتابع ، ثم اتخذه ابن الكونت سكرتيرا له ، وبدأ يعلمه كيف يتذوق الادب .

وعندما عاد الى سافوى استقربه المقام مع المراة التى احسنت له ومدت اليه رعايتها بحيث اصبحت أماله بالتبنى ، وهي البارونة دى وارين Baronne de Warens

وصحيح ان مدام دى وارين لم تكن تشغل مركزا مرموقا فى الارستقراطية الأوروبية ، فاللقب الذى تحمله كان حماها قد اشتراه لزوجها مع ضيعته فى فود Conton de vaud وقت زواجهما ، ولكن اللقب سقط عنها حين باع زوجها الضيعة بعد ان هجرته وحطمته ماديا، ولم يعد يطلق على نفسه لقب البارون، الا ان التظاهر بانها بارونة كان امرا هاما بالنسبة للدور الذى كانت تلعبه فى دوقية سافوى باعتبارها سويسرية مرتدة تساعد فى تحول الاخرين الى الكاثوليكية بتعضيد مالى من ملك ساردينيا وأسقف انيس .

وقد كان لمدام دى وارين سمعة سيئة ، اذ كانت امراة مغامرة بغير شك ، كما ان اخلاقياتها الجنسية كانت تتعارض مع وقار الطبقة الوسطى . ومع ذلك فقد كانت سيدة كريمة جدا وعلى درجة عالية من الثقافة . لقد علمت روسو والواقع انها هى التي زودته بالتكوين العقلى الذى ساعده على ان يصبح الكاتب الذى نعرفه . ولكنها مع ذلك لم تسهم كثيرا فى اعداده السياسى ، اذ كان تصورها للسياسة محدودا للغاية ، ولم تكن السياسية بالنسبة لها اكثر من مجموعة من المؤامرات ، ومن هنا فقد عملت على كسب المزيد من ثقة ملك سردينيا عن طريق الانغماس فى عمليات التجسس ، وعلى اى حال فخلال المدة التى عاشها مع مدام دى وارين فى سافوى ، تلك الدوقية التى اصبحت مجرد مقاطعة من مملكة سردينيا يحكمها البيروقواطيون والنظار الايطاليون، كان روسو بعيدا كل البعد عن اى شيء يمكن أن يطلق عليه كلمة سياسة » .

وعلى اى حال فحين بلغ روسو السابعة والعشرين انتقل ليقضى عاما فى مكان اكثر

اثارة للفكر ، وهو مدينة ليون فى فرنسا ، وهناك ساعده الحظ فى ان ينخرط مباشرة فى حركة التنوير الفرنسى

The French Enlighten ment

فقد اصبح المعلم الخصوصي لعائلة مسيودى ما بلى M . de Mably الذىكان له أخان هما آبية دى كونديال Abbé de condillac الفيلسوف الشهير ، الذى كان يعتبر من اتباع فلسفة لوك Lock وآبيه دى ما بلى Abbé de Mably احد رواد النظرية الاشتراكية . وعندما ذهب الى باريس بحثا عن المال والشهرة وهو فى الثلاثين من عمره اصبح صديقا حميما لدنيس ديدرو Denis Diderot ناشر الانسيكلوبيديا Encyclopédie .

• • •

وقد تحدد تفكير روسو فى السياسه بعد ذلك فى نطاق نوعين من المؤثرات هما خبرته فى الحياة فى أحدى الممالك الكبيرة، واصطدامه بالآراء السياسية لفلسفة التنوير ، وان كان ينبغي ان نتذكر انه كان قد درس أيضا فى مكتبه مدام دى وارين اعمال كثير من الفلاسفة السياسيين من أمثال هوبز Hobbes Locke ويوفند ورف Pufendorf وبيرلا ماكى Burlamaqui ولكنه ادرك اتجاهاته « الجمهورية » ، وشعر بكيانه كأحد مواطنى جنيف ، وبغربته عن عالم الملوك والامراء أثناء اقامته فى بيت مسيو ما بلى فى ليون .

وقد عبر عن هذا كله فى قصيدة كتبها لاحد اصدقائه فى ليون وهو الجراح باريسو Pairsot وفيها (Pléiade, Vol, pp1136-44) يصف نفسه بأنه ولد حرا وانه بفضل مولده كمواطن فى جنيف ، له الحق فى ان يشارك فى السلطة العليا ، وان يكون عضوافى الهيئة التى تحكم تلك الجمهورية، ثم يتطرق الى اشياء أخرى كثيرة مثل قوام « لقد تعلمت احترام النباله اللامعة » وانه ليس ثمة خير فى مجتمع يتضاءل فيه عدم المساواة بين مختلف المستويات »ولكنه يضيف بعاطفة مشبوبه خليقة بالتقدير بأنه « بينما ينظر بتواضع الى هؤلاء الذين يعلونه فى المرتبة او نبل المولد فانه يأمل على الاقل فى أن يتساوى معهم فى الفضيلة » .

وبالطبع فليس هناك من يلتزم بالصدق والامانة عند كتابة الشعر ، ولكن هذه الابيات تعطينا فكرة عما كان يشعر به أثناء فترة اقامته المبكرة بفرنسا مصادقا نبلاء ليون . وفى باريس التقى بالنظرية السياسية لجماعة الموسوعين « ومن المؤكد ان جميع هؤلاء الموسوعين لم يكونوا يعتنقون نفس الآراء السياسية ، وان كانت النظرية الاساسية التى تميزهم جميعا هي تلك التي عبر عنها فوليتر بطريقة معتدلة ، بينما عبر عنها بارون هولباخ d, holbach فى كثير جدا من التطرف ، وهي نظرية الاستبداد المستنير ، وقد تأثر الموسوعيون كثيرا بيبكون Bacon (صحيح أنهم تكلموا كثيرا عن لوك ، ولكن بطلهم الحقيقى لم يكن لوك ودعوته الى النظام الدستورى المتحرر ، وان كان بطلهم هوبيكون بخطته الجذرية للقضاء على الدين والفلسفة التقليدية واستبدال حكم العلم والتكنولوجيا بهما بقصد تحسين حياة الانسان على الارض، كأن العلم يعتبر هو مخلص البشرية ، وكانت خطه بيكون هي أن يجعل جيمس الاول حاكما مستبدا يسخر قواه المطلقة للحكم بأسلوب علمي حسب ارشادات بيكون نفسه ، وكانت هذه هي « البضاعة » التى حاول فولتير وهو لباخ ود يدور بيعها للملوك الآخرين ، مثل فريدريك الثانى فى بروسيا ، وكاترين

العظيمة فى روسـيا . ولم يصادف بيكـون اى نجاح فى انجلترا حيث كان الناس يتمتعون بعقلية سـياسية متمسكة بحقوقها المدنيـة وبالقانون والبرلمان ، لدرجة يستحيل معهـا التحول الى أى نظـام استبدادى . أمـا فى فرنسا حيث لم تكن هناك هيئات انتخابيـة ولا حريات فقد كان لمبـدأ الاستبداد المستنير خاصة جاذبيته الشـديدة بالنسبة للعقليـة البورجوازية ، وقد كانت سياسة الاستبداد المستنير فى نظر فوليتر على أية حال تتفـق اتفاقا تاما مع مصالح البورجوازية ، كما انـه كان يعتبـر الكنيسـة وطبقة النبـلاء اكبـر اعـدائه .

●●●

عندما وصل روسو لباريس اول مرة عام ١٧٤٢ يحدوه الامل فى كسب الشهرة والثروة ، وكان فى الثلاثين من عمره ، وقع هو وصديقه ديدرو فى هذا الفيضان من ايديولوجية التنوير والتطلعات البورجوازية ، التى لم يلبث ان ابتعـد عنهـا ورفضـها كجـزء مما اسـماه « بالاصلاح » ثم بمرحلة هامة جدا فى تكوينـه السياسى ، وذلك حين عمل لمـدة سنة بـين سن الحادية والثلاثين والثانيـة والثلاثـين سكرتيرا للسفير الفرنسى فى فينيسيا الكونت دى مونتاجى Comte de Montaiqu ومع أنها لم تكن تجربه سـعيدة بأى حال الا انهـا كانت مفيدة للغاية .

وقد كان السـفير الفرنسى ضابطا كبـيرا متقاعدا ، ولكن لم تكن له اى مؤهلات أو قدرات دبلوماسـية ، وكان روسو يتصف بالكفاءة وسرعة الخاطر والذكاء ، كما كان يجيد اللغة الايطالية ، ولذا القيت عليـه أعباء سكرتارية السفارة ، وذلك فى فترة كان يتطلع فيها الى النجاح ويسعى الى المجـد والثراء .

اشترى روسـو لنفسـه ملابس باريسـية أنيقة ، وتخيل نفسـه احـد رجال السـلك الديبلوماسى ، وانه يمارس مهنة ارستقراطية فى خدمة أعظم ملك فى اوروبا ، ولكن لم تكن هذه هي نظرة السفير اليه ، اذ كان يعتبره « كاتب » خاص له لا يعلو مركزه الا قليلا عـن مركز الوصيف .

ولم يكن « صاحب السعادة » بالرجـل السهل الهين ، ولذا كان يتملكه الغيظ حـين كان روسو يتصرف كما لو كان زميـلا لـه بالسلك الديبلوماسى ، كأن يمد جسمه بعظمة على مقاعد السفارة او يطلب ان يوضـع قارب (جندول) السفارة تحت طلبه . ولقد تبادل الرجلان الكلمات اللاذعة ، وقبل أن يمر عـام كان روسو قد طرد من عمله بطريقة مهينـة للغاية ، ولكنه كان على اى حال قد امضى من الوقت ما يكفى لمعرفة كيف كانت فينيسيا تحكم ، وليبدأ فى تأليف كتابه عن « النظـم السياسية » وهو الكتاب الذى ادى الى نشر كتاب « العقد الاجتماعى » فضلا عن توفـير الوقت له للتعرف على الاوبرا الايطالية وتذوقها . ومن ناحية اخرى ، فان حظ روسو تبـدل تماما بمجرد عودته الى باريس ، فقد وجـد وظيفة طيبة كسكرتير عند عائلة اقطاعى واسع الثراء يدعى دوبان Dupin عاش معهم فى اجمل قصور فرنسا على الاطلاق وهو قصر شـينو نصو Chenononceaux وقام بنشر عـدة أعمـال عن الموسيقى ، كما الف بعض الاوبـرات والباليهـات ، وكتب عـددا مـن المسرحيات ، بل انه قام باعداد احد أعمـال فولتير للمسرح . والواقع انه كان يسير فعلا فى طريقه لتحقيق المجد والثراء اللذين كـان يأمل فيهما بوصفه احد مفكرى عصر التنوير ، وانـه يعيش فى كنف المجتمـع الباريسـي البورجوازى الثرى الذى فتح له ذراعيه .

●●●

وحين بلغ روسو السابعة والثلاثين اعتراه ذلك « الالهام » الشهير الذى جعله يغير اسلوب حياته تماما، فكل من قرأ «الاعترافات» لابد وان يتذكر القصة التى سردها عن زيارته لديدرو فى فانسيه Vincennes حيث كان ديدرو مسجونا انذاك واكتشافه اثناء الطريق اعلانا عن جائزة تمنح فى ديجون Dijon لمن يكتب مقالا حول اذا ما كان احياء العلوم والفنون قد اسهم فى تحسين اخلاقيات الانسان ، وادراك روسو بسرعة ان هذا التقدم قد ادى على العكس من ذلك الى افساد هذه الاخلاقيات . ولم يكن روسو يستطيع عند هذا الحد ان يسيطر على نفسه ، فضلا عن ان يواصل السير فجلس تحت شجرة واخذ فى البكاء .

وكانت النتيجة كتابة « مقال » عن الموضوع نال عليه جائزة ديجون التي اكسبته شهرته الخالدة . وقد شجعه ديدرو على دخول المنافسة ، ولكن المقال كان هجوما مدعما بالاسانيد على كل ما كان ديدرو يؤمن به ، وعلى كل ما كانت « الموسوعة » تهدف الى نشره والارتقاء به . ولم يخرج ما قاله روسو فى هذا المقال عما كان غيره قد قالوه من قبل ، ولكن ليس بمثل بلاغته ، وذلك فضلا عن تزمتهم ورجعية آرائهم بينما كان هو احد اعضاء جماعة « الانسكلوبيديين » ومن اهم الدين اسهموا فى ذلك العمل الذى اشرف ديدرو عليه .

●●●

كان شيئا ملحوظا ان يهاجم احد الراديكاليين افكار بيكون ، اذ ذهب روسو الى أن العلم سيؤدى الى دمار الانسانية ، وليس الى انقاذها . وان التقدم ما هو الا مجرد وهم ، أو ان تطور الثقافة الحديثة لم يجعل الانسان اكثر سعادة ولا اكثر شرفا . فالفضيلة ، حسب رايه ، لا توجد فى المجتمعات البسيطة حيث يعيش الناس حياة البساطة البعيدة عن التعقيد ، بينما افسدت الثقافات الاكثر تعقدا حياة الانسان ، فكلما زاد التعقيد زاد الفساد ، وقد استعان روسو بآراء افلاطون ليعضد قضيته أو لم يكن افلاطون هو القائل بأن المعرفة العلمية ليست معرفة على الاطلاق ، وانه هو الذى نفى الشعراء والفنانين من الجمهورية الفاضلة؟

وكانت كل هذه الحجج فى نظر ديدرو — وهو رجل مرح ومتسامح — مجرد متناقضات مسليه ، ولا ينبغى اخذها بجدية تامة ، ولكن كان من الواضح ان اى شخص يأخذ هذه الامور مأخذ الجد لم يكن يستطيع ان يستمر فى نفس الوضع الذى وضع روسو نفسه فيه كأحد مثقفى حركة التنوير من ناحية ، وكباحث عن المجد والشهرة من الناحية الاخرى . ولذا لم يكن ثمة مناص من حدوث تغيير جذرى فى حياته ، وبخاصة بعد فوزه بجائزة ديجون وذيوع افكاره بين الناس . وكانت أول خطوة اتخذها هى الاقلاع عن طموحه فى تكوين ثروة ، وترك الوظيفة التى كان يشغلها فى مكتب صديقه الثرى دوبان دى فرانكرى Dupin de Francueil وهى وظيفة كانت ستضمن له انتفاخ جيوبه بالمال . ولابد ان روسو كتب اثناء هذه الفترة واحدا من اقل مقالاته شهرة ، واكثرها امتاعا وهى « مقال عن الثروات Discours sur les richesses .

وتوجد هذه المقالة ضمن مخطوطات روسو فى المكتبة العامة بنيوشاتل Neuchâtel فى سويسرا ، حيث قام بجمع اجزائها احد امناء المكتبة السابقين ويدعى فليكس بوفيه

مع الذى قام بنشرها Félix Bovet عام ١٨٥٣ مع حذف بعض العبارات عن طريق صاحب مكتبة صغيرة فى باريس ، ولكن لم يعد طبعها بعد ذلك حتى فى الطبعات التى تدعى انها تضم أعمال روسو الكاملة ، أما المقال فهو حديث موجه لشخص يدعى كريسوفيل Chrysophyle (وهو روسو نفسه بدون شك)ويقوم على محاولة اقناعه بالتنازل عن مشروعاته لتكوين ثروة ، ونعلم من المقال ، ان كريسوفيل هذا يرغب فى أن يصبح غنيا لتكون لديه الوسيلة للعمل على مافيه خير العالم ، اى انه سيستخدم ثروته لتخفيف آلام أخوته فى البشرية الذين كانوا أقل منه حظا فى الحياة ، ويدعى الكاتب ان هذا المشروع هو من المشروعات التى لا يمكن تحقيقها بحال ، أولا لان الانسان الفقير سيجمع ثروته عن طريق ادخار كل مليم يحصل عليه ، وهو ما ينمى فيه صفة البخل ، وهذا معناه انه لكي يستعد للمستقبل البعيد ، حيث يعطى بغير حساب ، فانه يتعين عليه أن يكون غليظ القلب ولا يسمح بالجود والعطاء . وحين يقترب فجر هذا المستقبل البعيد ، ويصبح هذا الشخص ثريا ، فانه لن ينظر للعالم من منظور الرجل الفقير .

فالانسان الفقير يدرك شرور الفقر لانه فقير ، ولكن حين يصبح غنيا فلن يكون هناك ما يجعله يشعر بهذه الشرور والمتاعب . ، ثم ما هي الوسائل التى سوف يتمكن بها من تكوين تلك الثروة ؟ فقد يمكن للرجل الفقير أن يكون امينا ، كما يمكن للشخص الذى ولد غنيا أن يكون أمينا ، ولكن من الصعب جدا أن يظل المرء أمينا اذا كرس حياته لجمع الثروات ، لان اسهل الطرق للحصول على الربح هي فى العادة أقلها اعتمادا على الاخلاقيات وعليه توصيل روسو الى ان فكرة ان يصبح المرء ثريا ليعمل الخير هي فكرة مستحيلة ،لان المجهود الذى سيبذل فى تكوين الثروة سيحرم الشخص من الرغبة فى الاحسان ، بمجرد اكتسابه القوة الكافية لفعل ذلك .

ومن المهم ان نلاحظ ان هذا المقال ليس هجوما على الثروة الموروثة ، ولا على قيم الارستقراطية ، بقدر ما هو هجوم على البورجوازية الطموحة ، التى تميل الى الاستيلاء على كل شيء وعلى الناس الذين صاحبهم روسو فى سنوات حياته الاولى فى باريس من أمثال عائلات دوبان وبوبليشير Poplinères وبالطبع على مفكرى البوراجوزية الاغنياء ، أمثال هولباخ وفولتير والذى يدعونا الى الاعتقاد بأن روسو كان يوجه المقال لنفسه هو ، انه كان حتى ذلك الحين يعتبر محاولات لجمع المال على انها وسيلة تهدف فقط الى تقديم المساعدة المالية للسيدة التى رعته من قبل ، وهى مساعدة السيدة الفاضلة مدام دى وارين ، وذلك فى سنوات مرضها وحاجتها ، فلم يكن روسو يرغب قط فى جمع المال لنفسه .

ويذكر لنا روسو فى الاعترافات انه فى فبراير ١٧٥١ « نبذت الى الابد كل أفكارى عن الثراء والتقدم فى العالم » Pléiade, Vol. 1, P. 362 « ولكن مما يدعو للسخرية انه بمجرد ان نبذ تلك الأفكار عن جمع الثروة اكتسب شهرة واسعة ، ولم يكن هذا بسبب كتابته لمقال الفنون والعلوم الذى نال عليه الجائزة ، بقدر ما ترجع الى كتابته فى الموسيقى او بالاحرى الى قيامه بالدور الرئيسي في الجدل الذى ثار حول الموسيقى ، والذى الهب باريس فى أوائل الخمسينات من القرن الثامن عشر 1750 وكان غريمه هوجان فيليب رامو Jean- Ph lpe Rameau .

●●●

ولد رامو فى ديجون Dijon عام ١٦٨٣ وبهذا كان اكبر من روســـو بنحو ثلاثين عاما . وبعد أن درس الموسيقى فى ايطاليا وتنقل فى عـدة مناصب كعازف ارغن فى الكنيسة فى مناطق مختلفة من فرنسا حتى بلغ التاسعة والثلاثين ثم اســـتقر فى باريس ولمع اسمه مع مـؤلفه عن « دراسة فى تناسق الالحان » وقد جـذب هذا الكتاب اهتمام عائلة بويلنيير Poplinière وهم من اغنى رعاة الفنون من البورجوازيين ، وقد ساعدت هذه الرعاية رامو على أن يكرس كل وقته للتاليف . وكان رامو رجلا يثـير الضجر والنفور ، ولكن عبقريته كانت مـن النوع الذى يفرض الاحـترام على الجميع ، فقد كان مؤلفا موسيقيا عظيما وناجحا ، وقد كتب نحو ست اوبرات عرضت كلها فى باريس فى بحر اثنى عشر شهرا (١٧٤٨ – ١٧٤٩) الى أن نجحت مدام دوبو مبادور Madame de Pompadour (التى كانت تكرهه) فى قصر اخراج اوبراته على اثنتين فى السنة . ولا تزال اعمال رامو تعرض بالطبع حتى الآن وتثير كثيرا من المتعة ، وفضلا عن ذلك فقد كان رامو عازفا وعالما موسيقيا ، وقد وضعتـه كتاباته عن الهارمونى والجوانب الاخـرى من النظرية الموسـيقية على راس المتخصصين فى هذا العلم فى أوروبا ، اذ كان على درجة مـن التعليم والمهارة الفنية أعلى من جميع علماء الموســيقى فى عصره .

والواقع ان روســو نفسه اشار اشارات قوية جدا الى اعمال رامو فى المقالات التـى كتبها عن الموضوعات الموسيقية «للموسوعة» تماما مثلما اعتمد على الاعمال المنشورة لهـذا الاسـتاذ الفرنسى العظيم ، فى محاولةالتعليم أصول النظرية الموسيقية . بيد أن الاحترام بينهما لم يكن متبادلا ، اذ كان رامو يعتبـر روســو مشـعوذا دجالا وجاهـلا بأصـول الموســيقى ، ولمـا كان رامو لا يعرف أصول اللباقة فانه لم يكن يتردد فى أن يعلن هـذا الرأى بصراحة .

الا ان رامو وجد فى روسو خصما اكثـر عنادا مما كان يتوقع ، فعندما اشتبك الاثنان فى ذلك الجدل حول الموسيقى كان يبدو لاول وهلة انهما غير متكافئين ، على اعتبار أن رامو كان عالما بارزا بينما كان روسو هاويا علـم نفسه الموسيقى بنفسه ولكن النزاع لم يكن موسيقيا فحسب بل كان ايضا أيديولوجيا ، ولذا فقد استطاع روسو أن يصمد بكفاءة أمام رامو ، واذا كان هناك فائز فقد كان هو روسو بالتاكيـد .

بل وحتى فى مجال الموسيقى فقـد اثبت روسو انهمنافس حقيقىلرامو فعندما عرضت أوبراروسو«عرافالقرية le Devin du village » فى فونتنيلو Fontainebleau فى اكتوبـر ١٧٥٢ رغم كل محاولات رامو لاسقاطها لقيت كثيرا من الحظوه والمكانة لدى الملك والبلاط، ثم اصبحت فيما بعد ذات شعبية جارفة فى اوبرا باريس . الا أن العمل الذى ثبت أقدام روسو كمنافس رئيسى لرامو فى تلك المساجلة الموسيقية فى الخمسينات من القرن الثـامن عشر كان مقال بعنوان « خطاب عن الموسيقى الفرنسيه Lettre sur la musiqufrançaise » الذى ظهر فى عام ١٧٥٣ ، وقد أثارت هـذه المساجلة الموسيقية ، التى كانت تسمى أحيانا « معركة المهرجين La querelle des Bouffons » لانها كانت بين عملاقين يمثـلان مدرسـتين مختلفتين للاوبرا .

والواقع ان روسو يزعم فى (الاعترافـات) وبكثير من الجراة ان ذلك النزاع حول الموسيقى ساعد على تحويل اذهان الناس عـن الازمـة الدستورية الناشـبة بين الحكومـة الملكيـة

وبرلمان باريس ، وبالتالى منع نشوب ثورة .

وقد ظهر رامو فى هذا النزاع مدافعا ومؤازرا للاوبرا الفرنسية ، بينما وقف روسو فى صف الاوبرا الايطالية ، ولم تكن الاوبرا الفرنسية فرنسية فحسب ، وانما كانت اوبرا ملكية واكاديمية وعقلية وعلى درجة عالية من الرقى ، ويرجع ذلك التعقد الى تأثرها بالتقليد الديكارتى عن سمو الرياضيات والتنظيم العقلاني ، كما انها كانت تعكس قيم النزعة الكلاسيكية الفرنسية فى القرن ١٧ ، كما كان التناسق هو أهم عنصر فى تكوينها الصعب المعقد . كما كانت بالاضافة باهتمامها باظهار المثاليات البوربونية تهتم بابراز المثل البوربونيه عن المجد ، وهي المثل التي تتمثل فى اظهار عظمة الملوك كما لو كانوا آلهة ، فكانت الكائنات العليا تصور على المسرح فتستقبلها الموسيقى الرائعة التى تخاطب العقول السامية ، أو التى كانت تثير بضربات الطبول والنحاسات الاحاسيس العسكرية ، باختصار كانت الاوبرا الفرنسية تخاطب الاذن بنفس الطريقة التى يخاطب بها قصر فرساى العين . وعلى اية حال فاننا نتكلم هنا عن عام ١٧٥٢ عندما كان أسلوب فرساى الفخم قد بدا يفقد سيطرته على مشاعر الفرنسيين وقد كان رامو نفسه مجددا مبدعا ، وقد أضفى حياة جديدة على الاوبرا الفرنسية خلال الثلاثينات من القرن الثامن عشر ، وذلك عن طريق ادخال قدر كبير من الرشاقة (والحبكة) على مؤلفاته وبزيادة عناصر الرقص التي كانت تنقص الاوبرا الفرنسية قبل ذلك ، وبصفة عامة عن طريق نقل الموسيقى الفرنسية من القرن ١٧ الى ١٨ وحين اتم هذا كله أصبح المدافع المتحمس الاول عن التقاليد الموسيقية التى طورها بمثل هذا النجاح .

ولقد ساعد تصدى روسو للدفاع عن الاوبرا الايطالية ضد الاوبرا الفرنسية على ان يكتسب درجة من الدراية بالموسيقى الايطالية لم تكن تتوفر لمعظم الفرنسيين ، وذلك لانه كان قد سمعها وهو مازال صبيا فى السابعة عشرة من عمره ، اثناء تجوله فى تورينو حين كان ملك سردينيا يشجع على عزف روائع الموسيقى الايطالية كوسيلة لتجميل عاصمة ملكة ، وفتح أبواب كثير من الحفلات امام الجميع وحين كان روسو يعمل بالسفارة الفرنسية فى فينيسيا كان له حق الدخول بالمجان لمعظم دور الاوبرا ، وكان هناك فى ذلك الوقت اثنتا عشرة دارا للاوبرا فى فينيسيا ، مقابل واحدة فقط فى باريس .

• • •

ولكن كيف كانت الاوبرا الايطالية تختلف عن الفرنسية ؟

أولا : وقبل كل شيء بينما كانت الاوبرا الفرنسية تكشف عن درجة عالية من السمو والفخامة كانت الاوبرا الايطالية ذات طابع شعبى واضح ، اذ كانت موسيقاها حالمة وبسيطة ، يمكن لاى شخص ان يتغنى بنغماتها ، بل الواقع ان الناس كانوا يتغنون بها بالفعل فى كثير من الاماكن مثل فينيسيا ونابولى ، كما كانت موضوعاتها متواضعة ومألوفة . فالاشخاص الذين كانوا يظهرون على المسرح كانوا افرادا عاديين اكثر منهم آلهه . مثال ذلك اوبرا « السيدة الخادمة La serva padrona لبير جوليزى Pergolesi التى اعدها روسو بنفسه للنشر فى باريس .

فقد عرضت أولا فى نابولى عام ١٧٣٢ فى الوقت الذي لم يكد مسرح باريس يألف

تجديدات وابداعات رامو . وتدور هذه الاوبرا الرقيقة على شخص اعزب من نابولى يقع نتيجة للخداع فى حب خادمته ، ولكن الامر ينتهى نهاية سعيدة بالزواج منها . والمغزى من هذه القصة هو ان الخادمة ، ليست اقل من سيدتها فى شىء ، ولكن الامر يحتاج من الرجل ان يفتح عينيه .

هذه الرسالة التي تدعو للمساواة ، والتي تحملها أوبرا بيرجوليزى ، اثارت الفزع بين الاوساط المحافظة فى باريس . والواقع أن طرفى النزاع فى « معركة المهرجين » اتخذا موقفهما منذ البداية على اسس ايديولوجية متمايزة ، بحيث نجد الفريق الذى كان يدافع عن الاوبرا الايطالية كان يضم معظم العناصر الليبرالية والتقدمية،ومن بينهم«الموسوعيون» وكان هؤلاء جميعا على استعداد لان يتقبلوا كل ما هو جديد ، واكثر ديمقراطية ، وكل ما من شأنه ان يساعد على الابتعاد عن الميتافيزيقا الديكارتيه ،وعن تقديسالبوربونيه لفكرة المجد ، التى يدافع عنها المحافظون .

ومما يدعو للسخرية ان يبدو روسو رئيسا للصف فى جماعة التقدميين ، فى نفس اللحظة من حياته التى كان مقاله عن الفنون والعلوم يعلن رفضه ونبذه لكل الفلسفة التقدمية . ولكن يجب أن نتذكر انه بينما كان روسو يعارض رامو على اسس ايديولوجية ، وكذلك على اسس موسيقية بحتة ، فانه لم يكن يصدر فى ذلك من موقف « ليبرالي » بل من موقف رومانسى ، ولابد لنا بذلك من أن نأخذ فى الاعتبار ما كان روسو يقوله بالفعل وليس ما نعتقد أنه كان يقوله .

وكانرامو يجادل حسبالاسلوب الديكارتى بأن هناك قواعد ثابتة يمكن تطبيقها على كل التعبيرات الموسيقية ،بينما كان روسو يرى أن التوزيع الموسيقى يجب أن يتنوع حسب ما تعبر عنه ، وبهذا فهو يدافع عن الحرية الرومانسية فى الفن ضد الاصرار العقلانى على وجود قواعد جامده . ومن ناحية اخرى فبينما كان رامو يزعم أن « الهارمونى » هو العنصر المركزى فى الموسيقى ، وانه يعكس مبادىء التناغم والتناسق فى الطبيعة ذاتها كان روسو يؤكد ان الميلوديا Melody هي ما يهم فى الموسيقى ، بينما لا يعدو الهارمونى ان يكون تكوينا مصطنعا ، بل وايضا «مخيفا» من صنع ذهن المؤلف نفسه .

وهنا تواجهنافكرتانمختلفتان عن الطبيعة، فعندما كان رامو يتكلم عن الطبيعة فقد كان يفكر فى الطبيعة كما تبدو فى الفيزياء النيوتونية وايضا الفيزياء الديكارتيه : أى تناسق العوالم والنظام الثابت للكون ، أما الطبيعة ، بالنسبة لروسو ، فهي ما نراه فى الحقول والغابات من شدو الطيور وغناء الفلاحين ، فهى الطبيعة من حيث هي تقابل الثقافة أكثر مما هى الطبيعة (كما يراها رامو) التى هي أعظم نتاج لله ، وكما يفهمها العقل الفلسفى ، فاراء روسو وحججه كانت موجهة فى المحل الاول ضد العقلانية الديكارتية ، كما كان يعتنقها رامو ، واذا كنا نتكلم عن هذه المواجهة على انها ايديولوجية أكثر منها فلسفية فان ذلك راجع الى أن العقلانية الديكارتيه كانت فىتلك الفترة فى التاريخ الفرنسى تأخذ شكلا ايديولوجيا كنسق للقيم الثقافية ، يستخدم فى تدعيم سلطة الكنيسة والتنظيم الجامد للنظم الملكية ، والتدرج الطبقى فى المجتمع .

وكان الموسوعيون الآخرون منهمكين فى مهاجمة العقلانية الديكارتية لاغراض أخرى ، مستعينين فى ذلك ببعض الافكار الفلسفية المستمدة اساسا من الفلسفة التجريبية

البريطانية . فهجوم فولتير واصدقائه على ديكارت كانهجوماسياسيا يكاد يكون سافرا. وقد تدخلوا فى « معركة المهرجين » لمجرد مهاجمة ركن آخر من أركان الثقافة الديكارتية، ليس بسبب عقلانيتها ولكن بسبب نزعتها المحافظة ، وكانوا يكتبون كأحرار ليبراليين على العكس من روسو . ولا سبيل الى ان نخطيء فى ادراك ذلك لو انـنا القينا نظرة على احد المنشورات التيأسهمتفيذلك الصراعالفكرى، وقد كتبها المحرر المشارك للموسوعة وهو دالمبير D' Alémbert بعنوان De la liberté de la musique « عن حرية الموسيقى » وفيها يقول : « ان الحرية فى الموسيقى تعنى حرية الشعور ، وحرية الشعور تعني حرية التفكير ، وحرية التفكير تعنى حرية الفعل ، وحرية الفعل تعني دمار الامم ، واذا اردنا أن نحافظ على الملكة فيجب علينا أن نحافظ على الاوبرا على ما هي عليه ، كما ينبغى علينا أن نضع قيودا على الترخيص بالغناء اذا اردنا أن نتجنب وضع القيود على الترخيصبالكلام

(D. launay, ed.,)

La querelles des Bouffons, genève, 1973, vol. III,pp. 2216-7)

لقد كان المتكلم هنا هو دالمبير وليس روسو . فلقد كان الفليسوفان يقفان على نفس الجانب فى « معركة المهرجين » ولكنهما كانـا هنـاك لاسباب مختلفة . لقد كان الاثنان يدركان البعد السياسى للمعركة . ويكتب روسو فى « الاعترافات » : « لقد انتهى بى الامر الى أن ارى أن كل شيء مرتبط بالسياسة ارتباطا وثيقا ، وأننا مهما حاولنا فلن تكون أية أمة شيئا اكثر مما يصنعه نظام حكومتها »

(Pléiade. vol. I. p. 404) .

• • •

ولكن ماهي بالضبط وجهة النظر السياسية التى يريد روسو ابرازها ؟ من المهم ان نقارن هنا نص الاوبرا التى حققت له كل هذا النجاح فى باريس سنة ١٧٥٢ وهى اوبرا « عراف القرية » باوبرا بيرجوليزى «السيدة الخادمة» ففى اوبراربروسو نجد راعية الغنم كوليت collette حزينة لان خطيبها كولان Colin هرب مع سيدة ارستقراطية فتلجأ كوليت الى عراف القرية فيشير عليها بالطريقة التى تكفل لها عودة حبيبها . وتتبع نصيحته ويعود الراعى الى حبيبته الراعية فى آخر الامر ليعيشـا فى هناء . فهذه قصة تختلف تماما عن « السيدة الخادمة » التى تظهر الخادمة على انها العروس التى تناسب سيدها ، فالقضية الاساسية فى اوبرا روسو هي أن المرء يجد الحب بين من هم على شاكلته ، وانه من الخطأ ان يحاول المرء تجاوز حدود طبقته فهل يستغرب اذن أن نجد أن «عرافالقرية» أصبحت احدى الاوبرات المفضلة لدى الملك ومدام دى يومبادور ذلك ان الملك لم يكن يستمتع كثيرا بسماع الموسيقى بينما كانت مدام دى يومبادور تكره موسيقى روامو لانها كانت رفيعة المستوى للغاية ، ومن هنا كان اسلوب روسو (التطريبى) أقرب الى نفسيهما .

وقد نجم عن ذلك موقف آخر غريب اذ كان المحافظون يريدون أوبرا تقليدية لانها هى « الاصوب » بينما كان الملك واصفياؤه يفضلون الاوبرا italiamte المتأثرة بالطابع الايطالي الجديد لانها اكثر امتاعا .

ولم يكن موقف روسو اقل تناقضا ، فهو يقدم فى « عراف القرية » موسيقى ليبرالية أن صحت هذه التسمية ــ مع « نص »محافظ واستطاع بذلك العمل أن « يغزو » جمهورا « لم يكن من المستطاع اقناعه عن طريق الحجه

والجدل ، ولكن هذا الغزو الذى لم يكن يرغب فيه سبب له كثيرا من الحرج ، لان روسو لم يمل الى الملوك ، كما لم يكن يرغب فى أن يصبح من « موسيقى البلاط » وان يكون فى خدمة الاستبداد الملكى .

ولقد جلبت له موسيقاه الشهرة ، ولكنها لم تكن نوع الشهرة الذى يتمناه . فقد رفض فرصة كسب المزيد من الشهرة تحت رعاية الملك ، مثلما رفض قبل ذلك بنحو عام فرصة كسب الثروة تحت رعاية احدى العائلات البورجوازية . واضطر مرة أخرى لان يتخذ قرارا جذريا فلم يكتف برفض قبول (معاش) من الملك عن كتابه الموسيقى كلية ، ورغم هذا فقد كان ما كتبه عن الموسيقى كافيا لان يدفع الموسيقى الاوروبية نحو قنوات جديدة ، فبعد روسو أخذت الموسيقى أسلوب موتسارت Mozart والذى تعد مقطوعته Bastien and Bastieme نسخة معدلة من عراف القرية ، ثم يأتى بعد ذلك كل ما نعرفه عن الموسيقى الرومانسية ، ولقد تبين ان رامو كان نهاية لطراز معين من مؤلفى الاوبرا ، ولكننا لا نستطيع ان نقول ان روسو كان بداية لطراز جديد ، لانه كان مدينا بالكثير لبيرجوليزى ولغيره من المصادر الايطالية ،ومع ذلك فقد كان تأثيره حاسما فى اعادة التركيب الموسيقى .

ولقد تخلى روسو عن التأليف الموسيقى وعن باريس فى وقت واحد ، وكرس كل وقته بعد ذلك للكتابة بينما كان يحيا وحيدا فى مونت مورنيس Montmorency ولكنه لم يكن وحيدا بالفعل فاذا كان قد هجر مجتمع الاصدقاء الاغنياء (آل دوبين وال بوبلنير) فانه وجد أصدقاء جددا فى مارشال دوق لوكسمبورج وكونتيسه أوديتو houdetot وكونتيسه دى بوفلير Bonffiers التى وقع فى حبها بطبيعة الحال . فهل كان من التناقض واللامنطقى ان يجد السعادة والرضى بين العائلات النبيلة العريقة بعد أن أدار ظهره للبورجوازية وللملك ؟ لا اظن ذلك .

ولروسو شهرة بانه بنى الديمقراطية والمساواة، ولكنه كان يفضل عليها الارستقراطية، وان لم يكن هذا واضحا للعيان فى معظم الاحيان . وتقوم شهرته كأحد الدعاة للمساواة على مقاله (الثانى) عن « أصول عدم المساواة » ولكنه يفتتح ذلك العمل باهداء الى جمهورية جنيف يتضمن هذه الجملة الطريفinteresting

« لما كان من حسن حظى ان اولد بينكم لم يكن ثمة مفر حين افكر فى المساواة التى اوجدتها الطبيعة بين البشر، وفى عدم المساواة التي اقاموها هم انفسهم فيما بينهم ، من ان الاحظ كيف تمتزج الاثنتان معا بطريقة رائعة فى هذه الدولة ، وترتبطان بطريقة تقربهما من القانون الطبيعى قربا شديدا ، بحيث يفيد منهما المجتمع اكبر فائدة مما يؤدى الى المحافظة على النظام العام والى سعادة الافراد

(Pléiade, vol. III. p. III)

وثمة ميل طبيعى لتجاهل هذه المقدمة واعتبارها مجرد اطناب لا معنى له ، لانها كتبت اثناء المحاولات المستمرة التى كان يقوم بها روسو فى صيف ١٧٥٤ كى يسمح له بالعودة الى الكنيسة الكالفينية الراسخة فى جينيف ، ويسترد بالتالى حقوقه كمواطن فى تلك الجمهورية . ومن العسيران نقبل ان روسو كان يؤمن حقا فى كمال النظم السياسية والاجتماعية فى جينيف ، خاصة . وانه هو نفسه قد قاسى الأمرين منها . الا ان هذه العبارة التى اقتبستها تكفى لتوضيح آرائه عن

المساواة ، فقد كان ينكر مظاهر عدم المساواة التى تسود معظم انحاء العالم ، ولكنه لم يكن يرغب فى ان تحل المساواة المطلقه محلها ولذا كان يبحث عن ذلك المزيج الصحيح من « المساواة الطبيعية واللامساواة الوضعية »اى ذلك التدرج الذى يقترب من القانون الطبيعى قربا شديدا . وكانت هذه الصيغة فى نظر روسو تعنى المثال الافلاطونى القديم ، الذى يقضى بان يحتل كل شخص المكان الذى يجب ان يكون فيه ، وهذه هى الارستقراطية بادق معانيها حيث قد نبذ الديمقراطية بغير مناقشة ، ففى الكتاب الثالث من « العقد الاجتماعي » يقول : « اذا كانت هناك أمة من الالهةفانها كانت تحكم نفسها حكما ديمقراطيا، وهذه حكومة اكثر كمالا من ان تصلح للبشر» .

وفى الفصل التالى يدعي روسو ان الارستقراطية هي افضل الحكومات ، موضحا انه انما يستعمل كلمة « ارستقراطية » بمعنى ضيق محدود . ويميز روسو بين ثلاثة انواع من الارستقراطية ، يسمى الاولى بالارستقراطية « الطبيعية » ويضرب لها مثلا بالمجتمعات البدائية ، حيث يذعن الصغار للسلطة الابوية التي يمثلها رؤساء العائلات كما هو الحال عند الهنود الحمر ، ولكنه لا يقصر وجود (الارستقراطية الطبيعية) على المجتمعات البدائية دون غيرها ، ولكنه يقول انها « تناسب فقط هذه المجتمعات » ثم يتكلم روسو ثانيا عن الارستقراطية « الانتخابية » او « الارستقراطية بالمعنى الصحيح للكلمة » وبينما يذهب الى ان هذه هى أفضل الحكومات المكنة فانه يعلن بصراحة انها « مثال » يصعب تحقيقه فى عالمنا الواقعي . واما النوع الثالث فهو الارستقراطية الوراثية او المتوارثة التي تقوم على تراكم الثروة فى ايدى عائلات معينة بالذات ويصفها بانها « أسوأ الحكومات » .

ويذهب روسو فى جدله الى أن الارستقراطية الانتخابية تستمد قوتها ليس من طريقة الانتخاب وانما من الاعتقاد بان الذين ينتخبون هم الحكماء الاتقياء ، وانهم سوف يظلون كذلك وهذا هو ما يجعل من الصعب تحقيق ذلك فى الواقع .

ولعل الصعوبة التى يؤكدها روسو هنا هى ان هؤلاء الحكماء المنتخبين سوف يتصرفون فى سلوكهم وافعالهم عن ارادتهم هم وليس عن الارادة العامة ، ومن هنا يعدل روسو على رايه فى ان الارستقراطية الانتخابية هى افضل الحكومات ، بان يقول ان ذلك لا يصدق الا اذا احترم الحكام الارستقراطيون حرية وسيادة الشعب ، ولكن من سوء الحظ ان جميع الحكام يطأون باقدامهم حرية شعوبهم وسيادتها ان عاجلا او اجلا .

●●●

وهذا يمثل تناقضا آخر فى نظرية روسو السياسية ، فهو لا يؤمن بامكانية تطبيق ما يدعو اليه ، ففيما يتعلق بالشعب فانه يريدهم ان يحكموا انفسهم بانفسهم ويقوموا بسن القوانين الاساسية الخاصة بدولتهم ، لان هذه هى الطريقة الوحيدة التى تضمن لهم حريتهم ، مع خضوعهم للحكم ، او بقول اخر هى الطريقة الوحيدة التى تتيح لهم ان يحكموا انفسهم . ولكن بما ان روسو يؤمن بان الاشخاص العاديين لا يملكون من الذكاء والحكمة ما يمكنهم من وضع قوانين مناسبة فهم يحتاجون بالضرورة لمن يتولى عملية التشريع ووضع القوانين لهم ، على ما كان

كان يفعل Solon او ليكورجوس Lycurgus والاغلب ان يتمكن هذا المقنن من التغرير بالعامة الاغبياء ويوهمهم بأنه تلقى تلك القوانين من السماء .

وهذا معناه فىنهاية الامر ان قيام نظام يضمن السيادة الحقيقية للشعب امر معقد ويستحيل تحقيقة، واما فيما يتعلق بالحكومة الارستقراطية الحكيمة المنزهة من الاغراض، وان كان يؤمن فى الوقت ذاته بعدم امكان احتفاظ اى حكومة بهذه الصفات لمدة طويلة، وعلى ذلك فان الارستقراطية المنتخبة محكوم عليها بالفشل فى اخر الامر . ان حكم العامة انما يولد فى حالات الفوضي وعدم الاستقرار بينما حكم الارستقراطية ينحدر الى مهاوى الاستبداد والطغيان . ويتفق روسو مع ارسطو فى ان الانسان حيوان سياسى ، وان طبيعة الانسان لا تحقق ذاتها الا من حيث كونه مواطنا ، ولكن الله لم يعط الناس جميعا ما يكفى من العقل او النقاء الخلقىما يساعدهم على ادراك امكانياتهم وقدراتهم كمواطنين ، كما ان الحضارة الحديثة ، افسدت الناس بدلا من ان تصلح احوالهم كما قد تفعل الحضارات البسيطة . واما فيما يختص بالانسان الصالح حقا ــ وقد كان روسو يعتقد فى نفسه انه انسان صالح حقا ــ سوف يجد نفسه مرغما وسط كل هذا الفساد الذى يشيع فى العالم الحديث لان يصبح ناسكا لالشيء الا لانه يعجز عن تحقيق طبيعته كمواطن . وكان روسو يعتبر حياته فى مونت ميرنسى Montmorency حياة راهب ، وان كان هذا بالطبع لا يخلو من مبالغه ، فقد كان يقضي كثيرا من الوقت مع جيرانه من ذوى المكانة الاجتماعية العالية ، وكان يشعر معهم بارتياح اكثر مما كان يشعر به مع جماعة الموسوعيين المثقفين المتقدمين ، او مع اصحاب الملايين البورجوازين فى صالونات باريس ، ومن السهل علينا ان نفهم سبب ذلك .

فالفرنسيون النبلاء الذين ينحدرون من عائلات قديمة مثل دون لوكسمبورج كان يمكنهم ان ينظروا خلفهم الى فرنسا كما كانت قبل ان يدخل اسرة البوربون Bourbon الملكية الاستبدادية ، وقبل ان يدمر ريشليو Richeliey قصورهم الحصينة . فقد كانوا يذكرون فرنسا الاقطاعية حين كان الملك النبيل سيدا لاتباعه ، وحين كان لا يدين الا بقليل من الولاء للملك . وبالطبع فان دون لو كسمبورج وأمثاله كانوا اصغر من ان تكون لديهم ذكريات عن تلك الايام . ولكن مخيلتهم التاريخية كانت ترتكز على معلومات اكيدة ، وتصاحبها مشاعر قوية بالنفور والاستياء من الملكية المطلقة ، والازدراء لاقاربهم من النبلاء الذين سمحوا لانفسهم بان يصبحوا من رجال الحاشية فى قصر فرساى ، وللبوجوازيين الذين تملكوا الكثير جدا من ثروات الأمة .

وكانت مواقفهم فى الحياة ضربا من الرومانسية ، فقد كانوا يعرفون ان القاب الارستقراطية التي يحملونها هي القاب جوفاء ، لأنها تمنحهم بعض المزايا ، ولكن بغير قوة او سلطة .

كانوا يحتلون مكانة اجتماعية عالية،ولكنهم كانوا اقل اهمية فى المجالات السياسية حتى من الموظفين والكتبة الذين يخدمون الملك . فحين عرف دون لو كسمبورج مثلا ان صديقه وربيبه روسو قد كان عرضه لالقاء القبض عليه لم يملك اكثر من ان يساعده على الهرب من باب خلفي فى حديقة القصر، ويزوده بعربة تعود به الى سويسرا .

كان للدوق وامثالهمن نبلاء السيفاحلامهم عن فرنسا « لا وجود لها »حيث كانت مثاليات الفروسية تقضى بألا يقود الشعب ويحميه الا أشخاص من اصحاب الخلق الرفيع . وقد وجدت احلامهم صدى لها عنـد روسو فى أحلامه عن قيام عالم لا يتولى مناصب الحكم والمسئولية فيه الا افضل الرجال ، ولقـد كانوا يعرفون أن عالمهم قد مات وراح الى الابد ، كما كان هو يعرف ان عالمه لن يستمر فى الوجود لمدة طويلة اذا جاء على الاطلاق .

لقد سيطر عليهم جميعا نوع من العجـز المظلم الحزين،وهذا عنصر آخر من الرومانسية توحى به اعمال روسو ، وان كان لم يذكرها صراحة ، لان من الصعب ذكر هذه الاشياء ، لقد ساعدته نشأته فى جينيف على تكوين رؤية عن المجتمع المثالى يعيش فيه القانون مـع الحرية جنبا الى جنب . ولكن الصدمات التى تلقاها فى جينيف ثم فى غير جينيف قد علمته أن تلك الرؤية كانت رؤيـة فحسـب ، وان الطريقة الوحيدة للحفاظ عليها هنى العيش فى عالم من صنع الخيال وترك عالم الحقيقة الواقع لمن يمكنهم الاستمتاع به ، مثل ذلك الصديق الـذى اصبح عدوه الاكبر الماكر العنيف الجذاب الذى لا يحاسب نفسه على شىء : فولتير .

★ ★ ★

مطالعات

عبدالواحد لؤلؤة

ادب الرحلات والمغامرات

– ١ –

باستثناء قصص (الف ليلة وليلة) ومغامرات السندباد ، وبضعة قليلة من الكتب فى ادبنا القديم ، يستطيع المرء أن يزعم ، وهو آمن ، أن ادب الرحلات والمغامرات لا يحظى بحقه من الاهتمام فى ادبنا العربي المعاصر ، كما هو الحال فى آداب الامم الاخرى . ومثل ذلك أدب السيرة ، والسيرة الذاتية بخاصة . ثمة شعور غامض لدى القارىء العربي والكاتب العربى ، ان الحديث عن الذات ينطوى على شيء من التفاخر ، وهو ما يتنكر له الدين ، وتحيد عنه قوانين الاخلاق الموضوعة عبر العصور . قليون هم الكتاب العرب الذين استطاعوا ان يخرجوا للناس كتابا فى الادب يتجاوز الحديث عن الذات بصورة مباشرة ، ويخرج عن ذلك بالحديث عن العصر والاحداث ، وعن الآخرين ممن تركوا اثرا فى نفس الكاتب واعطوا صورة للعصر . من السهل علينا نحن العرب ان نتحدث عن الآخرين ، وقد نتحدث عن أمور لا يحسن التحدث عنها ، ولكننا ندرجها فى باب السيرة ، واخبار الامم والملوك ، زاعمين ان فى ذلك صورة العصر ووصف الزمان وأهله .

وقد يشمخ فوق ذلك كله كاتب معاصر دون سواه هو الدكتور طه حسين . ففي كتاب (الايام) نجد سيرة ذاتية عن حياة الكاتب نفسه ، ولكن الحديث دائما عن « الفتى الضرير » تجنبا للحديث عن الذات ، وجريا على عادة الحديث عن « الغير » حتى ولو كان هذا « الغير » هو « الأنا » .

أما فى كتابة سيرة الآخرين ، فلا اكاد اجد كاتبا عربيا ، فى القديم والحديث من ادبنا ، يكتب كتابا فى السيرة الا عن ملك أو امير او سلطان أوطاغية أو كاتب مشهور جدا او مكروه جدا . وهو فى كل ذلك ، يبالغ فى المدح والقدح ، ويستعمل الصفات بأفعل التفضيل ، صيغة وبناء . وان هو اصطنع الموضوعية تجده يغوص فى تفصيلات الحسب والنسب والتاريخ .. والجغرافيا ان شئت ، وتكون الحصيلة صورة للعصر مهزوزة فى احسن الاحوال . من يستطيع ان يقبل على انه صحيح وواقع كل الذى نقرأ عن هارون الرشيد مثلا ، وعن قصور البرامكة ، وعن مباذل الخلفاء فى الشرق والغرب ؟ كيف تسنى لخلفاء المسلمين ان يفتحوا البلاد وينشروا الدين ويقيموا حفلات وأعراسا متواصلة بين الحرب والحرب ؟ بل ماهي نسبة ما حدث فعلا مما نقرأ عن تاريخ العرب فى الاندلس من المهرجانات ورخاء العيش الى جانب كل الحروب وكل الحملات منهم وعليهم ؟ كم من هذا حدث على الطبيعة وكم منه من نسج خيال الشعراء والكتاب ؟ ولكن التراث مقدس ويجب الا يصاب بمكروه ، حتى ولو كانت هذه الاصابة من باب الغربلة والتصفية ، وليذهب الزبد جفاء ويمكث فى الارض ما ينفع الناس .

ولم تكن الحال افضل من ذلك بكثير فى الآداب الاوروبية حتى بواكير القرن التاسع عشر . وقد نستثني فى الادب الانجليزى مثلا (سيرة دكتور جونسن) التي كتبها فى اواخر القرن الثامن عشر صديقه ومرافقه (بوزويل) . فهذا كتاب ضخم يعده الباحثون مرجعا جوهريا عن الشاعر الناقد الاكبر فى ادب القرن الثامن عشر الانجليزى ، قد لا يفوقه سوى (سيرة الشعراء) الضخمة التي كتبها جونسن نفسه عن عدد من شعراء لغته ، ما كان لنا ان نعرف عنهم الكثير لولا ما فعل « دكتاتور » الادب الانجليزى فى القرن الثامن عشر .

وقد ازدهرت كتابة السير واخبار المغامرات فى الادب الانجليزى ، والفرنسى ، فى القرن التاسع عشر بخاصة ، ذلك القرن الذى كان يقدس حياة البيت ، ويحترم الثقافة وسعة الاطلاع ، فيحتال على ليالي الشتاء الطويلة بجلسات طويلة الى جانب المواقد فى صحبة « كتاب » هو فى الغالب « رواية » باجزاء ثلاثة . وهكذا ازدهر أدب (تشارلز ديكنز) ومن تبعه من كتاب الرواية . وفى عصر كانت فيه القراءة فضيلة وبخاصة فى العهد الفكتورى (١٨٣٧ — ١٩٠١) تجد الكثير من الصور الشخصية لسيدات ذلك العصر تؤكد على وجود « الكتاب » فى يد السيدة الانيقة ، الى جانب المروحة . وكان من عادات العصر الفكتورى ان يجمع الاب ، أو الام ، اولاد الاسرة حول مواقد الشتاء ، ليستمعوا الى « قراءة » من كتاب فيه المتعة والفائدة . كل ذلك طبعا كان ممكنا قبل ان يدخل البيوت الراديو او التلفزيون .

فى هذه الكتب الثلاثة التي اقدمها للقارىء العربي ثمة خيط يجمعها معا ، وهو انها كتب سيرة ، ومغامرة ، ورحلات ، فيها جميعا متعة من نوع أو آخر . وهي ثلاثتها كتب تصور الشخص ، والعصر ، والزمان ، والمكان ، من خلال تصوير اشخاص آخرين يجمعهم جامع مع

موضوع الكتاب او مع كاتبه . فى بعض هـذه الكتب اشارات أو تفسيرات قد تكون مفاجئة للقارىء الذى لديه سابق معرفة بموضوع الكتاب من مصادر اخرى . وفى بعضها تصحيح لافكار سابقة عن الكاتب او العصر . ولان هذه الكتب الثلاثة قد نشرت عام ١٩٧٧ (واحد منها نشر اول مرة عام ١٩٤٣ ، ولكن اعادة النشر تتضمن قبول الناشر بصحة ما جاء فيه وبقاء المتعة او الاهمية على ما كانت عليها عند اول نشر) فانها تشكل اهمية فى نظرى ، لانها الى جانب حداثتهـا وطراوتها ، تحمل القارىء على اعادة النظر فى بعض آرائه عن العصر او الكاتب بما تنقل من صور حية ، ممتعة ، مثيرة فى كثير من الاحيان .

الكتاب الاول (كونن دويل : حياته وفنه) يتحدث عن كاتب انجليزى (١٨٥٩ ـ ١٩٣٠) يعرفه قراء العربية ، وكثير من قراء الانجليزية ، على انه مؤلف مغامرات شرلوك هومـز) دون سواها . وهذا يمكن تبريره الى حد كبير ، فهذه المغامرات قد شغلت قراء الانجليزية على جانبي الاطلسي قرابة نصف قرن من الزمان ، واحسب انها ما تزال تثير تعجب الكبار والصغار على حد سواء . ولكن ثمة ما يثير ويعجب فى حياة سرآرثر كونن دويل الى جانب مغامرات شرلوك هومز ورفيقه دكتور واتسن . لقد قيـل فى المجـالات النقدية ان شخصيات دويل تأتي فى الشهرة بعد شخصيات شكسبير مباشرة ، وان مغامرات هومز مع الدكتور واتسن تذكر القـارىء بمغامـرات (دون كيخوته) وتابعه (سانتشو بانزا) علـى اختلاف طبيعة المغامرات فى الحالين ، ولكن ثمة فى حياة دويل وسيرته من المتعة ما يفوق ما نجده فى حيـاة سرفانتس عبقـرى اسبانيا ومعاصـر شكسبير .

والكتاب الثاني (رديارد كبلنج وسيرتـه العجيبة : حياته وآثاره) يتحدث عن حياة اديب انجليزى آخر (١٨٦٥ ـ ١٩٣٦) يعرفه قراء العربية على انه « شاعر الامبراطورية » البريطانية وداعية الاستعمار . ولكن مؤلف الكتاب يقدم لنا فى ضوء آخر هذا الادب المخضرم ، الذى عاش نصف سنواته السبعين فى القرن التاسع عشر والعصر الفكتورى ، وعاش النصف الثانـي فى القرن العشرين الذى ابتدأ بحرب البوير فى جنوب افريقيا (اللفظ « بور » بضم الباء ومد الواو الساكنة ، وهي كلمة هولندية تعنى « فلاح ») اذ تمرد الفلاحون الهولنديون الذين استوطنوا جنوب افريقيا على سلطة الامبراطورية البريطانية فى ١٨٩٩ وكانت الحرب التي ما زالت تستعر فى جنوب افريقيا بعد ان تطـورت واستشـرت فى شعاب شتى . يرى الكاتب هـذه المشاعـر « الامبراطورية » لدى كبلنج على انها مغالاة فى « الوطنيـة » وانها تـرفض « الاستعمار » و « الامبريالية » بالمعنى المعاصر . ويظهر الكاتب هذا الاديب على انه كان ينتقد بشـدة موقف السياسة البريطانية من الهند والمستعمرات ، كما انه كان يخاصم السياسة الاميركية فى بواكير القرن العشرين ، اضافة الى انه كان يحذر بلاده والعالم ايضا من خطر ظهور القوة الالمانية على شـكل « قومية نازية » اعتدائية ، وبخاصة عندما وصل هتلر الى زعامة الحزب النازى عام ١٩٣٣ . توفى كبلنج عام ١٩٣٦ قبل ان يدرك الحرب الاوروبية الثانية عام ١٩٣٩ ، مما جعل الكثير من الانجليز يدرك ان فى نبوءات كبلنج ما كان يبررها ، فرفع ذلك من سمعته كاديب ، رغم ان آراءه السياسية لم تكن من النضج والوضوح بما يجعله فى عداد السياسيين ، فضلا عن ادباء السياسـة .

اما الكتاب الثالث (كان الاهالي كرماء . . . فاقمنا الليلة) فهو لصحفي بريطاني معاصر ولد عام ١٩٠٩ وما زال يكتب وهو فى السبعين . لا احسب أن (نويل باربر) مؤلف هذا الكتاب يحمل مشاعر حبية تجاه العرب ، ولكن يحسن بنا نحن العرب ان نقرأ للصديق الكريم (فقلت لها ان الكرام قليل) كمـا نقرأ للعـدو اللئيـم (قالت أيهم ؟ فهم كثر) . فى هذا الكتاب لا أجد سوى « نهشة » سريعة من الكاتب لعربي فى شمال افريقيا « طعنه من الخلف طبعا » يوم كان العشرات بل المئات من الفرنسيين يقتلون اثنـاء حـرب التحرير فى شمال افريقيا العربية ، كما يضيف الكاتب فى تبرير خجول . وما عدا ذلك ، فان الكتاب يطفح بمغامرات غريبة واقاصيص طريفة حدثت جميعها فى الاربعين السنة الاخيرة ، ومايزال ابطالها على قيد الحياة فى الغالب ، ومن غاب منهم عن الحياة فهو ما يزال ماثلا فى ذاكرة الجيل المعاصر من القراء . هذا رجل بدأ مغامراته قبل سن الخامسة ، يوم أخذه الالمان أسير حرب عام ١٩١٤ مع جميع ركاب السفينة الدانمــركية المتجهة الى بريطانيا . فى السادسة عشرة نشر اول مقالة وما زال يكتب عن مغامراته بين القطبين ، فى اميركا خلال الحرب الثانية ، فى جـزر البحـار الجنوبية الدافئة ، سنغافـورة والهند والشرف الاقصى ، فى مجاهل افريقيا ، فضـلا عـن البلاد الاوروبية وما خبر من الحياة فى باريس عند نهاية الحرب العالمية الثانية . هنا تقرأ كتابا أشبه بشريط سينمائي يمتد على مدى الكرة الارضية خلال اربعين عاما . وترى عشرات من المشاهير يتحركون أمامك وتسمعهم يتكلمون .. أناس مثل تشرشل ، مارلين ديتريش ، علي خان ، ريتا هيوارت ، الدالاى لاما ، الملك حسين ، دوق وندزور ، اناسيس ، بيكاسو ، مونتغمرى سنغمان رى ، ايان سمث ، وقائمة طويلة مـن رجال السياسة والحرب والفن . كل ذلـك باسلوب غاية فى الفكاهة ، واذا بدا عليه شيء من الجد عرفت أن مفاجأة تنتظر ، ولا تلبث ان تواجهك حكاية او حادثة او طرفة لـم تكـن تتوقعها فى الغالب .

فى الوقت الذى يكون فيه الكتابان الاولان من كتب سيرة الادباء بالدرجـة الاولـى فانهما لا يخلوان من القيمة الاكاديمية ، لانهما فى الاساس يناقشان « الرجل وآثاره الادبية » ، بمعنى أن الكتابين الاولين يتطلبان من القارىء احيانا يقظة ومعرفة اساسية باعمال المؤلف الى جانب ذلك نلمس خصائص اسلوب الكاتب ، وهو اديب معروف فى الحالين . لذلك نجد تأنقا فى الاسلوب لا تغيب عنه الرصانة والجدية . اما فى كتاب (نويل باربر) فاننا امام مراسل صحفى يمتاح البحور ويجوب البلاد ويكتب على عجل ، ولكن اسلوبه فى غاية الطرافة والطراوة ، اعلى منزلة من التقرير الصحفى ، ويكاد يضارع اسـلوب الاديب الذى نلمسه فى الكتابين الاولين .

ويجمع الكتب الثلاثة كذلك ولع خاص بالفن ، والرسم بخاصة . ففى حالة دويل نجـد والده وجده من الرسامين ، وكان والد كبلنج مدرس الرسم والفن الزخرفى فى مدرسة الفن بمدينة بومباى بالهند . أما نويل باربر ، فعلاوة على معرفته الواسعة برسامي المونمارتر والحـى اللاتيني بباريس فقد كان هو يرسم كذلك . وثمة ظاهرة اخرى تجمع الكتب الثلاثة وهي ان الكتاب الثلاثة بدأوا حياتهم فى العمل الصحفى ، وازدهرت كتاباتهم فى صحف بلادهم وصحف بلاد اخرى حيث نشرت أهم اعمالهم اللاحقة . واذا كان اعتلال الصحة قد اقعد نويل باربر عن التطواف فى ارجاء العالم فانه ما زال يكتب عن العالم الذى عرف .

١ ـ هيسكث بيرسن : كونن دويل ، حياته وفنه ،لندن ١٩٧٧

عندما نشر بيرسن هذا الكتاب عام ١٩٤٣كتب مقدمته الكاتب المعروف جراهام جريـن يعبر فيها عن اعجابه بالكتـاب وباسـلوب كاتبالسيرة . تقول المقدمة ان ابرز مـا فى اسـلوب الكتاب ان بيرسن يحمل القارىء على الوقوف فىصف المؤلف موضوع الكتاب على حساب كاتب السيرة نفسه ، وتلك صفة لا نجدهـا الا عنـدمشاهير كتاب السيرة ، وعلـى راسهم دكتور صاموئيل جونسن . وربما كان فى ذهن جـرين(سيرة الشعراء) الذى سبق ذكره فى هـذا العرض . وأرى أن جرين لا يحيد عن الحق فىهذا القول . فانت تجد كاتب السيرة لا يتنازل عن حقه فى ابداء رأى او نقد لا يكون « فى صالح »دويل نفسه ، ولكنه يفعل ذلك بأسلوب يجعلك تتحزب الى جانب دويل وتلتمس من كلام الكاتبما يساند رايك . وفى هذا ما يزيد متعة القراءة ويجعلك اقرب الى شخصية المؤلف واعماله ،ويحدو بك ان تقرأ أو تعيد قراءة ما سبق لـك ان خبرته من مؤلفات دويل . ولعمرى ذلكأحسن نجاح يحققه كاتب سيرة : ان يحملك على الاهتمام بموضوع سيرته .

لقد زاد ما كتبه بيرسن اليوم على عشـرةكتب فى ادب السيرة ، منها كتاب عن سـيرة شكسبير وآخر عن برنارد شو وثالث عن أوسكاروايلد . ولعل افضل صفة فى هذا الكتاب ان اسلوبه يجرى « طبيعيا » دون حماس او تشنج . فهو يسوق الاحداث والتواريخ فى هدوء العارف المحيط بما يكتب عنه . وعلـى صفحة العنوانتقرأ عبارة بسيطة قالها كونن دويل بعد ان بلغمن الشهرة مبلغا أوصله لقب « سير » . يقول دويل« انا الرجل الذى فى الشارع » بمعنى انه ابعد ما يكون عن اوصاف افعل التفضيل التي تقاسيمنها اغلب الكتابات العربية بشكل أو بآخر .. فنحن قوم اذا رأينا عشقنا ... بالطيف . واذاكرهنا ... بالطيف ، ايضا .

يقع هذا الكتاب فى ١٨٨ صفحة من القطعالمتوسط ، يتوزعها اثنا عشر فصلا ، تزينها اربع عشرة صورة للمؤلف فى مراحل شتى من حياته،وبينها صور لبعض الشخصيات الادبية ممن عرف

الفصل الاول هو فصل الحسب والنسبوسنوات الطفولة وايام الدراسة . ولكنك هنـا لا تجد الا ما يعينعلى تحديد المهاد والنشأةالاولى. فتجد ان هذا « الرجل الذى فى الشارع » لـم يكن يختلف عن الالوف من امثاله الا فى كونهيمتلك موهبة عرف كيف يسير بها فى درب هو غير الدرب الذى يختطه الاهل فى الغالب ، اوالمدرسة ، او مطالب المجتمع مما تعارف الناس عليه . كان يمكن ان « ينخرط » دويل فى سلكالكنيسـة بحكم نشأته الفقيرة التي تحملـه علـى دراسة لا تكلف الاسرة مالا . وكان يمكن ان يصبحدويل طبيبا مثل الالوف الذين تخرجوا فى جامعة ادنبرة العريقة فى دراسة الطب . ولكن الموهبةالادبية والقدرة على الكتابة و « نسج الاقاصيص» جعلت من ذلك الفتى اعظم كاتب مغامـرات(واعتذر عـن افعل التفضيل هذه) عـرفته الانجليزية .

يرجع نسب ارثر كونن دويل الى اصولايرلندية ، مثل برنارد شو واوسكار وايلد . فقد نزح جده لأبيه من دبلن الى لندن عام ١٨١٥ ،واشتغل بالرسوم الساخرة (الكاريكاتير) وخلف اربعة اولاد عمل جميعهم فى الرسم . كاناصغرهم،والد آرثر ، موظفا حكوميا يعالج الرسم ولا يربح

اكثر من ٥٠ باون فى العام ، اضافة الى دخله من الوظيفة الذى لم يزد على ٢٤٠ سنويا . ولد آثر فى ادنبره باسكتلندا عام ١٨٥٩ ، وهو العام الذى نشر فيه بالانجليزية كتابين تركا ابلغ الاثر فى ثقافة العصر وتفكير الجيل وهما كتاب دارون :(اصل الانواع) وترجمة فتزجيرالد (رباعيات عمر الخيام) . وسنرى ان الكتاب الاول حمل الكثير من الناشئة والشباب في انجلترا على الابتعاد عن الدين وما تعلم الكنيسة والكتب المقدسة ،دون الوقوع فى الالحاد غالبا ، بل باتخاذ ما دعي بالمذهب « العلمانى » اى اعتناق العلم مذهبا يخاطب العقل ، وعدم التنكر للدين الذى يخاطب الروح ، وكان دويل الى جانب جذوره الايرلندية ونشأته الاسكتلندية انجليزيا بالاختيار . يقول الكاتب ان دويل قد جمع بذلك ما فى الطبع الايرلندى من فروسية وشهامة وحماس ، وما فى الطبع الاسكتلندى من عزة واحتمال ، وما فى الطبع الانجليزى من عناد وروح فكاهة .. فى السابعة من عمره ذهب الفتى الى المدرسة ، وكان عنيدا مقاتلا مما جعله يحتمل عقوبات المعلمين الذين كانوا « يضربون بالمطاط الهندى تسع ضربات على كل كف حتى لا يطيق الفتى ان يفتح الباب لدى خروجه بعد اخذ العقوبة » . وفى المدرسة اظهر ميلا شديدا الى قراءة كتب الادب ، مما جعل لجنة المكتبة تتخذ قرارا « بعدم تجديد اعارة اكثر من ثلاثة كتب فى اليوم الواحد » وفى تلك السن المبكرة اظهر الفتى ميلا شديدا آخر نحو الشعر ، فحفظ قصيدة طويلة من نظم (ماكولي) بقى قادرا على « تلاوتها غيبا وهو فى الخمسين من العمر » .. وفى التاسعة دخل المدرسة الاعدادية فكره الاغريقية ونفر من اللاتينية والتربية اليسوعية والحياة الصعبة فى اسلوب الطعام ، وحتى فى اثناء اللعب . ولكنه يذكر باعتزاز انه فى الرابعة من عمره جلس الى الكاتب الكبير (ثاكرى) مؤلف رواية (معرض الخيلاء) وان الكاتب الشهير (جورج ميريدث) كان من اصحابه . وفى السادسة عشرة انهى الفتى آثر دراسة الثانوية بتفوق وقضى سنته الاخيرة فى النمسا برعاية الآباء اليسوعيين . ورغم انه لم يفد كثيرا من تلك السنة لكنه استطاع زيارة عمه فى باريس فى طريق العودة الى انجلترا ، وكان يسير على مقربة من قوس النصر وليس فى جيبه غير قرشين . وعندما غادر المدرسة الثانوية ودعه مدرسه المشرف بقوله : « دويل ، انك لن تصلح لشىء » ! .

الفصل الثاني بعنوان : « اعمال متفرقة » يتحدث عن دخول الفتى آرثر كلية الطب بجامعة ادنبرة عام ١٨٧٦ بتشجيع من الوالدة المدبرة ،التى رفضت لابن الاسرة الفقيرة ان يعمل اعمالا دون قابلياته الفكرية ، فى سبيل كسب العيش لاسرة تتكاثر عددا برعاية اب « هائم بين غيوم الفن » لا يكسب اكثر من مرتبه من الوظيفة بكثير . وكان ان دخل آرثر كلية الطب . ولكن دراسة « النبات والكيمياء والتشريح والفسلجة » لم تمنعه عن التهام اعمال ثاكرى ، ميريدث ، واشنتن ارفنج ، آديسون سويفت وغيرهم من المشاهير . كان كل كتاب يشتريه يعنى التضحية بثمن وجبة غداء . لقد شغله (ماكولي) الذى « يعرف كل شىء » كما شغله ادجار آلن بو الذى « يعالج كل شىء » . وكان من بين اساتذة الطب فى ادنبره اثنان ممن ظهروا فى قصص دويل ومغامراته : الاول « دكتور بل » الذى ظهر فى شخصية (شرلوك هومز) نفسه ، والثاني « البروفسور رذر فورد » الذى ظهر فى شخصية (تشالنجر) وكان ثمة غيرهم ممن ظهروا فى شخصيات المغامرات امثال « موريارتى » و « ماراكوت » . فى الجامعة تطور تفكير دويل باتجاه اليقين الجديد الذى اشاعه كتاب دارون ، فوجد فى العلمانية مهربا من تزمت اليسوعيين

الذين ارعبه قول احدهم بأن « من كان خارج كنيسة روما فنصيبه اللعنة الابدية » . وبعد سنتين من الدراسة الجامعية فكر دويل بالالتحاق بالجيش ، وكانت الحرب الروسية التركية عام ١٨٧٨ فرصة لذلك . ولكن تطوعه فى الخدمة الطبية فى تلك الحرب لم يدم طويلا ، فعاد الى لندن يواجه الفقر . وما لبث ان حصل على وظيفة لمدة اربعة اشهر بدلا عن طبيب ريفي ، حصل لقاء ذلك على ٢ باون فى الشهر فأحس بانفراج كبير . وفى ضواحي مدينة برمنجهام ، اثناء العمل بديلا عن الطبيب ، بدأ يكتب اولى قصصه ، وقد شجعه صديق آنس فيه براعة فى كتابة الرسائل . ولما عرض قصته الاولى على مجلة معاصرة ادهشه ان يتلقى مكافأة قدرها ثلاثة جنيهات ، اى اكثر من مرة ونصف مرتبه الشهرى كبديل طبيب . ولكن هذا التحسن الطفيف فى الوضع المادى قابله سوء فى صحة والده ، واضطراره الى التخلى عن العمل ، ولم ينقذ الموقف ما كانت تساهم فيه شقيقاته الثلاث من مرتباتهن . وفى اوائل ١٨٨٠ عرض عليه ان يكون طبيب سفينة صيد لقاء ٢١٠ باون شهريا اضافة الى ٣ شلنات عن كل طن من زيت الحيتان التي تصطادها السفينة . كانت الحياة قاسية فى البحار الشمالية ولكن دويل عاد وفى جيوبه « خمسون قطعة ذهب ادخلت السعادة الى قلب امه وهى تفتش عنها فى ملابس الطبيب العائد من سفينة صيد الحوت » . وفى سنته الاخيرة فى الجامعة تعرف دويل على « جورج بَدْ » الشاب العجيب الذهن الخصب الخيال ، الذى لا ينفك يأتى بالاختراع تلو الاختراع ، يدافع عنها فى لغة سيالة عجيبة ، الهبت خيال دويل وتركت اثارها فى مغامراته . وفى ١٨٨١ تخرج دويل طبيبا وحصل على وظيفة فى سفينة اخرى تتجه نحو الاقاليم الدافئة فى غرب افريقيا هذه المرة بدل الطب الشمالي . كان مرتبه كطبيب متخرج ١٢ باونا هذه المرة . ويبدو من المقارنات الحسابية ودراسة نفقات المعيشة التي يذكرها هذا الكتاب ان الاجور والاسعار هذه الايام تعادل عشرين ضعفا عما كانت عليه قبل قرن من الزمان عندما بدأ دويل يكسب اولى نقوده ، وبذلك تكون الاثنا عشر باونا تعادل ٢٤٠ باونا هذه الايام ، وهو مبلغ غير قليل بالنسبة لفتى كان يصارع الفقر حتى تخرج طبيبا برغم الصعاب . ولكن رحلة القطب ورحلة غرب افريقيا لم تترك عليه اثرا مفيدا فى تطوره الادبى والذهنى . انه يذكر ان « مقالات مكولي » كانت ترافقه فى الرحلتين ، ويذكر باعتزاز ان فرنسيا كان يصارع الحمى فى رحلة غرب افريقيا اعطاه كتابا فرنسيا بعنوان « الجو » . كان هذان الكتابان امتع ما يذكره دويل عن الرحلتين ، هذا الى جانب « المغامرة » بمعناها العام مما رافقه فى الحالين .

الفصل الثالث يدور حول صديقه « دكتور بد » . كان والد « بد » طبيبا عريقا فى مدينة برستول ، واليها جاء ليفتح عيادة بعد تخرجه . ويبدو ان هذا الصديق المغامر لم يفلح فى اجتذاب المرضى . « لا احد يثق بك فى مدينة يعرفك الجميع فيها يوم كنت طفلا تسرق الفاكهة من اشجار الجيران » وكانت النتيجة ان « بد » اصبح على حافة الافلاس وصار يحلم بمخترعات تعود عليه بثروات طائلة . وكان ان تسلم دويل برقية من صديقه بد يدعوه فيها للحضور فورا الى برستول ، وفى محطة القطار وجد دويل صديقه العاصف فى انتظاره ، وبدأ من رصيف المحطة يشرح له تفصيلات اختراع جديد من دروع الحديد التي يحملها الجندى فلا ينفذ منها الرصاص ، ويبيع ذلك الاختراع الى الحكومة ليربح منه الملايين . كان بد يتدفق بالتفصيلات ، ودويل يصغى اليه ويكتنز فى ذهنه افكارا سوف تظهر فى خلق شخصيات مغامراته فى قصص

المستقبل . وفى الختام لم يقتنع دويل بتصرفات صديقه وقفل راجعا الى برمنجهام حيث كـان يعمل مع طبيب . وما لبث أن تسلم برقية ثانية من بد ، وقد انتقل الى بليموث وفتح عيادة صار يكسب منها الكثير بانواع الحيل والالاعيب فى مدينة لا يعرفه فيها احد . استطاع بد أن يقنع دويل بترك برمنجهام والالتحاق به فى بليموث ليساعده فى عيادته التي كان يكسب منها اكثر من ٣٠ باون يوميا (٦٠٠ باون هذه الايام ؟) .واقتنع دويل ولحق بصاحبه . ولكن وجد بد انه قد اعلن عن الكشف مجانا ، ولكن على المريض ان يشترى منه الدواء الذى كانت زوجته تعده بلا انقطاع . لم يكسب دويل اكثر من باونات قليلة لفترة طويلة ، ولكنه انقطع الى الكتابة . كان بد يسيء معاملة المرضى ويتعالى عليهم ، « لان احترام المريض لا يدفعه الى احترام الطبيب » كان بد يريد « ان تنتشر الامراض وتعم الاوبئة ليزداد ربح الطبيب » . مرة كان بد يسير على شاطيء البحر فوجد فتـى يصطـاد السـمك فرفسه فى قفاه فسقط الفتى فى البحر . وما كان من بد الا ان قفز وراءه وانتشله من الماء ، وخلق بذلك مشهدا مسرحيا أمام جمهور ليستطلع ما حدث ، فكسب الدكتور بد شهرة المنقذ الانسانى فى تلك المدينة التي جاء « ليكنس ما فيها من نقود » .

ولكن دويل لم يستطع الانسجام مع هذه الاحابيل ، فما لبث ان انفصل عن صاحبه ، مسجلا فشله كطبيب محتال ، ولكنه بدأ يشق طريقه فى كتابة القصص وعالم التاليف ، فترك بليموث وفيها صاحبه الدكتور بد .

يتحدث الفصل الرابع عن « دكتور دويل » الذى جاء ليفتح عيادة فى « ساوتسي » من اعمال مدينة بورتسموث ، وكان ذلك فى تموز/يوليو ١٨٨٢ . كانت البداية فى غاية الصعوبة ، بين البحث عن منزل يقيم فيه عيادته ، ولم يكن فى يده من النقود ما يجعل البداية سهلة . ولكنه افلح فى ذلك بتقتير شديد على نفسه . كان ينام على سرير حديد وهو يرتدى معطفه وتحت رأسه كتاب « مبادىء الطب » . كان اول زواره كاهن المدينة ، يريد ان يكسبه للكنيسـة ، فانقلب مذعورا من طبيب يعتقد ان « المسيح بشر فان مثلنا » . وكان ثاني زواره موظف من شركة الغاز يطالب بمبلغ لم يدفعه المستاجر السابق . ولم تكن ذكرى عمله مع صديقه بد مما يدخل السرور على نفسه فى تلك الوحدة والفقر . فقد اكتشف دويل ان بد وزوجته كانا يفتشان ملابس دويل ويقرآن رسائل والدته ، التي لم تكن راضية عن تلك الشراكة بين ابنها وبد المحتال . وفى اواخر الثمانينات توفى بد ولم يترك لزوجته من المال مايقيم الاود ، فانطبق عليه المثل العراقى السائر « الذى يعيش بالحيلة يموت بالفقر » . كان على دويل ان يواجه الحياة وليس فى جيبه اكثر من باون واحد . فسارع بالكتابة الى محرر مجلة « مجتمع لندن » حيث سبق ان نشـرت بعض قصصه غفلا من الاسم ، وعرض قصة جديدة ، راجيا المحرر ان يرسل له دفعة على الحساب . ولما وصلت « العشرة باون » ارتفعت معنويات الطبيب المؤلف ، لان المبلغ ضمن ايجار العيادة للاشهر الثلاثة القادمة . ولما اشتهر اسم دويل سارع محرر المجلة الى نشر قصصه تحت اسم المحرر نفسه ، فافسد بذلك « معروفه » السابق بارسال الباونات العشرة . مرة كل يومين او ثلاثة كان الدكتور دويل يستقبل مريضا لا يستطيع دفع اكثر من شلن ونصف . وبعد اسابيع وصل اخوه الاصغر ليقيم معه فى بورتسموت ، فكان خير عون للطبيب فى تنظيف الدار ، رغم انه كان

يقتسم كسرة الخبز اليابس مع اخيه الطبيب .مرات عديدة اضطر دويل ان يرهن ساعته لقاء بعض المال يعبر به ازمة من الازمات الكثيرة . كل‌هذا لم يجعله يحاول بعض احاييل دكتور بد ، فقد كانت اخلاق دويل من معدن اخـر . ولمـاوصلته رسالة توصية من عمه مدير متحف دبلن الى مطران المدينــة الكاثوليكــي رفض دويــل‌استخدام تلك الرسالة لتحسين مدخوله فى العمل فمزق الرسالة ولم يذكرها لأحد . ومرة رمى‌القدر فى طريقه‌صاحب دكان اغذية‌مصابا بالصرع، استطاع‌دويل ان يخفف‌من نوبته ، وكانت النتيجةان دويل حصل على مصدر من الزبدة والخضار واللحم كلما اصيب الرجل بنوبة . وعندما يتعافى‌يعود دويل الى الخبز اليابس . ولكن العمل ما لبث ان تحسن قليلا ، فصار دويل يخرج الـى‌نوادى المدينة ويساهم فى النشاطات الرياضية مما اكسبه الكثير من المصارف . ولكن دخله مـن‌العيادة لم يصل ارقاما كبيرة قط . فبين ١٨٨٢ ــ ١٨٩٠ لم يستطع ان يتدرج الى اكثر من ٣٠٠باون فى السنة . ولكن القدر هذه المرة ارسل اليه فتاة تزوج منها ، كان لها دخل سنوى بحدود١٠٠ باون . وفى عام ١٨٨٥ ، عاد اخـوه الـى يوركشا ير وحصل دويل على دكتوراه الطب ،وتزوج ليبدأ حياة على شيء من الراحة المادية .

« اثناء الانتظار » هو عنوان‌الفصل الخامس. كان على دكتور دويل ان ينتظر طويلا بين زيارة مريض وآخر ، وما كان له ان يضيــع وقتــه فى‌الانتظار سدى . كان مشغولا « يحوك الحكايات » ويكسب من نشرها اكثر مما يكسب من عيادةالطب . فبين ١٨٧٨ ــ ٨٣ نشر عددا من القصص الغريبة التي استهوت الصغار والاحداث علـى‌نطاق واسع . كانت الحكاية تعود عليه بثلاث او اربع جنيهات ، وفى عام ١٨٨٣ نشرت له مجلة« كورنهل » حكاية لقاء ٢٩ جنيها (اكثر من ثلاثين باونا ، وهو مبلغ محترم فى تلك الايام) . اثارت‌تلك الحكاية اهتماما بالدكتور دويل ، عندمـا ظهرت فى مجلة اسسـها الروائي الكبير (ثاكرى) . قالت صحيفة مسائية تصدر فى لندن ان الحكاية « تجعل ثاكرى‌يتقلب فى قبره » . ولكن آراء نقدية‌اخرى‌قالت ان اسلوب دويل يذكر القراء باسلوب روبرت لويس‌ستيفنسون . ولكن القصص‌اللاحقةلم تنل نفس الاهتمام ، فكان محرر « كورنهل » يرفض خمس قصص من كل ست . ولكن دويل‌لم يفقد حماسه فاندفع فى كتابة « رواية جون سمث » التي ضاعت فى البريد بين ناشر وآخر .ولم يؤثر ذلك فى دويل ، لانه بعد فترة من الزمن الحقها برواية اخرى بعنوان« شركةجردلستون».كانت الرواية الاولى سيرة ذاتية ، وكانت الثانية ملأى باوصاف محيطه وجامعته والناس الذين‌عرفهم . ومرة اخرى لم يفلح دويل فى اقناع احد الناشرين بهذه الرواية ، ولم يفقد الامل ، فراح‌يقرأ كثيرا من قصص‌المغامرات‌ويدرس شخصيات الامريكي ادجار آلن بـو ، مطـورا بعض تلـك‌الشخصيات‌لتناسب الدكتور بل‌فى جامعة ادنبرة، فكان اول ظهور لشخصية (شرلوك هومز) فى‌روايته التي انجزها عام ١٨٨٦ بعنوان « دراسة بالاحمر » . ولم تفلح هذه الرواية على الفور ،اذ لم يدفع بها اى‌ناشر اكثر من ٢٥ باون فصدرت فى السنة اللاحقة . وكان عليه ان يفيد من الانتظار‌فراح يقرأ فى شغف تاريخ الحركة البيوريتانية (فرقة المتطهرين من القرن السابع عشر) اضافةالى (مقالات ماكولي) فاستغرقه ذلك سنة مـن

القراءة وخمسة اشهر حتى كتب رواية (ميخاكلارك) فانجزها فى اوائل عام ١٨٨٨ . فى هذا الوقت بدات قصة شرلوك هومز تشتهر ، ولكن ذلك لم يساعد فى ضمان ناشر لروايته الجديدة ، لأن « اغلب شخصياتها تعود الى القرن التاسع عشر دون القرن السابع عشر » . وفى هذا الوقت ارتفع دخل دويل من الكتابة الى ٥٠ باون سنويا، وبدأ الحظ يبتسم له ، اذ افلح ناشر امريكي فى تهريب نسخة من (دراسة بالاحمر) ونشرها فى امريكا فحازت رواجا كبيرا ، فجاء ناشر امريكي اخر الى لندن يبحث عن مؤلفين بريطانيين ، وكان أن دعي دويل الى عشاء مع عــدد مــن الادبــاء الايرلنديين بينهم اوسكار وايلد . كان وايلد قدقرأ (ميخا كلارك) وتحمس لها ، مما شجع دويل وكانت حصيلة ذلك العشاء الأدبى ان اتفق وايلد مع الناشر الامريكي على كتابة (صورة دوريان جراى) كما اتفق دويل على كتابة (علامة الاربعة) حيث ظهر فيها شرلوك هومز للمرة الثانية . وبعد ان ظهر اهتمام النقاد برواية (ميخا كلارك) وتحمس دويل وقضى سنتين فى كتابة روايــة تاريخية جديدة بعنوان (الفرقة البيضاء) قرالها اكثر من مئة مجلد بالانجليزية والفرنسية عن تاريخ الملــك ادوارد الثالث « اعظــم الحقب فى التاريخ الانجليزى ... لان تلك الفترة شهدت ملوك فرنسا واسكتلندا فى سجون لندن » . كان دويل شديد الاعجاب بالمعرفة الموسوعية لــدى ماكولي ، فراح يقلد اسلوبه فى كثرة التفصيلات وغزارة المعلومات فى رواية (الفرقة البيضاء) . وربما كان ذلك اكبر ما يؤخذ على الرواية كما يؤخذ على روايته الاخرى (سرنايجل) . هنا يحار المرء وهو يقرأ ان كان الكتاب تاريخا امرواية تاريخية . والفرق ان على الروائي ان يمزج الحقائق بشيء من الخيال كي يخلق روح العصر فيلمس القارىء مظاهر الحياة فيه ، وذلك ما لم يفلح دويل فى بلوغه فى رواياته التاريخية . ولكن دويل كان شديد الاعتــــزاز برواياتـــه التاريخية ، ولم يكن ينظــر نفس النظرة الــى القصص والمغامرات التي « يحوكها » فى سهولة ويسر . ولكن الواقع اثبت ان تلك القصص هي التي خلدت ، رغم ان الفنان لم ينفق عليها مــن الجهد ما انفقه على رواياته التاريخية . واذ كان يحسب تلك القصص دون براعته الفنية ، فقد كان جلبرت وسليفان من نفس الـــرأى حول الاوبرات التى خلدت اسميهما وطبعت العصر بطابعهما . فى قصصه ومغامراته كان دويل يعبر عن ضمير العصر ويعكس رغبة القارىء العادى . فقد كان من « اوساط الناس » وهو الذى يقول عن نفسه انا « الرجل الذى فى الشارع » . لقد كان العصر يتفجر بحثا عن المغامرة وعن كل ما يبعده عن القوالب الفكتورية فى « السلوك المحترم » فكان دويل يكتب لمثل هذا الجمهور بين ١٨٨٥ ــ ٩٠ . ومثل غالبية الناس فى فترة « نهاية العصر » ممن لم يكتمل تطورهم الروحي ، كان دويل شديد الولع بالروحانيات والتنويم المغناطيسي وما يقع خارج حدود الخبرة المالوفــة ، فاستهوتـــه البوذية زمنا وكتب عن ذلك بعض القصص التى ظهرت فى اواسط التسعينات . وكان دويل طيلة حياته مولعا بالمغامرة ، فبلغه فى عام ١٨٩٠ ان (الدكتور كوخ) فى برلين اعلن عن طريقة لمعالجة مـــرض السل ، فقرر ان يزور برلين ويقابل الرجل ، وهكذا فعل ، ولكنه لم يفلح فى المقابلة . وفى الطريق تعرف على طبيب ناجح فى لندن اقترح عليه دراسة طب العيون فى النمسا لمدة ستة اشهر ليعود ويفتح عيادة فى لندن بدل الاقامة فى الاقاليم .

واستهوته الفكرة ، فشد الرحال الى ڤينا فى اول العام ١٨٩١ ولكنه برم بالدراسة فى اول ثلاثة اشهر فعاد الى لندن ، وفتح عيادة لطب العيون ، واثناء الانتظار ، كان يشغل وقته بكتابة القصص.

الفصل السادس يدور عن ((شرلوك هومز)). هذه المغامرات اشغلت قراء الانجليزية فى اواخر القرن الماضى اكثر مما اشغلتهم قصص ديكنز فى اوائل القـــرن . كان الكاتب الشـــهير ج.ك تشيسترتن يرى لو ان ديكنز قيض له كتابه مغامرات هومز لجعل كل شخصية فى شفافية هومز نفسه . ولكن كاتب هذه السيرة يرى ان ذلك كان سيفسد القصص جميعا ، لان دويل كان يقدم شخصيات بارعة اخرى ولكنها تزيد من تألــق شخصية هومــز الاساسية . وفى الوقت الحاضر نجد تسعين بالمئة من القراء يعرفون ثلاث شخصيات ادبية شهيرة الى جانب هومز ، اثنتان منها من صنع شكسبير وهما روميو ، رمز الحب ، وشايلوك رمز الجشع ، والشخصية الثالثة هي روبنسن كروزو رمز المغامرة . امـــا الشخصية الرابعة الشهيرة لدى القراء فهي شخصية هومز ، رمز الروح الرياضية المغامرة . ويضاف الى ذلك ان شخصية هومز وتصرفاته تصور حياة لندن فى اواخر القرن الماضي وبخاصة شارع بيكر . وقد تكون تفصيلات الحياة وشارع بيكر غير دقيقة تماما ولكن القارىء لا يلتفت الى ذلك تجاه المتعة التي يقدمها للخيال شخص هومز الذى يريد ان يتقمصه كل انسان ، تماما مثل شخصية هاملت ، او مثل دون كيخوته الذى يدافع عن المظلومين ويقف وحده تجاه قوى الظلام ، ومعه تابعه سانتشو بانزا ، كما يفعل هومز ومعه تابعه دكتور واتسن . وليس غريبا ان يكون دويل قد افاد من قراءاته الواسعة سواء فى ادب فولتير او ڤي قصص بو ، او فى بناء شخصياته على نماذج عرفها فى الحياة العامة . ولكن طابع شخصيات المغامرات يبقى متفوقا على ذلك جميعا ، ويختلف عنها قدر ما تختلف شخصية دكتور واتسن عن شخصية دويل نفسه . فى عيادة طب العيون فى حي معروف بلندن كان ثمة « غرفة فحص وغرفة انتظار » ، يخبرنا دويل : « فى غرفة الفحص كنت انتظر ، وفى غرفة الانتظار لم يكن ثمة من ينتظر». ولكن الوقت كان يستخدم فى كتابة القصص ، وراح دخله يتزايد حتى بلغ ٤٥ باونا للقصـــة الواحدة فى عام ١٨٩١ ، ولم تكن تستغرق كتابة الواحدة اكثر من اسبوع واحد . وفى نهاية عـــام ١٨٩٣ وضع حدا لحياة ذلك المخبر البوليسى ، بعد أن أحس انه قد كتب عنه ما فيه الكفاية ، ولم يفكر باعادته الى الحياة قبل مرور سنوات عديدة . وبالفعل ، فى ختام عام ١٩٠٣ بدأ دويل سلسلة جديدة من مغامرات هومز . واذ اصبح متحررا من عائلة الفقر صارت قصصه اكثـــر نضجا وادق هندسة ، كما يشير فى مذكراته وكما يعرف من قرأ تلك القصص . وكانت القصـــة الستون هي الاخيرة فى مغامرات شارلوك هومز ، وقد نشرت فى مجلة (ستراند) فى نيسان / ابريل ١٩٢٧ ختم بها دويل فترة طويلة من الزمن فى امتاع القارىء « بأخذه بعيدا عن متاعب الحياة ، الامر الذى لا يتم الا عن طريق الخيال » .

يتحدث الفصل السابع عن ((الاصــدقاء والشهرة)) . كان من يزور دكتور دويل فى منزله يدهش لمرأى رجل رياضى متواضع ودود سرعان ما ينسجم فى اية جماعة . ولم يكن يشبه قط

صورة الفنان فى اواخر القرن الماضي ، رجل عليه سيماء التخنث والخفر ، وهو ما سخر منه اوسكار وايلد . كان دويل بحق « الرجل الذى فى الشارع » كما قال عن نفسه ، و « الرجل الذى كتب كتبا جيدة ولكن لا يبدو عليه انه قدسمع بشيء اسمه كتاب » كما قال عنه انتوني هوب مؤلف رواية (سجين زندا) الذى اشتهرفى تسعينات القرن الماضي . عرف دويل عددا من مشاهير عصره من الكتاب امثال جيروم ك.جيروم ، روبرت لويس ستيفنسن الذى توفى قبل أن يكمل روايته الاخيرة (سانت ايفز) وطلب الورثة من دويل ان يكملها ولكنه « لم يجد فى نفسه الكفاءة » . وقد طلب الكاتب جرانت آلن فى وصيته ان يطلب من دويل اكمال اخر فصلين من روايته (هيلدا ويد) . وكان دويل يعتز بصداقة ميريدث ، اشهر كاتب فى اواخر القرن الماضي كما جمعته صداقة مع توماس هاردى . وفى اثناء ذلك كله كان دويل يكتب باستمرار حتى بلغ دخله من القصة الواحدة ١٥٠ باونا ، فجمع فى عام ١٨٩١ اكثر من ١٥٠٠ باون . وفى عام ١٨٩٤ طلب اليه القيام برحلة فى اميركا لتقديم قراءات من قصصه فذهب بصحبة زوجته واخيه وحقق نجاحا كبيرا ، وعاد الى لندن وقد حصل من جولته الف باون ، وقام بزيارات عديدة ابرزها زيارة رديارد كيلنج الذى كان يقيم فى فيرمونت . والجدير بالذكر ان دويل كان هو اول من ادخل لعبة الجولف الى اميركا ولم تكن معروفة هناك حتى ذلك الوقت .

فى الفصل الثامن نجد مؤلف هومز يقتبس من « مذكرات بارون ده ماربو » عن ايام نابليون ، ويصنع منها (مغامرات البريجادير جيرارد) وهي قصة تطفح بالخيال والمغامرات صنعها الكاتب على النقيض من رواياته التاريخية السابقة . كان نجاح هذه المغامرات الجديدة بعد الفراغ من مغامرات هومز ، وبعد عودته من رحلته الاميركية . وكان اهم سبب فى نجاح تلك القصص ان القارىء الانجليزى يتساهل فى قبول الفرنسى يقوم بدور البطل اذا كان ذلك البطل مبعثا للضحك ، وهو ما فعله دويل معتمدا على الاصل الفرنسي ، محاذرا ان يبدو على تلك القصص علائم البحث والتقصي والجهد التاريخي .

«رجل النشاط» هو موضوع الفصل التاسع : اضافة الى ادخال لعبة الجولف الى اميركا ، كان دكتور دويل اول من ادخل رياضة التزحلق على الجليد الى سويسرا . كان ذلك فى اوائل ١٨٩٥ ، وبشطحة من شطحات خياله الخصب استطاع تحويل استعمال الزلاقات فى القطب الشمالي وجرينلند الى زلاقات تربط بالقدمين وتستعمل للرياضة فى ثلوج سويسرا . ولكن احدا لم يعترف له بالفضل ماديا او معنويا . وبعد ان انجز مغامرات جيرارد عام ١٨٩٥ بدأ دويل فى كتابة (رودنى ستون) اول رواية تدور حول الملاكمة . لم يكن غير دويل من يمتلك الجراة على التحدث عن الملاكمة كفن ، فاستطاع اقناع مجلة (ستراند) بنشرها على حلقات استهوت القراء بما فيها من تفصيلات ومغامرات . وفى اواخر عام ١٨٩٥ سافر دويل الى مصر لتفيد زوجته العليلة من الشمس والمناخ الدافىء ، فاقاما فى فندق ميناهاوس قرب الاهرامات . كان اول ما سمع فى مصر ان مغامرات شرلوك هومز قد ترجمت الى العربية وفرضت كتابا مقررا فى مدارس الشرطة

بمصر . وفى اوائل عام ١٨٩٦ قام برحلة الى اعالى النيل حتى وادى حلفا ثم قام برحلة الى البحيرات المالحة فى عربة مزركشة كانت قد جهزت لاستقبال نابوليون الثالث الذى كان ينتظر لافتتاح قناة السويس . فى ١٨٩٧ كان دويل قد عاد الى انجلترا ليقيم فى دار شيدها فى (سرى) . فى ذلك الوقت كان دويل يميل الى الدعوة للسلام ونبذ الحروب فساهم فى دعوة قيصر روسيا لاقامة موتمر سلام فى لاهاي . وفى اوائل ١٨٩٩ حضر اجتماعا لهذا الغرض وحضر معه جاره برنارد شو، الذى بدا كأنه يساند الحرب اول الامر ولكنه اعلن عن مساندته مؤتمر السلام . ولكن دويل ما لبث ان نبذ الدعوة الى السلام عندما اصبحت بريطانيا تحت تهديد رجال (كروجر) فى جنوب افريقيا وتطوع للخدمة الطبية فى حرب البور ، وابحر الى جنوب افريقيا فى شباط / فبراير ١٩٠٠ ، ليشهد فظائع الحرب ، ويشهد خمسة الاف من الجنود يتسممون بعد ان شربوا من مياه الابار هناك . وبعد ان عاد الى انجلترا دفعه حماسه الوطني الى كتابة كراس يشرح فيه موقف بريطانيا امام الرأى العالمي وجند لذلك تبرعات ومترجمين الى عدد من اللغات الاوربية . وجاءت نتيجة انتشار ذلك الكراس باثر طيب على سمعة بريطانيا فى اوربا واميركا ، فكرمته الدولة بمنحه لقب فارس ، واصبح (سر آرثر كونن دويل)عام ١٩٠٢ .

غرق الباخرة « تايتانك » هو موضوع الفصل العاشر : شأن الكثير من الناس كان دويل يحس برغبة شديدة للقيام بعمل يفيد الاخرين ،ومثل اغلب الحالات يتضح انه كان من الافضل ترك مثل تلك المحاولات . كانت اولى محاولات دويل لكي يحسن من احوال ابناء جلدته هو ان يخوض غمار السياسة ، فرشح نفسه للبرلمان فى « الانتخابات الخاكية » عام ١٩٠٠ ولم يحالفه التوفيق . وحاول ثانية عام ١٩٠٥ وانتهى الى نفس النتيجة ، فوصل الى قناعة ان السياسة لا تأتيه منقادة اليه تجرر اذيالها فلا هي تصلح حتما له ولا هو يصلح حتما لها . واذا كان دويل لا يصلح للسياسة فيظهر انه كان يصلح للرياسة. فقد اسس وترأس « نادي الرماية » الذي اصبح مثلا فى الاقاليم التي صارت تقلده فظهرت اهمية فعاليات تلك النوادي عندما قامت الحرب العظمى . ودعا الى حفر نفق تحت القنال الانجليزي يربط انجلترا بفرنسا ، وظهرت اهمية خيالاته الهومرية عندما قامت الحرب العظمى كذلك . والجدير بالذكر ان مشروع نفق القنال الانجليزي كان يتصدر الاخبار البريطانية قبل بضعة اعوام (ولا ادري ما تم بشأنه اليوم) . ثم ترأس رابطة الكشافة فى منطقته كما ترأس « اتحاد اصلاح قانون الطلاق » . وشرع يدافع عن الكونغو فى كتاب حمل الحكومة البلجيكية على اصلاح سياستها فى تلك المستعمرة الافريقية. ثم تولى حملة للدفاع عن عاملات اوتيل متروبول فى مدينة برايتن بجنوب انجلترا واستعاد لهن حقوقهن . كثير هم الناس الذين يتجردون للدفاع عن قيم معنوية ويستشهدون فى سبيل عقيدة أو راي . ولكن دويل كان يدافع عن امور ملموسة واشخاص بعينهم . مرة تولى الدفاع عن محكوم بتهمة باطلة ووقف فى وجه البوليس والادعاء العام وكسب الدعوى . ومرة وقف يدافع عن كاهن فى كنيسة . وكانت اشهر حادثة دفاع تجرد لها دويل هي مأساة السفينة

« تايتانك » التي غرقت في أول رحلة لها مــن ساوثهامبتن في ١٩١٢/٤/١٠ وكان على ظهرها ٢٢٠١ من الركاب . فبعد اربعة ايام من الابحار اصطدمت السفينة بجبل من الثلج الطافي وغرق حوالي ثلثي الركاب . وتجردت الصحافة تنهال باللائمة على قبطان الباخرة ، وكان اشــهر المهاجمين برناردشو . ولكن دويل تجرد للدفاع عن القبطان قائلا انه كان يؤدي واجبه وينفـذ التعليمات على ادق وجه . وكانت مناقشة حامية على طرفي الاطلسي ، دخل فيها المنطق والقانون وكثير من العواطف والتفصيلات الفنية . وكانت مقارعة شهيرة بين دويل وبرناردشو كسب فيها منطق الاخير ولغته اللاذعة . ولكــن عواطف الجماهير برغم الفاجعة كانت مع دويل ، حتى قيل « ان ٩٩٪ من الناس يفضلون ان يكونوا على خطأ مع دويل على ان يكونوا على صواب مــع شو » .

« الرجل الذي في الشارع » هــو عنوان الفصل الحادي عشر . في هذا الفصل يستعرض كاتب السيرة الاسباب التي جعلت سر آرثــر كونن دويل محبوبا من جميع الناس الذين عرفوه أو قرأوا قصصه وروراياته . كان دويل ، كما سبق القول ، رمز الروح الرياضية المغامرة التي يتعشقها الفرد الانجليــزي العــادي . وكانت شخصيات قصصه تمثل هذه الروح بالدرجـة الاولى ، وهذا سر نجاح قصصه ، وهو كذلك سر نجاح اي كاتب يعطي القارىء ما يريده ويحلم به في الحياة . فقد كان دويل يرغب في تجربــة كل شيء في الحياة . ففي عصر البالون حاول دويل ان يهبط بالمظلة من البالون ، حبا بالمغامرة ، مثلما سبق له ان تسلق الاهرامات وتحدث عن مراقبة الآخرين وهم يعانون مخاطر الصعــود والانزلاق . ولكنه في مغامرة البالون اقتنع بالصعود الى ارتفاع ستة آلاف قدم فوق « القصر البلوري » في قلب لندن . كان يعارض الرماية من اجــل الصيد والقنص ، ولكنه لا يمانع في صيد السمك « لان السمك من ذوات الدم البارد ، ولا يحس بالالم الذي يحسه الارنب البري أو الغزال » . كانت قصص دويل تشبع رغبــة « الشخص العادي » في البحث عــن المغامــرة والغموض والدهشة . ولكنه احيانا كان يخلط بين الخيال والتصور . فالتصور يعتمد المثيرات كما يفعل « الكاري في طعام غير شهي » . ولكــن الخيال يعالج امور الحياة اليومية ولا ينزلق نحو التافه المبتذل ، وهو ما نجده في « خيال » شكسبير ولا نجده في « تصور » ديكنز . كان اعجابــه « بتصورات » بو قد جعل مــن بعض قصصه ما يفوق قصص بو في اثارة الرعب احيانا ، فيعطي القارىء « صدمة جسدية » بدل ان يعطيـــه « رعشة فكرية » وكان اعجابه بقصص الفرنسي موباسان في نفس الطبيعة ، ولكن ولع الفرنسي بالجنس يقابله ولع الانجليزي بالرياضة . ومن امثلة الطبيعة الانجليزية « في ادب دويل هــذا الولع الانجليزي بتقليل اهمية الذات واعطــاء الانجاز الشخصي اقل مما يستحق من التقدير . وهنا تذكرنا هذه الصفة في ادب دويل بصفــة مشابهة لدى اول واهم شاعر انجليزي : جفري تشوسر ، الذي كان لا يغفل عن التقليل مــن قيمة « حكايات كانتر برى » وهي الحكايات التي تطفح بالمتعة والبراعة . كان دويل يقول : « اذا كنا نحن اصحاب الحكايات لا نتمتع بعقول عظيمة

فبوسعنا فى الاقل ان نقدم ما يريح عقول الآخرينالذين يقومون باعمال اكثر اهمية مما نقوم بـه نحن . كان فى مقدور دويل ان يتحدث عن كلشىء من الرياضة الى الادب الى الحرب الـى التعذيب الى السياسة الى العلوم الى القتل....كل ذلك بما يظهر اهتماما متساويا فى جميـع المسائل . وقد جرب دويل حتى المسرح والسينمامنذ بداية الافلام الصامتة . لقد شكلت العديد من قصصه اسسا لمسرحيات وافـلام نجحتبدرجات متفاوتة ، وكان كريما مع المخرجـين والمنتجين ، بحيث ان احدهم ادعى انه يخسرفى انتاج مسرحيات تستند الى قصص دويل ، وبلغت خسارة المؤلف من جراء ذلك اكثر مـنثمانية آلاف باون . ولكن ذلك المنتج المحتـال انتهى الى الانتحار ، فاستحصل دويل ما خسرهعند تصفية الحساب . وفى عام ١٩١٢ طفح خيال دويل فكتب رواية (العالم المفقود) التي تتحدثعن عالم فى اعالي الامازون يعج بالتنانينوالمخلوقات العجيبة ، مما دعا جامعة بنسلفانيا بأميركا انتجند حملة الى اعالي نهر الامازون للبحث عن ذلك العالم المفقود ! كانت شعبية دويل قد عبرتمن اميركا الى كندا ، فقبل دعوة لزيارة كندا مع زوجته وكانت الحفاوة به تليق بالملوك . ولما عادالى انجلترا نشبت الحرب العظمى ، فراح يملأ الصحف البريطانية بمقترحات لوقاية الجنود ،منها دروع الحديد التي بذرها فى ذهنه صديقه دكتور بد فى اول عهده بالطب . وجدد دعوتـهلبناء نفق تحت القنال الانجليزي ، واضطـر البحرية الى اتخاذ اطواق المطاط والقـواربالمحصنة التى انقذت حياة الكثير من البحارة فى الحرب العظمى . ولكن جميع اقتراحاته ، مثلادخال التزحلق على الجليد فى سويسرا ، لم تجد من يعترف بها أو يشكره عليها .

« **الوجه الاخير** » **هو الفصل الثاني عشروالاخير فى هذه السيرة** . فى الحقبة الاخيرة من حياة دويل ، بدأ يميل نحو الروحانيات . وقدكان ذلك تطورا طبيعيا فى ذهن رجل لا يستطيع التخلي عن يقين يملأ عليه روحه . ففي شبابـهنفر من المذهب اليسوعي والتفسيرات الكنسية ، وشغفه مذهب دارون واليقين المادي الذي يؤمنبالاشياء الملموسة . لقد قضى دويل حياته يدرس ويبحث ويطلع على كل زاوية من زوايا المعرفة ،كان آخرها الشغف بالارواح والعالم الآخر . لقد كانت بعض نتائج تلك الاستقصاءات تظهر فى قصص المغامرة التي كان يحوك . وكانت الاشباح بعض مكونات قصصه . وكان دويل الى ذلـكيؤمن بوجود عالم بعدالموت ، ولكن ايمانه يأتيه عن طريق مادى منطقى.« فاذا لم تكن ثمة حياةبعد الموت ، فلماذا يسعى الانسان الى اصلاح نفسه ؟ »هذا هواليقينالذىكانيشغل دويـل ،وراح يجمع حوله الاتباع ، كما يفعل كل صاحب يقين. وبدأ أصحابه الكثيرون يلاحظون هذا التطورفى شخصيته فى آخريات ايامه ، وبخاصة بعـد الحرب العظمى . فقد كان يشعر ان عليه واجبا يؤديه فى نشر هذه الآراء . مرة كان عليه ان يحاضر عن الموضوع فى نوتنجهام ، وكان ابنه كنجسلييحتضر ، فرفض ان يؤجل المحاضرة قائـلا ان الجمهور قد تعلم ان يثق به ، وهو لا يريد انيخيب املهم ، ولا امل ابنه المحتضر فى ان يكون الاب امينا على مواعيده متخلصا « للقضية » .كان يضحي بكل شىء فى سبيل « القضية » .

ففي اسفاره الكثيرة مع اسرته فى يارة استراليا عام ١٩٢٠ ، واميركا عام ١٩٢٢ ، وثانية عام ١٩٢٣ ، وفى زيارة جنوب افريقيا عام ١٩٢٨ ، كان يجمع دخله من محاضراته ، وبعد ان يستقطع نفقات السفر والاقامة ، كان يتبرع بالباقي من اجل « القضية » . وبرغم ذلك كله لم يفقد ما لديه من روح الدعاية . مرة كان يزور لوس انجيليس فى ضيافة « رجلي » ملك العلك « اللبان » فقال : « اذا علكت فينوس بدت مبتذلة ، واذا علك شكسبير بدا من الاجلاف ... ليس من عادة اقل احتراما من العلك . فقد يشرب الرجل خمرا ويبدو ملكا بين الملوك ، وقد يدخن فيبدو جذابا ، ولكن الرجل الذي يعلك ينقلب حيوانا فى الحال ، والاسوأ من ذلك ان المراة تنقلب الى بقرة بالتمام والكمال » .

ولكن شعبية دويل بدات تضمحل منذ بدأ فى مزاولة الروحانيات . ومع ذلك فقد ظهرت آخر رواياته العجيبة عام ١٩٢٩ بعنوان (اعماق ماراكوت) هنا يتحدث دويل عن احفاد حضارة منقرضة يعيشون فى اعماق المحيط الاطلسي . ولكن الكتاب صورة عن انجلترا فى عشرينيات هذا القرن : « لم يعد ثمة حياة اسرة هادئة ، ولا عناية بالذهن ، وليس غير شعب قلق ضحل ، يتراكض خلف اللذائذ فلا يدركها ... لقد نشأت طبقة مفرطة الغنى لا تحفل بغير اشباع الرغبات الحسية ، تقابلها طبقة مفرطة الفقر تسعى لتلبية مطالب السادة ، مهما تكن تلك المطالب شريرة » .

كان دويل فى آخر ايامه يعلن برمه بشخصيات هومز وقصص المغامرت مفضلا عليها رواياته : (رودني ستون) و (اللاجئون) و (الفرقة البيضاء) و (سرنايجل) . ولكن الايام اظهرت ان القارىء الذي يلتفت الى هذه الروايات التاريخية يقابله مائة قارىء مشغوف بقصص هومز وجيرارد ، تلك القصص التي لا ينافس دويل فيها من الكتاب احد .

توفي دويل فى ١٩٣٠/٧/٧ . وقبل وفاته بثماني عشرة سنة ، كان قد كتب ابياتا من الشعر يقول فيها :

اكون قد بلغت ما سعيت اليه	لو قدرت ان اعطي ساعة من البهجة
للفتى الذي نصفه رجل	والرجل الذي نصفه فتى .

— ٢ —

آنجوس ولسن : ردیارد کبلنج وسيرته العجيبة لندن ، ١٩٧٧

مؤلف هذا الكتاب اديب انجليزى « نصف جنوب افريقى » كما يقول عن نفسه . وقد نشر الى جانب هذا الكتاب خمسة عشر كتابا آخر فى الرواية والسيرة والدراسة الادبية . والكتاب ضخم ، يقع فى ٣٤٣ صفحة من القطع الكبير والحرف الدقيق ، تتوزعها سبعة فصول ، تزينها ٨٥ صورة وتخطيطا ، تتناول حياة كبلنج فى مراحل شتى . لقد اعتمد الكاتب اسلوب

الدراسة الادبية الرصينة ، التي تستند الىالكثير من المراجع والمقابلات والاحاديث مع من عرفوا كبلنج فى مناسبات عدة . يتتبع الكاتبسيرة الرجل منذ أن ولد فى مدينة بمباى بالهند فى ١٨٦٥/١٢/٣٠ حتى وفاته فى فندق براونفى لندن فى ١٩٣٦/١/١٧ ، قبل يوم من ذكرى زواجه ، وهو فى طريقه الى مدينــة (كـان)بجنوب فرنسا . ولأن الكتاب يتناول الرجل فى« حياته وآثاره » فاننا نجده يمتلىء بتفصيلاتدقيقة ، قد يكون من المتعب ملاحقتها ، ولكنها تشكل من الصورة الظلال والاعماق والابعاد ،وتعود على القارىء دوما بنوع من المتعة ، وقد تثير كثيرا من القصص والاشعار التي الفهـاكبلنج ، كما أنها ــ وهذا مهم ــ تفسر الكثير من مواقف كبلنج ، سواء فى الحياة العامة ، أو فىمواقفه السياسية التي لا يسهل على المرء أن يخرج بصورة واضحة عنها دائمـا . ولكـنالتفصيلات والدقائق تفيد القارىء أحيانا ازاء موقف سياسى بعينه ، يتضح لدى اطالة النظرانه لم يكن سوى رد فعــل شخصــي فى غالب الاحيان ، لا يستند الى وضوح فكر أو فلسفةسياسية بعينها .

ويبدو ان الكاتب يريد ان يؤكد الناحيةالفنية فى أعمال كبلنج ، مشيرا فى مناسبات عدة أن من الخطأ محاولة قراءة افكار الفنان فى اعمالهالفنية . وكأن الكاتب يريد ان يقول لنا أن عامة الناس لا يعرفون عن كبلنج سوى انه شاعـرالامبراطورية ، وانه كان يعنىبالسياسة بالدرجة الاولى ، وانــه كان يريد أن يـرى بريطانياامبراطورية لا تغيب الشمس عـن ارجائهـا . ويوحي الكاتب ان فى ذلك كله مبالغة لا مبرر لها،وان كبلنج أديب وشاعر وفنان ، يحب وطنه ويحب أوطان الآخرين كذلك ، طالما ليس فىنية الآخرين شن عدوان على وطنه أو على من يحب . ولكنه يحتفظ بكراهية خاصة للألمـانوالروس ، لم يسلم منها الاميركان ، رغم انه تزوج باميركية وعاش اكثر من أربع سنوات فىمدينة فيرمونت . ومـن اجل ذلك كلـه يصف الكاتــب سيرة كبلنج بانهــا « عجيبة » واكــاداقول « غريبة » لان القارىء لا يخرج من الكتاب برأى واضح للرجل فى السياسة ، او بموقفبعينه من حزب أو حكومة . فقد يكــون مــع صاحب رأى بعينه تارة ، ولا يلبث ان ينقلبعلى الرأىوصاحبه اذا بدا انه ضد « بريطانيا».

يحمل الفصل الاول عنوان « الفــردوسوالسقوط » ويتحدث الكاتب عن مدينة بومباى على انها فردوس كبلنج الذى سقط عنه عندمااعاده والده الى انجلترا وهو فى السادسة من عمره ، ليقيم ست سنوات بعيدا عن الوالدين ،وعن الفردوس . يتصدر الفصل بعض أبيات من قصيدة نظمها كبلنج بعنوان « الى مدينةبومباى » عام ١٨٩٤ ، يقول فيها ان بومباى بالنسبة اليه « أم المدائن جميعا ... ولدت عندبابها ، بين النخيل والبحر ، حيث العالــم والمراكب فى انتظار » . محبة الهنـد ومحبــةالاطفال يشكلان الاساس فى كل ما كتب كبلنج من قصص وشعر . وقد بقى ذلك طابعه المميزطيلة حياته . فقد كان يجالس الاطفال ويصغي اليهم ويراقب تصرفاتهم ويتعلم منهم الكثير .ومن طبيعة الطفل ان « المكان » لديه يكبر حتي يصبح هو العالم . وهكذا كان شعور كبلنجنحو بومباى : فقد كبرت المدينة فى عينه حتى

أصبحت الهند برمتها ، ثم أصبحت العالم اجمع . فهذا الحس بالمكان ، بألوانه واصواته ، هو الذى جعل قصصه عن الهند من أروع ماكتبه كاتب عن « مكان » ولا يضارعه فيها الا ما كتبه (بيير لوتى) الفرنسي عن الشرق الاقصى .

ينحدر كبلنج من سلالة تعتنق فى الدين مذهب « أصحاب الطريقة Methodist » ولكنه كان علمانيا ، مثل غالبية ابناء جيله ــ من الادباء ، لا يؤمن بما تعارف عليه الآخرون من التفسيرات الكنسية للدين . ولكن صفة « الوعظ » لدى أصحاب الطريقة تركت ميسمها فى أدبه ، فتجد شعورا يجرى فى تضاعيف ما كتب من شعر وقصص ، ان الرجل يريد ان يقول لك شيئا بعينه ، ويكاد يشير باصبعه أو يرفع صوته ليقول ذلك . وكان يعارض اصحاب الطريقة لانهم يعارضون الجندية والحرب ، وكان كبلنج مع الاثنين بحكم دراسته فى مدرسة (ويستوارد هو) التي تخرج فيها قبل التحاقه بالعمل الصحفى فى الهند . وكان فى طبع كبلنج كثير من الاطراق الحزين والقلق النفسي ، يفسر هذا النزوع الى الهرب من الطرق المألوفة والخروج الى العالم الاوسع وكثرة التجوال . عمل والد كبلنج فى الفن الزخرفى والنحت فى لندن ثم حصل على وظيفة لتدريس ذلك الفن فى (مدرسة الفن) فى بمباى ، التي تعنى بتدريب الاحداث على الفنون المفيدة فى البناء ، فأصاب الوالد وزوجته سمعة طيبة فى الهند كانت خير عون لابنهما عندما جاء الى لاهور ليعمل كمراسل صحفى وهو فى السادسة عشرة من العمر . عندما بلغ (رديارد) السادسة من العمر وشقيقته (تريكس) ثلاث سنوات ، اضطر الوالدان الى العودة بهما الى انجلترا وايداعهما لدى ضابط بحرى متقاعد فى مدينة (ساوثسي) لاسباب مادية بحتة ، ولخوف الوالدين من الامراض التى كانت تتسبب فى نسبة عالية من وفيات الاطفال فى تلك الايام . اقام الصبي (رديارد) ست سنوات لم تكن سعيدة بحال ، وهو بعيد عن والديه ، فى رعاية عجوز غريب ، فظهرت لدى الصبي بوادر اضطرابات عصبية وضعف فى البصر ، مما اضطر الوالدين الى نقل الفتى الى مدرسة تعد الفتيان للخدمة البحرية ، ولم يكن الفتى سعيدا فيها قط . ولكنه فى هذه الفترة كان يقيم مع شقيقته لدى زوج خالته الفنان (برن جونز) الذى كان يعنى بالرسوم الساخرة ، مما جعل رديارد يهتم بهذا الفن كما تظهر قصصه الاولى وكثير من رسائله . وفى الثالثة عشرة اظهر رديارد كذلك ميلا الى السخرية مما ظهر فى شعره المبكر . وأصابه الارق فى تلك السن المبكرة كذلك ، مما جعله يسير فى الليالي ، وهى عادة لحقته فى أيام عمله فى الهند بعد ذلك بثلاث سنوات . كان الارق مما انهك صحته ، ولكن الارق كان يغذى خيال ديستويفسكى وديكنز من قبله فى تأليف القصص والحكايات . فى عام ١٨٩٤ القى رديارد خطبة فى توديع احد مدرسيه قال فيها ان « كل ما يريده المدرس والمدرسة هو صناعة الرجال الذين يصنعون الامبراطوريات ويحافظون عليها » . وبذلك اثبت كبلنج على نفسه صورة « الامبريالية » قبل ان يبلغ الثلاثين . وبسبب من اعتلال الصحة وعدم وجوده فى مدرسة مناسبة ، لم يستطع كبلنج دخول

كمبردج او اكسفورد مثل بعض أقاربه واصدقائه ، وقد ترك ذلك فى نفسه شعورا بالغيرة ، انعكست فى الصورة الهازئة التي يرسمها فى قصصه لرجل اكسفورد مثل (جلال الدين ماكنتوش) فى بعض قصصه الهندية . ولكن جامعة اكسفورد كرمته عام ١٩٠٧ بمنحه شهادة فخرية ، الى جانب مارك توين الساخر الاميركى ، فكانت تلك من أسعد اللقاءات فى حياته . بقيت ذكريات المدرسة ماثلة فى ذهن كبلنج ، خلال اقامته فى أميركا بعد زواجه ، فكان يكتب عددا من القصص تستند شخصياتها الى عدد ممن عرف فى أيام دراسته . أما شعره فهو يعكس اهتماما بالغا بالمكان وتفصيلاته ، وكان الشعر أهم ما كتب فى أيام الدراسة فى (ويستوارد هو) شخصية المدير (كوم برايس ، صديق والده اذ قضى الفتى مع مدير المدرسة أول اجازاته ، مما جعله يحس بشيء من السعادة لتغير جو المدرسة اثناء الاجازة . ثم وصل والده من الهند واصطحب الفتى الى باريس ، فكانت تلك الزيارة أول ما ألهب حماس كبلنج لكل ما هو فرنسي ، كما يبدو فى الكثير من قصصه واشعاره وزياراته لتلك البلاد . وفى ربيع ١٨٨٢ كان كبلنج فى احدى الاجازات المدرسية فتعرف على محرر (المجلة العسكرية والمدنية) الذى توسم فى الفتى قابليات ادبية جمة ، فرأى أن يسرع فى تمرينه على العمل الصحفى تحت اشرافه ، بناء على توصية من المدير (كوم برايس) . وهكذا كان على الفتى أن يذهب الى (لاهور) ليعمل فى (المجلة) ولم يكن قد بلغ السابعة عشرة بعد فى أيلول/سبتمبر ١٨٨٢ . كان الفتى يفضل البقاء فى لندن ومحيطها الادبى ، ولكنه كذلك كان يريد الابتعاد عن انجلترا ، فبقي موزع المشاعر ، واختار الذهاب الى حيث والديه ، ليبدأ حياة من الادب الصحفى ويشق طريقه نحو الشهرة .

« عودة الى الفردوس للعمل » هو عنوان الفصل الثاني ، حيث يستعرض الكاتب السنوات السبع من حياة كبلنج فى الهند بين ١٨٨٢ ـ ٨٩ . كان هذا الشاب الضعيف البصر المصاب بالارق يدعو (لاهور) « مدينة الليل المرعب » وأحيانا « مدينة الموت » . فقد كان يسير الليالي ساعات بطولها ، يراقب ويسمع ويكتب عن خبرته قصصا وتقارير صحفية عن « بوابة دلهى » ومقاهى الحشيش التي يديرها صينيون يتاجرون بالمخدرات والرعب ... عن المآذن والجوامع التي بناها سلاطين وفاتحون ، عن البشر المعذب على قارعة الطريق بين الفقر والامراض ، عن الالوان الصارخة والموسيقى الصاخبة برغم كل ما حول البشر المعذبين فى تلك الارض . يجد المراقب المدقق فى مدينة لندن ملامح فى قصص ديكنز ، ويجد فى باريس ملامح فى قصص بلزاك واميل زولا ، ويجد فى لينينغراد ملامح فى قصص ديستويفسكي ، ولكن مدينة لاهور لم يبق فيها ما يكتبه الآخرون ، لأن كبلنج قد كتب كل شيء وخبر كل شيء فى المدينة ، وأودع تلك الخبرة فى « قصصه الهندية » وفى « كتاب الادغال » . وكان فى ذلك كله يعبر عن محبة عميقة للهند وأهلها ، ولا ينظر باحترام الى موقف « اليوراسيويين » وهم الانجليز المقيمون فى الهند ، لأن اقامتهم كانت تتميز بنظرة متعالية نحو « الاهالى » ولكن كبلنج كان يرفض « الروح السياحية » لاولئك

الاوربيين فى الهند . كان يقول : يجب ان تكون الهند حياتك جميعا أو لا شيء غير ذلك . وقد خبر كبلنج حياة الهند فى المدن المجاورة لمدينة لاهور وكذلك المدن البعيدة عنها مثل (سيملا) و (الله آباد) (مدراس) التي مر بها عاجلا فى رحلة بين سيلان ولاهور . كانت هذه الملاحظات والانطباعات تشكل « هند الخيال » فى ذهن كبلنج ، الهند التي كتب عنها أجمل قصصه وأشعاره . أما « هند الواقع » التي عرفها بين أواخر عامة السادس عشر وأواسط عامه الثالث والعشرين فتبدأ فى وصوله بومباى ، مسقط رأسه ، فى آخر تشرين الاول / اكتوبر ١٨٨٢ ، حيث استقل القطار الى لاهور فوجد والديه مع محرر (المجلة العسكرية والمدنية) ستيفن ويلر ، الذى سبق أن قابله فى لندن. كان محيط الوالدين والاصدقاء فى لاهور محدودا ، وكان دخل الادب لا يشجع على التوسع فى العلاقات الاجتماعية . وبرغم ذلك فقد كان الوالدان على صلة طيبة باثنين من كبار المحررين فى المجلة ، الى جانب محرر جريدة (الرائد) شقيقة (المجلة) فى مدينة (الله اباد) . وكان وصول رديارد ليعمل فى تلك السن المبكرة ويكسب دخلا اضافيا مما انعش حياة الوالدين فى لاهور ، وشجع على استقدام شقيقة رديارد (تريكس) من انجلترا بعد وصول رديارد بسنوات قليلة . وقد تحسن الوضع الاجتماعى للوالدين حتى أصبحا من أصدقاء نائب الملكة فى الهند .

راح الفتى رديارد يعمل بحماس فى المجلة ، ولما مرض المحرر تولى الصحفى الشاب تحرير المجلة وادارة العاملين فيها ولما يبلغ السابعة عشرة . وكان أهم عمل صحفى هو ترجمة الصحف الروسية الصادرة بالفرنسية عن المناوشات على حدود الافغان ، وكانت معرفته بالفرنسية خير عون له فى هذا المجال ، مما أعطى المجلة طابعا مميزا فى لاهور . كان يبحث دائما عن المغامرة ، وقد شهد مرة أحداثا فى أعالى البنجاب تتميز بالقسوة والرعب ، نجدها فى تضاعيف قصصه اللاحقة عن حروب جنوب افريقيا او الحرب العظمى . ولانه كان يفضل مراقبة الاحداث على الطبيعة فانه لم يكن يرتاد (نادى لاهور) برغم الاحاديث التي كانت تدور فيه عن حياة الانجليز فى الهند . كان يفضل المشي ليلا بعد تعب المجلة نهارا ليشهد حياة الليل فى تلك المدينة الخرافية . ولا يستطيع احد ان يجزم كم من حياة الليل خبر الفتى وفى الواقع ، ولكن الاكثر قبولا انه كان يستخدم تلك الوقائع ليحولها فى خياله قصصا مثل « دون امتيازات رجال الدين » وهى القصة التي تتحدث عن مغامرات (هولدن) و (أميرة) . وفى عام ١٨٨٦ بدأ كبلنج يكتب قصصا لصحيفة (الرائد) جمع ٣٩ منها بعنوان (حكايات بسيطة من التلال) . ومهما يكن رأى النقاد فى تلك القصص الهندية المبكرة فان « نسبة عالية من قراء تلك الصحف قد نجحوا فى امتحانات المسابقة بما يفوق قراء المجلات الانجليزية فى لندن فى تلك الايام » .

وفى خريف ١٨٨٧ انتقل كبلنج لتحرير الملحق الاسبوعى لصحيفة (الرائد) فنشر فيها الكثير من القصص التي اشتهر بها خارج الهند ، رغم ان اغلب تلك القصص كانت دون مستوى الجودة ، سوى واحدة بعنوان « كوميديا عرضية » وفى عام ١٨٨٩ صار بوسع الشاب رديارد ان

يقف على قدميه في عالم الكتابة دون مساعدة الغير، فأقام في (الله آباد) وهنا تعرف على أستاذ في الزراعة وصل الى الهند مع زوجته الاميركية :البروفسور هل . كانت صداقة كبلنج مع هـذه الاسرة الجديدة متنفسا له من القوانين المفروضة من الانجليز على حياة الهنود ، وقد سبق للصحفي الشاب ان اشتبك في مناقشة حول اسلوب التعليم المفروض على الهند من أناس يحسبون انفسهم أعلى منزلة في مجال الحضارة . وفي هـذا الوقت بدأت المجالات الادبية في لندن تلفت النظر الى أعمال كبلنج ، مما جعل رحلته الى انجلترا مع أسرة هل ممتعة جدا ، اذ بدأت من كلكتا الى بورما الى سنغافورة الى اليابان ثم الى سان فرانسيسكو حيث وصلوها في آذار/مارس ١٨٨٩ ومنها بعد اقامة قصيرة في أميركا ، الى لندن . ولم يعـد كبلنج الى زيارة الهند سوى زيارة قصيرة لوالديه في لاهور عام ١٨٩١ . وعندما أقام في لندن بعد هذه السفرة الطويلة والابتعاد عن الهند راح يعبر عن اشمئزازه من الحياة في لندن من خلال قصص نشرها على لسان شخصيات هندية خيالية . بقيت محبة الهند تطغى على قصص كبلنج حتـى عند زيارته جنوب افريقيا ، حيـث كـان يكتب قصصه عن تلك البلاد ، ولكن شخصياته كانت هندية في الاساس . في عام ١٩٠٥ رفض كبلنج أن يرافق (امير ويلز) في زيارته للهند ، كما رفض ان يقيم مع (اللورد كرزن) نائب الملك في الهند عام ١٩٠٧ قائلا انه لا يريد ان يرى الهند وقد تغيرت عما كان يعرف في أيامه الاولى وفي شبابه في العمل الصحفي . وهذا الجانب من معرفة الهند في أدب كبلنج يجب أن يبقى الاساس في تقويم انجازه في الشعر والقصة اضافـة الـى رائعته : رواية (كيم) . ففي تلك الاعمـال المبكرة نجد التفرد الذي يميز أسلوب كبلنج في نظرته الى البلاد واهلها ، وهذه هي الصفة التي تجعله مختلفا عن غيره من الكتاب . ففـي تلـك القصص يجمع عالم الطبيعة مع عالم الحيوان الى جانب العالم البشري . وثمة جانب « وعظي » في تلك القصص حول « القانون » يحمـل الـى القارىء احتراما لأسلوب الحياة في الهند الى جانب اسلوب الحيـاة الاوروبيـة وينتهـي الى القول ان عقيـدة الغـرب حـول اهتمامـات الانسـان سـوف تسود في النهـاية ، وبخاصة في الازمات . بدأ كبلنج يفكر في كتابة (كيم) في أول عهده بالحياة الزوجية عندما أقام في فيرمونت ، ثم أكمل الرواية عنـد والديـه ، مستغرقا في ذلك أطول وقت قضاه في انجاز اي كتاب . في هذه الرواية نلمس محبة كبلنج للمغامرة والتجربة وفي تقليد عبارات الناس مفرداتهم . وفي هذه الرواية نجد ملامح من « الوعظية » في الفن ، ولكن عالم « كيم » لا يختلف عن العالم المألوف بخيره وشره .

« **معرض الخيلاء** » هو عنوان **الفصـل الثالث** ، الذي يتحدث عن زيارته الاولى لاميركا عام ١٨٨٩ ، حيث أحب البلاد ولكنه لم يحب الناس فيها ، وكأنه لم يقدر له ان يحب مـن البلاد والناس الا الهند الهنود . كذلك كان حاله في لندن حيث لم يكن يحب الانجليز الذين عرفهم في المحيط الادبي في لندن ، ولا هو كان معجبـا بالملكة فكتوريا نفسها « امبراطورة الهند » وقد ظهرت كراهيته لخيلاء بعض البشر يوم غرقت الباخرة « تايتانك » فوجد في غرقها نموذجا رمزيا

لما يمكن ان تؤديه خيلاء الانسان وثقته الزائدةبنفسه . كان عليه خلال رحلته الطويلة من الهند الى لندن عن طريق الشرق الاقصى واميركا انيراسل صحيفة « الرائد » ويوافيها بمقالات عن مشاهداته . ولانه كان قد ترك قلبه فى الهند ، فقد كان عليه خلال الرحلة « ان يدافع عن الهند ضد ما لا يقل عن ثلاثة ارباع سكان العالم » . فىالرابعة والعشرين من عمره بدأ يتشكل فى ذهنه « الحلم الامبراطوري » عندما مر بسنغافورة فيأول مراحل تلك الرحلة الطويلة . صار يقول ان المناخ الاستوائي لا يصلح لاقامة الانجليز فترات طويلة ، لذا يتوجب على المستعمرات ان تبقى معتمدة على الحكومة المركزية فى لندن ، والاانطلقت فى سبيل حريتها . وفى هذا الشعور كان كبلنج دائم الخوف من « العدو الخارجي » وهذاهو الاساس فى مشاعره « الامبراطورية » . وعندما وصل لندن قادما من أميركا ، كان علىوشك ان يتم خطبته لكارولين ، شقيقة السيدة هل ، بعد ان زار أهلها فى بنسلفانيا ، وكانت هيفى طريق العودة مع شقيقها الى (الله اباد) وهنا صار كبلنج وحيدا فى لندن ، وصار له جماعتانفى الهند يحن اليهما ، والده واسرة هل . ولكنه اقتحم الحياة الادبية فى لندن وكسب الرهان ،برغم ان سلاحه التحضيري لم يكن سوى تحضير تلميذ مدرسة وسط عاصمة تعج بالجامعيينوكبار الكتاب . وكاد ان يكسب الى ذلك عداوة وغيرة بعض المشاهير . وفى أواخر القرن كانكبلنج قد عرف فى الاوساط الادبية وكأنه ليس اكثر من صورة للحلم « الامبراطوري » . ولكنلما زاد جمهور قرائه ، اصبح ادب كبلنج اوسع من ذلك الحلم ومن تلك الآراء السياسيةالضبابية : لقد أصبح افضل من نقل صورة صادقة عن الهند والهنود ، وكان ذلك هو الجديدفى المحيط الادبي فى أواخر القرن الماضي فى انجلترا .

بعد اقامة سنتين فى لندن ، تزوج كبلنجمن كارولين فى ١٨٩٢/١/١٨ ، وفى الشهر اللاحق ابحر العروسان الى أميركا . جاء كبلنج الىأميركا بمشاعر مختلطة ، منها ما كان قد جمعه من قراءاته لمشاهير الكتاب الاميركان فى شبابه ،ومنها ما جمعه من زيارته الاولى لاميركا بعد ترك الهند عام ١٨٨٩ . كان كبلنج قد خلف فى اميركاسمعة أديب لاذع العبارة فى نقد الاميركان ، اكثر مما وصف به ديكنز والسيدة ترولوب (والدةانتوني ترولوب ، التي كتبت تسعين رواية) قبل ذلك بنصف قرن . وكانت شهرته الادبية قدسبقته الى اميركا قبل وصولها هذه المرة ، وذلك من تهريب ما نشر من مقالاته عن الرحلةالاولى فيمجلات الهند وبخاصة صحيفة (الرائد). هذه المرة كان كبلنج يأمل ان تستطيع اميركابمعاونة بريطانيا القيام بتنظيم العالم بما لدى الدولتين من قدرات فائقة وتضحيات . ولكنهذا الحلم كان خطوة أخرى نحو فشل التحقيق عندما بدأت الدولتان ، وبخاصة بعد الحربالعظمى ، تصطرعان على نفوذ مستقل لكل منهما .ويبدو هذا الشعور بالفشل فى كتاباتكبلنج منذ ذلك التاريخ حتى أخريات أيامه . ونراه ينحاز نحو اليمين المتطرف فى السياسيةعلىأمل ان برامج اليمين ستحقق له أحلامه . ولكن كتاباته اللاحقة اثبتت انه كان فنانا بالدرجةالاولى ، اما فى السياسة فقد كان رومانسيا حالما .

فى أميركا عرف كبلنج « أرضا بلا أسوار » فيها من الحرية ما لا يوجد فى العالم القديم . ولكنه لم يكن معجبا بأخلاق الاميركان انفسهم وعاداتهم الشخصية مثل التفاخر ، البصاق ، وقاحة موظفي الجمارك والفنادق ، تدخل الصحفيين فى ما لا يعنيهم من شؤون الآخرين ، فساد السياسة ... وهي مسائل سبق ان لاحظها ديكنز قبله بنصف قرن ، ولعل أكثر ما أغضب كبلنج عدم احترام الناشرين فى أميركا لحقوق المؤلف .

يستعرض الفصل الرابع موقف كبلنج من حرب البور وما سبقها ورافقها من الاوضاع السياسية فى بريطانيا ، حيث نجد صورة أخرى لفكر الفنان فى آرائه السياسية الرومانسية ، وغلوائه الوطنية التي لم تتبلور فى رأى سياسي متزن ، يمكن تحديد ملامحه وآثاره فى التطبيق . فقد عاد كبلنج من أميركا ليقيم فى فندق براون بلندن ، ملتقى الاثرياء الاميركان ومشاهير المحيط الادبى فى لندن . وهنا يبدو موقف كبلنج من انجلترا وقد تغير بعد اقامته الاميركية . فقد بدأ يساهم فى جميع المناسبات والمواسم الادبية فى العاصمة وكأنه يريد الانسجام مع هذا المحيط ويحس بالعائدية اليه ، وليس من فنان لا يريد حسا بالارتباط بمكان بعينه ومجتمع بعينه . كان عام ١٨٩٧ عام الاحتفال بالذكرى الستين لتتويج الملكة فكتوريا ، وقد جلب له هذا العام اعترافا من جامعة اكسفورد ، تنامى حتى منحته الجامعة شهادة فخرية بعد عشر سنوات ، وفى عام ١٩٠٨ منحته كمبردج شهادة مماثلة . وفى عام الاحتفال قبله (نادى اثنايوم) عضوا بارزا ، وهذا اعتراف من الوسط الادبى بتميزه وشهرته . وفى هذا الوقت تعرف على (سيسيل رودس) و (الفريد ملنز) أهم شخصيتين فى « السياسة الامبراطورية » . وفى هذا الوقت بدأت آراؤه السياسية فى التطور بشكل مضطرب ، فنشر فى (التايمز) قصيدة بعنوان « انحسار » ينعى فيها على بريطانيا تقاعسها عن القيام بدورها فى العالم بنشر النظام والحضارة . وبعد ذلك بسنة ، نشر فى (التايمز) كذلك قصيدته التي اشتهر بها أكثر من سواها فى آرائه « الامبراطورية » وهى بعنوان « عبء الرجل الابيض » ففى عام ١٨٩٨ كانت أميركا ما تزال أملا يراوده فى الوقوف مع بريطانيا فى تحمل عبء الرجل الابيض لنشر الحضارة . ولما قامت الحرب فى تلك السنة بين أميركا واسبانيا حول كوبا ، وجد كبلنج فى هذه الحرب مناسبة لاجتماع البلدين بتراثهما الانجلو سكسونى لوضع حد لاستعمارية اسبانيا وآرائها السياسية التجارية العتيقة . كانت قصيدة « عبء الرجل الابيض » تمثل الجانب الايجابي للدور المنتظر من أميركا فى تعضيد بريطانيا ، مثلما كانت قصيدة « انحسار » تمثل الجانب السلبى فى موقف بريطانيا من مسؤولية التمدين والتحضير . وكان كبلنج فى الحالين مدفوعا بخوف من عدو مشترك للحضارة الانجلو سكسونية ، فراح يدعو الى « سلام بريطانى » منظم ، أو « سلام انجلوسكسونى » أو فى « سلام فرانكو ـ بريطانى » . كانت مشاعر كبلنج ومخاوفه بين ١٨٩٧ ـ ١٩٠١ تردد أصداء مماثلة عند عامة الناس فى بريطانيا ، ومن هنا جاءت شهرته كداعية للروح « الامبراطورية » فى مقارعة « الاستعمار » القديم . وفى عام ١٨٩٨ كذلك قام كبلنج برحلة بحرية فى القنال الانجليزى جعلته على مقربة من ضباط

البحرية البريطانية وقوت من آرائه حول دورالبحرية فى نشر آرائه عن دور بريطانيا فى العالم .
وفى هذا الوقت كان كبلنج ما يزال على مخاوفهمن « العدو الخارجي » المتمثل فى القوة البحرية الالمانية وفى « الدب الروسي » برغم آراء ثلاثةمن زعماء سياسة اليمين بامكان الوصول الى تفاهم مع ذلك « العدو » . ولما قامت المظاهراتفى بريطانيا تطالب بزيادة القوة البحرية (رغم معارضة تشرشل) وجد كبلنج فى ذلك مصداقـاًلمخاوفه على المستوى الشعبى. وكان ثمة « عدو » آخر أمام بريطانيا يتمثل بالفلاحين الهولنديين فىجنوبافريقيا بزعامة « كروجر » وهنا بدأ اهتمام كبلنج بجنوب افريقيا فى الفترة ١٨٩٨ ـ ١٩٠٨ . فقد أعلن كبلنج صراحة أن « البـور فى اقليـم الرانسفال قد يتمردون على السلطة البريطانيةفى جنوب افريقيا ، مدفوعين بعون من احـدى القوىالاوربية، عندذلك يجبالقضاء عليهم» .كانتشيمبرلن وردوس وملنر قادة اليمين فى معالجة الوضع فى جنوب افريقيا ، ولكن كبلنج كـانيراهم جميعا مقصرين فى النهوض باعباء الرجل الابيض . لقد شهد كبلنج جانبا من حرب البور ،وعمل بجد كمراسـل صحفى ، وخرج بعدد من القصص عن ذلك الجنوب الافريقى ، ولكنهاابطالها ومحيطها تبدو نسخة اخرى عن تجربته الهندية. لم تكن تلك القصص من المستوىالجيد،غير أنها كانت تفصح عن مشاعره السياسـية . كانت تمتلىء بالكراهية والحقد ، لا على « أعداء »بريطانيا الظاهرين ، بل على أعدائها غير المعلن عنهم : المحايدين ، الاجانب الذين ساندوا البور،فلاحي الدولة الحرة فى الرانسفال ، والمثقفين الامريكان الذين وقفوا الى جانب (كروجر)برغم ولائهم الظاهر لبريطانيا . وكان حصيلة ذلك ذلك قصتان نشرهما فى (التايمز) لدى عودتهالى لندن من جنوب افريقيا فى نيسـان/ابريـل ١٩٠٠ ، وليس فيهما من القيمة الادبية قـدرما فيهما من الهجوم السياسى على « خونة الدولة الحرة » وخونة (الكاب) . وفى ١٩٠١ استدعىملنر الى لندن فترك ادارة (الكاب) وفى ١٩٠٢ توفى رودس فجاة ، فخسر كبلنج اثنين من أبطالهفى الحلم « الامبراطورى » فى « جنوب افريقيـا انجلو سكسونية » . وبدأت آراؤه السياسيةفى هذا المجال تضمحل تدريجيا مع الايام . وفى ١٩٠٣ بدأت أحاديثه وقصصه تفصح أن بريطانياكانت تخوض معركة خاسرة فى جنوب افريقيا . رغم انه لم يستطع الاعتراف بذلك علنا . وراحيهاجم ساسة اليمين ويتهم « الطبقات العليا » فى بريطانيا فى سياسة الجنوب الافريقي ، ويدعو الىسياسة تخلو من « النظرة الطبقية » . وفى ١٩٠٣ لم يبق أمام كبلنج فى حلمه « الامبراطورى » سوى(جوزف تشيمبرلن) الذى ذهب فى زيارة الى (الكاب) فراح كبلنج يكتب المقالات التي تقول انرئيس الوزراء البريطاني وقع فى حبائل (جروجر) وزعماء البور . وفى ١٩٠٩ قام (اتحاد جنوبافريقيا) وكان كبلنج فى ذلك التاريخ قد نسي أو كاد ينسى كل علاقة له بجنوب افريقيا ، وشغلتهاحداث اوربا ، فراح « يبحث عن وطن جديد ليحبه » وجاء هذا الوطن فى شـكل فرنسـا .وعندما نشر قصصه عن التجربة الافريقية ، كانت قصصا يقصد بها « أن تقرأ بصوت مسموع . . . للاطفال » تمتلىء بأحاديث وصور عـن ادغـال افريقيا وحيواناتها ، وفى ذهنـه دوما خبرتـهالهندية .

« **الحماقة وسوء الحكم** » : انجلترا بين ١٩٠٢ ــ ١٩١٤ « هو ما يقدمه لنا فى الفصل الخامس . ففى آذار/مارس/١٩٠٥ كتب كبلنجمن جنوب افريقيا الى صديقته مسز هل ، اخت زوجته ، قائلا ان قصصه الافريقية التي ظهرتقبل ذلك بسنة بعنوان (مشاغل واكتشافات) كان المفروض فيها أن تظهر تحت عنوان احدىالقصص « جيش الحكم » وتكون بمثابة كراسة سياسية.ولكن تبرير فشل تلك القصص البحريةلم ترتفع الى مستوى الجودة ، يستثنى من ذلك قصتان : « لاسلكى » و « هم » اضافة الى قصةواحدة ممتازة بعنوان : « تحت سدة الطاحون ». فى هذه القصة تعبير عن خوف كبلنج وخيبة أملهعن فشل انجلترا فى مهمتها التحضيرية التمدينية واخفاقها فى الاستعداد للمستقبل . والقصة فىاطارها هجوم سياسى على حكومة المحافظين عام ١٩٠٢ . ومع مجىء حكومة الاحرار عام ١٩٠٦زادت مخاوف كبلنج على مستقبل بريطانيا بما انطوت عليه سياسة تلك الحكومة من « غوغائيةوفوضى وفساد تحت اسم « الاشتراكية » وفى عام ١٩٠٨ نشر كبلنج قصة تنطوى على هجومسياسى على حكومة الاحرار بعنوان « الخلية الام » . ليس فى القصتين من القيم الادبية ممايجعلها موضوعا يرجع اليه ، لأن الهجاء السياسي فى الادبموقوت بزمانومكان، حتى هجاء شاعرين كبيرين من وزن درايدن وبايرن . ولا يمكن مقارنة الهجاء السياسي عند كبلنج بكتابات جورجاورويل مثلا ، فضلا عن جوناثان سويفت فى (رحلات جليفر) . ولكن اشعاره السياسيةامتدت بين ١٩٠٢ ــ ١٩١٢ ، تتبنى قضيةالجنود العائدين من جنوب افريقيا ، وترسم لهم مستقبلاوحلولا على شكل : الامبراطورية ، الهجرة ، الاستيطان فى استراليا . فى هذه الفترة راحكبلنج يجاهر بعدائه السياسي لنقابات العمال والاشتراكيين وعشاق الديمقراطية والطبقاتالتجارية ، قائلا ان ذلك كله لن يصمد عندما يداهمنا « العدو » . كانت السياسة الداخليةأبرز نقاط الضعف فى حكومات اليمين المتطرف ، الذين كانوا يرون بناء الامبراطورية متصلا بالتغييرالاجتماعى فى الداخل ، وهو ما يذكرنا بآراء ديكنز ورسكن وتنسون من الادباء فى وجوب اخمادالتمرد فىجمايكا . وذلك التغيير يحتاج الى معرفة دقيقة باوضاع المستعمرات وأوضاع بريطانيا ،مما لم يكن فى مقدور اى سياسي او فئة حاكمة فى تلكالايام ، رغم ان الحديث عنه كان بمقدورهمجميعا ، ولكنهم كانوا يقصرون لدى التطبيق ، بما فى ذلك كبلنج نفسه . واذا كانت قصة« جيش الحلم » التى اراد لها كبلنج أن تكون عنوان هجائه السياسي ، ليست سوى دعاوةسياسية محكومة بظروفها الآنية ، فان اهميتها للناقد الادبى تكمن فى انها بداية الاضمحلال فىقواه القصصية . اما هجومه على حكومة الاحرار فى قصة « الخلية الام » فهي تقول ان اعداءالامبراطورية الجدد هى افكار « التقدم ، الفردية المتحررة، مذهب السلام ، العالمية ، المساواة...وامثال ذلك مما يحول بين الامبراطورية وبين مواجهة الخطر الالمانى المتعاظم ضد رسالةالتمدين » . ومن أجل بلوغ تلك الرسالة ، وجد أن اسلوب التطوع للجيش كان قليل الفائدة وكانمن الضرورى لذلك اتخاذ اسلوب « الخدمة الوطنية » الالزامى . ولكن ذلك لم توافق عليهحكومة الاحرار ، ولما قامت الحرب العظمى وجد كبلنج نفسه يلقى الخطب فى الحث على التجنيدالالزامى . وفى عام ١٩٠٧ ذهب كبلنج فى زيارة

رسمية الى كندا مجددا أمله أن هذا الجزء من« الدمنيون » البريطاني قد ينعش آمال الامبراطورية بعد ان خاب أمله في اميركا . نشر كبلنج قصيدة في تحية كندا ، التي قدمت معاملة تفضيلية أمام البضائع البريطانية ، داعيا تلك البلاد « سيدة الثلوج » التي سوف تكون أول من يلبي نداء الحرب، وداعيا بقية أعضاء «الدمنيون» ان يتبعوا مثال كندا . في كندا كان استقباله فخما ، وراح يغدق في المديح في خطبه ، معلنا ان في وسع بريطانيا « السماح لخمسة ملايين » أن يهاجروا الى كندا من بين الاسر العاملة في الوطن الأم .

في الفصل السادس نجد صورة عن أوضاع كبلنج الصحية ، وشيئا عن تاريخ حياته قبيل الحرب العظمى . ففي أيلول/سبتمبر ١٩٠٢ انتقل كبلنج والأسرة من الساحل الجنوبي في انجلترا الى منطقة الشمال الشرقي منها ، في قرية صغيرة وفرت له ما يشبه العزلة عن العالم الخارجي ، ليتفرغ للكتابة ويبتعد عن صخب الحياة والسواح على الساحل الجنوبي من البلاد . وفي «برواش» كان يتغير نحو الافضل ، لان القرية كانت تقع في وسط مناظر طبيعية منوعة كان وضعه الصحي في أشد الحاجة اليها . وفي عام ١٩٠٤ نشر قصة بعنوان « هم » يرى فيها الكثير من النقاد تعبيرا عن المه لوفاة ابنته جوزفين في نيويورك وكانت لم تبلغ الرابعة . وفي هذه القصة نجد حبه الغريب للاطفال ، في عبارات قد يجد فيها بعض المولعين بعلم النفس مجالا خصبا للتحليل وتفسير « سوداويته » وآلامه النفسية . ومثل ذلك يمكن ان يقال عن « في نفس الحال » ١٩١١ ، وعن « الكلب هيرفي » ١٩١٤ . في القصتين ثمة عناصر مشتركة : ففيهما معا تصوير ملموس لشعور باليأس يوشك ان يقع . وفيهما معا نصل الى سبب عصابي في مرض الشخصيات في القصة . ولكنهم في النهاية يظهرون في تمام العافية . وهكذا يكون المحيط النفسي العصابي مفروضا من الخارج وقد أقحم على القصة التي تخلو من صراع داخلي مثل هذه الصفات في قصصه الاخيرة جعل الكثير من النقاد والمعجبين بادب كبلنج يعتقدون أن اعماله المتأخرة بدات تظهر الاضطرابات النفسية في شخصية الكاتب ، تلك الاضطرابات التي بدات مبكرة ، في السنوات الست التي قضاها في انجلترا بعيدا عن أبويه في بومباي ، عندما كان في السادسة من عمره . وفي خلال اقامته في اميركا ، وفي العقد الاول من هذا القرن ، ظهرت على كبلنج علائم الضعف العصبي اكثر من مرة . ولا شك أن الارهاق والعمل المتواصل في الكتابة والمحاضرات والمناقشات السياسية كان لها جميعا أثر في ذلك. كانت زوجته كري (كارولين) موضوع بحث لدى الكثير من النقاد . كم من التأثير كان لها في شخصية الكاتب ؟ الى أي حد كان لها يد في كتابة أو نشر بعض القصص ؟ كم كان مقدار فهمها لعمل الكاتب وادبه ؟ في هذا المجال لا يبدو ان كاري كان لها تأثير ايجابي على انتاج الكاتب ، ولكنها كانت «سيدة البيت » تحسن ادارته وتلاحق الحسابات والزيارات والواجبات الاجتماعية . وبسبب من براعتها في ادارة الامور المالية أصبح كبلنج على جانب من الثراء الكبير عند اعتلال صحة الزوج والارهاق العصبي الذي أصابه ابان الحرب العظمى .

الفصل السابع والاخير في هذا الكتاب يدور حول الحرب العظمي وما بعدها . في اثناء تلك

الحرب نشر كبلنج ثلاث قصص ، ولم يكن نشيطاًاثناء الحرب بشكل خاص . فاضافة الى اعتلال صحته ، كان لوفاة ابنه جون فى السنة الثانيةمن الحرب أبلغ الاثر فى نفسه . لقد صارت قصصه بعد الحرب تهتم بالاثار العصبيةوالنفسية التى خلفتها الحرب على الجنود .وكان الذى شغله بعد مقتل ابنه عملان كبيران : الاولكتاب (الحرس الايرلندى زمن الحرب) الذى اتعبه كثيرا ولم ينجزه الا عام ١٩٢٣ .والعمل الثاني البحث عن قبور قتلى الحرب فى أوروبا وفى تركيا وفلسطين والعراق ، وهوالعملالذى امتد به الى اواسط العشرينات . فبعد زيارة مواقع القتال فى شمال اوربا الغربية نشرقصة بعنوان « البستانى » فى عام ١٩٢٦ تعبر عن مشاعره تجاه ابنه القتيل . وقد قيل انأعظمنقص يؤخذ على اعمال كبلنج هو غياب الحب فى قصصه ، باستثناء (كيم) . والملاحظ أن ثمةجرعات كبيرة من الكراهية فى أعماله وبخاصة فى أوائل القرن وبعد الحرب . ورغم ان بعض تلكالقصص عليها مسحة من الرحمة والتعاطف ، ولكن ذلك من نصيب الكاره لا المكروه . فقد كانينظر الى الحرب على أنها ضرورة لوقفالعدوان ، وكان يرى أن أحسن وقود للحرب هو الكراهيةللعدو . وقد وجد كبلنجفىالحرب العظمى مناسبة لتجديد كراهيته للالمان ، ذلك الشعور الذى بدالديه فى اواسط التسعينات . لقد بلغت كراهية الالمان لديه حد العنصرية . ففي أيار/مايو/١٩١٦كتب فى (الديلي اكسبرس) يقول : « علينا أن ندخل شيئا فى عقولنا الكثيفة : وهو انهحالما يجدالالماني مجالا يزدهر فيه فان ذلك يعنى موت البشر المتحضرين ، تماما مثل الجراثيم فى أىمرض .. موت دنىء أو خسارة للبشرية ... الالماني تيفوئيد أو طاعون ... وان شئت :الوباء الالماني » . وفى اخر رسالة كتبها كبلنج الى صديقه جيمس بارى فى كندا في ١٩٣٦/١/٤ أىقبل وفاته بأسبوعين ، قال ان المانيا « اشبه بمخلوق مدجج بالسلاح يقف وسط حركة المروروبقلق كل شيء . لقد سبق لالمانيا منذ خمس أو ست سنوات أن فسرت السبب وراء تسلحها- كما فعلت لست أو سبع سنواتقبلالحرب. وفىهذا المجال ارىان المانياقد احترمتأقوالها ».وفى عام ١٩٣٥ القى كبلنج محاضرة أمام (جمعية القديس جورج) حذر فيها من تصاعد القوةالنازية ، ودعا فيها للتهيؤ للحرب ، وقد اثبتت الاحداث صدق ما ذهب اليه .

وبعد الحرب العظمي لا نجد اثرا كبيرا لتلكالاحداث فى كتابات كبلنج . أما « الامبريالية » فقد أصبحت مزيجامن الحماس البلاغى وملاحقةالمصالح الاقتصادية . وان كبلنج قد بدأ يشيخ ، ويجد قليلا منالامل فى التفاهم معالعالمالجديد .فقدراى أن الحرب جمعتبينأعضاء «الدمينون » طالما كانتالحربقائمة ، وبعدها بدات اطماعالفردية فى الظهور ،وبخاصةفي السياسةالاميركية مما أثار حنق كبلنج واثار موقفه القديم منالاميركان . ولكن السبب الاول فى ابتعاد كبلنج عن السياسة فى الحقبة الاخيرة من حياته هوانهيار صحته ، مما جعله اكثر انطواء علىنفسه . ولكنه بين ١٩٢٠ حتى وفاته كان يكثر منالاسفار ، تسرية وتسلية . فقد دفعته الرياح الى الجزائر والبرازيل وجمايكا وتشيكوسلفاكياوبلجيكا واسبانيا . وفىأوائل كانونالثانى يناير/

١٩٣٦ زاد عليه المرض وهــو فى فندق براونبلندن ، ونقل الى مستشفي (مدلسكس) حيث توفى في ١٩٣٦/١/١٧ ، واحرق جثمانة وأودعفى « زاوية الشعراء » على مقربة من تشارلــز ديكنز فى ويستمنستر ابى .

(٣)

نوئيل بابر : كان الاهالي كرماء .. فاقمنا الليلــة ـ لندن ١٩٧٧

مؤلف هذا الكتاب صحفي حتى العظــم ،انجليزى حتى النخاع ، يعشق المغامرة ويحب الحياة بشتى صنوفها وأحوالها ، يحب الناسجميعا يسخر من كل الناس مبتدئا بنفسه ــ كأى انجليزى عريق ــ ولا يعرف معنى كلمــةمستحيل ، ولا يقبل كلمة صعب . وهو يعرف على استعداد ليعمل كل شيء ، ويستمع الى كلشيء ، ويقابل أى انسان فى أى مكان بحثا عن المغامرة والطرافة والغرابة .. وقد يخيللقارىءسيرة نوئيل باربر ان الغرائب والعجائبوالطرائف هى التي تبحث عنه ، وليس هو الذى يبحثعنها . وقد يخيل للقارىء أن الرجل يبالغ في ما يقول ويحكى ، وقد ، وقد .. الخ ولكنيبقىشيء واحد واضح ، وهو ان الكتاب سلسلــة متواصلة الحلقات من القفشات ، والصــدفالعجيبة . ليس فى الكتاب عقد ولا مشاكل ، ولا بداية ولا نهاية ، ولا تواريخ متشابكــة ،ولا مسائل تحتاج الى تفسير ، ولا ظواهر تحتاج الى توضيح ... من أول كلمة فى المقدمة الىاخركلمة فى الكتاب تحس أن الرجل أمامك يحدثك ولا يكتب لك شيئا لتقرأه .. يحدثك : فلغتــهلغة الحديث لا لغة الكتابة ، وتكاد « تسمع » حديث باربر ونبرات صوته الخبيثة وحركــاتوجهه المعبرة وهو يروى لك طرفة أو يسرد لك حكاية وقعت له . ومن أجل ذلك لا أحسب أنترجمة هذا الكتاب الى لغة غير الانجليزية يمكن تحتفظ للكتاب بنفس النكهة مثلا . لان النقلسيذهب بحلاوة لغة الحديث . ولا أحسب أن عرض مثل هذا الكتاب يحتاج الى تحليــــل أوتعليق. فهذا كتاب أشبهبمعزوفةموسيقية جميلة كل ما يستطيع المرء فعله هو أن يعيد عزف تلكالموسيقى ليسمعها من جديد . ولا احسبني قادرا على أكثر من تلخيص ، واعادة رواية ما فىهذا الكتاب ، لمصلحة القارىء العربى الـــذى لا يستطيــــع قــــراءته فى الاصــل الانجليزىأو لمصــلحة القـــارىء الــذى لا يســـتطيع الحصول على الكتاب ، رغم أنني لا أجد سبباللك . فالكتاب حديث وقد صدر عام ١٩٧٧ ، وأحسب ان من يقدر أن يحصل عليه لن يلومنيعلى اقتراحى ، اذ سيجد القارىء ساعات مــن المتعة ليس في وسع كثير منا أن يفرط بها هذهالايام .. لسبب أو لاخر . هناضحك «متحضر» لا يستند الى نكات سمجة ، بل فكاهة سلسةتدور حول عشرات من الشخصيات التى عرفها الكثير من القراء العرب ، من مجرد الثقافــةالعامة والاطلاع على ما فى الدنيا من اخبار منذ عشية الحرب العالمية الثانية الى اليوم . هناصحفي يروى ما حدث له فىحياته الصحفيةخلال الاربعين السنة الاخيرة ،وهذه سيرة ذاتيةتصورعناد الانسان ان هو أراد النجاح فى مسعاه رغم الصعاب ، وهذه قصة انسان يضحك من كلشيء ، ولا يستسلم لاى عارض ، بل يواصــل مسعاه ولو بعد كبوة،ويضحك ، دائما يضحك.

يقع هذا الكتاب فى ٢١٨ صفحة من القطع المتوسط ، وهى تسعة عشر فصلا . وهو الكتاب السادس والعشرون من قلم الكاتب ، من بينها ثلاثة كتب بالاشتراك مع غيره . كتب نوئيل باربر فى التاريخ المعاصر ، والسيرة ، والاسفـار ، والسياسة والحرب . وهذا اخر كتبه أنجزه بين ١٩٧٥ ـ ٧٧ . فمنذ ان كان باربر في التاسعة من العمر كتب كتابا فى ثلاثين صفحة كان يطالب اصدقاء والدته بفلس واحد لقاء قرائته ، ومازال يكتب منذ ذلك التاريخ ، ويكسب ألوف الاضعاف عما كسب من كتابه الاول ذى الثلاثين صفحة . وفى الرابعة من عمره نشبت الحرب العظمي ، وكان فى الدانمرك مع والديه ، وكانت مغامرته الاولى ان الالمان طاردوا الباخرة التى اقلتهم الى بريطانيا واحتجزوها ثلاثة أشهر . ومنذ ذلك التاريخ لم ينقطع نوئيل باربر عن المغامرة . فهذا اذن كاتب مغامر منذ « نعومة اظفاره » واليوم وهو فى السبعين لا أحسب أن اظفاره بقيت ناعمه ، ولكنه ما زال « يتكلم » بروح شاب فى العشرين .

عنوان الفصل الاول : « الربيع فى باريس » يذكرنا باغنية (دوربس داى) وهى فاتحة جميلة لسيرة ذاتية تبدأ بقوله : ــ « ليس هذا الكتاب عن لعبة التنس ، ولكن ... » ثم يبدأ الشلال اللفظي ولا تعرف أين ينتهي . الصدفة وحدها ساقت الكاتب الى مونت كالو ليشهد لعبة تنس تغيب عنها احد اللاعبين فحل هو محله بالصدفـة ، ويبدأ صداقة مع (لورد روذرمير) في أواسط الاربعينات فى لعبة ربحها مع صديقه الجديد . يقدم الكاتب نفسه واسرته فى جملتين ويقفز الى ذكر رحلاته فى أرجاء العالم ، ثم يعود بخفة الى الحديث عن أسرته . عند نهاية الحرب عمل باربر محررا لجريدة (ديلي ميل) فى باريس وهو فى الخامسة والثلاثين . وفي الثالثة والاربعين أصبح مراسلا صحفيا فى البلاد الاجنبية ، وفى حدود الخمسين صار يكتب الكتب ليعيش ... احسن عيشة . وتبدأ الذاكرة تتطافر ، عن احـداث طفولته وشبابه وكهولته ، وليس من رابط منطقى يجمع بين ذكر حادثة واخرى . ليس غير التذكر ... يبدأ بقوله كيف انسى يوم كذا أو كـذا ، ويسرد لك حادثة لا تدرى لماذا يسردها ، ولكنها دائما حائة طريفة . مرة كنت أزور بيكاسو ... هكذا يبدأ باربر ... فجاءت امراة تجادله حول مبلغ كبير طلبه لقاء تخطيط ساذج فقال لهـا « يا سيدتى » ذلك التخطيط استغرقنى نصف ساعة ــ وخمسين سنة ــ لكى انجزه . ثم يعود الى مونت كارلو و « الصدفة » التى دفعته للعب الروليت بعد اختيار الرقم ٩ لانــه ولـد فى ١٩٠٩/٩/٩ . وبالصدفة كذلك يضع مبلـغ السبعين جنيها التى فى جيبه ويربح ألفا وخمسمائة دفعة واحدة يكنسها وكانه مقامر عريق . والحياة فى باريس عام ١٩٤٥ تثير الحنين لدى الكثيـر ممن عرفوها أو قراوا عنها . هنا مراسلون فى كل صحف الدنيا ، يعيشون عيش الكفاف وهـم سعداء لمجرد وجودهم في باريس . كانت وجبـة الطعام تكلف ٢٠ ــ ٣٠ باون تلك الايام ، وهى ليست مشكلة اذا استطعت أن تجد كرسيا غير مشغول فى أحد المطاعم . وفى ذلك الوقت كانت الاحداث تتسارع فى نهاية الحرب عندما كـان ترومن « يلمع » القنبلة الذرية استعدادا لالقائها على هيروشيما . وكان ديجول قد عاد الى فرنسا ولكن الاميركان تقاعسوا فى الاعتـراف بتلـك

الحقيقة ، مما أثار نقمة ديجول والفرنسيين على أميركا . وكان ذلك العام كذلك عام انتقام ديجول من « الخونة » الفرنسيين فى جماعة (بيتان) .

فى الفصل الثانى يقول بابـر ان « احسن الاشياء في الحياة تأتى مجانا » وهو يتحدث عن غلاء أسعار المطاعم والطعام فى باريس فى صيف ١٩٤٥ . ولكن باربر استطاع ان يقنع صاحب اشهر مطعم فى باريس (مكسيم) ان يقدم لـه ولضيوفه ما يعادل ربع مليون فرانك من الطعام شهريا مقابل ان يعلن عن المطعم فى جريدة (الديلى ميل) التى يحررها فى باريس نويل باربر . وكان باربر بذلك قد ربح مرتين :مرة بالحصول على تلك الكميات الضخمة من الطعام ومرة بالاعلان فى جريدته التى لا يعلن فيها أحد ، لانها تصدر بالانجليزية في باريس ولا يقراها سوى القوات البريطانية والاميركية ،وهؤلاء لا يأكلون عند (مكسيم) . ولكن الاعلان ذاته كسب اعلانات اخرى لانه اعلان عن (مكسيم) .

فى ذلك الوقت الذى كان من الصعب فيه اخراج النقود من مكاتب الديلى ميل في لندن كان على باربر أن يصدر الجريدة فى باريس بالحد الادني من النفقات سواء على الموظفين او على المساهمين فى الكتابة . وقد استطاع باربر أن يستكتب عددا من المشاهير الذين كان يعجبهم ان تظهر اسماؤهم فى جريدة قد مسها سحر باريس ، ولو بأقل المكافات عن مقالاتهم ، ازاء هذه الصعوبات المادية كان ثمة مفارقات عجيبة كان اغلب المحررين العاملين في الديلي ميل اليمينية يعملون كذلك فى (الاومانيتية)اليسارية على الجهة المقابلة من الشارع ، فى سبيل دخل اضافى . مرة فوجيء المحرر بزائر فرنسي عند أول بداية العمل فى الجريدة ، وكان الزائر مختصا « بالتدليك » . كان المحرر السابق يستخدمه ليعوض عن قلة التمرين الحركى بسبب الجلوس وراء المكتب ساعات طويلة . ولم يكن بوسع المحرر باربر دفع هذه النفقات الجديدة ولكنه لم يشأ أن يخيب أمل المسكين ، الذى كان « يدلك »للسيدات كذلك فى بيوتهن ، ومرة قال لباربر اثناء اداء الواجب : « انقلبى الى الجهة الاخرى يا سيدتى ! »

استطاع باربر أن يحصل على مواد لجريدته من وكالات الاخبار دون مقابل لان وكالات الاخبار العاملة فى باريس بعد الحرب كانت تحتاج نفسها الى الدعاوة وليس أفضل دعاوة من جريدة انجليزية في باريس تقرأ فى جميع السفارات ودوائر الحكومة . واذا كان (مكسيم) يفخر بالمشاهير الذين زاروا المطعم اثناء الحرب فقد استطاع باربر أن يجلب له مشاهير اخرين « ضيوفا » على باربر هذه المرة ،ويكسب الاثنان :باربر ومطعم مكسيم .

عنوان الفصل الثالث « وردة بين الاشواك »هو قلب متعمد من باربر لما يجب ان يكون « شوكة بين الورود » التى هى قائمة طويلة من المشاهير الذين عرفهم باربر فى باريس فى سنوات ما بعد الحرب ، ولكنه يدعوهم بالاشواك وهو الوردة بينهم . من أول هؤلاء المشاهير (دو ڤوندزور) الذى كان ملك بريطانيا عام ١٩٣٦ وتنازل عن العرش

لانه أصر على الزواج من اميركية ، فتولى الملك بعده جورج السادس من ١٩٣٦ ــ ١٩٥٢ .كان دوق وندسور قداعلن عن نشر مذكراته، فتخاطفهتا الصحف البريطانية لقاء مبالغ ضخمة . ولم يكن بمقدور باربر أن يدفع لينشر تلك المذكرات فى باريس ، ولكنه استطاع أن يفعل ذلك لقاء مبلغ زهيد ، لان الدوق كان يرحب بنشر مذكراتــه ليقرأها أصدقاؤه الكثيرون فى باريس ، وهكـــذا توطدت الصداقة مع باربر، الذى يقدم لنا صورة من قريب عن حياة « ملك سابق » يقيم فى باريس، وليس لديه ما يفعله سوى زيارة المتاحف ومحلات العاديات ، وينظر فى مفكرته ليرى ما يجــب أن يفعله بعد ذلك .

و « الشوكة » الثانية التى عرفها « الوردة » باربر فى باريس اسمها (أغا خان) والد (علي خان) العاشق الاكبر المزواج . كان باربر قــد ساعد فى نشر سيرة حياة أغا خان فتوطـــدت العلاقة . ولأن جميع المشاهـــير كانوا يمــرون بباريس بعد الحرب فقد مر « مشهور » آخر هو شقيق باربر (انتونى) العائد من الاسر فى المانيا ، والذى أصبح فيمـــا بعد وزيـــر الماليـــة البريطانى . ذهب الشقيقان الى ناد ليلى كان « يراعى ظروف النقص فى الاقمشة فى تلك الايام فكان أن وزعت ستة أثواب على اثنتى عشرة من فتيات النادى بحيث يستر بعضهن الجزء الاعلى من الجسم والبعض يسترن الجزء الاسفل » .

ثم جاء تشرشل الى باريس فى زيارة خاصة وحضر باربر دعوة غداء مع تشرشل وطلب منه فى آخرها مقابلة لجريدته حول آرائه عن مستقبل أوروبا . واستأذن تشرشل من زوجة السفير البريطاني فى باريس أن ينسحب الى غرفة نومه « ليناقش مع باربر مستقبل أوروبـــا » . وفى الغرفة استلقى عجوز بريطانيا على السرير طالبا من باربر أن يساعده فى نزع حذائه . وبعد أن فعل ذلك باربر قال تشرشل « كان من دواعى سرورى التعرف عليك فى هذه المقابلة ، مــع السلامة » .

وتوالى الزوار المشاهير على باريس ولكل واحد منهم قصة مع باربر : مسز هرست زوجة امبراطور الصحافة الاميركية ، المغنى الاميركى بنج كروسبى ، ايان فلمنج مؤلف جيمز بوند . وفى زيارات باربر الى جنوب فرنسا كان يلتقى بمشاهير آخرين ويحدثنا عنهم أحاديث : بيكاسو، سومرست موم ، ارسطو طاليس ، اوناسيس ، ليدى تشرشل ، ماريا كالاس . كان موم ناقمـــا على بريطانيا لأنها لم تمنحه وسام الاستحقاق وهو اشهر أديب بريطاني ، وفى مقابلة مع باربر نجد صورة للعجوز الغاضب فى منفاه الاختيارى وكان يفسر (وسام الاستحقاق) بعبـــارة (مســـتوى الاخلاق) .

الفصل الرابع يتحدث عن « عزلة الكاتب » وهو سيرة ذاتية تختصر سنواته السابقة والاحداث التى انتهت به الى الاقامة فى باريس مع نهاية الحرب ليكون محرر الديلي ميل . عندما كـــان

فى السادسة عشرة ، كان نويل يقيم مع أسرته فى(دوناستر) وكان ينتظر منه أن يحصل على وظيفة دائمة . ولكن نويل كان يريد أن يصبح كاتبا ، ليهرب من الارتباط بالوظيفة . وكانت أولى مقالاته الصحفية وصفا لفعالية شباب الكشافة بخمسمائة كلمة نشرتها الصحيفة المحلية فى دونكاستر ، فالهبت حماس الفتى ليستمر .ولكن المحرر اراد استغلال الفتى فى كتابة عمود كل أسبوع ، ولو قدر له النجاح لحصل نويل على مكافأة رمزية فى عيد الميلاد . ولكن الوالد لم يعجبه ذلك وفضل لابنه العمل فى شركة الحلويات التى يديرها ، لأن « الدخل مضمون رغم قلته ».
لم يكن نويل يعرف أحدا من الكتاب فى ذلك الوقت ليشجعه فى مساعيه ، لذلك ثقلت عليه العزلة .
وفى أوائل الثلاثينات كان يكسب حوالى ألف باون سنويا من مبيعات الحلويات ، بينما لم تكن الكتابة تدر عليه شيئا ذا بال . ولكن مساعيه للعمل فى الصحافة نجحت بالحصول على وظيفة فى جريدة (يوركشاير بوست) فى مدينة ليدز وهو فى السادسة والعشرين من العمر ، عام ١٩٣٥ .
فى ذلك الوقت كان نويل قد كتب تسعة عشر كتابا رفضها الناشرون جميعا . واثناء عمله فى الجريدة خطر له أن يكتب عن خبرته فى التقارير الصحفية ،وكان أن باع كتابه الاول هذا لقاء عشرين باون فى أوائل عام ١٩٣٦ . ثم انتقل الى جريدة الديلى اكسبريس فى مانجستر وكله ثقة فى مواصلة كتابة الكتب . وهنا تدخلت روح المغامرة بحثا عن مواد للكتابة ، فقرر الابحار من ليفربول على ظهر باخرة اتجهت الى المكسيك ومنها على ظهر باخرة اخرى متجهة نحو سنغافورة حيث وصلها فى بداية عام ١٩٣٨ ، ليعلم ساعة وصوله ان محرر جريدة(ملايا تربيون) كان على وشك السفر فى اجازة ، وكان لا بد من بديل ، فتوظف نويل فى الحال وبقى فى سنغافورة سنة ونصف ، تزوج خلالها من (هيلين) وهي فتاة انجليزية مغامرة جاءت لتعمل فى تلك البلاد . ومع نشوب الحرب الثانية اضطر نويل الى ترك البلاد ، فقفل راجعا مع زوجته الى لندن عن طريق هونج كونج ، شنغهاى ، بكين ، ثم استقلا قطار سيبريا الذى استغرق ٢١ يوما للوصول الى موسكو . وفى ثانى أسبوع من وصوله لندن اشتغل فى الديلى اكسبريس ثانية ،ثم انتقل الى الديلى ميل فى أوائل ١٩٤٠ ، وعمل فى الاذاعة البريطانية ونشر كتابين .. كل ذلك فى ظروف الحرب الصعبة . ولما كان اخواه قد تطوعا فى الحرب ، فقد أراد نويل كذلك أن يتطوع فى القوة الجوية . وكانت المغامرة فى الفحص الطبى ، الذى طلب منه (نموذج ادرار) ولكنه لم يستطع تقديم نموذج وهو يقف فى صف طويل من المتطوعين . ولمحه العريف ، فهمس فى أذنه :« لعب يدك بكم قرش ، وانا اضع فى قنينتك نصف ادرار الرجل الواقف أمامك » ونجحت الحيلة ، والتحق بالقوة الجوية وما لبث ان أرسلوه بمهمة سرية الى أميركا استغرقته حتى أوائل عام ١٩٤٥ ، وعاد الى بريطانيا فى قافلة بحرية أغرق الالمان منها خمس بواخر . ولما وصل لندن كان ينتظر ان يعود الى السلاح الجوى باعتباره ضابط احتياط . ولكن الديلي ميل كانت تبحث عن مراسل خارجى ، فذهب الى فحص الاحتياط واستطاع ثانية أن يقدم رشوة للعريف،عشرة باونات هذه المرة ، « سقطت منه عن غير قصد » . وظهر أن انجلترا كانت « ما تزال تثق بالباون الاسترلينى » . فتأجل طلب نويل للسلاح الجوى ، وسافر الى باريس بعد ثلاثة أيام ليحرر النسخة الاوربية من الديلى ميل .

فى الفصل الخامس يتحـدث باربـر عـن« الجنس والرجل والاعزب » . هنا يخبرنا باربر بكل صراحة وطرافة عن مغامراته مع النساء منذان كان فى الثامنة عشرة من عمره يقضى اجازة فى كوبنهاجن ، فى انتظار والده . وفى الفندق تعلقتبه سيدة فرنسية كانت تنتظر وصول زوجها هى الاخرى ، وكان ذلك فى عام ١٩٢٧ ، وباربر مايزال فى اول الشباب . وفى عام ١٩٣٨ يروى باربر مغامرة عجيبة أخرى مع (سلطان جوهور) فىسنغافورة ، الذى كان يعيش فى (قصر النعيم) وياكل فى صحاف من ذهب . اجتمع باربر مـع السلطان فى مناسبة ، واراد السلطان أن يشكر باربر على معروف قدمه اليه . وعند انتهـاءالعشاء « صفق السلطان فدخل سرب من الصبايا الآسيويات ، وكان على ضيف الشرف باربر أنيختار اثنتينمنهما لقضاء الليلة فى « قصر النعيم » ليتبعه الآخرون ، فيأخذ الواحد منهم « حصتين»لتلك الليلة » . ويستغرق باربر فى وصف ذلك المحيط الخرافى الذى لا وجود له خارج حدود(الف ليلة وليلة) الا فى سايغون كما يصفها باربر فى السنوات التي سبقت الحرب الثانية . وفىسايغون كان باربر فى وسط يعج بنساء اللذة ، اكثر من سنغافورة وقصر سلطان جوهور . هناككان بوسع المرء أن « يشترى زوجة » لسنة أو اثنتين ، وهو ما كان يفعله الاوربيون العاملون فىسايغون ، حتى ولو كانوا متزوجين فى بلادهم . يقدم لنا باربر وصفا أخاذا لمدينة سايغون التيتجد فيها ملامح كثيرة من باريس فى طراز البناء والسيارات وتصرفات الاوروبيين ، وهم فرنسيونفى الغالب .

وفى الفصل السادس ((الحقيقة العارية))يقدم لنا باربر وصفا لا يقل « قبحا » عن حياة الفجور فى سنغافورة وسايغون . المكان هذهالمرة باريس عام ١٩٤٥ ، فى ناد ليلي تديره المغنية السحاقية (سوزى سوليدر) . كان باربر يرتادهذا النادى لانه يشكل مصدرا للقصص المغرية عن باريس بعد الحرب لكثرة الشخصيات البارزةالتى كانت ترتاده . ثم دعته (سوزى) الى اجازة آخر الاسبوع الى دارها الريفية فى ضواحـــىباريس مع عدد من العاملات فى ناديها للتمتـــع « بحمام شمس » وكان هو الرجل الوحيد .وعلى نفس الوتيرة يروى باربر كيف حضر مرة الحفلة السنوية لنادى « رابطة الشمس والهواءالوطنية البريطانية » فى عام ١٩٤١ ، وهو فى الحقيقة أحد « نوادى العراة » فى بريطانيا . لقدذهب هناك كمراسل صحفـى بعدمـا شـاعت الشائعات عما يدور فى ذلك النادى والبلاد فىأخطر سنوات الحرب .

فى الفصل السابع يتحدث باربر عن « فنمضغ الكلمات » ويروىمغامراته فى الكتابةللصحف الاميركية بحثا عن مدخول اضافى . حاول باربرلسنة كاملة ولكنه لم يجد من يشترى مقالاته ، فآمن بقول برنارد شو « ان العالم القديم والجديدتفرقهما لغة مشتركة » . اذ يبدو أن باربر كان يكتب لغة لا تجد من يستسيغها فى اميركا ، رغمانها لغة انجليزية . وخطرت له فكرة « باريسية » وهي أن يجمع عددا من « صفات » الشراب فىباريس وفى البلاد التي زارها ويصنع منها كتابا بعنوان « شربت فى طريقى حول العالم » استطاعباربر ان يستشير اهتمام جميع اصحاب المطاعم التى عرفها فى جولاته ، اذ كان يوجه اليه رسالةبتوقيع « المحرر » فعلت فيهم فعل السحر لان

فى ذلك دعوة للمطاعم دون مقابل، فكانوا يرسلون أوراق المطاعم الرسمية وعليها وصفة الشراب ، فراح باربر يجمعها ويقدم لها تقديما قصيرا . ثم ارسل الكتاب الى مجلة (ترو) فى نيويورك التي سارعت بارسال ألف دولار ، وهو اعلى مكافأة حصل عليها صحفى حتى تلك الايام .

واعقب ذلك ضربة حظ ثانية . فقد التقى باربر صدفة بصديق قديم مع ابن عم له وقد تزوج حديثا من اميركية تملك وكالة أنباء . وكانت الوكالة تطلب مراسلين فى باريس ممن يستطيعون كتابة عمود اسبوعى عن اى شـيء فيه نكهة باريسية . وسرعان ما اتفق باربر مع أصحاب الوكالة وقدم أول مقالة نالت الاعجاب . واستمر باربر يراسل تلك الوكالة كل اسبوع ، ضامنا مرتبا شهريا استمر اكثر من ثلاثين سنة حتى صدور هذا الكتاب .

« شيء ذو قيمة » هو عنوان الفصل الثامن الذي يتحدث فيه باربر عن رفقة الرسامين فى مونمارتر والحي اللاتيني فى باريس فى أواخـر الاربعينات . هنا يذكر باربر عددا كبيرا مـن الرسامين الذين عرفهم فى تلك الايام ، وكان باربر نفسه يمارس الرسم ، « فكان يذهب بصحبة احد البوهيميين فى الحي اللاتيني او مونمارتر ليبدأ الرسم « فى السادسة صباحا » وبعد ذلك يذهب الى عمله فى الجريدة . ومن غرائب طباع اولئك الفنانين ما يرويه باربر عن « شفارتز » الذي كان يعطي لوحاته لباعة الخضار واللحوم مقابل ما يحصل منهم من طعام . كان بعضهم يقدم لوحاته الى صاحب حانوت يبيع مـوادالرسم من زيت والوان ومواد أولية ، وبذلـك يأخذ الفنان تلك المواد بيد ويرسم بها ليقـدم النتيجة باليد الاخرى . وهكذا الحياة البوهيمية والا فلا ! ومثال آخر من تلك الحياة يسوقـه باربر عن الرسام (اتريللو) الذي كان لا يصحو من الخمر الا ليزيد فى الشراب ، ولا يتوقف عن رسم مشاهد الثلج والشتاء فى باريس . ومرة قرر (اتريللو) ان يتمتع باجازة فى جنوب فرنسا حيث المناخ الدافىء والشمس المشرقة .. وراح يرسم هناك ثلاثة أشهر دون توقف وارسـل لوحاته فى رزمة كبيرة الى باريس . ولما فتح الصندوق وجدوا أن كل واحـدة من لوحات الساحل اللازوردي الدافىء كانت تصور مناظر الثلج فى مونمارتر .

كان باربر على صلة مع بيكاسو فى هذه الفترة كذلك ، ويروى عنه هذه الحادثة : كـان لدى بيكاسو شاب يساعده فى صنع الخزف ،وكان بيكاسو يشجع هذا الفتى الفقير . فلما تزوج الشاب استأجر دارا متواضعة جدرانها من طين . وفكر بيكاسو فى اهداء العروسين هدية مناسبة . وما كان منه الا ان ذهب الـى الدار الطين وطلى جدرانها بألوان عجيبة ورسم على كل حائط صورة لا تقدر بثمن . واسقـط فى يـد العروسين . فلم يكن بالامكان « بيع » تلـك الرسوم الجدارية وتقرر غلق الدار واعتباره من « املاك الدولة » لان خبراء المتاحف لم يجدوا وسيلة « لاقتلاع » الصور من الجدران ونقلها الى مكان آخـر .

وفى تلك الايام كانت باريس تمتلىء بالفنانين من بلاد العالم اجمع . وقد تعرف باربر علـى

رسامة من روسيا البيضاء كان لها شأن فى عالم الرسم واسمها (كونتشاروفا) تقيم مع زميلها (لاريونوف) الرسام . كان الاثنان يعيشان عيشة الكفاف فى شقة ضيقة تشرف على نهر السين . وكان بارير يزورهما مرة فعرف ان ممثلا من متحف (جورجنهايم) الاميركي قد جاء ليشتري لوحة من الفنانة الروسية ، ودفع لها مبلغا ضخما . ولكن الفنانة كانت تعرف ان بارير قد اعجب بتلك اللوحة ، وكا بارير يقدم لها ولرفيقها مبالغ من المال على سبيل « القرضة الحسنة » . وكانت الفنانة لا تريد بيع اللوحة وتريد قهر اشهر واغنى متحف فى العالم . فقررت فى الاخير ان « تعطي » اللوحة الى الصديق بارير وتنتصر على المتحف الاميركي .

« **تدخل تيتينا** » **عنوان الفصل التاسع** ، الذي يتحدث فيه بارير عن فراقه عن زوجته الاولى (هيلين) التي تزوج منها فى سنغافورة عام ١٩٣٨ وبقيت تعيش فى لندن اثناء اقامته فى باريس يعيش حياة العزاب . كان الفراق ضروريا لكليهما ، وصعبا على بارير ، الذي لم يكن يستطيع اصطحابها معه فى باريس فى حياة الصحفى القلقة واسفاره الكثيرة . وفى عام ١٩٥٣ توقفت الديلي ميلى الباريسية عن الصدور وتفرق اعضاء التحرير وكان على بارير ان يبحث عن عمل جديد . وما لبث ان اقنع مكتب لندن بالبقاء فى باريس ليكتب لهم مرتين فى الاسبوع . وفى هذه الاثناء عرضت عليه الخطوط الجوية البريطانية رحلة مجانية الى جزر الهند الغربية وعرض عليه احد الاثرياء من معارفه الاقامة فى منزله فى جمايقا ، وهنا ارض جديدة للمغامرة وموضوعات جديدة للكتابة . وما لبث ان تلقى برقيه من الجريدة تطلب منه التوجه الى « هوندوراس البريطانية للكتابة عن الوضع السياسي والانتحابات المقبلة » وهكذا بدأ بارير عمله الجديد كمراسل خارجي واصاب نجاحا كبيرا ، دفع به فى مهمة اخرى الى غواتيمالا . وجاءته برقية ثالثة للتوجه الى باريس فى انتظار السفر الى الشرق الاقصى . وفى باريس تعرف على (تيتينا) .

كان التعرف خاطفا ، بدأ بنظرة وابتسامة وسلام . كانت ارملة شابة ومعها ابنها فى سن السادسة عشرة ، وقد توفي زوجها فى الحرب :ايطالية — رومانية ، فقرر الزواج منها كانت على وشك السفر الى نيويورك لتستقر فى اميركا . .وبعد ايام ودعها الى الباخرة ، ثم اشترى بطاقة سفر الى نيويورك وثلاث بطاقات عودة من نيويورك الى باريس . وعلى رصيف ميناء نيويورك كان بارير ينتظر تيتينا ، وما لبث ان عاد بها زوجة الى باريس .

« **السيدات اولا** » **هو حديث عن الزواج والزوجات الذين عرفهم بارير ، وهو موضوع الفصل العاشر** . كانت اول خسارة فى مغامرة الزواج ان بارير خسر خادمه الآسيوي ، الذي لا يطيق ان يشاركه سلطان البيت احد ، حتى ولا زوجة مخدومه ، فتلاشى من الوجود بشكل غامض . وكان من معارف بارير مستشار السفارة البريطانية بباريس ، ثري فى الثمانين من العمر ، ولكنه يعشق الحسناوات . فكان يقيم كل يوم **غداء فاخرا تحضره كثيرات من حسان** باريس ، واختار واحدة لتكون وريثته . ولكنها اصيبت بمرض عضال وتوفيت قبله . اما علي

خان ابن أغا خان الكبير فكان له مع النساء قصص وحكايات . شهد بارير زواج علي من ريتا هيورات . وفي ليلة العرس طلب علي من بارير ان يوصل ريتا الى الدار بسيارته ! وخرجت ريتا من حياة علي خان لتدخل أخرى من قريبات زوجة بارير ، وتمكث قليلا لتخرج هي الاخرى . وهذه المغامرات في أمر آلم بايـر كثيرا ، لان « علـي فتى طيب جدا » .

يتحدث الفصل الحادي عشر عن « الحياة الزوجية » كان أول ما فعلته تيتينا ان رمت جميع الاثاث في بيت بارير من الشرفة الى الشارع ، لانها اشترت غيره للحياة الزوجية الجديدة . لم يكن منظر فراش في وسط شارع على ضفة نهر السين شيئا مألوفا في باريس . ولكن زوجة بارير فعلت ذلك . وفي أول يوم من الحياة الزوجية اكتشف الزوجان أن بارير وزوج تيتينا السابق قد ولدا بنفس اليوم وان تيتينا وزوجة بارير السابقة قد ولدتا بنفس اليوم كذلك) هل سيقوم هذا الزواج الجديد الى نهاية غير سعيدة كالزواج السابق ؟ وقرر الزوجان شراء دار في سويسرا والاقامة بعيدا عن صخب باريس . وما لبثا ان اكتشفا ان صاحب مكتب العقار في مدينة (رول) السويسرية هو مدير البنك ومدير شركة الكهرباء ومدير شركة الماء كذلك . وعندما انتهت التصليحات في البيت الجديد جاءت الحسابات مضطربة حول مصروف الكهرباء ، ولدى الاستفسار تبين ان (مسيو بيتر) مدير شركة الكهرباء قد أخطأ في الحساب الذي أرسله الى (مسيو بيتر)مدير البنك . . . وعندما ولدت للزوجين الجديدين أول طفلة اضطرا لاستقدام فتاة دانمراكية للاشراف على الطفلة . وجاءت الدانمركية في كامل البزة الرسمية ونياشين الخدمة الممتازة ، وبدات الطفلة تنام نوما عميقا يصل الى عشرين ساعة كل يوم ، مما أبهج الوالدين فلقباها « بلقب الفتنة النائمة » وبعد فترة وجيزة اكتشفت الام ان المربية الدانمركية تحتفظ في حقيبتها « بحبوب منومة » كل واحدة مقسمة الى أربعة أقسام متساوية ، فظهر سر النوم العميق عند الطفلة ، كما ظهر اين كانت تختفي ملاعق الفضة من الدار ، يوما بعد يوم .

« الاماكن العجيبة » عنوان الفصل الثاني عشر . كان العمل الصحفي يحمل نويل بارير الى أغرب الاماكن . مرة ذهب الى ادغال السودان في مهمة صحفية وكاد أن يضل الطريق مع صحفي آخر . وفجاة لمح بارير على البعد رجلا بلون الفحم ، وجسمه العاري الفارع يستند الى رمح . كان الرجل يشكل خطرا على الاثنين على ما يبدو . وتقدم زميل بارير في حركة بطولية من الزنجي الفارع المخيف وخاطبه بالانجليزية بلهجة متعالية يسال عن مدرسة زراعية في المنطقة . وما كان من الزنجي الا ان أجاب بلهجة انجليزية سليمة ، دون ان يفارق انحناءته : « تقصد المدرسة الزراعية ؟ روعة من الروائع . بعد القرية بثلاثة أميال الى الشمال . هل أنتما من أهل الصحافة ؟ هه ! لقد قابلت امثالكما عندما كنت في كمبردج ... » وتبين ان الرجل قد درس الزراعة في جامعة كمبردج ، وكان زعيم قبيلته ، وقد عاد ليضع معرفته موضع التطبيق ، بعد ان نزع ملابسه ... الانجليزية ، وعاد الى سابق طبيعته السليمة .

وفى احداث المجر عام ١٩٥٦ كان باربر هناك ايضا ، يساعد المجريين ، ويغطي أنباء القتال . ولما اكتشف امره اطلق عليه النار جندي روسي فاصابه فى راسه وادخل المستشفى لعلاج ٥٢ جرحا فى رأسه . وكان بقاؤه فى المستشفى مجلبة للخطر ، فهرب بملابس النوم الى الحدود النمساوية . ثم اخذه العمل الصحفي الى هونولولو « وصادف » وجود ممثلة متقاعدة من هوليود تستلقي تحت شمس الشواطىء . و« صادف » ان تلك الممثلة كانت تسكن الى جوار أسرة باربر فى مدينة (هل) بشمال انجلترا أعالم صغير !

ي فى **الفصل الثالث عشر يتحدث باربر عن « الطبقة الحاكمة »** . وهنا نسمع قصصا عن دوق وندزور ، الملك امبرتو ملك ايطاليا السابق ، ماوتسي تونغ ، الرئيس سنغمان ری ، مونتغمري وايان سمث . وربما كانت أمتع قصة هنا عن الملك حسين . كان باربر قد قابل الملك حسين فى مناسبات عديدة ، وخطر له ان يتعاون مع الملك فى كتابة سيرته . فوافق الملك وجاء باربر وزوجته والطفلة (سيمونيتا) للاقامة فى عمان والعمل على كتابة السيرة . هنا يبدي باربر اعجابه الكبير بالملك حسين ودماثة اخلاقه وتواضعه وكرمه . ويروى انه جلس مع الملك مرة للمناقشة حول الفصل السادس من السيرة ، وبخاصة الصفحتين ١٤ ، ١٥ . وفاجأه الملك بزيارة فى منتصف النهار ورأى ان يأخذ الاوراق معه ليفكر فيها . وخاف باربر على النسخة الوحيدة أن تضيع . ولما ارتفع الملك حسين بطائرته الهيلوكبتر ، رأى باربر غمامة بيضاء تخرج من الطائرة : الفصل السادس يتطاير فى الهواء . وسرعان ما خف الشرطة لجمع تلك الاوراق المتطايرة حول التلال المحيطة بعمان ، وجمعوا أوراق الفصل السادس عدا ورقتين : الصفحتين ١٥ ، ١٦ اياهما !

فى الفصل الرابع عشر نقرأ عن ثلاثة من « الاماكن البعيدة » التي زارها باربر . ففي ١٩٥٧ ذهب فى مهمة صحفية الى القطب الجنوبي ، فوصله فى ١٩٥٧/١١/٣١ وكان أول بريطاني يصل تلك البقعة من العالم بعد الكابتن سكوت ، وهنا نجد وصفا عجيبا للقطب الجنوبي تكاد تحس بالانجماد يسري فى أوصالك وانت تقرأه . وبعد القطب الجنوبي تسلم باربر أمرا بالتوجه الى البحار الجنوبية الدافئة ، الى جزيرة تقع على بعد ٧٠٠ ميل الى الغرب من تاهيتي ، ليقابل رجلا من نيوزيلندا قضى فى تلك الجزيرة خمس سنوات وحيدا ، وهو على عتبة الستين من العمر ، كان هذا الرجل (توم نيل) مهندسا فى سفينة أثناء الحرب الثانية وقد مر بتلك الجزيرة ، وقرر فى أخريات عمره ان يعيش هناك « سعيدا » مثل روبنسن كروزو . كانت أول جملة سمعها باربر من نيل عندما قابله : « ماذا جرى لذلك الفتى المصور ؟ هل تزوج الاميرة مار جريت ؟ » والمكان البعيد الثالث الذي زاره باربر يدعى اقليم (هونزا) فى شمال الباكستان ، فى منطقة جبلية معزولة عن العالم « المتمدن » يعيش فيها ١٨ الف نسمه . سمع باربر بهذا المكان عن طريق صديقه علي خان فى باريس ، عندما جاء زعيم (هونزا) بالاسماعيلي ليقابل

علي خان . وعندما ذهب بارير الى (هونزا)وجد الناس فى أعلى درجات الصحة لانهم لا يعرفون السيارات ولا السلاح ويعيشون على اطعمة شتى مشتقة من المشمش ، الى جانب اللبن . اما الماء فهو ينزل من أعالي الجبال بعد ذوبان الثلوج ويجرف معه من الاملاح المعدنية ما يقاوم كل مرض . ليس فى ذلك الاقليم نقود ولا تجارة ولا اتصال بالعالم الخارجي ... والكل فى غاية السعادة .

فى **الفصل الخامس عشر ((الغذاء جاهز))** يتحدث بارير عن اختفائه فى منطقة بالملايو مع بعض المحاربين الذين اقتطعوا فخذ احد ((الاعداء)) وصنعوا منها ((ستيك)) قدموه لغذاء بارير فوجده لحما للذيذا لا يختلف عما يقدم فى كثير من مطاعم العالم ! وسمعت السنداي اكسبرس بالخبر فنشرت عنوانا عريضا يقول (شقيق وزير المالية من اكلة لحوم البشر) .

وفى باريس اجتمع بارير مع احد الجنرالات الفرنسيين الخبراء فى شؤون جنوب شرق آسيا وطلب منه مقابلة ، فأجاب الجنرال : ((لا بأس ، ما رأيك فى العشاء معا مساء السبت القادم) فى سايغون طبعا !)) وكانت سايغون على بعد ٧١٣٠ ميلا من باريس ، واليوم الاربعاء ، فطار بارير الى سايغون بعد ان اتفق مع جريدة نيويورك تايمز على نشر المقال . وبعد عشاء السبت مباشرة طار بارير عائدا الى باريس ومعه مقال ممتاز مليء بالتوقعات عن حرب فيتنام . ودفعت الجريدة الاميركية الف دولار مكافأة للصحفي بارير .

الفصل السادس عشر عنوانه : ((توقف طبيعي)) يروي فيه بارير كيف اضطر الى التوقف عن العمل الصحفي لمدة ستة اشهر ، بسبب ((طبيعي)) كان مبعثه حادث اصطدام مروع وقع له وهو يسوق سيارته على الرفيرا الفرنسية ، فى يوم عاصف ممطر ، فدهمته من الخلف سيارة فرنسية فيها أربعة رجال ، كانت تنطلق بسرعة فى ظروف الطرق الصعبة . عندما أفاق بارير من الصدمة وجد نفسه فى سيارة مهشمة ، وعلى جانبي الطريق سيارة ستروين شطرت شطرين وفيها أربعة قتلى ، كل اثنين على جانب من الرصيف . كان بارير يبدأ عطلة ستة اسابيع من عمله الصحفي ، واتفق ان يقابل زوجته وأولاده فى نيس ، وكانت مفاجأة الاصطدام . واذ استطاع الاتصال بمكتب الديلى ميل في باريس ، نقل على الفور فوجد نفسه فى مستشفى يحيطه اربعة اطباء فرنسيين ، وبدات خياطة جروح الراس ، تاركين الفخذ اليسرى على التوائها . ثم التفتتوا الى جرح بسيط فى المرفق ، رفضوا وضع شريط لاصق عليه لأن ذلك ((غير جميل)) والرجل ذو الستين عاما مكسر العظام والمفاصل . وبدا الاطباء يختصمون حول عدد القرزات الضرورية لذلك الجرح ولكن أسنان بارير كانت تتدلى من فمه . ثم انتقل الاطباء الى الركبة اليمنى التى كان فيها جرح أبسط مما أصاب بارير مرة اثناء لعب كرة القدم . ولكن القرزات واجبة ، طالما أن بارير رياضي يلبس (الشورت) الذي يظهر الركبة ..

اذن يجب الا يظهر على الركبة تشويه . ولكن ماذا عن الذراع الملتوية ، والاصابع المتخدرة والقدم المرضوضة والفخذ الشمال ؟ الجمال اولا ، حتى على حساب الكسور فى العظام . انتظر دقيقة ! وغاب الاطباء وجاء غيرهم للفحوص الشعاعية ، فظهر ان الفخذ الشمال مكسورة فى خمسة مواضع ، وتبدو اقصر من الفخذ الثانية بخمسة سنتيمات .. ولكن الناحية الجمالية تاتى أولا عند الطبيب الفرنسي ! .

ودخلت الزوجة فجاة ، فحاول الاطباء منعها . كان طبيبان يتناقشان عن موعد العملية الضرورية فصاح احدهم بصاحبه :« مستحيل ، الخميس عندى موعد للصيد » وذلك يعنى أن باربر يجب أن ينتظر . متى أبعد غد . يؤسفنى يا سيدتى أن أقول من الضرورى بتر الساق (وصعقت الزوجة وركضت الى أقرب تلفون لتتصل بباريس ويرتب أمر نقل باربر بطائرة خاصة الى لندن وهو مجبر من الراس الى القدم . وفى الطريق من مطار لندن الى المستشفى طلب باربر من السائق أن يتوقف عند أول مشرب لتناول قدح من الجعة الانجليزية) كان راى الطبيب الانجليزى أكثر تطمينيا ، على أن يصبر باربر على الاقامة فى المستشفى أربعة اشهر . وكان الانقطاع الطبيعى عن العمل الصحفى وبعد سنة من الحادث عاد باربر الى فرنسا ليشترك في مسابقة بالتنس . وكان لطف الله ، وعزيمة المريض أقوى من راى الجراحين ونظرياتهم الجما لية .وكان القدر الذى جعل الزوجة تتأخر يوما آخر فى باريس ، لتحضر الى المستشفى وتغير خطط الجراحين فى مستشفى باريس .وبرغم كل ما حدث يقول باربر انه لم يشعر بخوف قط ، بل كان أول خاطر له يقول« يا خسارة ، ضاعت الاجازة » .

فى الفصل السابع عشر « نصيحة من جندى عفيف » حول أسلوب الكاتب وشروط النجاح . يرى بابربر أن من الضرورى للكاتب الناشىء ان يعرض اعماله على خبير فى الكتابة ، شريطة أن يصارحه الرأى حول نوعية المعروض. وهنا كذلك يروى لنا باربر حادثة نادرة عن كتاب له حصل على مديح مفرط من كاتبة شهيرة كانت صديقة له ، ولكن نفس الكتاب حصل على رأى مناقض تماما من « وكيل أدبى » له خبرة بعالم النشر وشروط النجاح . فى غالب الاحيان لا يكون مديح الصديق على صواب .

في الفصل الثامن عشر «بلاد النجاة المفقودة» حنين الصحفى القديم الى جميع البلاد التى زارها وعمل فيها قبل ان يقعده المرض وتتقدم به السن . وفى تلك السن المتاخرة قام باربر بزيارة تاهيتى ، وقابل توم نيل ذلك الروبنسون كروزو المعاصر ، وكتب ثلاثة كتب عن خبرته فى الشرق الاقصى وزار سنغافورة بعد غياب أكثر من ثلاثين سنة ، وزار الدالاى لاما فى منفاه فى شمال غربى الهند ، بعد أن اضطر لانتظاره كى يفرغ من طقوسه الدينية التى تستغرق ثمانى ساعات . وبالرغم من منزلته الدينية الكبيرة كان الدالاى لاما نموذجا من التواضع . فقد ذكر باربر عرضا أثناء المقابلة

ان ساعة يده غير دقيقة فطلب الدالاى لاما ان يفحصها لعله يستطيع اصلاحها . ولكنها ساعة رولكس ذهب « هدية من الملك حسين » . وقبل ان يكمل باربر جملته بدأ الدالاى لاما يفك الساعة الرولكس ، فاصلحها ، ولم يضطرب سيرها منذ ذلك اليوم .

الفصل التاسع عشر والاخير فى هذا الكتاب عنوانه « البقية تاتى ... » وكان باربر وهو يشارف السبعين يعدنا بقصص واحاديث جديدة لم يخبرنا عنها بعد . يعود للحديث عن أسرته ، وعن تقلبات الزمان بهم ، واطرف خبر فى ذلك ان والدته قد توفيت وكان والده فى الثانية والستين ، فتزوج بعد ذلك بسنوات ، وقبل ان يتوفى فى الرابعة والسبعين من عمره انجب طفلة ، كان نوئيل اكبر منها بأربعين سنة فقط . وعندما التحق بالقوة الجوية كان يصطحبها فى بعض الاحيان ويسيران معا فى شوارع المدينة . مرة سمع احد المارة يقول : « هذا العجوز القذر ، مع هذه الطفلة ؟ » فأجابه على الفور : « كيف تجرؤ على مثل هذا الكلام أمام اختي ؟ » .

* * *

الكتابة العربية عنصر زخرفي

محمد مصطفى *

فى القرون الثلاثة الاولى بعد الهجرة ، كان هناك تفاهم روحى بين الشعوب الاسلامية فى جميع الانحاء ، وكان العلماء والفنانون يتنقلون من بلد الى آخر من بلاد الدولة الاسلامية ، التى كانت تمتد من الهند وبلاد ما وراء النهر فى أواسط آسيا ، حتى المحيط الاطلسى . وكانت اللغة العربية لغة العلم والحضارة ، يتحدث ويكتب بها العلماء فى جميع البلاد .

كما ساعد تنقل الفنانين على انتشار فن اسلامى ، له طابع خاص ، تتميز به التحف الفنية ، فجعلنا نشعر لاول وهلة أنها تنتمي الى وحدة فنية واحدة ، تربط بينها بالرغم من بعد الشقة بين البلاد التى صنعت فيها والعصور المختلفة التى ترجع اليها .

ويختص الفن الاسلامى وحده ، دون غيره من الفنون باستعمال الكتابة العربية كعنصر زخرفى ، لما تتميز به حروف الكتابة من جمال ورشاقة ومرونة ، وقابلية على التشكيل والتصنيف .

ومثال على ذلك مجموعة من ست بلاطات من الخزف (شكل ١) من صناعة آسيا الصغرى فى القرن ١١ هـ (١٧ م) ، عليها

* كتب الاستاذ محمد مصطفى هذا البحث بالانجليزية، وترجمه محمد عبد العزيز الى العربية .

كتابة عربية لشعار يقرأ : « لا شرف أعلى من الاسلام » . وقد راعى الفنان فى كتابتها أن تظهر فى انسجام وتناسق ورشاقة ، كما زخرف الارضية خلف الكتابة بفروع نباتية دقيقة مزهرة ومورقة ، وهادئة الالوان ، ليزيد من جمال الكتابة ومن الغرض الزخرفى .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٥٠٠٧ ــ ٦٧ × ٤٣ سم » .

● ● ●

والتحف المنشورة هنا محفوظة فى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، أو فى مجموعات أخرى سوف نذكرها الى جانب كل تحفة على حدة . وكثير من هذه التحف لم يسبق نشره، وتنشر هنا لاول مرة ، وجميع الصور المنشورة هنا من تصوير محمد مصطفى كاتب هذا البحث .

● ● ●

ونجد فى سجلات التحف المحفوظة فى خزائن القصور والكنائس القديمة فى أوروبا ، أمثلة متنوعة الاشكال ، من صناعة مصر أو غيرها من الاقطار الاسلامية الاخرى ، من بينها تحف من الزجاج والبللور الصخرى والخزف والديباج والسجاد ، وزاد فى جمال وسحر هذه التحف حروف الكتابة العربية التى اندمجت فى الزخارف ، وكونت معها وحدة واحدة .

وقد وصلت هذه التحف الى أوروبا عن طريق التجارة ، أو تبادل الهدايا ، او كانت مما أحضره معهم الحجاج، والرحالة، وقناصل الدول وسفراؤها ، أو غيرهم من عشاق الفن من الاوروبيين ، الذين استهواهم ما فى هذه التحف من خيال رائع ، وجاذبية ساحرة وانسجام ، فكانوا يحفظونها فى قصورهم ، أو يودعونها نذورا فى خزائن الكنائس .

ونلاحظ انه يوجد فى كنوز الكنائس الاوروبية وكاتدرائياتها ، كثير من التحف الاسلامية المهداة من أصحابها المتدينين ، كانت تستعمل فى الاغراض الكنسية ، والطقوس الدينية ، كأوعية للعشاء او لحفظ الماء أو الدم المقدس ، بالرغم مما عليها من كتابات عربية اسلامية .

وفى كنيسة مريم العذراء بمدينة جدينيا (دانزيج) يوجد رداء كهنوتى من الحرير (شكل ٢) تزخرفه أشرطة من كتابات دعائية ، لاحد سلاطين المماليك ، من القرن ٨ هـ (١٤م) . وحائك هذا الرداء لم يتعرف على الحروف العربية ، فجعلها مقلوبة فى الجانب الايسر وصحيحة الوضع فى الجانب الايمن . وكذلك القساوسة الذين لبسوا هذه الاردية كانوا يعتبرون أشرطة الكتابات العربية ، كتصميم زخرفى بحت .

« كنيسة مريم العذراء بمدينة جيدينيا (دانزيج) » .

● ● ●

وظل العرب يحكمون فى صقلية اكثر من قرنين من الزمان ، وكان تأثيرهم فى الفنون واضحا ، فى فن العمارة او فى الفنون الزخرفية . ومن الصناعات التي اشتهرت بها صقلية ، صناعة نسج الحرير خصوصا فى عصر النورمانديين الذين جاءوا الى الحكم فى القرن ٥ هـ (١١ م) ، فأسسوا مصانع حكومية للنسيج (طراز) ، كما فعل معاصروهم من الفاطميين فى مصر ، واستمروا فى استعمال عناصر زخرفية عربية من بينها أشرطة من الكتابات العربية .

وفى متحف الكنوز بمدينة فينا عباءة ثمينة ، هى عباءة التتويج (شكل ٣) يزخرفها رسم سبع ينقض على جمل ، وعلى حافة هذه العباءة شريط من كتابة عربية ، يقرأ منها أن العباءة صنعت فى مدينة بالرمو

بصقلية ، سنة ٥٢٨ هـ (١١٣٣ م) ، للملك النورمندى روجر الثانى . وتدل هذه الحقيقة والتفاصيل ، على أن التقاليد الفنية الاسلامية ــ بما فى ذلك الكتابة العربية ، كانت ما زالت تستعمل فى ذلكالعصر فى صقلية . وبعد تتويج الملك هنرى السادس فى مدينة بالرمو ، أخذ معه عند عودته الى فينا هذه العباءة وأودعها بين أدوات التتويج ، فى ممتلكات أسرة هاسبورج .

●●●

وكان للعلاقات التجارية مع المدن الايطالية دور رئيسى ، فيما يتعلق بالتبادل الفنى بين أوروبا والبلاد الاسلامية . وصك تجار البندقية دنانير من الذهب ، عليها كتابات عربية ، لاستعمالها فى التجارة مع البلاد الاسلامية ، وظلت هذه الدنانير شائعة الاستعمال ، حتى القرن ٧ هـ (١٣ م) حين اعترض البابا على ذلك .

●●●

واستعمل الكثيرون من مصورى عصر النهضة فىأوربا حروف الكتابة العربية لأغراض زخرفية . وعلى سبيل المثال ، فانهم عندما كانوا يريدون تصوير السيدة العذراء او السيدات النبيلات فىملابس الحفلات الرسمية ، والاعياد التقليدية ، كانوا يزخرفون أطرافها بحروف من شبه كتابة عربية .

وفى معرض أوفيترى بمدينة فلورنسا لوحة تمثل تتويج السيدة العذراء رسمها المصور فراليبوليبى ، وترى فى صورة مكبرة لبعض تفاصيل هذه اللوحة (شكل ٤) ملائكة يرفعون شريطا عليه كتابة عربية .

« معرض أوفيترى ، بمدينة فلورنسا » .

ويوجد أيضا بمدينة فلورنسا ، فى قصر بيتتى لوحة من عمل المصور فرانسيسكو كاروتو ، فى القرن ٩ هـ (١٥ م) وهى تمثل صورة السيدة اليزابيث جونزاجو دوقة أوربينو (شكل ٥) ، وعلى رقبة الرداء الذى تلبسه زخرفة تشبه الكتابة العربية ، والرسم يمثل حروفا من شبه الكتابة العربية التي نراها فى اطارات البسط والسجاجيد الشرقية .

« قصر بيتي فى مدينة فلورنسا »

●●●

والواقع ان تجويد الخط العربى والدقة والكمال فى الكتابة ، ميدان واسع من ميادين الفنون الاسلامية ، اشتهر فيه كثيرون من الخطاطين ، تطالع اخبارهم فيما كتبه لهم المؤرخون فى كتب التراجم وكتب التاريخ ، بينما لم يصلنا سوى قدر ضئيل من تراجم الفنانين الآخرين الذين شاركوا فى انتاج التحف الاسلامية الرائعة .

ومن الطبيعيان تكون الكتابة العربية ملائمة للاستعمال فى الاغراض الزخرفية ، ولا يوجد فى اية لغة اخرى كتابة تصلح للاستعمال او تكون لها مرونة ما للكتابة العربية فى تشكيل العناصر الزخرفية . وتزودنا كتب الادب والفنون بأنواع وأساليب الكتابة العربية وتطورها على مدى العصور فى البلاد الاسلامية المختلفة . واسلوب الكتابة له أهمية كبرى فى تحقيق تواريخ صناعة التحف أو انشاء العمائر .

●●●

وليس هذا مجال الحديث عن طرز واساليب الكتابة العربية أو عن تراجم مشاهير الخطاطين ، ولكننى اقتصر هنا على استعراض الكتابة العربية واستعمالها على التحف الفنية كعنصر زخرفى فى مصر ، وفى القسم الشرقى من العالم الإسلامي .

غير اننا نذكر هنا نوعين رئيسيين من الكتابة العربية ، شاع استعمالهما فى جميع البلاد الاسلامية ، هما : الخط الكوفى ، والخط النسخى .

بقى الخط الكوفى يستعمل فى الكتابات التاريخية على العمائر ، والتحف الفنية ، حتى القرن ٦ هـ (١٢ م) . وينسب الخط الكوفى الى مدينة الكوفة ، وهى مركز ثقافى له شهرة فى الحضارة الاسلامية بالعراق ، حيث يحتمل ان يكون هذا النوع من الخط العربى قد استحدث واستعمل أولا ، وتظهر الكتابة الكوفية فى أول أمرها على التحف القديمة فى أسلوب بسيط ولكنه قوى ، دون نقط أو علامات تشكيل .

واستعمل الخط الكوفى منذ القرن ٢ هـ (٨ م) فى مصر والعراق وسوريا وبلاد فارس، وظل يستعمل مدى القرون الخمسة الاولى للهجرة فى الكتابات على العمائر وكتابة المصاحف ، كما نراه على صفحة من مصحف مكتوب على الرق (شكل ٦) محفوظ فى دار الكتب بمدينة جوتة فى المانية . وقد كتب هذا المصحف فى مصر فى القرن ٢ هـ (٨ م) بخط كوفى بسيط ، دون أية نقط أو علامات ضبط .

« دار الكتب بمدينة جوته فى المانيا » .

● ● ●

ونلاحظ فى القرن ٣ هـ (٩ م) تطورا فى الخط الكوفى جعله يبدو فى أسلوب زخرفى بحت . وفى حوالى القرن ٥ هـ (١١ م) كثر التشابك والتضفير ، وزخرفة الارضية بأوراق وسيقان وفروع نباتية ، فى أسلوب يعرف بالكوفى المزهر ، فاستغل الفنانون هنا جميع الامكانيات الزخرفية للخط الكوفى القديم ، وسرعان ما انتشر هذا التنوع الزخرفى للخط الكوفى وشاع فى جميع البلاد الاسلامية .

ومثال طيب لهذا النوع من الخط الكوفى المزهر نراه فى لوح من الرخام (شكل ٧) عليه كتابة بارزة بالحفر ، ترجع الى القرن ٥ هـ (١١ م) . وينبثق من حروف الكتابة فروع مورقة على شكل زخارف عربية .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، رقم السجل ١٥٥٤٣ ـ ١٨٠ × ٣٢٫٥ سم » .

وعلى قنينة عطر من البللور الصخرى (شكل ٨) نرى أن زخرفتها الوحيدة تتألف من عبارات دعائية لصاحبها ، بالخط الكوفى المزهر ، محفورة على بدن القنينة . وهذه القنينةمن صناعة مصر فى القرن ٥ هـ(١١م).

« متحف الفن الاسلامى ، رقم السجل ١٥٤٤٦ ارتفاع ٨ سم ، قطر ٢٫٣ سم » .

ومن انتاج مصر أيضا محراب صغير متنقل من الخشب (شكل ٩) للاستعمال فى المنزل ، أو أثناء السفر من القرن ٥ هـ (١١ م) . وعلى جانبي المحراب شكل عمودين وعليه كتابةكوفية مزهرةمنقوشة بالحفر فىالخشب.

« متحف الفنالاسلامى بالقاهرة ، رقم السجل ١٥٥٥٢ ارتفاع ٢٤ سم عرض ١٣٫٥ سم » .

وفى (شكل ١٠) نرى ورقة من مصحف كتب فى العراق ، ويرجع تاريخه الى حوالى القرن ٦ هـ (١٢ م) . وقد تعمد الخطاط أن يكتب المتن على أرضية من فروع وسيقان وأوراق نباتية ، ليزيد من جمال الكتابة التي تمتاز بالانسجام وحسن التوزيع .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، رقم السجل ١٣٩٩٦ ٣٣٫٧ سم × ٢٤ سم » .

وتوجد تحف من الخزف من صناعة بلاد ما وراء النهر ، من بداية القرن ٤ هـ (١٠ م)، وتزخرف هذه التحف كتابات عربية بالاسلوب الكوفى . ومن هذا العصر صحن من صناعة

سمرقند (شكل ١١) ، عليه بوسطه اسم الفنان « أحمد » تحيط به كتابة عربية بالخط الكوفى البسيط . وهذا دليل يثبت الى أى مدى كان استعمال الكتابة العربية ، كعنصر زخرفى فى هذا العصر المبكر .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، رقم السجل ١٥٥٨٦ قطر ١٩ سم » .

والى القرن ٦ هـ (١٢ م) يرجع صحن من الخزف ذى البريق المعدنى (شكل ١٢) من صناعة مصر ، تزخرفه على الحافة كتابة بالخط الكوفى الرشيق ، بوسطه زخرفة عربية من أوراق نخيلية محددة بالابيض على أرضية مدهونة بالبريق المعدنى . وعلى هذا الصحن من الخلف توقيع الخزاف المشهور « مسلم » .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، رقم السجل ١٥٦٥٨ قطر ٢٥ سم » .

ويزخرف هذا الشريط من الحرير (شكل ١٣) من صناعة ايران فى القرن ٦ هـ (١٢ م) كتابة بالخط الكوفى المزهر . ونرى توريقات من نوع الزخارف العربية تنبثق حروف الكتابة أرضية من زخارف نباتية ، وهذا مثال آخر لتطور الكتابة الكوفية نحو الاسلوب الزخرفى البحت .

« موسوعة الفنون الايرانية لوحة ٩٩٧ العرض ١٨٫٣ سم » .

وفى متحف فرير جاليرى ، بمدينة واشنجتون ، شمعدان من النحاس مكفت بالفضة (شكل ١٤) ، من صناعة الموصل فى القرن ٦ هـ (١٢ م) ، وفى أعلاه وأسفله شريطان بالبارز من اشكال سباع جالسة بينها منطقة عريضة يحدها شريطان رفيعان تزخرفهما كتابة عربية بالخط الكوفى .

« متحف فرير جاليرى بمدينة واشنجتون ارتفاع ٤٥٫٥ سم قطر القاعدة ٥٢٫٥ سم » .

والكوب من الخزف الايراني من نوع مينائي ، متعدد الالوان (شكل ١٥) من القرن ٧ هـ (١٣ م) ، يزخرف بدنه حيوانات خرافية تخطو بعضها خلف بعض . وعلى حافة الكوب كتابة دعائية بالخط الكوفى ، نراها باللون الاسود على الحافة من الداخل ، وباللون الابيض على أرضية زرقاء غامقة على الحافة من الخارج ، ليزيد الانطباع الزخرفى .

« متحف الفن الاسلامى رقم السجل ٣٦٠٠ ارتفاع ١١٫٥ سم قطر الفوهة ١١ سم » .

وفى خلال القرن ٥ هـ (١١ م) ، قل استعمال الخط الكوفى فى كتابة المخطوطات والمصاحف . غير أن استعمال الخط الكوفى استمر بعد ذلك لمدة طويلة لكتابة عناوين السور فى المصاحف بطريقة زخرفية ، كما نرى فى صفحة العنوان (شكل ١٦) من مصحف كتب للسلطان الاشرف شعبان ، فى النصف الثانى من القرن ٨ هـ (١٤ م) . وتتألف الزخارف من عناصر هندسية على شكل وردة تملأها زخارف عربية . وفى أعلى الصفحة واسفلها عنوان مكتوب بحروف كوفية زخرفية .

« دار الكتب المصرية ، بالقاهرة » .

●●●

ومن أمثلة الخط النسخي حشوة صغيرة من الرخام (شكل ١٧) ترجع الى عصر المماليك فى مصر ، فى القرن ٨ هـ (١٤ م) كتب عليها البسملة بخط نسخي بارز بالحفر على أرضية تقل بروزا ، وتتألف من فروع نباتية مورقة ، تلتف فى رشاقة وأناقة . والكتابة والزخارف على الارضية ، كلها منحوتة فى أعماق ومستويات مختلفة ، ليزيد ذلك من قوة تأثير وجمال التكوين الزخرفى .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، رقم السجل ٢٣٣٠ ٢٧×١١ سم » .

وفى بداية الامر ، كانت الكتابات بالخط النسخي تكتب على التحف الفنية بخط بسيط ، كما نرى فى قطعة من نسيج حرير (شكل ١٨) من صناعة مصر فى أواخر القرن ٦ هـ (١٢ م) عليها عناصر زخرفية منسوجة. وفى الوسط شريط عريض به جامات تضم كل منها بطة أو أرنبا ويحد هذا الشريط العريض من اعلا واسفل آخران ضيقان بكل منهما كتابة بالخط النسخي البسيط .

« متحف الفن الاسلامى رقم السجل ١٤٧٩٩ ١٥×٧ سم » .

ومن صناعة الموصل أيضا شمعدان من النحاس المكفت بالفضة (شكل ١٩) من أوائل القرن ٧ هـ (١٣ م) ويزخرف هذا الشمعدان شريطان رفيعان بهما كتابة دعائية بالخط النسخي ، ويحدهما من اعلى واسفل شريطان عريضان ، عليهما صور سباع بارزة. ويعلو جدار الشمعدان تماثيل طيور صغيرة، تبدو وكأنها شرفات . ويشبه هذا الشمعدان شمعدان آخر محفوظ فى متحف فرير جاليري بمدينة واشنجتون ، نشرناه هنا فيما سبق (شكل ١٤) ويرجع تاريخه الى النصف الثانى من القرن ٦ هـ (١٢ م) ، ولذلك كانت الكتابات عليه بالخط الكوفى ، ونلاحظ ان الشمعدان فى (شكل ١٩) الذى يرجع تاريخه الى حوالى خمسين سنة بعد ذلك ، تزخرفه كتابات مكتوبة بالخط النسخي وليس الكوفى ، بينما بقيت الاشرطة الزخرفية الاخرى كما هي واحدة فى الشمعدانيين .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٥١٢٤ ارتفاع ٣٣ سم قطر القاعدة ٣٩ سم » .

وعلى قنديل من الزجاج المموه بالمينا المتعددة الالوان (شكل ٢٠) من صناعة مصر فى عصر المماليك ، فى أواخر القرن ٧ هـ (١٣م) شريط من كتابة الخط النسخي باسم الامير الطنبغا تتخلله جامات بكل منها رنك هذا الامير ويتألف من سبع على بقجة مربعة . وشارة السبع نراها فى رنك السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى ، مما يجعلنا نرجح أن الامير الطنبغا هو احد أمراء هذا السلطان .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٨٠٢٨ الارتفاع ٥ر٢١ سم القطر ٥ر١٨ سم » .

والمشكاة من الزجاج المموه بالمينا المتعددة الالوان (شكل ٢١) ، عليها شريطان عريضان من كتابات بالخط النسخي ، أحدهما على الرقبة لآية النور بالمينا الزرقاء ، والآخر على البدن لكتابة دعائية بالمينا البيضاء ، باسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، والكتابات على أرضه من فروع نباتية بيضاء ملتفة بأوراق زخرفية حمراء . وهذه المشكاة عثر عليها فى مسجد بناه الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨ م) .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٣١٣ ارتفاع ٥ر٢١ سم قطر ٢٤ سم » .

● ● ●

وسورة الفاتحة فى (شكل ٢٢) فى مصحف السلطان الاشرف شعبان ، الذى ذكرناه فيما سبق ، نرى على هذه الصفحة نص السورة مكتوبا بالخط النسخى الجميل بينما كتب العنوان فى أعلى وأسفل الصفحة فى شكل حشوة مستطيلة ، وبالخط الكوفى الزخرفى . وكما ذكرنا فان هذا المصحف كتب للاشرف شعبان فى النصف الثانى من القرن ٨ هـ (١٤م).

« دار الكتب المصرية بالقاهرة » .

والكوكب من الخزف (شكل ٢٣) من صناعة مصر فى عصر المماليك ، فى القرن ٨ هـ (١٤ م) ، نجد أن زخرفته الوحيدة عبارة عن كتابة دعائية بالخط النسخي بحروف طويلة مرتفعة .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٥٥٩١ ارتفاع ١٣ سم قطر الفوهة ١٠ سم » .

ومن عصر المماليك ، فى مصر أيضا من القرن ٨ هـ (١٤ م) ، سلطانية من الخزف (شكل ٢٤) فى وسطها رسم زهرة اللوتس على شكل رنك ، يحيط بها شريط عريض به كتابة دعائية بالخط النسخي .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٣٧٤٣ ارتفاع ٥ر١٣ سم قطر ٢٤ سم » .

●●●

واحيانا نجد هذين النوعين أساسيين فى الكتابة العربية : الكوفى والنسخي مجتمعين على تحفة واحدة امعانا فى زيادة التأثير الزخرفى .

ومثال لذلك تركيبة من الخشب وجدت فى القبر للمشهد الحسينى فى القاهرة يغلب انها صنعت فى عصر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فى أواخر القرن ٦ هـ (١٢ م) وعلى الجزء الذى يظهر فى (شكل ٢٥) نرى ثلاثة أشرطة ، عليها كتابات قرآنية ، الاوسط منها عريض وبالخط الكوفى المزهر ، ويحده من أعلاه وأسفله شريطان بالخط النسخي . والكتابات فى الاشرطة الثلاثة محفورة باتقان ودقة على أرضية من فروع نباتية مورقة تلتف برشاقة وتناسق فى أعماق ومستويات متعددة ، وقد استعمل الفنان كلا النوعين بمهارة ودقة ليزيد من جمال الزخارف .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٥٠٢٥ »

كما نجد هذين النوعين من الكتابة : الكوفى والنسخي مجتمعين فى ابريق من النحاس المكفت بالفضة (شكل ٢٦) وهو من صناعة أيران فى القرن ٦ هـ (١٢ م) تزخرفه أشرطة بها كتابات دعائية بالخط الكوفى أو بالخط النسخي ، وعلى الرقبة بالبارز أشكال سباع.

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٣٢٩٢ ارتفاع ٧ر٣٧سم »

وبالخط الكوفى وبالخط النسخي أيضا نرى كتابات على محراب من بلاطات الخزف من صناعة قاشان (شكل ٢٧) وعليه تاريخ سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦) ، وتوقيع الحسن بن عرب شاه وتتألف الزخارف من عناصر زخرفية عربية وأشرطة من كتابات كوفية أو نسخية.

« متحف الفن الاسلامى ، من متاحف الدولة فى برلين ارتفاع ٢٨٤ سم » .

ومثال آخر نراه فى سطح كرسى من النحاس المكفت بالفضة (شكل ٢٨) ، فى وسطه اسم « محمد » بالخط النسخي تحيط به كتابة دعائية بالخط الكوفى الزخرفى باسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون والقابه. وتتكرر هذه الكتابة مرة أخرى على الحافة ، ولكن بالخط النسخي ، وتتخللها فى الاركان رسوم بط طائر ، ورسوم البط الطائر نراها على عدد التحف باسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ويظهر أنها كانت ترمز اليه . وعلى هذا الكرسى توقيع الصانع محمد بن سنقر البغدادى ، وتاريخ سنة ٧٢٨ هـ (١٣٢٧) .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٣٩ ارتفاع ٨١ سم قطر ٣٠ سم » .

والمقلمة من النحاس المكفت بالفضة والذهب (شكل ٢٩) على قاعدتها من الداخل كتابة دعائية بالخط النسخي باسم السلطان المملوكى المنصور محمد بن قلاوون ، الذى حكم مصر حوالى السنتين فى النصف الثانى من القرن ٨ هـ (١٤ م) . وعلى الغطاء كتابة بالخط الكوفى الزخرفى ذات حروف أطرافها مجدولة ومتناسقة ، ويحيط بالكتابة زخارف نباتية دقيقة من وردات وزهرات لوتس صينية .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٤٤٦١ طول ٣٢ سم عرض ٩ سم ارتفاع ٨ سم » .

●●●

وفى خلال القرن ٧ هـ (١٣ م) تطور الخط العربى فى ايران ، واصبحت الحروف تنساب الى اليسار والى اليمين وسمى « خط التعليق » . وفى القرن ٩ هـ (١٥ م) ازداد التنميق والتعديل فى « خط التعليق » الى أن وصل الفنانون والخطاطون الى أصول خط « النستعليق » . وهذا أسلوب رشيق لحروف فيها استدارة ، تجمع بين ملامح خط النسخ وخط التعليق .

وعلى قطعة من نسيج الحرير (شكل ٣٠) من صناعة ايران فى القرن ٨ هـ (١٤ م) ، نرى عليها أشرطة بها من كتابات بالاسلوب الايرانى للخط النسخي وهذه القطعة محفوظة فى فيرونا ، فى ايطاليا .

●●●

« موسوعة الفنون الايرانية لوحة رقم ٩٩٦ »، « فيرونا، ايطاليا عرض ٩ر٨ سم » .

وأحيانا لم يكتف الفنانون باستخدام أساليب الكتابة العربية فى أشكالها البسيطة ، بل حاولوا ان يتفننوا فى اللعب فى أشكال الحروف المفردة ، وذلك برسمها فى اشكال تنتهى برسوم مجدولة ، كما رأينا على غطاء المقلمة فى (شكل ٢٩) .

وهذا هو الحال فى كتابة نراها على بدن شمعدان من النحاس (شكل ٣١) عليه كتابة دعائية باسم السلطان الاشرف قايتباى وتنتهي حروفها الطويلة بأشكال مجدولة تشبه المقصات .

وعلى حافة هذا الشمعدان شريط ضيق فيه سطر من كتابة نسخية ، يقرأ منها ان السلطان الاشرف قايتباى قد اوقف هذا الشمعدان على الحجرة النبوية الشريفة فى سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢) .

متحف الفن الاسلامى فى القاهرة رقم السجل ٤٠٧٢ ارتفاع ٥ر٤٨ سم قطر القاعدة ٥٧ سم .

« متحف الفن الاسلامى فى القاهرة رقم السجل ٤٠٧٢ ارتفاع ٥ر٤٨ سم قطر القاعدة ٥٧ سم » .

●●●

ومرة أخرى يسبح الفنان فى أفق الخيال، ويجعل حروف الكتابة تنتهى بصور أشخاص فى مناظر صيد وموسيقى وطرب ، ويرسم بدلا من نقط الحروف رؤوس حيوانات وطيور .

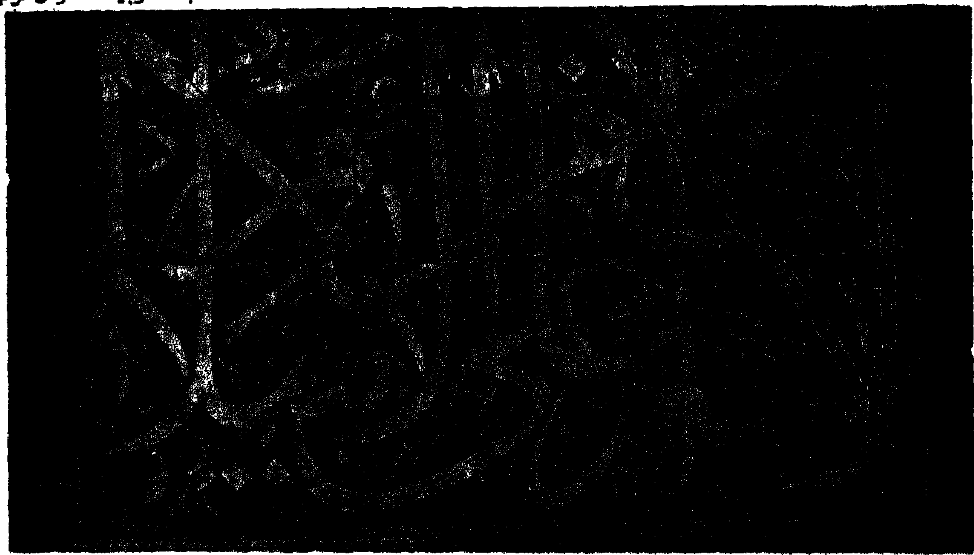
ومثال لهذا الاسلوب الفنى ، نراه على رقبة شمعدان من النحاس المكفت بالفضة والذهب (شكل ٣٢) ، تزخرف الشريط العريض منه كتابة دعائية من هذا النوع ، وعلى القسم العلوى من هذه التحفة سطر كتابة نسخية باسم السلطان العادل كتبغا المنصورى الذى تولى الحكم فى مصر لفترة قصيرة في سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٤ م) .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، رقم السجل ٤٤٦٣ ارتفاع ١٤ سم قطر ٥ر٨ سم » .

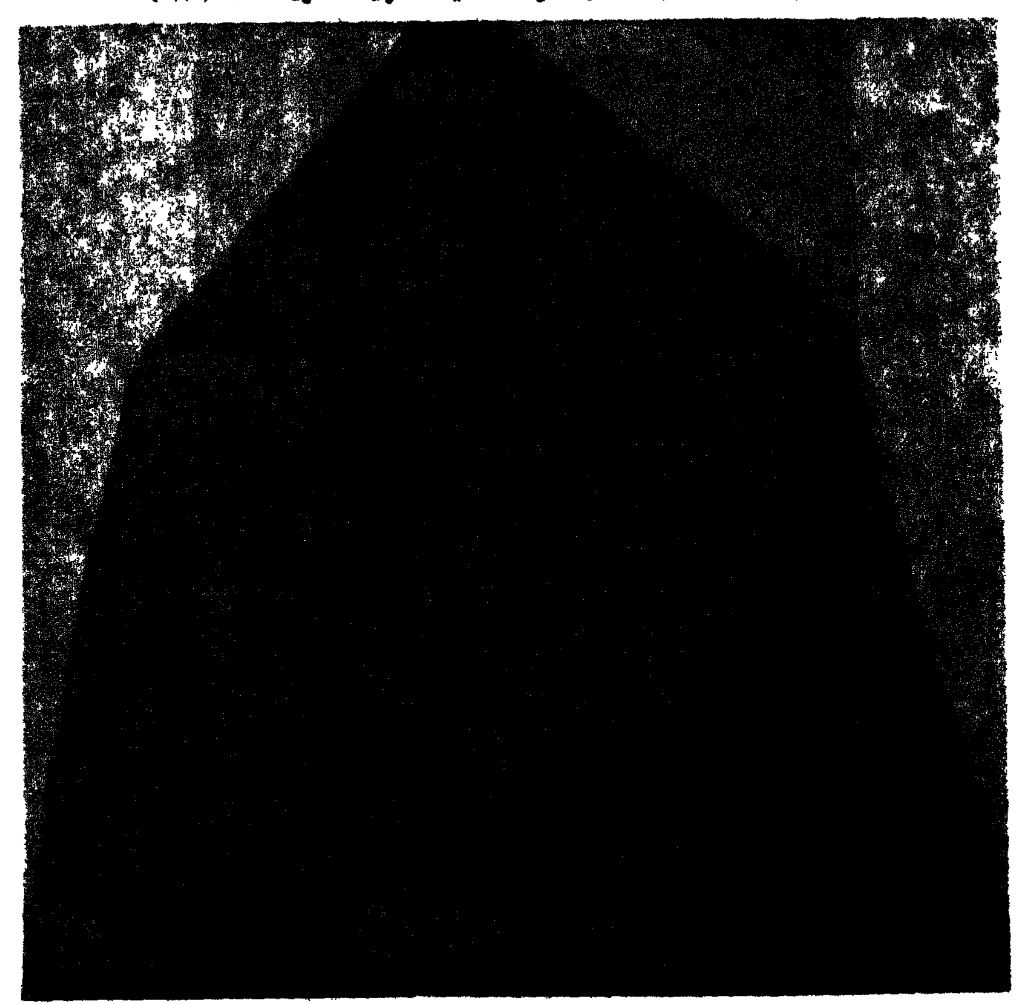
●●●

واتخذ الفنانون ، فى جميع البلاد الاسلامية الكتابة العربية ببراعة فائقة كوسيلة للربط بين الوحدات الزخرفية ، أو بملء مناطق وجامات بكلمات ، أو بأبيات من الشعر .

وعلى قطعة من النسيج (شكل ٣٣) من صناعة مصر فى القرن ٢ هـ (٨ م) ، نرى عليها العناصر الزخرفية مرسومة بخطوط هندسية ، تمثل وحدة زخرفية تتألف من فارسين على الجياد فى أسفل كل منهما



(شكل ١) مجموعة من ست بلاطات من الخزف ، آسيا الصغرى ، القرن ١١ هـ (١٧)



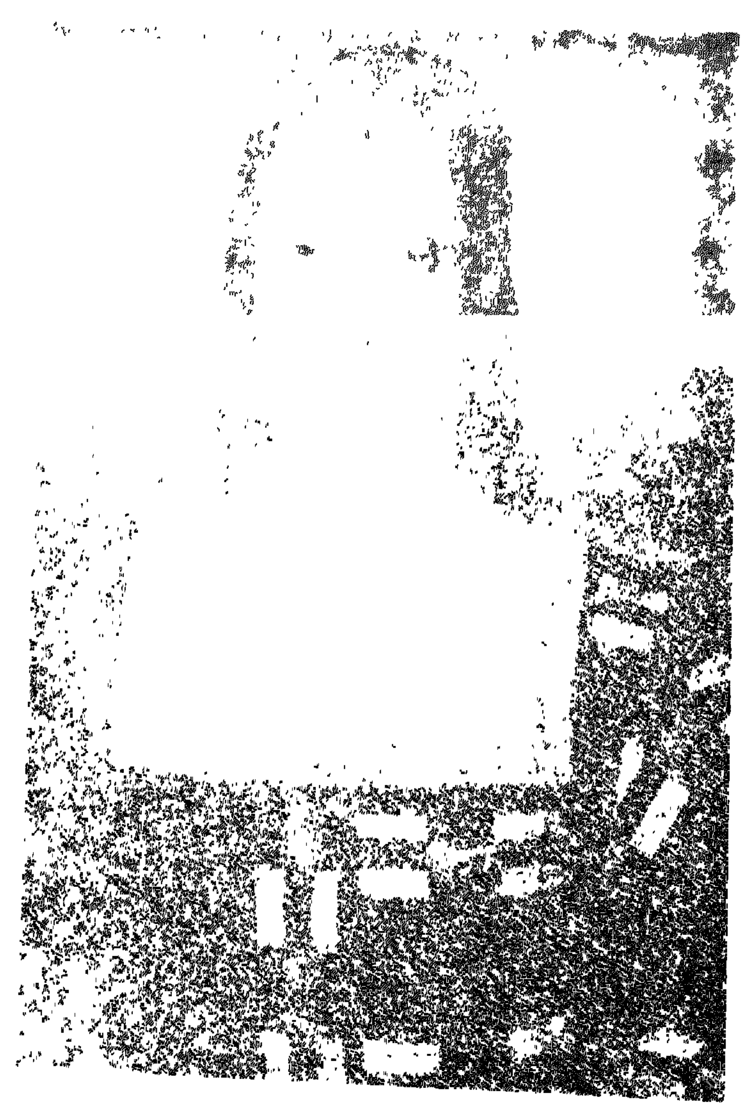
(شكل ٢) طراحة من الحرير محفوظة فى كنيسة مريم العذراء بمدينة دانزيج ، مصر ، القرن ٨ هـ (١٤)



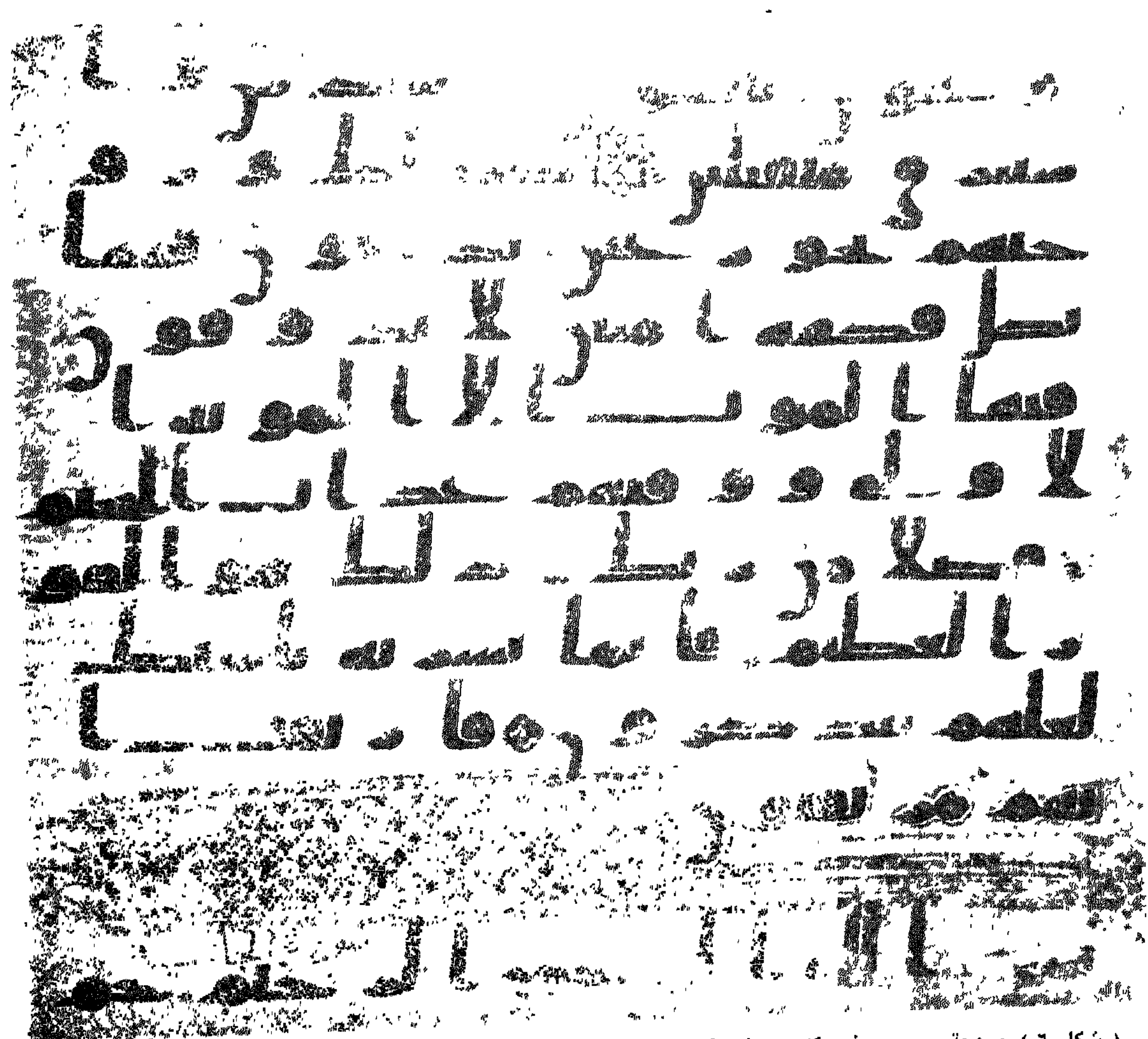
(شكل ٣) عباءة التتويج ، محفوظة في متحف مدينة فينا . صقلية ، سنة ٥٢٨ هـ (١١٣٤)



(شكل ٤) صورة تتويج العذراء للمصور فراليبو ليبي ، محفوظة في متحف مدينة فلورنسا ايطاليا ، سنة ١٤٠٦ ـ ١٤٦٩



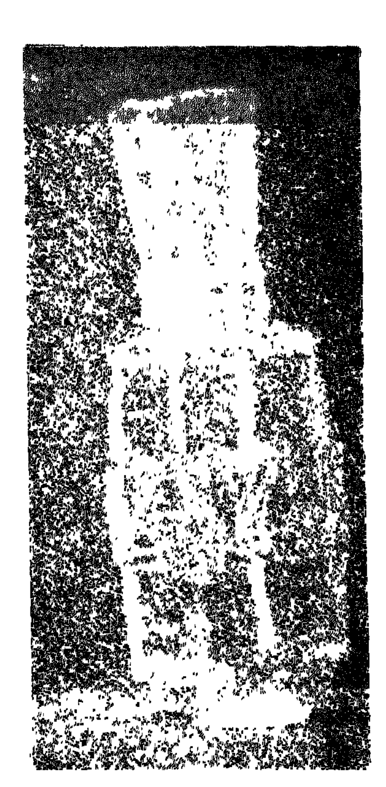
(شكل ٥) صورة السيده اليزابيتا جونزاجا [illegible]
أوربينو ، للمصور فرانسيسكو كاروتو ، [illegible]
بمدينة فلورنسا . ايطاليا ، سنة ١٤٧٨ – ١٥٥٥



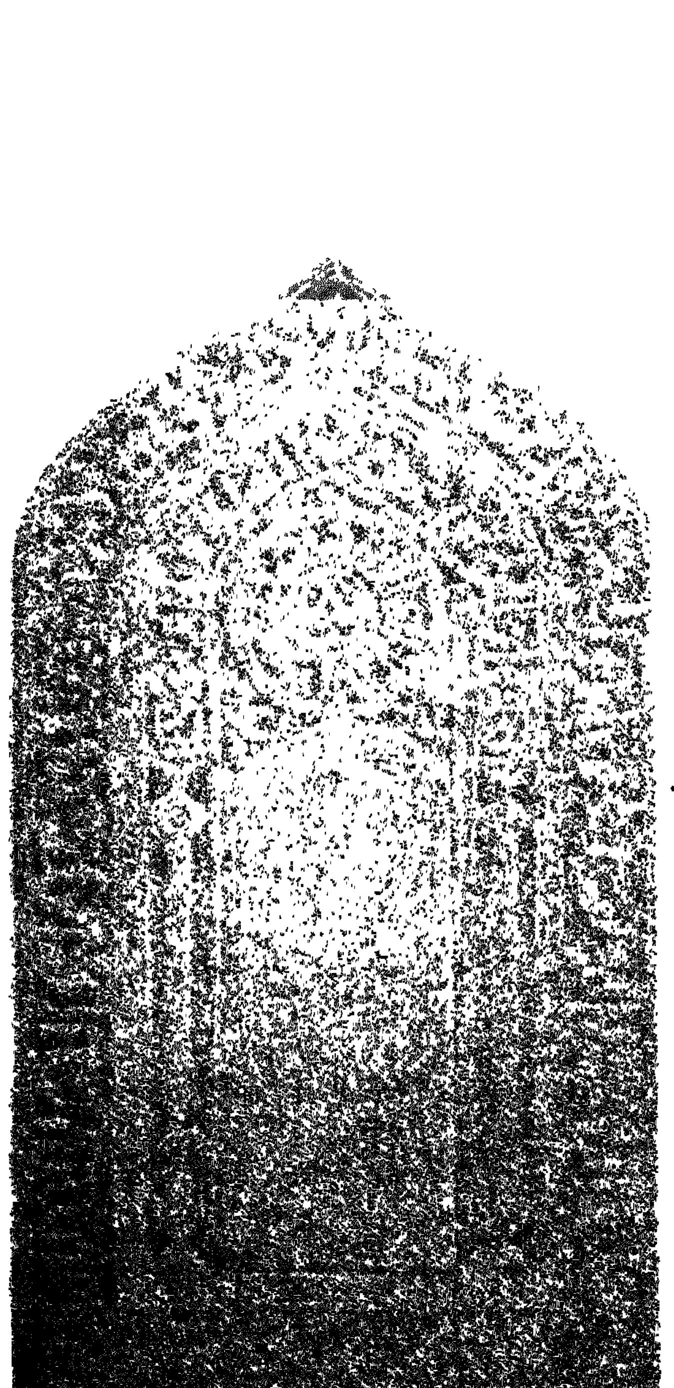
(شكل ٦) صفحة من مصحف مكتوب على الرق ، محفوظة بدار الكتب فى مدينة جوبا . مصر ، القرن ٢ هـ (٨)



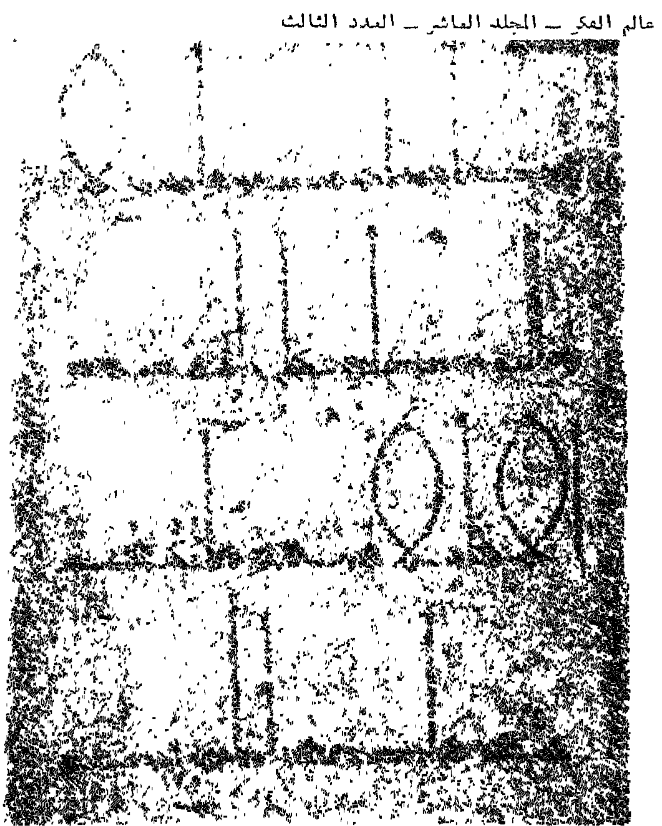
(شكل ٧) لوح من الرخام . مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



(شكل ٨) قنينة من البلور الصخري .
مصر ،القرن ٥ هـ (١١) .

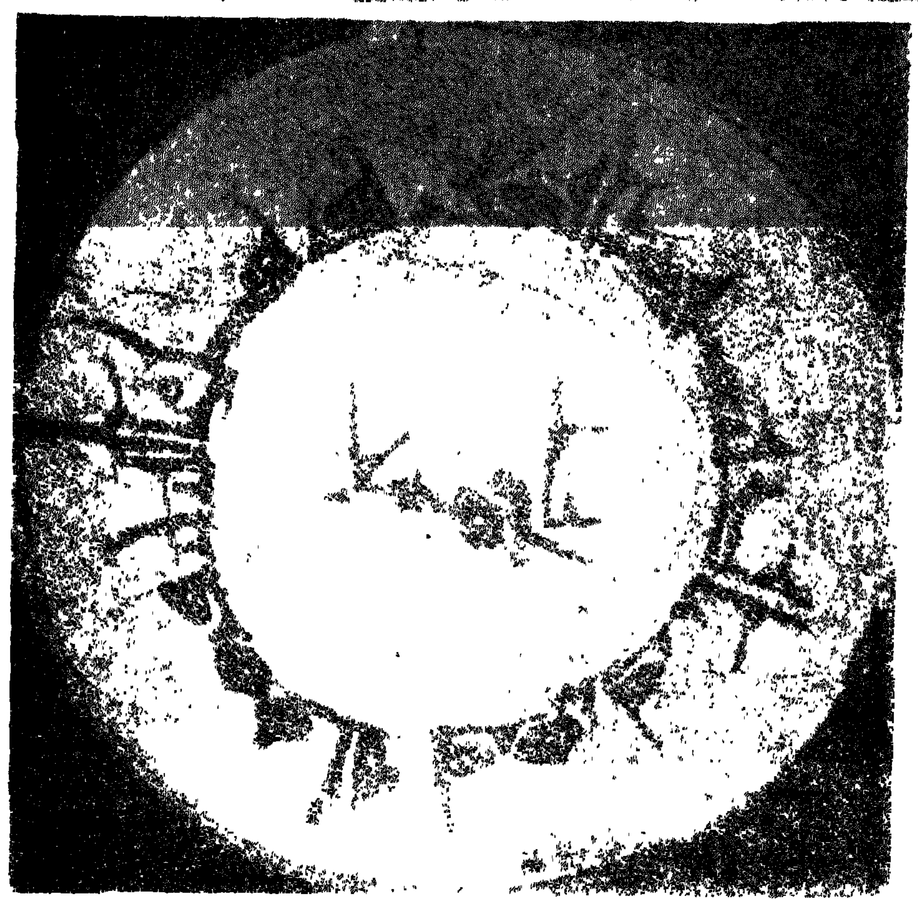


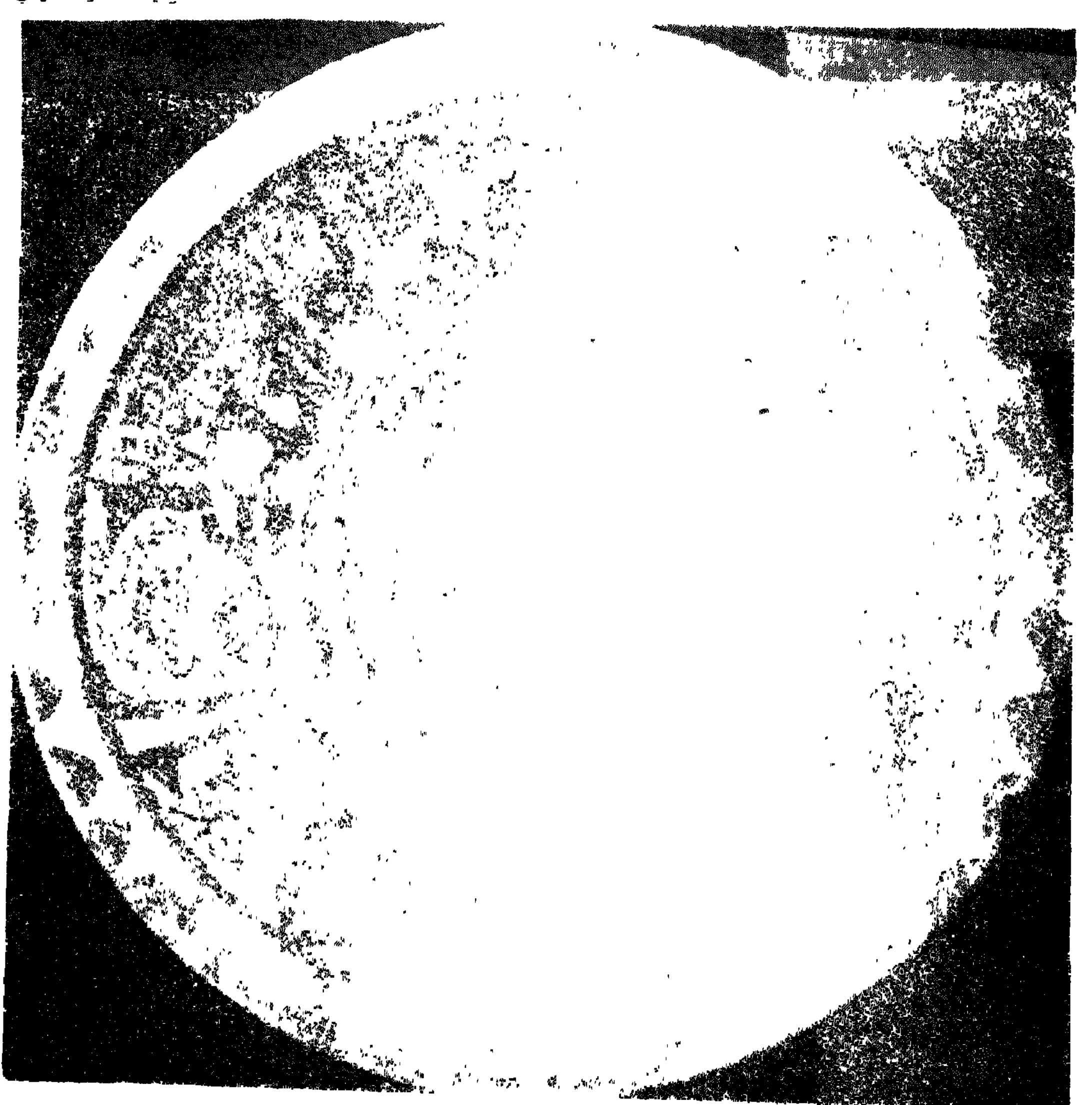
(شكل ٩) محراب صغير متنقل من الخشب . مصر ،
القرن ٥ هـ (١١)



(شكل ١٠) ورقة من مصحف ، القيروان ، القرن ٦/٧ هـ (١٣/١٢) .

(شكل ١١) صحن من الخزف . ايران ، القرن ٤ هـ (١٠)

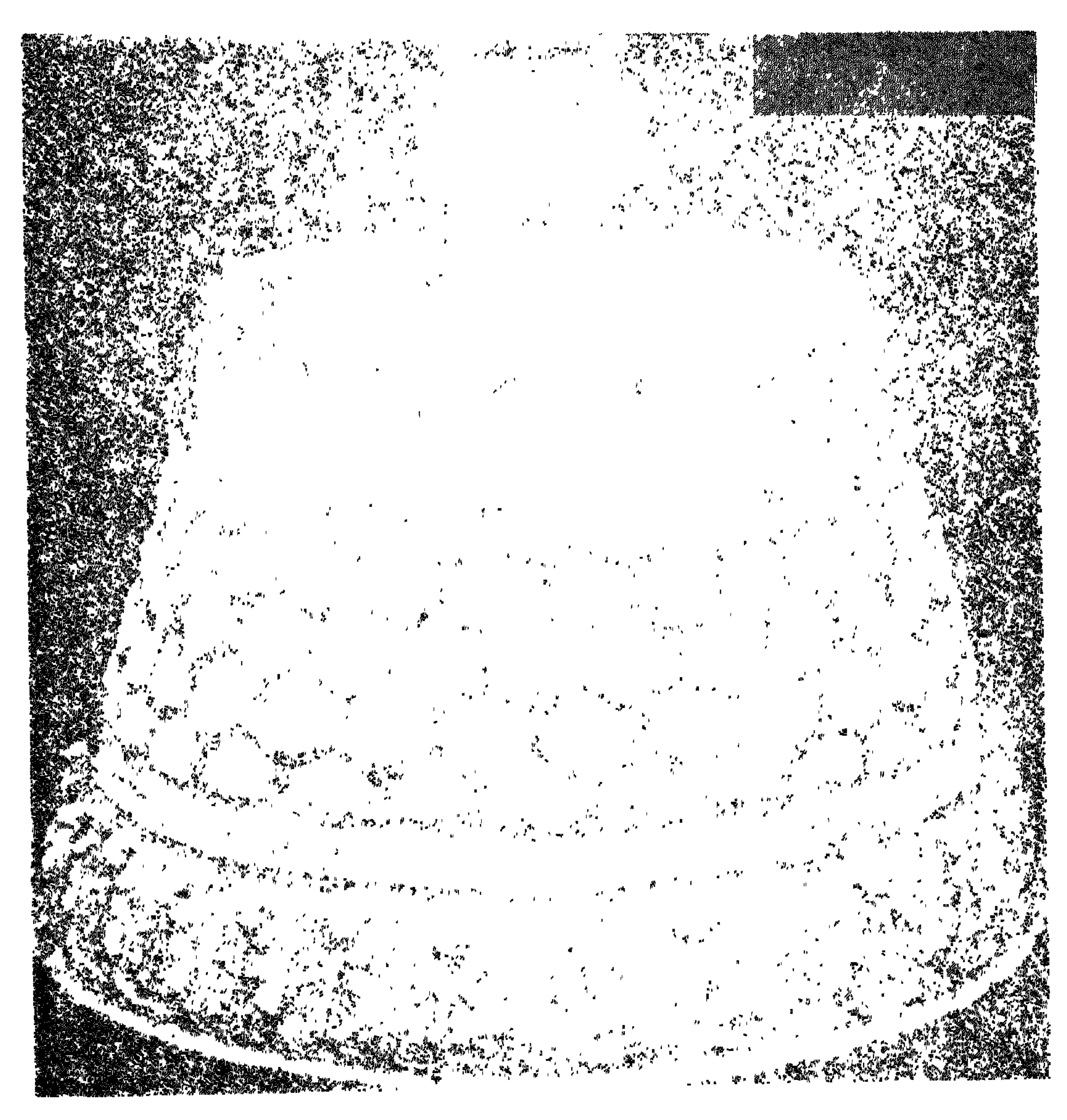




(شكل ١٢) صحن من الخزف ذى البريق المعدنى . مصر ، القرن ٥ هـ (١١)



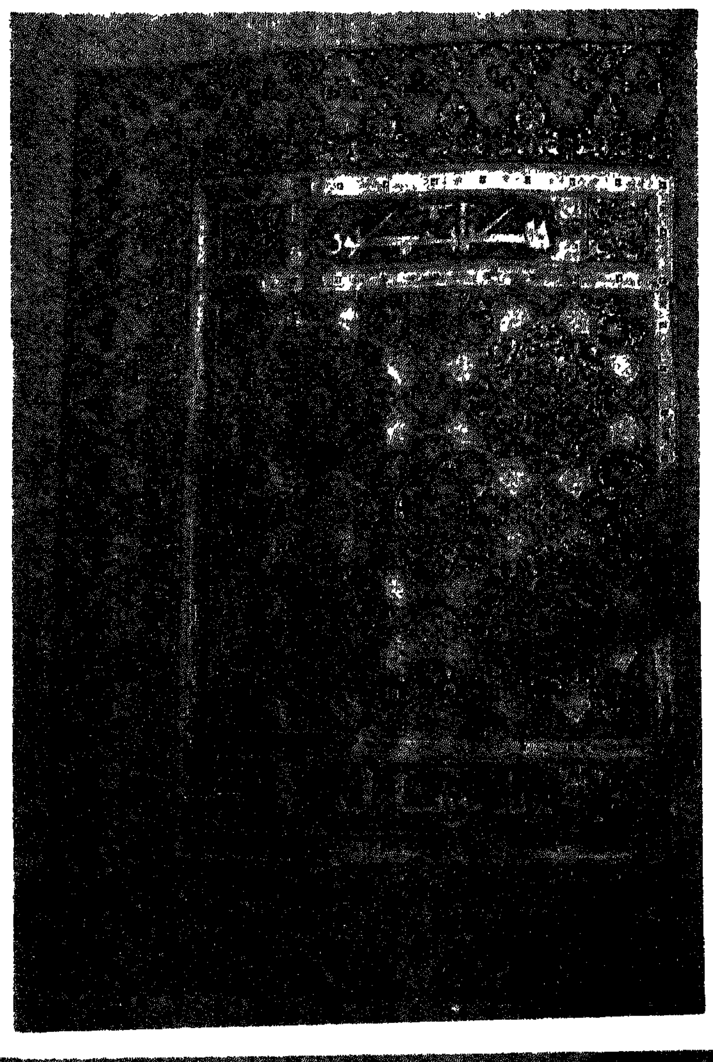
(شكل ١٣) شريط من الحرير ، سابقا فى مجموعة مرد . ايران ، القرن ٦ هـ (١٢) .



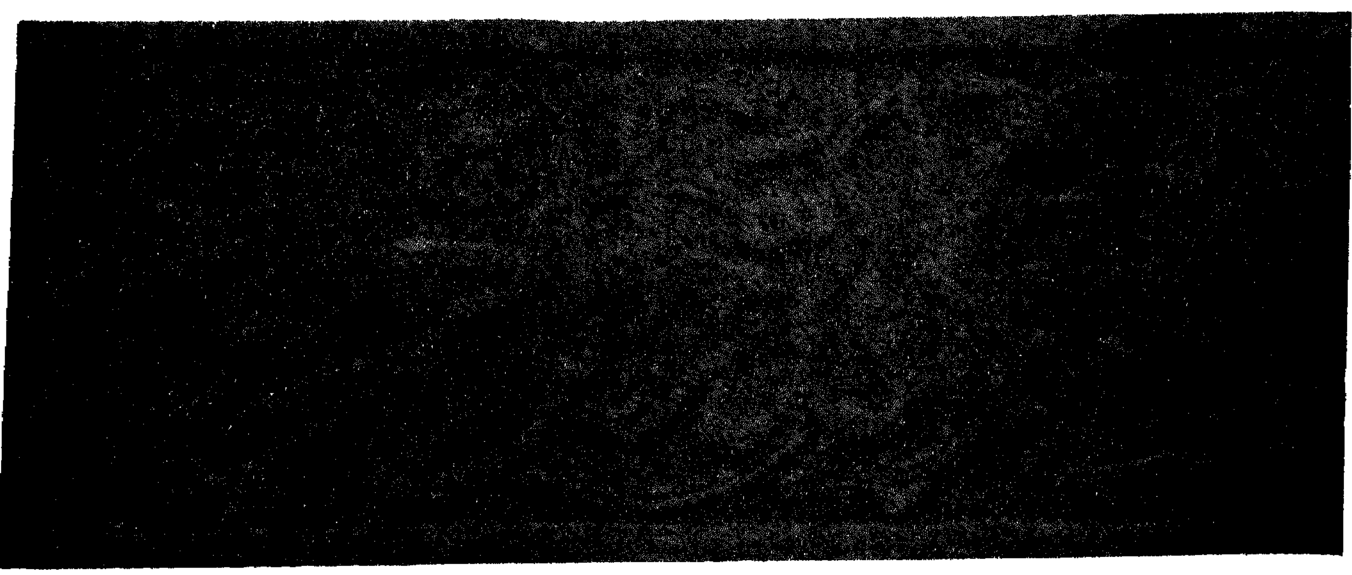
(شكل ١٤) شمعدان من النحاس المكفت بالفضه ،محفوظ فى متحف فرير جاليرى بمدينة واشنطن ، ايران ،النصف الثانى من القرن٦ هـ (١٢) .



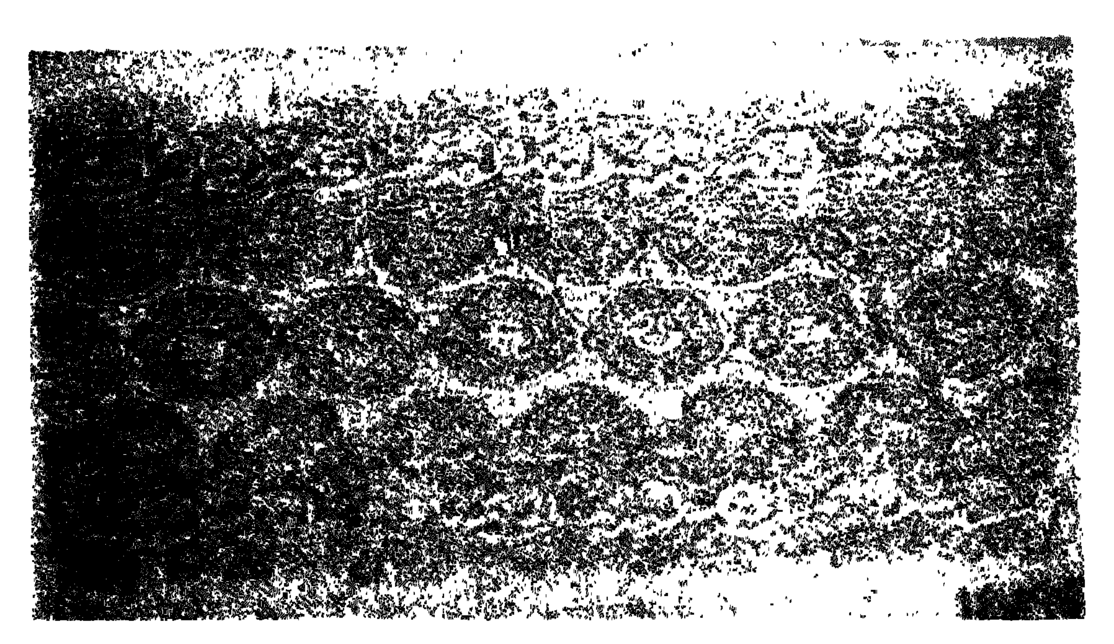
(شكل ١٥) كوب من الخزف من نوع مينائي . ايران ، القرن ٧ هـ (١٣) .



(شكل ١٦) صفحة فى بداية مصحف السلطان الاشرف شعبان ، محفوظ بدار الكتب المصرية ، بالقاهرة . مصر ، النصف الثانى من القرن ٨ هـ (١٤) .



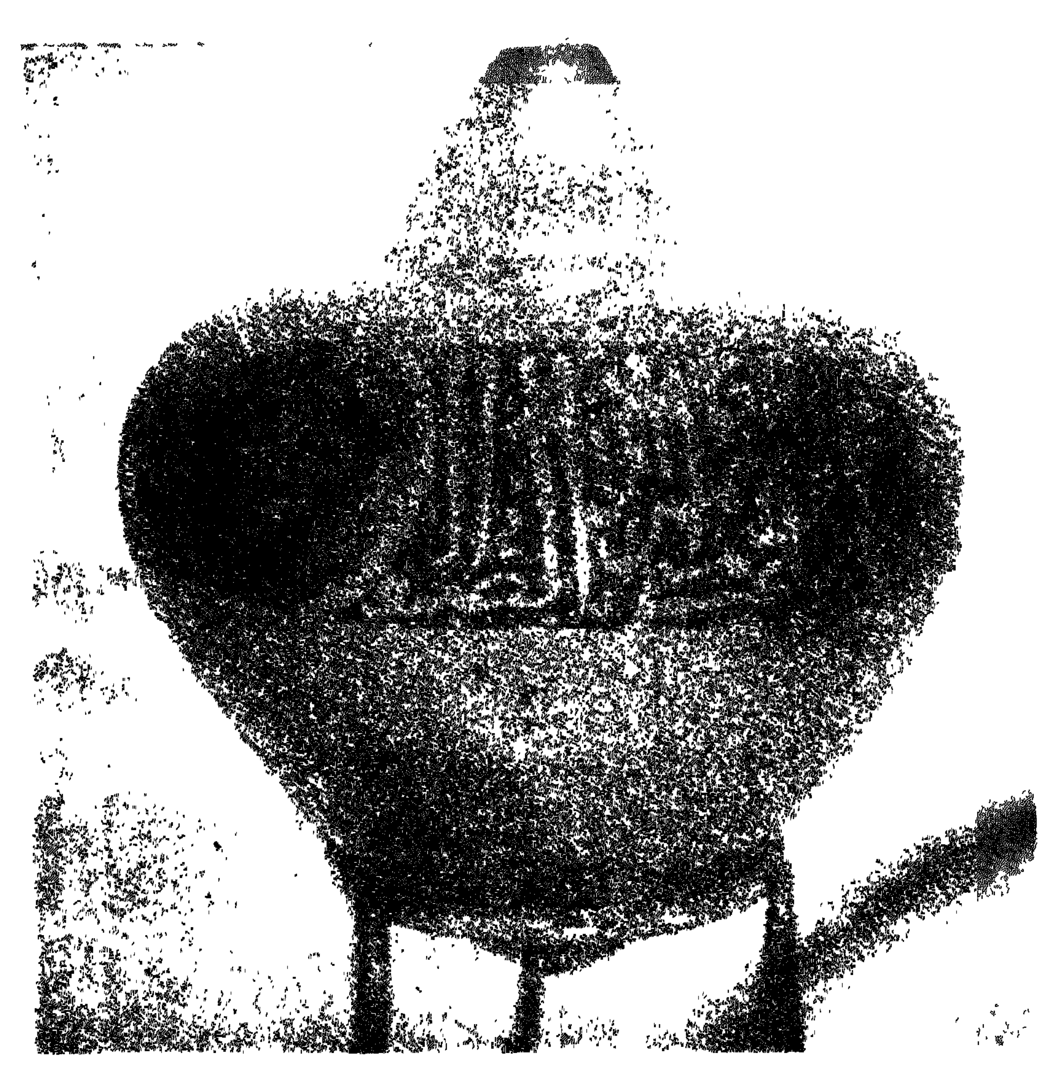
(شكل ١٧) حشوة من الرخام . مصر ، القرن ٨ هـ (١٤) .



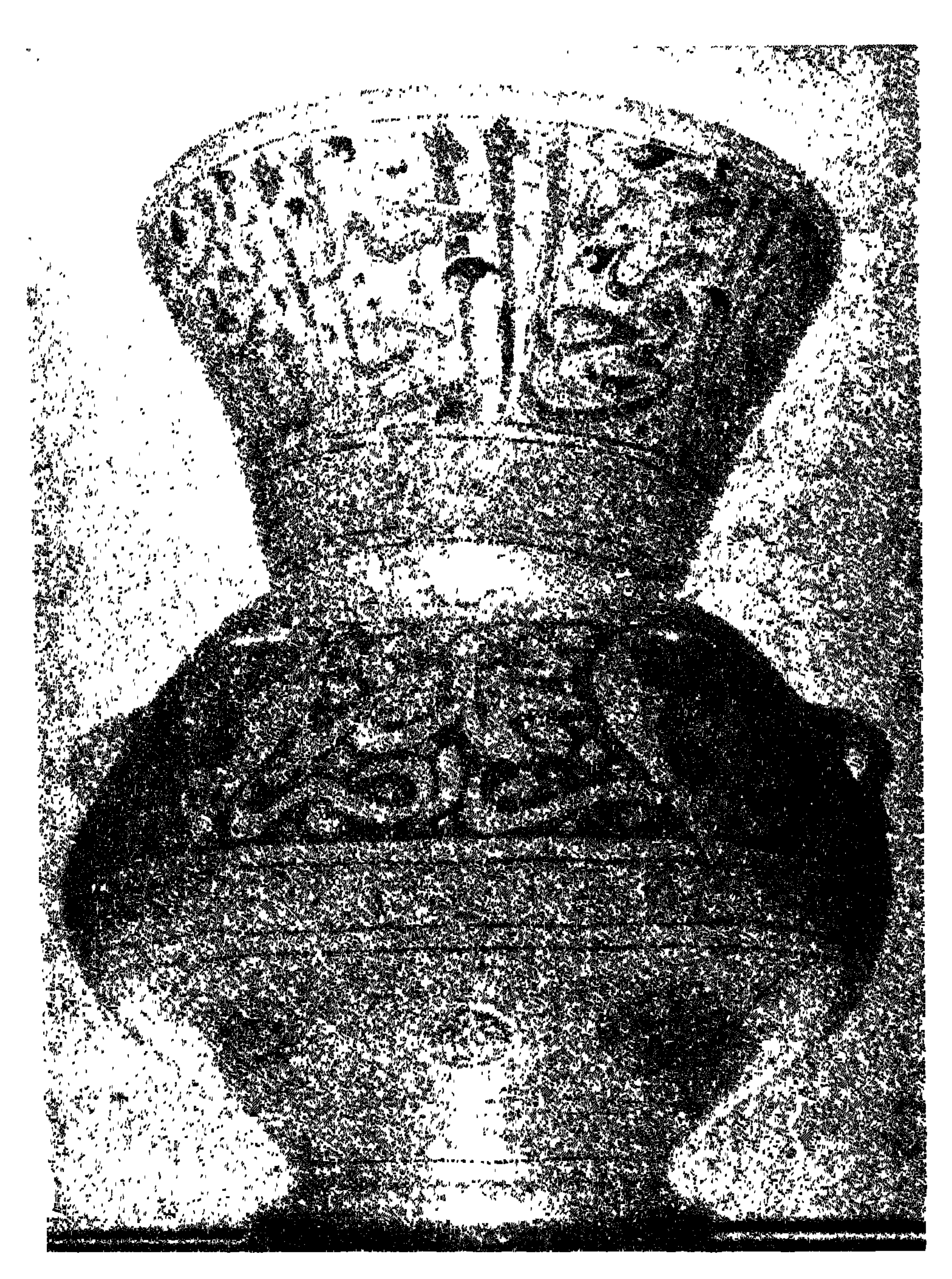
(شكل ١٨) شريط من الحرير ، مصر ، القرن ٦/٧ هـ (١٢/١٣)



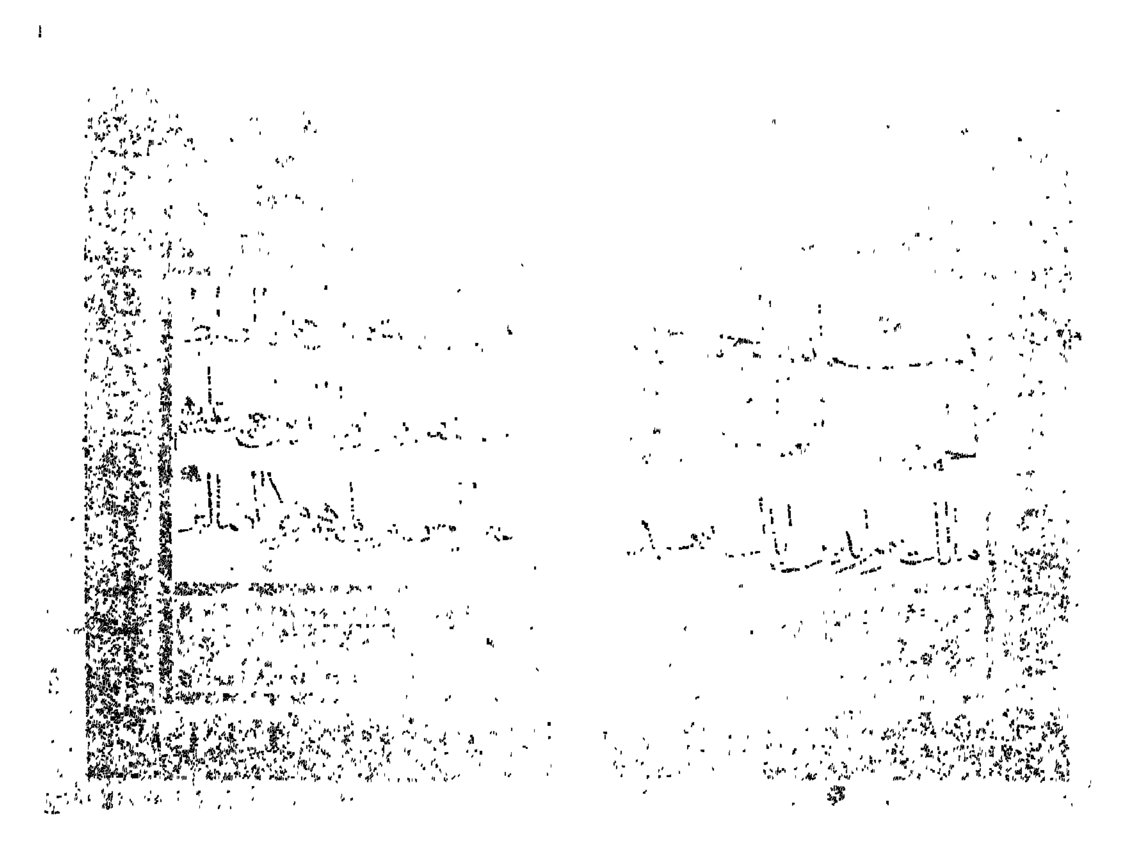
(شكل ١٩) شمعدان من النحاس المكفت بالفضة . الموصل، أوائل القرن ٧ هـ (١٣)



(شكل ٢٠) قندبل من الزجاج المموه بالمينا للامير الطنبغا . مصر ، أواخر القرن ٧ هـ (١٣) .



(شكل ٢١) مشكاة من الزجاج المموه بالمينا ، للسلطان الناصر محمد بن قلاون . مصر ، من مسجد تم بناؤه في سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨)

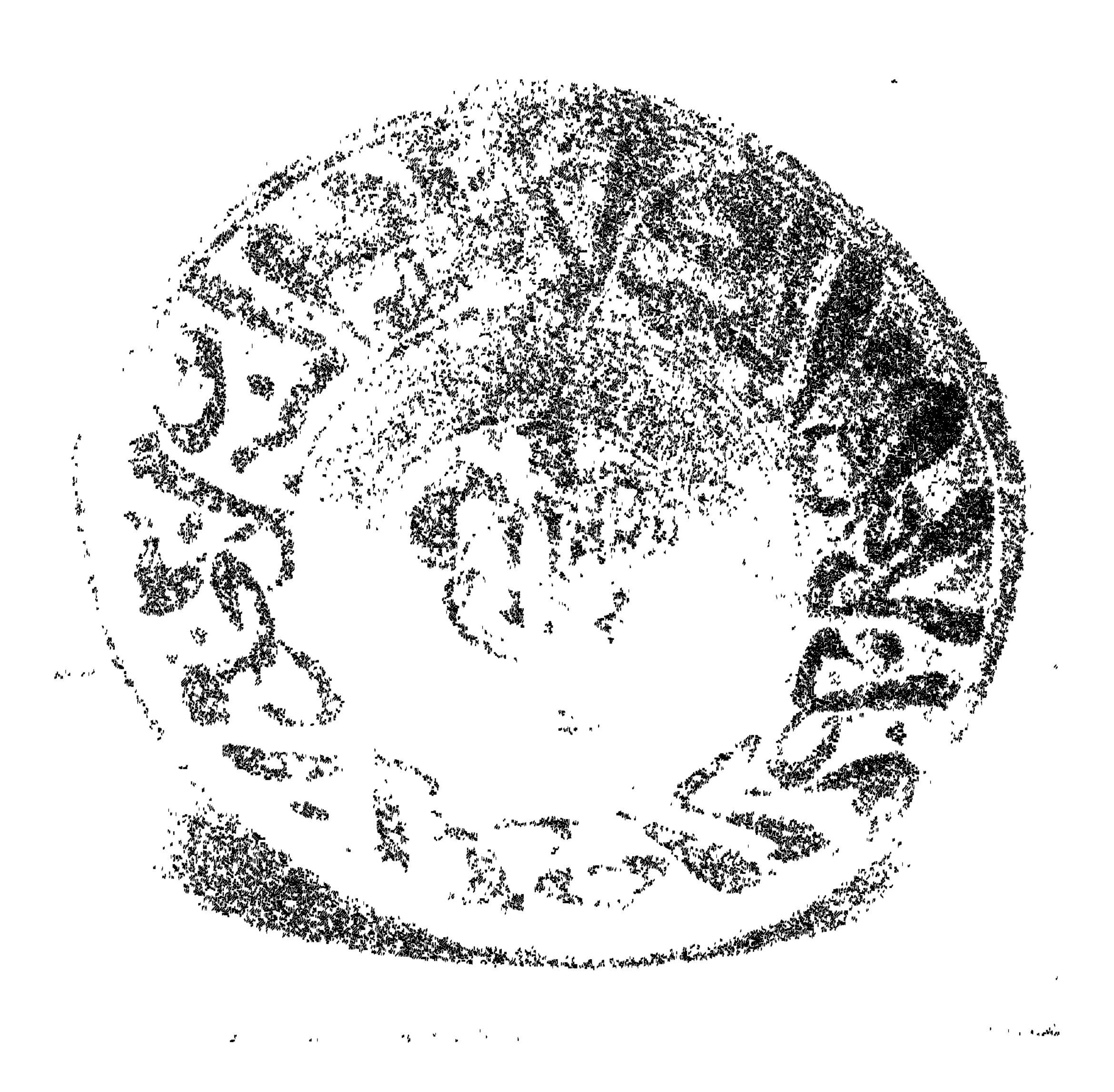


(شكل ٢٣) صفحة سورة الفاتحة، في مصحف السلطان الأشرف شعبان ، بدار الكتب المصرية ، بالقاهرة . مصر ، النصف الثاني من القرن ٨ هـ (١٤) .

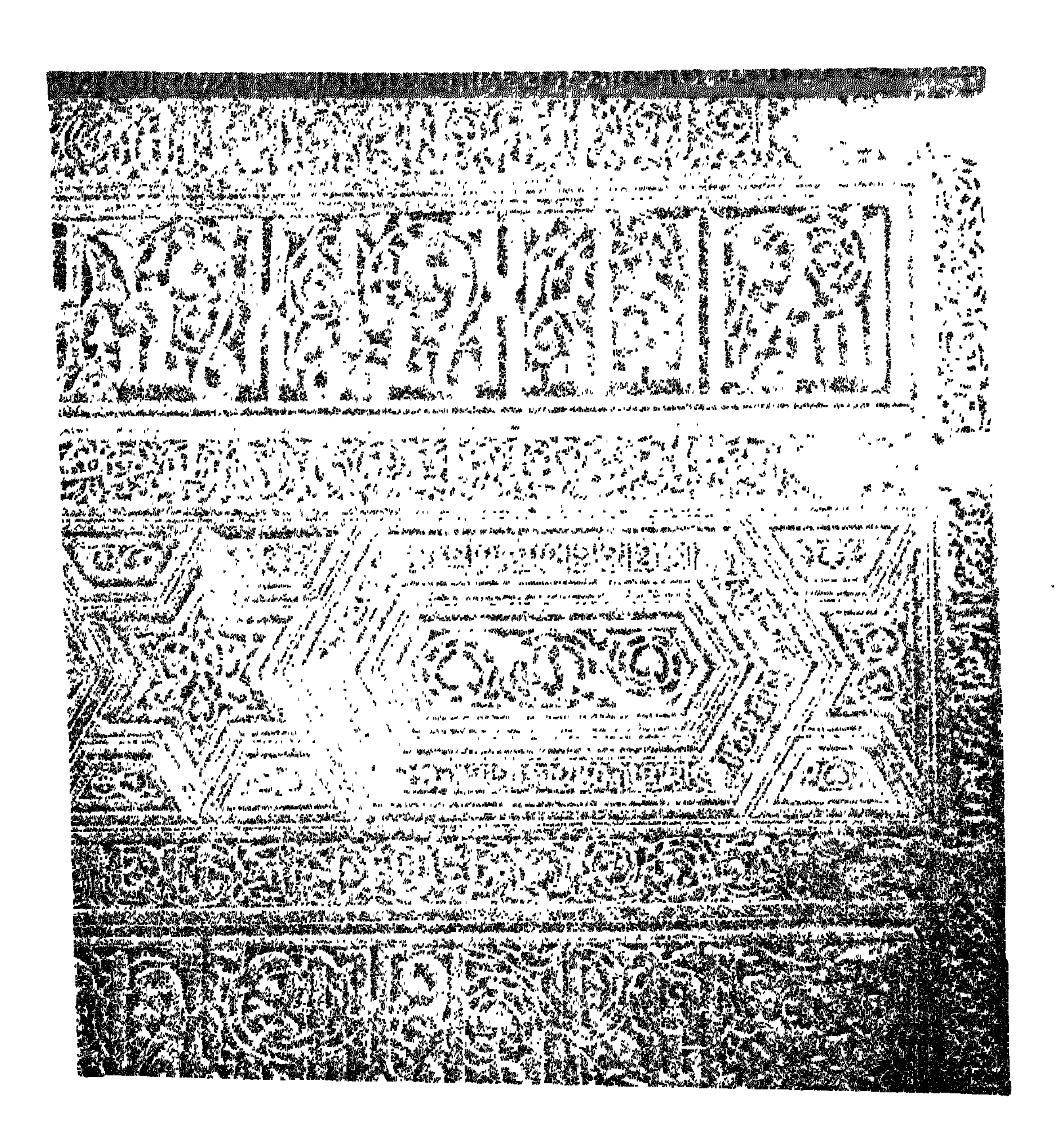




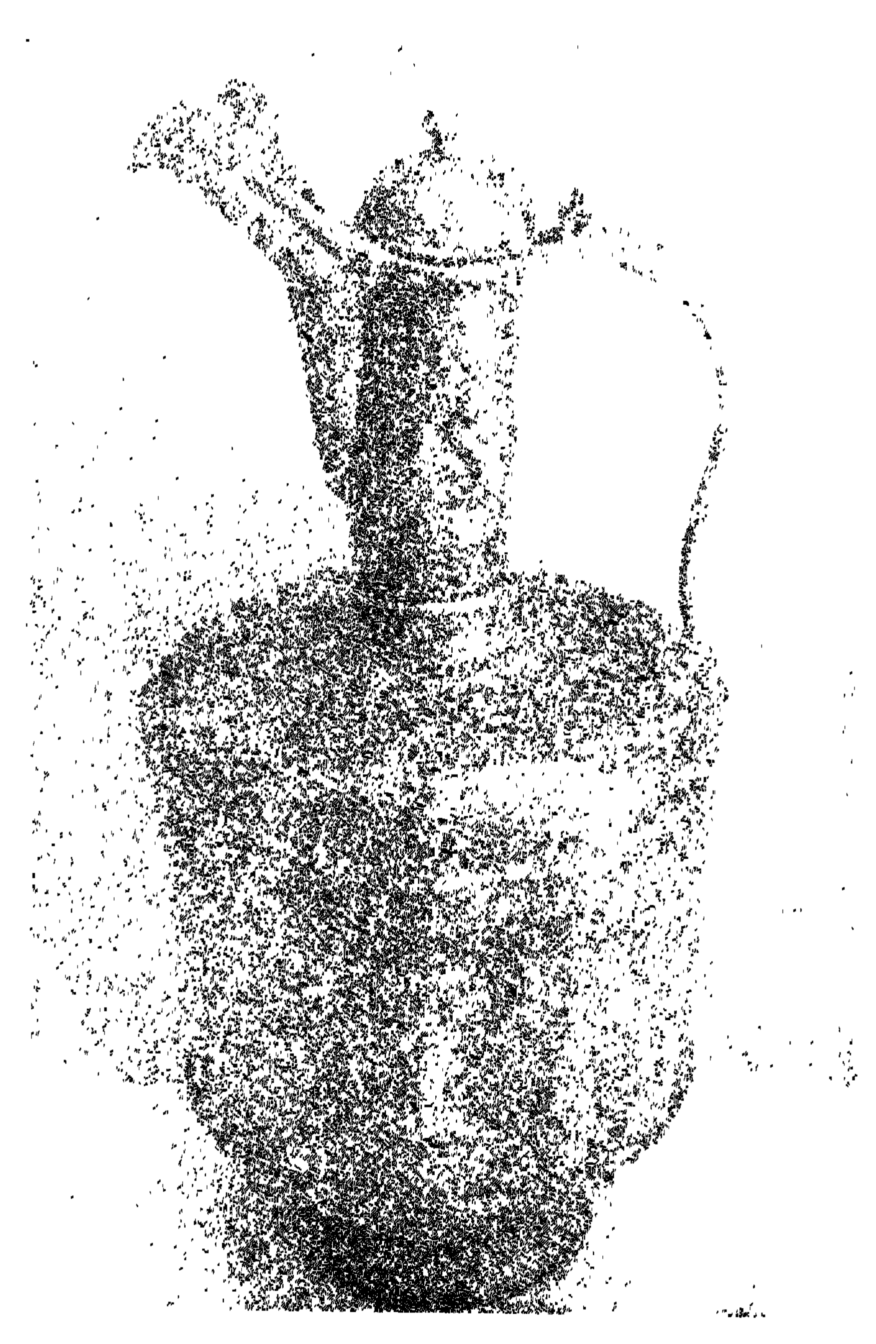
(شكل ٢٣) كوب من الخزف المملوكي ، مصر ، القرن ٨ هـ (١٤) .



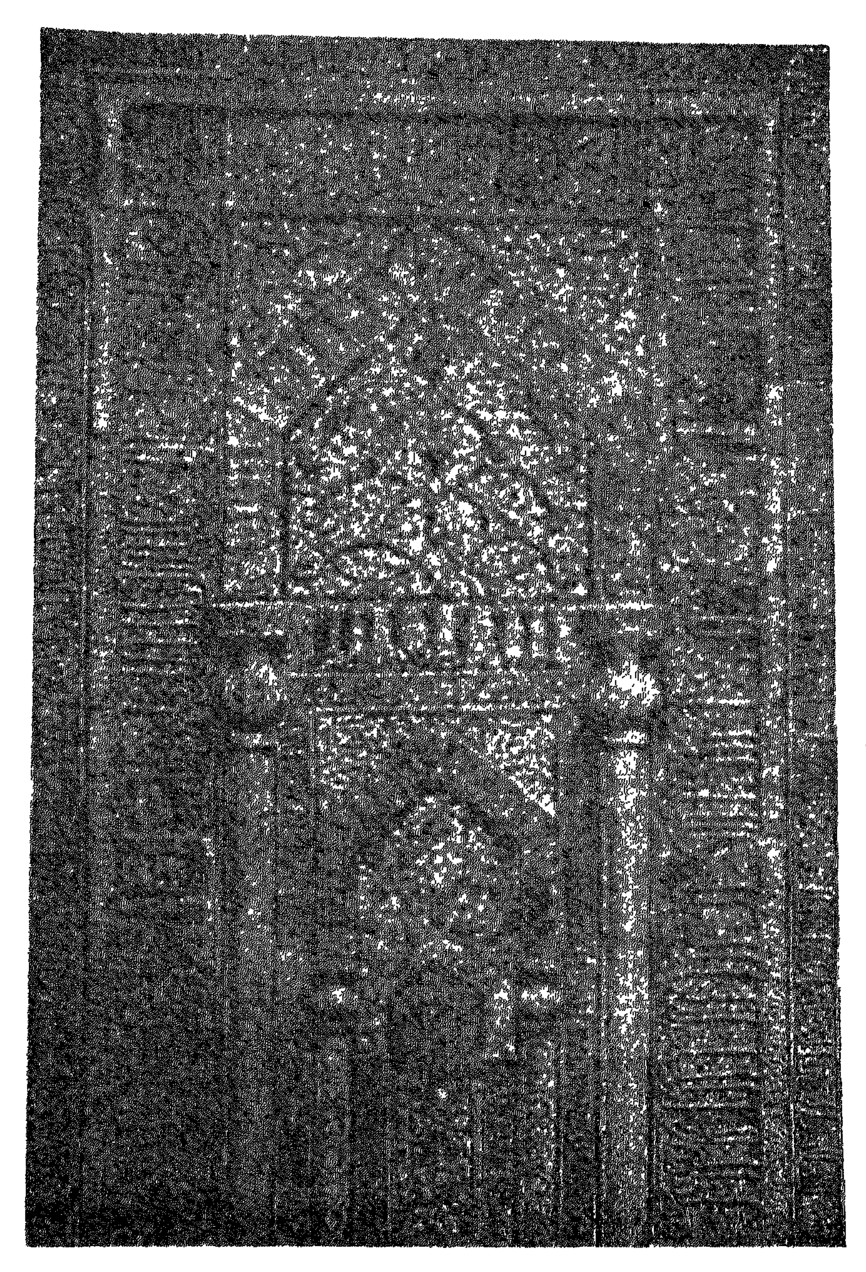
(شكل ٢٤) سلطانية من الفخار المطلى المملوكي . مصر ، القرن ٨ هـ (١٤) .



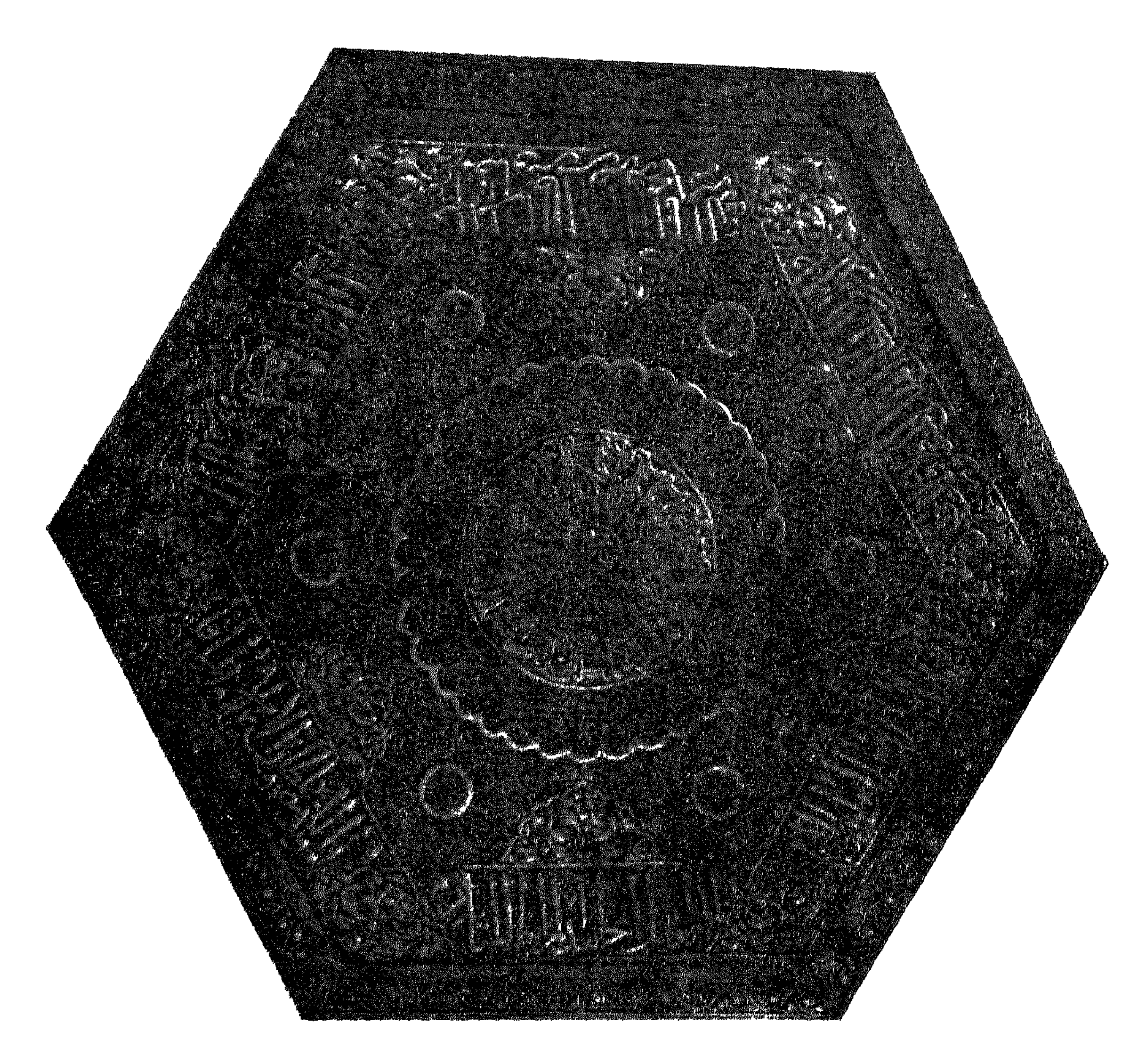
(شكل ٢٥) تركيبة من الخشب من مسجد الامام الحسين بالقاهرة . مصر ، أواخر القرن ٦ هـ (١٢) .



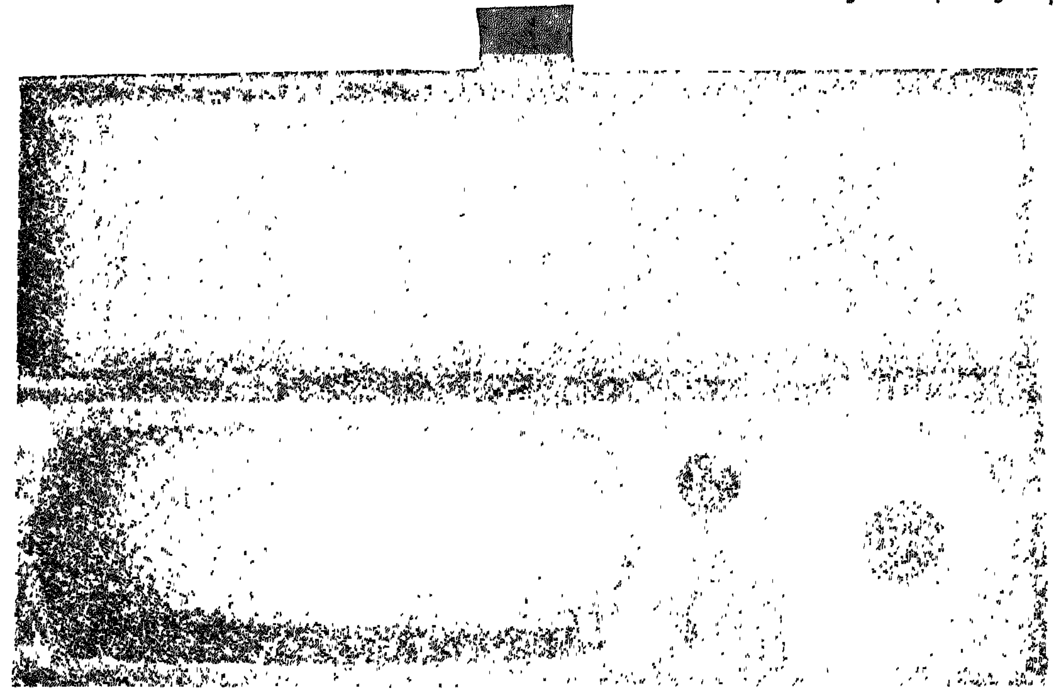
(شكل ٢٦) ابريق من النحاس مكفت بالفضة .ايران ، القرن ٦ هـ (١٢) .



(شكل ٢٧) محراب من الخزف ذى البريق المعدنى ، محفوظ بمتحف الدولة ، فى برلين . ايران ، مؤرخ فى شهر صفر سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦)



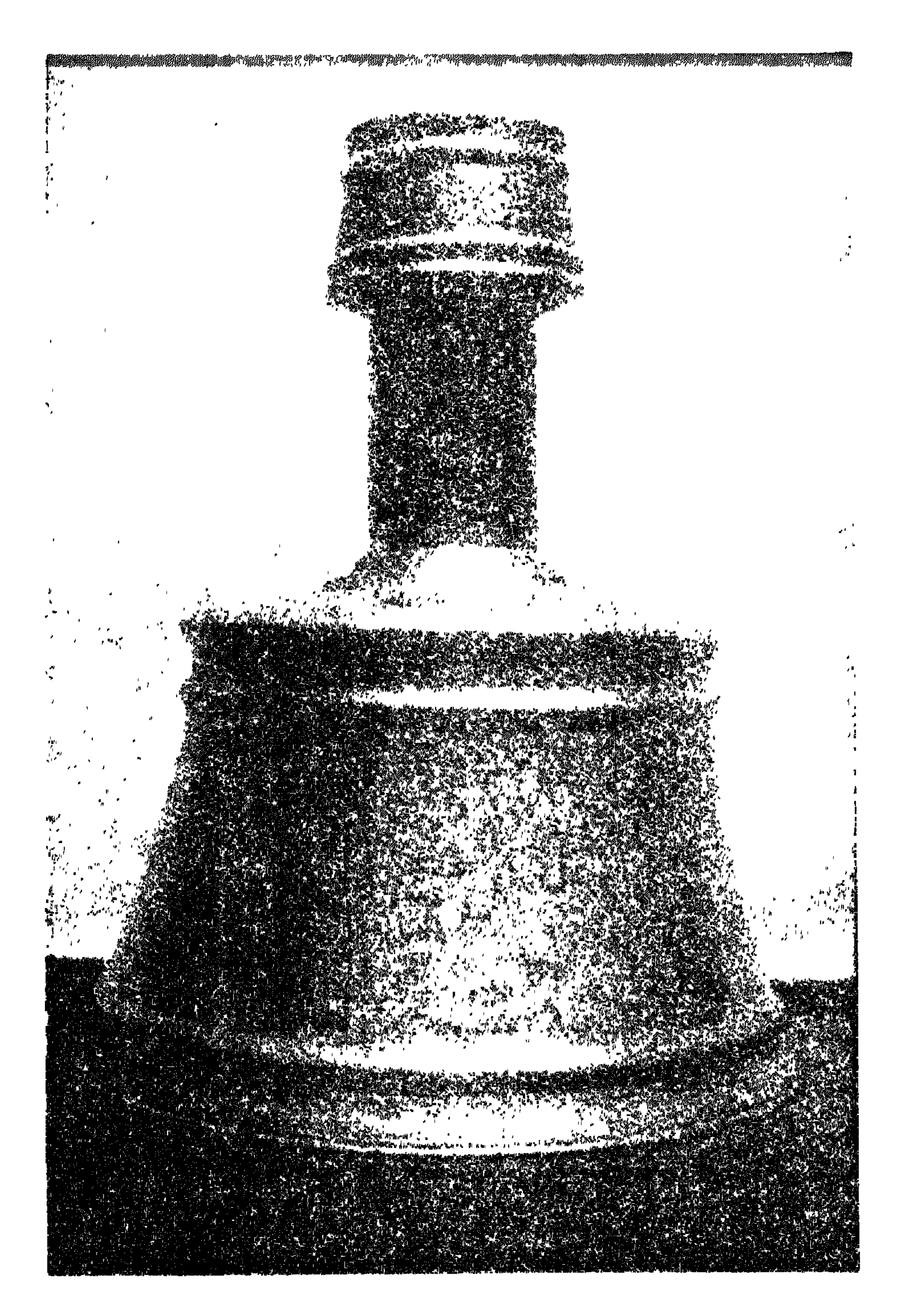
(شكل ٢٨) سطح كرسى من النحاس المكفت بالفضه ، عليه اسم السلطان الناصر محمد بن قلاون ، وتوقيع الفنان محمد بن سنقر . مصر مؤرخ ٧٢٨ هـ (١٣٢٧) .



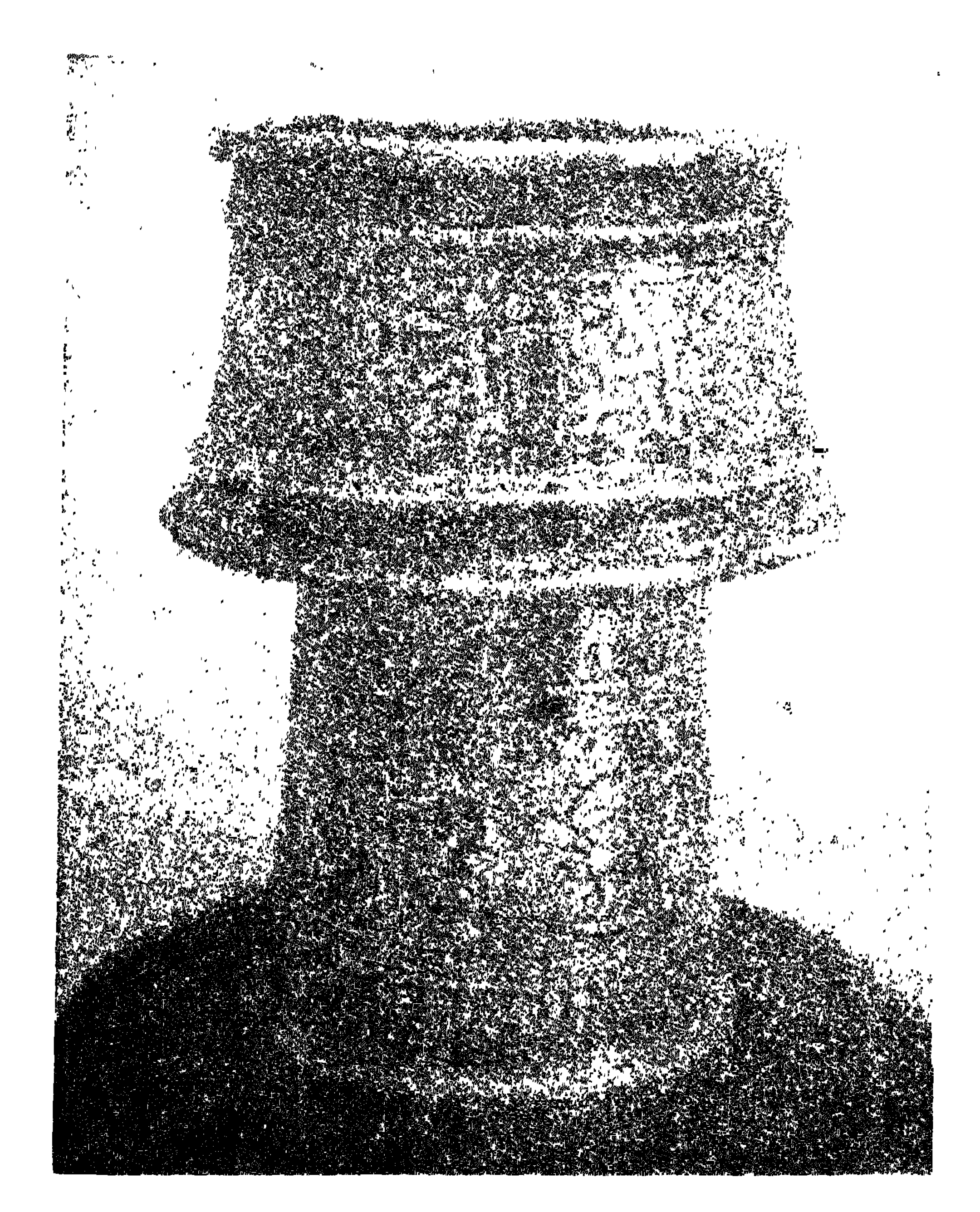
(شكل ٢٩) مقلمة من النحاس المكفت بالفضة والذهب ، عليها اسم السلطان المنصور محمد . مصر ، النصف الثاني من القرن ٨ هـ (١٤) .



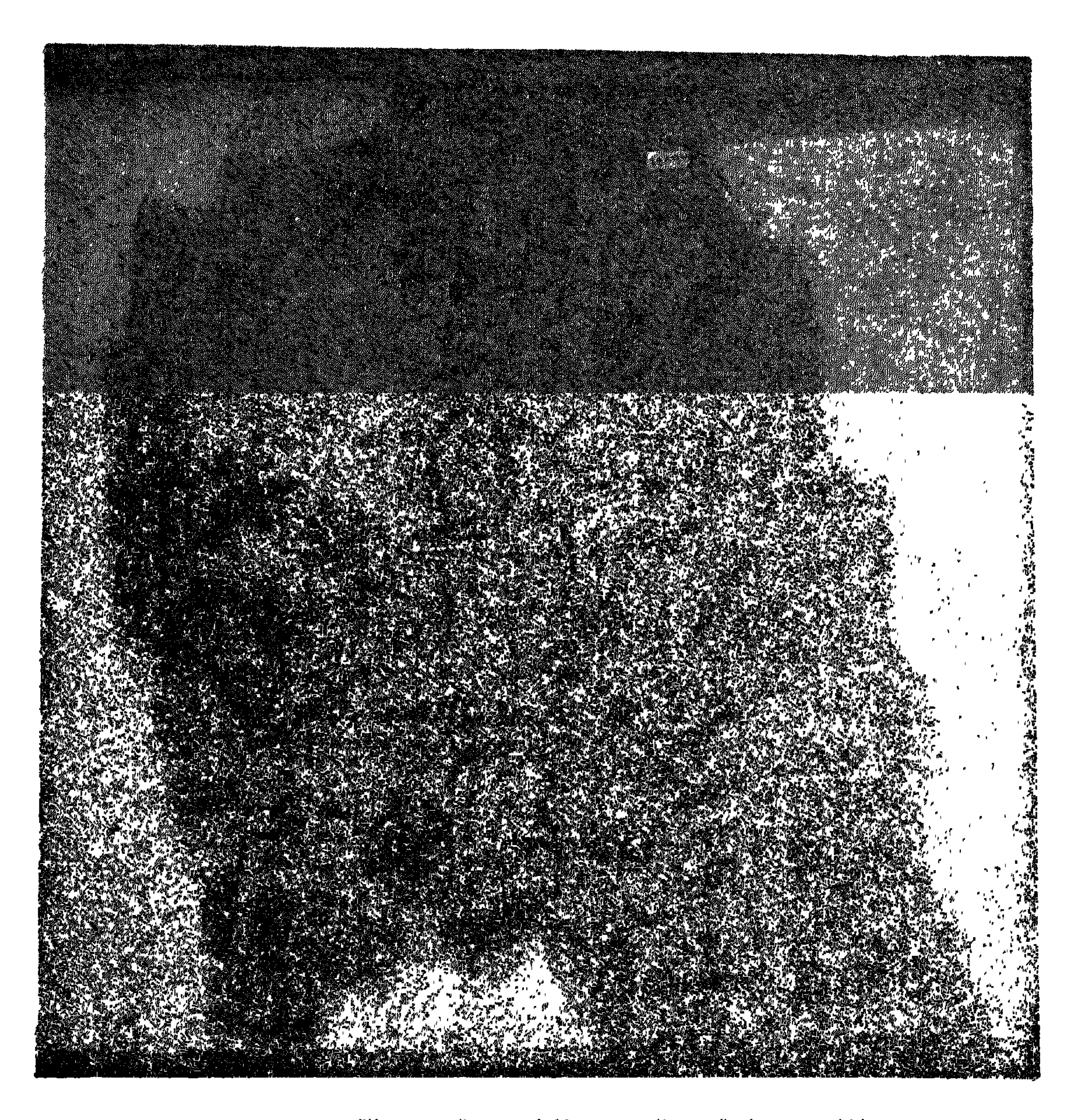
(شكل ٣٠) نسيج من الحرير بخيوط مذهبة ، محفوظ في قصر فيشيو ، بمدينة فيرونا . ايران ، القرن ٨هـ(١٤) .



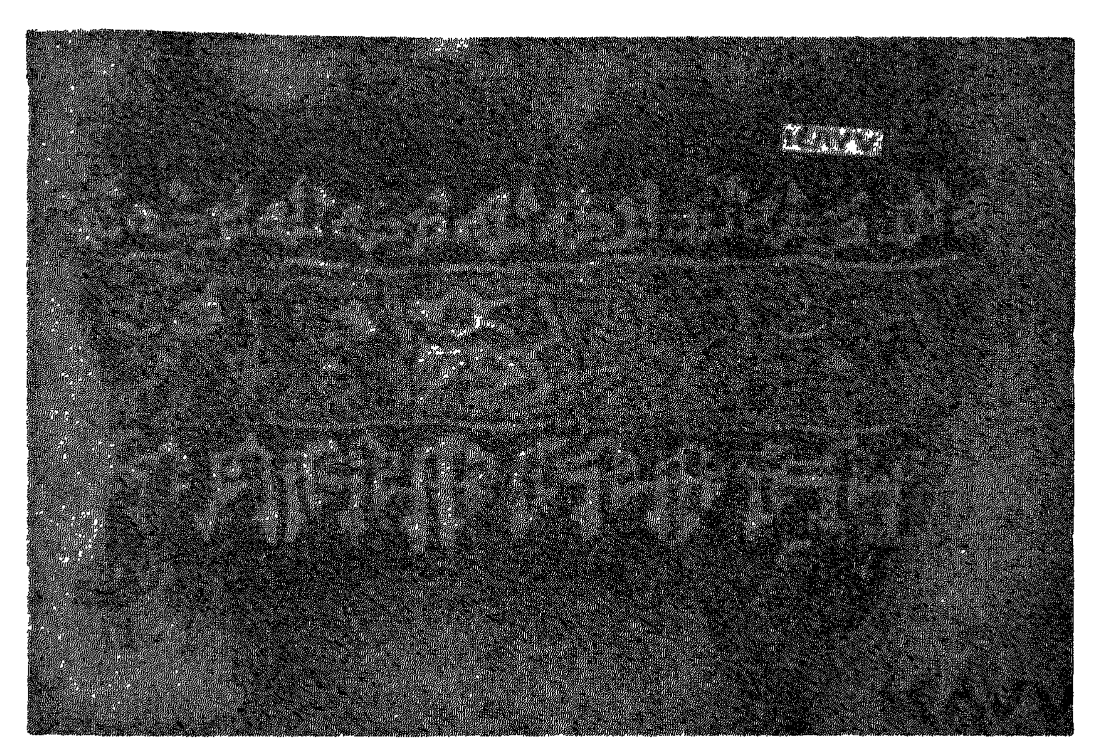
(شكل ٣١) شمعدان من النحاس ، عليه اسم السلطان الاشرف قايتباى . مصر ، مؤرخ في شهر رمضان سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢) .



(شكل ٣٢) رقبة شمعدان من النحاس المكفت بالفضة والذهب عليها اسم السلطان كتبغا المنصوري، مصر، قبل سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٤)



(شكل ٣٣) قطعة من النسيج بزخارف منسوجة، مصر ، القرن ٢ هـ (٨) .



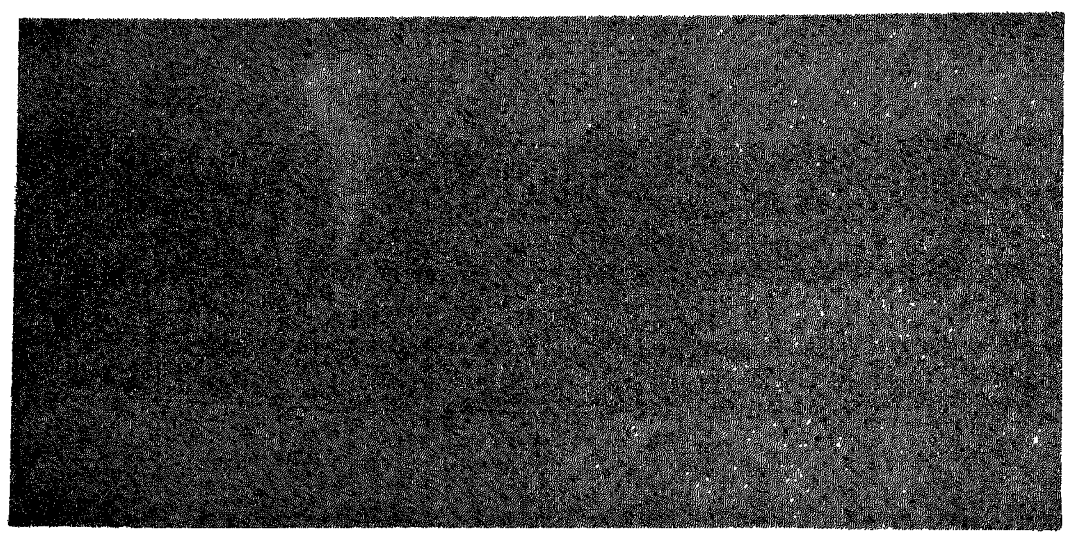
(شكل ٣٤) نسيج من الصوف من نوع الفيوم . مصر ،القرن ٤ هـ (١٠) .



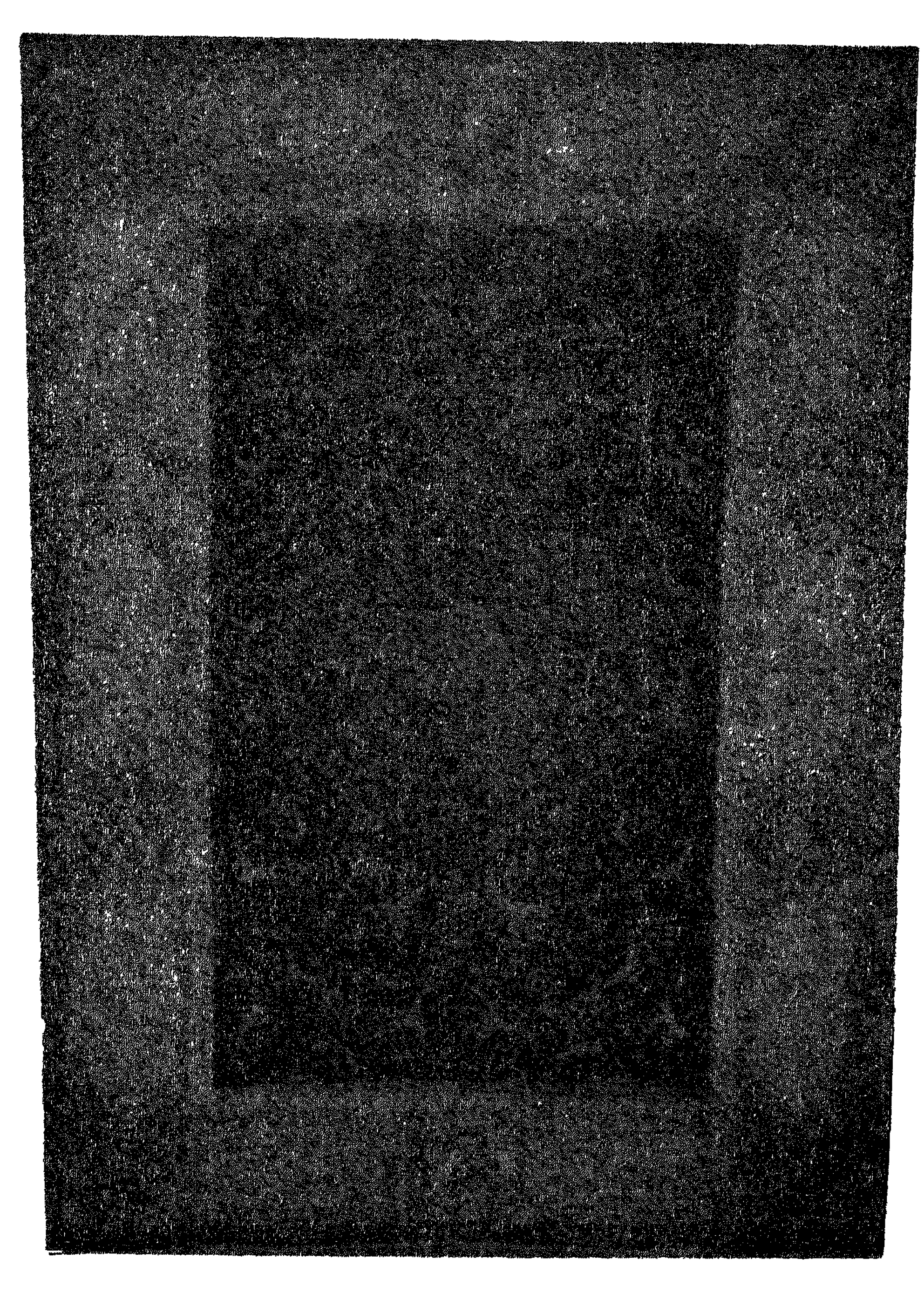
(شكل ٣٥) نسيج من الصوف من نوع الفيوم . مصر ،القرن ٤ هـ (١٠) .



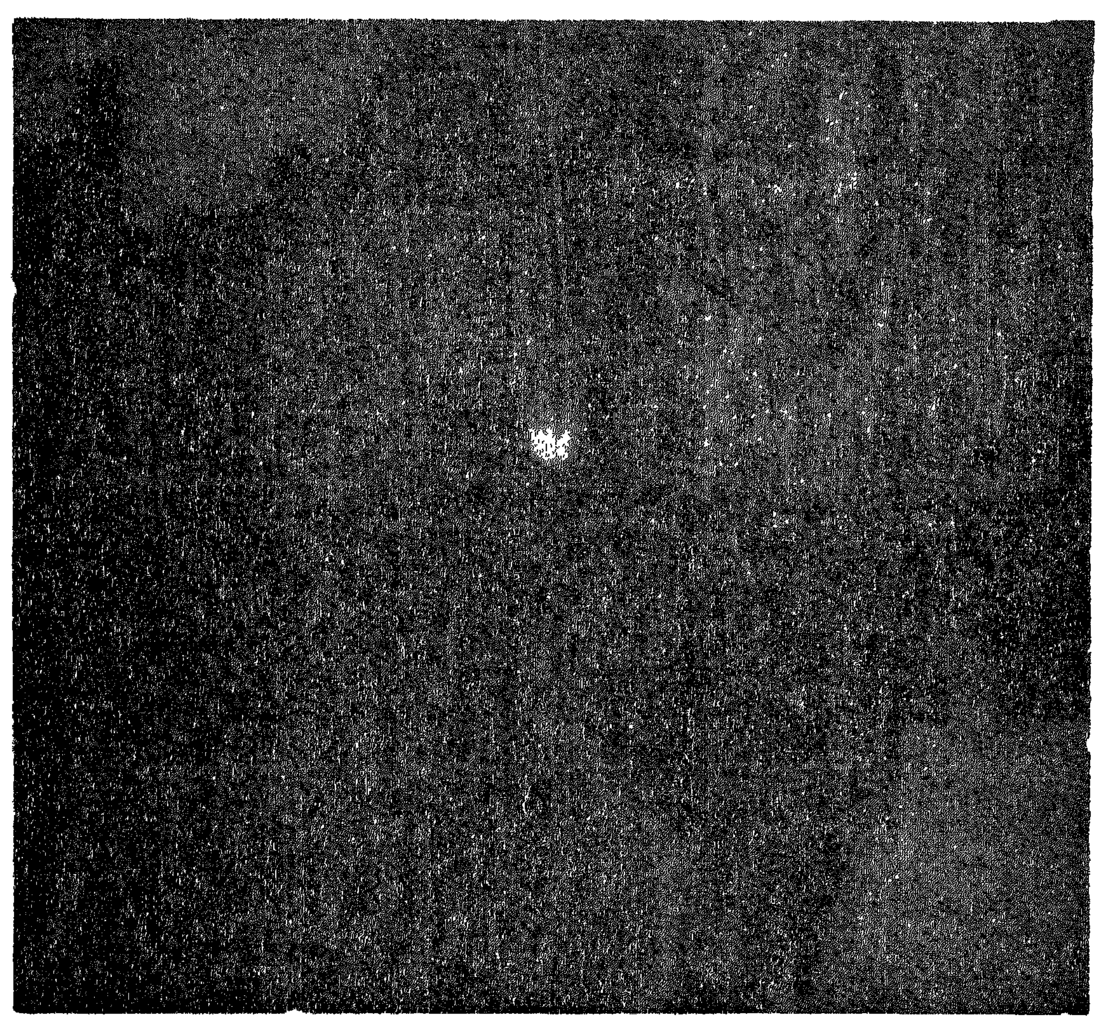
(شكل ٣٦) قدر من الخزف من نوع الفيوم . مصر ، أواخر القرن ٥ هـ (١١) .



(شكل ٣٧) نسيج مطرز مملوكي . مصر ، القرن ٨هـ (١٤).



(شكل ٣٨) سجادة من نوع اصفهان . ايران ، أواخر ١٠ هـ (١٦) .



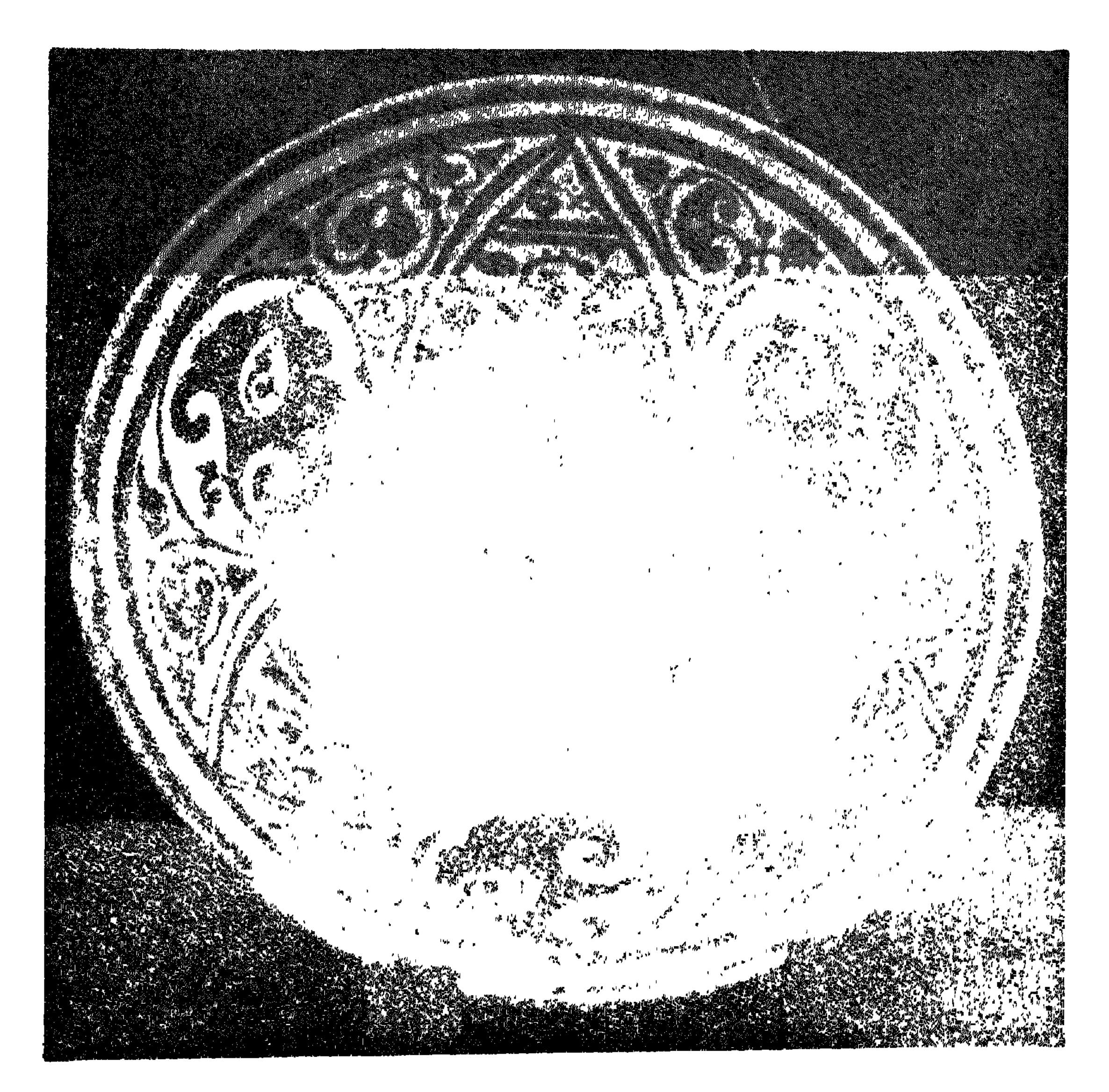
(شكل ٣٩) نسيج مطبوع بالذهب . اليمن ، اوائل القرن؛ هـ (١٠) .



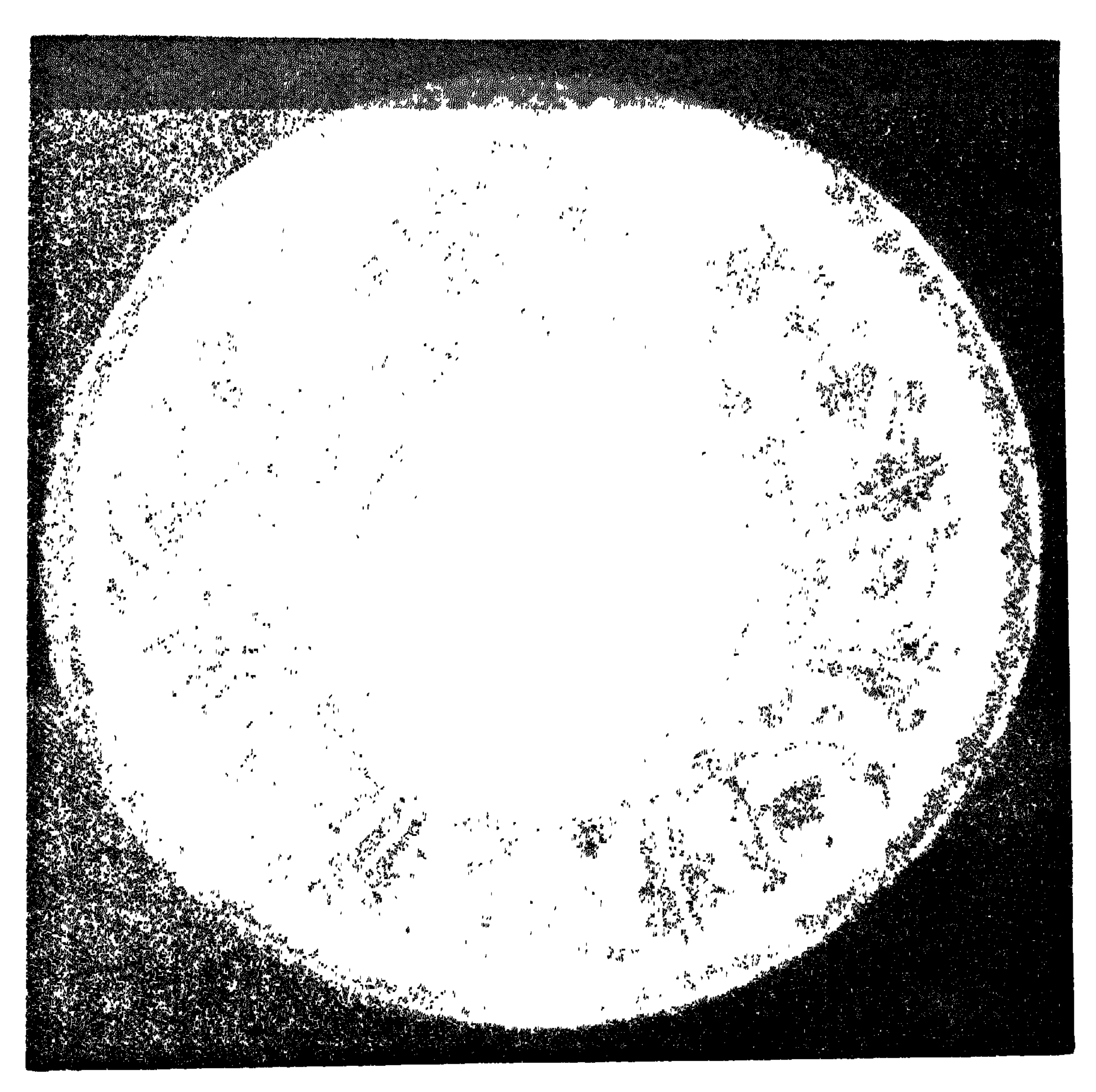
(شكل ٤٠) نسيج من الصوف من نوع الفيوم . مصر ،القرن ٤ هـ (١٠) .



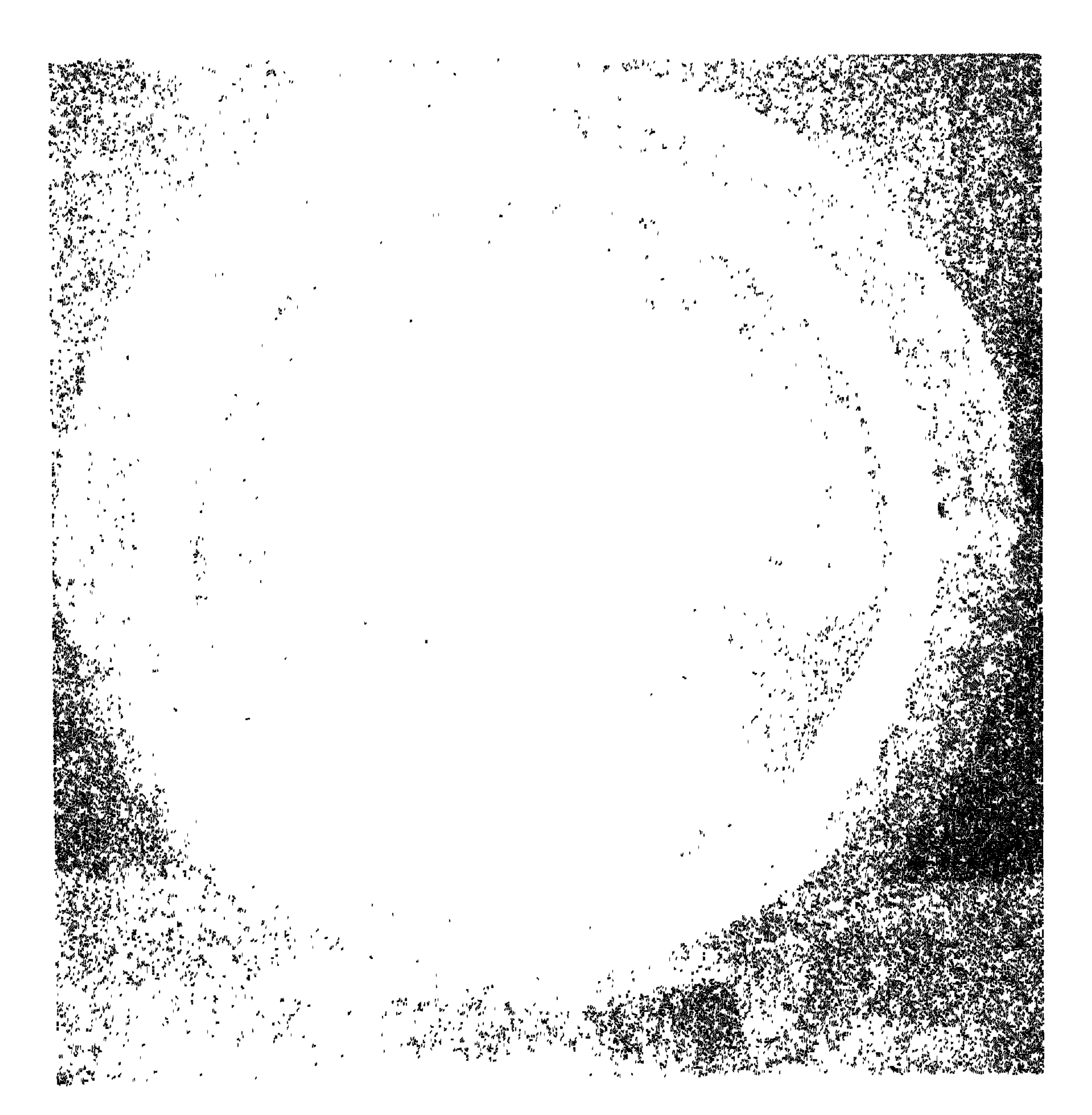
(شكل ٤١) قطعة من النسيج الفاطمى . مصر ، القـرن٥ هـ (١١) .



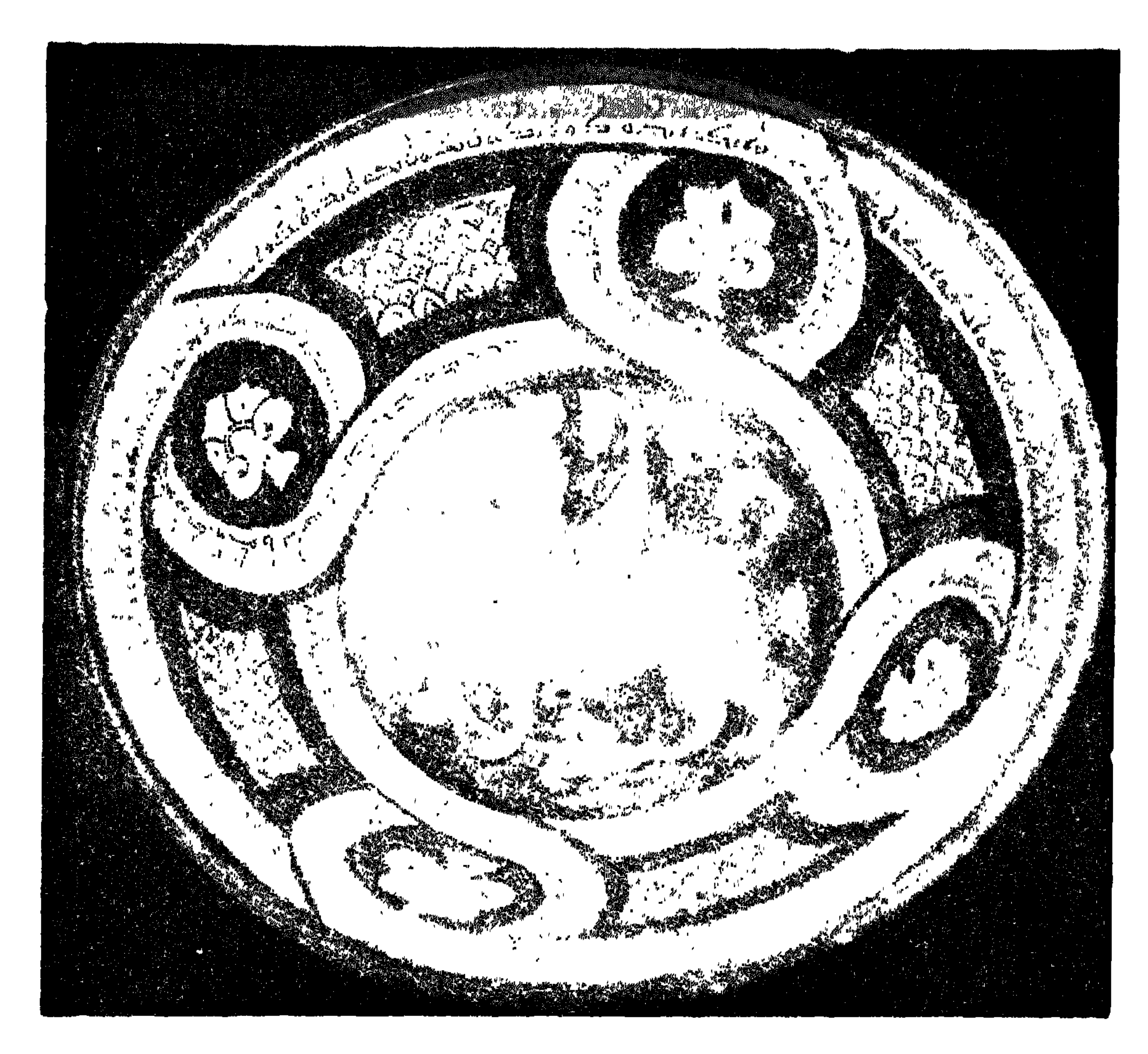
(شكل ٤٢) صحن من الخزف ذى البـريق المعـدنى مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



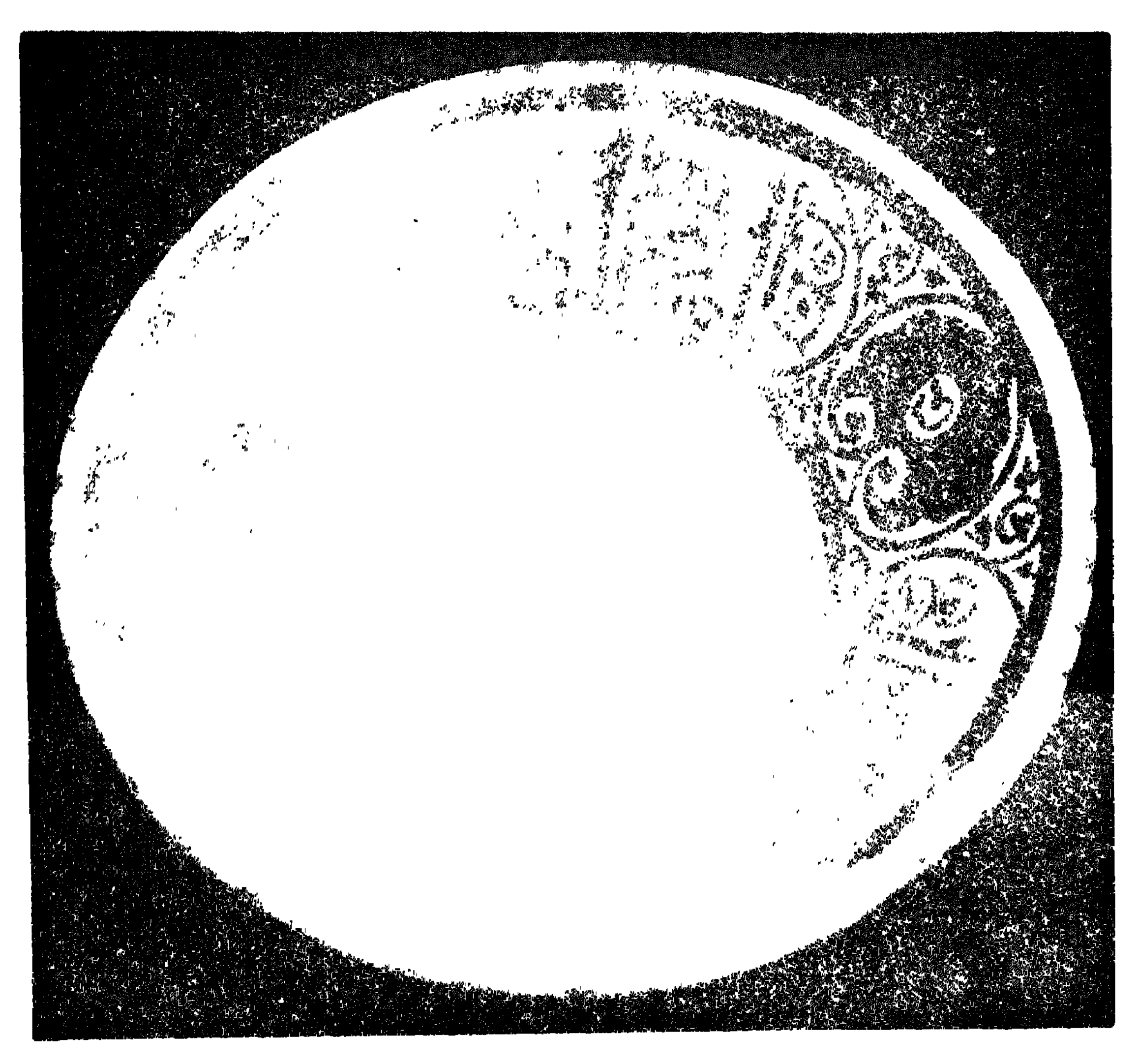
(شكل ٤٣) صحن من الخزف ذى البريق المعدنى مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



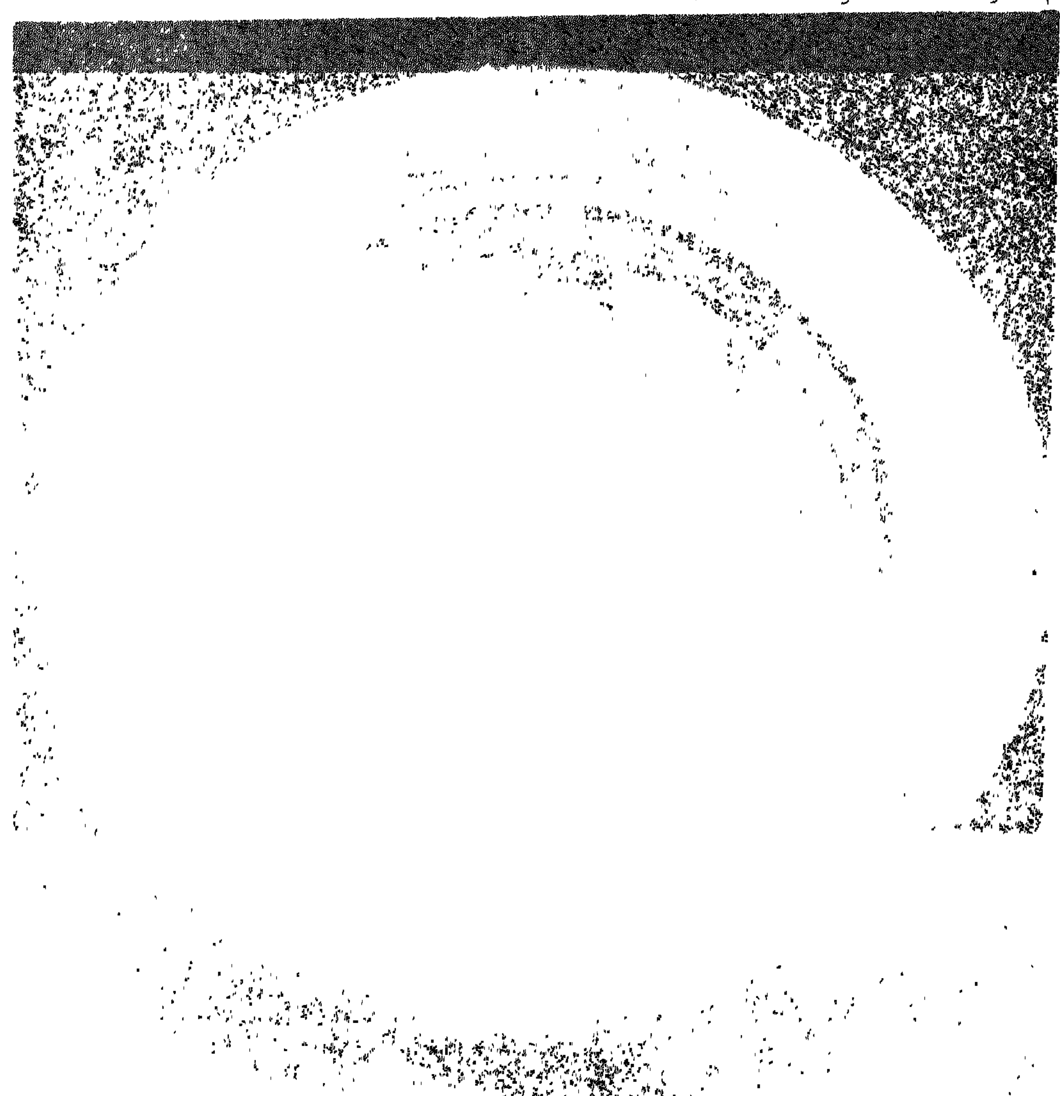
(شكل ٤٤) صحن من الخزف ذى البريق المعدنى ، مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



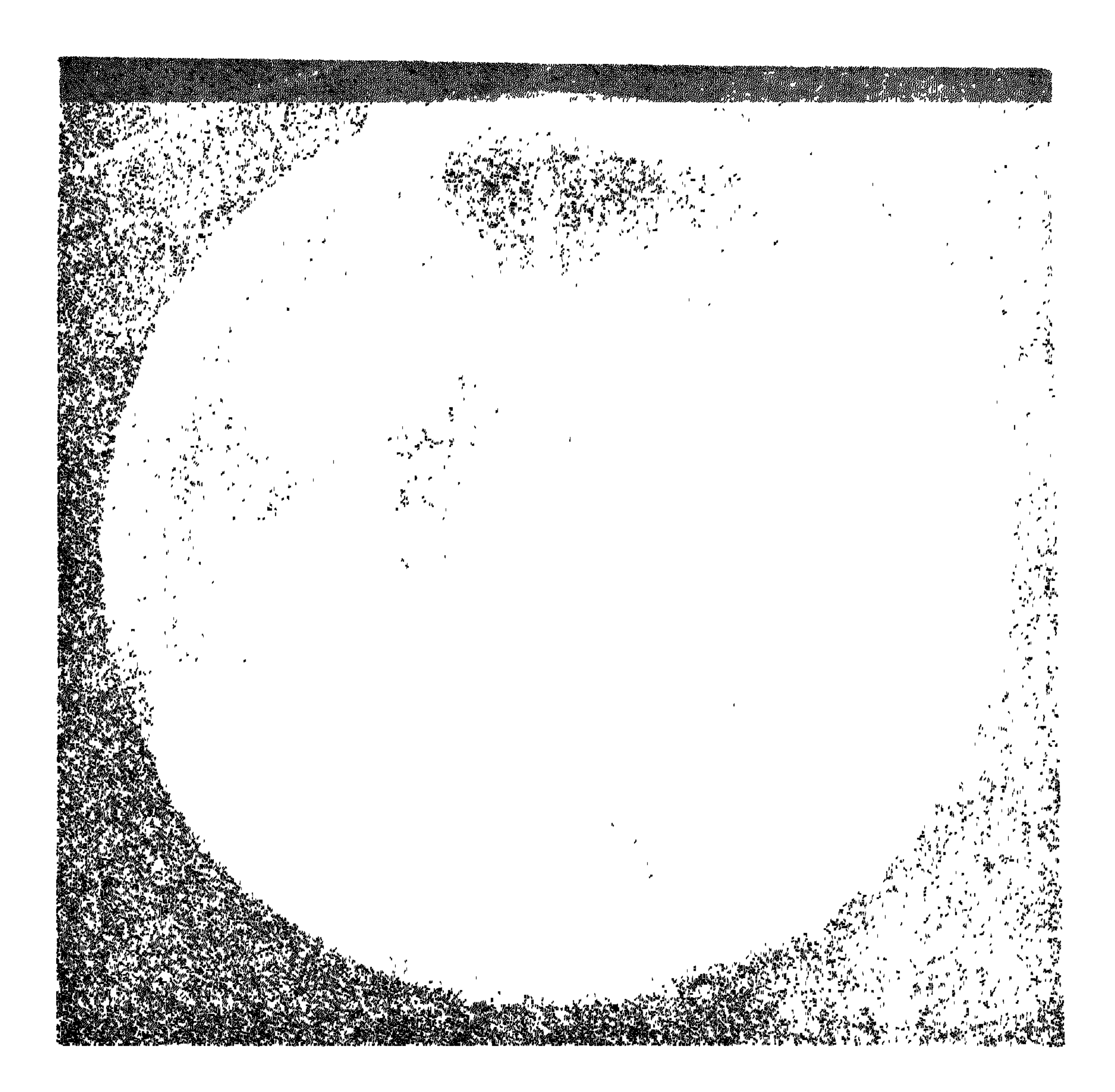
(شكل ٤٥) صحن من الخزف ذى البريق المعدنى ، مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



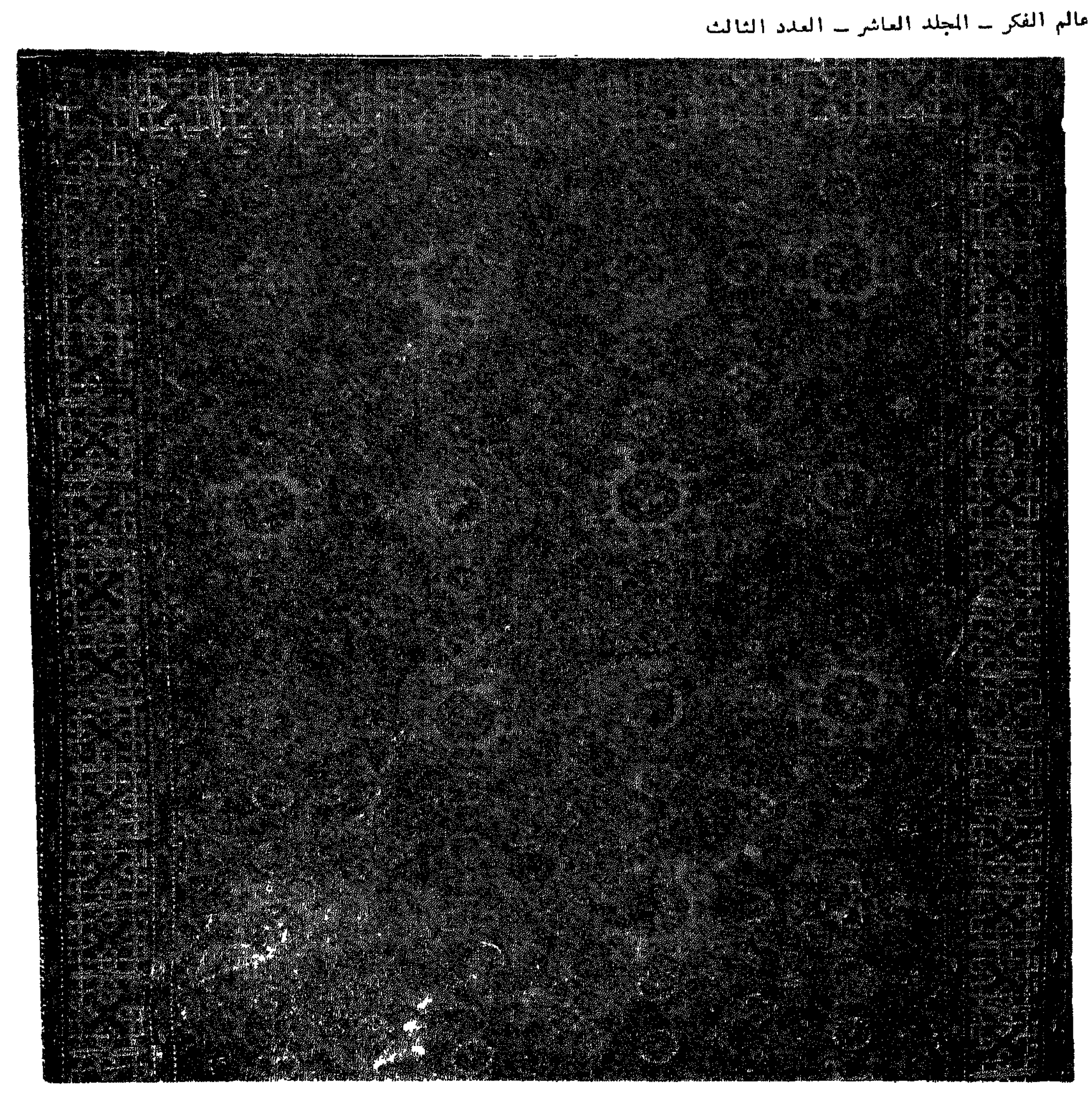
(شكل ٤٦) صحن من الخزف ذى البريق المعدنى . مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .



(شكل ٤٧) صحن من الخزف ذى البريق المعدنى ـ مصر ، القرن ٥ هـ (١١) .

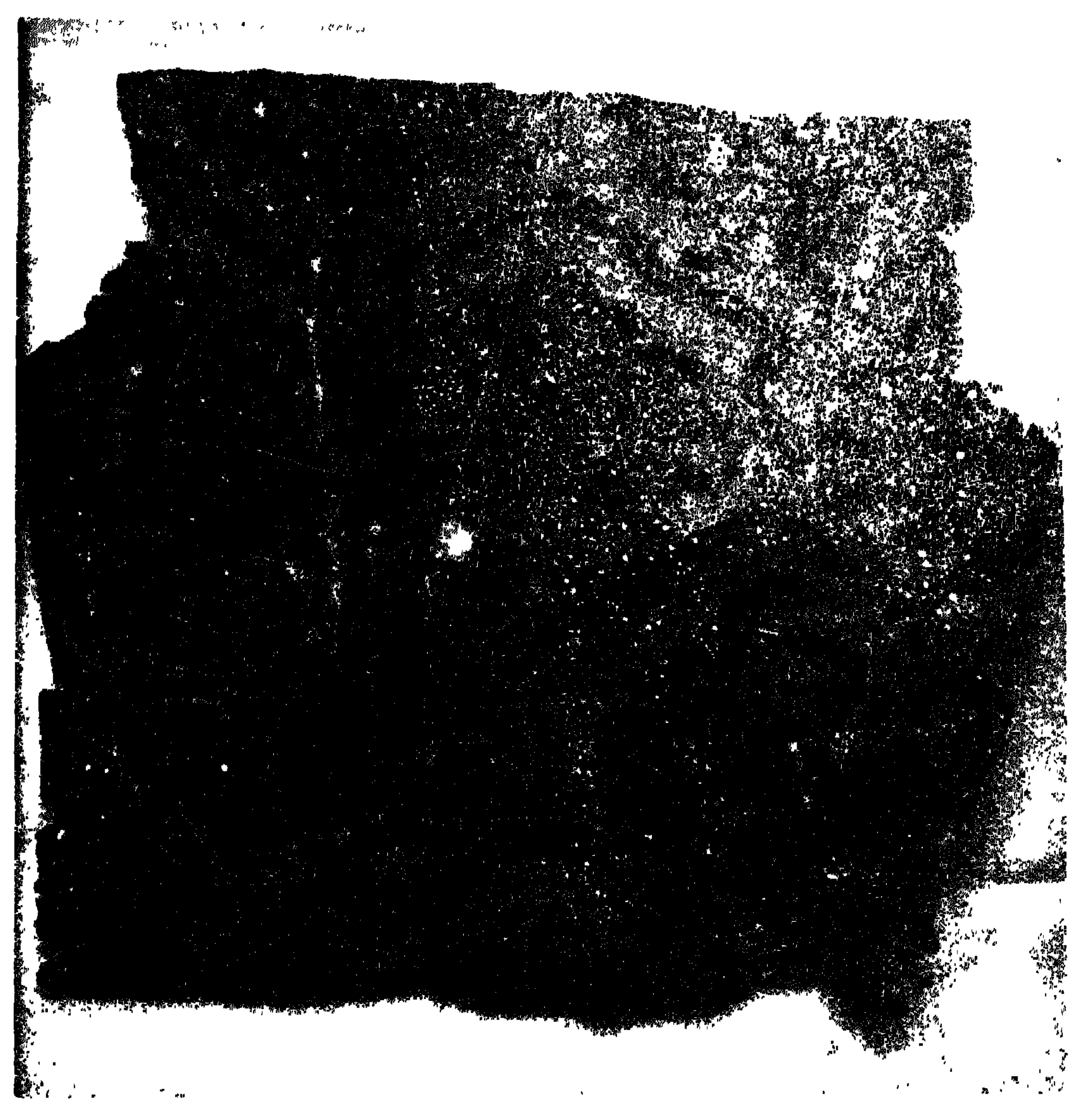


(شكل ٤٨) ابريق من الخزف . ايران ، القرن ٤ هـ (١٠) .

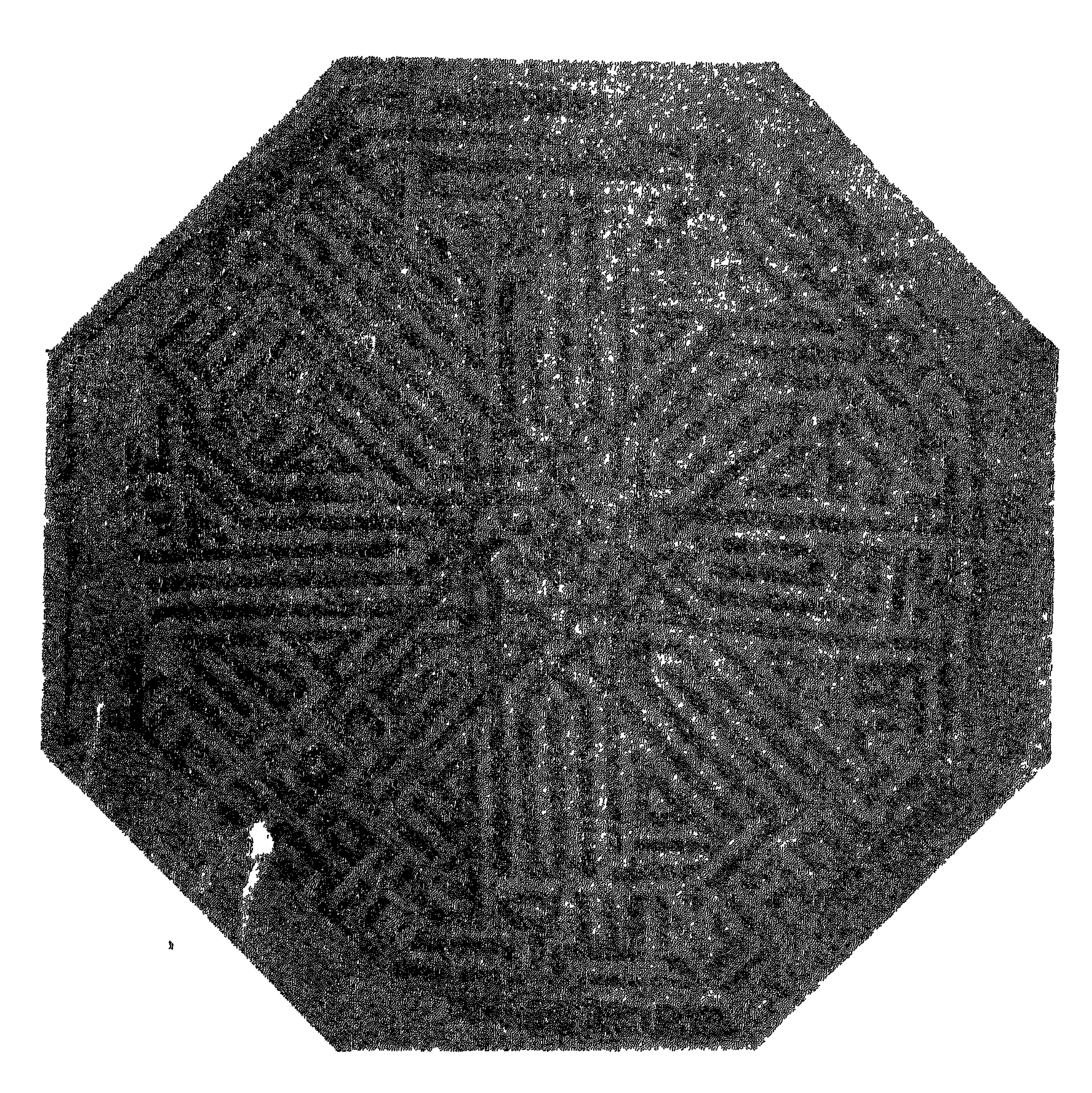


(شكل ٤٩) سجادة من نوع هولباين . آسيا الصغرى ؛ القرن ١٠ هـ (١٦) .

(شكل ٥٠) نسيج بخيوط من الفضة . سوريا ، القرن ١٠ هـ (١٦) .

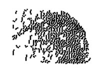


(شكل ٥١) نسيج حرير مملوكي بتأثيرات صينية . مصر ، القرن ٨ هـ (١٤)



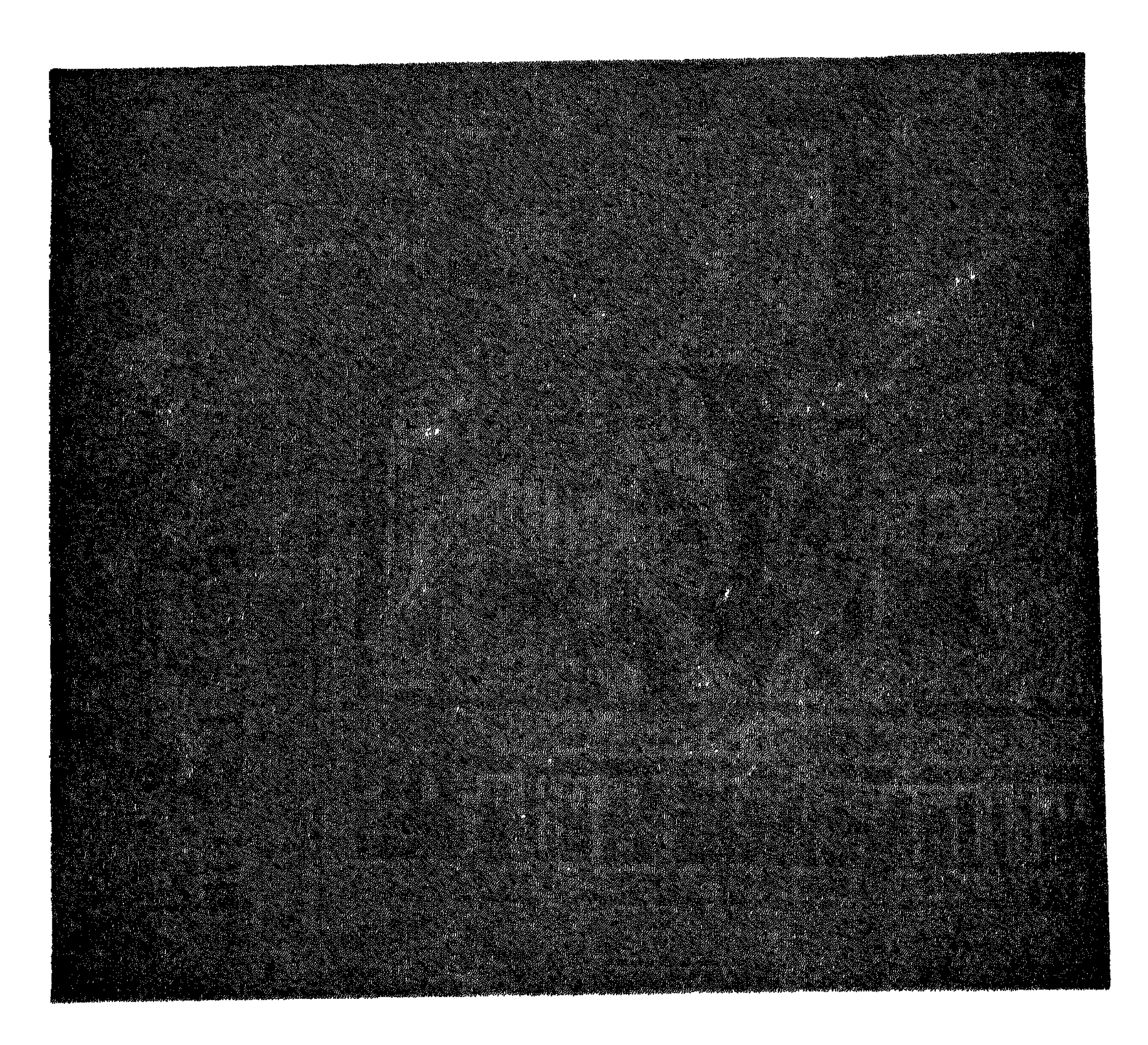
(شكل ٥٢) لوحه مثمنه من فسيفساء الرخام تقلد الاختام الصينيه . مصر، القرن ٨ هـ (١٤)

(شكل ٥٣) بلاطة من الخزف المملوكى عليها توقيع الخزاف غيبى ، مصر ، القرن ٨ هـ (١٤)

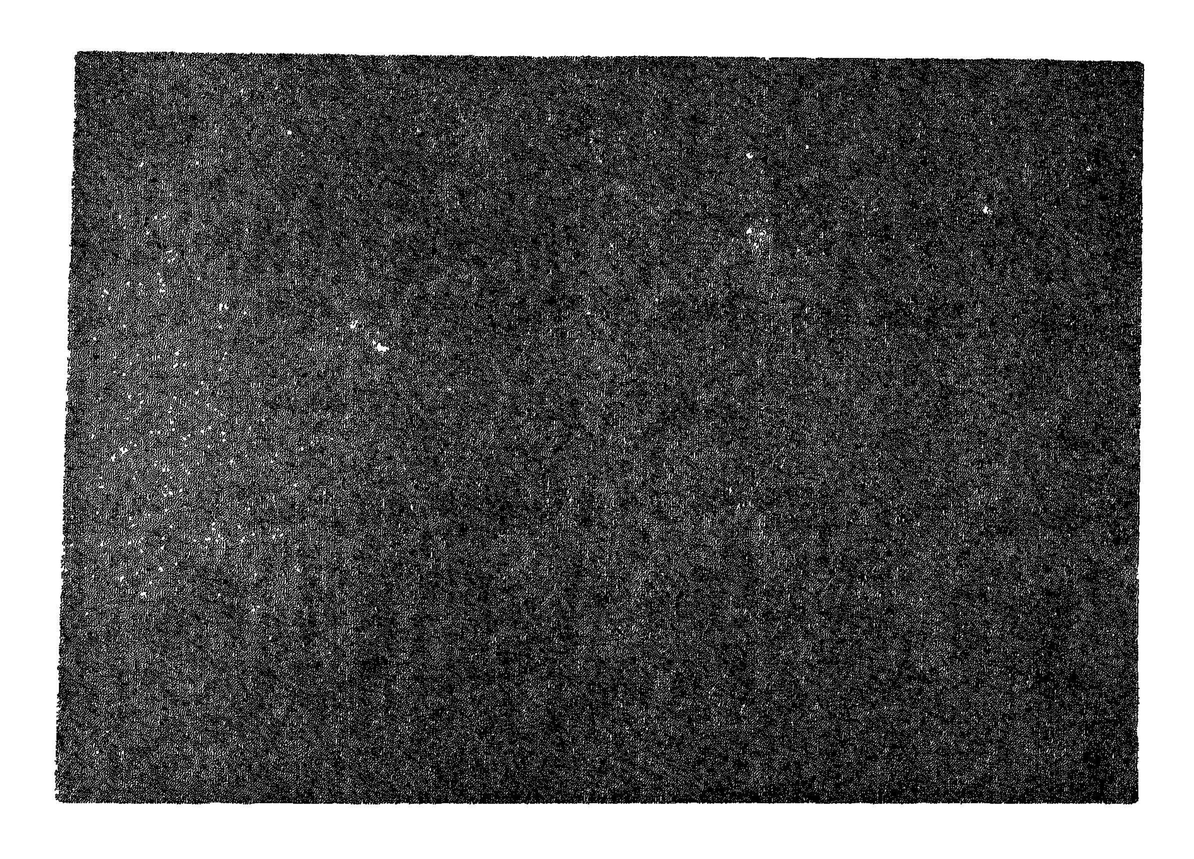




(شكل ٥٤) سجادة صلاة من الحرير بخيوط معدنية . ايران ، أواخر القرن ١٠ هـ (١٦) .



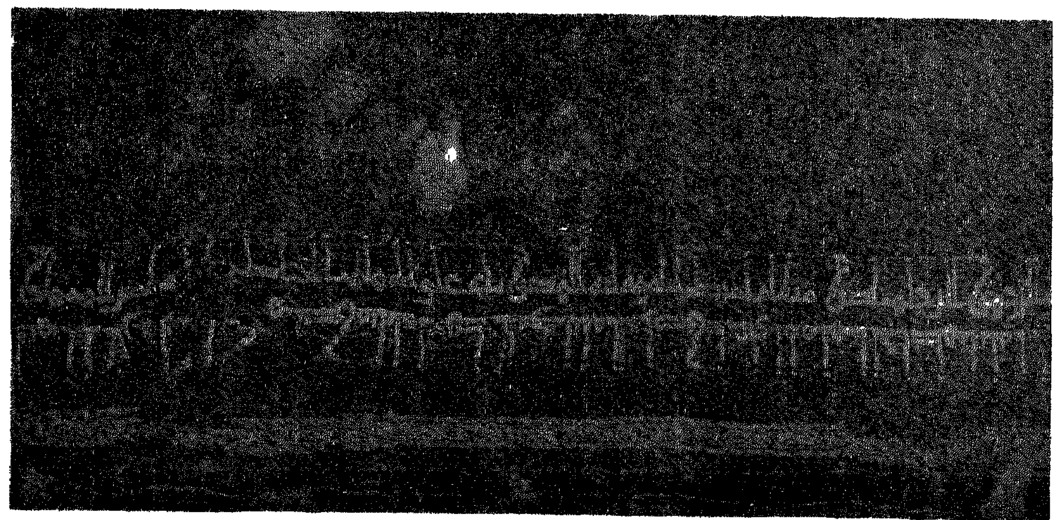
(شكل ٥٥) نسيج من الحرير باسم القائد بختجين،محفوظ بمتحف اللوفر فى بارىس . ايران ، توفى القائد بختجين فى سنة ٣٤٩ هـ (٩٦١)



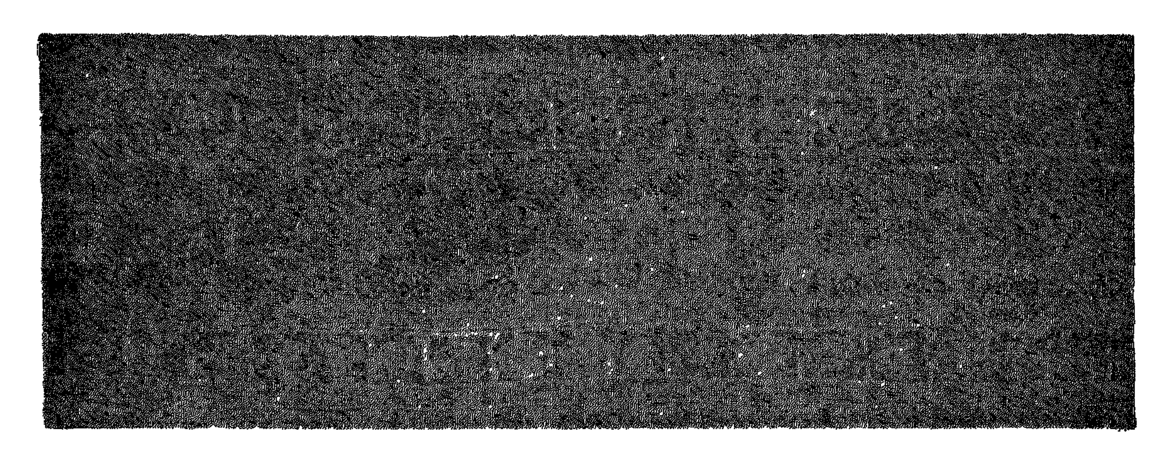
(شكل ٥٦) نسيج باسم الخليفة الفاطمى العزيز بالله . مصر ، القرن ٤ هـ (١٠) .



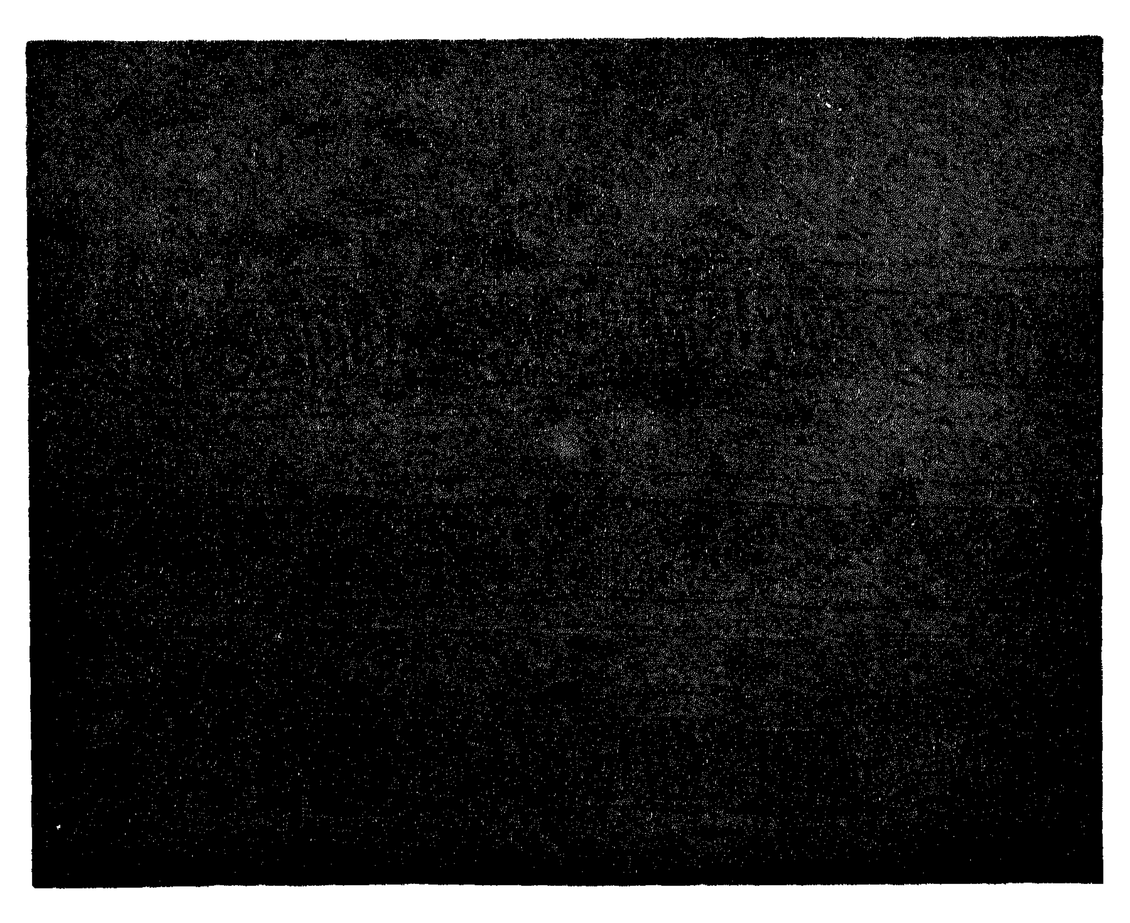
(شكل ٥٧) منديل باسم الخليفة الفاطمى العزيز بالله . مصر ، القرن ٤ هـ (١٠) .



(شكل ٥٨) نسيج باسم الخليفة الفاطمى الحاكم بأمرالله. مصر ، أوائل القرن ٥ هـ (١١) .



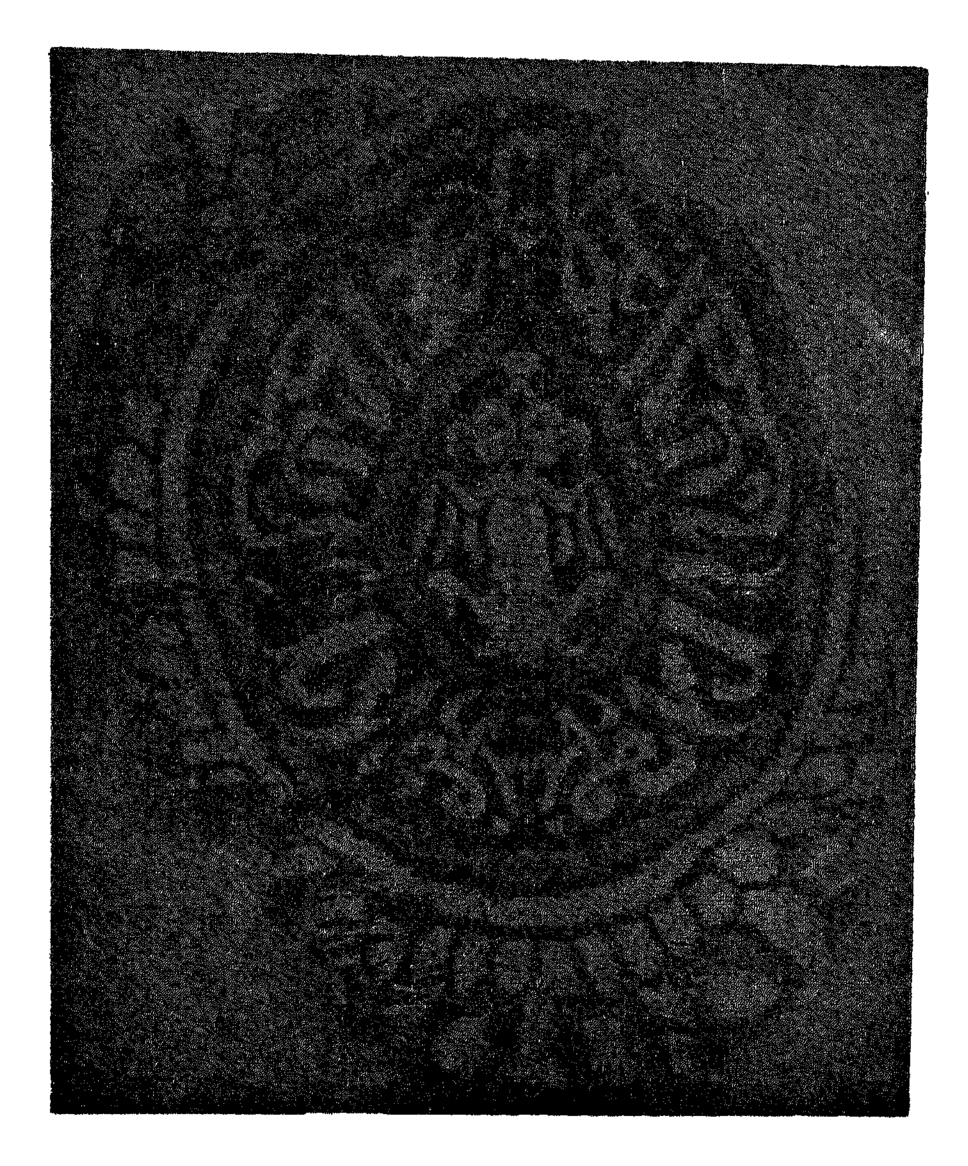
(شكل ٥٩) نسيج باسم الخليفة الفاطمى الامر باحكـام دين الله . مصر ، أوائل القرن ٦ هـ (١٢) .



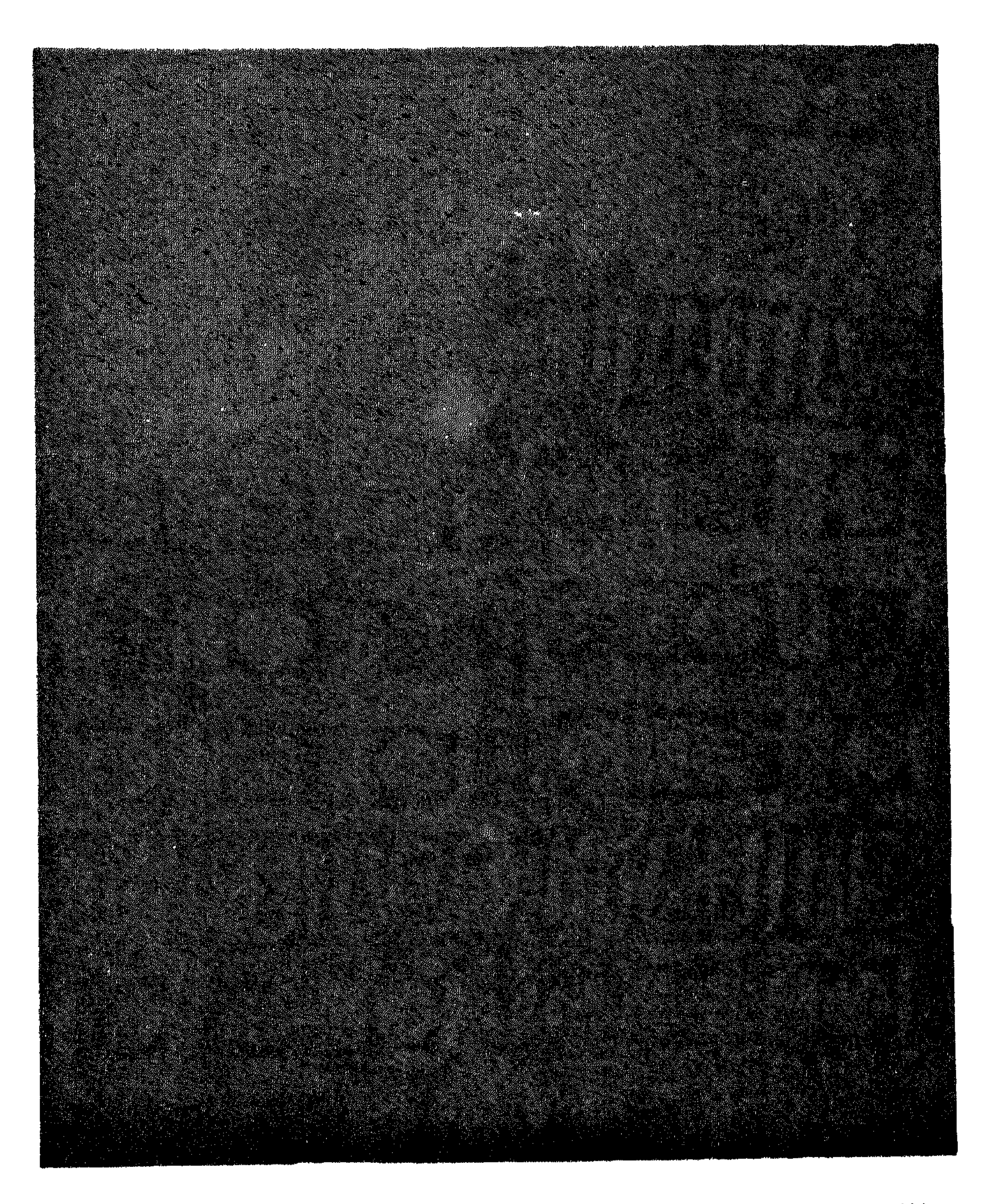
(شكل ٦٠) نسيج حرير مملوكى باسم الملك الناصر . مصر ،القرن ٨ هـ (١٤) .

٩٤٣

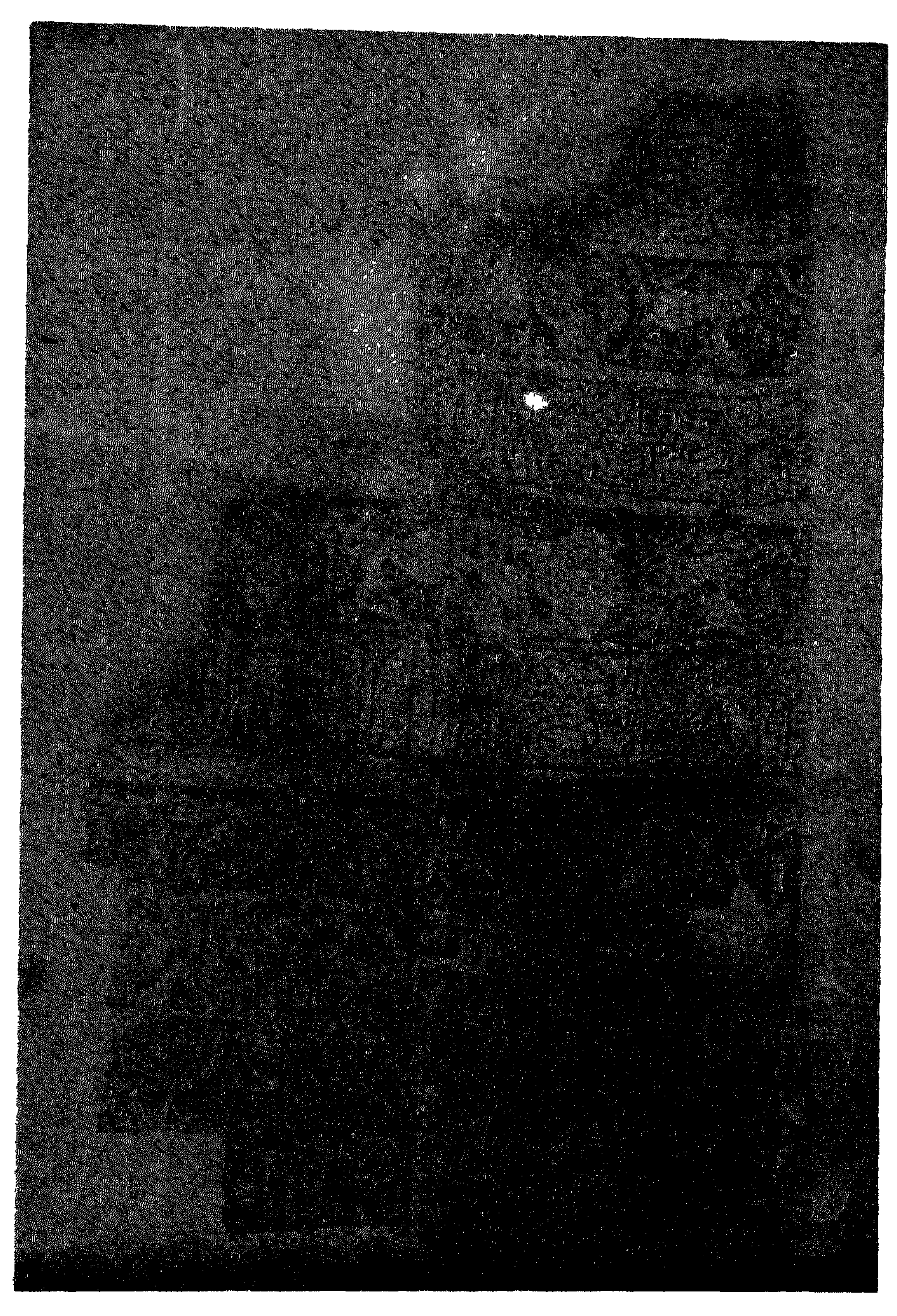
الكتابة العربية عنصر زخرفي



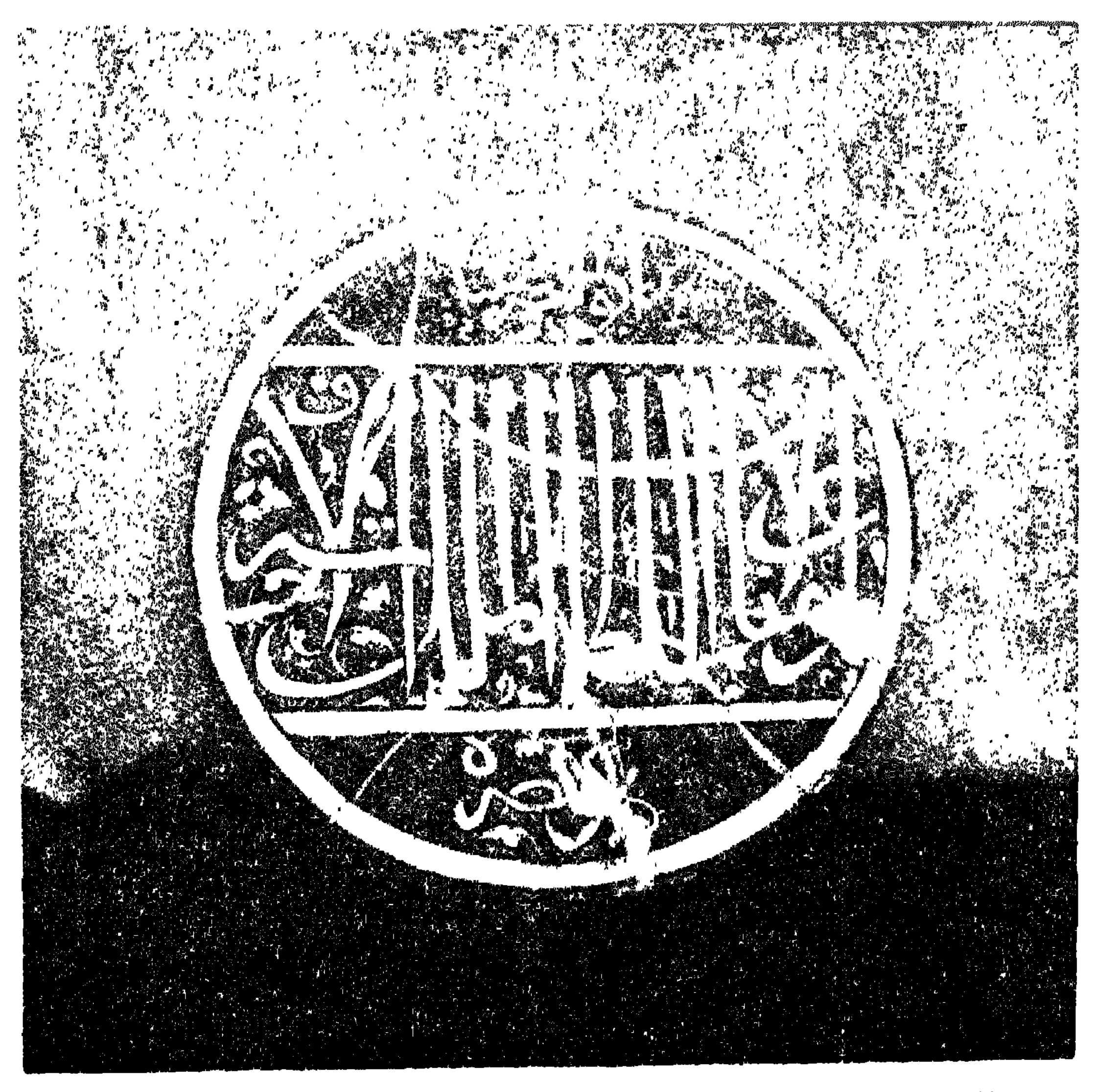
(شكل ٦١) نسيج من الحرير المملوكى عليه كتابة زخرفيةورنك نسر برأسـين . مصر ، أوائل القرن ٨ هـ (١٤) .



(شكل ٦٢) نسيج من الحرير المملوكى بكتابة نسخيه وزخارف فى مربعات . مصر ، القرن ٨ هـ (١٤) .



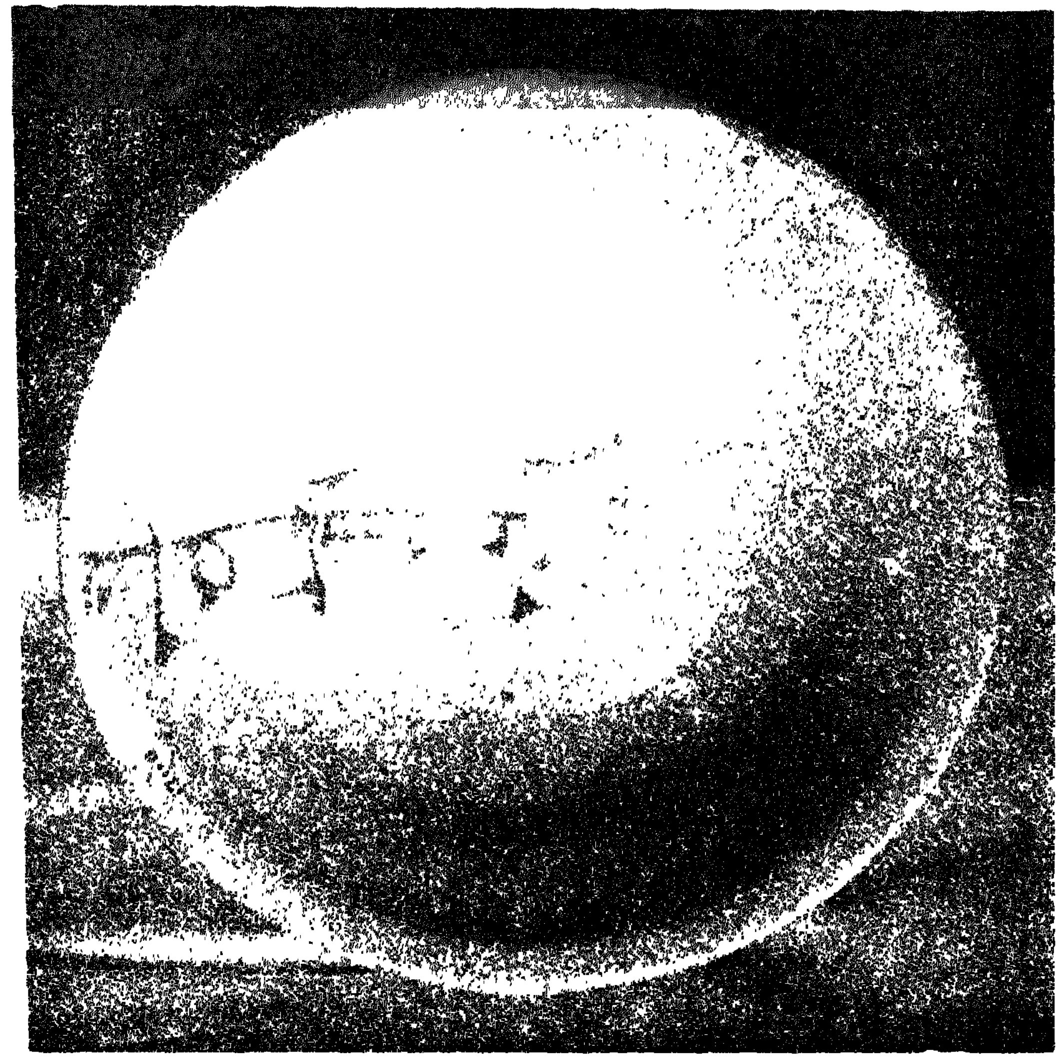
(شكل ٦٣) نسيج من الحرير المملوكى باسم الملك الاشرف . مصر ، القـرن ٨ هـ (١٤) .



(شكل ٦٤) بلاطة من الخزف المملوكي عبارة عـن خرطوش السلطان الاشرف قانتباى . مصر ، القرن ٩ هـ (١٥) .



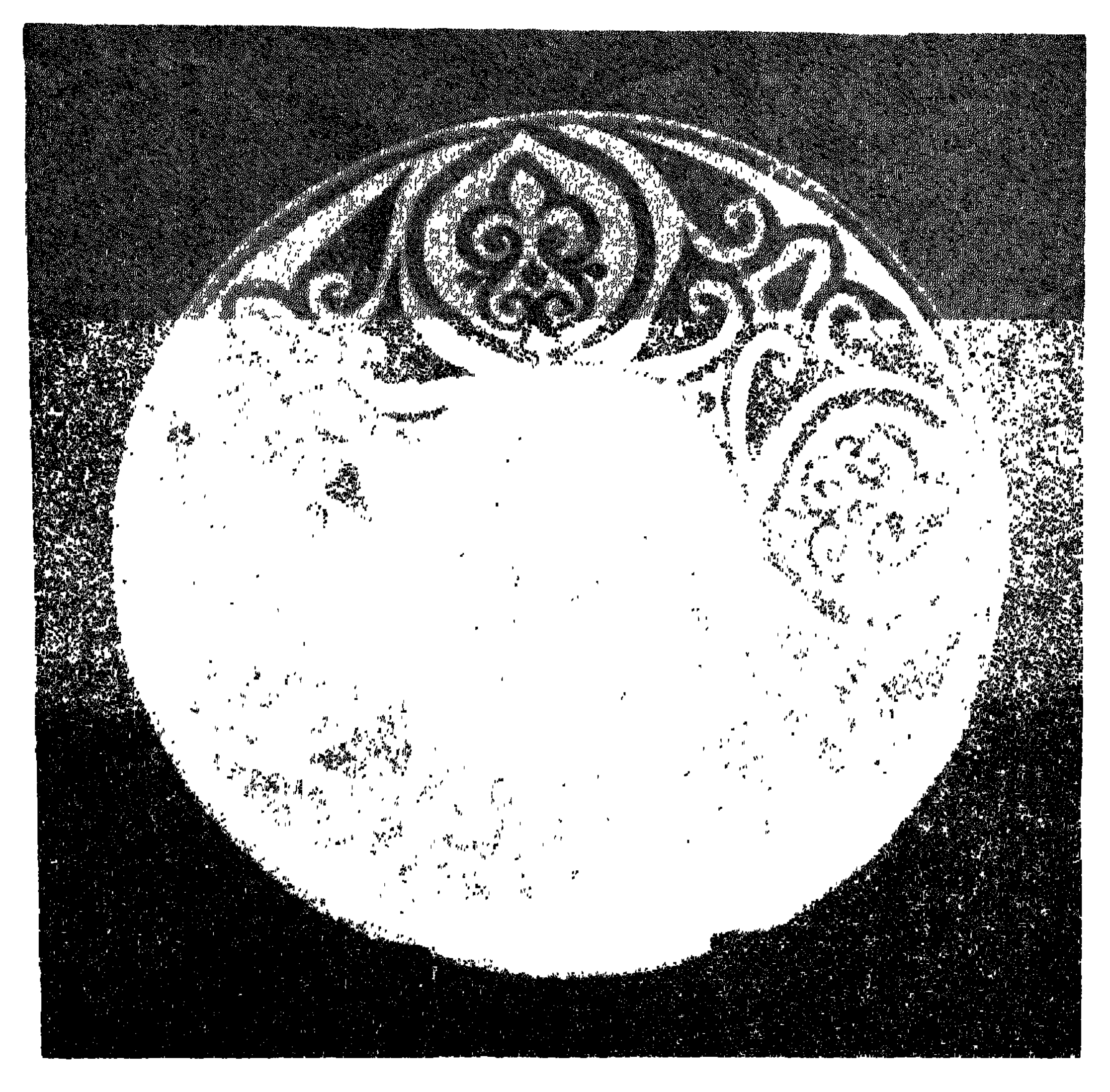
(شكل ٦٥) لوحة من الجص عليها صورة سيدة واسم المصور مفلح ، من حفائر سامرا . العراق ، القرن ٣ هـ (٩)



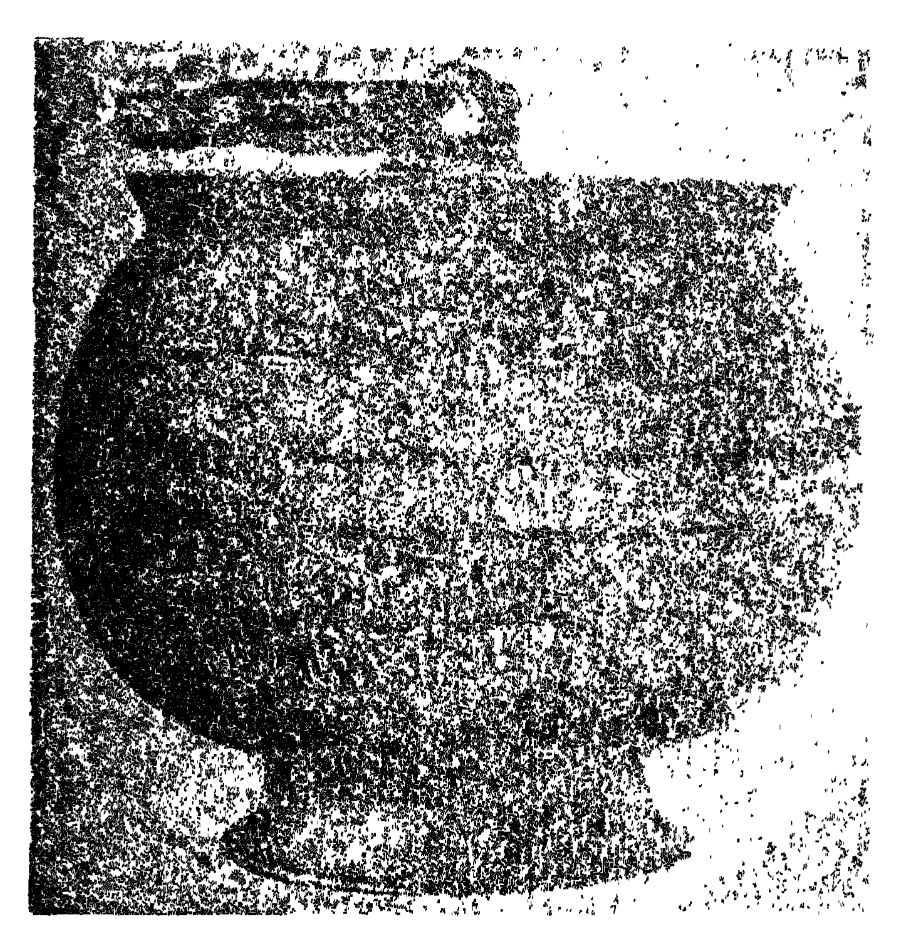
(شكل ٦٦) صحن من الخزف عليه اسم الخزاف سهيل . ايران ، أوائل القرن ٤ هـ (١٠) .

949

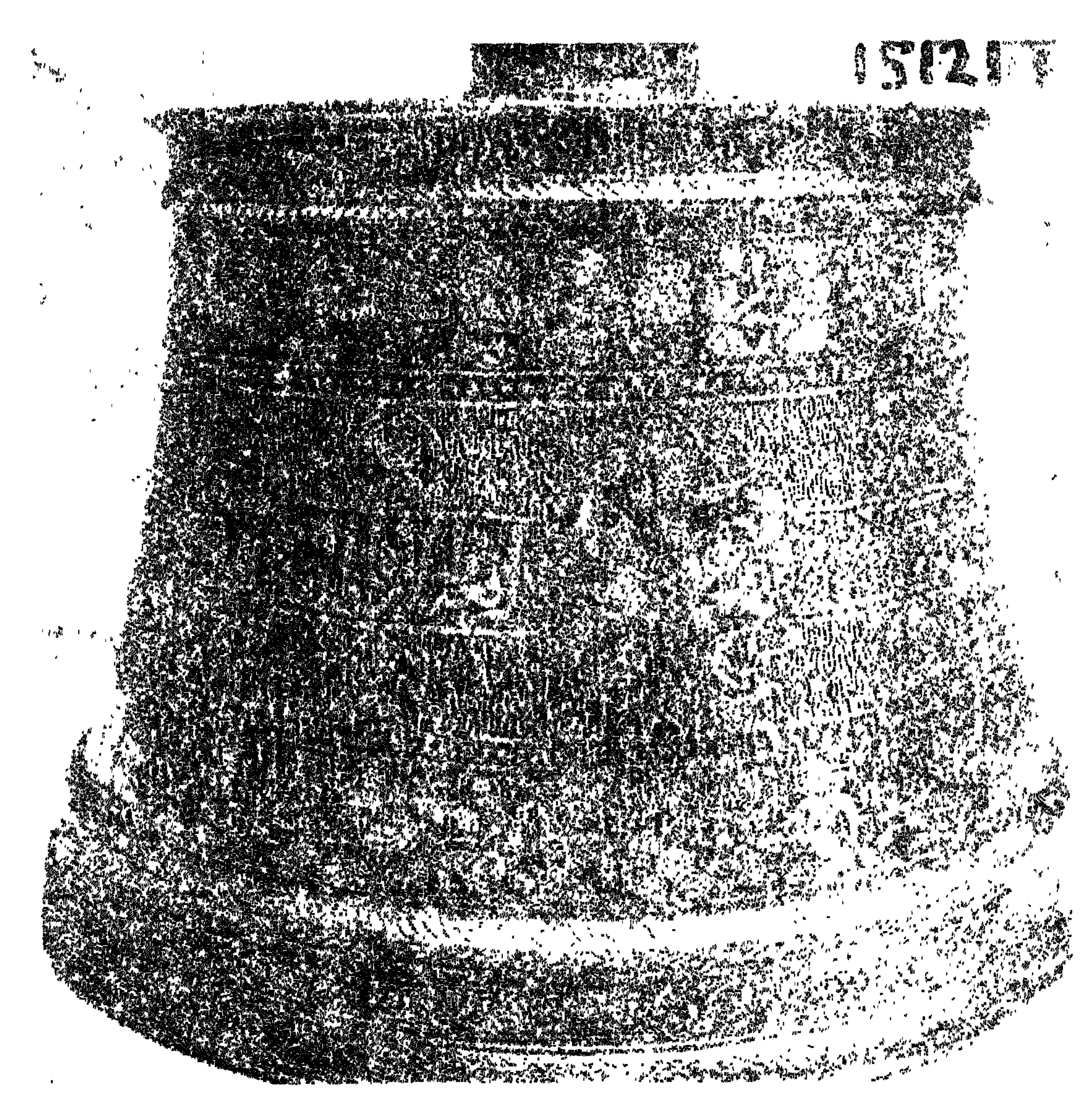
الكتابه العربيه عـصر زخرفى



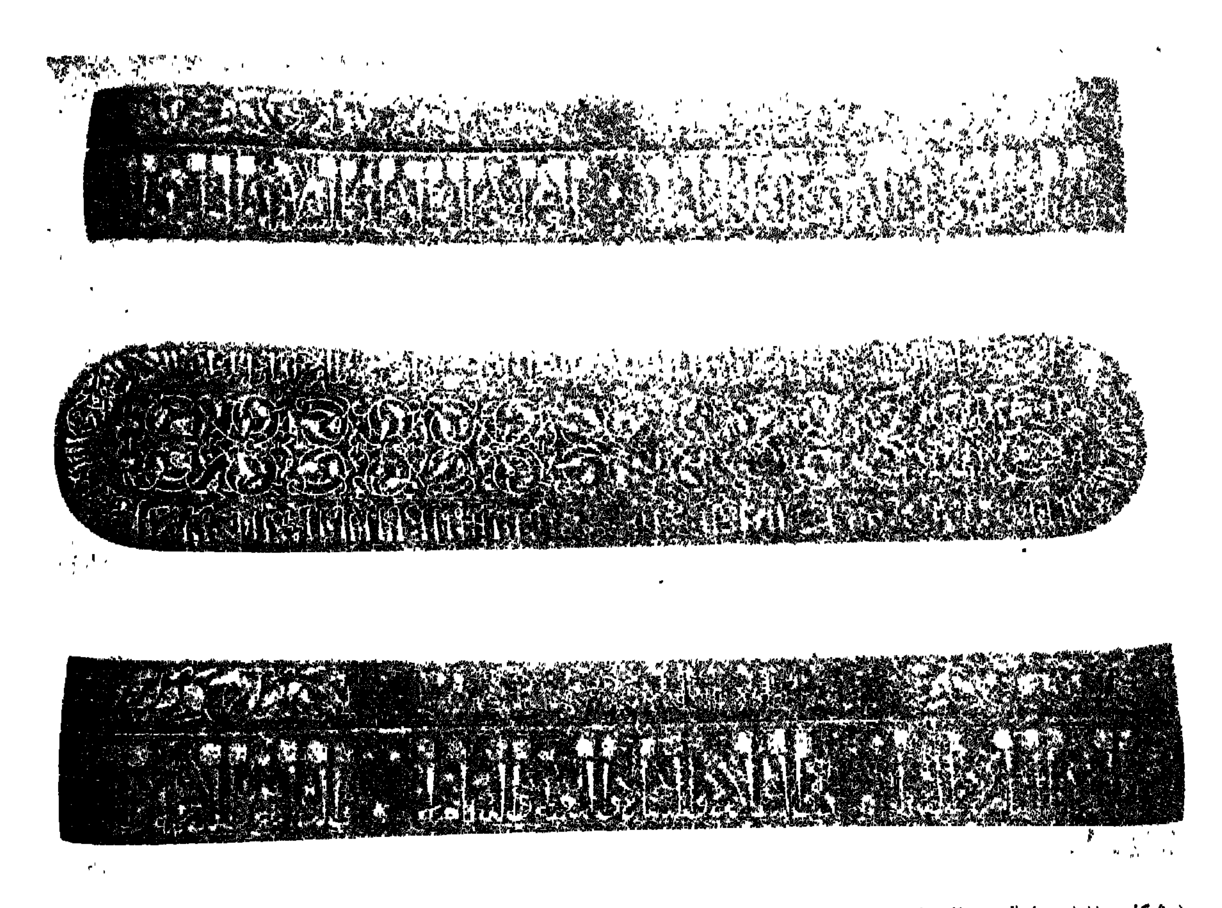
(شكل ٦٧) صحن من الخزف ذى البريق المعدنى ، عليه اسم الخزاف مسلم بن الدهان . مصر ، أوائل القرن ٥ هـ (١١) :



(شكل ٦٨) سطل من البرونز مكفت بالفضة والنحاس ، باسم صاحبه عبد الرحمن بن عبدالله الرشودى ، واسم الصانع محمد بن عبد الواحد ، ونقشه حاجب مسعود بن أحمد فى مدينة هراة ، افغانستان ، على المقبض تاريخ سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٣) .



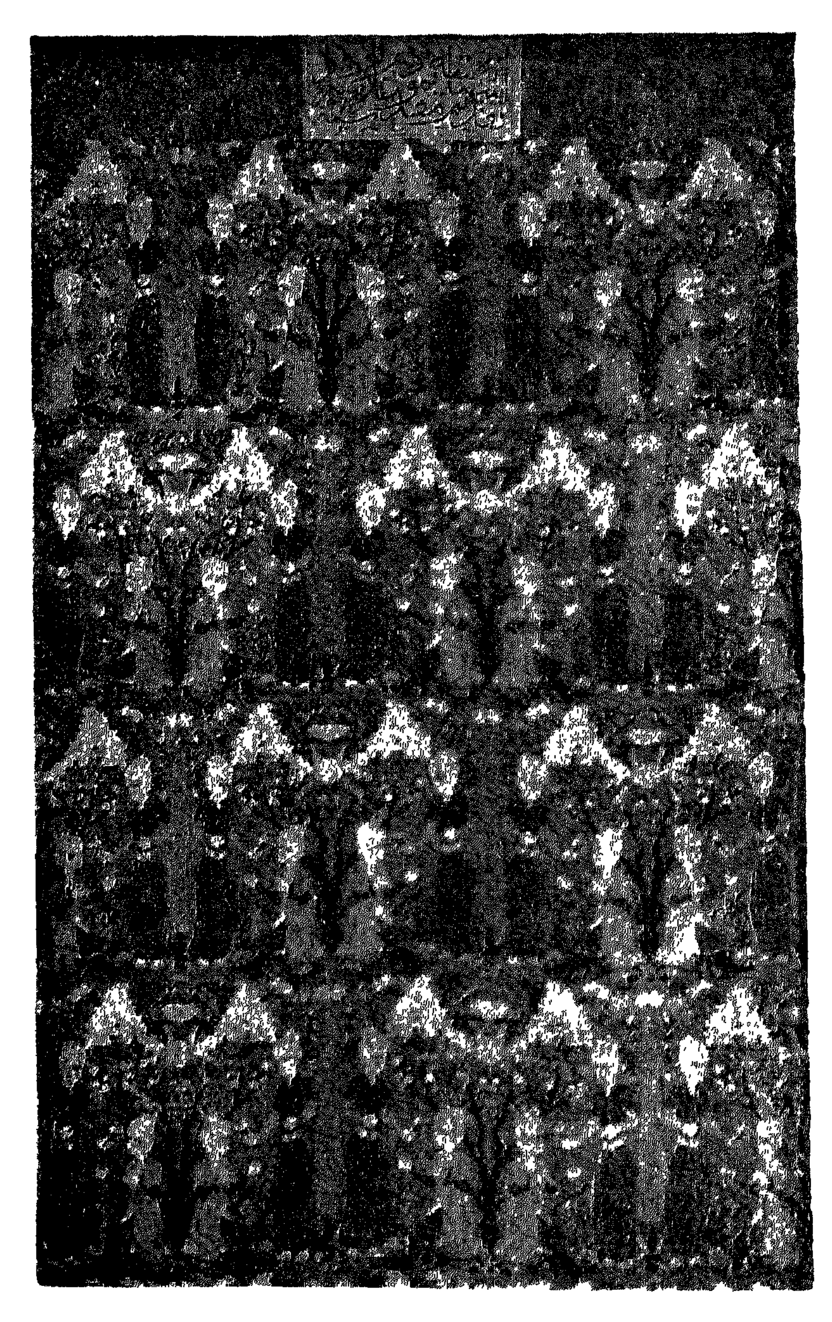
(شكل ٦٩) شمعدان من النحاس مكفت بالفضة عليه اسم الصانع محمد بن فتوح الموصلي المطعم أجير الشجاع الموصلي النقاش، مصر ، القرن ٧ هـ (١٣).



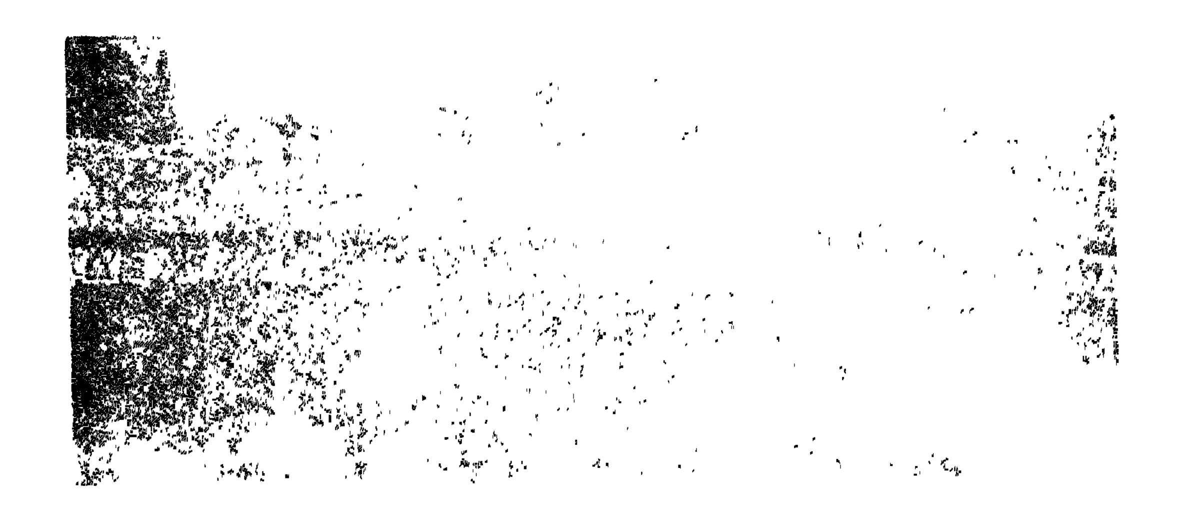
(شكل ٧٠) مقلمة من النحاس المكفت بالفضة عليها توقيع شادى النقاش ، محفوظة فى متحف فرير جاليرى ، بمدينة واشــــنطن ، ايــران ، مــؤرخ فى شــهور ســـنة ٦٠٧ هـ (١٢١١/١٢١٠) .



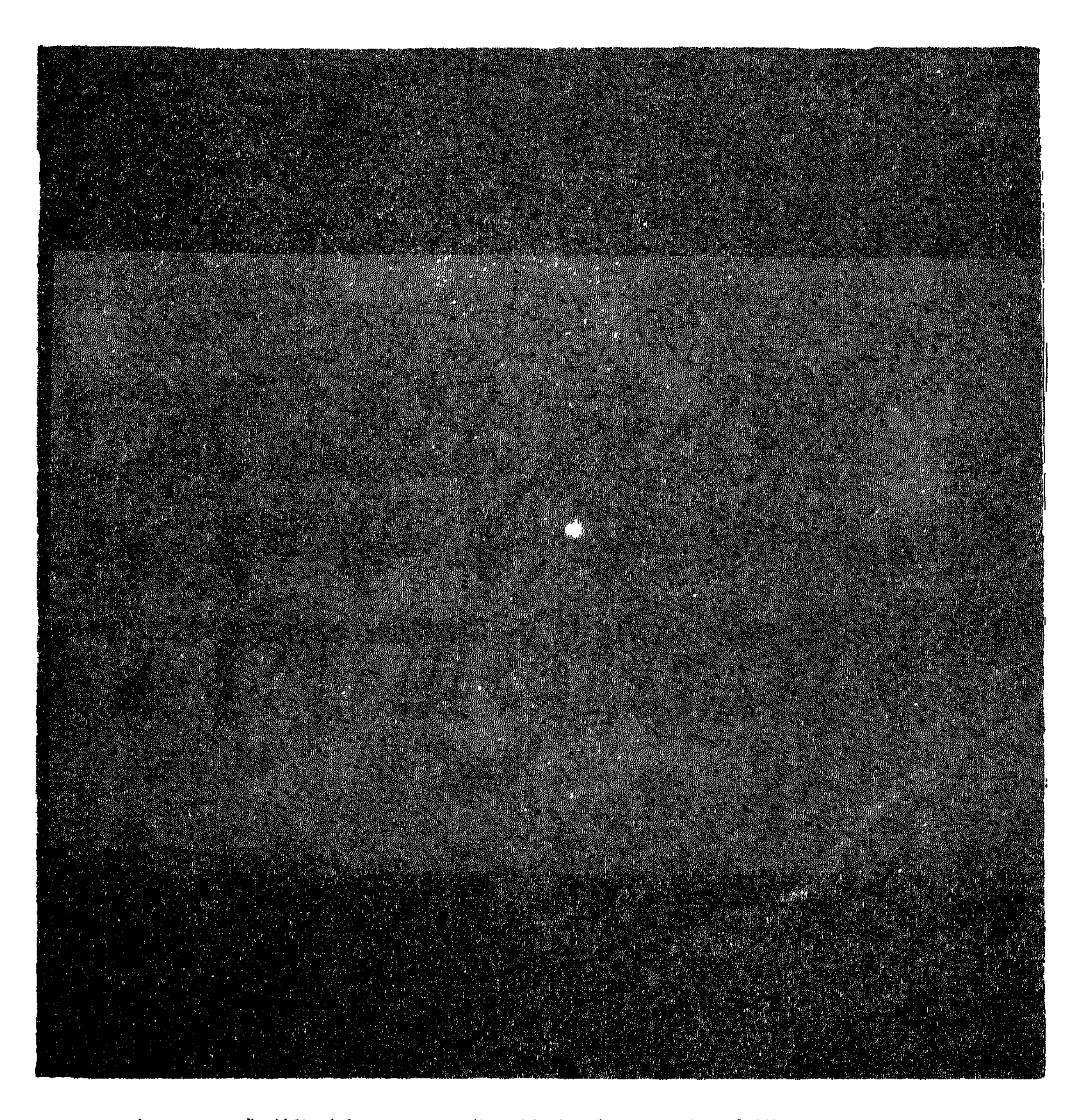
(شكل ٧١) مشكاة من الزجاج المموه بالمينا ، باسـم الماس حاجب ، وعلى القاعدة توقيع على بن محمـد أمكي. مصر ، من مسجد تم بناؤه في سـنة ٧٣٠ هـ (١٣٣٠) .



(شكل ٧٢) نسيج من الساتان عليه اسم غلام شهرزاده. سابقا فى مجموعة بارنس واسن ايران ، مؤرخ سنه ٩٧٩ هـ (١٥٧١)



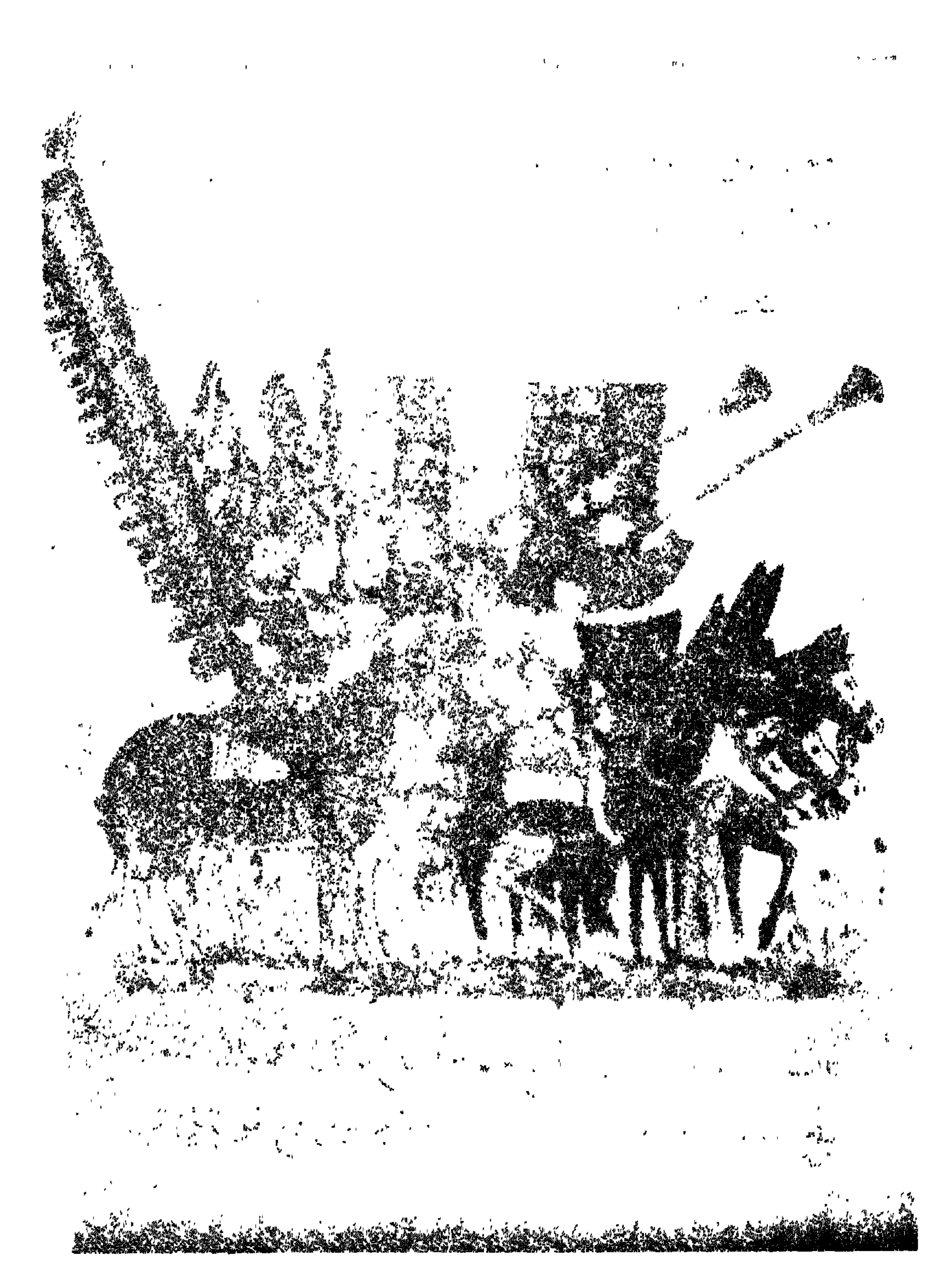
(شكل ٧٣) نسيج من نوع الفيوم ، صنع فى طراز الخاصة بمطمور من كوره الفيوم . مصر ، القرن ٤ هـ (١٠ م) .



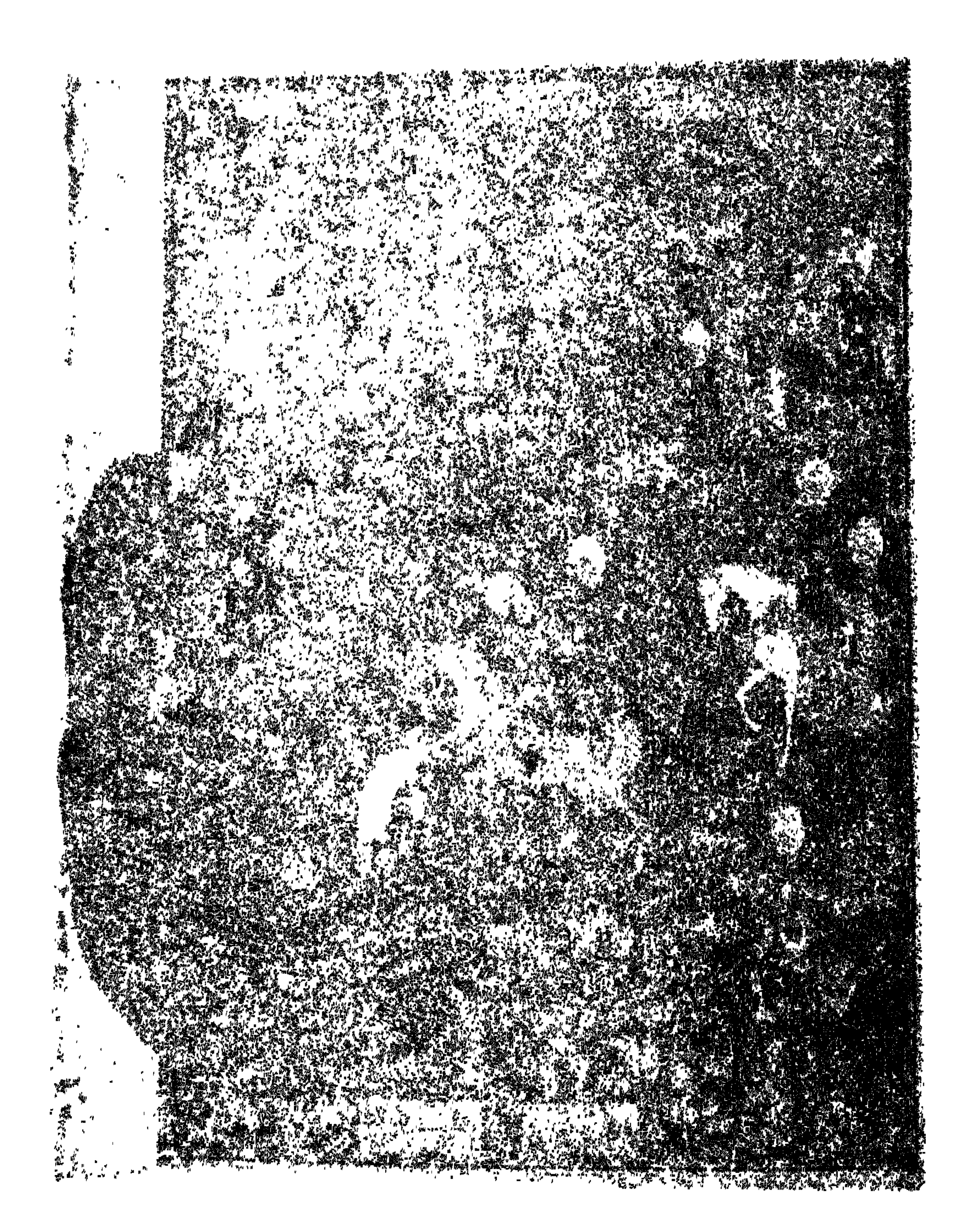
(شكل ٧٤) شريط من النسيج الفاطمي عليه اسم الخليفة المطيع لله ، وصنع بطراز الخاصة بمصر ، على يد فـايز مولى أمير المؤمنين . مصر ، حـوالي سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٤م)

٩٥٧

الكتابه العربيه فن زخرفي



(شكل ٧٥) صورة توضيحية من مخطوط مقامات الحريرى للواسطى ، محفوظة فى دار الكتب الاهلية ، ، فى بارس . العراق ، مؤرخ سنه ٦٣٤ هـ (١٢٣٧) .



(شكل ٧٦) صورة من مخطوط للشاعر نظامى ، تصوير الفنان سلطان محمد ، محفوظ بالمتحف البريطانى ، فى لندن . ايران ، مؤرخ ٩٤٦/٩٤٩ هـ (١٥٣٩/١٥٤٣) .

ارانب جبلية تقفز تحت الخيول . وتزخرف الارضية بين هذه الوحدات ، كلمات مفردة تتكرر بالخط الكوفى . وقد عهد الفنان الى كتابة هذه الكلمات فى الاتجاه العادى للكتابة، وذلك فى القسم الايمن من قطعة النسيج ، بينما كتبها فى القسم الايسر فى اتجاه عكسى مراعاة للتناسق الفنى . وكل ذلك امعانا فى تقوية التأثير الجمالى والزخرفى .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٤٨٩٧ ٢١×٢٥ سم » .

وعلى قطعة من النسيج من الصوف (شكل ٣٤) ينسب الى اقليم الفيوم بمصر الوسطى ويؤرخ فى القرن ٤ هـ (١٠ م) ، تتألف الزخارف من سطرين من كتابة دعائية بالخط الكوفى ، يحدان شريطا به كلاب صغيرة بألوان متنوعة ، تجرى فى اتجاه واحد .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٤٨٧٧ ١١٠×٧٠ سم » .

وتؤرخ فى القرن ٤ هـ (١٠ م) ، قطعة من نسيج الصوف (شكل ٣٥) تنسب هى الاخرى لاقليم الفيوم بمصر الوسطى ، عليها شريط عريض به رسوم طيور تذكرنا بالدجاج والحمام، ويظهر أن هذا الشريط كان يعلو سطر كتابة بالخط الكوفى وبالالوان ذاتها .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٢٥٥٦ ٢٢×١٨ سم » .

والقدر من الخزف من نوع الفيوم (شكل ٣٦) ، يؤرخ فى أواخر القرن ٥ هـ (١١ م) ، وعليه مناطق نجمية الشكل ، تزخرف بعضها كلمات دعائية بالخط الكوفى تقرأ « بركة كاملة » .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٥٩٨٠ ارتفاع ٢٩ سم » .

كما نجد مناطق بها كتابات دعائية بالخط النسخي على قطعة من النسخي (شكل ٣٧) من صناعة مصر فى القرن ٨ هـ (١٤ م) عليها شريط مطرز بوسطه كتابة دعائية بالخط النسخي ، تقرأ : « سعادة مؤيدة ونعمة مخلدة » . وتتكرر هذه الكتابة فى مناطق تربط بين وحدات زخرفية دقيقة.

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٣٠٨٥ ، ٤٠×٢٠ سم » .

ومثال آخر السجادة (شكل ٣٨) من نوع أصفهان من القرن ١٠ هـ (١٦ م) محبشة بخيوط معدنية وتتألف زخارف اطار السجادة من جامات ممتدة ، بها أبيات من الشعر ، باللغة الفارسية تربط بين الوحدات الزخرفية الاخرى . وفى وسط السجادة زخارف عربية من فروع وأوراق رشيقة ومتناسقة .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٥٧٦٤، ١٦٧×١٣٠ سم » .

● ● ●

وكثيرا ما يملأ الفنانون والخطاطون فى البلاد الاسلامية ، مساحات وأشرطة بعبارات وكلمات ، أو بحروف من شبه الكتابة لا رابط بينها ، ولا معنى لها سوى الغرض الزخرفى المحض .

ويزخرف قطعة النسيج (شكل ٣٩) وهى من صناعة اليمن فى بداية القرن ٤ هـ (١٠ م)، شريط عليه شبه كتابة بالخط الكوفى مطبوعة بالذهب .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٤٤٧٠ ، ٤٤×٢٦ سم » .

وقطعة من نسيج الصوف (شكل ٤٠) وتنسب الى اقليم الفيوم بمصر الوسطى ، وتؤرخ بالقرن ٤ هـ (١٠ م) يزخرفها شريط عريض ، عليه صور سباع وعناصر زخرفية اخرى ويحده اطار به حروف من شبه كتابة.

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٩٠٥٠ ، ٢٦٢×١٣٠ سم » .

وشبه كتابة من الخط الكوفى ، نراها تزخرف قطعة من النسيج (شكل ٤١) من صناعة مصر فى القرن ٥ هـ (١١ م) ، اى من العصر الفاطمي . وعلى الشريط الاوسط العريض مناطق تضم احداها أرنبا جبليا ، والى اليمين جزء من منطقة اخرى من بقية رسم شجرة . وفى اعلى هذا الشريط ، وايضا فى اسفله سطر من شبه كتابة بحروف بالخط الكوفى .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٢٢٢٤ ، ٢٦×٢٢ سم » .

وتوجد تحف كثيرة من الخزف من صناعة مصر فى العصر الفاطمي ، استعمل الخزافون الكتابة العربية بمهارة فائقة لزخرفتها فى نفس اسلوب الزخارف المستعمل فى الخزف ذى البريق المعدنى .

والصحن من الخزف ذى البريق المعدنى (شكل ٤٢) من صناعة مصر فى القرن ٥ هـ (١١ م) ، تزخرفه ثلاث أوراق نخيلية . وهو عنصر زخرفى شاع فى العصر الفاطمى .

وبين هذه الاوراق الثلاث اشكال بيضوية لها طرف مدبب تضم شبه كتابة بالخط الكوفى على أرضية من فروع نباتية ملتفة .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٤٤٦٩، قطر ٢٤ سم » .

والصحن من الخزف ذى البريق المعدنى (شكل ٤٣) من القرن ٥ هـ (١١ م) ، فى الوسط رسم أرنب محفوظ بالابيض على أرضية بالبريق المعدنى ، وعلى الحافة زخرفة متكررة من حروف كبيرة بالخط الكوفى ، لا معنى لها ، ولا دلالة .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٤٨٠٦، قطر ٢٧ سم » .

ونرى زخرفة مماثلة من أرنب جبلى محفوظ بالابيض على أرضية بالبريق المعدنى، على صحن (شكل ٤٤) من القرن ٥ هـ (١١م) ويحيط به شريط من شبه كتابة بحروف بالخط الكوفى .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٥٩٦٧ قطر ٢٩ سم » .

والزخرفة بشبه كتابة ، نراها ايضا على صحن من الخزف ذى البريق المعدنى (شكل ٤٥) من القرن ٥ هـ (١١ م) فى شكل أشرطة تحيط برسم حيوان خزافى مجنح له رأس نسر وجسم شبع (جريفون) .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٤٩٣٧، قطر ١٨ سم » .

وعلى صحن آخر من الخزف ذى البريق المعدنى (شكل ٤٦) من صناعة مصر فى القرن ٥ هـ (١١ م) نرى صورة طاووس ، تحيط به حروف متكررة بالخط الكوفى .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٤٩٢٩ قطر ٢٩ سم » .

وأيضا من صناعة مصر فى العصر الفاطمى صحن من الخزف ذى البريق المعدنى (شكل ٤٧) من القرن ٥ هـ (١١ م) . عليه رسم شخص جالس يبدو انه قسم من مناظر فى حفل طرب وشراب وعلى جانبيه دورقان للشراب ويمسك بيده كأسا ويحيط به شريط به شبه كتابة من حروف متكررة بالخط الكوفى .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٤٩٢٥ قطر ٢٧ سم » .

ونلاحظ ان الكتابة العربية استعملت ايضا بنفس الاسلوب كعنصر زخرفى على التحف

الايرانية كما نراه على صحن من الخزف صناعة ايران (شكل ٤٨) من القرن ٤ هـ (١٠ م) . وفى وسط الصحن شكل مربع مرسوم بخطوط باللون الازرق الكوبالت ويضم شبه كتابة بالخط الكوفى .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٦٠٠٣ قطر ٢ر١٨ سم » .

●●●

ولم يكن الخزافون وحدهم هم الذين أوحى اليهم العنصر الزخرفى للكتابة العربية بنماذج جديدة فنية ، بل ان التأثير الزخرفى للكتابة العربية قد تأثرت به صناعة المنسوجات والبسط والسجاد .

فاننا نرى فى النوع المعروف بسجاد « هولباين » (شكل ٤٩) من صناعة آسيا الصغرى فى القرن ١٠ هـ (١٦ م) ان الاطار مزخرف بنوع من شبه حروف كتابية كوفية متشابكة باللون الابيض . وهذا النوع من سجاد آسيا الصغرى نجده مرسوما فى لوحات عدد من المصورين الايطاليين والالمان فى القرنين ٩ هـ ، ١٠ هـ (١٥ /١٦ م) . ولا سيما فى لوحات المصور هانس هولباين .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٥٦١٣ ٣٠٠x١٥٢ سم » .

وعلى قطعة من الديباج بخيوط من الفضة (شكل ٥٠) من صناعة سوريا فى القرن ١٠ هـ (١٦ م) ، رسم الفنان أربعة عقود ، ترتكز على أعمدة ، تتدلى من كل عقد مشكاة تزخرفها شبه كتابة .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٢٠٢١ ، ١١٥x٦٦ سم » .

●●●

كما عمل الفنانون فى البلاد الاسلامية على تقليد العناصر الزخرفية الصينية ، التى كانوا يرونها على أنواع التحف الفنية والبورسيلان والسيلادون ، مما كان يستورد مباشرة من الصين الى مصر وبلاد الشرق الاوسط ، ولا سيما فيما بعد القرن ٧ هـ (١٣ م) ، وكان ينقل من الصين عبر طريق التجار القديم الى بلاد الشرق الاوسط ، حيث كان الفنانون يستوحون العناصر الزخرفية الصينية فى أعمالهم الفنية .

ويبدو أن قطعة الديباج (شكل ٥١) من صناعة الصين فى القرن ٨ هـ (١٤ م) ، وتتألف الزخرفة من مراوح بشكل طبيعي وأغصان مرسومة بشكل طبيعي ايضا بالاسلوب الصينى التقليدى . وتزخرف كل مروحة نخيلية شبه كتابة بحروف بزوايا قائمة لتقليد الكتابة الصينية وفى الوقت نفسه لكى تشبه الكتابة بالخط الكوفى .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٢٢٢٧ ، ٣١x٢٩ سم » .

واستوحى الفنانون فى البلاد الاسلامية ما رأوه من الاختام التجارية ، والكتابات الصينية فمزجوا بينها وبين زخارف ما انتجوه من تحف فنية بطريقة زخرفية محورة .

ومثال لذلك لوحة مثمنة الشكل من الفسيفساء (شكل ٥٢) . من صناعة مصر فى القرن ٨ هـ (١٤ م) . وتتألف زخرفتها من كتابة عربية مكتوبة بطريقة زخرفية ، بزوايا قائمة تقليدا للاختام التجارية الصينية .

« متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٢٠٩٧ ، ٥٤x٥٤ سم » .

ومثال آخر لهذا النوع من الكتابة الزخرفية ، نجده على بلاطة من الخزف (شكل ٥٣) من صناعة مصر فى القرن ٨ هـ (١٤ م) . ملأ الفنان سطح هذه البلاطة بكتابات عربية ، للغرض الزخرفى المحض . فنرى عليها فى الوسط كتابة بالخط النسخى ،

تنتهي حروفها بأشكال مجدولة هندسية ، وتحيط بها على الحافة كتابة أخرى بالخط الكوفي الزخرفي . وفي الاركان توقيع الخزاف المصري المشهور « غيبي بن التوريزي » وقد قصد في أسلوب كتابته ان يقلد به توقيعات الخزافين الصينيين على الاختام التجارية وعلى منتجاتهم من البورسيلان والسيلادون، مما كان يستورد الى مصر .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ٢٠٧٧ ، ٤٤×٤٤ سم » .

وعلى سجادة صلاة من الحرير (شكل ٥٤) من صناعة ايران في القرن ١٠ هـ (١٦ م) ترى في الركنين العلويين كتابة زخرفية لتقليد الكتابة الصينية وبينهما في القسم العلوي من السجادة شريط من كتابة قرآنية منسوجة ، بالخط النسخي .

« موسوعة الفنون الايرانية لوحة رقم ١١٦٥ » ، « متحف الجزيرة بالقاهرة ، ١٦٢×١٠٧ سم » .

● ● ●

ومن الطبيعي ان تضم الكتابات على التحف الفنية ، اسم صاحب التحفة او اسم من اقتناها ، مع التمنيات الطيبة والدعوات والبركات لصاحبها . ومن البديهي ايضا ان يذكر في نصوص الكتابة اسم الفنان صانع التحفة ، وتاريخ صناعتها ، واسم البلد الذي صنعت فيه .

وتوجد قطعة من نسيج الحرير ، على سداة من الصوف (شكل ٥٥) من صناعة ايران عليها كتابة دعائية بأسلوب الخط الكوفي ، وتحمل اسم القائد الاعلى لخراسان « أبو منصور بختاجين » . ومن المعروف انه توفى سنة ٣٩٤ هـ (٩٦١ م) ، مما يؤرخ هذه القطعة من النسيج الى هذا العصر . وتزخرف هذه القطعة رسوم قلة تحمل محفات .

« متحف اللوفر ، في باريس ، ٥٤×٩٢ سم » .

وعلى قطعة من نسيج الكتان (شكل ٥٦) من صناعة مصر ، نرى عليها شريط به جامات متجاورة بكل منها صورة بطة ويحد هذا الشريط سطران من كتابة دعائية بالخط الكوفي، باسم الخليفة الفاطمي العزيز بالله ، الذي تولى الحكم في مصر في أواخر القرن ٤ هـ (١٠ م) .

« متحف الفن الاسلامي، بالقاهرة رقم السجل ٩٤٤٥، ٣٥×٣٢ سم » .

وقطعة أخرى باسم الخليفة الفاطمي العزيز بالله هي عبارة عن منديل مربع من الحرير (شكل ٥٧) عليه زخرفة مطرزة من أسطر كتابة بالخط الكوفي تكرار اسم « العزيز بالله » . والاشرطة الزخرفية تحتوي على رسوم طيور تجري متتابعة .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ٩٤٤٤ ٤٠×٤٠سم »

ومن القرن ٥ هـ (١١ م) قطعة من النسيج (شكل ٥٨) عليها سطران من كتابة دعائية بخط كوفي جميل باسم الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله .

« متحف الفن الاسلامي، بالقاهرة رقم السجل ١٣١٧٤، ٥٢×١١٠ سم » .

وعلى قطعة من نسيج الكتان (شكل ٥٩) منسوجة بخيوط من الذهب شريط به جامات تضم طيورا ويحد الشريط على كل من جانبيه سطر كتابة كوفية دعائية باسم الخليفة الفاطمي « الآمر بأحكام دين الله ، الذي تولى الحكم في مصر في أوائل القرن ٦ هـ (١٢ م) . وتنتهي حروف الكتابة بمربعات بها عناصر زخرفية ،

« متحف الفن الاسلامي، بالقاهرة رقم السجل ١٥٠١٩ ١٠٠×٤٠ سم » .

ومن القرن ٨ هـ (١٤ م) ، قطعة من

نسيج الحرير (شكل ٦٠) ، على الشريط الاوسط منها رسوم حيوانات ترى منها سبعا يفترس غزالا . والشريطان الآخران بهما كتابات دعائية باسم السلطان المملوكى « الناصر » .

« متحف الفن الاسلامى، بالقاهرة رقم السجل ٩٩٥١، ٣٦x٥٢ سم » .

وقطعة أخرى من نسيج الحرير (شكل ٦١) من صناعة مصر فى القرن ٨ هـ (١٤ م) ، عليها ايضا كتابة دعائية باسم السلطان الناصر .

ونلاحظ ان الكتابة ، فى القسم الايسر من قطعة النسيج تتجه اتجاها صحيحا ، بينما فى القسم الايمن نرى أن الكتابة تتجه اتجاها عكسيا امعانا فى ابراز التناسق الزخرفى ، وفى الوسط يوجد رنك به نسر ناشر جناحيه .

« متحف الفن الاسلامى، بالقاهرة رقم السجل ٢١٣٩، ١٤x١١ سم » .

وباسم احد سلاطين المماليك ، قطعة من نسيج الحرير (شكل ٦٢) من صناعة مصر ، فى القرن ٨ هـ (١٤ م) عليها أشرطة بها كتابات دعائية بالخط النسخي .

●●●

« متحف الفن الاسلامى ، بالقاهرة رقم السجل ١٢٦٦٧/١ ، ١٢x١٤ سم » .

وعصر المماليك أيضا ، قطعة من نسيج الحرير (شكل ٦٣) من صناعة مصر فى القرن ٨ هـ (١٤ م) عليها أشرطة زخرفية بها كتابات دعائية باسم السلطان الاشرف ، وتتابع هذه الاشرطة مع أشرطة أخرى بها رسوم غزلان .

« متحف الفن الاسلامى، بالقاهرة رقم السجل ١٥٥٥٤، ٣٥x٢٢٫٥ سم » .

والبلاطة من الخزف (شكل ٦٤) من صناعة مصر وهي عبارة عن « خرطوش » يحمل اسم السلطان الاشرف « قايتباى »

وقد تولى الحكم فى مصر فى النصف الثاني من القرن ٩ هـ (١٥م) .

« متحف الفن الاسلامى، بالقاهرة رقم السجل ٣٢٦٥، قطر ٣٠ سم » .

ونجد توقيعات واسماء الفنانين على التحف الفنية ، منذ بداية العصر الاسلامي .

فنرى على اجزاء من اعمدة القصور من مدينة سامرا صورا متنوعة على احداها (شكل ٦٥) صورة سيدة يعلوها توقيع الفنان « مفلح » مكتوب بحروف بالخط الكوفي البسيطة .

« ارنست هرتسفلد : التصاوير من مدينة سامرا ، ١٩٢٧ لوحة ٦٧ » .

والزخرفة الوحيدة على صحن من الخزف (شكل ٦٦) من صناعة ايران فى القرن ٤ هـ (١٠ م) ، عبارة عن اسم الفنان « سهيل » مكتوب بالخط الكوفي البسيط .

« متحف الفن الاسلامى، بالقاهرة رقم السجل ١٦٠٠٥، قطر ٢٣ سم » .

وعلى صحن من الخزف ذي البريق المعدني (شكل ٦٧) نرى فى الوسط رسم حيوان خرافي مجنح « جريفون » يتدلى من من فمه فرع نباتي . وعلى الحافة جامات بها زخارف عربية ، تتخللها مجموعات متماثلة من أوراق نباتية ملتوية ومدببة الاطراف ، والى جانب احداها توقيع الخزاف الشهير « مسلم بن الدهان » ، الذى اشتهر بصناعة الخزف ذي البريق المعدني فى مصر اوائل القرن ٥ هـ (١١م) .

« متحف الفن الاسلامى، بالقاهرة رقم السجل ١٤٩٣٠، قطر ٣٤ سم » .

ويوجد سطل من البرونز مكفت بالفضة والنحاس الاحمر (شكل ٦٨) . عليه أشرطة

زخرفية ،عليهامناظر تمثل حياةالترف والطرب والموسيقى في القصور . والاشرطة الزخرفية تتابع معها ثلاثة أسطر كتابة ، الاوسط منها بالخط الكوفي والآخران بالخط النسخي . ويقرأ من هذه الكتابات ان السطل صنع بناء على طلب من عبد الرحمن بن عبد الله ، من عامل صانع النحاس محمد بن عبد الواحد . وتنص الكتابة على ان زخارف التكفيت من عمل مسعود بن أحمد ، بمدينة هراة في أفغانستان ، وعلى المقبض تاريخ سنة ٥٥٩هـ (١١٦٣م)

« متحف الهرميتاج ، في لينينجراد . ارتفاع ١٩ سم ».

من نفس الاسلوب شمعدان من النحاس مكفت بالفضة ، نرى منه تفاصيل في (شكل ٦٩) . ويؤرخ هذا الشمعدان بالنصف الثاني من القرن ٧ هـ (١٣م) . ونرى عليه أشرطة زخرفية بها مناظر تمثل الحياة في البلاط . وفي الوسط جامة تضم صورة صياد يركب على جواد ، يتعقبه دب . وبين أرجل الجواد كلب صيد وأرنب جبلي. والجامات الزخرفية تقطع سطر كتابة وتقسمه الى مناطق تملأها كتابات بالخط النسخي أو بالخط الكوفي الزخرفي المجدول . وهناك سطر كتابة آخر تنص على الشمعدان صنعه الحاج اسماعيل، وزخرفه محمد بن فتوح الموصلي ، أجير الشجاع الموصلي .

« متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٥١٢١ ارتفاع ٣٤ سم وقطر القاعدة ٣١٫٥ سم » .

والمقلمة من النحاس المكفت بالفضة (شكل ٧٠) عليها كتابات بالخط النسخي . وعلى القسم الاسفل ، كما نرى في الصورة ، كتابة بالخط الكوفي تنص على ان المقلمة صنعها الكفتي شادي في سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠) .

« متحف فريد جاليرى، في واشنطن، طول ٢١٫٥سم ».

والمشكاة من الزجاج المموه بالمينا ، المتعددة الالوان (شكل ٧١) عليها كتابة بالخط النسخي،تنص على أنها صنعت لمسجد أقامه ألماس احد افراد مماليك السلطان الناصر محمد بن قلاون . وقد بني هذا المسجد في سنة ٧٣٠ هـ (١٣٣٠ م) . وعلى قاعدة المشكاة ، بالخط النسخي أيضا توقيع الصانع علي بن محمد أمكي .

« متحف الفن الاسلامى،بالقاهرة رقم السجل ٣١٥٤ ارتفاع ٣٣ سم قطر ٢١ سم » .

وعلى قطعة من نسيج الحرير (شكل ٧٢) كتابة تنص على ان هذه القطعة نسجت للمكان المقدس ، وان ناسجها هو شولان شير زادة ، في سنة ٩٧٩هـ (١٥٧١) . وأسفل الكتابة منظر لامير في حديقة ويركع امامه احد اتباعه .

« موسوعة الفنون الايرانية لوحة رقم ١٠٢٩ » ،

« مجموعة باريس واتسون سابقا طول ٣٢٫٤ سم » .

وتنسب الى اقليم الفيوم بمصر ، قطعة من نسيج الصوف (شكل ٧٣) من القرن ٤هـ (١٠م) عليها كتابة تنص على أنها نسجت في طراز الخاصة بمطمور من كورة الفيوم ، مما نلاحظ أثره في الاسلوب الريفي الجذاب في رسم الحيوانات والجمال على الشريط الزخرفي ، وفي أسلوب الكتابة أسفل ذلك ، وكل ذلك بألوان متعددة .

« متحف الفن الاسلامى، بالقاهرة رقم السجل ٩٠٦١، ٧٣×٢٧ سم » .

وعلى قطعة من نسيج الكتان بخيوط ذهبية (شكل ٧٤) شريط زخرفي فيالوسط، عليه رسوم أغنام تجري في اتجاه واحد . ويحد هذا الشريط سطر كتابة ، تنص على

ان هذه القطعة نسجت فى طراز الخاصة بمصر للخليفة العباسي المطيع بالله ، تحت اشراف فايز مولى أمير المؤمنين . والمعروف ان الخليفة المطيع بالله توفى سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٤) .

« متحف الفن الاسلامى، بالقاهرة رقم السجل ١٠٨٢٧، ١٣٥×٢٨ سم » .

● ● ●

واستعمل مصورو المنمنمات الكتابة العربية لزخرفة لوحاتهم . ومثال لذلك منمنمة (شكل ٧٥) من مخطوط مقامات الحريري ، وهو مؤرخ سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٧م) وقد كتبه الخطاط والمصور الشهير « الواسطي » . وتمثل هذه النمنمة جماعة من الاشخاص يحتفلون بانقضاء شهر رمضان ، وبداية عيد الفطر . وهم ينفخون فى ابواق ويحملون رايات ، ويلوحون باعلام تزخرفها حروف كتابة بالخط الكوفي .

« دار الكتب الاهلية في باريس ، ٣٠٫٢×٢٢٫٨ سم » .

وعلى منمنمة أخرى (شكل ٧٦) من مخطوط للمنظومات الخمسة للشاعر نظامي. وقد استعمل الفنان مناطق بها أشعار ليخلق التناسق فى التكوين الفني . وهذه المنمنمة من عمل المصور « سلطان محمد » أحد تلاميذ المصور بهزاد . وهي تصور قصة من حياة السلطان السلجوقي سنجر ، عندما خرج مرة للقتال ، فاستوقفته امراة عجوز لتشكي له ان أحد عساكره قد سرق منها حاجة — وقد أظهر السلطات امتعاضه لانها استوقفته لصغائر الامور أثناء خروجه للقتال ، فسألته العجوز ، كيف يستطيع ان يفتح بلادا اجنبية وهو يعجز عن حفظ النظام فى بلده ، وقد رسم المصور « سلطان محمد » هذه المنمنمة بمهارة فائقة ، واستطاع ان يخلق التناسق الجميل بين أبيات الشعر الفارسية التي كتبها بالخط العربي وبين مناظر القصة . وهذا المخطوط مؤرخ بين سنتي ٩٤٦/٩٤٩هـ (١٥٣٩/١٥٤٣) .

« موسوعة الفنون الايرانية لوحة رقم ٨٩٦ » ، « المتحف البريطانى ، فى لندن » .

● ● ●

وهكذا نرى ان الكتابة العربية تستعمل فى زخرفة التحف الفنية وتزيينها فى جميع البلاد الاسلامية ، ولا غرابة فى ذلك ، فان المسلمين فى انحاء العالم يحفظون القرآن الكريم بلغته العربية، كما كانت جميع الشعوب الاسلامية تكتب لغاتها بالحروف العربية ، ولو لم تكن اللغة العربية لغة بلادها . بل كما بقيت كتابة النصوص التأريخية تكتب على المباني والعمائر باللغة العربية الى عهد قريب فى كل هذه البلاد حتى ولو لم تكن لغة البلد هي العربية مثل ايران وتركيا .

* * *

بعض المراجـع

مصحف السلطان الاشرف شعبان ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، القاهرة .

يوسف احمد ، الخط الكوفى ، الرسالة الثانية ، القاهرة١٩٣٤ .

جاستون فييت ، القيمة الفنية للكتابة العربية ، مجلدالموظف ، الجزء الثانى من السنة الثالثة ـ المجلد الثالث ، القاهرة ١٩٣٨ .

محمد طاهر بن عبد القادر الكردى المكى الخطاط ، تاريخالخط العربى وآدابه ، القاهرة ١٩٣٩ .

محمد غريب العربى ، الخط الديوانى .. كيف ظهر ؟ فيمجلة مدرسة تحسين الخطوط الملكية ، القاهرة ١٩٤٣ .

زكى محمد حسن ، الزخارف الكتابية فى الفن الاسلامى ،مجلة الكتاب ، يناير ١٩٤٦ .

ابراهيم جمعة ، قصة الكتابة العربية . سلسلة ((اقرأ))العدد ٥٣ ـ ابريل ١٩٤٧ .

م.س. ديماند ، الفنون الاسلامية ، الترجمة العربيـة لاحمد محمد عيسى ،راجعها احمد فكرى ، القاهرة ١٩٥٤ .

محمد مصطفى ، الكتابة العربية عنصر زخرفي مجلة ((المجلة))العدد الثانى ، القاهرة فبراير ١٩٥٧ .

محمد مصطفى ، روائع من التحف الاسلامية ، من محاضراتالمؤتمر الثانى للآثار في البلاد العربية (بغداد ١٨ ـ ٢٨ نوفمبر ١٩٥٧) . فصلة من كتاب جامعة الدول العربيةعن المؤتمر ـ القاهرة ١٩٥٩ .

قاسم محمد الخطاط ، قواعد الخط العربى ، بخط قاسم محمد الخطاط ، بغداد ١٩٦١ .

محمد مصطفى ، متحف الفن الاسلامى ، دليل موجز ، القاهرة ١٩٦٣ .

عبد الرحمن زكى ، القاهرة ، تاريخها وآثارها ، القاهرة ١٩٦٦ .

ناجى زين الدين المصرف ، بدائع الخط العربى ، بغداد ١٩٧٢ .

محمد أبو الفرج العش ، نشأة الخط العربى وتطوره ، مجلة الحوليات الاثرية السورية ، المجلد ٢٣،دمشق ١٩٧٣.

محمود شكر الجبورى ، نشأة الخط العربى وتطـوره ، بغداد ١٩٧٤ .

ثروت عكاشة ، فن الواسطى من خلال مقامات الحريرى ،القاهرة ١٩٧٤ .

السيدة منى مصطفى العجمى ، فن الكتابة العربية ، القاهرة ١٩٧٥ .

Selected Bibliography

Periodicals :

Ars Islamica

Ars Orientalis

Kunst des Orients

Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft. Katalogisierung der Orientalischen Handschriften in Deutschland.

— Moritz, B. Arabic Palaeography. Cario 1905.

— Noldeke, Bergstrasser, Pretzl, Geschichte des Qorans.

— Gluck, Heinrich und Diez, Ernst, Die Kunst des Islam. Berlin 1925.

— Herzfeld, Ernst, Die Malereien von Samarra. Berlin 1927.

— Thomas W. Arnold and Adolf Grohmann, The Islanic Book, a Contribution to its Art History from the seventh to the eighteenth century. 1929.

— Kochlin, R. and Migeon, G., Cent Planches d'art musulman. Paris 1929.

— Wiet, Gaston, Lampes et Bouteilles en verre emaille. Catalogue Generale du Musee de l'Art Arabe du Carie. Cairo 1929.

— Wiet, Gaston, Objets en Cuivre. Catalogur Generale du Musee de l'Art Arabe du Cairo. Cairo 1932.

— Weill, Jean David, Bois a Epigraphes. Catalogue Generale Du Musee de I'Art Arabe du Caire. Cairo 1936.

— A Survey of Persian Art. ed. by Arthur Upham Pope. London,. New York 1938 ff.

— Abott, Nabia, The Rise of the North Arabic Script and its Kur'anic Development, with a full description of the Kur'anci Manuscripts in the Oriental Institute. Chicago 1939.

— Wiet, Gaston, Steles Funeraires. Catalogue Generale du Musee de I'Art Arabe du Caire. Cairo 1939.

— Abott, Nabia, Arabic Paleography. Ars Islamica. Vol. VIII. 1941.

— Dimand, M.S., A Handbook of Muhammadan Art. New York 1944.

— Kuhnel, Ernst, Die osmanische Tughra. Kunst des Orients. Wiesbaden 1945.

— Erdmann, Kurt, Arabische Schriftzeichen als Ornamente in der abendlandischen Kunst des Mittelalters. Wiesbaden 1953.

— Grohmann, Adolf, The Origin and Early Development of Floriated Kufi. Ars Orientalis 1957.

— Ettinghausen, Richard, Arabische Malerei. Genf 1962.

— Grohmann, Adolf, Die Dekorative Rolle der arabischen Schrift. bustan 4. Wein 1962.

— Kühnel, Ernst, Islamischen Kleinkunst. Braunschweig 1963.

— Grohmann, Adolf, Arabische Palaographie. Wien 1967-71.

— Kühnel, Ernst, Die islamischen Elfenbeiskulpturen. Berlin 1971.

— Kûhnel, Ernst, Islamische Schriftkunst. Berlin 1942. Neuauflage Graz 1972.

— Sourdel-Thomine, Janine und Bertold Supler, Die Kunst des Islam. Propylaen Verlag Berlin 1973.

— Kûhnel, Ernst, The Arabesque. Meaning and Transformation of an Ornament. Translated from the original Text in German by Richard Ettinghausen. Graz 1976.

— Martin Lings and Yasin Hamid Safadi, The Qur'an. World of Islam Festival Publication. London 1976.

★ ★ ★

صدر حديثاً

ديناميات التغير السياسي والاجتماعي في العالم الثالث

عرض وتحليل: محمد غانم الرميحي

الكتاب الذى بين أيدينا يلقى الضوء على ديناميات التحديث فى العالم الثالث من جهة التحديث السياسى والتغير الاجتماعى . ويشترك فى الكتاب سبعة من المتخصصين يتناول كل منهم على حدة بلدا مختارا من اقطار العالم الثالث هى : الهند ، تشيلي ، المكسيك نيجيريا ، سوريا ، الصين الشعبية ، وقد قام محرر الكتاب David E. Schmitt اضافةالى تحرير الكتاب بكتابة مقدمته ، الطويلة نسبيا وخاتمته . أما الكتاب الستة الاخرون فقد قام كل منهم بتحليل ديناميات التحديثالسياسى والاجتماعى فى القطر الذى كتب عنه .

DYNAMICS OF THE THIRD WORLD POLITICAL AND SOCIAL CHANGE
Editor : David E. Schmit. Published by : Winthrop Publishers, Inc. 1974.

David E. Schmitt, (Editor)), Dynamics of the Third World Political and Social Change, Winthrop Publishers, Inc. 1974.

فى المقدمة يشير محرر الكتاب الى الاسباب التى دفعته هو وزملاؤه لتناول هذا الموضوع ، وبالتحديد اختيار هذه البلدان ، **فهى تمثل عينة مختاره من بلدان العالم الثالث** والتى تختلف فيها التجارب والاجتهادات السياسية والاجتماعية من تلك المنتمية لاتجاه الديمقراطيات الغربية حتى تلك التى تتبنى الماركسية اللينينية فى معالجتها للتحديث السياسي والنمو الاجتماعى . كما أن تلك الاقطار تمثل محاور جغرافية متعددة فى آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية . ويصر محرر الكتاب على على القول ، فى مقدمته ، بأن الهدف من هذا الكتاب هو فقط ان يشكل مقدمه عامةلدراسة الموضوع من جوانبه المتعددة ، وانه ليس كتابا متخصصا ، فكيفيه ان يشوق القارىء ، على حد تعبيره ، لقراءة الكتاب والاطلاع علىبعض المؤشرات الهامة ، الاجتماعية والسياسية ،فى بعض اقطار العالم الثالث وهى تسير فى ركب التغير .ويبرر اختيار **هذهالدولدون غيرها بأنها** دول كبيرة ومهمة عدا سوريا فهي ، كما **يدعى ، دولة صغيرة نسبيا ، ولكنها تتميز** بتغيرات سياسية واجتماعية سريعة منذ الاستقلال، وقد كتب الفصل الذي عالجالوضع فى سوريا. Alan R. Balbomi وهو يهودىيهتم بالصراع العربى الاسرائيلى ، وقد كتب قبل ذلك كتابا عن جماعات الضغط الامريكية الصهيونية . اما بقية الكتاب الاخرين فهم **مجموعة منالمتخصصينالامريكيين وينتمونالى** عدة جامعات امريكية ، وتنحصر تخصصاتهم **فى العلوم السياسية اوفىالاقتصاد السياسى ،** وهم مهتمون بالمناطق التى كتبوا عنها .

ويتناول الكتاب فىجزء اساسى بعض جوانب العلاقات الدولية ، من حيث كشف علاقة بعض هذه الاقطار بالدول الكبرى **الاوروبية او الشرقية .**

ويهدف الكتاب الى تقديم فهم عام للقضايا الرئيسية التى تواجه العالم الثالث فى سبيل تطوير نفسه ، وكشف الادوات والاستراتيجيات التى يستخدمها قادة العالم الثالث من اجل مواجهة وحل المشكلات . **ويعرف الكتاب العالم الثالث تعريفا سلبيافهو** يشير الى ان العالم الثالث هو « افقر واقل تطورا منالولايات المتحدةوالاتحاد السوفيتى» ويشير الكتاب الىان معظم دول آسيا وافريقيا والشرق الاوسط هى من العالم الثالث . **مع استثناء وهو استبعاد اليابان ، وهذا معقول** واسرائيل (وهذا غريب) من اطار العالم الثالث * .

ويهتم الكتاب بالعالم الثالث من حيث علاقاته الدولية ، فيشير الى انه مهما بعدت هذهالاقطار عن الولايات المتحدة ومهما قلت مصالح الاخيرة فيها الا ان « **امن المواطن الامريكي** » وبالتالى امن الدول المتقدمهمرتبط بشكل أو باخر بمشكلاتالدول فى العالمالثالث وخاصة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .

لقد تبنى الكتاب اطاراً ثلاثي الابعاد فى التحليل النظرى لمشكلات التغير السياسي **والاجتماعى . وصفها على انها اما :**

اولا :تغير **تابع**ــ اىان التغيرات السياسية والاجتماعية هى نتيجة لعوامل اخرى يمر بها **المجتمع كالتغيرات الاقتصادية مثلا .**

ثانيا : متغير **فاعل** ــ اى التغيرات السياسية هى فى حد ذاتها مؤثرة فىالعلاقات الاجتماعية السائدة فى ذاك المجتمع .

ثالثا : هى متغير **مستقل** اى انها تتطور فى المجتمع دون التفاعل بالعناصر الاخرى الاجتماعية او الاقتصادية .

---

* **استبعاد اسرائيل من اطار العالم الثالث هى نظرة حرصتعليها معظم الكتابات الغربية وهى نظرة متميزة وغير علمية .**

فى الحالة الاولى ينظر الى التغيرات السياسية والاجتماعية على انها تابع للبيئة المحلية وبالتالى تدخل فى تكوينها النهائي عدة عناصر اقتصادية واجتماعية وسياسية ولكن **كمايشدد الكتاب بانه من التبسيط المخل النظر** الى التغيرات الحادثة فى البنى السياسية والاجتماعية فى دول العالم الثالث على انها فقط **تابع لمتغيرات اخرى، وان النظام السياسي هو** استجابة لما حوله .

والنظر الى التغير السياسى فى هذه المجتمعات على انه متغير فاعل على اساسى **ان الانظمة الاخرى في المجتمع مستحيبة (تابعة)** للتغير السياسي او مستحيبة للقرارات **والخطوات المتخذه من الحكومة او القيادة** السياسية يظهران النظام السياسى لهسيطرة **كبيرة على المجتمع واذا كانت هذه ظاهرة** ملاحظة بوضوح فى بعض البلاد كما يشيرالكتاب **عند دراسة نموذج الصين الشعبية فهى فى رأينا تعميم تنقصه الدقة العلمية .**

يبقى ركن الاطار الثالث الذى ينظر اليه الكتاب فى تحليله النظرى وهو التطورالسياسي المستقل ، ولو اننا نجد صعوبة فى ادماج هذا الركن مع الركنين السابقين فى التحليل وهما التابع والفاعل . الا ان هذا الركن يفسره الكتاب بالقول **ان التطور السياسي او التدرج السياسي هو ((الطريقة التي يزيد بها النظام المعنى قدرته على التعامل مع المتطلبات المتجددة للمجتمع ، ومع المجموعات الجديدة وتوسيع المشاركة السياسية))** . يبدو لنا هنا ان ذلك يدخل ايضا فى اطار الفكرة القائلة بأن التغيرات السياسية (تابعة) او مستجيبة للتطور فى المجتمع . اى ان ذلك يعنى خلق ورعاية تأييد شعبي وبناء مؤسسات سياسية وادارية صالحة للعمل والاستجابة للحاجات الجديدة ، مثل احزاب سياسية ومؤسسات جماهيرية ... الخ .

ويذهب الكتاب الى تقسيم اشكال التطور السياسي الى قسمين رئيسيين :

الاول : **النمط الديمقراطي الغربي** — وهو من شقين :

أولا : كما هو موجود فى الولايات المتحدة وبريطانيا وبعض دول أوروبا الغربية ، والذى يفصل تقليديا بين السلطات الثلاث : التشريعية والتنفيذية والقضائية مع كل المؤسسات التابعة لهذا الشكل من التطور السياسى .

والشق الثاني وهو ، الشكل الاخر من التطور السياسي هو **نظام الحزب الواحد** كما يظهر فى الاتحاد السوفيتي وبعض دول المنظومة الاشتراكية . ويؤكد الكتاب هنا ان كلا الشكلين يقومان ضمن اطار التطور السياسي فى النمط الديمقراطي . وهذا يناقض كثيرا من الكتب المماثلة ، والتي تنظر الى انظمة الحزب الواحد على انها تجميد سياسي اكثر منها تطور . لذا يضيف الكتاب القول ان «كلا الشكلين المذكورين آنفا من التطور السياسى استطاعا ان يتما شيئا مع التحديث والبقاء والتجديد » . **ويضيف الكتاب انه لا يمكن الافتراض بشكل تلقائي ان واحدا من هذين الشكلين فى التطور السياسى هو افضل من الشكل الاخر ، او ان هذه المؤسسات هى الشكل الوحيد للتطور ، انما** يؤكد الكتاب ان هذين الشكلين ربما يكونان غير صالحين لعدد وفير من شعوب العالم الثالث **التى لها قيم ثقافية وانماط اجتماعية وظروف** اقتصادية لها خصوصياتها . ولكن الكتاب هنا يقع في ازدواجية غير مفهومة وغير مفسره فحيث انه يحصر التطور السياسي فى قسمين يأتي مرة اخرى ليترك الكثير من الهوامش التي يمكن ان يدخل تحتها عدد لاحصر له من تجارب (التطور السياسي) ، فهو يضيف فى هذا الخصوص انه لا يجب النظر الى ان الشعوب **المتقدمة هي اكثر تقدما فى مجال التطور**

السياسي ، لان التطور السياسي يشير الى طرق دائمة لاحتضان التغير الاجتماعي بسهولة ومتى ما اصبحت اقل قدرة على احتضان ومعالجة التغير ، تصبح غير ذات محتوى متطور . ويخرج من هذه المقدمة بتعريف شامل للتطورالسياسي وهو ((**مقدرة النظامالسياسي على هضم التغير ومسايرة المهام المتطورة النابعة فى المجتمع نتيجة عمليات التحديث**)) .

بعد هذا التعريف الليبرالي الشامل يفاجئنا الكتاب بالقول ان هذا لايتم بالضرورة من خلال مؤسسات او نظام حكومي كامل ، انما قد يعتمد مثلا على نظام قبلي . ويبقى السؤال كيف يمكن ان يهضم حكم قبلى حاجات متجددة فى مجتمع يسير فى ركب التطور ؟ .

ثم يعرض الكتاب قضية هامة هي ميكانيكية العلاقة بين النظام السياسي فى اى مجتمع ربين بيئته الاجتماعية والاقتصادية ، فيعتبر ان لا حكومة تستطيع ، وبشكل مطلق ، ان تتحكم فىبيئتها ، وليست كثيرمنالحكومات فى المقابل خاضعة بشكل مطلق لشعوبها ، انما هناك تبادل مستمر بين النظام السياسي مع مكوناته الاخرى ، كالنظام الاقتصادى والثقافى السائد فى المجتمع وبين البيئة الاجتماعية والمصالح المتعددة لمجموعات الضغط ، ولكن مشكلات الحكومات فى العالم الثالث هى مشكلات معقدة او ، على حد تعبير الكتاب ، ((**ان حكومات العالم الثالث مبحره فى بحرملىء بالمشكلات التى لاتستطيع حلها**)) ويفسر ذلك بأن هناك قوى جديدةوقوى قديمة تتضارب مصالحها فتسبب هذا الاضطراب .

ثم يذهب الكتاب الى مناقشة اهم العوامل السياسية التى اثرت على الوضع السياسي الحالي فى العالم الثالث، وساهمت الىحدبعيد فى اشاعةالاضطراب السياسي فيه فيشيرالى:

١ ـ الاستعمار :

سيطرت شعوب أوربا على شعوب آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية لذلك فأن الشعوب القبلية فى افريقيا وجزء من آسيا ، والامبراطوريات التقليدية فى آسيا قدتغيرت نتيجة لصراعها مع الامبريالية الغربية . لقد قدمت القوة الاستعمارية مفاهيما جديدة فى التجارة وفى العلاقاتالاجتماعية وفى التنظيم السياسي ، تأثرت على اثرها الشعوب التى لم تخضع طويلا للاستعمار الغربى ، وقدطالها ذلك التأثير الا ان ((الطلب)) على التغير قد ازداد بعد رحيل المستعمر مباشرة . ويضرب مثالا على ذلك فى الصين وتايلاند . هنا يتجاهل الكتاب فكرة ترددت فى الكتابات السياسية فى العقدين الاخيرين وهى التبعية الاقتصادية او الاستعمار غير المباشر ، وفى هذا الخصوص يقرر الكتاب ان الاضطرابات السياسية دائما تتلو التحرير . فالتاريخ السياسي لاسيا وافريقيا بعد الحرب ملىء بالانقلابات والعصيانات ، ويناقش هذا الموضوع على انه **متغير مستقل** ليست له علاقة بالوضع الاستعمارى أو بالطبقات الحاكمة التىتركها الاستعمار المباشر بعد رحيله . وكأن السببفى عدم الاستقرار هو داخلى بحت نابع من حب المغامرة او عدم الوصول الى سن الرشدلهذه الشعوب . ويضيف مؤكدا فكرته انه بالرغم من ان الاستعمار بشكله القديم قد ترك او حاولان يتركحكومات على النمط الديمقراطى الغربي ، الا ان **الحكومات التسلطيه هىالتي** سارت فى العالم الثالث ، نتيجة للاضطراب السياسي ، وهى القاعدة **بدل ان تكون الاستثناء** .

٢ ـ التغيرات الاقتصادية والتكنولجنة :

التغيرات الاقتصادية تسرع فىخطوات الحياة ، والاقتصاد المتطور يحتاج الىوسائل مواصلات سريعة لنقل العمال والمواد الخام الاولية والمصنعة من والى الاسواق والتغيرات

الاقتصادية ايضا تتبعها تغيرات فى نمطالحياة الاجتماعية ممايسببضغوطاعلى الحكوماتمن الشعب قد لا تستطيع هـذه الحكومـات ، لاسباب متعددة ، انجازها .

٣ ـ نمو المدينة :

ساعدت الزيادةفى السكان وتغيرالتكنيك الزراعي والرغبة فى حياة افضـل على نمـو المدينة وتضخمها ، وسكان المدينة يحتاجون الى خدمات حكومية اكثر من سكان الريف ، انهم يحتاجون الى طرق ومواصلات ومدارس ومحطات اطفاء والى مجموعة كبيرة اخرى من الخدمات . وسكان المـدن اكثـر استعدادا للانتظام فى اشكال سياسية تطالب باصلاحات او تتحدى النظام القائم .

٤ ـ ثورة الاتصالات العالمية :

مشكلات متعددة جلبتها معهـا ثـورة الاتصالات العالميةفقدجاءت الثورة التكنولوجية بالتلفزة والسينما والصحافة والاذاعة والتي تحمل اخبارا عن المنتجات المادية للعالم مـن اكثر العواصم تطورا ، وهى تقدم صورةعما وصلت اليه الحياة البشريـة ، فالغسالات الاوتوماتيكية والطباخات على الغاز هى مجال لتحرر الناس الذين لا يزالون يغسلون علـى ضفاف الانهار او يطبخون على نار الحطب .

٥ ـ التغيرات الثقافية :

المعتقدات والقيم والافكـار القديمـة تتصادم مع القيم والافكار الحديثة التىتجعل المعتقدات القديمه والشعبية تضعف ، وكلما ضعفت هذه المعتقدات اصبح هنالك فرصة اكبر للافادة من الوعي الجديد لدى الشعب ، ومن خلال السياسيين الطموحين والضباط لاظهار عدم قدرة الحكومة القائمة على الوفاء بطلبات الجماهير .

هذه النقاط الاساسية التى يعرضهـا الكتاب كأهم العوامل التى تؤثر فى المتغيرات السياسة فى دولالعالم الثالث ولوانه يناقشها من وجهة نظر احادية فقط ، فهناك لاشـك ايجابيات كثيرة للتغيرات الثقافية فى العـالم الثالم لصالح التقدم .

ويتابع الكتاببعد هذا ماسماه (**الازمات ونسب التغير السياسي والاجتماعي**) فيعرض الى ان « الثورة » هى تغير اساسي وجذري فى النظام القائم ، وتنتـج الثورة من غربـة مجموعة من الشرائح الاجتماعية عن المجتمع ورغبتهم للعمل معا نحو تحطيم « الامر القائم » السياسي والاجتماعي ، وتتصاعد احتمالات الثورة عندما تكون توقعات الناس مرتفعـة نتيجة للاصلاحات الاجتماعية والاقتصاديـة فى هذا الاطار يشيرالكتاب ، ولو بطرف خفى ، الى انه كلما زادت الاصلاحات الاجتماعيـة والسياسية توقع الناس اكثر ، فأذا لم يتحقق ذلك فان الثورة قائمة . والدرس الواضح من ذلك كله ، كما يريد الكتاب ، ان يعلمنا هـو انه يجب حساب الاصلاحات فى العالم الثالث حسـابا دقيقا ..

النظام السياسي كنسق مستقل :

هل النظام السياسي يمكن ان يكـون نسقا مستقلا فى التطور والتحديث السياسي وما هى الطرق والوسائل الكفيلة بجعل النظام السياسي هو قائد التحديث ؟ يعتقد الكتاب ان ذلك ممكنعن طريق احد العوامل التالية :ـ

١ ـ الشخصية العظيمة :

الشخصية القيادية المؤثرة والتى تظهر فى الازمات فى الـدول التى لا تحظى بأنظمـة سياسية مؤسسية . لذلك فان ظهور هـذه الشخصية قد يؤثر فى التحديث السياسي . وهذه الفكرة بالطبع فكرة مبالغ فيها ، لانـه بدون ان تنضج الظروف الموضوعية فىالمجتمع

يكون دور « الشخصية العظيمة» دورا غير ذي معنى .

٢ ــ البيروقراطية العامة :

وفى العالم الثالث لاتوجد أو لايسمح بوجود مؤسسات سياسية تنقد الحكومة القائمة وموظفيها ، فالقيمة والفعالية العامة لم ترق الى التنظيم الحديث ، والولاء القبلي والعائلى يأخذ الاسبقية ، لذلك فالبيروقراطيون لهم الفاعلية الاكثر فى هذه المجتمعات والسياسيون لهم وسائل فعالة للسيطرة على الموظفين العاملين غير الاكفاء ، لذلك فان التأثير البيروقراطى يمكن ان يكون مؤثرا فى التطور السياسي .

٣ ــ الاحزاب السياسية :

لمعالجة المشكلة هناك آراء متعددة تطرح عادة منها ان وجود أحزاب سياسية متناسقة وقوية كما فى الصين والمكسيك ، يمثل الحزب فيها اداة الحاكم القوية يمكن ان يكون لهذا الحزب دور سياسى .

والدور السياسي للحزب هو معالجة ازمة المشاركة الناشئة عن التحديث . والحزب هو الوسيلة الاساسية لتنظيمه والاشراف على التوازن بين متطلبات المجتمع ككل وقدرة (الحكومة) على تلبية هذه المطالب . فى العالم الثالث (يلاحظ الكتاب) انه لاتوجد احزاب فاعلة قوية . هناك مجموعات شخصية وشلليه معتمدة على شخصية زعيم قوى وتابعة . وربما فى التحليل الاخير نجد ان الكتاب قد ذهب الى تعميمات غير مستحبة علميا . فهناك احزاب فى العالم الثالث كما هو فى الهند ــ على سبيل المثال ــ وقد أثبتت فاعليتها الديناميكية في اطار التحدث السياسى .

٤ ــ الايديولجية :

الايديولجية هى « نظام من الافكار يتمحور حول السياسات المحتاجة الى شرح او تبرير من خلال كلمات مكتوبة او مقالة ، وفى العالم الثالث تتمحور الايديولوجية حول الاستقلال القومى » .

هكذا يلخص الكتاب مفهوم الأيديولوجية كنسق مستقل ومؤثر فى التحديث السياسى وربما يكون قد جانبه الصواب فى هذا الاطار وبخاصة فيما يخص العالم الثالث ، فقد لعبت (الايديولوجية) وما زالت تلعب دورا حيويا فى اطار التحديث والتقدم لدول وشعوب متعددة فى العالم الثالث . يعترف بها الكتاب فى مكان آخر عندما يتكلم عن التعليم كطريقة للتثقيف الايديولجي فهو يقول انه حتى العلوم البحتة والرياضيات تستخدم الفكر السياسي . فيقرر ان (التعليم واحد من المجالات الهامة التى يستطيع القادة القوميون أن يبسطوا سلطتهم من خلالها).

٥ ــ التعليم :

يساعد على المساهمة فى تثبيت النظام السياسي عندما يخطط له من اجل ذلك . ولكن التعليم ، كما يقرر الكتاب ، سلاح ذو حدين ، فمن جهة يمكن السيطرة عليه من خلال البرامج الموجهة فى التعليم ، سواء كان تعليما عاما أو جامعيا او مهنيا ، ولكنه من الجهة الاخرى يرفع درجة توقعات المتعلمين من النظام السياسى السائد ويدفعهم الى تحديه .

٦ ــ التطور الاقتصادى :

للتطور الاقتصادى مردود اكبر من مجرد اشباع الحاجات الانسانية ، ولكنه ايضا يعطى خيارات متعددة للحراك والتطور الاجتماعى ، لذا فان التطور الاقتصادى جزء اساسي فى دعم او اعاقة التطور السياسي .

٧ ـ الجيش (العسكر) :

يمكن ان يكون الجيش مساعدا على التطور فى العالم الثالث ، كما يمكن انيكون معوقا للتطور والتحديث . وحتى الانقلابات العسكرية يمكن ان تأتى بعد تقدم اقتصادى وسياسي ، والجيش هو الطريقة الوحيدة والغالبة فى العالم الثالث التى يمكن عن طريقها تحويل السلطة من الارستقراطية غير المعطاءة الى شرائح اجتماعية اخرى . والعسكر اكثر قدرة على انجاز التطور الاقتصادى من بعض المؤسسات الاخرى من خلال ما تعودوا عليه فى تسلسل الاوامر التنفيذية ـ الضبط والربط ـ ويقوم الجيش فى العالم الثالث بشكل الاسفنجة التى تمتص العاطلين عن العمل، وتوفر مصادر رزق لقطاع كبير من الشعب دون ان يكون بمقدور هذه القطاعات المشاركة الايجابية فى الساحة السياسية .

وكثيرا ما تتم الانقلابات العسكرية لاسباب انانية عندما تغلق سبل الترقيات مثلا فى وجوه الضباط الكبار، هذه الاسباب فى العادة تتوخى اسبابا سياسية وتجيء في غمرة تدهور سياسى لان الانقلاب العسكرى اقل احتمالا فى اجواء حكم شعبى يحقق طلبات شعبه .

ولكن العسكريين لايستطيعون الاحتفاظ بالشعبية لوقت طويل ، لانهم غير قادرين على مواجهة الازمات المزمنه للتحديث . ويقدم الكتاب حولا لعلاج خطر الانقلابات وذلك عن طريق احالة الضباط الطموحين الى الاستيداع فى وقت مبكر، وكذلك اجراء تقفزات فىالترقية للضباط الاخرين ، ونقل الضباط من مكان الى آخر حتى لايكون لهم استقرار دائم فىمكان تنبت لهم فيه ولاءات ، واضفاء الشرف الاجتماعى على البعض بين وقت وآخر وربما اشراكهم فى القرارات الممكنة فيما يلزمهم ضمن سياسة الحكومة . وربما ان افضل طريق لحفظ العسكر خارج التدخل فى الحكم هو جعل المؤسسات السياسية قادرة على امتصاص التطور السياسي والاجتماعى . ويصف الكتاب اهم اسباب الانقلابات العسكرية وهى الازمات السياسة المزمنه والمظاهرات والاضرابات وعدم الاستقرار السياسى بوجه عام .

طرق التطور السياسي :

طرق التطور السياسى متعددة ، وكل طريق منها تؤدى غرضا او اغراضا ايجابية ، وقد يكون لها عناصر سلبية ، ولكن على كل قائد سياسي ان يتبع طريقة محددة وواضحة فى التطور السياسي ، والايدخل فى تخطيط غير مفهوم للجمهور، بعض الطرق السياسية صالحة للحكومات الشيوعيون ، فالاحزاب مثلا يمكن ان تستخدم فى اية ايديولوجية سياسية .

ويعرف الكتاب مجموعة من الطرق المعروفة الان فى العالم سواء المتقدم او في العالم الثالث منها : ـ

١ ـ الديموقراطية الليبرالية الغربية :

من مظاهرها حرية الانتخابات والتنافس غير المحدود بين الاحزاب لكسب الاصوات ، ولكن هل يمكن تطبيق ذلك فى دول العالم الثالث؟ واذا كانت الايدولوجية الغربية قد ينجح فى الدول الغنية فهل يمكن ان تنجح كذلك في الدول الفقيرة . . ؟ هذه الاسئلة يتركها الكتاب لدراسة النماذج ، واكبر نموذج فى هذا الخصوص هو الهند .

٢ ـ الديموقراطية السياسية المحدودة :

يحدد الكتاب الهدف مما اسماه بالديمقراطية السياسية المحدودة بأن تقوم قيادة قوية لاجراء اصلاحات هامة فى المجتمع من خلال التغير الاجتماعى حتى تصل هذه الاصلاحات الى الديمقراطية الليبرالية ، والاصلاحات العامة تتجه الى التعليم العام ،

القضاء على الفقر ، الاصلاح الزراعى ... الخ ويقود الديمقراطية السياسية المحدودة حزب واحد فى البلاد ، ويتجه هذا الحزب لاتاحة الفرصة لاحزاب اخرى ، بعد ان يكون قد انجز المهمات الاساسية المطلوبة .

٣ ــ السلطوية :

نظام حكم متسلط لا انتخابات حرة ، ولا حرية تعبير ، ولكنه يسمح فقط بمنظمات متعددة مثل المنظمات الدينية والمنظمات التجارية ، وربما منظمات عمالية فى اضيق الحدود تأخذ هذه المنظمات حرية العمل ما دامت مستمدة من السلطة ومتعاونة معها . ومع ان السلطوية تعتمد على تعاون مجموعات اساسية فى المجتمع ،الا ان سلطتها الاساسية مستمدة من (العسكر) او الشرطة . وهناك اتجاهان فى السلطوية أحدهما هو السلطوية اليمينية والثانى هو السلطوية اليسارية .

أ ــ السلطوية اليمينية :

تمتاز بأنها تحدد التغيرات الاجتماعية وتتحكم فيها عن طريق عدم فسح المجال لمجموعات النخبة الجديدة والتحكم فى نموها، كالابتعاد عن التصنيع وتحديد التعليم والاعتماد على مجموعات تقليدية فى المجتمع كاصحاب الاراضى والجيش والمجموعات الدينية . وعادة فى هذا النوع من السلطوية نجد ان المجموعات الطلابية (الطلاب) والاتحادات العمالية (العمال) مضغوط عليها .

ب ــ السلطوية اليسارية :

تحطم المحتوى التقليدى للنظام السياسى ، وتقوم بتوزيع الاراضى لكسر الاحتكار السياسى لاصحاب الاراضى والاقطاعيات الكبيرة وتشجع المجموعات الطلابية (الطلاب) والاتحادات العمالية (العمال) فى مجالات تتوافق والاهداف العامة للسلطة .

٤ ــ النظام التعبوى (الشيوعى) :

الأنظمة السياسية هنا ، كما يشير الكتاب تعتمد على القوة المطلقة ، على الاقل فى المدى القريب ، ويضرب امثلة على ذلك كالصين الشعبية . والنظام التعبوى قد لا يكون (شيوعيا) بالضرورة ــ كما يبدى الكتاب ــ فقد تتماثل مظاهر النظام التعبوى دون أن يكون ، بالضرورة معتنقا للفكر الماركسى ، ويتجه هذا النوع من الانظمة ليس الى تعاون وحلول وسط بين فئات المجتمع المختلفة دائما ، وانما تبدأ الاصلاحات من خلال اعلان حكومى وتصادر الاراضى الزراعية ببساطة من ملاكها الكبار لتوزعها على الفلاحين المعدمين ، وتؤمم المصانع دون أن يعوض أصحابها ، والمعارضون للثورة يمكن ان يطبق عليهم القصاص ويردعون عن طريق السجن أو الابعاد خارج البلاد . ولكن حتى هذه الانظمة ــ كما يقول الكتاب ــ تحتاج الى دعم شعبى اذا أريد لها الحياة الطويلة ، والقادة عادة فى مثل هذه الانظمة يهتمون بالدعم الشعبى ، لذلك نجدهم يسخرون بكثافة الايديولجية المتوفرة لديهم للحصول على الدعم الجماهيرى . وهذه الانظمة ليست كبقية أنظمة العالم الثالث يمكن الاطاحة بها بسهولة ، فيقدر الكتاب انه لم يحصل ان أطيح بحكم شيوعى فى العالم الثالث .

من التقسيمات التى تبناها الكتاب والتى عرضت فى الانماط السابقة تبين لنا انها تقسيمات ، قد تكون عشوائية الى درجة كبيرة ، ويبدو التضارب واضحا فى الحديث عن النظام (التعبوى) والذى انهى الكتاب تحليله حوله بالقول انه لا يمكن الاطاحة بها دون اعطاء تبرير كاف لذلك عدا وجود الايديولجية ، وفى رأينا ان المشاركة السياسية من قبل اكبر القطاعات هى التى تعتبر صمام الامان لمثل هذه الأنظمة . كما انه لا يبدو فرق واضح بين السلطوية اليسارية واليمينية من حيث منظور التطور السياسى ، فالسلطوية هى سلطوية فى البداية والنهاية واحتكار القرار

السياسى ، وعدم وجود المشاركة الشعبية الواسعة قائم فى الاثنين .

بعد هذه المقدمة النظرية يتناول الكتاب بالتفصيل ، الاقطار التى تبناها كنموذج ، واحدا تلو الآخر ، الا انه نظرا لاختلاف الكتاب الذين تناولوا هذه الاقطار واختلاف وجهات نظرهم السياسية والاجتماعية فاننا نلاحظ ان تحليلاتهم لا تتطابق تماما مع ماجاء فى الاطار النظرى للكتاب ، فبعضهم تناول الدولة التى يتحدث عنها من وجهة نظر متعاطفة (كما فى الهند) وبعضهم تناول الدولة التى يتحدث عنها من وجهة نظر (معادية) كما فى حالة سوريا مثلا .

ونحن هنا سوف نعرض لدولتين فقط من الدول الست التى جاءت دراستها فى الكتاب حتى نتبين بالتحديد مدى انطباق التوجه النظرى على الواقع الملموس ، وقد اخذنا الهند وشيلى مثلين لهذا العرض .

الهند :

يصفها الكتاب بأنها أكبر الدول الديمقراطية فى العالم ، وبالطبع فهو يشير هنا الى عدد السكان . ولكن ما هو الثمن المدفوع لهذا النوع من التطور السياسى على حساب التطور الاقتصادى والاجتماعى ، فى مجتمع كالهند متعدد التقسيمات اذ ينقسم الى طوائف دينية وطبقية ولغوية ، مغمور بالفقر والأمية ، ولماذا اختارت الهند هذا التطور السياسي وفضلته على النمط الغربى الليبرالى ، ولماذا لم تتحول البلاد الى شيوعية كما هى عليه الصين ، أو تحكم بالعسكر كما هي عليه نيجيريا مثلا ..؟

الاسباب التى يضعها الكتاب كعامل للتطور السياسى فى الهند هى ان الديمقراطية فى الهند ، بمعناها الليبرالى ، قد سبقت التطور الاقتصادى ، ومن هنا كان بقاؤها واستمرارها .

التركيب السياسى فى الهند استمد شرعيته قبل الاستقلال سنة ١٩٤٨ ، بزمن طويل وقبل أن يبدأ التطور الاقتصادى الحديث فى غزو الريف الهندى ، فقد لعب الاستعمار البريطانى فى حالة الهند دورا ايجابيا من حيث توحيدها ، اذ اهتم الاستعمار بالهند كوحدة وظهرت المواطنة لعموم الهند منذ منتصف القرن التاسع عشر . فقد بدات بريطانيا تستجيب (بنصف قلب) لرغبات الهنود فى المشاركة السياسية ، وذلك من اجل البعد عن التقسيمات الادارية التقليدية . واشراك الهنود كشعب ، لا كطوائف فى السلطة ، وذلك ليسهل الاستقلال الاقتصادى لعموم الهنود من قبل السلطة الاستعمارية . وشهدت الهند فيما بين الحربين تطورا هاما هو اصدار قانون ١٩٣٥ للاصلاحات السياسية وما سبق ذلك من ربط الهند بشبكة مواصلات ، بعد القضاء على ثورة ١٨٥٧ التى قادها حكام الولايات المختلفة والمتنفذون من كبار الاستقراطية ونتيجة لها قامت بريطانيا بحملة واسعة من اجل اضعاف سلطة هذه الطبقة ، وهذه الخطوة الأخيرة ساعدت بوجه آخر على ازالة عقبة سياسية من وجه التطور الديمقراطى اللاحق . وهذا هو عكس ما هو قائم فى امريكا اللاتينية حيث ساعد الاستعمار ، بشكل أو بآخر على ايجاد طبقة متنفذة وقوية عطلت فى وقت لاحق التطور الديمقراطى ، كما قامت بريطانيا فى الهند بتشجيع وتنمية طبقة وسطى ، هذه الطبقة وفرت لبريطانيا شريحة ادارية متوسطة وكبيرة العدد ساعدت بدورها على فرض مفاهيم غربية فى المجتمع الهندى . هذه الطبقة الوسطى المتعلمة فى الغرب أو على الطريقة الغربية بدات بدورها بالمطالبة

بالاصلاح على الطريقة الغربية ، فى حين استمرت اللعبة البريطانية ضد الوضع الاجتماعى السائد ، تحرض أميرا ضد امير ، ومسلما ضد هندوسى ، وطائفة ضد طائفة .

والمؤتمر الهندى الذى أنشىء فى سنة١٨٨٥ كانت جذوره الاجتماعية من الطبقة الوسطى الادارية والمتعلمة سابقة الذكر ، وطالب هذا المؤتمر بتمثيل أكبر للهنود فى الخدمة المدنية والمجلس التشريعي ، ثم بدأ يطالب بعد ذلك بالحريات الليبرالية والتمثيل الشعبى ، وتطور (المؤتمر) بعد ذلك الى ان حصل انشقاق فى صفوفه بين (معتدلين) نادوا بالتطورية اى أن يشارك الهنود فى الحكم بشكل تطورى ، (ومتطرفين) وهى صفة أطلقها عليهم البريطانيون . هؤلاء اتجهوا الى الجماهير ورفعوا شعار المقاطعة فى الاتجاه للوصول الى الحكم الذاتى ، وتجاوب البريطانيون مع هذه الفئة (أيضا بنصف قلب) بعد مذبحة رهيبة فى سنة ١٩١٩ تركت ٣٧٩ هنديا قتيلا واكثر من ٢٠٠٠جريح وتزعم المؤتمر فى هذه الفترة المهاتما غاندى الذى اعلن بعد المجزرة ان (أى متعاون مع السلطة الاستعمارية هو مجرم) وفى بداية العشرينات بدأت قوة (الكونجرس) حزب المؤتمر تظهر بقوة عن طريق فروعه الممتدة فى أنحاء الهند ، وبدأت هذه الفروع تنتخب ممثلها فى جو ديمقراطى ، ولان تشكيل المؤتمر قد اعتمد اساسا على مجموعات متفرقة من الشعب الهندى فقد جاء ممثلا للجماهير الهندية باختلاف قطاعاتها . بالطبع كانت هناك اتجاهات سياسية أخرى فى الهند اهمها المسلمون الذين تكتلوا عن طريق انشاء (الرابطة الاسلامية) وهذه أيضا نبعت من الطبقة المتوسطة الا أن أهدافها الايديولجية كانت مختلفة عن (المؤتمر) .

اذن فالطبقة الوسطى الهندية قد طلقت ما بين الحربين والى الابد كل ما يربطها بالامراء والاقطاعية والارستقراطية ، واختلفت التجربة مثلا عن شمال نيجريا حيث تعاونت الطبقة الوسطى مع الزعماء التقليديين ضد الاستعمار ثم قفذت الثانية على السلطة لفترة ، فأصبحت العلاقة بين الطبقة الوسطى والطبقة الاستقراطية علاقة وثيقة .

التطور الاقتصادى فى الهند :

الانجاز الاكبر للبريطانيين فى الهند كان فى الناحية السياسية ولم يكن فى الناحية الاقتصادية ، فقد اعدوا المؤسسات وبنوا الهياكل التنظيمية والادارية ودربوا النخبة وسخروا معظم خطواتهم الاقتصادية لاحلال الاستقرار السياسى . وربما يكون الكتاب، هنا، قد تجاوز الواقع عندما افترض أن الاقتصاد الهندى لم يكن ذا قيمة وخدمة للبريطانيين فقد كان هو الهدف ، وفى الطريق الى تحقيق ذلك الهدف ربما تم بناء المؤسسات الادارية .

التشرذم الثقافى :

يعتقد كثير من الدارسين أن التشرذم الثقافى هو سمة من سمات المجتمع الهندى ، فهناك تقسيمات طائفية وعرقية واجتماعية واقتصادية ، بل أن فى الطائفة الواحدة مجموعة من التقسيمات الداخلية، فالهندوس مثلا ، يقسمون انفسهم ، فى داخل الطائفة ، الى عشرات الاقسام، فهناك المحاربون والتجار والناس العاديون ... الخ وادنى مستوى اجتماعى هو لطائفة المنبوذين الذين يعتبر حتى الاختلاط بهم مجلبة للنحس والنجاسة . ولكن الملاحظ أن الدائرة الطائفية ليست مغلقة نهائيا ، فيمكن عن طريق الحصول على قوة سياسية أو اقتصادية الصعود فى السلم

الاجتماعى ، وبخاصة بعد أن سيطرت القوة الاستعمارية على الهند لعدة قرون ، واستطاعت بعض الفئات ، عن طريق الفرص الجديدة ، الانتقال من درجة أدنى فى السلم الاجتماعى الى درجة أعلى ، ولكن الصراع الاجتماعى / الطائفى قد اخر كثيرا الصراع الطبقى فى الهند ، فخلال الانتخابات الدورية غير مستغرب أن يستخدم السياسيون الشعارات الطائفية الاجتماعيةلجلب الانصار.

الا انه بسبب الانتشار الجغرافى للطوائف المختلفة من الصعب تكوين التنظيمات السياسية على أساس طائفى / حزبى فقط . كما أن فى الشعب الهندى فوق ذلك تابعين لأكثر الديانات المعروفة فى العالم ولكن الاغلبية هم الهندوس (٨٥ ٪) والمسلمون الذين يشكلون أكبر الاقليات الدينية (١٠ ٪) تقريبا . وقد شكل المسلمون فى الهند عشية الاستقلال قضية سياسية هامة ، ففى بداية القرن ، ونتيجة للثقة المفقودة بين الهندوس والمسلمين ، اتجه المسلمون لحماية أنفسهم بتشكيل (الرابطة الاسلامية) فى بداية الثلاثينات تحت قيادة محمد على جناح ، ثم أصبحت الرابطة الاسلامية بعد ذلك رابطة جماهيرية نتيجة استغلال الخوف المتفشى بين المسلمين حول مستقبلهم ، وفى المقابل لم تكن هناك مؤسسات (دينية) هندوسية قوية (كما هو الحال بالنسبة للتنظيمات الدينية للمسلمين عن طريق العلماء مثلا او الكنيسة الكاثوليكية فى امريكا الجنوبية) كان يمكن أن تعمل ضد التحديث فى الهند . وقد حدث ذلك فى الدولة المسلمة الهندية (باكستان) لاحقا . وقد ساعد اختلاف اللغات والعنصر بشكل عجيب على ربط الشعب الهندى ، فعندما قدم المستعمر لغته (الانجليزية) تغلبت على اللغات المحلية المتعددة ، ولكن هذه اللغة - حتى الان - يجيدها فقط قلة من المتعلمين والعاملين بالادارة .

وبالرغم من هذه الصعوبات، فقد استطاعت الدولة فى الهند ، ان تسير فى طريق التغير السياسى بطريقة ديمقراطية ليبرالية عن طريق حكومة مركزية مستقرة ونافذة ، يمكن لها أن تحقق .

١ - تشكيل الهوية القومية .

٢ - السلطة المركزية الخاضعة عن طريق اجراءات مؤسسية ومجلس تمثيلى .

٣ - ايجاد احزاب جماهيرية ممثلة لقطاعات مختلفة من الشعب بدلا من النبلاء المحليين والاستقراطيين .

٤ - الاقتراع العام .

التنظيم الحزبى والبرلمان :

فى الهند ، هناك على المستوى القومى ، برلمان مكون من مستويين الاول هو (مجلس الشعب Rajya Sabha) وهو الاكثر اهمية، ومنتخب على المستوى العام ، ورئيس الوزراء هو زعيم حزب الاغلبية فى هذا المجلس . اما المجلس الثانى فهو (المجلس الاعلى) (Lok Sabha) ، وهو يشبه مجلس اللوردات البريطانى ، واعضاؤه منتخبون من الحكومات المحلية للولايات . وعلى مستوى الولايات يوجد المجلس التشريعى للولاية وهو الأهم كما ان رئيس مجلس وزراء الولاية يختار من الاغلبية فى هذا المجلس والسلطة فى يد ألوزارة على المستوى المحلى ، وهى أيضا فى يد الوزراء بشكل فعال على المستوي القومى وفيما عدا فترة قصيرة فى حياة الهند السياسية

بين ٦٩ ـ ٧١ ، ثم بعد سقوط انديرا غـاندى الاخير ، كان حزب المؤتمر هو صاحب الاغلبية على المستوى القومى فى مجلس الشعب . وكما هو فى البلاد الديمقراطية فان الكثير من الممثلين الشعبيين لهم حساسية خاصة تجاه مطـالب ناخبيهم ، لان السياسيين فى الغالب ، يحكمون من خلال الخدمات التى يقدمونها لناخبيهم .

البيروقراطية :

تتحكم فى الادارة العامة فى الهند بيروقراطية موحدة على المستوى القومى او المحلى . كذلك هناك (حاكم) لكل ولاية تابع مباشرة « لرئيس الجمهورية » مهمته فى أوقات الأزمات أن يكون (حاكم) الولاية هو ممثل السلطة المركزية فى مواجهة اية اضطرابات محلية .

الجيش والشرطة :

الكثير من الجيش والبوليس فى الهند مهتم بتغيير السلطة ، ولكن القليل منهم يحـاول ان يعمل شيئا باتجاه ذلك ، ولم تحدث فى الهند منذ الاستقلال اية محـاولة انقـلاب . وتقسم القيادات العسكرية فى الهند الى خمسة أقسام اقليمية، وهذا التقسيم قلل من احتمال وجود قوة عسكرية موحدة فى الجيش ضـد الحكومة . اما الشرطة فهى كالشرطة فى معظم أقطار العالم لا تتمتع باحترام شعبى لذلك فان علاقتهم بالشعب علاقة سلبية ، مما يقـلل احتمال الثقة بهم .

الايديولوجية :

(تعتمد القيادة الهندية على ايديولوجية محددة خاصة بها كالايديولوجية الصهيونية فى اسرائيل مثلا . وتتبنى الحـكومة الهنـدية شيئا من الاشتراكية الديمقراطية فى شـكلها الفضفاض وتترك جانبا كبيرا للمشروع الخاص

وفى النهاية يناقش الكتاب سؤالا مهما هو : هل يمكن اعتبار الهند مثالا للديمقراطية الغربية فى العالم الثالث ..؟ الكتاب يجيب على هذا السؤال بنعم ، حتى لو كانت فقيرة ومتخلفة فهى تعتبر مثالا لبلدان العالم الثـالث التى تبنت الديمقراطية الليبرالية كطـريق لحـل مشكلاتها السياسية والاجتماعية ولكن السؤال الذى يبقى مطروحا .. ما هو الثمن الاقتصادى الذى تدفعه الهند لذلك ...؟

لا يحاول الكتاب الاجابة على ذلك رغـم اشارته للسؤال .

تشيلى : الجذرية وسقوط الديمقراطية

يناقش الكتـاب مسـيرة شـيلى ـ التى اخترناها للعرض هنا ـ لانها تمثل « ظاهرة » لا فى العالم الثالث فحسب ، وانما فى العـالم قاطبة حيث تحولت، فى **فترة وجيزة نسبيا وعن طريق الديمقراطية الليبرالية الى دولة تؤمن** بالماركسية وتطبقها . فقد صوت فى سنة ١٩٧٠ اكثر من ٩٠ ٪ من الناخبين فى انتخابات حرة واختاروا « شيوعيا » من الحزب الاشتراكى رئيسا للجمهورية . كما ان شيلى تعتبر نموذجا من وجهة نظر أخرى ، فهى دولة من العالم الثالث تتفشى فيها الاحتكارات الرأسمالية .

وتشيلى ، كغيرها من بلدان العالم الثالث ، « النامية » لها علاقات وطيدة بالامبرياليـة العالمية ـ حيث شعرت الاحتكارات الاقتصادية مثل (شركة التلجراف العالميـة) مع بعـض الوكالات الرسمية الاميركية بخطورة تطـور وضع شيلى وحرمان الاحتكارات من اوضاعها المميزة ، فكان ان عملت على خـلق مصاعب اقتصادية وسياسية نجحت فى اسقاط النظام المنتخب وبشكل دموى وعن طريق العسكر . وبذلك سقطت تجربة كان العالم الثالث يعلق عليها الآمال .

يناقش الكتاب في موضوع تشيلى هـذا السؤال : كيف يمكن لبلد مثل تشيلى له خبرة طويلة فى الديمقراطية الليبرالية ــ ودخل سكانها فى المتوسط اكثر من دخل ٩٠ ٪ من اقطار العالم الثالث ان تتجه الى الطريق « الجذرى للتغير » فى انتخابات ديمقراطية حرة ؟ وكانت النظرة حتى ذلك الوقت انه لا يمكن لشعب حر ومن خلال الانتخابات الحرة أن يتجه بوعى ارادى الى اعتماد الماركسية اللينينية كطريق للخلاص ، على اساس ان تلك الديمقراطية الليبرالية هى نهاية الطريق وفى حدود لعبها يمكن أن يحدث التطوير السياسى المنشود .

ويجيب الكتاب على ذلك السؤال بتحليل للاوضاع الاقتصادية والاجتماعية وتطورها فى العقود الاخيرة . فيعرض الكتاب الى انه بعد الحرب العالمية الثانية بدا ان النظام السياسى الشيلى لا يقدر على مواجهة الطلبات الاجتماعية والاقتصادية المستجدة . وفى خلال الستينات كانت قدرة النظام الشيلى على عدم الوفاء بالطلب الاجتماعى المرتفع ظاهرة ملحوظة ، لدرجة ان كل العناصر القيادية فى تشيلى ، بتعدد مشاربها السياسية ، كانت تطالب بالتغيير .

لذلك فان وصول سلفادور الليندى الى سدة الرئاسة فى سنة ١٩٧٠ هو تعبير عن المعاناة السياسية والاقتصادية ، ولكن هل ترك حتى ينفذ برنامجه الذى وافق عليه الشعب الشيلى ؟ بالطبع لا . فقد استطاعت القوى المضادة ــ عن طريق الاتفاق مع بعض الاجهزة الامريكية والعسكرية الاطاحة بحكم الليندى فى ١١ سبتمبر ١٩٧٣ ، فاطيح بالشرعية السياسية فى أهم تجربة فى العالم الثالث .

اهمية التجربة التشيلية :

يعرض الكتاب الى أن اهميـة التجـربة الشيلية هى الدروس التى يجب أن تستقى منها ، وهى ان وصول الليندى الى السلطة كان نتيجة طبيعية لعدم قدرة الأنظمة التقليدية على الاستجابة للمطالبات « الشرعية » للجماهير ، مما حدا بالشيليين الى المطالبة بالتغيير حتى لو كان الى اقصى اليسار والشيوعية . ثم بدا الكتاب ، فى هذا الموضوع بمناقشة العوامل الاقتصادية والسياسية التى أدت الى ذلك كله .

يشير الكتاب الى ان عدد سكان تشيلى هو عشرة ملايين نسمة ، قسم كبير من هؤلاء السكان يعيشون فى المدن ــ التى تكتظ المهاجرين المتعطلين ــ معتمدين على اقتصاد متخلف وتابع . لقد حظيت شيلى بفترة طويلة من الاستقرار السياسى الليبرالى ــ فاستقلالها عن الاستعمار الامريكى فى أوائل القرن التاسع عشر (١٨١٧) لم يكن من خلال صراع مع الاستعمار من قبل قوى محلية لها مصلحة فى التطوير ، وقد خرج الاستعمار تاركا التركيبة القديمة التى اعتمد عليها ، وهم كبار الاقطاعيين والمضاربين الباحثين عن الفضة أو الذهب واصحاب الاقطاعيات الكبيرة تركهم فى سدة الحكم ، وتحول الاستعمار المباشر الى استعمار غير مباشر (اقتصادى) تتحكم فيه قلة ارستقراطية كانت اصلا متعاونة مع الاستعمار ومن خلال حكم ليبرالى مقنن استمر الاستنزاف الاقتصادى ، وقدرت الاستثمارات الامريكية فى تشيلى فى نهاية الستينات (١٩٦٨) بحوالى بليون دولار .

كما ان اكثر من ثلث ما تستورده تشيلى من الخارج يأتى من الولايات المتحدة الامريكية

وربع البضائع المستوردة يأتى من ثلاث دول غربية هى بريطانيا ــ المانيا ــ وفرنسا .واكثر من ثلاثة أرباع ما تصدره تشيلى يذهب الى الولايات المتحدة وغرب أوروبا . كما تعتمد تشيلى فى تسليحها على الولايات المتحدة ضمن برنامج ضخم من المعونة العسكرية . وكان الطابع الليبرالى الظاهرى فى الاقتصاد والسياسة فى الحقيقة استنزافا لمصادر تشيلى بالرغم من انها تبدو أوروبية الطابع (افكارا وممارسات سياسية)، الا انها كانت مستنزفة تتمتع فيها القلة بكل الامتيازات وتحرم الاغلبية منها .

التحديث الاجتماعى والاقتصادى

تضاعف عدد سكان شيلى فى الستين سنة الاولى من هذا القرن من ٣ ملايين نسمة الى ٧ر٤ مليون نسمة ، ومن المتوقع ان يتضاعف فى نهاية القرن ليصل الى حوالى ١٧ مليون نسمة . اما المدينة الشيلية فان التضخم السكانى كان أكثر وضوحا فيها من الريف ، حيث كان فى سنة ١٩٠٠ نحو ١٢ ٪ من السكان يعيشون فى ثلاث مدن بكل منها ٥٠٫٠٠٠ نسمة واكثر . وقفز فى سنة ١٩٤٠ الى ١٨ ٪ يعيشون فى ست مدن بكل منها ٥٠٫٠٠٠ نسمة او اكثر من السكان ، وفى سنة ١٩٧٠ كان هناك حوالى ٢٥ مدينة فى تشيلى فى الواحدة منها اكثر من ٥٠٫٠٠٠ نسمة ، وسكانها يمثلون حوالى ٥٠ ٪ من مجموع سكان تشيلى .

التطور الاقتصادى

تعد شيلى مع بعض بلدان امريكا اللاتينية كالارجنتين وفنزويلا والارجواى من الدول المتقدمة فى امريكا اللاتينية ــ وامريكا اللاتينية هى اكثر بلدان العالم الثالث تقدما ، وتعتمد شيلى تاريخيا على الزراعة ، ومنذ سنة ١٨٠٠ بدأت تعتمد على صناعة التنجيم ، وهى الآن اكبر قطاع فى الاقتصاد القومى فى البلاد .

وبالرغم من ان العاملين فى الزراعة يشكلون ٢٨ ٪ من النشطين اقتصاديا الا ان هذاالقطاع لا يساهم بأكثر من ١٠ ٪ من الناتج القومى ، ومنذ القرن التاسع عشر لم تهتم الحكومات المتعاقبة فى شيلى بالزراعة . لذلك ساءت الاحوال فى الريف، وبخاصة فى السنوات الاخيرة، واصبحت البطالة فى هذا القطاع تقذف الى المدينة بمجموعات كبيرة من العاطلين بصورة شبه مستمرة ، ولم تعد تشيلى تستطيع تغذية أهلها ، لذلك استخدمت اموال تشيلى فى شراء الطعام من الخارج بينما ارض تشيلى الخصبة غير مستغلة .

وتمركز الارض فى يد القلة جعل منها احتكارا ، ففى أواسط الستينات تبين أن ٧ ٪ من الملاك يملكون اكثر من ٨٠ ٪ من الارض الخصبة ، وان ١٠ ٪ من الملاك يملكون اكثر من ٩٠ ٪ من الارض الصالحة للزراعة، وهذه الارض تملك من أجل المضاربة أو تعزيز الواقع الاجتماعى للملاك ،ولكنها بالتأكيد لا تستخدم فى الانتاج . فمعظم ملاك الارض هم ملاك غائبون لهم مصالح تجارية فى المدينة، لذا فان تركز الارض فى يد قلة كانت له نتيجتان رئيسيتان ، فقد كانت أولا من أسباب نقص المواد الغذائية ، وثانيا فى اعطاء قلة من الملاك قوة سياسية جبارة ضد الكثير من الفلاحين .

والنشاط الاقتصادى الثانى فى تشيلى هو الصناعة المنجمية ، وكما هى الزراعة ، كان لهذه الصناعة نتيجة لتطور طويل ، سلبيات

على المجتمع الشيلى اكثر من ايجابياتهـا فى المجال السياسى والاقتصادى. فمنذ بداية القرن التاسع عشر ــ بدأ البحث عن معدنى الفضة والنحاس ــ وكانت المصدر الاول للعمـلات الصعبة ، ومنذ الحرب العالمية الثانية مثلت الصناعة المنجمية من ٧٥ ــ ٨٠ ٪ من الدخل الحكومى وكونت ٢٥ ٪ من الميزانية الحكومية بعد الحرب الثانية .

ولان المناجم وصناعة التنجيم قد طورت وملكت من قبل رأس المال الاجنبى حيث الارباح تذهب الى بلدان رأس المال ، فان هــذه الصناعة ساعدت بشكل قليل بقية القطاعات الصناعية . واحيانا فان الاموال قد امتصت من القطاعات الاقتصادية الاخرى الى هذا القطاع مما شكل عدم توازن اســاسى فى الاقتصــاد الشيلى ، والى وقت قريب ، فان الضرائب المفروضة على هذا القطاع كانت اسمية .

ونظرا لهذا كله فقد كان الاقتصاد الشيلى فى دائرة الركود فى الغالب والانتعاش القليــل أحيانا .

وبالرغم من عدم وجود ارقام محددة حول توزيع الدخل ، بين كل القوى الاجتمــاعية (عدا المالكين) ، فى العقدين الاخيرين ، فقــد قدر أن ٨٠ ٪ من الشعب يحصلون فقط على ٢٥ ٪ من الدخل القومى فى أواسط الستينات نجد فى أواسط الستينات أن ١٢ ٪ من العمال فقط كانوا منظمين ، سياسيا او نقابيا ، فى الوقت الذى ذكر فيه احصاء سنة ١٩٦٠ أن ٨٠ ٪ من النشطين اقتصاديا يمكن تصنيفهم كعمال .

التركيب الطبقى :

من المتعارف عليه أن هناك ثلاث درجـات طبقية : الطبقة العليا ، الطبقة الوسطى (أو الموظفون) ، الطبقة الدنيا ، وقــد ســيطرت الارستقراطية التشيلية على حياة الدولة فى النشـاطات السياسية وهى القلة القليلة ، بينما

غير أن هذه الصورة قد تغيرت فى العقــد الاخير بشكل جذرى ، حيث وجهت جهــود تنظيمية كبيرة الى قطاع عمال المدن وعمــال الريف من قبل التنظيمات السياسية الوسطى واليسـارية .

الاحزاب السياسية :

فى تشيلى كانت الاحزاب السياسية مؤسسة حقيقية ، ويبدو ان الحكومة الحالية تفكــر فى تكوين حزب حكومى واحد ، وينظر الكتاب فى تطور الاحزاب خاصة نحو احزاب اليسار منذ الاربعينات وخلال الخمسينات والستينات ثم تطور القيادة فى تلك احزاب ، ويعزو ذلك الى ان تطور الاحزاب الى اليسار والقيادات الجذرية هنا هو نتاج الوضع الاقتصادى وعدم المشاركة السياسية الواسعة .

التغيرات الاخيرة فى تشيلى :

يعزو الكتاب التغيــرات الأخـيرة الجذرية (وصول حكومة لها توجه جذرى) الى سدة الحكم ، وعن طريق انتخابات ليبرالية حرة ، الى التراكمات الاقتصادية والاجتماعية التى حدثت فى العقدين الاخيرين (الخمســينات والستينات) والى عــدم اســتطاعة النظام السياسى السـابق حل هذه التراكمات بسبب طبيعته المنغلقة ، كما ان مجموعة من العناصر الأخرى منها القرارات التى اتخذتها قيــادات الاحزاب الوطنية التشيلية للنزول الى الريف ممــا سبب تزايدا فى الاضرابات السياســية

والتوقف عن العمل . ولم يكن هناك متنفس للمجموعات الجديدة فى خلال الحياة السياسية كما أن وجود الحريات العامة والحريات الصحفية فى حملات الانتخابات المتعددة أسرع فى تكون الوعى السياسى لدى عامة الشعب . كل هذا جعل من عدم الرضا عن الوضع القائم حقيقة يلمسها الناس يوميا مما دفعهم الى التغيير .

خلاصة :

من الخطوط العريضة التى بداها الكتاب ، كمجمل نظرى للمشكلات السياسية التى تواجه العالم الثالث واقتراح حلول لها ، يبدو لنا ان الكتاب الذى بين يدينا بجميع مساهميه تقريبا قد نظروا الى هذه المشكلات من منظور غربى ــ اى من خلال التجارب التى مرت بها الامم الغربية ــ لذا جاءت تحليلاتهم وتوقعاتهم مجملة لهذه النظرية دون اعتبار عميق لدرجة أصبح علماء السياسية والاجتماع فى العالم يأخذونها بعين الاعتبار الآن وهى علاقة التبعية الاقتصادية بين العالمين النامى من جهة والمتطور من جهة أخرى، والتى فى حد ذاتها أما أنها أفشلت تجارب سياسية نابعة من خصوصيات بعض بلدان العالم الثالث ، أو ركزت تجارب هشة بتثبيت مصالح العالم المتقدم فى دول ومجموعات تصدير الخامات الاولية تحت شعارات متعددة .

ويعنى فى النهاية ان هذا الكتاب يستحق القراءة ولو من أجل معرفة كيف يفكر الاكاديميون الغربيون تجاه مشكلات العالم الثالث السياسية .

★ ★ ★

العدد التالى من المجلة

العدد الرابع ــ المجلد العاشر

يناير ــ فبراير ــ مارس سنة ١٩٨٠

قسم خاص عن

((آفاق المعرفة))

بالاضافة الى الابواب الثابتــة

الخليج العربي	٥	ريالات	سوريا	٣	ليرات
السعودية	٥	ريالات	القاهرة	٢٥٠	مليماً
البحرين	٤٠٠	فلس	السودان	٢٥٠	مليماً
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	ليبيا	٣٥	قرشاً
اليمن الشمالية	٤,٥	ريال	مسقط	٤٠٠	بايسة
العراق	٣٠٠	فلس	الجزائر	٥	دنانير
لبنان	٢,٥	ليرة	تونس	٥٠٠	مليم
الأردن	٢٥٠	فلساً	المغرب	٥	دراهم

الاشتراكات :

للاشتراك في المجلة يكتب إلى : الشركة العربية للتوزيع - ص.ب ٤٢٢٨ - بيروت

مطبعة حكومة الكويت

الثمن ٢٥٠ فلساً